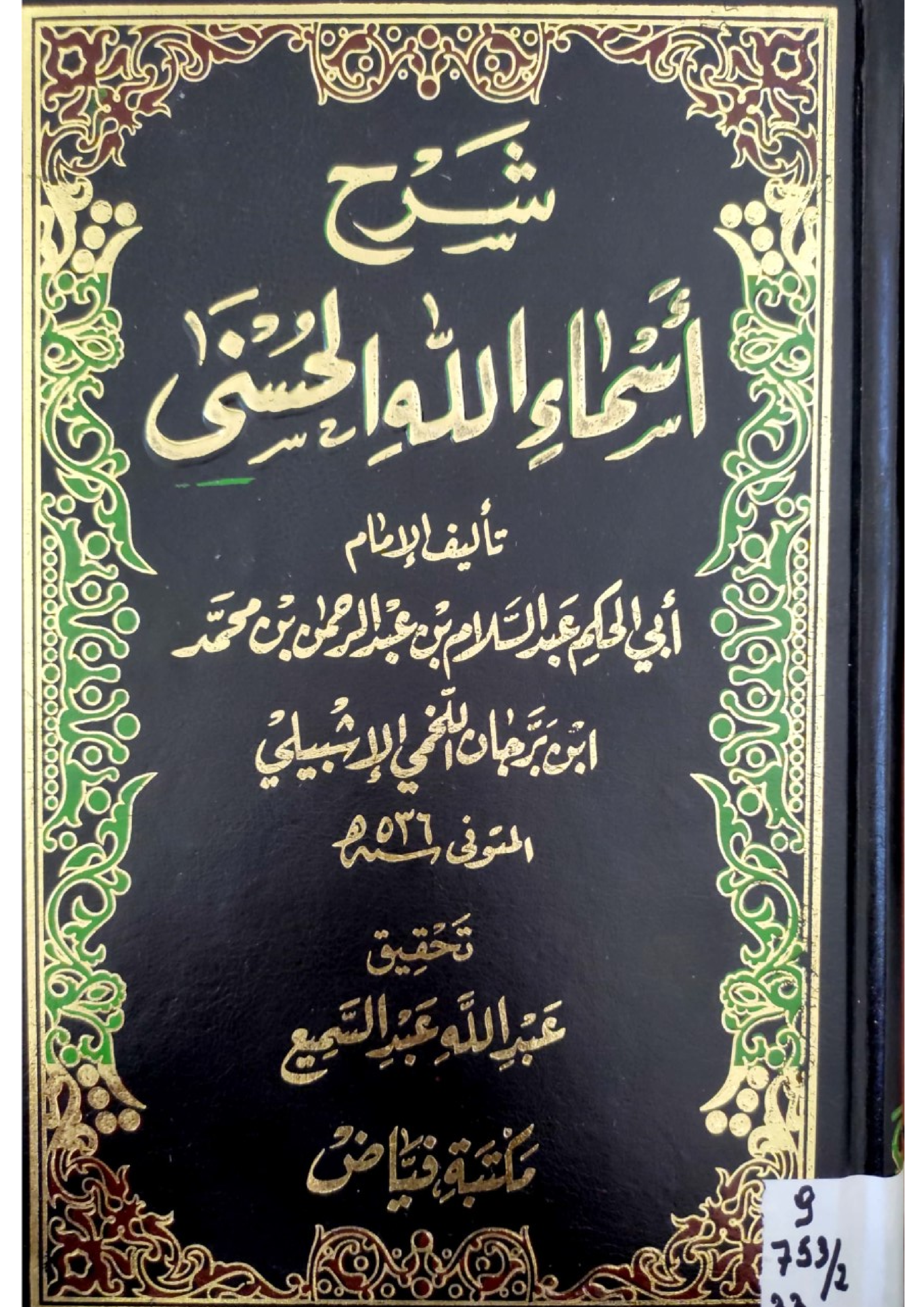


شرح
أسماء الله الحسنى
تأليف الإمام
أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى سنة ٥٣٦ هـ
تحقيق
عبد الله عبد السميع
مكتبة فياض



شرح أسماء الله الحسنى

تأليف الإمام

أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد

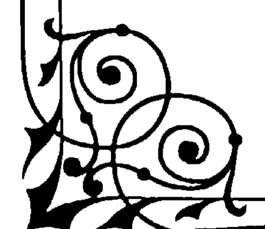
ابن برجان اللخمي الإشبيلي

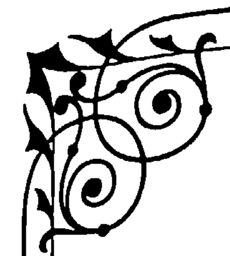
المتوفى سنة ٥٣٦هـ

تحقيق

عبد الله عبد السميع

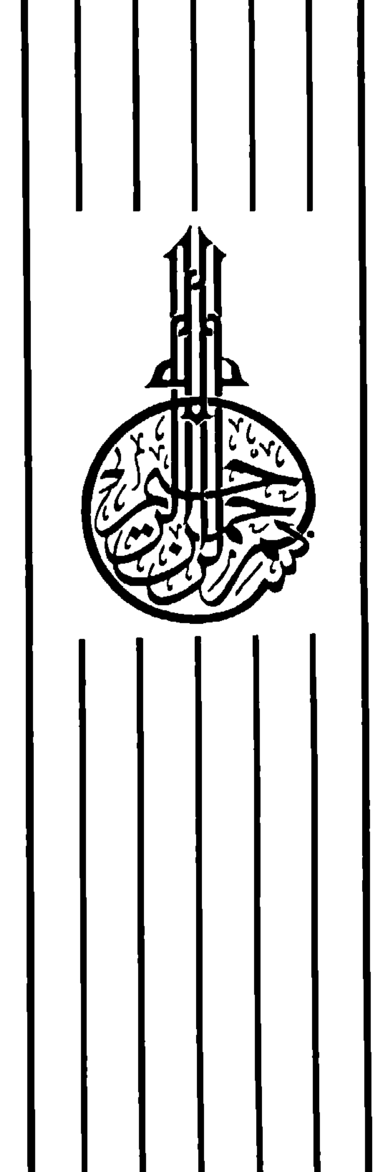
مكتبة فياض






الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ / ٢٠١٧ م



رقم الإيداع : ٢٠١٧/١٦٨١٨

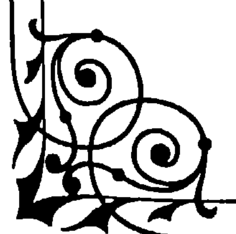
الناشر

مكتبة فياض

المنصورة - عزبة عقل - شارع عبد الهادي

ت : ٠٥٠٢٣٧٥٩٤٣

فاكس : ٠٥٠٢٢٦٧٣٩٨




شرح أسماء الله الحسنى

تأليف الإمام

أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد

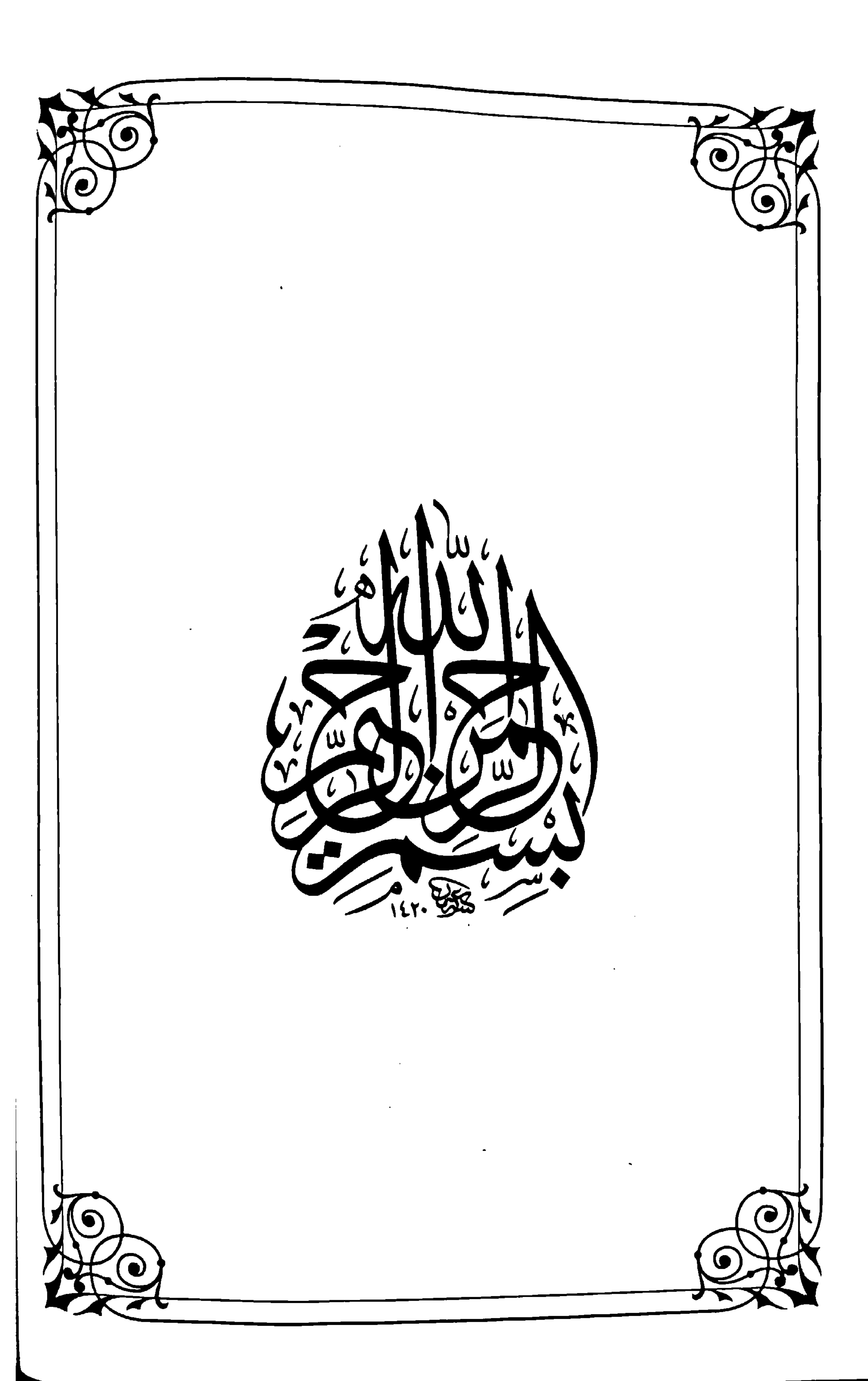
ابن برجان اللخمي الإشبيلي

المتوفى سنة ٥٣٦هـ

تحقيق

عبد الله عبد السميع

الجزء الأول


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ الرحمة المهداة ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

وبعد:

فهذا كتاب «شرح أسماء الله الحسنى» للإمام العارف بالله «ابن برجان اللخمي الإشبيلي» رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته، وجعل هذا الكتاب في ميزان حسناته يوم القيامة .

يسر مكتبة فياض بالمنصورة أن تقدمه لقرائها راجين المولى ﷻ أن ينفع به المسلمين .

وقد قمت بتخريج أحاديث هذا الكتاب وآثاره، وقمت بالحكم عليها معتمدًا على حكم رجال الحديث من السلف أو الشيخ الألباني أو الشيخ شاكر - رحمهم الله .

أدعو الله أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي يوم القيامة .

أبو محمد وطارق

عبد الله عبد السميع المنشاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي باسمه تفتتح المطالب، وبحمده وحسن الثناء عليه تُختتم المآرب، وبتأييده يُستعان على منال الرغائب، وباستصحاب ذكره يُتبرك في جميع المذاهب، الخبير بخفيات الصدور، العليم بمحجوبات الغيوب، له القوة التي لا تُرام، والعزة التي لا تُضام، والجلال الذي لا يسامى، والسلطان الذي لا يُغالب ولا يدانى، لم تتحرك خاطرات الخواطر له إلى بلوغ غاية، ولا هاجس في صحيحات الضمائر، ليس له تصور بداية، ولا توهم نهاية، وهو الأول فلا آخر له، وهو الآخر فلا أول له، وهو الظاهر فيما أظهره، وهو الباطن فيما أبطنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى، والصفات العلا، خلق كل شيء بالحق، علوًا وسفلًا، آخرة وأُولى، وبالحق أتقنه، وله أرصده، ذلك بأن الله هو الحق المبين .

والحمد لله الذي نهج لنا سبيل معرفته بما كشف لنا عن حقيقة عجزنا عن بلوغ كنهه، وإن أحاطه بحقيقته، فأكمل خليقته به معرفة أعلمهم بأن لا نهاية لمعرفته، ولا غاية لمدى كنهه، وله الحمد، رفع لنا عَلَم الهداية إلى علا وجوده بما أشهدناه من آثار صنعه، وبدائع فطرته، ثم أنار لنا الدليل على الإلهية بما أرانا من وله القلوب نه على صبابتها بذكره، فجميعها مصوبة سهام عقولها إلى غرض مراده، فمنها الصادف عن سنن دليله، والصائب سواء سبيله، جمعها في الإرادة والمحبة، باين بينها في الهداية والمنحة، ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف:١٨٦]، وبما نزهه علو جده، ويسوق عظمته من ألا معقب لحكمه، ولا راد لأمره على عظيم سلطانه، واتساع ملكه، وإحاطة ملكه بملكوته، هو الديَّان فلا يدان، والملك الحق فلا تضرب له الأمثال ـ له المثل الأعلى ـ له الأمر النافذ، فلا يبدل القول لديه، والحجة البالغة فلا تتوجه الحجج عليه، وعلى ربوبيته تتعبد جميع الخلائق له، واستسلامهم إليه، وافتقارهم في الأمر كله إلى ما لديه، وعلى قدرته بإبداعه المبدعات، واختراعه جميع المكونات، وعلى علمه وحكمته بلطيف الصنعة، وإتقان الجملة، وتدبيره الأمر وأزمة الكل، وعلى إرادته ومشيئته بالرفع والخفض، والتقديم والتأخير، والإعطاء والمنع، وعلى وحدانيته بعدم القرين، وانقطاع النظير ؛ لعجز الكل غن مقاومته، وتأخرهم عن مكافأته، وجعل ذلك كله دليلًا على حياته وبقائه وديمومته، لم يزل حيًّا قائمًا صمدًا ولا يزال حيًّا دائمًا أبدًا،

سبحانه وتعالى عمَّا يقول الملحدون رجمًا بالغيب، إن يقولون إلا كذبًا ما لهم به من علم ولا لآبائهم سنكتب شهادتهم ويسألون، ويجزون بما كانوا يفترون .

وصلَّى الله على نبي الهدى والرحمة خاتم النبيين ورسول رب العالمين بالبينات والهدى إلينا وإلى الناس أجمعين وعلى جميع النبيين والمرسلين والملائكة أجمعين، وسلم أفضل صلاة وتسليم .

أمَّا بعد ....

أيها الولي الحبيب، والأخ المصافي القريب، فإنك سألتني ـ كتب الله لنا ولك رضوانه ـ وأوسعنا وإياك رحمته وغفرانه ـ أن أشرح لك معاني قول رسول الله ﷺ المشهور في حديثه المأثور: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» (١) .

وهل هذه المذكورة معينة معروفة أم لا ؟ فإن كانت معينة فهل الواجب الاقتصار عليها دون غيرها من الأسماء ؟ وإن كانت معلومة فأي الأسماء هي ؟ وإن لم تكن معينة فهل يجوز لنا أن نستخرجها من كتاب الله جَلَّ ذكرهُ، وحديث رسوله ﷺ ؟

إذ قد وقع الاتفاق من السلف رضي الله عنهم أجمعين على أنه لا يجوز لعباده أن يسموه إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ، أو أجمع عليه المسلمون، وذكرت مع ذلك أن الذين عَنوا باستخراج الأسماء من القرآن والحديث وجدوا أكثر من هذا العدد، وإن الروايات التي جاءت بتعدادها احتوت باختلافها ـ بتبديل اسم مكان اسم ـ على أكثر من تسعة وتسعين وقد أتت من طرق شتى، وكلها حق، وأسماء الله تعالى، فنحن إن اقتصرنا على عدد هو تسعة وتسعون منها أضعنا غيرها، مع أننا لا نقف على ما عناه رسول الله ﷺ منها، وإن تتبعنا ما جاءت به الروايات والآثار منها زادت على العدد، فما وجه الصواب في ذلك مع ما ذكرناه ؟ وما المعتقد الحق منه ؟ فوقع سؤالك مني ـ وفقك الله ورضي عنَّا وعنك ـ موقع الوجدان من الإضلال، والماء البارد من العطشان، فاستخرت الله جل جلاله في جوابك، واستعنته على أداء واجب ما قلدتنيه من سؤالك، فجمعت من ذلك ما زاد على المائة وثلاثين كلها مشهورة مروية، وتركت كثيرًا من المشهور المعلوم، أما الزيادة مني في ذلك على العدد، فطمعًا في أن أوافق ما

---

(١) رواه البخاري في «الشروط» (٢٧٣٦)، وفي «الدعوات» (٦٤١٠)، ومسلم في «الذكر والدعاء» (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ .

عناه رسول الله ﷺ في قوله: «من أحصاها دخل الجنة»[١].

فينالني وإياك ـ إن شاء الله ـ هذا الوعد الكريم، وأما تَركي للمشهور المعلوم منها؛ فإيثارًا للاختصار، وتركًا للإطالة؛ إذ التطريق للاعتبار على ما تركناه قد يحصل بحمد الله بما شرحناه، وإنما هو للإشارة والإيماء، وبها يكتفي الألباء، ومن قعد به جَدُّه لم ينهض به جِدُّه، ثم فصلت الكلام في كل اسم إلا اليسير منها ثلاثة فصول:

الفصل الأول: استخراجها بالاستقراء والاعتبار من لغات العرب.

الفصل الثاني: التطرق إلى معرفة مسالكها في العلم، واستقراء مسالكها في الخليقة.

الفصل الثالث: بالإرشاد إلى التعبد بمعانيها، وإعمال النفوس بمقتضاها، ابتغاء مرضاة الله ﷻ بذلك.

ثم الإحصاء للأسماء السبعة، والله أعلم بما وراء ذلك:

إحداها: استخراج معانيها من اللغة.

الثاني: معرفة خواص بعضها من بعض وتمييز مفهومها.

الثالث: معرفة رجوعها إلى الصفات العلا وهي: الإلهية، والوحدة، والحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والملك فينضاف إلى كل صفة منها ما يوافق معناها من الأسماء؛ كالوحدة ينضاف إليها ما كان في معنى عدم القرين، وانقطاع النظير والشبه والمثل ونحو هذا، كالواحد، والأحد، والفرد، والصمد، والوتر، وما كان في معنى ذلك، وينضاف إلى الحياة ما كان في معناها، كالحي، والباقي، والدائم، ثم يتسع معناها ويشيع في أكثر الوجود؛ لأن الحياة بها ثبات الأسماء، كذلك العلم ينضاف إليه ما كان في معناه، كالعليم، والخبير، والسميع، والبصير، والشهيد، والمبين، ونحو ذلك من معناه في غير المختصة به، كذلك القدرة ينضاف إليها من الأسماء ما كان في معنى الفعل، وإخراج الموجودات من العدم إلى الوجود؛ كالقدير، والقوي، والخالق، والرازق، والقيوم، والمبدع، والفاطر، والمنشئ، ونحو هذا مع ما يشيع من معناها في غير المختص به، وكذلك الإرادة ينضاف إليها ما كان في معنى المشيئة؛ كالباسط، والقابض، والرافع، والخافض، والمعز، والمذل، والمغني، والمفقر، والمحيي، والمميت،

---

(١) هو الحديث السابق.

والمرسل، والمفضل، والمحسن، وينبسط معناها على ما ينضاف إلى القدرة والعلم، وحيثما اتصلت وانفصلت، وينبسط أيضًا معاني القدرة والعلم عليها كذلك، غير أن معاني أسماء القدرة معلومة من معاني أسماء الإرادة بأيسر نظر، وبالجملة فإن معاني أسماء الإرادة تنبسط على ما كان من الأسماء بمعنى التدبير كله، والاختصاص بالرحمة والفضل، والعقاب والعذاب، والولاية والبراءة، وتصريف الفعل في المفعولات وبدايتها ونهاياتها .

وكذلك الملك ينضاف إليه ما كان في معناه، كالملك، والجبار، والحكم، والعدل، والمقسط، والمرسل، والباعث، والمنذر، وينضاف إلى الإلهية ما كان في معناها، والإلهية جماع الأسماء كلها، فمنها ما يتبين اختصاصه، ومنها ما يخفى، فتدبر هذا ـ وفقك الله ـ بفهمك، وقف عليه بعقلك، واستعن بالله يعنك، ويؤتك فرقانًا تفرق به بين الأشباه والأمثال حتى تتحقق حقيقة الحق بإذن ربك، فإن هذا أكثره ليس من علم الصحف بل هو من علم القلوب ، وحظ كل امرئ منه بعد توفيق الله ﷿ وحسن عونه بقدر عنايته، وطول مثابرته، وحينئذٍ ترى اختصاص المختص منها بما اختص به، وكيف قام القائم منها عدلًا بين المعنيين، وكيف قرب غيره إلى إحدى الجهتين، وقرب غيره أكثر من قربه، وتصادقت وتعاضدت، وكيف اتصلت وانفصلت، وظهرت وبطنت في الوجود بين العلم والوحي، فسبحان من ليس له شبيه ولا نظير، المسمى من الأسماء بكل حسن جميل .

ثم يلي هذا من الإحصاء الرابع منها وهو: استقراء معانيها في العالم، وآثارها في مصانع الله جَلَّ ذِكْرُهُ، ومعرفة ما يختص به كل اسم من صاحبه، وما ينبسط عليه منها مع غيره، ويتسع ذلك جد الاتساع الصنعة وعلو شأن الأسماء، وينخرق النظر فيه انخراقًا عظيمًا لانبساط الملك، وعظم الملكوت، والمهارة في ذلك من قبيل العطايا والمواهب والإلهام للصواب بتوفيق الله جل ذكره، قال الله عز من قائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥] .

وقال ﵇: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٣]، والصراط السوي، والذي فطر الله السماوات والأرض عليه وهو صراط الإسلام .

ثم الإحصاء الخامس وهو: معرفة التعبد بمقتضى كل اسم منها ومعناه معرفة موقعها من العبادات والطاعات على سبيل الأمر والنهي .

ثم الإحصاء السادس وهو: أخذ النفس بالعمل بما يتبين لها من ذلك، وحملها على طريق الأدب في موافقة ربها ﷻ دون خروج عن حكم الأمر والنهي، أو عدول عن سنة إلى بدعة، بل يجعل ذلك كله حيث جعله الله ﷻ في كتابه وسنة رسول الله ﷺ، ليعمل على بصيرة من أمره، ويكون في ذلك على بينة من ربه، وتلك درجات المقربين من وهبها، وسيأتي إن شاء الله تعالى في كتابنا هذا بإشارات تومئ إلى ما ذكرناه، ولمحات تدل الطالب على ما وراء ما قدمناه، فعليك بالطهارة والتفرغ ثم التفكر والإدمان على ذلك، ومن الله الهداية وحسن العون، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومفاتيح التوفيق والدعاء، فادعوا الله مخلصين له الدين .

ثم الإحصاء السابع: أوله ضروري وأعلاه لا غاية له ينتهي إليها، هو الجامع للعلم المشتمل على ضروب المعرفة ومنبعثه الأعلى، ومنبثقه الأسنى من معنى اسمه الفاطر العليم الحكيم، جل جلاله وتعالى شأنه، وهو باب لما تقدم من الإحصاء، وهو ما فطر الله ﷻ عليه العباد من معرفته، وما عبر عنه قوله الحق: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٣]، وقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، وعليه هو ما عبرت عنه الرسل بقولهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ﴾ [إبراهيم:١٠]، وعلى القول بالتحقيق إنما يبحث عن معرفة المطلوب بنعوته وأسمائه وأفعاله وآثاره من أجل النكير له، واختلاج الشك، وضعف العمل به، وإنما يتعلم ما يراد العلم به بالعلامات، ويستدل عليه بالدلالات حين الجهل به، فإذا علم المطلوب وعُرف المقصود بالتعرف فوقوع العلم به يكون بأول ذكره، بل لا يحتاج في معرفته استعراض أسماء ولا صفات ولا نعوت، بل بأول وهلة بعلم جزم وعرف فضل دون تذكر ولا تفكر، قال الله ﷻ في مثل هذه المعرفة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، وهذا تعرض لأصحاب العلية في المقامات، فيعرض للخائفين خوف عَليّ رفيع، ينبعث عن محبة، وكذلك يعرض في مقام هذه المعرفة لأهل المحبة إذا صعد بأحدهم إلى أعلى مقامات المحبة انبثق لهم حب على أصله عن مقام الخلة، وهو مقام محبوب على معناه،

عزيز وجوده، يقع العلم لصاحبه بأن ربه جل جلاله محبه، ومن هذا المقام قال بعضهم:

فمنك بدا حبٌّ بعز تمازجا — بماء وصال كنت أنت وصلته

ظهرت لمن أبقيت بعد فنائه — فكان بلا كون لأنك كنته

هذا كما يقول سبحانه وله الحمد: «**إني لأطلع على قلب عبدٍ فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها**»[1] العبد عبد، والرب هو الرب الحق لا محالة، وقد جهل قوم تأويل هذا حتى وقعوا في العظيمة، إنما المعنى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤]، «**إن الله خلق آدم على صورته**»[2] .

أسماء وصفات ليست على معاني الذات، فالعبْد موصوف بأسماء العبودية من ذل، وخضوع، وفاقة ومسكنة وخشوع وخضوع وفقر ... إلى غير ذلك من سمات العبودية، ومعارف المحدثين والمربوبين، كذلك أيضًا هو موصوف بكبر، وعجب، وغلظة، وفخر، واستعلاء، وتعاظم، وغنى ... إلى غير ذلك من أسماء الربوبية وصفات الألوهية، فإذا تولى الله جل ذكره العبد وقاه شر نفسه، ومن شر نفسه استعمال صفات الألوهية وأسماء الربوبية، وهو العبد القن، فتوليه إياه هو أن ينسخ عنه تعاظمه واستعلاءه، ونحو هذا، ويوجه بها إليه، فيجعل ذلك منه على أعداء الله، ثم يوجه صفاته التي هي سمات العبودية فيحققها فيه، ويستعمله بها بين يديه، فإذا هو جل جلاله قد حاز العلا كله الذي كان في العبد من أثر الخلقة وصفات الحق جل جلاله، واستعمله بشاكلة العبودية فكان هو، أي: أنه كان العظيم الحق، العلي الكبير، والغني الحق، ولم يبق من ذلك في هذا المتولي إلا ما كان حريًا لله تعالى جل جلاله ثم يرزقه الوفاق في جنبتي الوصفين، فكان عبدًا حقًا، والله جل ذكره وهو الرب هو الحق ويحق الحق، فكان بذلك سمعه وبصره وروحه ويده وجوارحه الظاهرة والباطنة، أي: خلقًا وأمرًا وولاية، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢] .

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الرقاق» (٦٥٠٢)، وابن حبان (٣٤٨ ـ إحسان)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤، ٥) من حديث أبي هريرة ﷺ بمعناه .

(٢) رواه البخاري في «الاستئذان» (٦٢٢٧)، ومسلم في «الجنة» (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ .

فهذا الذي تقدم ذكره هو أولى بالتأويل إن شاء الله، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكذلك ما نحن بسبيل من مقام المعرفة، وهو مقام عَلي الدرجات، رفيع المكانة، وله شروط، وهي إذا لم يحجبه حظ من عقل، ولا رغبة فيما اطلع عليه من فوائد الملك ولا وقف بحب من سر قلبه على ما رآه في سره من عجائب الملكوت، ولا سكن إلى ما رفع إليه من علي المرتبة التي شاهدها، فحينئذٍ يشرف به على المقامات، ويطلع على سني المراتب، ويكشف له الفضائل؛ فيعدم الطلب ويفنى الطالب، ويتبقى المطلوب الأعلى الباقي الدائم، فيفتح له بعد هذا باب من المعرفة عزيز لم يعلق له قط بوهم، ولا خطر له ببال، وعلى قدر صدقه في سيره وطهارة غيبه، وجهره يطلع له على علم الهداية، ويظهر له التعلق بالاسم المحجوب، وربما أعطى فوائد كن المتصلة بـ«كان» عوضًا من الـ«كن» المتصلة بـ«يكون» المعهودة في دار الدنيا، فيومئذٍ يتحقق له قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، قال عز من قائل: ﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]، فهم يرجعون إلى الحي الباقي الدائم، فلذلك يكونون عند الرجوع إليه في بقاء متوال دائم، ويبين له قوله جل من قائل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧]، قال الله عز من قائل في هذه المعرفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ﴾ [يونس:٩]، وهم بإيمانهم وتوحيد من حل هذا المقام يومئذٍ توحيد مفرد في قلب مجرد، وهي معرفة لازمة، وصديقية قائمة، قال الله جل من قائل: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١٨]، فأخبرك ﷻ أن الأعمال الصالحات تضاعف للعاملين، ثم قال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد:١٩] وكثير دور هذا في القرآن لمن تأمله.

وكذلك لأهل التوحيد مقام عَلِيّ تحله من أحكم هذه المقامات الثلاثة: التوحيد، أعني: التوحيد المفرد، لا يرى شيئًا في ذلك المقام سوى الواحد الأحد في جلال وحدته، لا يرى نفسه ولا سواه، وهذا يسمونه الفناء في التوحيد، وما تقدمه من المقامات فناء أيضًا، أي: أنه فني عن كل شيء سوى مطلوبه.

واعلم ـ علمنا الله وإياك من علمه، وأفضل عليك وعلينا من فضله ـ أن علم الأسماء الحسنى، وإن كانت المعرفة ينقطع دونه والوهم يحار فيه فالمطنب فيه من أجل ذلك مقصر، والمطول فيه متأخر لبعد غوره وعلو شأنه ؛ إذ هو يربي على الوصف، ويحوز نهاية النعت ؛ فإنه على ذلك يمت إلى المؤمن برحم ما بينه ونسب دان لأجل معرفة متقدمة وأنساب متصلة لحق واجب بمستقر ومستودع لوجود لازم، وإلى هذا فإنه يذهب الشك ويجلو الريب، ولعلو قدره وسنى خطره، يصيب المقصد، ويقرب البعيد، ويظهر الخفي، ويبين المستتر، ويخلص المشكل، ويثير الكامن، وبه تكون صحة الإيمان وثبات اليقين ورفيع العلم، فاتخذه ـ وفقك الله ـ راحة عقلك، ومقبض فكرك، ومربع عينك، وموضع أنسك، وينبوع سرورك، فهو يفضي بك ـ إن شاء الله ـ إلى الحياة العظمى، والاختصاص الأكبر، وبه تبصر جملة أحكام الله ﷻ ومواقعها، وتبلغ علم التوحيد، وبه تدرك معرفة حكمة الله تبارك وتعالى الموسوعة لتدبير ملكوته، واتساقها في الأسباب الجارية على سبيل سنته المتممة لكلماته، وبه يدرك أحكام البسط والقبض، والرفع والخفض، ويبين لك قيامه جل جلاله بالقسط، وبه ترى عدله موافقًا لحكمته، وبه تفهم عنه كتابه، واتصاله بحكمته في مجاري صنعه، وترى به كيف ليرجع أواخرها على أوائلها، وأقبل بأوائلها إلى أواخرها، وكيف أدرج المتضادات بعضها في بعض، وكيف أولج بعضها في بعض، وكيف قارب بين المتباعدات، وباعد بين المتقاربات، وبه تفقه مبعث ذلك كله، وتقف على التفرقة بين الفطرة والطبيعة بمعرفة منبعث كل واحد منهما، وبه يفقه العارفون عن الموجودات شهادتها، ويرون عبادتها لربها وقنوتها لخالقها، ويرون شرائع الإسلام مسطورة في العالم، مشوبة بأمشاج الخليقة، أوامرها ونواهيها، مغروزة في فطرة القيمة فيتناطق في حنك الصدق ظاهرًا في العلم، وباطنًا في الوجود، وتتصل في معرفتك الشِرْعَة بالفطرة، والجبلة بالسنة، والله نسأله لنا ولك تمام النعمة وإكمال المنة .

قال الله ﷻ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨]، وفي أخرى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال عز من قائل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] .

اختلف علماء المسلمين ﷺ في الاسم هل هو المسمى أو غير المسمى ؟ وكثر الداخلون في الكلام بذلك، وعظم الخوض لكثرة الاختلاف، وخالف الخَلَف في ذلك السَلَف، ونسي المبدأ بطول الأمد، وضلَّ بذلك الأكثرون عن المقصد، وترك المنهج جانبًا، وعدل القول في ذلك، والله أعلم أن هذا الاختلاف فيه ـ أعني الاسم ـ وما يقع عليه ويفهم منه يوجد واقعًا على معانٍ:

أحدها: أن يكون الاسم لقبًا ؛ كثمامة في الناس، وحنظلة، وشجرة، وحبل، وعصفور، وكلب، وجميع ما سمي بأسماء الحيوان، والثياب والحجارة، والنجوم، وغير ذلك مما ليس هذا المسمى به .

والآخر: أن يكون الاسم تفاؤلًا، كخير، ونجاح، وفتح، وفرج، ويحيى ويعيش وخلف، ونحو هذا فهذه تسميات وألقاب سميت بها هذه المسميات للتمييز بينها وبين أغيارها وأشكالها من حيث هي أقوال وحروف وكلام تكلم به للتفاهم والدلالة والتعريف، وفي هذا المعنى قال ﷻ ذكره: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]، أي: ألقاب لقبتموها لا يرجع من مفهومها إلى حقيقة وكذلك قال عز من قائل: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ [الرعد:٣٣]، فطالبهم بأن يسموا معبوداتهم بأسماء توجد حقائقها في ذواتهم، كأسمائه جل وعز، ثم تلك الأسماء الواقعة على غير حقيقة المسمى من حيث إن المراد بها من المخاطب المتكلم والمنادى بها الذوات، وهي المفهوم عند المخاطب، فهي المسمى لا من حيث هي ألقاب، وأسماء هي كلام من حروف مقطعة، بل المعنى فيها، والمعنى منها، فافهم .

والثالث: أن يكون الاسم صفة، والعبارة عن الصفة وصف، والوصف خبر، والخبر يدخله الصدق والكذب، فإذا كان الاسم صادقًا، كمحمد وأسمائه: أحمد والعاقب والحاشر والمقفي، وكذلك يحيى بن زكريا عليهم السلام قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧]، كذلك يحيى ؑ فلم يمت بكفر ولا معصية، فهذه وأشباهها أسماء حق من حيث إن دلت على مسمياتها تمييزًا لها من أشكالها وأغيارها، ووصفًا لها على ما هي عليه من حقيقة ومعنى .

وأسماء الله تبارك وتعالى منها أسماء فعل، كخالق، ورازق، ومحيي، ومميت، وباعث، ووارث، وأليم الأخذ، وسريع الحساب، وكذلك كل ما دلَّ من الأسماء على ذات وفعل.

ومنها: أسماء تدل على ذات وصفة، كحي، ودائم، ورحيم، وكريم، وبر، وحليم، وقدير، وقاهر، وما أشبه هذا من الأسماء التي تدل على ذات، فصفة ذات منها أسماء تدل على معنى سواه ليس المفهوم والمراد بالإخبار عنه بها سواه؛ كموجود وقائم وشيء ومذكور ومعبود، وكل ذلك يدل على النهاية القصوى، والكمال الأرفع فيما ذكرته، فقولك شيء دلَّ على ذات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وكذلك موجود وقديم ومذكور.

ومنها: أسماء تدل على حروف مركبة أو مفردة هي كنايات لذوات المتكلمين، وإشارات من ضمائر المخاطبين منها قولك: هو، وذلك أظهرها اسم مركب مفرد مركب من حرفين هما أول حروف في الباطن وله بها تشير بواطن المخاطبين بعضها إلى بعض إلى معاهدها ومعارفها.

ومنها: أسماء هي باطنة يعبر بها في أثناء التخاطب عن المراد به، كالألف، والباء، والياء، والواو، والنون، والتاء، والكاف، والثاء من سر محجوب مكنون وهو على ذلك لا يستطيع أحد أن يجهله، ولا يقدر أن يعمله، وهو المعلوم في أصل الفطرة، المعهود في سنح الفطرة الموجود في أصل الجبل، كما قال بعضهم: إن بين الألف واللام سرًّا من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة، به تتخاطب الذوات، وتتفاهم العقول، وتتراطن أنواع البهائم والحيوان، وهو الذي تشهده به الشواهد عنده، وهو قابلها ومعدلها، وهو الحق المتصل في غيابات الغيب بالحق المبين، عنه انصدعت أنوار المعرفة فيما يقدم وإليه تنتهي، وبه وعنه يعبر إلى نور الأنوار، وعليه تدل جميع الأسماء الظواهر والبواطن، وإياه تصف الصفات، وهو المسبح بها والمسمى.

فإذا أوصل الذكر بنور الإيمان إلى ذلك النور المبين اتحدت الأسماء كلها فكانت المسمى، والاستغناء عند ذلك الفهم عن العبارات بالأسماء، والمؤلفات بالحروف الموضوعة للإفهام، وإلى هذا المعنى الإشارة بقول الحق: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:١-٣]، إلى آخر ما يعبر به بأنواع التذكير، وكذلك في

قوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨]، وقد أفاض من نوره على التسميات المؤلفة من الحروف، فمتى صحب الإيمان بالعلم والفهم عند ذكر كل اسم دلَّ على صفة أو فعل إذا اعتبرت الأسماء على ما هي عليه من الإعلام بالذات، فالاسم المسمى أيضًا لما كانت هذه الحروف المؤلفة موضوعات للإفهام بما دلت، وكانت الدلالة عليها، والمقصود بها من المخاطبين على تقدير التقريب.

وعلى القول بالتحقيق فهو جل جلاله لم يزل كذلك في الأزل لا إلى أول ولا إلى آخر، وهذا النوع من الأسماء، أعني أسماء صفات الذات والأفعال هو المراد به بقوله جل جلاله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]، وعلى هذا الترتيب جاء التسبيح في الصلاة وقوله في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى، قال رسول الله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(١)]، وقال ﷻ: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق:١٩].

فالظواهر من الأسماء شارحة للاسم الذي هو الله جل ذكره، والاسم الذي هو الله تعرف بالاسم الذي هو، والاسم الذي هو، هو باطن الظواهر، وظاهر البواطن من الأسماء، والسر في اللام ومعتمدة الهاء، وبالاسم الذي هو به يشار إلى كل المقصود بالذكر، وهو يشد الأفهام إليه، ويفهمها عنه، ويحصرها به عن سواه إليه من الظواهر والبواطن، والهاء في الاسم تدل بل تشير إلى الاسم المحجوب، ولا تعبر عما سوى هذا عبارة، ولا يبلغه الفهم، ولا يتوهمه الوهم، والله العليم الحكيم.

فهذه الجملة بعون الله تبلغك ـ إن شاء الله ـ إلى أن تقول: «بسم الله» فيكون الاسم تسمية على ما تقدم من وسمت اسم، وكونه اسمًا هو من سما يسمو؛ لأنه معنى لمعنى به يعلو بالعلم من الجهل إلى العلم به، فيقول القائل: «بسم الله» معناه: أبدأ بذكر علو الله، أو يعلو الله أبدًا، على معنى قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]، وبالله أستعين، أو بالله أمرك، على معنى قوله جل ذكره: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى:١]، كما يقول: تبارك الله، وسبحان الله، والعلاء سبحة تنزه المسبح بها عن نقائص البشر وآفات الحديث، وبخاصة فإنها

---

(١) رواه مسلم في «الصلاة» (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تنزه عن الشبه والمثل والعديل والنظير ونحو هذا، وتباعد عنه القهر والغلبة، وتعم بذلك نفي جميع النقائص والآفات.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٢، ٤٣]، فتنزه العلي الأعلى الحق بعلاه عن كذبهم وافترائهم، كذلك قال عز من قائل: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٩١، ٩٢]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، إلى آخر السورة، كذلك قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٤٠].

ثم نزَّه نفسه جل جلاله بعلوه عن وجود مثل يماثله، وشريك يقارنه، يفعل كفعله، أو يضرب بنصيب في ملكه بقوله الحق: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، كذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، ثم تنزه العلي الحق عن فعل العبث، وعن أن يلحقه عجز عن إعادتهم وإرجاعهم إليه بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦]، كذلك قوله في سورة «طه» لما ذكر قصة فرعون وعتوه وادعاءه الربوبية من دونه بقول: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:٧١] ثم ذكر إهلاكه إياه، وفعل بني إسرائيل في ثبوتهم، واتخاذهم العجل إلهًا من دونه، ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]، ثم ذكر الحشر وفظاعته والموقف وهول مطلعه، وعقاب المجرمين، وثواب المحسنين فيه، وإنهم لا يخافون منه ظلمًا في حكمه، ولا هضمًا من الحق الواجب لهم عنده ثم أعقب ذلك كله بقوله الحق: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه:١١٤].

فعلى هذا النحو يأتي سبحة العلو على الأغلب في القرآن والحديث، فمنه الظاهر يبدو بأيسر نظر، ومنه الخفي يحتاج إلى تدقيق التفكير والتدبر، ولما كانت هذه الكلمة ـ أعني قوله: بسم الله ـ معناها العلو يعم جميع السبحات، وكانت سبحاته ـ جل ذكره ـ

لا تحصى، ومدائحه لا تتناهى، قرنه باسمه العظيم الذي جميع الأسماء دالة عليه ومشيرة إليه .

ثم أمرنا أن نتبرك بها عند بداية أمورنا، ونلوذ بعصمتها عند الشروع في جميع أعمالنا، وحكم على تاركها بالفسق، وعلى ما ترك ذكرها عليه بالتحريم بقوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقال رسول الله ﷺ: «كل أمر لم يذكر اسم الله عليه فهو أجذم»[1]، وفيما يجده المستقرئ من ذلك في القرآن والحديث لنا غنية عن الإسهاب والتطويل .

فكلمة «بسم الله» بجميع السبحات والمدائح، وعامة لذكر الأسماء الحسنى والصفات العليا، جمعها لنا ـ وله الحمد ـ تيسيرًا منه، ورحمةً بنا لتتوصل إلى ذكره في كلمة واحدة بجميع الأسماء، وحمده بجميع المحامد، والثناء بأيسر مؤنة وأخف عمل، كفعله في أم القرآن من جمعه فيها جميع ما تضمنه القرآن كله، وعلى ذلك أجرى حكمته في تيسير هذه العظائم في مواضع الحاجة إليها، والله رؤوف رحيم .

اسمه الله جل ذكره

كثر الاختلاف في هذا الاسم هل هو مشتق أم لا ؟ فمنهم من قال: ليس بمشتق، وصدق ليست أسماء الله مشتقة من سواها، إنما سواها مشتق منها، بل يستدل على معرفتها بما في سواها مما يقارب معانيها في موجودات هي أسماء مقتضية لمعانٍ تفهم من حروف ركبت تسمياتها منها، فأما من قال: إن هذا الاسم مشتق فيذهب إلى أن هذا الاسم الكريم هو من الوله، أي: الفزع، وهو الوله، والوله مقول على معنيين يرجعان إلى معنى واحد أحدهما: الفزع المتقدم ذكره، والآخر: الحب والطرب اللذان يكونان عنه، ويحتجون على ذلك بقول القائل:

ولهت نفسي الطروب إليهم ... ولها حال دون طعم الطعام

وأنشدوا في الوله الذي هو الفزع قول القائل:

ولهت إليكم في بلايا تنوبني ... فلقيتكم فيها كرامًا محتدًا

وقال بعضهم: أول المعرفة التحير، ثم الاتصال، ثم الافتقار، ومن هذا المعنى قال

---

(١) رواه أبو داود في «الأدب» (٤٨٤٠)، والنسائي في «الكبرى» في عمل اليوم والليلة (١٠٢٥٥)، وابن ماجه في «النكاح» (١٨٩٤)، وأحمد (٢/٣٥٩)، وابن حبان (١، ٢ ـ إحسان) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الشيخ شاكر على المسند وضعفه الألباني .

قائلهم:

قد تحيرت فيك خذ بيدي   يا دليل لمن تحير فيك

وهذا الذي تقدم من معنى الوله هو من ألاه، وقال قوم: هو من قولهم: لَاهَ وهذا مقول على معنيين: بمعنى احتجب، وبمعنى ظهر، احتجوا على معنى الاحتجاب بقول القائل:

لاهت فما عرفت يومًا بخارجة   يا ليتها خرجت حتى عرفناها

وأما احتجاجهم على معنى ظهر بقول القائل: وأعجلنا الآلهة أن تغيبا، وعلى هذا فهو إذن بمعنى الظاهر والباطن، كما قال رسول الله ﷺ: «**هو الظاهر فليس فوقه أحدٌ، وهو الباطن فليس دونه أحد**»[1] وهو أيضًا الظاهر فيما أظهره، وهو الباطن فيما أبطنه، اللام الأولى مع الألف للعهد وللمعرفة، والثانية للملك، وهو ما أظهره، وإليها إشارة إلى حقيقة المشار إليه، وصورة حقيقتها، وهو من قال جل من قائل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢].

وهما حرفان: هاء تخرج بواسطة هواء يثور بها من الجوف، وهو نَفَسي، والواو تخرج من الشفة، فهي بهذا تدل على الأولية والآخرية، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، فإذا ابتدأ منه وإليه منتهاه وهو الأول وإليه المنتهى، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، وقد قيل في اللام الثانية: إنها إشارة إلى نفي ما سواه، والهاء إشارة إلى إثبات هُويته.

وقيل أيضًا في اللام الثانية: إنها إشارة إلى المحو الواجب وجوده فيما أظهره بما كشفه بالهاء في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر:٢٢] إلى آخر السورة، وبقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وإنما يقع معنى المحو على ما عسى أن تعدل به النفوس مما يهجس فيها من إثارة الأغيار المتوهمة بكاذب الوهم في الموجودات التي تناولها موضع النفي في كلمة الشهادة.

---

(١) رواه مسلم في «الذكر والدعاء» (٢٧١٣)، والترمذي في «الدعوات» (٣٤٠٠) (٣٨٤١)، وأبو داود في «الأدب» (٥٠٥١)، وابن ماجه في «الدعوات» (٣٨٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تنبيه: إنما وإن كانت للمحو كما ذكروا فإنما ذلك لمحو ما سبق إلى القلوب يلزم الغفلة وعدم التيقظ، وإلا فهي تذكير للمتذكر وإرشاد للمعتبر، أظهر ذلك في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢].

تنبيه: لزوم اللام الثانية الهاء من الاسم بواسطة الألف بينهما إشارة إلى لزوم حضوره جميع الموجودات، ووجوب كريم مشاهدته وقربه من كل شيء خلقه، وهو ما عبر عنه قول الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١]، المعنى حيث وقع، ومما يقال: إنه مأخوذ ومشتق منه قولهم: لهيت عن الشيء بمعنى ذهلت عنه، وانتزعت عن ذكره، وذهب بي، ونحو هذا، وهو حال اللاهي عن الشيء، فمن كان كذلك في كل شأنه وصف بذلك وسمي به، قال رسول الله ﷺ: «**استوهبت من ربي اللاهين من أمتي فوهبنيهم**»(١).

وقيل لما يُلهي عن الحق: لهو، من هذا قال الله ﷻ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٧]، فلو اتخذه من لدنا لكان الحق سبحانه هو خالق الحق، وخالق ما يُلهي عنه، وقد جعل على كل ضرب من الذكر فتنة تلهي عنه، حتى إن الأكثرين لاهون عن الحق، قال الله جل من قائل: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:٢، ٣]، فيكون العباد بهذا الوصف هو الحق المخلوق به السماوات والأرض أيضًا، أوجد ذلك في فطرتهم، كما أوجد الذكر وسبق في الوجود المذموم، الذي هو الإعراض والذهاب عن المراد بهم، لتخص برحمته وإيقاظه من يشاء من عباده، وترفع في ذلك قومًا وتضع آخرين، ليتم كلمته، هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار، الكلمتين، وعلى القول بالتحقيق فما من بشر وإن رفع إلى أعلى النهاية إلا وهو لاه، فإن طاقة البشر لا تستطيع مشاهدته، وحضوره على التحقيق.

ولذلك قيل: ما ذكر الله أحدٌ إلا بغفلة، وما عبده إلا عن فترة، ولو علم من يذكر

---

(١) ذكره ابن الأعرابي في معجمه (٢/ ٢٢٩).

اللسان يجف في الحنك، فالذاهب عن الحق وغيره يقال له: لاهٍ من لهيت، وكذلك طالب ما يلهي عن الحق فهو من لهوت الهواء لهوًا، وبكل هذا عاش المكلفون كما باستعماله نسوا ما ذكروا به، كما بالإغراق في ذلك كان الملاك الملاك .

الاعتبار

قال الله جل ذكره: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، وقال: ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، وكل شيء على العموم هو الجملة المتضمنة لكل ما خلقه الله الممثل للوهم على صورة آدم مصليًا لخالقه، قانتًا لبارئه، وهو العبد الكلي جعله جاعله على غير شيء مخلوق تحصله قدرته، ويحف به أمره ومشيئته وكما: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨] كذلك وسع كل شيء قدرة ومشيئة .

وإذا كان ذلك كذلك فما من معلوم مقدور مراد حيًا كان، أو مواتًا كان أو لم يكن بعد مما في مقدور أن الله جل جلاله يوجده، وما هو لا يكون أبدًا، وما هو كائن على الجواز، ولا يكون بالكيف والكم والمتى والأوصاف والنعوت لجميع ذلك كله جملة وتفصيلًا إلا هو عنده حاضر مشهود له مرئي مسموع بلواحق ذلك كله وتوابعه، وكما هو الآن جل ذكره فلذلك كان في أزل أزله قبل أن يخلق ما خلق لم يستفد بها خلقه علمًا ولا وصفًا، خلا أن المخلوق أحضره لنفسه، فظهر المخلوق بذلك لنفسه، وظهر بعضه لبعض، وعلى المخلوق اختلفت الأوصاف لا عليه سبحانه وتعالى .

ثم خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء، ولما خلق آدم استخرج من ظهره ذريته إلى آخرهم وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا وأخذ منهم الميثاق يومئذٍ، قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء قبله»[١] وفي أخرى: «معه»، «وكتب في الذكر كل شيء، وقال الله جل ذكره للقلم: اكتب، قال: ما أكتب يا ربي ؟ قال: اكتب علمي في خلقي، وقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وقال: اكتب المقدار، وكان في ذلك ما شاء وما كتب ما هو خالقه إلا كتب ما هو عامله وما هو رزقه وأثره وأجله

---

(١) رواه البخاري في «بدء الخلق» (٣١٩١)، وفي «التوحيد» (٧٤١٨)، وأحمد (٤/ ٤٣١، ٤٣٢)، وابن حبان (٦١٤٩، ٦١٥١ـ إحسان)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٠٤، ٢٠٥) رقم (٤٩٨ـ ٥٠٠) من حديث عمران بن حصين ﷺ .

إلى غير ذلك»[1] كما ذكر.

بيان اسمه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

هو آخر الظواهر من الأسماء وأول البواطن منها، وكل الأسماء سواه من الظواهر معلم به وشارح له، وسوف يأتي هذا في شرح كل اسم منها إن شاء الله، وأما ما يخص هذا الموضع من ذلك فهو أن حروفه الظاهرة أربعة: (ا ل ل ـه) ويحدث عند النطق حرفان: همزة لازمة لموضع تحقيق متصل الألوهية والوحدانية وجماع الأسماء كلها، وللحامد وتمحيق منفصل ما نزهه عنه علو جده وشموخ عظمته مما يضاد ذلك.

ثم ألف حادثة في اللفظ متصلة باللام الثانية، وقد تقدم ذكرها قبل، فالألف واللام الملازمة لهما الهمزة ـ كما تقدم ـ لتحقيق المتصل وتمحيق المنفصل والألف الحادثة في اللام الثانية لمحو آثار الأغيار الهاجسة في أنفس الخليقة الحادثة عنه وبها، وقد تقدم ذكر هذا.

ثم الهاء يتصل بها واو باطن ذكرها بطنت في الخط وظهرت في الوجود كله علوًا وسفلًا أظهرها في الشهادة بذاته وختم بها فقال مخبرًا عن نفسه جل جلاله: «هو» فكان هذا تفصيلًا لما أجمل في الألف واللام من حصر تقدم ذكره، وتحقيق «الذي لا إله إلا هو» هذا تفصيل لما اشتمل عليه، وبذلك تحقق معنى التوحيد في الكلمة والإخبار عنها والشهادة بها، وعاد بذلك الآخر منها بالتحقيق على أولها، وصارت بهذه الحكمة كدائرة ستة أجزاء عاد بالتحقيق آخرها على أولها، قبل بذلك أولها إلى آخرها، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت:٥٤]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

لما كان كل شيء في وجوده العلي الذي عبر عنه بقوله الحق: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩]، كان مما أظهره من ذلك وفصله أن أوجد العرش العظيم المحيط بكل شيء أمرًا وخلقًا، وجعله على الماء المخلوق منه كل شيء حي، آية ذلك

---

(١) رواه أبو داود في «السنة» (٤٧٠٠)، وأحمد (٥/ ٣١٧)، وابن بطة في «الإبانة» (١٣٦٢، ١٣٦٣)، والآجري في «الشريعة» (٣٨٤، ٣٨٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، ورواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٦٩)، وابن بطة في «الإبانة» (١٣٦٤)، والآجري في «الشريعة» (٣٨٣) من حديث أبي هريرة ﷺ وسنده صحيح بشواهده وصححه الألباني.

إنزاله الماء من السماء فيوجد عنه نباتًا وجمادًا وحيوانًا بتوابع ذلك كله وأوصافه، وأوجد الإنسان على أنه إذا ذكر ما تقدمت له به مع معرفة تصوره إن كان ذا صورة وما لم يكن ذا صورة أو كان معنى من المعاني تصوره بفرقان يتميز له به فيما هنالك من مذكرات سواه، وما لا يجوز أن يتصوره الباطن، ولا يتوهمه الوهم، أوقف عليه بالعلم، وهذا هو وصف الإيمان إذا كان هذا المذكور من الحق .

وإن كان الباطل تصور لمعتقده ذلك المذكور على ما ليس به، قال الله ﷻ: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل:٧٢]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٢]، وهذه خلقة الكافر، وتلك خلقة المؤمن، وذكر الحق على إصابة المحمود هو من إثارة مفهوم قوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢]، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٨]، و﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ فالله جل جلاله أعلى وأعظم وأكرم وجودًا فافهم .

ولما شاء أن ينشئ عن عظيم وجوده العلي، ويخبر عن اسمه الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه وأشار به إلى حاضر مشاهد ظاهر فيما أظهره، باطن فيما أبطنه، فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١، ٢]، أي: أن الذي أنتم فيه من إيجاد وحفظ وكلاءة وخلق أنتم عليه، وأمر مدبر لكم، مصرف مقلب لكم، ورزق ونعمة أو محنة، وجميع الوجود كله سَوَّاه الله، جاعله ومدبره وخالقه، مصرفه ممسكه أوله آخره ظاهره باطنه ثم أخذ في تمام السورة بما باين به ظواهر الموجودات بقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٢-٤]، وقال: هو فابتدأ بالإخبار بهويته وحقيقة وجوده، ثم جعل يخبر عن ذلك بقوله الحق أي: إني أنا الله لا إله إلا أنا عالم الغيب والشهادة، فكان مفهوم قوله: الغيب هنا ما كان في علمه في الأزل ألا يوجده من شيء، ومفهوم قوله: الشهادة ما هو موجده من شيء، هو الرحمن الرحيم، فابتدأ بمثل ذلك أيضًا يخبر عن نفسه بصفاته وأسمائه، ولما كانت الصفات والأسماء ذاتية وفعلية وكان ما تقدم من ذكر الوحدانية والرحمة والرحمانية من صفات الذات نظم بذلك أن ابتدأ بمثل ما تقدم من ذكر الهوية جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وعبر بإشارة الهوية إلى اسمه الله عز وجل ذكره، وعرفه بالتوحيد، ثم

نسق عليه ذكر أسماء الذات جل جلاله إلى ما شاء ذكره من ذلك، ثم سبح نفسه كما ينبغي لعز جلاله ونعوت تعاليه عمّا به يشركون، ثم ابتدأ بمثل ذلك من ذكر الهوية جل جلاله، وأظهر المشار إليه، وهو اسمه الله ﷻ.

ثم نسق على ذلك أسماء أفعاله إلى ما شاء ذكره من ذلك ليعرفنا سبل معرفته، ويبين لنا سبل الطريق إلى هدايته، فسبيل المتعرف بربه الطالب العلم به إن شاء الله أن ينظر في كل ما يقع عليه بصره أو يسمعه أو يعلمه، فيطلب ربه الله فيه وبه ومعه، دون توهم ظرفية ولا معية صحبة، قد نزهه عنها علو جده وشموخ عظمته، فهناك تجده أولًا لكل ما يطلبه عنده، وآخرًا وظاهرًا وباطنًا وتستقر أسماء الذات جل ذكره إلى حيث انتهى علمه بها.

ثم أسماء الأفعال إلى حيث انتهى علمه بها، وليستكثر من معرفة الموجودات ما استطاع ما لم يشغله ذلك عن طلب المقصود العلي يستعرض أفعاله وأحكامه وأيامه، ونعمه ونقمه، وهدايته وإضلاله، ومحبته وكرهه، وأوامره ونواهيه، وما تبع ذلك كله أوجز إليه، وعلى القول بالإجمال، فليستعرض الوجودين العالم، والوحي، وما يؤول إليه ذلك من أمور الدنيا والآخرة، فبذلك يبين له بعض المراد من عظم هذا الاسم العظيم، وأنه عنه انبثق العلم كله، ووجد الوجود أجمعه، وقد نصَّ على هذا في خطابه أولي الألباب حيث يقول: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]، وتدبر ذكره الاسم الأعظم ووصله به التوحيد بحرف نفي الإلهية عمّا سواه، وإثباتها بلفظ الحصر له وحده لا شريك له، فقد فصل بهذا الخطاب ما أحكم في الاسم، وما أحكم في الخطاب فصله في سائر القرآن والوجود أجمع، فافهم.

تنبيه: أنكر قوم الاشتقاق في هذا الاسم لضرب من التحقيق ألهموه، وقال به قوم لضرب من الحق وجدوه، وفصل الخطاب في ذلك أن أسماء الله ليست مشتقة من شيء، بل كل شيء موجود فهو عن وجود وجودها، وما كان ذلك في وجود الموجودات كذلك وجب أن يكون لكل اسم حروف ركبت عنها تسميته، وتلك الحروف بأعيانها قد ركبت في سائر الموجودات للتعريف بتسميات لمسميات هي من مقتضيات الأسماء العلا، فلا بأس على طالب أسماء ربه ـ عز ذكره ـ في استعراض تلك الحروف في مسميات الوجود؛ ليصل بذلك إلى تحقيق أسماء ربه ﷻ بتفرقها وتجمعها، فتتلقق له

جملة المعرفة على ذلك، ألا تسمعه كيف سمى نفسه بخالق ؟ لأنه يخلق، ورازق ؛ لأنه رزق، وبارئ ؛ لأنه برأ، وغافر ؛ لأنه يغفر، كذلك رحيم وحكيم وغير ذلك، بل كيف يسوغ لمتعرف العلم بربه ـ جل ذكره ـ إنكار الاشتقاق على سنن الاشتقاق، بعدما سمع رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه جل جلاله: أنه يقول: «**هي الرحم وأنا الرحمن، اشتققت لها اسمًا من اسمي، من قطعها قطعته، ومن وصلها وصلته**» (١)، فنص العليم الحكيم جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه أنه اشتق للرحم اسمًا من اسمه الرحمن، فالراء، والحاء، والميم، أصليات، والألف واللام فهما للتعريف، وهكذا فليكن الاشتقاق أن تكون الموجودات مشتقة من الأسماء لا الأسماء مشتقة من الموجودات فافهم.

واعلم ـ علمنا الله وإياك من علمه ـ أن الغفلة قطعت بالأكثر عن معرفة الله جل ذكره مما قطع بأكثر المتيقظين إلى طلب المعرفة كثرة تعرفه إليهم وقربه منهم ؛ للزوم مشاهدته وعموم حضوره ووجوب وجوده، وأنه ملأ كل شيء وجودًا، وكما ليس يعزب عن علمه وقدرته ومشيئته مثقال ذرة في الوجود ولا أصغر من ذلك ولا أكبر كذلك لا يخلو منه مكان في الحضور والشهود بمقتضى هذا الاسم، فلو أنهم طلبوه ههنا لوجدوه حاضرًا مشهودًا لكنهم اعتقدوا البعد، وسبق إلى أوهامهم مع الغفلة قطع المسافة إليه، ومن لم يعتقد ذلك عقدًا ربما حجب عن قرب وجوب وجوده فعلًا، فهم يطلبون صانعهم، والقائم عليهم بجميع شأنهم الذي به قوامهم وجمع وجودهم فلا يجدونه وربما وجدوه فأهملوا ذلك حتى أذهلتهم الغفلة عن حقيقة شهوده وكريم حضوره، فمن كان طالبًا له فليطلبه في وجوده المتوالي وظهوره الواسع العميم في خلقة نفسك أيها العبد، وجميع ما خلقه من شيء من سماء وهواء وأفلاك ونجوم وبحار وأرض وجماد ونبات وحيوان وجريان الأزمان، واختلاف الليل والنهار، وتفصيل ذلك على فصوله وآياته بما في ذلك من معهود نعم النفع والدفع وبلوى وامتحان حتى يكون ما عدا ذلك آيات على ما شاء من قبض أو بسط، أو ما يعبر به عن معنى اسم من سائر أسمائه جل ذكره أو يعرف به من ذلك الوجه الذي شاء التعريف به من نعم أو نقم، قال الله عز من قائل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، فذكر النعم على

---

(١) الحديث رواه أحمد (١/ ١٩٤)، والترمذي في «البر والصلة» (١٩٠٧)، وأبو داود في «الزكاة» (١٦٩٤) من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ وصححه الشيخ شاكر على المسند.

تواليها وتتابعها، ثم قال: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]، كذلك قال عز من قائل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، المعنى ونظائر هذا حيث وقع هكذا يخبر عن اسمه الله بالكليات وبمجاري القضايا على مسالكها، ويختم الآية بالأسماء التي معانيها مطابقة لمعاني ما جاء في الآيات المجتلبة هذا موضوع الكتاب المبين، فالمعالم والأسماء الحسنى فمن استرشد كل معلم منها فأرشده فالله جل ذكره كل الكل، وإليه يرجع الكل، والكل مرشد إليه ومعبر عنه، والاختصار يوجب الاقتصار، وإلا فالوجود أوسع والمقصود أعظم.

فصل

ومن الواجب في المعهود أنه من حل بأرض أو دفع إلى معاشرة قوم فأول ما ينبغي له أن يستشعر سيرهم ويتعلم عباراتهم، فإن ذلك لمن الإحصاء للأسماء فيما نحن بسبيله فمتى ورد عليك في الأخبار عن الله جل ذكره أو عن أسمائه، أو صفاته، أو أفعاله، هذه الأدوات المعهودة عندنا كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠] و﴿مُّحِيطًا﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، فإنما معنى كان هنا عبارة عن كأنه التقديم الأزلي حيث لم يكن سواه مذكورًا ولا ذاكرًا، فهو الذي لم يزل ولا يزال كما لم يزل لا إلى أول ولا إلى آخر، لا إله إلا هو العلي الكبير، وكذلك قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولا شيء قبله»[1].

وكذلك ثم وأين وكيف، لكل عبارة تكون عن كل واحدة من هذه الأدوات وجه من الحق، وكذلك كل عبارة توهم تمكنًا أو تنقلًا؛ كذكره التنزل والمجيء، وما أشبه هذا كله مما يعبر به عن وجوده، فإن الإجماع من علماء المسلمين ﷺ قد اتفق على تنزيهه ﷻ عن أن يكون محلًا للحوادث، كما اتفق ذلك منهم على أنهم تأولوها لا أول له، بل يلقوا ذلك على وجهين يرجعان إلى وجه واحد:

أحدهما: أنهم تأولوها عن ظواهرها إلى ما لا يوهم الضعفاء ما لا يجوز عليه من نقائص الحدث المعهود عندنا من معانيها، ومنعوا أن يعبر أحد عنها بما سوى ما جاء

---

(١) رواه البخاري في «بدء الخلق» (٣١٩١)، وفي «التوحيد» (٧٤١٨)، وأحمد (٤/ ٤٣١، ٤٣٢)، وابن حبان (٦١٤٩، ٦١٥١ـ إحسان)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٠٤، ٢٠٥) رقم (٤٩٨-٥٠٠) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

منها من أمثالها، وأمروا الأتباع بإمرار ما جاءت به دون زيادة فيها ولا نظر إليها أو وقوف بها، وزجروا عنها جدًا خيفة الإيهام لما لا ينبغي لغير جلاله سبحانه وتعالى، وهذا وجه صحيح درج عليه الجم الغفير من الأمة .

والوجه الآخر: وهو لأهل العلية في المعرفة فإنهم قالوا بصحتها وإقرار مواضعها، وفهموا فيها هنالك منها بما جعلت له ههنا حقائق هي هنالك منزهة عن نقائص معهودها فيما ههنا، وقالوا: إن لكل أداة وكلمة عبرت عمّا هنالك وإن كانت محدثة مكونة وجهًا إلى القدم والتنزيه لما عبرت عنه أنالها ذلك من بركته، وأنارها من نوره، ووجهًا إلى الحدث الذي عنه أفاض عليها ذلك، أعني: الحدث من افتقاره فتنزهه جل جلاله عن نقائص مفهومها نعوت تعاليه وعِزة جلاله، فلقربها منه وسفارتها بينه وبين عباده أيدها بالتنزيه له والتبليغ عنه .

وهذه من آيات النبوة ورسالة الموجودات في العالم المبثوثة فيه، وهو من الحق المخلوق به الوجود كله أخذت الحروف من ذلك بقسطها، فاعلم ذلك، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله في بابه، فإن آلة الإبهام ونفيها، فالمقصود عندنا من مفهومها وإبقاء التنزيه من آيات الله تعالى على معنى النبوة فيها كسواها الموجود فيها ذلك كما أيد البشرى المصطفى ﷺ بالتبليغ، وفارق في ذلك ظاهره باطنه، كذلك الحروف المعبرة عنه المخبرة به، فقول رسول الله ﷺ: «**كان الله ولا شيء قبله**» [(١)]، وقول الله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، ونحو هذا ليست كان هذه متصرفة لا يقال فيها كان يكون كونًا كغيرها، بل هي معصومة مرفوعة عن ذلك، إنما هي عبارة عن توالي الوجود المطلق دون تقييد متوهم أو منتهى إليه في أزل الأزل لا إلى أول، وإنما أخبر بها عن كونه التنزيه الرفيع، وكان الله سميعًا، وكان الله عليمًا وبصيرًا وقديرًا ونحو هذا ؛ أي: لم يزل سميعًا وبصيرًا وعليمًا، وهو الآن على ما لم يزل لم يزد بإيجاد الخليقة وصفًا لم يكن عليه قبل .

وقد قال بعض العارفين: كان هو الله ﷻ، وإنما قال ذلك عن استمرار الوجود، وهكذا ما في بابها، قال الله ﷻ فيما حكاه لنا عن فرعون في محاجته موسى عليه السلام: ﴿قَالَ

---

(١) سبق تخريجه .

﴿فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، فإنها وإن كانت من فرعون ـ لعنه الله ـ على وجه البحث عنه بـ«ما» وهو ما نهينا عنه، فإنها من عند الله ﷻ على وجه التعاظم والافتخار والجلال ولذلك رده موسى عليه السلام إلى طريق التعلم بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، فحاد عليه السلام عن بحثه العنيد وسؤاله الفاسد إلى الدليل المرشد، والسبيل المستقيم، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، معناه: إذا علمتموه من هذا السبيل الذي أرشدتكم إليه، ووصلتم إليه بالتعريف الذي دللتكم عليه، شاهدتموه بنعوت تعاليه وجلال عظمته، وكنتم موقنين، فيومئذٍ يصح عنكم الإخبار عنه بها، وقد مضى في غير هذا الموضع الكلام على بحث فرعون عنه بما ولأي وجه قصد به، ومقابلة جواب موسى عليه السلام بحثه ذلك، هكذا قوله جل جلاله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:٥ـ ٧]، معنى ذلك التعظيم لشأنه، والافتخار بجلال اقتداره، ومن ذلك قول المرأة العربية: «زوجي مالك وما مالك خير من ذلك؟»، وقول الأخرى: «زوجي أبو زرع وما أبو زرع»[1].

وأما قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، فاقطع ـ وفقك الله ـ قطعًا باتًا أن القبل والبعد لا يصل إليه حكمهما، ومعنى هذا هو أن البعد لا يفنيه القبل، والقبل لا يعجله عن البعد، وكل ذلك حكمه وقضاؤه، وفعله فكيف يعجزه صنعه ؟ أو يعدو عليه عبده، إنما هي عبارات عن ترتيب إلهي وحكم رحماني يشير إليه الإيمان جملة، ولا يتصوره العقل تفصيلًا .

وأيضًا فإن الاستواء فعل له جل جلاله واقعًا له جائز عليها وقوع بعضها بعد بعض، كذلك قال عز من قائل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، كما قال: ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧ـ ٢٩]، ثم قال عز من قائل: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] .

التعبد

أيها العبد المؤمن، قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ـ من الذي شفع

---

(١) الحديث رواه البخاري في «النكاح» (٥١٨٩)، ومسلم في «فضائل الصحابة» (٢٤٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

لك في الأزل إذ كنت معلومًا في علم الله جل جلاله ومقدورًا في قدرته، ومرادًا في إرادته، فلم تكن يومئذٍ مذكورًا لسواه، ولا مظهرًا لغيره، بل مرئيًا له مشاهدًا حاضرًا لديه مقدورًا، فسماك باسم السلام، ووسمك بوسم الإيمان وناداك من قبضة اليمين وأقطعك في ذلك الغيب عمل المؤمنين والصالحين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتق سرك عن التزام الرق لمن له شكل ونظير، ثم وجه بوجهتك إلى الله العلي الكبير، فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القدم في إجزال المنة عساه يتم عليك النعمة، واسم بهمتك عن ملاحظة الأغيار، ولا تتسع بالركون إلى الرسوم والآثار والرضا بخسيس الأقدار، بل ليكن اتسامك بالخضوع والجموع لله الكبير المتعالي، ثم اسمُ بسرك إلى الأفق المبين تعبدًا وحبًّا إلى من سماك من المسلمين، فأعط الله الرضا من قلبك تظفر، وتوكل عليه وحده تغنم وتؤجر .

فإن كنت كذلك فاعلم أن من علامات الرضا سرور العبد بالمقدور في جميع الأمور فلا تذم شيئًا ولا تعبد مشاهدًا لله جل ذكره في كل صنعه، ناظرًا إليه في كل ما يقع عليه نظرك، ولا تقل: هذا يوم شديد الحر ولا هذا يوم شديد البرد، ولا تقل: الفقر والأمراض بلاء ومحنة، والعيال غم وتعب، والاحتراف كد ومشقة، ولا تفقد بقلبك من ذلك على ما يتفوه به لسانك، واستغفر الله من ذلك، بل ليرض قلبك ويسلم ويسكن العقل، وتستسلم وتغتبط النفس بوجود حلاوة التدبير، واستحسان محكم التقدير .

واعلم أن الله خلقك على معاني الأسماء والصفات، وهيأك لمعرفته، ولا تعلم من حيث يرقى بك إلى ذلك، كما أذهلك عن حقيقة المعرفة ومشاهدة الذكر والإيمان، وسبق إليك قبل التكبر والتعاظم والفخر وحب الثناء والملك والتعزز وحب الغلبة والعلو والانتقام والجبروت والقهر والاستيلاء والغنى بعرض الدنيا، وهذا عن الحق المخلوق به السماوات والأرض، وعلى هذا ترتيب الحكمة في التكليف للبلوى والامتحان، فمحبة العبد تعجيل المحبوب من ذلك كله، ورضا الله جل جلاله في حكم الابتلاء والامتحان، ففرق صفاتك أيها العبد من صفات ربك، وتأجل أكثر المحبوب إلى دار الآخرة وعلى المقدار الذي يتطلب مرادك، وتقويه وتؤثره، ويكون هلاكك، فإن تداركك بأن يكتب لك الإيمان في قلبك بالعلم، وبأن يستعملك في معالم الإسلام فقد استنقذك من شر نفسك وإن رقى بك إلى أن يكتب في قلبك الإيمان، أي: يثبته فيه

باليقين التام والعلم النافع، وأن يأخذك عنك بمعنى: يؤيدك بروح منه فقد أفلحت، فارغب إليه في الوفاق، وادعه في ذلك، فإنه إذ ذاك يحققك في العبودية وشاكلتها، ويجعلك عالمًا راحمًا رفيقًا شاهدًا بالحق، مشاهدًا للغيب قريبًا مما يرضيه عنها، حيًّا قائمًا على العهد، حافظًا للغيب بما حفظ الله، مجيبًا مراقبًا له، رقيبًا على نفسك، مبينًا للحق غفورًا، رحيمًا، عفوًّا، حليمًا، مريدًا للخير معلمًا له، محبًّا في الله، محبًّا للصالحين، معطاءً، وهابًا، سخيًّا، بذولًا، زكيًّا، مزكيًا، توابًا، طاهرًا، طيبًا، مؤمنًا، مسلمًا، صالحًا، عدلًا، قائمًا بالقسط، برًّا، شكورًا، صابرًا هكذا إلى سائر الأسماء، يستعملك فيها على شاكلة العبودية، فيومئذٍ يكون معك بذكرك بأن تذكره فتذكره فيذكرك بما ذكرته من ثناء وجزاء، حاضرًا معك، شهيدًا عندك، قائمًا عليك بالوفاق، ظاهرًا وباطنًا.

ولكل بناء مستقر وسوف تعلمون فاستكثر من شواهد اليقين ودلائل صحيح الإيمان واذكر قول رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»(١).

وأشد الناس حبًّا أحسنهم تخلقًا بمعاني أسماء الله وصفاته على سنن التعبد له مثل العلم والحكم والعفو والصفح والمغفرة والسخاء والكرم والستر على الخلق، وحب الإحسان إليهم، ثم على ذلك وعلى قدر المعرفة بمعاني صفاته، ثم أتركهم منازعة له في معاني الصفات التي تقدم ذكرها، مثل الكبرياء والعظمة والجبروت ونعوت التعالي والجلال، فإن انتحال ذلك يخرج عن شاكلة العبودية، وبمفارقة العبيد شاكلة العبودية يهلكون، ثم أشدّهم محبّة لرسول الله ﷺ وتحققًا في الاقتداء به هو حبيب الله، وحب حبيب الحبيب من أرفع درجات المحبة: «**ومن تواضع لله رفعه الله، ومن ترفع وضعه الله**»(٢).

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الإيمان» (١٦)، وفي «الإكراه» (٦٩٤١)، ومسلم في «الإيمان» (٤٣)، والترمذي في «الإيمان» (٢٦٢٤)، والنسائي في «الإيمان» (٤٩٨٧ـ ٤٩٨٩)، وأحمد (٣/ ١٧٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) الحديث رواه مسلم في «البر والصلة» (٢٥٨٨)، والترمذي في «البر والصلة» (٢٠٢٩)، بلفظ: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه ....» من حديث أبي هريرة ﷺ، ورواه أحمد (٣/ ٧٦)، وابن ماجه في «الزهد» (٤١٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، بلفظ: «من تواضع لله درجة رفعه الله درجة ...»، ورواه أحمد (١/ ٤٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٣٠٧) من حديث عمر بن=

فأشعر نفسك ـ وفقنا الله وإياك ـ عظيم مشاهدته وكريم حضوره في كل أحيانك، وجميع أحوالك، وارغب إلى الله أن يؤنسك بقربه، ويحبب إليك حب مشاهدته، وقد كان ضيغم ـ رحمة الله عليه ـ يقول: عجبت لخليقة كيف أرادت بك بدلًا ؟! عجبت لها كيف أنست بسواك ؟!

ومن كمال حب الله: دوام ذكره في القلب بالفرح به والسرور والشوق إليه والأنس به، وعلامة الأنس بالله: إيثار الخلوة به كما قال عز من قائل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨] .

وعليك بثلاث: اجعل رأس مالك الصدق، وزادك الفقر، وقوتك التقوى، وتعرف علم حالك، وقف عند حدك، والزم الصدق في مقالك، واترك التكلف والدعوى في جميع سكونك وحركاتك، فذاك أبلغ لك فيما تريد، وأقرب لمنال العون على ما ترجوه .

فعلم العلماء وأعمال العاملين لا تغني عنك من الله شيئًا، إنما تسأل عن علم نفسك وعملها وفقنا الله وإياك لما يرضيه، وعصمنا من التكلف إنه قريب مجيب سبحانه والحمد له والوجود الواجب المتوالي الباقي الدائم .

ووجوب وجود ما سواه ممكن له ما شاء إيجاده منه أوجده، وما لم يشأ لم يكن له وجود، وما شاء إيجاده فوجوده بين عدمين: بداية ونهاية، وكونه بين تصريف تدبيره، وخيره مشيئته إذا شاء إبقاءه أبقاه، وإذا شاء إعدامه أعدمه، علم كل شيء من ذاته، وابتدع كل شيء من ذاته، وأراد كل شيء شاء من ذاته بالتفصيل بالتقسيم ولفصل التفصيل الزماني والتحصيل الإلهي، فعلمه وقدرته وإرادته وصفاته مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، فهو قهر كل شيء جبروتًا، وحاز كل شيء ملكوتًا، وعم جميع نواحي الذكر وأقطار الوجود وجودًا وعلاء، له الخلق كله والأمر كله والمجد والثناء الحسن أجمع، وله الأولى والآخرة لا إلى منتهى ولا إلى أمد، تبارك الله وارت غيبه حجب فليس يعلم إلا الله ما الله حد حيث شئت فإن الله ثم، وقل ما شئت عنه فإن الواسع الله أسماؤه

=الخطاب ﷺ بلفظ: «من تواضع لله رفعه .... ومن تكبر قصمه الله»، وصححه الشيخ شاكر على المسند، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٧٧١١) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله»، وسنده ضعيف، قلت: ولفظ أبي هريرة عند الطبراني أقرب للفظ المصنف .

مخبرات عنه، معلمات به وبأفعاله وقضاياه وأحكامه وتدبير وجود الأذكار عطايا ومواهب من الله ﷻ فالتوحيد عين اليقين، وعين اليقين عين النعيم، وهي المعاينة التي تنسب إلى المشاهدة، وإنما يبلغ إلى هذه المرتبة من مقام هذا التوحيد، ولعظم قدره وعلو المعرفة به صغرت العطايا كلها بالإضافة إليها حتى يغيب العلم فيها، والعلوم كلها مجموعة فيها كيف لا وهي معدن العلوم كلها، منها بدأت وإليها تعود، ولا مطمع للعقول في مزيد مقام بعدها ومزيدها لا يفنى وسيأتي التعبد به فيها مائة، فيما يأتي بعد من الأسماء إن شاء الله ﷻ.

اسمه الإله تبارك وتعالى

الإله هو المحبوب الودود والمطاع والمعبود، وهو أيضًا الثابت الدائم القائم القيوم، ولا يقع على غيره الإله بالتعريف حقيقة ولا مجازًا ومن التطرق إلى معرفته من جهة الحروف المؤلفة قولهم: أله بالمكان إذا أقام به، ومن ذلك الوله والتوله: وهو بمعنى إفراط المحبة والود والفرار من سواه إليه والفزع إليه من غيره كما قال جل جلاله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات:٥٠]، هذا كله مشتق من اسمه الإله، والله أعلم.

وإنما كان الحرفان: لاه وقد تقدم ما هو المفهوم عنهما في اسمه «الله» ثم أوجد الهمزة في هذا الاسم وهي من حروف النفَس، إذ هي أول حروفها بعد الهاء، فدلّت بذلك على المحبة والود والفزع إليه ومنه، ودلت بهذا كله على الطاعة له والتعبد إليه والمحبوب المودود مخوف هجره محذور فراقه ومفزوع منه وإليه، فكونه مطاعًا ومعبودًا اقتضى ذلك جماع التوجه إليه والإقبال عليه وقصده بالأعمال كلها، قال عز من قائل: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣]، وقال رسول الله ﷺ: «**الهوى إله معبود**»[١]، وقال ﷺ: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»[٢].

---

(١) رواه الطبراني كما في «إحياء علوم الدين» (١/ ٥١)، من حديث أبي أمامة ؓ بلفظ: «**أبغض إله عبد في الأرض عند الله هو الهوى**»، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء وروا. عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٢٧١)، وابن بطة في «الإبانة» (٢٣٨)، والآجري في «الشريعة» (١٣٢)، عن ابن عباس ؓ بلفظ: «**الهوى كله ضلالة**».

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٩٤)، وأبو داود في «الأدب» (٥١٣٠)، من حديث أبي الدرداء ؓ وسنده ضعيف.

فمن قال بمعرفة الله فكأنما تكلم بالأسماء كلها فإذا أضاف إلى اسمه الوحدانية فقد صدق العالم كله علوه وسفله، وإذا أضاف التوحيد للإلهية فقد جمع النفي لما سوى الإله الحق، وأصاب الألوهية بما هي على الحقيقة بحكم الوحدانية إلى اسمه. «الله» فهذه شهادة الحق الذي ضمنه العالم كله علوه وسفله، وإذا فعل ذلك فقد شهد شهادة العالم، وعبد بتوحيد ربه المفطور عليه .

وقد قال: المعرفة وضع الأقدار سوى قدره ومحو الأذكار سوى ذكره، وهذا هو التوحيد وهو معنى قول: لا إله إلا الله، وبالحقيقة فما قال الله على الحقيقة سوى الله وذلك لعلمه بنفسه وكثر شهادته، وأرفع الذكر ذكر ذاكر يقول: الله الله بمعرفة شهود قلب، ثم يقول: لا إله إلا الله، ثم يعود إلى قوله: الله الله لا إله إلا الله ويستكثر من ذلك، وإن شاء مع هذا أن يقول: الله الله الحليم الكريم، الله الله العلي العظيم، الله الله سبحان الله العظيم ، الله الله الرحمن الرحيم ، الله الله القوي العزيز ، الله الله الكبير المتعالي، الله الله الحي القيوم، هكذا يقرن إلى الاسم ذكر الأسماء كلها بشهود قلب وحضور ذكر، فذلك أنفع أذكاره وأكرم أوقاته، فقوله: لا إله إلا الله ليصفى قلبه، الله الله بعدها ليرد الذكر على قلب منقى وسر مصفى، وكذلك ذكر سائر الأسماء مع الاسم كما تقدم، وقيل لبعضهم: لِمَ تقول: الله الله ولا تقول: لا إله إلا الله ؟ قال: أخشى أن أوجد قلبي وحشة الجحود، وهذا الذكر يكون لمن جمع الهموم كلها، فكان في الله ﷻ، ثم جمع الوجود كله إلى الوحدة بما هي عليه للواحد الحق جل جلاله فلم ير في الصنعة سوى صانعها، ولا شاهد في الخلقة إلا خالقها، وفني عن كل شيء سوى الله جل جلاله، وذلك مقام في الإحصاء السابع وقد تقدمت إشارات إليه .

الاعتبار

كل وله يكون في شيء أو عن شيء أو تأله كائن ما كان فهو مأخوذ من هذا الاسم الكريم، ومعلوم منه قال الله عز من قائل: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣]، يقول: وهو أعلم بما يقول: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤٣]، فلا تستطيع أنت هدايته ليتخذ إله الحق إلهًا ؛ لأنه إنما يسمع بسمع إلهه الذي هو هواه، ويبصر ببصره، ويعمل بأمره، ولذلك قال عز من قائل على لسان رسول الله ﷺ: «إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وإلا اتجرت له من وراء كل تاجر»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**الهوى والشهوة يغلبان العلم والعقل والبيان**»[2].

فهذا كله من الوله والحجب الذي تقدم ذكره عن الحقيقة والظهور للباطل أو ظهور الحق وحجب الباطل، وكل ذلك عن اسميه الله والإله جل ذكره فما غلب منه العلم والعقل والبيان والصبر والتجمل والحسن كله فهو من الهوى، وما غلب الهوى والشهوة والجهل والنداء والجزع والقبيح كله فهو عن الإله الحق تبارك وتعالى، نصب القسم الأول إلى الهوى لدلالته عليه وتزيينه إياه وقربه منه، والإيجاد والخلق للإله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد:١٦]، والنسبة فيما هذا سبيله على وجهين: نسبة ولاية، ونسبة إيجاد، فما تولاه الله إيجادًا وولاية فهو المؤمن والمرضي، وما لم يتوله فهو منسوب إلى الله ﷻ إيجادًا ثم هو منسوب إلى من تولاه، فافهم.

التعبد

فاقصد ـ وفقك الله وإيانا ـ قصد الإله الحق جل ذكره فاتخذه إلهًا من دون من سواه فقد قال عز من قائل: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل:٥١]، يحذر من اتخاذ آلهة من دونه، إذ ذاك فتح لمعاني الكثرة من الآلهة، لأنه من اتخذ مع الله إلهًا آخر كان بذلك متخذًا لإلهين سوى إله الحق، وأكثر من ذلك الإله الحق ـ جل ذكره ـ والآلهة التي أشرك بها وهواه الذي قاده إليه، والشيطان الذي زينه له وجعله عليه، ثم تستكثر في حقه الآلهة جدًا فتخاف كل شيء، ويرجو كل شيء، إذ قد أسلمه الإله الحق ﷻ فلم يدخل في شركته لعزته يقول الله جل من قائل: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك فيه غيري فهو له كله**»[3].

ألا ترى أنه لم يدخل في ضمير التثنية لا يدخل في ضمير مع سواه في خطاب القرآن المعصوم من الزلل، وما جاء من ذلك في خطاب من سواه فأدخله مع غيره في ضمير فليست العصمة مشروطة للغير، وربما كان ذلك من الراوي، ولو علم ما في ذلك

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٨٨) من كلام الحارث بن أسد المحاسبي.

(٣) رواه مسلم في «الزهد» (٢٩٨٥)، وابن ماجه في «الزهد» (٤٢٠٢)، وأحمد (٢/ ٣٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لجابته، وقد قال رسول الله ﷺ لخطيب قام في مجلسه فقال: من يطع الله ورسوله يرشد ومن يعصهما فقد غوى «انزل فبئس الخطيب أنت»[1]، فأنكر عليه أن جمع الله ورسوله في ضمير التثنية، والرسول أقرب قربًا إلى الله ﷻ من الآلهة، فكيف يجوز هذا في القرآن العزيز، وقد أتى بذكر نفسه ﷻ معبودًا في قوله إثر ذلك: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [إبراهيم:٥٢].

فاطلب ـ وفقك الله ـ حقيقة ألوهيته، وتعلم علم طاعته ووحده كما أمرك وإياك وشركه بكل وجه كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وصرف ذلك في كتابه الحكيم لفظًا ومعنى ونصًا وتعريضًا، وعلى ذلك دار القرآن بتبيانه، وجميع الوحي والوجود أجمع علوًّا وسفلًا، أوضحت بذلك الشواهد، وأعربت بحقيقته الدلائل: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

واعلم أن بتوحيده قامت السماوات والأرض وما بينهما وما علا وما سفل، وبه ثبت كل شيء، وبه قام التدبير وتماسك النظام، وبتوحيده في ألوهيته ظهر الإسلام وتحقق الإيمان وثبت اليقين، وعليه ابتنى حكم الدنيا والآخرة، وبه حقنت الدماء وأمن السباء، وهي الموجبة للجنة والرضوان وضدها الموجب للسخط وعذاب النار، قال رسول الله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه دخل الجنة**»[2].

فهذا لقائلها مرة واحدة ثم مات عليها ساعته تلك، فكيف ترى من استصحبها وعمل بها وتعلم اليقين بتحقيقها من حط ذنوب ورفعته في درجات تلك الدار، وقربه من ربه، وبالضد لمن استكبر وأبى قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥].

فاعمل ـ وفقك الله ـ بموجبها وتعلم حقيقتها ترفع إلى أعلى درجاتها، قال رسول الله ﷺ: «**ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا عند النشور كأني أنظر إليهم قيامًا من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا

---

(١) رواه مسلم في «الجمعة» (٨٧٠)، وأبو داود في «الصلاة» (١٠٩٩)، والنسائي في «النكاح» (٣٢٧٩)، وأحمد (٤/ ٢٥٦) من حديث عدي بن حاتم ﷺ.

(٢) رواه البزار (٧ ـ كشف الأستار) من حديث أبي سعيد، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٤) من حديث زيد بن أرقم ﷺ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه بعد الحديث (٢١٣١)، والحديث رجاله ثقات.

﴿الْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤]»[١].

مصداق ذلك في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣]، وكثير جاء هذا، فأكثر من قولها فلا شيء يوازنها كلما إذا مرت بسيئة محتها، قال رسول الله ﷺ: «**إذا تعار الرجل من النوم فقال: لا إله إلا الله تحاتت عنه ذنوبه كما تحات ورق الشجر عنها**»[٢].

ومتى ابتليت بالخروج عنها أو عن معنى من معانيها فبادر بالتوبة والرجعة إليها، ومتى عملت عملًا كفرت به ذنبًا اقترفته أو تقربت به إلى ربك ﷻ، فعقب شهادة أن لا إله إلا الله فيها تستفتح أبواب الجنة وتصعد في درجاتها، قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فتحت أبواب الجنة يدخل من أيها شاء**»[٣].

وهذا حاصل له في المثال إن شاء الله؛ لأنه قول صدق ووعد حق، وقد قال بعض العلماء: إن هذا أيضًا معجل له حين ذلك تفتح له أبواب الطاعة المفضية به إلى جنة الآخرة، وتطلق له جوارحه التي ظهرها إلى طلب مرضاته، وهي الجنة المعجلة في الدنيا وبذلك تغلق عنه أبواب التي جوارحه هي الشوارع إليها.

والثامن من الأبواب: هو قلبه الذي أحسن به الظهور وقصد به ربه وأخلصه بالعبادة، ولا قول أنفع من قول قائلها ولا عمل أزكى من عمل أهلها، قال رسول الله ﷺ: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله**

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٧١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٠)، وفي «البعث» (٨٢، ٨٣)، والطبراني كما في «الكبير» (١٠/ ٣٣٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم.

(٢) رواه الطبراني في «الدعاء» (٧٦٣) من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه، ورواه البيهقي في «الشعب» (٢٧٣٧) من حديث سلمان رضي الله عنه بنحوه.

(٣) رواه مسلم في «الطهارة» (٢٣٤)، وأحمد (٤/ ١٥٠، ١٥١)، وأبو داود في «الطهارة» (١٧٠)، وابن أبي شيبة في المصنف في «الدعاء» (٧/ ١٤٧، ١٤٨)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٣١، ٣٣٢)، رقم (٩١٦) من حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه، ولفظ مسلم بدون «ثم رفع رأسه إلى السماء».

الحمد وهو على كل شيء قدير»[1] .

وهي رأس الدين وملاكه وقوامه وموضع مداره وهي الكلمة الطيبة، والشجرة الطيبة، والأعمال كلها فروعها فمتى زكت زكت الأعمال، ومتى وهت وهت الأعمال والأعمال دلائل عليها في صلاحها وفسادها ، فلذلك فاجمع همك عند قولها، واقصر عقلك وفهمك عند الشهادة بها، واهزز نفسك عند ذكرها، فخير القول أصدقه، وأنفع الذكر ما صدر عن حقيقة البيان والتثبت، قال الله ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، وأفضل الشهادات وأعدلها شهادة من أحاط بشهادته علمًا، وتثبت عند أدائها، فلم يبق في تحقيقها مريَّة ولا ريبًا ولا غفلة، ولذلك قال عز من قائل: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] .

وكلمة «لا إله إلا الله» مركبة من نفي وإثبات، وإنما أدخل فيها النفي لتحقيق معنى الإثبات، فقول القائل: لا ولي لي إلا أنت، أعظم تحقيقًا من قوله: أنت وليي، وهو نفي ما يستحيل كونه إثبات ما يستحيل فقده، وهي لمن قالها عالمًا بها مصفية للسر عن الكدر، ومروحة للقلب من وهج الشكوك والعلاقة والغير، فمتى حضرتك ثانية في قولها وبذلك علم العلم بشهادتها .

فقد علمت ـ رحمك الله ـ أنه تبارك وتعالى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن . يتنزل الأمر بينهن وما بينهن والدنيا والآخرة والجنة والنار وما فيهما والعرش العظيم والكرسي الكريم وجملة المخلوقات فأجمعها في وهمك شخصًا قائمًا قانتًا وصورة متوهمة بعقل شاهد وقلب حاضر، فانف الألوهية عن جميع ذلك نفيا لا يبقي شيئًا منها له، ولا معنى من معانيها إلا نفاها عنه وشهدت له بالعبودية، ثم تدارك عقيب ذلك دون مهلة بالاستثناء للإلهية المحضة الخالصة مثبتًا، وقد وجهت بعقلك صعدًا، وأتممت بإيمانك مستسلمًا، فأضفها لله الأعظم الأعز الأكرم، فإن واصلت حالتك ذلك بأن تقول: الله الله هكذا ما قلتها الله الله، ثم تستأنف الشهادة له بذلك فتقول: لا إله إلا الله، ثم تعاود قولك: الله الله، ثم تستقبل الشهادة له والتحميد والتمجيد وذكره بأسمائه وكريم

---

(١) رواه مالك في «الموطأ في القرآن» (٣٢)، وفي «الحج» (٢٤٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٨١٥٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٨٣٩١، ٩٤٧٣) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز ﷺ وسنده صحيح بمجموع طرقه .

أفعاله كالذي تقدم ذكره، هكذا ما صحبك ذلك فهو أفضل أوقاتك وأكرم أذكارك وأزكى أعمالك بعد أداء مفروضاتك والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

اسمه الواحد جل جلاله

الواحد يقال على أنحاء منها واحد العدد، وهو بما هو لا يتناوله العدد، فمتى أضفت إليه ثانيًا سرى إليه، ففني العدد ولم ينتقل عنه معنى الأحدية وإنما يصير بما أضيف إليه ثانيًا لقرينه وتبقى له حرمة الأحدية من حيث أوليته، وذلك لعزة الوحدانية، وسيأتي بيان ذلك في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى .

وواحد بمعنى عدم القرين وانقطاع النظير، وهو معنى قول الله ﷻ: ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] .

وهو الواحد القهار بمعنى أنه وحد الواحد على بناء اسم الفاعل كما يقال: من قام قائم ومن قعد قاعد ؛ لأنه فعل القيام والقعود، وكما يسمى بالخالق ؛ لأنه خلق، ورازق، لأنه رزق، ونحو هذا، وعلى هذا يكون من أسماء الأفعال ذلك ؛ لأنه جمع الكثرة وزم الجمل، فوحد بذلك الواحد، والوحدة أصل الاسم، ألا ترى أنك تقول: رأيت رجلًا واحدًا وجاءني زيد وحده، أي: ليس معه غيره، ويقال: واحد بمعنى أحد، وسيأتي الكلام عليه في اسمه إن شاء الله تعالى .

الاعتبار

دلائل الوحدانية في الوجود أجمعه شائعة، وشواهدها ظاهرة مفصحة ناطقة، كثير وجود ذلك في العالم جملةً وتفصيلًا رحمة منه بعباده، لعظم الحاجة إليه، كشفًا للمعتبرين، وإبانة للناظرين المتأملين، ليصلوا بذلك إلى تحقيق ما شاهدوا به فيشهدوا له بالحق، وهم يعلمون، إذ التوحيد يصحبهم في أنفسهم، وفيما هو محيط بهم بكل وجه ومعنى، وإنما الكثرة كالعرض للأجسام، والجواهر تجمله، ومعنى الوحدة غالب على أمرها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨، ٣٩] .

مفهومه أن من طلب ذلك في العالم تعلمه، والتوحيد والوحدة من الحق المخلوق به السماوات والأرض، فمن بعض الطرق إلى ذلك: أن نتعلم أن جميع مجاري حكمة الله –

تبارك وتعالى - في الدنيا والآخرة جارية على دوائر محكمة التداور، لترجع أواخر الحكمة على أوائلها، ثم لتعود أوائلها على أواخرها، على ذلك أحكم أمره في الأرض وفي السماء، وأجرى الأفلاك في مطالعها ومغربها، وسير بذلك الشمس والقمر والنجوم والرياح والليل والنهار، وقدر على ذلك ساعاتها ودقائق الساعات وشعائرها، وما تنفس كل ذات نفس وما يضمحل، وينشأ أو ينمو، وما يتهشم ويتحطم أو يخضر وينعم، أو يزيد أو ينقص، قدر على ذلك عطاءه، ومنعه ونصره وإدالته من شاء من سعادة أو شقاء، من صحة أو سقم، من عافية أو بلاء، من خير أو من شر، من هداية أو ضلالة، كل ذلك حكم من تقديره ترجع أواخرها على أوائلها وتعود أوائلها على أواخرها بما شاء من مقدر محتوم، أو كائن عن مشيئته في الكتاب مذموم.

فصل

كل دائرة فمركب خطها والمحيط بها من حركة وسكون، والحركة ظاهر الخلق والسكون فيها غائب الأمر ينبعث السكون المعبر عنه في هذا الخطاب عن نقطة في وسط الدائرة تسمى المحور؛ لأنه عنه وإليه يحور الأمر فيها وبها، وذلك المحور سكون خالص عنه ينبعث السكون الذي انعطف لأجله فيحيطها فدار الأمر لأجل ذلك حول الوسط منها الذي هو معنى الأمر فيها، ثم يتداخل وجود الحركة والسكون في جملة المحاط به بمحيط الدائر، فإذا نظرت في ذلك المعنى المسمى بالمحور فليس يوصف بسكون؛ لأنه باطن، وما بطن عن الوجود فوصفه بالحركة أو بالسكون تجوز في عبارة، وإنما اضطرت إلى تسميته بذلك للضرورة، بل هو أمر الله ﷻ في وجود ذلك الدائر، ويدور على ما شمله، وينبعث من ذلك المحور الأمر إلى المشتمل عليه من خلق وأمر، كذلك تحريك هذه الدوائر، أي دائر كان بأمر خارج منه ليس يسمى بحركة، كما لا يسمى المحور سكونًا.

فهكذا توهم الدائر كلها من أنفاس الخلائق إلى الساعات إلى الأيام والليالي إلى الجمع إلى الشهور، إلى فصول العام، إلى تمامه إلى الأسابيع من ذلك إلى أسابيع الأسابيع إلى انقضاء الآجال إلى تمام الآماد، ونهاية حركات الأفلاك بالأزمان والأحكام المقدرة في الأزل، بما في ذلك من خلق وأمر ماس بكل موجود دقيق ذلك، وجليله صغيره وكبيره، ظاهر ذلك وباطنه من أصغر الدوائر إلى ما عبر عنه العَليّ الحكيم الكبير بقوله،

الحق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣].

فصغير الدوائر على ما تقدم من وصف الخلق والأمر فيه وبه هو ضمن ما هو أكبر منه، وكذلك في ضمن أكبر منها، هكذا إلى قوله: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣]، الكل من ذلك بما خصَّ به من حكم مفصل على خلق وأمر خاص أو عام، كما قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠]، ثم هكذا إلى ما علا السماوات السبع وما سفل عن الأرضين السبع، إلى المسمى ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣]، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣].

هو الفاعل الحق المحرك الحق لا يوصف بحركة ولا بسكون، فاعبده، أي: على التوحيد له، وتوكل عليه، وهذا الذي شاهدته في اسم الواحد جل جلاله من حسن الاتساق وكريم الاتصال، كذلك وجود الحق المخلوق به جملة العالم على جميع وجوهه فتطلبه في أبعاض جملة العالم وكليته، تجده ظاهرًا مبينًا، فافهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢]، ومن الحق فيما خلق العالم به مسالك معاني أسمائه، ومعالم صفاته، وإلى هذا فلينظر الإنسان في نفسه وخلقته، قال الله ﷻ: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٤]، فينظر إلى قدمه فيرى أصابع خمسة وعصبًا رابطًا وعروقًا وأنسجة وعظامًا جمة، وعقبًا يجمع ذلك كله القدم الواحد، وأخمصًا وغيرًا إلى الكعبين جملة متكثرة لجميع ذلك كله تجمع ذلك القدم، وغير ذلك الواحد لكثرته رابطًا لجملته، ثم ليرفع بصره فوق ذلك أو دونها أو فوقها يجمع ذلك كله الساق، ثم كذلك في الفخذ إلى أعلاه، يجمع ذلك كله الرجل، رابط لهذا كله واحد له، ومثل ذلك من العبرة في الكفين مع الذراعين مع العضدين، تجمع ذلك كله اليد، ثم كذلك البطن واحد أيضًا لكثرته رابط لجملته، ثم كذلك الصدر ثم العنق ثم الرأس، كل مسمى من ذلك واحد، ثم الجسد، الجمع يجمع ذلك كله واحد لكثرته رابط لجملته، ثم ابسط اعتبارك على الشجر والنبات كله شيئًا شيئًا ترى كيف تفرع من أصول العروق تحت الأرض عروق دقاق، ترجع تلك الدِّقاق إلى الجامع لها، ترفع إليها عملها، وتؤدى إليه ما عندها، ويرجع أيضًا ذاك الجامع بما تحته إلى جامع لهما، وكذلك حتى يصعد بك النظر إلى أصل الشجرة

فتجده قد توحد بذلك الجمع كله، ثم تصعد بنظرك كذلك إلى أعلى الشجرة فتجده قد تفرع إلى أفنان أفنان وورق وزهر وثمر ويجمع ذلك كله اسم الشجرة، والمعنى الذي وجدت له.

وإن الأصل مع ذلك هو الواحد لما تفرع منه إلى ما علا وإلى ما سفل، كذلك تجد الجميع حقًا لابد لهم من واحد يرجعون إليه، وكذلك جميع أعضاء الإنسان، جسده، ولحمه ودمه وعروقه من جهة قوامه واعتداله كل ذلك يؤم رأسه ويتبعه، ولذلك سمى رأسًا، وهو مأخوذ من الرئيس، وسمى أعلى الرأس، أما إذا الكل يؤمه فهو واحدها من جهة القوام والقلب واحدها من جهة التدبير، ولذلك لم يقصد الله ـ جل ذكره ـ بخطابه من ابن آدم إلا قلبه، وقال رسول الله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب**»[1].

فأنبأك نصًا صريحًا بما تقدم ذكره، وفي قول رسول الله ﷺ إذا فسد القلب فسد سائر الجسد، وإذا صلح القلب صلح سائر الجسد، عبرة لمن تدبر، وذلك أن واحد الأشياء وجامعها إذا عدمت الأشياء جمعه لها وربطه إياها فسدت، كما إذا عدمت توحيدها له فسدت.

أيضًا لو أن التدبير والحركة لم يؤمان القلب فسد، أو لو أن أوراد الدم لم تؤم الكبد فسدت وأفسدت، وكذلك في حكم الطحال والمثانة والرأس والأعضاء الرئيسة كلها، وإلا فانظر إلى الرأس كيف حال الجسد بعده، وإذا زال القدم هل يبقى مما سمى تحتها شيء أم لا ؟ قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، ثم انظر إلى الحيوان من جماعات الناس بل من الوحوش والدواب وشبه ذلك ترجع إلى واحد يجمعها.

وكذلك أهل البيت لابد لهم من واحد يكون لهم، يرجع أمرهم إليه، يكون لهم قيمًا، كذلك البيوت تكون كثيرة يجمعها الدار يكون لهم واحدًا، كذلك دور القرية تكون كثيرة تجمعها المدينة، كذلك المدن والقرى تكون كثيرة تجمعها البلد، والبلاد كثيرة تجمعها الأرض، كذلك كل جنس واحد للكثرة ما تحته رابط لجملته، كالرجل وفصيلته

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الإيمان» (٥٢)، ومسلم في «المساقاة» (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

تجمعها العشيرة، والعشيرة يجمعها الفخذ، والفخذ يجمعها البطن، والبطن تجمعها القبيلة كل جنس منها أيضًا واحد لكثرته رابط لجملته، وكذلك فاستقر ارتباط آحاد الموجودات بأنواعها، والأنواع بأجناسها، تصب البغية إن شاء الله .

فلو لم يضع الله جل ذكره من الدلائل على وحدانيته والشواهد على أنه لا شريك له في ملكه ولا منازع له في ملكوته وجميع خليقته، غير ما ذكرناه من العبرة والإثبات ؛ لأنه الخالق لها الحاكم عليها، الجامع لها الرابط لها، الممسك، لكان ذلك كافيًا لمن كان له قلب أو أيقظه لب، فسبحانه وبحمده عمّا يقوله كل ملحد في ربوبيته ووحدانيته، علوًا كبيرًا .

فكيف وما من شيء أوجده من صغير ولا كبير، علوي أو سفلي من خلق أو أمر، كما تقدم كائن ما كان إلا وهو يدل على وحدانيته دلالة ناطقة، وتشهد له شهادة بينة متضحة، أعدل من شهادة الألسن، وأحق تحقيقًا من عبادة النطق، إذ الألسن قد تعبر بخلاف ما في القلوب .

وهذه تؤدي شهادتها عند ألباب أولي الألباب بغير واسطة ولا ترجمان، وذلك أعدل لشهاداتها، وأثبت لتحقيق عباراتها عن ذلك، على هذا أوجد الموجودات، وأتقن المحكمات، وخلق الأرضين والسماوات، زم بذلك الجمل، وقطع به المعاذير والعلل، وعلى ذلك أرسل رسله، وشرع شرائعه، لتتأكد المحجة وتستبين الحجة، فمن ذلك أنه خلقهم حنفاء على التوحيد دينًا واحدًا قيمًا لا عوج فيه، فتفرقوا، فبعث الرسل وأنزل الكتب يأمرهم بالرجوع إلى أصلهم الذي فطرهم عليه، فقال: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢]، يقول وهو أعلم بما ينزل: هذا دينكم دين واحد وهو التوحيد وأنتم أمة واحدة، كما قال رسول الله ﷺ: **«المؤمنون في تعاضدهم وتعاطفهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»** [1]، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢]، أي: خافوني، ولا تخافوا سواي كما قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، يقول جل من

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الأدب» (٦٠١١)، ومسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

قائل: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أن ينزل عليكم عقابي حين فرقتم دينكم بعد وحدته، ثم أمرنا بالمناصحة في ديننا، أولًا في أنفسنا حتى تستقيم أخلاقنا كلها على التوحيد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨]، أي ظاهركم وباطنكم، ثم أمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن رأيناه جنح إلى بعض الفرقة فنرده جهدنا إلى أن نكون أمة واحدة نعبد ربًا واحدًا وندين دينًا واحدًا، أمرنا في ذلك بقتال من كفر ففرق بذلك دينه فقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٢٩]، الذي هو التوحيد وهو كثير، ومنه صلاة الجماعة، أمرنا أن نجمع من قرب منا بعضنا من بعض على رجل واحد منا، نقوم بقيامه، ونقعد بقعوده، ونكبر بتكبيره، ويكون فعلنا تلو فعله، ولتكون الفرقة يجمعها قيم واحد.

وفي قوله ﷺ: «يؤمكم أفضلكم»[(١)]، تبصرة في معرفة فضل الواحد وشرفه، قاتلهم الله كيف عبدوا صنعة أيديهم، والصانع أفضل من مصنوعه، قلبوا الأمر أسفله أعلاه، وأمرنا أيضًا يومًا في الجمعة أن يجتمع أهل المصر ومن قرب منه إلى رجل واحد منهم لتكون تلك الفرق من الجماعات يجمعها موضع واحد وإمام واحد، كذلك أمرهم أن يجتمعوا في تدبيرهم أمورهم بأحكامهم، وترتيب جيوشهم إلى رجل واحد منهم يكون أفضلهم، كل ذلك ليدلهم على وحدانيته، ولينبههم على أن ذلك هو المراد الأكبر منهم.

شبهة

ضرب من الاعتبار في سبيل التوحيد مشكل لكنه يتبين بعد التثبت وذلك أن الواحد من المخلوقين يغلبه الأكثر عددًا من جنسه على الأغلب، فإذا انضاف إليه آخر كانت القوة معهما موجودة أكثر، فإن زادوا إلى ثلاثة فكذلك، وكذلك مع الزيادة القوة

---

(١) الحديث رواه البخاري في «المغازي» (٤٣٠٢)، وأبو داود في «الصلاة» (٥٨٥)، والنسائي في «الإمامة» (٧٨٩)، من حديث عمر بن سلمة ﷺ، ورواه أبو داود في «الصلاة» (٥٨٢)، والترمذي في «الصلاة» (٢٣٥)، والنسائي في الأذان (٦٣٦)، وفي «الإمامة» (٧٨٠) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ بلفظ: «يؤمهم أقرؤهم»، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٣٨) رقم (٧٧٧) من حديث مرثد بن أبي مرثد الغنوي ﷺ بلفظ: «.... فليؤمكم خياركم ...» وسنده ضعيف.

معها متزايدة على الأغلب حتى إذا اجتمع الجمع الكثير حكم له بالغلبة في ظاهر الأمر على من دونه في الجمع ، كذلك لو اجتمع الجمعان تضاعفت القوة، ولو اتفق أن يجتمع الإنس كلهم على كلمة واحدة وأمر جميع، لكانت القوة أمكن ولو انضاف الجن إلى الإنس فكذلك أيضًا، ولو اتفق أن ينضاف إليهم البهائم والطير وجميع المخلوقات معهم حتى يكونوا يدًا واحدة، لكانت القوة مع ذلك أظهر وأكثر فمن هنا وقعت الشبهة أوثرت الكثرة، وإنما ذلك لأن العالم كله في نفسه واحد، وأعني بالعالم: جملة المخلوقات، والعالم كله مفروض كرجل واحد وشخص مفرد، والشخص المفرد منه بعض للجملة التي هي العالم، فقدر قوته من تلك الجملة بقدره منها، فإذا انضاف إليه منها بعض آخر انضاف إليه من القوة بقدره، فكلما اجتمعت أبعاض العالم اجتمعت قواه بالضد، وإنما كان كذلك، لأن قلة الأبعاض رجوع إلى التفرق واجتماعها صعود إلى الوحدة، فكذلك الإنسان يقدر بيديه معًا ما لا يقدر عليه بيد واحدة، وبجملته على ما لا يقدر ببعضه، فانظر إلى الوحدة حيث كانت، وإلى أين توجهت القوة معها والغلبة؟ وظهر معها الفضل وتبين الشرف ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

وانظر إلى العدد المركب من الواحد الذي إليه ينزم وعنه يجتمع، لو بطل واحدة هل كان يوجد عدد أبدًا ؟ وانظر أيهما التابع أو المتبوع، العدد للواحد، أو الواحد للعدد، وانظر إلى الحيوان كله إذا بطلت نفسه التي هي واحدة، وناظم كثرته، هل يبقى منه بعدها شيء ؟ وانظر إلى الماء لو بطل الحيوان والنبات ألم يكن الماء باقيًا على أصله وحاله؟ وانظر إلى الأرض لو بطل حيوانها ونباتها ألم تكن باقية بحسنها وهيئتها وهبتها؟ وانظر إلى ابن آدم إذا بطل جسمه كيف تبقى روحه، وكيف صارت روحه أشرف منه، فصار فوقه ولا يدركه بعقله ولا بحسه ولا بقوة بدنه، وإنما ذكرتك بهذا النوع من الاعتبار لتقف على شرف التوحيد، وعظم قدره، وجلال سلطان الموحد به، ولذلك قال الحكيم: ليس في خزائن الله جل ذكره أفضل من التوحيد، وقال: لم يؤتوا شيئًا أفضل من التوحيد به، سلموا من شر الدنيا والآخرة، وبه نالوا كرامة الدنيا والآخرة .

هذه دلالته في الشاهد الذي هو الدنيا، وأما الآخرة فأفعاله فيها أبين، وأحكامه أمضى وأفخم، بل هي مشاهدة الموحد جل جلاله ربنا ورؤيته أما في الموت فإن المرء يموت وحده ويقبر وحده ويحاسب بعمله وحده، فلو مات الخلق كلهم أجمعون معه لم

يخرج بذلك من معنى الوحدة التي لزمته، وأما الموازنة فلا يقوم هناك شيء للتوحيد، ولا يرجحه شيء سواه، وحسبك من عظم قدره أنه لا يوازن بشيء من الأعمال إنما توازن الأعمال بعضها ببعض، ويوزن التوحيد بالتوحيد بواسطة العلم والمعرفة، ولا يقوم لمن عري من التوحيد وزن ولا له في الآخرة كلها حظ ينفعه .

وأما الجنة فالتوحيد مفتاحها، والموحدون سكانها، لهم أعدت، وهم المرادون بها، ألا تراهم على طول واحد وشكل واحد جُرْدٍ مُردٍ وعلى قلب واحد، لا غل في صدورهم، ولا غش في قلوبهم، ولا تباغض ولا تحاسد، قد تباعدت عنهم معاني الفرقة وانفردوا بمعاني الوحدانية، وجوار الواحد الحق، ثم صورهم بعد على قدر ارتقائهم في درجات التوحيد علمًا وعملًا .

وأما النار فمن التوحيد خلقت من خالق التوحيد، أسكنها جزاءً لتفريق التوحيد، ومعنى اسم التوحيد يمسكها كغيرها، فحسبك بهذا قدرًا وعظمًا نسأل الله البر الرحيم أن يرزقنا إقامة التوحيد بمنّه ورحمته، إنه ولي ذلك، وحده لا شريك له .

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢]، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٣]، المعنى إلى آخره قد تقدم في صدر الباب أن العرش العظيم وما تحته وما أحاط به من العلا إلى المنتهى كله مزموم في مسكة المقدار، لشمول القدر وعموم محكم التدبير وسلوك معاني الأسماء والصفات العلا في خلاله جريان الماء في العود الناضر، وحلول التدبير له بالأمر في محالة حلول الغذاء في جسم المنعم الناعم قد لزم الخلائق وضغط الأكوان من دقيق الموجودات، وجلبها ظاهرها وباطنها، فلو كان معه آلهة كما يقولون ما وسعها الخلاف، ولا وجدت ملجأ من أن تتخذ إلى ذي العرش سبيلًا سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤] .

ولو سلمنا لهم ذلك تسليم جدل لكان المفروض في ذلك أن يكون ذا قدرة وإرادة وعلم وحياة، مبتدأ بخلق ما خلق، ورزق ما رزق، إلى غير ذلك، وكان يجب على ذلك أن يكون أحدهما يريد إيجاد زيد، ويريد الآخر إعدامه، أو يريد إحياءه ويريد الآخر

إماتته، ولابد من أن ينفذ مرادهما، إذ المفروض كونه على ذلك أن يكون ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فكان على ذلك يجب كون زيد حيًّا ميتًا في حالة واحدة من جهة واحدة، فيكون حيًّا من حيث هو ميت، وميتًا من حيث هو حي ومعدومًا من حيث هو موجود، وموجودًا من حيث هو معدوم، وهذا خارج عن المعقول، وفي هذا قال ﷺ وقوله الحق: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

التعبد

اعلم ـ رحمنا الله وإياك ـ أنه هو الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له واحد أحد ليس كمثله أحد وحد الواحد، وأوجد كل واحد، وهو الذي لا تدركه العقول، ولا تكيفه الأوهام، سبحانه وله الحمد، فات العقول دركه، والأوهام كنهه، والألسن وصفه، ليس لذاته تكييف، ولا لفعله تكليف، قارب بين المتباعدات، وحبب بين المتباغضات، وألف بين المتنافرات، وطاوع بين المتعصيات، وجعل لكل شيء نهاية، ولكل وجود حدًّا.

وهذه هي المسميات طبائع في متجانسات الخلق، ومختلفات الأشكال، ومعاني اليمين والشمال، حتى مثل ذلك كله في شخص مفرد، وقام جميعه في ظلل موحد، متفقًا في اختلافه، مختلفًا في اتفاقه هو الواحد القهار، قهر الأشياء باطنًا كما قمعها ظاهرًا، مزجها بقسر، وملكها في غلبة، وأخرج عن ذلك ما شاء بقدرته ولطفه، فكل يعمل بخاصته، من موضع حده المحدود له يعمل له في ذلك عباد له بأمره: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠].

ثم يعملون في إنتاج النتائج عن ذلك بأمره، ويخلقون عنه ما شاء بإذنه، ويظهر خلقه كما شاء بحكمته: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

واعلم ـ يسر الله علينا وعليك سلوك السبيل القويم ـ أن من الواجب عليك أن تتطلب حقيقة التوحيد وتتعرفها بالمداومة على الاستدلال، ومطاولة الاستقراء للآيات التي نصبها شواهد على ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥]، وإلا ليعرف بأسمائه وصفاته وإلا ليدان له بالتوحيد.

وبعد هذا فأعمل نفسك في تحقيق التعبد له بالتوحيد منك له، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإن كنت توقن بأنه خلقك وحده ورزقك وحده وقام بأمرك كله وحده، ولم يشرك في ذلك كله منك أحدًا، فاعبده أنت وحده، ولا تشرك في عبادتك إياه أحدًا، وكما وحدك بصفاتك، ويرزقك وبكفالته إياك، وأخلصك بها، فأخلص له أنت بالشكر على ذلك، ولا تعبد لسواه بحواس وقوى ونعم أنعم بها عليك، فإنه لم يشرك فيما أنعم عليك سواك .

واعلم أن مرجعك إليه وحده، فيجزيك بعملك كله وحدك خيرًا كان أو شرًّا، فاعمل على ذلك، ولا يغرنك كثرة الناس وما يأتونه، تقول: أنا واحد من الناس: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١]، ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩]، وهو الواحد لا يقبل إلا عملًا قد وجه له وحده، لا شريك فيه، فاعمل على ذلك دون دغل في شيء من ذلك من رياء أو عجب، وعلى ما يرضاه، هو جل ذكره لا على ما تحبه أنت دونه، وقد تقدم في اعتبار جملة ذهب توحيدها ما حالها بعده، وأعمالك جملة واحده التوحيد، وأنت جملة واحدك ربك عن جلاله كما العالم كله جملة واحده الله الواحد القهار، فمتى هلكت وهلك عملك لن يضر الله ذلك شيئًا، قال الله ﷻ في إكرام عباده وخواص أوليائه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨] .

واحذر الدعوى فإنها شرك بل هي كفر، والتبرؤ من الحول والقوة قولًا وعملًا إسقاط لها، ومن أسقطها وجبت معونته إن شاء الله على ما سواها بأن الله ـ جل ذكره ـ جعل الاختيار في الإنسان وهو موجود عن إرادته، وخلق له الاستطاعة، وهي موجودة عن قدرته المركبة فيه، والدعوى موجودة في الصفتين، فقابل ذكره اختيار العبد باختياره له، وقابل استطاعته بتكليفه إياه جمعهما جميعًا اسم المحنة، فلولا الاختيار من الإنسان لم يكن اختبار، ولولا الاستطاعة لم يكن تكليف ولا محنة، فمن أسقط الدعوى مع ربه ﷻ وجعل مكانها التفويض والتوكل والتسليم عصم إن شاء الله ﷻ، ومن تبرأ من الحول والقوة أيد بالمعونة، وتيسر له أمره، وهذا هو الذي استبدل من الظلم عدلًا، ومن الجهل علمًا، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]،

وقال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، استعملنا الله وإياك بعمل المخلصين، وحشرنا وإياك في زمرتهم ولا حرمناها بذنوبنا إنه ولي ذلك والقادر عليه .

اسمه الأحد عز وجل

أحد على وزن فعل، الألف فيه أصلية، يبالغ فيه بأوحد، وقالوا: أصله وحد من وحد يوحد، ويقال: وحْد بإسكان الحاء، ووحيد ووحد كما يقال: فرْد وفرَد وفريد، وهو أصل لباب الوحدة، فلم تدركه المضارعة بعلم وقدم وشرف ونهر، ألا ترى أنه جعل العلم علمًا ؛ ليحصل به العلم بما جعل عليه علمًا، وكذلك الشرف من شرف الرفعة، والسنن من السنة، وهو ما سن ليحتذى كذلك أحد من الوحدة، فاسم الأحد يدل على شخص الوحدة، ألا ترى أنه ناف لما يأتي معه، تقول من ذلك: لم يأت واحد، ويحتمل أنه لم يأتك الواحد ولا أكثر، ويحتمل أنه قد أتاك أكثر من الواحد، فإذا قلت: لم يأتني أحد، انتفى الاثنان، ولا تقول: جاءني واحد، فبينهما خاصية فرقان ظاهر، وهو مذكور لتخصيص، يقال: هو الله الأحد، ولا يقال: جاءني الأحد ولا جاءني أحد ولا يقال فيه: وحيد ولا وحد، ويطلق ذلك في وصف المخلوق، وإنما ذلك أقدم التوفيق .

الاعتبار

واعلم مع هذا أن الاسم كلما غمضت دلالته وتعذرت معرفته على الأفهام، وعزب عن العقول علمه، كان ذلك دليلًا على قربه من الاسم الأعظم، واسم الأحد لا يعلم إلا من جهة واحدة حسب، فمن آيات أحديته توهم الموجودات في علمه، وقدرته ومشيئته على حقائقها الأولى قبل الإيجاد، وإبرازها بالخلقة إلى ظاهر الوجود الذي ظهرت به بعضها لبعض، ألا ترى أن واحد العدد أول وجودنا إياه، لتركيب العدد سمي واحدًا إذا لم نجد له ثانيًا، فلما وجدنا له ثانيًا وأضفناه له زال عنه اسم الواحد وصار ثانيًا لما أضيف إليه ؛ إذ ظهرت فيه الصنعة، وصار بذلك زوجًا لما ازدوج إليه، لما توهمنا مباينته لزوجه، كان بذلك فردًا، فلم يرجع إلى أن يكون واحدًا حيث توهمنا له أنه مغاير، ولم يرجع إلى أن يكون واحدًا من حيث طرقته الصنعة يومًا ما ورجع بوحدته عن زوجه إلى أن يكون فردًا ؛ لسريان معنى الأحدية فيه، وعزتها عن الشركة،

وللتلبس بالوحدة له من الأحدية جهتها، لا يفارقه حكمها وإن بطن، فإنه يظهر ذلك بالأوتار للانتفاع، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى .

فمن تسمى منا بمجاز هذا الاسم الكريم فيما جاز أن نتوهم منه أوليته قبل تركيب أجزائه، وموضع المحمود منه فأولى جهتيه بذلك هو موضع اليمين، ألا ترى أنه لا يجوز أن يعبر باسم أحد عن شيء من البهائم سوى الملائكة والجن والإنس وهو المعنى الذي يخاطب من الإنسان وهو أمانة الله ﷻ في عبده، ومن تسمى منا بمجاز اسم الواحد فلتوحده بمعانيه الباطنة وأشكاله وأجزائه الظاهرة، على اختلاف ذلك كله فهو الواحد بتوحد جملته .

فصل

قال الله ﷻ: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، وأسماؤه جل ذكره منها: ما اختص به كاسمه «الله والرحمن» ومنها: ما أباح التسمي به كالواحد والأحد والمؤمن والكريم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله ﷻ .

وأكثر ما يأتي ذكرها بالألف واللام، وبخاصيته منها ما أباح به منها بل قد يعم ذلك جميعها وجاء في قوله هذا دون ألف ولام وأرى ذلك ؛ لأنه وصف ونعت لاسمه الله في هذا الموضع خاصة لمكانه في الآزال، ألا ترى إلى قوله ﷻ بعد هذا: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:٢]، فجاء به المعهود من التعريف، وأرى هذا والله أعلم بما ينزل أنه إخبار عنه في آزال القدم، حيث لا مذكور سواه، ولا وجود لغيره سبحانه وله الحمد، ثم أخبر عن نفسه زائدًا على الإعلام بأحديته بأنه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، أي: لا وجود لسواه وبأنه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] .

كذلك لما أوجد الموجودات لم تجز في جواز الوجود أن يوجد لنفسه كفوًا، كما استحال أن يكون له أولًا أب يكون عنه، أو آخرًا يكون له ولد سبحانه وله الحمد أولًا وآخرًا، ذلك المعدوم لا يعلمه المحيط بكل شيء علمًا، ولا يعلمه أولو العلم ولا أولو الألباب لثبات فقده وحقيقة عدمه، بل هو الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات، علم كل شيء من ذات نفسه، واقتدر على كل شيء من ذاته، وشاكل شيء من ذاته، وشهد الشهود الأعلى على نهايات التفصيل من ذاته، فهو بما شهد به علم، وبه اقتدر، وبه شاء وأراد، لا تبعيض يلحقه، ولا وصف الترتيب لصفاته يدركه، وعن هذا

الوصف أظهر لعباده اسمه الأحد .

ثم اعلم أن أكثر أذكار التوحيد المعهودة إنما جاءت على مقتضى اسم الواحد من أجل ما تقدم ذكره ؛ لأن اسمه الواحد أقرب إلى الوجود الذي للموجودات، ألا ترى أنه جاء على بناء اسم الفاعل، كخالق، ورازق، فكما أنه خلق وتسمى بالخالق، ورزق وتسمى بالرازق، كذلك وحد الواحد وتسمى بالواحد، فقرب لأجل ذلك من القلوب، وكانت أسرع إليه بالقبول، فأما التوحيد على مقتضى اسم الأحد فقليل ما جاء، وما ذكر منه فالمعتاد من مقتضى اسم الواحد، ربما حمل هذا محمله، وسلك به مسلكه، وسنلمح إن شاء الله ﷻ إلى جملة من التوحيد بمقتضى هذا الاسم الكريم، نسلك في ذلك بالكلام سنن التوحيد القريب من المعهود في توحيد الواحد عز جلاله، إذ أكثر أذكاره على الاسم الأحد غيب، والنفوس تنفر للطارئ عليها غير المعهود عندها، فهو الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، القريب الذي هو أقرب إلى الموجود من نفسه، وأقرب إلى الموجود من المعنى الذي له وجد الوجود، هو أقرب إلى الروح من حياته، وإلى البصر من نظره، وأقرب إلى كل شيء من القرب، يقرب هو وصفه لا بتقرب ولا تقريب، رفيع الدرجات من العرش كما هو رفيع الدرجات من الثرى، وقربه من العرش ومن كل شيء كقربه من العرش من حيث الخلقة لا من حيث الولاية .

هو الولي الحميد، هو العَلي الأعلى فوق كل شيء، وفوق وتحت كل شيء في السمو، وصف تعالى بالعلو والسمو، ولا يوصف بالسفل ولا بالتحت، الرحمن اسمه، والاستواء نعته، والعرض محتاج إلى مكان، ومكانه ليس كالأمكنة، والرحمن ﷻ غير محتاج إلى مكان محيط بعرشه، وبكل شيء لا محاط به يحيطه هي وصفه، احتجب بقدرته عن ريبته فكأنه مشيئته ووجوده قدرته، لا يسعه غير مشيئته، والعرش والثرى وما بين ذلك كحبة خردل في قبضته، لا نهاية لعلوه ولا فوق لسموه، ولا بعد في دنوه ولا إدراك لحضوره، ولا حيطة لحيطته، بعيد من كل شيء وصفه، والأشياء مبعدة عنه بأوصافها الحجب والبعد حكم مشيئته، وهي واقعة على خلقه متصلة بهم، سبحانه وله الحمد، جاز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، غير متصل بالخلق، ولا مفارق غير مماس للكون ولا مباعد، بل منفرد بنفسه متحد بوصفه، هو الأول في

آخريته بأولية هي صفته، والآخر في أوليته بآخرية هي نعته، وباطن في ظهوره بباطنية هي قربه، وظاهر في باطنيته بظهور هو علوه، لم يزل كذلك ولا يزال أبدًا.

يُوجد ما أحب لمن أحب من التجلي بمعاني أسمائه وصفاته بخفي لطفه ولطيف قربه، لاختصاص رحمته إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن شاء لم يسعه كل شيء، وإن شاء عرَّفه كل شيء، وإن شاء لم يُعرفه شيء، وإن أحب وجد عند كل شيء، وإن لم يحب لم يوجد بشيء، سبوح قدوس، جاز الحدود والمعيار، وعلا على التناهي في الاعتبار، لا يظهر إلا في أنوار صنعته، ولا يوجد إلا برحمته لعزته، لا يعرف إلا بمشيئته بشهوده وهدايته، ولا يرى إلا بنوره، ولا يتجلى بوصف مرتين، ولا يرد منه معنى واحد لكلمتين، بل لكل تجلي منه مرائي، فلكل ظهور صفة، وعن كل نظر كلام، ولكل كلمة إفهام، ولا نهاية لتجليه، ولا غاية لأوصافه، ولا نفاد لكلمه، ولا انقطاع لإفهامه، ولا تكيف معانيه هذه؛ إذ لا تكيف في التوحيد، ولا لقدره في الوجود وجود، ينظر إذا أحب إلى من يحب ينظره اختيارًا فلا تعترض المنظورات في نظره اضطرارًا، ينظر إذا شاء إلى كل شيء بنظر واحد في ذاته، ويعلمها بعلم واحد من ذاته دون زمان بل دفعة واحدة، والزمان لا يصعد إلى ما هنالك ويخص ما شاء ويعم ما شاء يعرض في نظره لكبرياء عزه، وينظر في أعراضه بلطائف عطفه، الملك في قبضته، والخزائن كلمه، والكون في مشيئته، والملكوت بيده، والجبروت والعظمة سبحات صفاته، لا يضطره وجود الأشياء إلى النظر إليها إن أراد الإعراض عنها، العظيم اقتداره، وتناهى قهره، فكذلك لا يضطره إلى عدمه إلى ألا يراها؛ لسبق علمه بها، وشهوده في أزل قدمه إياها، إذ كانت مشهود شهوده، ومعلوم علمه، ومقدور قدرته، ومراد إرادته فيما لم يزل هو الجبار ذو الإجبار، إنما يضطر الوجود غيره إلى النظر لضعفه على الامتناع، ويضطر العدم سواه إلى الفقد لعجزه عن الاختراع، هو المباين لسواه بعِزه، غير مماثل لغيره، شهد الكون من أوله إلى آخره في أزل أزله بعلم هو وصفه، وشهادة هي نعته، ويشهده المثال والأواخر إلى نهاياتها في أبد أبدها، لأن علمه بها شهادة له، ليس بينه وبين علمه حجاب.

ألا ترى أن كلامه الصدق يخبر بأنه قد كان، فذلك منه دليل على شهود المثال، لأنه قبل في أزل شهيد بما علم كما علم ما به تكلم؛ إذا شاء إيجاد الموجودات، فلم تتفاوت أوصافه، ولم يختلف علمه وشهادته مع ذلك كله، قال جل من قائل: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ

فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٥]، فهو يرى مفهوم هذا الخطاب أن الذي يعلم الغيب يراه يدرك الأشياء كلها على اختلاف أوصافها بصفة من صفاته، كذلك يدرك بجميع صفاته أوصاف ما أدركه بهذه الصفة، لا يدخل الترتيب في صفاته ولا التعقيب، عز عن ذلك العلي الكبير، فهو على ذلك يعلم بنظره، وينظر بعلمه، ويريد بما علم، ويقدر بما يريد، والأوائل والأواخر لديه كشيء واحد، وصفاته كلها آحاد كاملات غير محدودة للمحدودات، ولا مؤقتة للمرئيات، إذ الترتيب في النعوت من وصف الخلق والأدوات للمخلوق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١]، في كل صفة ولا كذاته من كل معنى، لجلاله وعزته في حقيقة أحديته.

صفاته قديمة بقدمه، موجودة بكونه، ووجود الأفعال محدث وهي مظهرات بترتيب، ليست صفاته ذات جهات، فستوجه إلى جهة دون جهة، فيدرك بصفة دون صفة ولا ذاته ذات ذوات، فيقبل على مكان دون مكان، ويضطره الترتيب، ولا يريد الأمور بأفكار فيشغله شأن عن شأن، ولا تدخل عليه الأعراض فيتغير عمّا كان، لا يضطره التكوين إلى الكلام، يوجد المكان وكلامه إليه كما شاء كان، عزيز في قربه قريب في علوه، حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، كشف العلم بالإرادة وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع بالصنعة، وأظهر الصنعة بالأدوات، باطن في غيبه وظاهر بحكمته وقدرته، غيب في حكمته وحكمته شهادة لمحكوماته، وهي مجاري قدرته، وصنعه سر في صنعته، وهي علانية مشيئته، علم الكون بعلم هو وصفه، وهو الناظر في أزله إلى ما علمه، لا حجاب بينه وبين ما علم الكون، متأخر وصفاته لم تزل آحادًا لا ثواني لها، لا يجوز أن يدرك اليوم ما لم يكن أدركه في القدم، كما لا يجوز أن يستفيد الآن علم ما لم يكن علم فيها، لم يزل الكون في الأزل معدومًا لنفسه لئلا يشبهه؛ لأنه خالق العدم كما هو خالق الوجود، ليس للعدم قدم مع قدمه فيكون ثانيًا معه، جل المتوحد الأحد عن ثانٍ معه في الأزل، وإن أردت أن يسهل عليك معرفة علمه بجميع المعلومات في أزل قدمه كما أوجدها على التفصيل إلى غايات نهاياتها بالكيف والكم والحيث والمتى، فلتعلم أنه يعلم نفسه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وينظر نفسه، ويشاهد نفسه، لا مرية في ذلك، فنظره لنفسه نظره لجميع المعلومات، وشهوده جملة الموجودات جملة وتفصيلًا، ولما أوجد كل شيء لم يزد بذلك نظرًا وبصرًا، ولا شهودًا

ولا علمًا، إنما اختلفت الحال بالموجودات حسب، وكما يظن العاقل نفسه فيعلمها بسرعة، فالله أعظم قدرًا وأقدر على ما يشاء، سبحانه له المثل الأعلى، كيف لا يكون كذلك وهو الذي لا يخلو منه أين ولا يعزب عنه في الموجودات مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر إلا هو مع ذلك بالإيجاد أو بالولاية والقرب أو بهما، فافهم، وكما هو مع شيء ما فكذلك هو مع كل شيء، فأنى يشغله شأن عن شأن .

التعبد

فاحرص ـ رحمنا الله وإياك ـ على تعزيز العلم بتحقيق معرفة الأحدية، فبذلك ينبغي عنك إن شاء الله القول بقدم العالم، وتنبغي عنك شبهة تكثير الصفات بما عسى أن يدخل في عقدك من ترتيب أو تعقيب، فيذهب ذلك عنك نور اليقين الثابت بأحديته جل جلاله وأنه ما نظر قط في وجوده بعد أن لم ينظر إليه حال عدمه، ولا سمع شيئًا لم يسمعه قبل حدوثه، ولا كلم شيئًا قط بعد أن لم يكلمه في حال العدم، ولا علم شيئًا قط بعد أن لم يعلمه، إذ كل شيء موجود كان أو لم يكن بعد منطو في علمه وفي قدرته في مشيئته وهي مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو، قال الله جل من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨]، وقال: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٤]، وقال رسول الله ﷺ: «من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه» [(١)] .

وهذه المعرفة تحتاج إلى معرفة، وهذه الهداية رآها القائلون بقدم العالم على بعد وهم في ظلمة مجاهلهم، ولما تيمموها قصدًا إليها ضلوا عنها، فصرحوا بضلالهم، وسمع آخرون بعدة أسماء وصفات، فلو همهم ذلك التكثير، وهو الله جل جلاله الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات له المثل الأعلى في الأرضين، وفي السماوات، وهو الذي لا غيب عنده فلا يعدم معدومًا ولا يفقد غائبًا، والمعدوم معدوم لنفسه غير موجود بنفسه حتى أحدثه وأوجده، فظهر حين أظهره بعضه لبعض، وبدأ بعضه لبعض، أما هو جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه فكما لم يحدث به علمه لم يحدث به نظره، وسماعه منه ومشهود له، وكما لا ينبغي أن يحدث شيئًا لم يعلمه كذلك لا ينبغي أن يفقد شيئًا علمه ثم يجده .

من قال: إن الله جل ذكره علم بعد أن لم يعلم، ونظر بعد أن لم ينظر، أو تكلم بعد أن

---

(١) ذكره الغزالي في إحيائه (١/ ١٣٥) من كلام الإمام الغزالي رحمه الله .

لم يتكلم، أو شاهد بعد أن لم يشاهد، فقد قال بحدوث الصفات، وقدم عليها الموجودات، وإنما المعلومات منطوية في علمه كما تقدم ذكره، وإنما قدمنا هذه المقدمة من مقتضى اسم الأحد لما عسى أن يأتي من الكلام في مواضعه على مقتضى الأسماء سواه، لكن هذا هو المعتقد الوزر وإليه الملجأ والتوحيد حقائق عبارات يعجز بعض العقول عن درك شهادته لسبق الإنكار منها لضعفها عن جمل مكاشفته وفوق علم التوحيد والاسم منه وحداني، فالتوحيد وصفه، ثم فوق علم الاتحاد ووصف منه متحد، وفوقهما علم الوحدانية والاسم منه واحد، وفوق ذلك علم الأحدية والاسم منه أحد، هذه أسماء لها صفات، وأوصاف لها علوم، وعلوم لها أنوار، وأنوار لها مشاهدات بعضها فوق بعض، قال ﷻ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] وهو توحيد الرب جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه نفسه بنفسه .

واعلم أن علم التوحيد أول هذه العلوم وعموم هذه المشاهدة أقربها إلى الخلق فالاسم منه موجود ومن ههنا تبين الخلق وظهر لهم بها أبان لهم وهو الذي أظهره إلى الخلق، فالاسم منه موحد، فهذا توحيده الذي وحده به الموحدون من جميع خليقته، فتوحيدهم إياه عن توحيده الذي أعلمهم عن نفسه وأخصهم من وصفه، وأما رفيع ذلك فهو محجوب في خزائن الغيوب قد جاوز علم الملكوت كله فهو من وراء خزائن الجبروت والعظمة، ومن الله ﷻ نسأل المزيد برحمته وجميل عطفه، وهو وإن كان لا يجري على ترتيب المعقول ولا يمثل بقياس العقول فإنه من وصف ظاهر التوحيد المتصل بغرض الشهادة، وكما تقدم ذكره أن من ورائه كلامًا في تحقيق التوحيد يعجز عن إدراكه أكثر العقول .

وإن علم الأحدية له علوم وأنوار مشاهدات الأسطر في كتاب، وإن أعلى منه توحيد الرب نفسه بنفسه، وإنما توحيد الموحدين إياه موجود عن توحيده نفسه، كما أن تسبيحهم موجود عن تسبيحه كذلك التحميد والتمجيد والأذكار كلها، فاعلم ذلك ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام:١٩]، وسنبسط الكلام بعد هذا إن شاء الله، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وعلى نحو ما يأتي من الأسماء ومقتضياتها ثم موضع التعبد بهذا الاسم الكريم إخراج أفعال كاتبا الجهتين اليمين والشمال على سنن الصدق والعدل والمحمود كله

وتمحيق المذموم حتى تتخذ بذلك، ويرجع شبيهًا بأحديته في أوليته يوم الإقرار الأول، والمطلوب منه أن يكون واحدًا في تركيبه، أحدًا في نيته وتعبده لأحد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

اسمه الصمد جل جلاله

الصمد، الإجماع من ذلك قالوا: تصمد الشيء إذا اجتمع، وقالوا: الصمد المقصود عند الحوائج، والصمد: القصد، يقال من ذلك: صمدت صمدة إذا قصدته، فهو المقصود إليه عند الرغائب، وتلك دلالة على أنه المتناهي في السؤدد والشرف والكرم وتفريج الكرب، وقيل: الصمد هو الذي لا يطعم، وقيل: هو الذي لا جوف له، وهذه دلالة على صفة الغنى، وقيل: هو الدائم الباقي الذي لا يزول، وجماع هذه الأوجه أنه الأول الذي لا أول له، والآخر الذي لا آخر له، لم يتقدمه والد كان عنه، ولم يتأخر عنه ولد يكون عنه، وآية ذلك هو الذي يكلله عدم النسب، فلم يترك أبًا ولا ابنًا، وهو المعني بقول الله جل ذكره وهو أعلم بما ينزل: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٢، ٣].

ومن هو كذلك فهو الجامع للأسماء الحسنى والصفات الكاملة، وبالواجب أن يكون المقصود بكل وجه وبكل معنى ويكون معتمد كل شيء عليه فيما ينوب ويرغب فيه، ولمعنى الاجتماع عبر عنه بالتوجه والإقبال والتوله إليه ونحو هذا فإن المتوجه على حقيقة التوجه مجتمع الجملة إلى ما توجه إليه، وجاء صمد على وزن «فعل» لما تقدم ذكره في باب اسم الأحد وهو لا يلحقه المضارعة وهو اسم خاص، والله أعلم.

والصمد حقيقته فناء كل شيء سواه وإلى حقيقة هذا سمى التوجه والإقبال بالكلية وهو من أسماء الأول كاسم الأحد ﷻ فمتى كان عبارة عن الذات جل جلاله كان عبارة عن الغنى كله كقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، وعبر عن هذه الجملة السلف ﷺ بقولهم: هو الذي لا جوف له، ومتى كان عبارة عن وجوده كان معناه الأول الآخر، أي: لم يكن له أب، ولا كان له ولد، سبحانه وتعالى، ومتى عبر به عن معاني أسمائه وصفاته كان عبارة عن الكمال كله والتمام أجمعه، فهو الحي الدائم الذي لا أول لحياته ولا آخر، وكذلك بقاؤه ودوامه وقيوميته وعظمته وعلمه وعلياؤه وكرمه وحلمه وكبرياؤه وجبروته، هكذا إلى ذكر جميع

الأشياء والصفات، هو الكامل المتناهي في الشرف والسؤدد والإلهية والربوبية، دون أول أن يكون له في ذلك يكون بدؤه عنه أو آخر يوجد له يقطعه سبحانه وله الحمد.

وهذا كله أيضًا عبارة عن اسم الأحد عن جلاله، ومن ذلك قوله عز من قائل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وجملة معاني الصمدية والأحدية تستنظمها سورة الإخلاص تعلم خاصة كل واحدٍ منها فيها بأيسر نظر وجملة شرح لاسمه الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، واستعير للمخلوق من مجاز هذا الاسم بعض ما هو إشارة إليه، فقيل: صمد إذا كان ملجأ يلجأ إليه فيما ينوب ويرغب، وقد يقال له: صمد، لشرفه وتناهيه في ذلك، وهو إذا كان سيدًا طيب النجر كريم السلف، حسن الظاهر زكي الباطن، وهذه كلها شاكلة المربوب، وإنما نجتلبها لتقريب الفهم، وأما الصمد الحق ـ عز جلاله ـ فالغنى المطلق من جميع وجوهه والكمال المطلق من جميع معانيه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣، ٤].

ولم يكن له ظاهر يفتقر منه إلى باطن ولا باطن يفتقر منه إلى ظاهر إنما هو ليس كهو إلا هو تعالى عن اضطرار الآباء وافتقار الأبناء واتخاذ الصاحبة والأولاد أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وأنى تكون له صاحبة، ولم يكن له كفوٌ ولا شبيه ولا مثيل.

واعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن هذه صفة خاصة لا يتصف بحقيقتها سواه ألبتة، إذ حقيقة الصمدانية من له الوجود المطلق والدوام الواجب المتوالي بشاكلة الألوهية ومعاني الربوبية دون تغير وتحول مع توهم وجود ذلك في سواه، وبعدم جواز ذلك عليه ثبت بقاؤه هو سبحانه وله الحمد كيف يعدو عليه صنعه أو يغلبه ملكه.

وتتحقق علم ذلك بأنه متى منع أحدًا من المخلوقين أن يكون له أول وآخر وظاهر وباطن ولم يدخل في باب الكون والوجود قطعًا، ومتى أوجده منها اثنتين وهما: الأولية، والآخرية، فخرج إلى الكون كانتا دليلًا على فنائه، ولم يكن وجوده إلا بالاثنتين الآخرتين، فمتى سلب هاتان الاثنتان أو إحداهما الظاهر والباطن انعدم جملة ولم يحتمل هذه الصفة مثال ذلك الذي يورث كلالة، وهو الذي كل نسبه فتكلله العدم عن أوله وآخره، فلم يلحق لذلك أبًا ولم يخلف ابنًا، وسلب باطنه وذهب ظاهره فانعدم وصار بجملته إلى الصمد الحق.

الاعتبار

اعلم ـ علمنا الله وإياك من علمه ـ أنه يدخل في الاعتبار بهذا الاسم الكريم إيجاده الأشياء لا من شيء سوى أنه أبدعها واخترعها، ووضعه الأشياء كلها لا على شيء سوى أمره وأيده، وإقرارها على ذلك مع هذا موجود العبرة بمقتضاه صمود الأشياء كلها وتوجهها نحوه وإقبالها شطر أمره قانتة لعليائه وعظمته، وهذا موضع عبرة العارفين، ومجال أوهام العلماء الموقنين، ومن نظر في القرآن على حقيقة النظر وتابع الفكر في الموجودات انكشف له من الحقائق أكثر مما عسى أن يسطر في كتاب، فقد تقدم الإعلام أنه ليس من علم الصحف، والقلب حي، والقلم ميت، واللسان لهذا السبب أقرب إلى التبيين من الكتاب، وإنما كتب هذه المعاني تنبيهًا من الغفلة، وإشارة إلى الغرض وتطريق للمريد، نسأل الله الهداية إلى ما يرضيه، والتسديد إلى مجابة في العقد والعمل، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأقرب طريق إلى ذلك اعلمه ـ إن شاء الله ـ أن تقصد قصد نفسك، فتسكن حركاتها باطنًا، ثم تسكن حركات جسمك ظاهرًا، وتفرغ قلبك من ذكر كل شيء إلى ما قصدت إليه من حالك هذه التي أصفها لك، هذا هو صمودك أنت إليه وتوجهك نحوه من هذه الجهة، وطلب حوائجك منه، وأخصها قربًا وأعظمها قدرًا طلب معرفته والعلم بصنعه وتعرف الحكمة فيه والحق المخلوق به في وجوده، وإن أمكنك أن تكون بموضع تشرف منه على موجودات كثيرة قريبة وبعيدة فذلك أعون لك على ما تريده، فإن لم يمكنك ذلك فتوهمه، ثم ارم ببصرك إلى سماء وأرض وهواء ونبات وحيوان وغير ذلك مما تعلمه وما لا تعلمه، واقض بما رأيت على أمثاله مما لم تره.

واذكر قول عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: سبحانك ما أعظم ما أرى سلطانك، وما أصغره في جنب ما لم أر، ثم اجمع العالم كله في عقدك ومثله بسفينة مشحونة في البحر تجري عليه قد اكتنفها ما يحملها مما ليس بسفينة من رياح وماء وأمر، أو كشخص مائل وظل قائم متناهي الأقطار محصور النواحي والجهات، ثم أعد النظر فيه فتبصر ما المراد منه وما له، سخره خالقه بعقلك ونور إيمانك فتراه قائمًا بذلك بأمر ربه، تحفه القدرة ويحتوشه الحول، وتجول فيه الروح بالقوة فيتحرك بالنفس بما يرد عليه من القدرة على ما يقتضيه الأمر النازل عليه من علو، وتبصره ببصيرتك قائمًا لمن توجه إليه،

صامدًا لمن أقبل عليه خاشعًا لمدبره مستسلمًا لأمره، لا يتحرك من ذاته، ولا يعمل ما يعمله من تلقاء نفسه، واحدًا موحدًا متحدًا بين يدي، واحدٍ أحد صمد ليس كمثله أحد، وحده مدبره لا من شيء موجود، إذ لو كان كذلك لتسلسل الوجود والإيجاد إلى ما لا نهاية له فإذا أوجده إبداعًا واخترعه اختراعًا على ما هو موجود في سابق علمه وعلى مشيئته أقره على أيده وأقامه بأمره اقتدارًا متفقًا في اختلافه، ساكنًا في اتفاق حركته على اختلافها وسكونه خارج ذلك على حكم المشيئة العالية والعلم المحيط، فهو يسبحه ويحمده ويهلله ويكبره، ويذكره بأذكار ما أوجده فيه، واستودعه إياه من مقتضى سبحات أسمائه وصفاته بألسنة شتى عدد الخلائق كلهم جملة وتفصيلًا، صغير ذلك وكبيره علوه وسفله بأجزاء ذلك وأجزاء أجزائه إلى منتهى تحصيل الله ﷻ لذلك، متعبد له في إسلامه إليه، مصليًا بجميع أحواله لديه، صلاته زمان وجوده، ومسجده موضع قيامه، قبلته العرش الكريم، ومعبوده العلي العظيم، فتلوم ـ رحمك الله ـ عند ذلك على فهمك، وقف على ما تفرع له قلبك واحمد ربك واسأله المزيد من فضله ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] فستهجم بك الفطنة بتأييد مولاك ـ عز وجهه ـ على العلم الرفيع، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع الأمر كله .

التعبد

فإذا تحققت ذلك بعقلك فتقرر علمه في إيمانك، فاعلم أن ذلك هو المراد منك، وإن اعترضك دون ذلك معترض من هوى أو غيره فكابده واصطبر على ما به أمرت، ولا تطغ فما عفا لك عنه مما هو دون ذلك، إنما هو فضل وتخفيف عنك من ربك ﷻ، فتوجه إليه بأمورك كلها، واصمد إليه بكليتك، ولا تبق من نفسك باقية في جميع أحوالك وكل أحيانك، احطط بساحته رجلك، وألق بفنائه كنفك، وإياك أن توجه بشيء من أمرك إلى سواه إلا أن تكون في حالتك تلك معلق القلب بربك ناظرًا إليه سائلًا إياه، وإلا حرمك بركة هذا الاسم الكريم، وخيب غناءك وأبطل رجاءك، وربما قضاك من حوائجك في حياتك هذه لتنال فيها نصيبك من الكتاب، وفي الآخرة يبدو لك الوعيد .

ولا تغفل أن تتطلب في حال فكرتك التي تقدم ذكرها مقتضى الدوام والبقاء، فقد قيل في معنى الصمد ذلك، فتعرف الباقي والدائم من الفاني المعدوم بعد وجوده، فإذا وقفت على ذلك بإيمانك وعقلك فتذكر أنك من الفاني بعد وجودك هذا، ثم أنت معاد

إلى البقاء؛ لأنك موجود بإيجاد الدائم والباقي، وأنه لا يصحبك إلى قرار فوزك ومعدن حبورك إلا العمل بطاعة الأحد الصمد والإيمان به والإسلام له، فقدر نفسك على الفناء ووجوب الارتحال كما قال عز من قائل: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وكذلك فإن هدفي خطابك، وأكرم نفسك عن التهالك على متاعها.

فإذا وقفت على ذلك فلا ترغب في حلالها فضلًا عن حرامها، وكذلك إذا وقفت بنور إيمانك وحقيقة معقولك على أنه يطعم ولا يُطعم، فتوجه إليه برغائبك، ووحده في حال طلاب رزقك وتصرفك في جميع مآربك، وتوكل عليه في جميع حاجاتك، فإن الذي يحتاج إلى ما تحتاج أنت إليه من مطعم وملبس يفتقر إلى ما يقوم به فقره كفقرك، يشح عليك لحاجته، ويمنعك مرغوبك لأجله إليه، فاشك بثَّك، واصمد إليه في جميع حوائجك، وإليه فافزع عند فاقتك، وتملق له في تضرعك، وتقرب إليه بكل توسلك.

وكذلك فاقصده في بيوته، وزره في مواطن محابه، فقد جعل جل جلاله زيارة المسلم أخاه المسلم من ممدوح الأعمال، وإذا كان كذلك فزيارته أعلى وقصده فيما أمر به أكرم وأسنى.

وإذا أقامك الله مقامًا تتسع فيه إلى أن تكون ملجأ للملهوف وغياثًا للمكروب في جاه أو ذات يد فصدقت في ذلك وبررت فقد أخذت من مقتضى هذا الاسم الكريم بحظ وفزت منه بنصيب، واحمد الله وسارع في الخيرات: «فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]، أقامنا الله وإياكِ على المنهاج القويم بمنه ورحمته وأقرب سبيل إلى ذلك اعلمه وفيه النجاح والظفر وبه تطيب لك العاجلة وتنال الأمن والفوز في الآجلة.

وبالجملة فإنه يدخل من العبادات بمعنى هذا الاسم الكريم مبادئ الأعمال كلها وتوجيه النيات، وتسديد الإرادات إلى مالك حوائج العاملين، فافهم فهمنا الله وإياك عنه، ولا حرمناها وإياك من خصلة في الدنيا ولا في الآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الجمعة» (٨٩٣)، وفي «الاستقراض» (٢٤٠٩)، وفي «العتق» (٢٥٥٤)، وفي «الوصايا» (٢٧٥١)، وفي «النكاح» (٥١٨٨)، وفي «الأحكام» (٧١٣٨)، ومسلم في «الإمارة» (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

اسمه الفرد جل جلاله

يقال: فرد وفرد، كما يقال: وحد ووحد، ومعنى الفرد: المزايل لما سواه من كل الجهات، والمباين لما عداه بكل المعاني، وخاصته من اسم الأحد أن الأحد يفهم من غير توهم مغاير، ولا يفهم معنى الفرد إلا مع توهم مغاير، كخالق ورازق لا يفهم معناهما إلا بتوهم معنى الخلق والرزق، وكذلك الفرد لا يفهم إلا بتوهم منفرد عنه لما كان من المعلوم العلي أن يخلق المزدوجات كالخير والشر، والنفع والضر، والأضداد كلها والأغيار وأن يضاد بين المتضادات، ويزاوج بين المزدوجات، كان في واجب الوجود العلي أن يكون من أسمائه الفرد، وقد جاء في مذكور الأسماء والوجود إبان ذلك من صفاته العلا والفرد بأسمائه الحسنى، وجعل تعاقب المتعاقبات فازدواج المزدوجات وتخالف المتخالفات وتناهي المتناهيات دلائل عليه وآيات تشير إليه، فمضادته بنها دليل على أن لا ضد له، وتعاقبها دليل على أن لا عاقب له ولا خالف، وتناهيها دليل على أن لا نهاية له، وسمها بسمات الحدث والصنع، وانفرد عنها بصفات السلام والكمال .

شبهة

ولا ينبغي أن يتوهم متوهم أنه إنما تسمى بالفرد بعد إيجاده المغاير وبالخالق بعد إيجاد الخلق وكذلك الرازق وأسماء الأفعال كلها بل لم يزل بجميع أسمائه وصفاته فالأحد الحق عن جلاله اتصف بالفردانية في أحديته، كما يتصف بالأحدية في فرديته، وكذلك الخالق والرازق، إذ المنفرد عنه والمخلوق والمرزوق وجميع المعلومات كانت موجودة في سابق علمه، وعلى وجوده منطوية في مشيئته، مدركة بإدراكه، مشاهدة منه بمشاهدته، مرئية له برؤيته مكلمة بتكليمه إياها مسموعة له بسمعه، لم يزده إيجاده إياها علمًا ولا أكسبه ظهورها بعضها لبعض رؤيته ولا وصفًا لم يكن له من قبل فلذلك لم يكتسب اسمًا ولا ازداد صفة، وإلى هذا فقد يقع اسم الفرد على كل واحد من الزوجين إذا أفردته بالنظر فيه دون غيره الذي هو زوج له ليتميز منه، فإذا أخبرت عنهما من وجهة الاقتران لم يكن إلا الزوج، وقد تقدم من الاعتبار فيما مضى وما يأتي إن شاء الله تعالى ما يشرف بذوي الألباب على أن الأمثل له والأشبه له والأعدل فإذن لا كفوَ له، فإذن لا زوج له، فإذن هو الفرد الحق، إذ الانفراد هو البينونة بما بان به عما سواه .

شبهة

وتثبت في معنى المباينة والانفراد فإن بينونة الفرد الحق بينونة تمييز لا بينونة اعتزال ـ تعالى عن ذلك ـ واللغة بما هي تضيق عن العبارة عن معاني هذه المعالي، وعلى ذلك جاء خطاب القرآن وحديث الرسول ﷺ من التساهل وقد تقدمت من ذلك مقدمة .

الاعتبار

وأما عبرته فموجود ذلك كثير، فإذا قد علمت معاني الانفراد فاعقل أن الفرد الحق جل ذكره انفرد بالملك دون المملوك، وبالربوبية دون المربوب، وبالألوهية دون المألوه، وكذلك أفرد الجنة من النار بخاصيتهما، وما أوجد كل واحد منهما له أفرد المؤمنين بإكرامه، والمجرمين بإهانته، وأفرد كل ذي شكل بشكله، وكل ذي صورة بصورته وخاصة بخاصته وحاله بحالته، إفرادًا منه للأشياء، وتمييزًا لذواتها وأحوالها، لولا ذلك ما انفرد شيء بشيء، ولا امتاز شكل من شكل، ولكان الاختلاط والأشكال فكنا لا نعرف أبناءنا من أبنائنا ولا من غيرهم، ولا أمهاتنا من أزواجنا ولا من غيرهن، ولا كان لمنازلنا حلال فنبنيت فيه ولا حرام فنتقيه، ولا كان يكون لأحدنا اختصاص بشيء سوى اللبس والعمى لا علم ولا معلوم ولله جل جلاله التدبير المبرم والقضاء المحكم، وفي الذي أومأنا إليه من هذا الباب كفاية لأولي الفهم .

التعبد

قد علمت ـ وفقك الله ـ أن الله ﷻ هو الفرد الحق لا نسبة بينه وبين المخلوق، ولا شبهة بينه وبين المحدث من جهة الحدث والخلق ألبتة باطنًا ولا ظاهرًا، كما ليس بين المخلوق وبينه نسبة ولا شبهة من جهة الفردانية بانيهم بصفاته وأسمائه فردًا كما باينوه بما جعل لهم من سمات الحدث وآثار الصنع خلقًا، فإذا تحقق هذا عندك تحقيقًا لا لبس فيه، فاحرص على أن تفرد له عملك كله كما أفردك أنت به، خلقك ورزقك وسواك وعدلك وجعل لك السمع والبصر والفؤاد والقوة باطنًا والجوارح ظاهرًا أفردك بذلك كله ولم يشرك معك فيها أحدًا فأفرده أنت بما جعله لك، وأوجبه عليك من أعمال أمرك بها ونعم أنعم بها عليك .

واعلم أنه قد أفرد لك عنده نعيمًا تامًّا كاملًا خالصًا من نكد المنكدين، سالمًا من ذي التنغيص، فصل لك أقله، وأجمل جله ؛ لأنك لا تحيط بعلمه، ولا تبلغ آمالك مع

انبساطها إلى بعضه، كذلك أفرد لك عذابًا عاريًا من أقل الراحة، مسلوبًا من أدنى الترفيه، لا يحيط به علمك، ولا يقوم لأدناه صبرك، زوجان: نعيم وعذاب لزوجين: طاعة وعصيان، فلذلك أفرد لك الأعمال بعضها من بعض جعل لها من صفاتها وميزها به من سماتها تعرف بعضها من بعض بما أفرد به كل نوع منها، فأفرد ذلك الصلاة من الصوم، والصوم من الحج، والحج من الزكاة، والزكاة من غيرها من الأعمال بصفاتها وأسمائها، فليس لك أن تجعل لها صفة ولا حدًّا سوى ما أفردها به الفرد الحق، فإن لكل واحد من ذلك ضدًّا نهاك عنه، وحدًّا حذرك مجاوزته .

واعلم أنك وعدوك زوجان، فمتى جعلت عملك لنفسك أو لعدوك أو لغيركما من الأغيار فإنما عملت لأحد الزوجين أولهما ولم تتوجه بذلك أعمالك له بعزته ؛ لأنه لا يقبل إلا عملًا مفردًا له خالصًا، فبطلت عنك فائدة هذا الاسم الكريم، وخبت من بركته، ووكلت في الحساب العاجل والآجل إلى من عملت له، ولا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع .

اسمه الوتر تفرد وتعالى

هو أيضًا من باب الوحدة، والوتر هو: الجامع بين الشيئين اللذين هما الشفع، وهو العائد عليهما بفائدتهما من ذلك وتر القوس ؛ لأنه جمع بين الشيئين وهما طرفا القوس، فقامت الفائدة بذلك منه وتر البيت منه، وهي خشبة يجعل من قطر البيت إلى القطر الآخر تجمع بينهما وخاصته من خاصة الفرد أن الفرد يفهم من معنى الزوج ويفهم الوتر من معنى الشفع، والشفع ضم شيء إلى شيء يخرجه من معنى الوحدة إلى التثنية، والوتر واحدها الزوج لزوجه موجود لمعنى السكن كل واحد منهما إلى زوجه، وتتحصل الفائدة وما أوجد الله بينهما بإيجاد الفرد الحق لذلك واستخراجه ذلك عنهما وبهما، والشفع موجود للتعاون والتوازن على إتمام المراد بهما، فيتمم الوتر ذلك لهما منهما به، وسيأتي ذكر الشفع والشافعة في أولى المواضع بذلك إن شاء الله تعالى .

ثم سبحانه الفرد بحكم الفردانية عن العدل والنظير والشبه والمثل والكفء ونحو ذلك، وسبحة الوتر هي عما يلحق المصنوع من نقائص الحدث وافتقار الصنع وعن العدد ولواحقه، ومن لحقه الصنع لحقه العدد .

الاعتبار

اعلم ـ وفقك الله ـ أن العدد يبسط على كل محدث مصنوع إن كان من المركبات

فمن جهة ضم جزء إلى جزء وتمييز هذا من هذا وضم جملة إلى جملة، وإن كان غير المركبات فمن ضم الشيء منها إلى شيء آخر من جنسه أو من غير جنسه، والواحد بما هو واحد ليس بعدد، وإنما يظهر أنه ليس بواحد على الحقيقة، ومتى وجد له ثانٍ فيظهر فيه الصنع بضم ثانيه إليه، ويظهر نقيضه عن معنى الواحد بوجدان مثل له، لكن له من معنى الوحدة أنه لم يلحقه العدد قبل وجود ثان له أو مثل يماثله، ثم ذلك المعنى من الوحدة باقٍ عليه من جهة ما حيث ما كان، وسيبدو لك في أثناء الاعتبار إن شاء الله تعالى .

اعلم أن الواحد مادة العدد وعنه تركب، وليس بعدد في نفسه، وهو من العدد من حيث هو مادة له، وذلك من آيات الواحد الحق ﷻ فإنه أوجد الموجودات جمعاء وليست كهي، كما أن واحد العدد عنه تركبت الأعداد كلها بواحد من واحد إلى واحد يتقدمها، وعلى ذلك فهي لم تتكرر ولا تضاعفت من هذه الجهة، وإنما كانت الكثرة والتضاعف فيها من جهة الصنع ووجود مثل له ومضاف إليه، ألا ترى أن كل عدد تضربه في واحد أو واحدًا فيه فإنه واحد بواحد واحد يتضاعف ذلك العدد أبدًا، فنقول: واحد في اثنين باثنين، هكذا إلى سائر العدد كله، الاثنان شفع والثلاثة هو العدد ؛ لأنها تركبت من واحد إلى واحد هما بضم أحدهما إلى الآخر شفع أوترهما واحد ثم عليها، أعني: الثلاثة يدور العدد، وعنها يتركب، وكما دارت الثلاثة على الواحد وتركبت عنه كذلك دارت الأعداد على الثلاثة وتركبت عنها من جهة هم واحد إلى شافع له ثم إلى شافعه ثم وتر لهما، فالموجودات كلها شفع ووتر، ولعموم هذه أعني وجود واحد العدد ثم شافعه ثم وترهما، قال رسول الله ﷺ: «**من قال في دبر كل صلاة وحين يأوي إلى فراشه: سبحان الله عدد الشفع والوتر وكلمات ربي الطيبات المباركات ثلاثًا والله أكبر عدد الشفع والوتر وكلمات ربي الطيبات المباركات ثلاثًا كن له نورًا في قبره، ونورًا على الحشر حتى تدخله الجنة**»[١] .

فالموجودات كلها شفع ووتر، والوتر أصله الواحد والشفع أصله الاثنان، ثم جميع ما يأتي بعد هذا تركيب عليه بتغاير أسماء على ما يوجبه تغاير الأعداد والاثنان: أول التركيب الواحد، والأربعة: أصل التركيب الشفع، والستة: أصل التركيب الوتر، ثم ما بعد هذا تركيب عليه، وههنا قال من قال: إن الستة أصل العدد ؛ لأن التركيب انتهى

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ .

عنده إلى الستة كما تقدم.

ومن زعم أن أصل العدد ثلاثة فللمعنى الذي ذكرناه قبل وجود الموجودات كلها، شفع ووتر وقد وجدا من ثلاثة، فما جاء بعد هذا فهو عنده تكرار، فإذا تمهد هذا فانظر إلى الاثنين حال تثنيتهما تجدهما شفعًا كل واحد منهما شافع لصاحبه، فظهرت الصنعة والمصنوع في إضافة بعضها إلى بعض وبقي الصانع فجئت بوترهما آية عليه وهو الثالث، وتلك بقية بقيت عليه من معنى الأحدية قبل الصنع فالأحدية الموجودة به قبل ظهور الإشفاع للصنعة بإضافة ثانيه إليه كان جانبها، أعني: الأحدية قائمًا بها يؤثر الواحد الانتفاع وللصنعة فيها أثرها بها شفع شافعه ؛ لأنك تجد كل واحد من الثلاثة يصلح أن يكون وتر الشفعة كما يصلح أن يكون ثانيًا لصاحبه وشافعًا له، فإذا أضفت إلى الثالث رابعًا صار الثالث من جهة الصنعة البادية فيه بإضافته إلى العدد شافعًا للمضاف إليه، فشفع من حيث الصنعة، وأوتر من حيث الوحدة، فإذا أضفت للرابع خامسًا أوتر من جهة وحدته وخمس الجميع من جهة دخوله في العدد، فإذا أضفت إليه سادسًا قام مقامه في الوتر وشفع سادسه على ما تقدم.

والستة قامت من ثلاثة أشفاع: شفع من وتر وثلاثة، ووتر من شفع اثنان اثنان اثنان، فهي لذلك ثلاثة أشفاع ووتران، فمن جهة ما أضيفا شفعًا، ومن جهة ما توحدا وترًا، فانظر إلى سريان حكم الوحدة فيه على جهتها مع سريان الصنعة على جهتها، واقض بذلك على جميع المخلوقات، فإنه من الحق المخلوق به السماوات والأرض، فتطلب إثارة ذلك في الموجودات تجده، وإنما ظهر ذلك في العدد بأيسر نظر لقربه، بل هو الأول في كل شيء والآخر والظاهر والباطن في كل موجود، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [العنكبوت:٤٤]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥] فعليك بتعرف هذا الحق فقد لعمري فتحت لك الأبواب، وجعلت من اليقين على مثل مَخْرَفَةِ النَّعَمِ [(١)].

فإن أضفت أيضًا إلى السادس سابعًا أوتر شفعه، وصار هذا الوتر عظيم القدر

---

(١) مخرف مفرد مخارف وهي الحائط من النخل أي أن العائد فيما يحوز من الثواب كأنه على نخل الجنة يخترف ثمارها، وقيل: المخارف جمع مخرفة وهي سكة بين صفين من نخل يخترف من أيهما شاء.

جليل الخطر، ذلك لأنه وتر لعدد كله شفع من وتر ووتر من شفع، ولذلك جاءت أكثر رؤوس المخلوقات على عدد الثلاثة والسبعة، وأما الخامس فهو وتر لعدد هو أصل لتركيب الشفع كله يسبح الله في جهته ويحمده مقامه: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

ثم كذلك إن أضفت إليه ثامنًا قام مقامه في الوتر وشفع ثامنه، فإن أضفت إليه تاسعًا أوتر شفعه، وكان تمامًا لعدد تكرر فيه الوتر إلى عدد هو الوتر ثلاثة ثلاثة ثلاثة، فأشبه الثلاثة؛ إذ تركب من واحد إلى واحد أوترها واحد.

ثم كان ما أضيف إلى التاسع قائمًا مقام واحد العدد شفع تاسعه قام مقامه في الوحدة بتركيب الأعداد به إليه بواسطة الآحاد والأشفاع والأوتار، وعند هذا العاشر تمت أسماء العدد فعظم قدر التاسع؛ لأنه أوتر شفعه وشفع عددًا هو في نفسه واحد، ثم هو على نحو ما تقدم إلى التسعين كل عشرة منها بمنزلة الواحد في نفسه، والتسعون بمنزلة التسعة ويترقى إليها من واحد إلى واحد يقدمه واحد بتركب أعدادها منها بالآحاد شفع منها ووتر، وثبت أسماء تركيب الأعداد في تسعة وتسعين، ثم اسم المائة عبارة عن محض الكثرة، وهو مشتق من اسم الماء المخلوق منه كل شيء حي، فلا تعد بعد المائة اسمًا لعدد سوى تكرار ما قد مضى إلا التأليف المئين والمئون كذلك شفع ووتر إلى ألف وآلاف الآلاف الألف كل في مقامه الآحاد تسعى إلى العشرات والعشرات تسعى إلى المئين، والمئون إلى الآلاف كذلك ما زاد شفعًا ووترًا هكذا سريان الوحدة بالوتر كما تراه على ذلك أوجد أفعاله وأظهر لنا صنعه في الدنيا والآخرة، وعلى ذلك شرع شرائعه وأعلمنا من عدد أسمائه قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، إنه وتر يحب الوتر**»[1].

فاقض - وفقك الله - بهديه وبمثله مع اتساع النظر، وكثرة ترداد التدبر على زم الوتر الحق جميع الموجودات هذا الزم وربطه جميع الخلائق هذا الربط، فإنه ما من موجود سواه جل ذكره إلا العدد منه يحصره بقول الله ﷻ: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨]، وكذلك كل اسم، ومقتضاه من العالم فلا يشذ شيء من الخلق والأمر هو الواحد الموجود الآحاد وما تركبت إليه وبه، وهو الوتر الموجد الإشفاع، وأظهر بذلك منافعها

(١) سبق في أول الكتاب.

وأفعالها الموجدة وهو الفرد الموجد الأزواج، وهو مظهر فوائد ذلك المنزه عن النظ
والعديل والشبيه انفرد بالتدبير دون شريك ولا نظير، وكما اصطفى من الملائكة رسلًا
ومن الناس للتبليغ عنه كذلك اصطفى من خليقته رسلًا إلى العقول للتبليغ عنه، فإنه
لا إله إلا هو العلي الكبير .

التعبد

أول التعبد كل اسم طلب علمه، فإن كنت ـ وفقك الله ـ وفقت بعقلك على ما تقد
ذكره ورأيته بنور إيمانك فاعمل نفسك للوتر الحق فإنك وعملك شفع، والوتر هو
المظهر لفائدتكما، المزكي لكما بحسن التوجه وخالص النية فلا توجه عملك لسواه
فيزايل عملك معناه، وما وجه له تجيب من بركة الوتر الحق ويدخل في العمل مقتضاه
الإصلاح بين المؤمنين فإن اختلافهم فوقه وبالإصلاح بينهم تكون الوحدة، ويدخل في
ذلك أيضًا السعي في حاجة المؤمن، قال رسول الله ﷺ: «**اشفعوا فلتؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء**»[١] .

فكل عمل يكون بين اثنين تكون حاجتهما فيه إلى غيرهما، وتمامهما إليه فهو من
مقتضى هذا الاسم الكريم، إذ كل اثنين شفع والمكمل لحاجتهما والقاضي لهما وتر .

ثم احرص على أن تختم أعمالك بوتر لما رأيته من بركة الوتر، قال رسول الله ﷺ:
«**الله وتر ويحب الوتر**»[٢] .

إذا أحبه أعطى عليه ما لا يعطي على ما سواه، وأحب العامل به، وحسبك بها درجة
منَّ الله بها علينا وعليك، ورزقنا علمًا نافعًا وفرقانًا نيرًا وعملًا خالصًا مرضيًا برحمته .

اسمه «هو» الأول والآخر والظاهر والباطن عز وجل

هذه جملة تشتمل بأركانها الأربعة على التوحيد أجمعه، وإشارة باطنة إلى موجود أحد

---

(١) رواه البخاري في «الزكاة» (١٤٣٢)، وفي «الأدب» (٦٠٢٧، ٦٠٢٨)، ومسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٦٢٧)، وأبو داود في «الأدب» (١٥٣١) من حديث أبي موسى ﷺ .

(٢) رواه الترمذي في «الوتر» (٤٥٣)، وأبو داود في «الصلاة» (١٤١٦)، والنسائي في «قيام الليل» (١٦٧٥)، وابن ماجه في «إقامة الصلاة» (١١٦٩)، وأحمد (١/ ١٤٥)، من حديث علي بن أبي طالب ﷺ، ورواه أبو داود (١٤١٧)، وابن ماجه (١١٧٠) من حديث ابن مسعود ﷺ وصححه الشيخ شاكر على المسند .

مشار إليه سواه كل مشار سواه واقع تحت وجوده، لاشتمال هذه الأركان الأربعة على معاني الوجود أجمعه بكل حال وبكل وجه ومعنى، فهو الأول في آخريته بأولية هي صفته وهو الآخر في أوليته بآخرية هي نعته، وهو الباطن في ظهوره بباطنيته هي قربه، وهو الظاهر في باطنيته بظهور هو علوه، لم يزل كذلك أولًا ولا يزال كذلك أبدًا، ولا يتوجه إليه التضاد ولا تجري عليه الحوادث ولا الآباد، ولا ينتقص ولا يزداد، لا إدراك لحضوره ولا حيطة لحيطته، ولا يحجبه شيء عن شيء ولا يبعد عليه قريب من كل شيء بوصفه، وهو القدرة والدرك والأشياء مبعدة بأوصافها، وهو البعد والحجب والبعد والإبعاد حكم مشيئته غير متصل بالخلق ولا مفارق، وغير مماس للكون ولا متباعد، بل منفرد بنفسه متحد بوصفه لا يزدوج إلى شيء ولا يقترن به شيء.

احتجب عن العيون والأبصار، ورفع ذاته عن العقول والأفكار، فلم يتخيله عقل، ولم يصوره وهم، كيف يعقله العقل وهو عاقل العقل ؟! أم كيف يدرك بوهم وهو مالك الوهم ؟! هو المحيط بكل شيء بحيطة هي نعته، ومع كل شيء وفوق كل شيء وأمام كل شيء ووراء كل شيء بعلو ودنو وهو قربه هو وراء الحول الذي هو من وراء جملة العرش، وهو أقرب من الوريد إلى القلب ومن الروح المماس للجسم، وهو مع ذلك فوق كل شيء، ويحيط بكل شيء، وليس يحيط به شيء ولا مكان له، شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] في كل هذا شيء، سبوح قدوس ليس لمجرى القول فيه بيان، ولا في المسألة عنه جواب.

اسمه الأول جل جلاله

الأول: يقال على أنحاء من ذلك أولية التقدم، وهي تنقسم إلى قسمين: تقدم زمان، وتقدم مرتبة، وينقسم تقدم المرتبة إلى قسمين: تقدم شرف وفضيلة، وتقدم مبدأ وسبب فله من أقسام الأولية القدم لا إلى أول، وله أولية الشرف والفضل ذلك ؛ لأنه حاز الأسماء الحسنى كلها بحقائقها، واتصف بالصفات العلا على كمالها، وله الأولية في المراتب كلها وذلك ما عبر عنه قوله الحق: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥]، فهو الذي لا صفة كصفاته ولا اسم كأسمائه، ولا مكانة كمكانته، وهو أيضًا رفيع الدرجات بأنه إليه المنتهى، هو الأول لطالبيه بالآيات والدلائل عليه والبينات، كما هو الآخر في المنتهى بالعلم واليقين ثم بالرؤية في الدار الآخرة كل علم يتحصل لطالبيه في

التعرف به، فهو مرقاة، ودرجة إلى اليقين به، وعنده المنزل الأقصى ونهاية المنتهى، لأنه المطلوب الأكبر والمبتغى العلي الأعلى.

اسمه الآخر عز وجل

هو الذي أول الأول وآخر الآخر في الوجود والسبب المراتب وغير ذلك، وعلى هذا يكونان من أسماء الأفعال، كما قال رسول الله ﷺ: **«أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»** (١).

وفي ذلك شهادة له بما هو أهله، أي أن الذي يبدو لكم في آثار صنعه في المقدم والمؤخر ليسا باثنين ولا بأصلين كما زعم الضالون عن سواء السبيل، بل هو واحد أحد لا ثاني معه، يعلم بذلك أن مفعولاته كثيرة الوجود مختلفة الأجناس والأنواع، وإن فاعلها واحد أحد تسمى بالمعنى الذي في المقدم والمؤخر من صنعه وفعله.

ووجه آخر: أن يكون معناه هو إله الأولين وإله لا يمكن الغناء عنها والآخرين، هو الأول في ذلك، والآخر لم يلحقه حول ولا تغير.

ووجه آخر: هو الأول في الأزل وقبل الابتداء، والآخر بوجوده في الأبد وبعد الانتهاء، وعلى هذا يكونان من أسماء الذات له الأولية بالبداية والآخرية بالنهاية، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، وفي كل ما يوصف به بدأ الخلق ثم يعيده، فلا يوصف بأنه سبب لمسبب ولا علة لمعلول، بل له من معنى الأولية أن لا أول له، ومن معنى الآخرية أن لا آخر له، ومن معنى التقدم أن لا قبل له، ومن معنى المبدأ البداية من معنى الوجود وجوب الوجود واستمراره ودوام البقاء مع عدم الاستحالة والتغير.

اسمه الظاهر جل جلاله

وتعالى علاؤه وشأنه الظهور، يكون بمعنى الغلبة من قولهم: ظهر فلان على فلان أي: غلبه وأظهر الارتفاع والعلو، من قولهم: ظهرت الشمس إذا ارتفعت وظهور البيان والوضوح من قولهم: ظهر لي المعنى، أي: تبين ووضح، والأوجه الثلاثة متقاربة ـ والله أعلم ـ هو الظاهر في مخلوقاته على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها.

---

(١) الحديث رواه البخاري في «التهجد» (١١٢٠)، وفي «الدعوات» (٦٣١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه مسلم في «صلاة المسافرين» (٧٧١/ ٢٠١)، وأبو داود في «الصلاة» (٧٦٠)، وأحمد (١/ ٩٥، ١٠٢، ١٠٣) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

اسمه الباطن عز وجل

مأخوذ من بطن الشيء يبطن إذا خفي، ومنه سمي البطن، والظهر والبطن من جهة المعاني متضادان، كالأولية والآخرية، لكنهما لمن هما اسمان له متصادقان متعاضدان فمعناه ـ والله أعلم ـ الظاهر بآياته ودلائله المشاهدة له بوجوده على ما هو عليه من علا أسمائه وصفاته، وهو الباطن: أي: المحتجب عن عقول قوم جحدوه، ولم يتحققوا بوجوده.

وقد يكون اسمه الأول إخبارًا عن قدمه، والآخر إعلامًا باستحالة عدمه، والظاهر إخبارًا عن قدرته، والباطن إعلامًا بعلمه وحكمه، وقد يعبر عن هذين الاسمين بأنه ظاهر للقلوب بحكم البرهان، وباطن عن العيان، وهو الأول بالإيجاد والآخر بالإرشاد، وهو الظاهر فيما أظهره والباطن فيما أبطنه، فاعلموا ذلك وألزموا قلوبكم بمعرفته، والعبودية على ذلك.

التعبد

اطلب ـ وفقك الله ـ علم هذه الأسماء فهي أركان العلم، وعمد المعرفة، وابحث عنها جدًّا، فإنه وإن حجب عنك علم ما هو أولك وما هو آخرك وما ظاهر أمرك وباطنه، فقد جعل لك سبيلًا إلى معرفة من الأول والآخر والظاهر والباطن وهو خير لك وأبقى.

واعلم أن كل شيء منك سواك ليس له أول وآخر وظاهر وباطن حتى الخطرة واللحظة والتنفس وأدنى من ذلك وأكثر، وهو محيط بذلك منك ومن سواك، شهيد عليه لا يغادر من ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فاعمل على ذلك، وحافظ على محابه حتى يصل الظاهر منك الباطن والأول الآخر، إنه من عرف قدر هذه الأسماء فمن لديه ألا يدخر من ظاهره وباطنه، وسره وعلانيته، وقلبه وبدنه، وروحه وجسده، ودقه وجله شيئًا من أمره وحكمه، وأن يصل آخره بأوله ويظهر آخره بأوله من ظاهر الإثم وباطنه، لم لا وهو منشئ أوائل أمره ومحسن أواخر حكمه: والمتولي لأمور ظاهره، والعالم بسرائر باطنه، ألم ير الإنسان ضعفه ونقصان عقله، وتشتيت رأيه، وشدة جهله، وتناقص تدبيره وتضايق المذاهب عليه، ويرى مع ذلك أصناف الضلال، وكثرة المحال، واشتباك مغاليط الناس في البدع والأهواء، وما تشعب بكل فريق من مختلف النحل والآراء، ويرى مع ذلك خالص يقينه وقوة استبصاره في تعبده، وصحة تدينه،

وخالص توحيده، ونباهة يقينه من حيرة الشكوك وظلمة الشرك، فيعلم بذلك أن ما به من نعمة وما يجده من علم ومعرفة ليس بحوله ولا قوته، بل ذلك برحمة من الله وسابق فضله.

فصل

إن من أرفع التعبد بمعنى هذه الأسماء العلم بها، وقد تقدم الكلام في كل اسم من هذه الأربعة على الانفراد حسب الوسع، والله نسأله المزيد من فضله ونعمته، وتبقى علينا أن نشير إلى معتقد جملتها الذي هو المراد منها والمعبر عنه بها، قال الله ﷻ وذكر اسمه الله جل جلاله الذي يسبح له كل شيء، وأنه الذي اقتدر على كل شيء، وله كل شيء، وله ملك السماوات والأرض، وأنه الذي يحيي ويميت، وأنه العزيز الحكيم، ثم أجمل ذلك وكل اسم هو له وكل معنى عبر عنه أو عرض به، فقال وقوله الحق: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، فعطف بالواو في الثلاثة الأسماء على قوله هو مجاز الكلام هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن وهو هكذا إلى نهاية ما تسمى به وامتدح من أجله، وقال رسول الله ﷺ: «**هو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء**»(١).

تكاثرت الإشارات وتوحد المشار إليه بجميع ما تسمى به واتصف، فمن أدب الداعي بهذا الاسم العظيم أن تقدم بين يدي دعائه حمد الله والثناء عليه والتمجيد له وذكر آلائه ونعمة الصلاة على رسوله وعلى جميع المرسلين والملائكة أجمعين، ثم يدعو باسمه «الله» جل ذكره ويكرره بلسانه حتى يقف على صحيح التذكار جنانه، ثم يقول: يا من هو الأول والآخر والظاهر والباطن، يا من ليس كمثله شيء وله المثل الأعلى في السماوات والأرض افعل بي كذا، قال الله ﷻ فيما حكاه لنا عن جبريل ﷺ والله أعلم بما ينزل: قد كان استبطأه رسول الله ﷺ وقال له: «**ما حبسك عني؟**» فأنزل الله ﷻ عليه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [مريم:٦٤](٢).

وإنما للشخص خلف وأمام، فالأمام العلو والوجه واليمين والخلف والسفل

---

(١) سبق تخريجه في باب «اسم الله جل ذكره».

(٢) الحديث رواه البخاري في «بدء الخلق» (٣٢١٨)، وفي «التفسير» (٤٧٣١)، وفي «التوحيد» (٧٤٥٥)، والترمذي في «التفسير» (٣١٥٨) من حديث ابن عباس ﷺ.

والوراء والشمال، فهذه حيطة شاملة عبر عنها بقوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [مريم:٦٤].

ثم إذا تحصلت المعرفة بذلك، فإن قوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم:٦٤]، قد أحاط بالجهات الست جملة، فإن الذي ما بين ذلك الشخص الذي له الخلف والأمام ونفس الخلف، فالذي بين ذلك باطن الشخص فهو العبد، وقد أحاط به ربه ﷻ بجميع أوصافه وشمله ظاهرًا وباطنًا، ثم أقضى بذلك على كل موجود من سماء وأرض، ونبات وجماد، وحيوان وإنسان، وجان، وملك إلى جميع الجملة التي أحاط بها ملكًا وخلقًا وأمرًا ظاهرًا وباطنًا كما تقدم في إحاطته بالشخص المضروب به المثل، فله ما بين يدي المخلوق الذي هو كل شيء وما خلفه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤].

كل ذلك معلوم بعلمه مشيئًا بمشيئته مزموم في كتابه، وجملة ذلك أنه لو تُوهم لله الأول والآخر والظاهر والباطن جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه إعراض أو غيبة أو عدم أو سِنة أو نوم سبحانه وتعالى عن ذلك لوجب على ذلك توهم تذكرك الجملة بأسرها ووجوب زوال السماوات والأرض، وجميع ما عدم حفظه وإمساكه إياه، وإذا حققت النظر في تحقيق الأولية فالأول ما هو أول حق لا آخر له؛ لأن القديم الحق لا يجوز عدمه ومن لا يجوز عدمه فهو الأول والآخر، وإذا كان كذلك فهو الظاهر الحق في كونه الأول المعبر عنه بقول رسول الله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»(١).

وكذلك هو الباطن يومئذٍ بما كان في علمه ومشيئته وقدرته ووجوده العلي إيجاده قبل أن يظهر منه بالإيجاد ما شاء إظهاره، وهو المبطن أيضًا بما أبطن من ذلك لما هو المظهر بما أظهره بالإيجاد، وعلى هذا يكون معنى قوله: الظاهر والباطن بمعنى المظهر والمبطن، كما يقال: خالق ورازق على بناء اسم الفاعل، وأما الآن بعد إيجاد ما أوجده فهو الظاهر للبصائر والألباب ألباب الباطن الأبصار بحكم العيان إلا ما شاء من ذلك، ويكون الظهور بمعنى القهر والغلبة والعلو، ونحو هذا يتناوله غير هذا من الأسماء.

---

(١) سبق تخريجه في باب «اسم الله جل ذكره».

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ [الأعراف:١٨٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١]، فكان آدم عليه السلام نفسًا واحدة وكان في وجوده زوجه وجميع ذريته أحدًا ما لم يتوهم له ثانيًا، ولما أوجد الله جل جلاله عنه زوجه وجميع ذريته فكان في نفسه واحدًا فصل عنه جميع ما سبقه العلم العلي في وجوده فكان عليه السلام أولًا لما وجد عنه، ولم يكن في قوته وتحقيق وجوده أن يكون لكل ما كان عنه آخرًا إلا بحكم الانقراض والتمام، فذلك آخر له لما كان له أول كان له آخر، وكان ظاهرًا فيما أوجد عنه بحكم الوراثة والنسل والشبه والتصوير وغير ذلك، وكان باطنًا فيهم بما عبر عنه رسول الله ﷺ في قوله لعائشة رضي الله عنها وقد حاضت في حال سيرها إلى الحج: **«إنما أنت امرأة من بنات آدم فانقضي رأسك وامتشطي وافعلي ما يفعله الحاج غير ألا تطوفي بالبيت»** [(١)].

فألزمها ميراث الشبه بأمها حواء عليها السلام وقال: **«فجحد آدم فجحدت ذريته وغوى آدم فغوت ذريته»** [(٢)].

وقال الله جل من قائل: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝١٢١ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:١٢١، ١٢٢]، فلما عصى عليه السلام عصت ذريته، ولما تاب تاب التائبون من ذريته، وإذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يقول الله جل من قائل: **«يا آدم، ابعث بعث النار، فيقول: وما ذاك يا رب ؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين وواحدًا إلى الجنة»** [(٣)]، كما قال له أولًا يأمر الكون أن يخرج إلى الدنيا استودعه

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الحيض» (٢٩٤، ٣٠٥)، وفي «الحج» (١٦٥٠)، وفي «المغازي» (٤٣٩٥)، ومسلم في «الحج» (١٢١١)، وأبو داود في «المناسك» (١٧٨٥).

(٢) الحديث رواه الترمذي في «التفسير» (٣٠٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وسنده صحيح.

(٣) الحديث رواه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٣٤٨)، وفي «الرقاق» (٦٥٣٠)، ومسلم في «الإيمان» (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه البخاري (٦٥٢٩) من حديث أبي=

في ظهره، وكما يقال له : ابعث بعث النار كذلك يقال له: ابعث بعث الجنة، وذلك في فحوى قول رسول الله ﷺ إلى تمام الحديث، قال: «**فيومئذٍ يشيب الوليد وتضع كل ذات حمل حملها**»، فقال أصحابه: وما قدر واحد من ألف يا رسول الله ؟ قال: «**منكم واحد ومن يأجوج ومأجوج مائة وتسعة وتسعون وما أنتم في الأمم إلا كالرقمة في ذراع الحمار**»[1]، فهذه آية على ما تقدم ذكره ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض .

اسمه الحي تبارك اسمه وتعالى جده

الحي من له الحياة، والحياة فينا معنى باطن متصل بمعنى الإلهي بائن عنه تتصل عن ذلك المعنى أنواع الحركة ظاهرًا وباطنًا، وأصله على استقراء معاني اللغة الاجتماع، تقول من ذلك: حييت بكذا أحيا حياة، وحييت من كذا أحيا حياة، أصل ذلك وإن تفرق إلى وجوهه الاجتماع من ذلك قالوا للمطر: حيًّا؛ إذ عنه يكون كل ذي حياة، وقيل للقبيلة تجتمع بيوتها بموضع واحد: حي لاجتماع أشخاصهم وبيوتهم وأمرهم كله هناك، ومنه حيا الناقة مجتمع فم الرحم منها، وسمي الحي حيًّا لاجتماع أمره كله وأسمائه وصفاته بالحياة، والحياة معنى باطن يدل عليه الأسماء والصفات، كالعلم والقدرة والإرادة وغير ذلك وما استتر من الأسماء عنها .

الاعتبار

الحي على الإطلاق، وهو المتصف بجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا بنهاياتها وحقائقها على الكمال الأقصى على معاني الربوبية، وسمات الألوهية ليست بمجهولة ولا معقولة بل هي موجودة به وجودًا اختصاصيًا ذاتيًا، واستحقاقًا نفسيًا إنما يوجد التغير فيها ويعدم الإطلاق فيما يتصف المخلوق به منها، وحقيقته فيها حقيقة الملك والعبودية المحضة، وفي هذه يكون التفاضل، وفيها تجول الأوهام، وفي وصفها يكثر الكلام، والعليا منزهة عن ذلك تبارك وتعالى ربنا علوًّا كبيرًا، فما جاز للمتصف منا من مجاز هذا الاسم الكريم استحقه في درجته .

=هريرة ﷺ، ورواه أحمد (٤/ ٤٣٢) من حديث عمران بن حصين ﷺ .

(١) الحديث رواه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٣٤٨)، وفي «الرقاق» (٦٥٣٠)، ومسلم في «الإيمان» (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ورواه البخاري (٦٥٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، ورواه أحمد (٤/ ٤٣٢) من حديث عمران بن حصين ﷺ .

واعلم أنهم وصفوا بالحياة ما دلت على صفة الحياة فيه أفعالها وهي الحياة الأدنى، بذلك جاء القرآن وحديث رسول الله ﷺ، والمتعارف فأقل ما قيل فيه: حي النبات والأرض بعد غيثها بالمطر، وكل شيء أيضًا في حال إقباله وصعوده إلى غايته، ووقوفه عليها يجري عليه هذا الاسم ثم في حال انحدار غايته وانحطاطه يبقى عليه من هذا الاسم بقدر ما بقي عليه من النضارة، أو المعنى الذي هو قيام له لكن على ما ذكرناه من التقصير عن معنى الاسم حتى ينزل إلى منزلة نهاية مبدئه قبل فتلك آخر درجة الحياة، فإن نزل عنها انتقل عنه الاسم جملة وخلفه ضده الموت، وقد يوصف بها ما لا حركة به سوى استحالات توجد عنها أو فيها هي غافلة عنها مضطرة إليها، كالأرض والجماد والنبات مما يكون عن مزاوجات الأشياء بعضها ببعض، وجعل بعضها على بعض فتكون منها أو عنها أشياء ليست لها حقيقة، فيقال فيها: إنها فاعلة مجازًا، واتساعًا اختصارًا لذكر الفاعل ثم تصعد من ذلك الحيوان ذي الروح فيكون أقربه إلى المنزلة السفلى وأبعده من استحقاق هذا الاسم ما لم يكن له من الحركة زائد على التعدي المعهود للنبات أكثر من الحس أفعال تكون على نحو القصد إلى أخذ الغذاء ومحاولة النسل، واجتناب بعض المؤذيات، فيكون هذا النوع في منزلته أحق باسم الحياة مما قصر به عن تلك المنزلة، ثم هكذا حتى يصعد إلى نوع من الحيوان هو الإنسان تكون أفعاله على نحو القصد الاختياري والتمييز العقلي، فيكون هذا أحق بهذا الاسم مما قصر به عن هذه المنزلة.

وهذه الحياة في هذا النوع من شأنها أن يتعقبها السهو والذهول والنسيان وغير ذلك، وذلك نزول عن حقيقة الحياة، فبقدر وجود ذلك منه يستحق الاسم كما يقدر كثرة ذلك منه يقصر به عنه، ثم كذلك حتى يصعد بنا النظر إلى من يخرج أفعاله من هذا الجنس وغيره زائدًا على ما تقدم على رضا بارئه من إتيان ما أمر به وانتهاء ما نهى عنه، طائعًا له بذلك، متوجهًا إليه به وحده لا شريك له، فيخرج أفعاله وعلومه لتميز قدره من قدر من أوجده، وتفضيل من فضله، وشكر من أنعم عليه، وعلى نحو كل ما يوجبه الإيمان والإسلام لله لا شريك له ، فيكون هذا الشرف حياة، وأحق تحقيقًا في اسم الحياة وصفتها من جميع ما تقدم وبقدر مقامه على الإيمان والتصديق والنظر في آيات الله ﷻ، فبقدر صدقه في ذلك يستحق الاسم كما بقدر تقصيره يقصر به عنه، وحياة هؤلاء

أشرف من حياة من دونهم، ومن عرى منها استحق أن يوصف بالموت بدلًا من الاتصاف بالحياة.

وهنا سبيل صالحة لتعرف حياة الشهداء، فاسم الحياة إذًا معناها ثبات الأسماء الحسنى والصفات المحمودة، وإذا أوقعنا اسم الحياة على من وجدت منه الأفعال، وهو عنها ساهٍ غافل وسميناه من أجل ذلك فاعلًا، وسمينا القاصر والمضطر إليها فاعلًا، وسمينا المؤمن بالله جل ذكره وبآياته ورسوله وكتبه حيًّا فاعلًا، فالذي اضطر المضطرين واستعمل الساهين والغافلين والذي خلق الآيات وأرسل الرسل وأنزل الكتب واستعمل العاملين له، وخلق فيهم الحياة وجميع أوصافها، وما تصح الحياة وما تبطل بوجوده أولى بأن نسميه حيًّا وفاعلًا، وأحق بذلك بلا نهاية.

وإذا كان ظهور الأفعال دليلًا على الحياة فواهب الحياة والإيمان أولى باسم الحي على الإطلاق، وإذا كان من يخرج أفعاله على حكم العدل وسنن الحكمة وسبيل الإيمان أولى الأحياء بأمر الحياة، فالذي أوجد الأشياء كلها وأحكم كل شيء خلقه صنعًا وحكمة وأحاطها بها علمًا وقدرة، والذي عن نوره كان الإيمان وبتأييد الروح القدس الذي منه كان شهود اليقين أولى باسم الحياة دون نهاية تجد ولا غاية إليها تبلغ.

التعبد

فمبدأ ذلك أن يتحقق العلم به مقدار وسعك كي يوقن بعظيم منفعته وجزيل حظه في الغنى، فتبذل من وسعك في طلبه بقدر ما يكفي خطره عندك، فإن الطالب إذا عرف قدر ما يطلب هان عليه قدر ما يبذل فيه، وفرق بين الحياتين، فبينهما فرقان بين ولكل واحدة من الحياتين موت، فتفهم معنى الحياتين والموتتين.

واعلم أن إحداهما: دينية روحانية، والأخرى: جسمانية حيوانية، ولم يكلف اكتساب الحيوانية الجسمانية إنما كلفنا اكتساب الدينية، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ [الحج:٦٦]، هذه الجسمانية التي هي الحيوانية وموتتها، وقال عز من قائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال أيضًا جل جلاله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة:٢٢].

وهذه الدينية وموتتها وهي من روح القدس يخص الله بها من يشاء، فما يجد صاحبها روح اليقين وبها تنجلي عنه ظلمات الشكوك وتنفتح له المسالك وتكتنف العصمة

ويحتويه النور عند ذلك، ثم يمازج لحمه ودمه فيسمع من بعد الصمم ويبصر من بعد العمى، وينطق من بعد البكم ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

ولقد وصف الله الصادق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه أقوامًا بالموت وبالصمم وبالعمى، وبأنهم لا يعقلون، ما كانوا في ظواهرهم بأموات ولا بصم ولا بعمى، ولكن عميت قلوبهم وصمت وبكمت وماتت فلم تنفعهم حياتهم الظاهرة وصفاتهم حين منعوا بركتها، لعدم بركة بواطنهم، فكانوا بذلك خاسرين، وأما البُصراء العقلاء الأحياء من عباد الله بحياة الإيمان فهم المفلحون، وذلك أن حياة الأجسام وصفاتها بالروح الحيواني الإنساني في ذلك وجميع البهائم سواء هذه هي الحياة الدنيوية.

أما حياة الآخرة فقد انقسمت إلى قسمين لا يدخل أحد القسمين في الآخر، وكل قسم منها أبدي على ما يكون عليه، أما الأحياء هنا بحياة الإيمان فترفع حياتهم إلى حياة لا يحسون بها إلا نعيمًا وفرحًا وسرورًا وحبورًا، ولا يجدون فيها إلا العز والإجلال ولذة القرب والجاه والخير كله تقسط بينهم هذه الحياة على حظوظ وجدان الحبور والسرور، ويقسم ذلك على قدر رفعة الدرجات والقرب، والحظوة أرفعهم درجة وأنبلهم جسمًا وأكثرهم وجدانًا لله، وما هو فيه وغبطته بمكانته، وعلى قدر رفع الحق إياهم.

وأما الأموات بعدم صفات الإيمان فحياتهم هناك حياة لا يجدون معها سوى الآلام والهوان والخزي والعلم بما فاتهم من كريم جوار ربهم، والندم الصريح على ما فرطوا فيه من طاعة ربهم، فهم لذلك يبغضون أنفسهم ويلعنون أنفسهم ويلعن بعضهم بعضًا، لم يرزقوا من الحياة إلا ما يحسون به ضروب التنكيل والخزي والهوان، أعرقهم في ذلك أشدهم إحساسًا لما به يضاعف لهم حسهم لذلك ووجدانهم على قدر ما بين الدنيا والآخرة، منعوا كل حسن محمود وسلط عليهم كل كريه مذموم، فهم على ذلك في بقاء دائم لا يجدون روح العافية ولا يحسون ببرد الرضا ولا يموتون فيستريحون.

فنسأل الله البر الرحيم حياة طيبة في الدنيا والآخرة وفيما بين ذلك فعليون تعلو بالمقربين وهم الأعلون والله معهم، وحياتهم هذه الموجودة بهم في هذه الدار، أعني: حياة الإيمان ترفع لهم إلى عين اليقين والمشاهدة، ورؤية الحي القيوم وسماع كلامه.

والعلم بأسماء هناك وصفات ومحامد تقضيها لم تبلغ حياتهم الدنيا لامتزاجها ونقصها إلى أن يتوهم أكثر ما هنالك من قدر وحبور وسرور إنما طابت الحياة بالرضا والمحبة مع العافية والعلم بالله جل ذكره والإيمان به، فلذلك فاضرع إلى ربك جل جلاله وتعالى علاؤه أن يحل سخيمة قلبك، وأن يحييه وأن يكشف لك عن بصرك غطاءه، وعن سمعك وقره، حتى تبصر حظك وتنظر إلى آيات ربك وتسمع شهادة شواهده، تجيب نداءه بقلب سليم .

واعلم أنك إن حييت هذه الحياة في هذه الدار لم تمت أبدًا إلا الموتة التي كتبت عليك، للنقلة من دار إلى دار ثم تصير إلى حياة دائمة وملك لا تحسن أن تتوهمه فكيف أن تصفه، وإن حرمت هذه الحياة في هذه الدار بقيت فيها إلينا لك نصيبك من الكتاب تضاهي البهائم والأنعام، حتى إذا حان حمامك وفرغت إيمانك أخرجت نفسك من جسدك فحصل لك بذلك موتتان: الموتة التي كنت فيها دار الدنيا، وهذه الموتة التي فارقتها بها ثم يعيدك بعد لا لكرامتك عليه، بل ليجزيك لغفلتك وسوء فعلك .

يا أخي إن الله جل ذكره لم يشترط التذكر إلا من يخشاه، وهو الذي نفعه علمه، وإنما خشية الله بالعلم النافع وقوة الإيمان .

واعلم أن صلاح قلبك هو المراد منك وعليه مدار أمرك، ففرغه لما أمرت به، فجميع طرقك مفتقرة إلى تفريغ قلبك وطلب صلاحه، وهو الذي لا يتم لك بينك وبين ربك شيء إلا به، فإن وهبته لم تسأل ما حرمت من كثير من العمل، قال رسول الله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب**»[(١)]، وذلك موجود في قول الله جل ذكره: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:٤١]، مَنَّ الله علينا وعليك بذلك إنه ولي ذلك لا شريك له .

اسمه الحق عز وجل

معناه ـ والله أعلم ـ واجب الوجود بالبقاء الدائم والدوام المتوالي، الجامع للخير والمحامد كلها، والجد والثناء الحسن والأسماء الحسنى والصفات العلا، وعلى الإطلاق بالتمام الأعلى والكمال الأرفع، ولا يليق به غير ذلك، ولا يجوز عليه سواه، وربما عن

---

(١) سبق تخريجه في باب «اسم الواحد جل جلاله» .

هذا أخذ الحق ؛ لأنه جامع لما ضمه داخله، ومعنى قولنا: واجب الوجود: إنه اضطر جميع الموجودات إلى معرفة وجوده وألزمها إيجاده إياها، قال الله ﷻ وقد ذكر دلائله واستشهاده ببيناته: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦]، المعنى إلى آخره، فأوجب عن كل واجب وجوده أنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، وأن وجود كل ذي وجود عن وجوب وجوده، ثم قال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، أي: لا وجود له، إذ ليس له في الوجود وجود ألبتة، فاستحال كذلك لذلك وجوده، وما كان كذلك وجب استمرار عدمه وتوالى فقره، وإذا كان على ما عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء قبله وهو لا قبل له**»[1]، أي: أنه في أزليته أحد جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه كان الحق، ولما أظهر جملة المخلوقات خلقها بالحق وللحق، قال عز من قائل: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤] فظهر الحق بعضه لبعض ودل عليه به.

ثم هو ينشئ هذا الحق في الدار الآخرة إلى الرؤية وإلى ما عبر عنه قوله الحق: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥] فيكون فيها هنالك ما هو الشمس والقمر والليل والنهار بما هما عليه والفتح والفيح وجميع الموجودات فيما ههنا آية عليه فيما هنالك، فيتبين بذلك الحق المخلوق به السموات والأرض وما بين ذلك، وهو اليوم المبين ذلك لأولي الألباب المتفكرين بما أوجده من الحق آياته على ذلك ودلائله.

الاعتبار

الحق أرفع الأسماء وأعفها وأشرفها، إليه تنتهي جميع الأحكام والعلوم كلها قاطبة، عنه تنفصل وإليه تعود، وإليه تتحاكم العقول، وبه تخاصم الألباب، وعنه تأخذ شواهدها بما في الشاهد المشهود من الحق، وإليه ترجع على اختلافها، وكل ما يعبر عنه به فلن يخرج عنه أو بغيره فهو المعني به، فلا تتلخص عنه من جهة اللغة عبارة، ولا تستطيع العقول الخروج عن حكمه متى دامت ذلك سلبها التوفيق وعزلها بالحكم الواجب عن كونها أن تكون عقولًا وألبابًا، كيف وإنما هي في إيجاده وعلى وجوده وفي

---

(١) سبق تخريجه في باب «اسم الله جل ذكره».

شمول حكمه، فلتحقق حقيقته في جميع خليقته، اتسع بالألباب القضاء، وانضغط بها زمام القضاء، فعبرت به وأوقعت الإشارات منها إليه عنه به ؛ إذ حقيقة كل شيء مأخوذة من الحق وإلى الحق، قربت المتفهم في الأشياء التي يطلب فيها الحق، فالله لا إله إلا هو الحق المبين، وجوده الحق، وقوله الحق، وقدرته الحق، وعلمه الحق، وإرادته الحق، وصفاته العلا الحق، وأسماؤه كلها الحق على ما تقدم من وجوب الوجود واستمرار البقاء، وثبوت الدوام المستولي في أبد الأبد لا إلى أبد، أوجد فعله الحق بكلمته الحق وقدرته، فإرادته وعلمه ودَبَّره بحكمه الحق، وأوجد عن صفاته الحق في فعله الحق حقًا باطنًا عن قلوب العارفين جعله سعيرًا بينه وبين قلوب عباده، ومؤديًا عنه شهاداته، وما استودعه من الحق عند الألباب التي أنارها بنور الحق، فبلغ إليها عنه ما استودعه، ويسل بينها وبينه بها أفهمها عنه، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨، ٣٩] .

ثم إنه ﷻ أرسل رسوله الحق بدينه الحق، ليعم بدعوته الحق جميع المكلفين، ويقطع بذلك جدل الخصمين، ويدحض حجج المعاندين ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] .

فالحق ـ وفقك الله بوجوب وجوده وعموم حقيقته ـ قد ملأ أركان الوجود كلها وشمل نواحي العلم وأطبق على أقطار التفكير، فلم يكن للباطل من الوجود نصيب، ولا من الحقيقة حظ، من حيث إن الحق العلي الكبير لا ضد له من حيث هو، ولما أوجد ما أوجده من الحق سواه أظهر للوهم ضدا هو الباطل عبر عنه بالنفي قبل الاستثناء من كلمة التوحيد قوله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وذلك توهم لا وجود في وجود ألبتة، قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢] .

ثم إن الله ﷻ هو الواحد الحق أوجد عن هذا الوجود الحق العدم، فإنه جل ذكره موجد العدم كما هو موجد الوجود، ثم أظهر الوهم المعدوم وجوده الشيطان والفتن كلها، وما جر إلى الباطل امتحانًا منه للعقول، فذلك ـ أعني الشيطان ـ وعمله وما يدعو إليه باطل وعمله باطل يدعو إلى باطل لا حقيقة له في محبة الحق المبين سبحانه ولا في رضاه ؛ لأنه لم تكن له حقيقة في الوجود العلي الأول الأزلي، وإن كان قد أحاط به

قدرة ومشيئة، وإن كان قد شاء إيجاده علة المحنة، ثم أظهر ذلك في الوجود بحكمة الافتتان، ثم في خليقته بالاكتساب منهم، والله خالق كل شيء وموجود على الحقيقة، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ:٢١]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٣] .

وهذا الباطل يدل على أن الحق موجود من حيث إن موجده حق، وأن مبطله ليس بباطل، وجاعله ليس بمجعول، لا إله إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، له الكلمات التامات والحمد، وله المجد كله، فلكون الباطل في الأزل لا حقيقة لوجوده في الوجود بل وهمًا، كان عند من يدعوه من دون الله دعوى وحدسًا وظنا لا تحقيق لذلك، قال الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] .

ولما كان من موجود العلي الكبير أن يكون له رضا وحب وسخط وبغض وجب في وجوده أن يكون له أمر ونهي، ولما كان ذلك كذلك لم يكن للأمر بد من مؤتمر، وللنهي من راكب له، ومن مخالف إليه، وكان في حكمه الحق على سنن الحكمة استعمال المحبوب بما يحبه ويرضاه، واستعمال المبغض بما يبغض فعله، وكان من تمام الحكمة ووجود الحكم الحق أن يجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وعلى هذا سمى به ما أطيع به وأحبه واجب عليه، وما أمر به حقا، وسمى ما كره فعله وما قدر أن يكون فعله عصيانًا له باطلًا، وقد وسط لذلك عاملًا به ومن يناله وهو الشيطان، أقطعه عمالة ذلك لعنًا له وطردًا عن جواره، وإلا فهو كله حق وجوده بإيجاد من الحق المبين له .

التعبد

اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن إصابة الحق في العقد والقول والعمل تنال شرف الدنيا والآخرة، وباتباع صاحب الحق تنال معرفته، فاعمل ـ نفسك ـ وفقك الله ـ في طلب معرفة ربك تبارك وتعالى، إنه الحق الذي به وبأمره خلق كل شيء، وبه أقام كل شيء، وأراد إقامته، وبه نفذ حكمه وتدبيره وقدرته وعدله ورحمته وفضله، وبه عذب وعفا،

وبه أضل وهدى، وبه أمات وأحيا، وبه أمر ونهى، وقرب واصطفى، وبه ابتلى وعافى، وبه تبرأ ووالى، وبه شهد واستشهد، وبه حمد نفسه واستحمد، فألزم حقه نفسك حتى يتحقق عندك أن حقه لازم لك في ظاهرك وباطنك، في أولك وآخرك، وهو الذي خلقك وصورك فأحسن صورتك، وعدلك وسواك وأنشأك ورباك وحرسك من الآفات، فنعمه عليك سابقة وفيك ظاهرة، وفي شؤونك كلها شائعة، وحقه عليك في كل نعمة جاد بها عليك واجب .

فالتزم حق عبوديتك بكل ذلك ؛ إذ إليه شكر ما ألزمك من عبوديتك بكل ذلك، إذ إليه شكر ما ألزمك من حقه في قلبك وأدواته من فهمك وفكرك وذكرك وعملك وعقلك، فلا تشغل شعبه من ذلك في غير طاعة ربك، فمن حقه عليك: أن تطيعه ولا تعصيه، ومن حقه عليك: أن تخافه ولا تخاف عدوه، ومن حقه عليك: أن تجل مقامه وجلاله وتعظمه بعظمته وكبريائه، ومن حقه عليك أن تشفق من غضبه وسخطه وإبعاده، ومن حقه عليك : أن تعرف بإحاطة علمه وقدرته وألوهيته ووحدانيته، وصمدانيته، ومن حقه عليك أن تعرفه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، ومن حقه عليك: أن تعرف نفسك بعبوديتك وذاتك ومسكنتك وفقرك واضطرارك إليه، ومن حقه عليك: أن تعرف إحسانه إليك وفضله عليك، واستحماده وتودده إليك، ومن حقه عليك: أن تنظر في صنعه، وكريم ما خلقه من شيء وتتصفح حكمته وتنظر في كلامه، وتتلو كتابه حق تلاوته وتحبه بكل قلبك وحقيقة ذاتك، ومن حقه عليك: أن تظهر حقه في جميعك ظاهرًا وباطنًا ، وفي إيمانك ونفسك وإسلامك واستسلامك وصدقك وإخلاصك وذكرك وجميع أحوالك .

واعلم أن حق الله جل ذكره ينقسم في باطنك أربعة أقسام:

أولها: حق الله على القلب أن يصدق اللسان أن يعبر عمّا صدق به القلب، واستسلم إليه ، وهو الإقرار لله ﷻ بصدق لا يخالطه كذب ولا ريبة ولا شك أن الله إله واحد لا شريك له ولا شيء مثله، ولا شيء إلا بمشيئته وقدرته، له الخلق وله الأمر وله المثل الأعلى ، وأن حكمه الحق والعدل في الدنيا وفي الآخرة، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العلا .

والقسم الثاني: حق الله ﷻ على العقل، وهو معرفته بأسمائه وصفاته ومعرفة قدرته

وعظمته وإحاطة علمه وقدرته وجلاله وكبريائه ، ومعرفة ما أنزل بكتبه وأرسل به رسله من أمره ونهيه ووعده ووعيده وملائكته وكتبه ورسله وما جاؤوا به .

القسم الثالث: حق الله ﷻ على الروح، وهو الاستسلام لله تبارك وتعالى بطاعته وعبادته والإخلاص لله وحده بطاعته، وألا تشرك بعبادة ربك أحدًا .

القسم الرابع: حق الله ﷻ على النفس، وهو الخضوع والخشوع له والتواضع بين يديه بالصبر له على منابذة السوء، ولزوم التقوى والخوف والحذر من الله تعالى ، والرهبة والوجل والرغبة والمحبة فيما عنده، والنقد بإيصال الرجاء بوعده والنصح لعباده .

فصل

اعلم أنك وإن كنت موجودًا حقًّا فلست حقًّا لنفسك، وكذلك وجود كل ذي وجود سوى الله جل ذكره ، وإنما يكون الموجود حقًا من جهة، باطلًا من جهة أخرى، فوجوده الحق هو وجود بالله ولله، ووجوده لذات نفسه باطل من هذه الجهة، إذ الله موجده يملك نفسه وروحه وحياته وتركيب أجزائه ومعاني وجوده كلها وتوابعه، فوجوده مستفاد من موجده جل جلاله، قال ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، ثم لما كان موجده هو الباقي الدائم كان هو دائم الوجود عند الإعادة، قال جل من قائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧] .

وعلى تبليغ العبرة هذا المبلغ يكون الوجود سوى الله حقًّا، وكمال التحقيق في وصف الله للحق جل ذكره؛ لأنه يملك السمع والأبصار والأفئدة والذوات وتركيب الأشباح والوجود كله بتوابعه وحقائقه .

وقد تدخل ضروب المغالط على البعض عند مراء بعض هذه المشاهدات، فيظن بعض من غلب عليه ذكر الله تعالى واستغرقه بأنه الحق وإنما يكون الحق بأن يعلم أنه عبد للحق فيومئذٍ يتولاه الحق المبين، وتتحقق الـ«أل» في هذا العبد بوصف العبودية، فيكون عبدًا حقًّا بالحق المبين، قال الله ﷻ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨]، أي: بالولاية وتحقيق العبودية، قال الله ﷻ: ﴿فَانكِحُوهُنَّ﴾ [النساء:٢٥]، يعني: الإماء ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء:٢٥] يريد مواليهن وساداتهن، قال رسول الله ﷺ: «موالي القوم منهم»(١) .

(١) الحديث رواه أحمد (٦/ ٨)، والترمذي في «الزكاة» (٦٥٧)، وأبو داود في «الزكاة» (١٦٥٠)،=

وأما ما أجراه أهل التحقيق من المتصوفين على ألسنتهم من أسماء الله اسم الحق، فإنما ذلك لأجل مشاهدتهم الحق المبين في الحق المخلوق به السماوات والأرض، وربما عبروا عن هذا الحق المثبت في السماوات والأرض باسم الحق العلي، فإن كان ذلك عن معرفة حقيقته فلأجل مشاهدتهم الفاعل دون المفعول، ورؤيتهم الحق في المحقق، ويجري ذلك مجرى قول الله جل من قائل: «ابن آدم، مرضت فلم تزرني، وجعت فلم تطعمني، واستسقيتك فلم تسقني، وكنت عريانًا فلم تكسني، قال: يا رب متى كنت مريضًا فأزورك وجائعًا فأطعمك وعريانًا فأكسوك ؟ فيقول: أما إنك لو فعلت ذلك بعبدي فعلته بي» (١)، وكقوله جل من قائل: «إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكرى إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها» (٢).

فعلى هذا ونحوه يجوز قول القائل منهم: إنه الحق، وهذا مقام من ينظر إلى وجود الموجودات بوجود الموجود العلي ومرتبتهم من الذكر قوله جل جلاله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١ـ ٤]، و﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣].

فيذكرون اسم الله العلي بمعرفة ومشاهدة، ثم يخبرون بها سواه عنه، وربما كان هؤلاء المخاطبين بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

وأما المتعرفون له الطالبون العلم به على سنن الحق المخلوق به السماوات والأرض فهم المخاطبون بقوله جل قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١]، ونحو هذا.

=والنسائي في «الزكاة» (٢٦١٢)، من حديث أبي رافع ﷺ وسنده صحيح وصححه الألباني في السنن الثلاث.

(١) الحديث رواه مسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) سبق تخريجه في المقدمة.

وهؤلاء هم الذين تعرف إليهم بصنعه في مصانعه، وبما نصبه من دلائله، واستشعر به من شواهده، وأعلى من هذه درجة الذين تعرف إليهم بصفاته، كقوله جل من قائل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١]، وكقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس:٦١]، وكقوله جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧] .

وأرفع من هؤلاء درجة من تقدم ذكرهم، وهم الصديقون الشهداء عند ربهم.

ويحك، تب وحقق التوبة والإنابة إليه ولا تخادع نفسك بذلك، وحقق التذلل، اخضع وحقق الخضوع تطلب معرفته والعلم به، وتحقق في ذلك أظهر حقيقة العبودية بالتزامها في ظاهرك وباطنك، إياك أن تقول قولًا بلا حقيقة فيمقتك لذلك، إنما تظهر الحقائق عند ثمرات الأعمال في حقائق اليقين .

ثم اعلم أن الله ـ جل ذكره ـ قد أوجب عليك حقوقًا لغيرك لا تصل إلى رضاه إلا بأن تؤدي إلى كل ذي حق حقه، كحق الرسول المرسل إليك، وحق صحابته الذين آزروه ونصروه وبلغوا عنه ما أرسل به، وحق الأنبياء والملائكة، وحق الأبوين والابن والزوج وذي الرحم والضيف والإمام، وولاة الأمر، وحق الجار والمسكين، وما ملكت يمينك، وحق المعاش وحقوق المسلمين عامة، وكإجابة الداعي وتشميت العاطس، وتجهيز الميت، والصلاة على الجنائز، ورد السلام، وغير ذلك، فآت كل ذي حق حقه أعاننا الله جميعًا على أداء حقوقه إقامة لوازمه بمنه وطوله، إنه ولي ذلك لا شريك له .

اسمه المبين عز وجل

يجوز أن يكون المبين هنا نعتًا لاسمه الحق ﷻ وصفة له في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥]، وأن ظاهره كظاهر قوله: ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:٢٩]، فيكون معناه المبين عن نفسه بما أظهر من دلائله، وبين من شواهده المبينة للحق الدامغة للباطل، وهو مقيم البرهان ومصحح الحجاج، ومميز الحق من الباطل وموضحه، وهو محقق الحق في القلوب، ومحل النفس في ذوات المتقين،

وحارسه من دغل الشك ولحاق الريب، وهو المبين لعقولهم من شواهد الوحدانية وعلوم الألوهية ما لم يخطر ببال لا مثل لناظر ولا هاجس بنفس، ولا ينبغي للحدس أن يبلغه ولا للمفكر أن يتوهمه، وأن يكون من الأسماء المعدودة أولى فيقال فيه: إنه هو الله المبين، كما يقال: الله الحي، والله القيوم، والله الحق، فيكون معناه: الجاعل الشيء البين بينًا لا خفاء به على متأمليه، فهو الذي يوضح الحق بإقامة البرهان .

وقد يكون بمعنى القاطع والفاصل من قولهم: أبان السيف يبين فهو مبين إذا قطع، وأبان الحاكم في حكمه، أي: فصل بحكمه بين الحق والباطل، فقد يكون معنى إدخال الحق المقصود بذلك في البيان كقولهم: أنجد إذا دخل نجدًا، وأتهم إذا دخل تهامة .

وهذه الوجوه بأسرها مبعثها واحد، وهو معنى الفرقان، أبان الحق من الباطل، أي: فرق، ومنه البيّن، سمي بذلك لتفريقه، وقد يكون أنبلته وألبنته، أي: جعلته ذا لبن ونبل، فيكون معناه المعطي البيان لذي البيان، والجاعل البيان مُبينًا والمبين مبينًا .

وجماع هذا كله المفرق بين الحق والباطل، والبيان والتبيين ركن ظاهر من العلم جليل قدره من الوجود، طرقه ظاهرة وآثاره مشهورة، فلذلك لابد من وجود اسم من الأسماء ظاهر يدل عليه، وقد وجدناه، وجاءت به الرواية، فلابد من إفراد الكلام فيه كغيره، وإنما دخلت الشبهة علينا لأجل مجيئه أبدًا تابعًا، ولم يأت ذكره منفردًا على أنه قد يأتي الإتباع في الأسماء، وإن لم يأت فيها كلزومه في اسم المبين .

الاعتبار

اعلم ـ رحمك الله ـ أن العباد لما قصرت أفهامهم عن إدراك كنه بارئهم سبحانه مع ما توجه عليهم من وجوب معرفته، وبين لهم تعالى صفاته، وأظهرها لهم بأسمائه ثم دلهم على أسمائه بآياته، ودلت صفاته على معرفة ذاته، ثم: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فلأسمائه آثار في كل ما خلق، وفي خلقه دلائل على كل ما يسمى به ووصف به نفسه، فحيث ما وجد بين على وجوده فالمبين الحق أوجده، وبهذا الاسم دل عليه، وبه عرفت خاصيته، أبان كل شيء خلقه بما خصه به، وأفرده فأنزل كتابه الحكيم مبينًا عن مراده من عباده، وأرسل رسله تبيانًا لما في كتبه، وما أنزله حتى أظهر الحق من الباطل، وبين الشبهة من الحقيقة بالعلامات التي نصبها والدلالات التي جعلها، وأنه ليس من مكنونات العزم ودقائق آثار الحكمة ، وعجائب متعلقات

القدرة وفرقان خصائص الأسماء في مفترقات المعقولات، ثم اختصت به كل معنى من ذلك مما يزيل به الشبهة ويعلي الحجة .

فانظر ـ وفقك الله ـ وتثبت حتى يتبين لك أن أسماءه وصفاته ملائمة لنظام تدبيره لملكوته، وكيف تدبير ملكوته ينتظم بها، وكيف هي منتظمة بتدبير العالم كله، وكيف العالم مشير بأجزائه وجملته إلى الأسماء والصفات، وكيف تسير الأسماء والصفات إليه جل جلاله حتى يتبين لك الطريق ويستبين لك السبيل، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

التعبد

اعلم ـ وفقك الله ـ أن الله هو الحق الثابت الوجود المستحيل انتفاؤه وعدمه سبحانه وله الحمد، وأن البيان والتبيين رفع عبادًا له في المعرفة من شهود الأفعال، أي: شهود معرفة أسمائه ـ جل وعلا ـ ثم من شهود الأسماء إلى شهود الصفات، ثم من شهود الصفات إلى شهود الذات جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، لذلك أكثر ما يجري على ألسنتهم اسم الحق ﷻ، لثبوت وجد أن الذكر قلوبهم فعليك بطلب اليقين والمثابرة على الاعتبار، ليعرف البيان في معرفته، ومعرفة أمره من نهيه، ووعده من وعيده، وحلاله من حرامه، ومواعظه من أحكامه .

فإنه وله الحمد بيَّن ذلك تبيينًا، وفصله تفصيلًا، ثم اتبع في ذلك رضاه بين صفة خلقه من صفاته ـ جل وعلا ـ حتى تكون على بينة من ربك، وعلم نفسك ولا تقدم على شيء حتى تتبين عاقبته، فإن كان لله فيه رضًا فأمضه، وإن كان غير ذلك فأمسك فهي وصية نبيك ﷺ، بذلك تقل سقطاتك، وتستوجب العصمة من ربك ﷻ، واستكثر من الشواهد في معرفة بارئك، فبذلك تظهر على خصمك، وتدحض حجة عدوك، وتستريح نفسك بشاهد العلم، ويتم أمرك إن شاء الله .

وقد رأيت ما نصبه من البينات وأقامه من الشواهد وما أنزله من الكتب وأرسله من الرسل، كل ذلك ليبين لعباده مراده منهم، فتبين أنت أنه كما بيَّن الله لك ورسوله، وعلِّمه مما علمك الله، وتأدب في ذلك بأدب الله ورسوله، فإنه ما أخذ منك فيما علمك نوالًا، ولا ضرب عليك لذلك مغرمًا بل جعل أجر ذلك عائدًا عليك، وثوابه راجعًا إليك، لتحشر في زمرة العلماء، وتلو الأنبياء، شاهدًا على الناس مع الشهداء، وإياك والكتمان لما تبين لك من معرفته، مما لابد منه ولا غنى عنه، ووجدت له سائلًا وألفيت

له طالبًا، وتبينت له موضعًا، وفقنا الله وإياك لما يرضاه بمنه وطوله .

اسمه الباقي عز وجل

يقال: بقي الشيء بقاءً إذا طالت مدة وجوده، وهي البُقيا والبقية، وقد يكون الباقي: بمعنى الرقيب، يقال من ذلك: بقيت الشيء ببصري أبقيه إذا نظرت إليه، وحقيقته ثبوت الوجود، وضده الفناء، وحقيقة الفناء قطع مدة البقاء بالعدم، ومفهوم البقاء بتوهم الفناء، وأما بقاء الباقي الحق فهو واجب، أي: واجب البقاء، كما تقدم في وجوب الوجود، وأنه اضطر الموجودات إلى معرفة بقائه، والإقرار بوجوب وجوده دون توهم فناء .

اعتباره: يتعرف البقاء أولًا بالمعهود من الموجودات، ثم يصعد بالاعتبار علوًّا، فاعلم أن كل من اتصف بمجاز هذا الاسم من موجود ما ـ كائنًا ما كان ـ فإنما هو ممكن البقاء لا واجب بقاؤه لوجوه:

منها: أنه باقٍ بين عدمين: عدم أول قبل إيجاد موجده إياه، وفناء بعد وجوده هذا، وهو في حالة وجود ممكن فناؤه، والباقي الحق ـ عز جلاله ـ لا يجوز وصفه بهذه الأوصاف ـ سبحانه وتعالى، وما كان من موجودات العالم يوصف بالبقاء فهو في بقائه بمرصد فناء، وعلى ذلك فإنه تتعاقبه الأعراض، وتعتوره الأوصاف بتجديد من الموجد الحق نازل إليه أبدًا ما ثبت في بقائه ذلك، فعلى هذا إنما هو باقٍ بإبقاء مُبق له يخلف المثل، فمتى أراد تغييره أخلف الشيء غيره، وإذا أراد فناء أخلف الشيء ضده، فعلى هذا فانظر إلى جميع ما يقع عليه من جميع الموجودات اعتبارك .

ثم اعتبر بعقلك من وجودها إلى فنائها ؛ لمعرفتك بأن كل شيء يعود إلى أوله، وقد كان كل شيء عدمًا، فسوف إذًا يعود جميعه إلى فناء كأوله، فقد كان كل شيء من سماء وأرض وما بين ذلك ماء، وعرش الرحمن جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه على الماء، والرياح تحول على المياه وتموجها، كما أنه قد كان قبل، ولا شيء سواه مذكورًا ، ولا موجودًا، ثم أوجد ما أوجده لا في موجود كان قبل، فخلق المكان والزمان لا في زمان ولا في مكان، كذلك خلق الخلق كله لا من شيء، خلق ما خلق، ولا على مثال موجود سبق، خلا علمه المحيط به ومشيئته العالية فيه، وقدرته القاهرة، وأمره العلي، ليظهر للألباب حكمته وخفي لطفه، وليظهر ما أظهره من بديع صنعته، ولتشهد له الألباب بما هو عليه من أسماء وصفات، ثم سوف يفترق الجميع ويتفتق الرتق ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

هذا وجه حق وعبرة صواب محكم قد فرغ منه وجفت الأقلام بما كان وما هو كائن، قال عز من قائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]، وقال أيضًا تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

وبوجه آخر من الاعتبار فإنه لما كان هو الباقي الحق لم يكن ليوجد ما أوجده لمحض الفناء ؛ إذ الفناء ليس بصفة له، ولا تسمى منه باسم، تعالى عن ذلك، بل هو الباقي الحق، وما فعله فالبقاء فعله، فإنه لما أرى الألباب عظيم قدرته على الإيجاد، ولطيف حكمته في إتقان الصنع ؛ لأنه الموجود أوجد الموجودات، ولأنه الملك الباقي الحق، استأثر بالبقاء الحق لعزة الربوبية وعظمة الملك، وأعطى الموجد من الوجود من صفة البقاء ما دلَّ به على إمكان البقاء للحدث، وعلى ما استأثر هو به من وجوب بقائه ونزاهته عن تخلل الفناء، ثم أفناهم تفرقة بين عزته وذلتهم، إذ هو المالك وهم المملوكون، ثم هو يوجدهم إظهارًا لقدرته وتدركًا منه لمفعوله بوصف فعله، فإنهم الموجودون عن قدرة الباقي الحق، فسبقهم فيما سبق لهم في علمه على مقتضى أسماء له وصفات، قال الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦]، فنزه نفسه جل جلاله بعلوه عن أن يشاوره في بقائه دون فناء، وعن أن يفعل فعلًا للفناء الأبدي وهو الباقي، فيخرج بذلك عن أسمائه وصفاته، وهو الحق لا إله إلا هو، وهذا على تأويل من وقف في قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، على أنها جملة قائمة كل من عليها فان ويبقى خبره، وذكر الفناء ؛ لأنه لا بد من الإعادة والبقاء في الجزاء الباقي ويكون قوله جل وعز: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، جملة المراد بها: التنزيه عما يلحق الموجودين في الإيجاد والإفناء من التقليب، وفي التقليب من التنجيس، وكذلك قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، على هذا التأويل لصحته فمعناه: كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه، فظهر الصدق في قوله: هالك في بعض الموجودات من وجهين:

أحدهما: هالك بمعنى فان، كقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾ [النساء:١٧٦]، أي: مات.

الثاني: هالك بمعنى مغضوب عليه غير مرضي عنه، كقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج:٤٥]، ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان:٣٧]، فكل موجود مخلوق يتطرق إليه الفناء سواه، وكل ما لم يرد به وجه الله فهالك غير مكرم، وإن كان باقيًا في الهون .

التعبد

تحقق ـ رضي الله عنا وعنك ـ حقيقة البقاء، حتى يخلص لك بقاء الباقي على الإطلاق من بقاء الباقي على التقييد، فبقاء البقاء الأعلى هو الحقيقة، إذ ليس لبقائه ضد يخلفه، ولا ضد للقديم عز جلاله، إنما الأضداد للمحدثات، فلذلك تطرق إليها الفناء بحكم المشيئة العالية، ويوجد لها المثل والعدل، وتلحقها الآفات لعلة الحدث اللازمة لها، ثم إذا تحقق ذلك عندك فاعمل له بكل جهدك ولا تستبق من نفسك باقية في العمل له بطاعته، بأنك إنما تطلب بقاء لا فناء بعده حتى تبقى ببقاء الباقي الحق ذي الجلال والإكرام .

واعلم أنك للبقاء خلقت ولم تخلق للفناء، وإنما تُنقل من دار إلى دار لتُجزى بعملك، والفناء الذي يعتريك في جنب البقاء الذي أُهلت له كالعارية المؤداة، فاعقل من أنت، وعبد مَن أنت ؟ ولم خلقت ؟ وما الذي أريد منك ؟ لقد أُهلت لأمر عظيم ومقام كريم وملك لا يفنى إن عملت له .

وإن جعلته منك بظهر ورغبت عنه، فاعلم أنك لا بد باق في عذاب أليم لا يبيد ولا يفنى، لا تموت فيه ولا تحيا، فالله الله في نفسك التي لا نفس لك سواها، غعليها ـ والله تدور هذه الدوائر بوعد حق وأمر محكم، ألا ترى أن الله ﷻ قد ركبك أيها الإنسان على أربع صفات: عقل، وجهل، وعفة، وشهوة، فالعقل يغالب الجهل، والعفة تغالب الشهوة، والشهوة تغالب العفة، وقد جعل الله لك مع ذلك بواسطة العقل والتثبيت وصدق الملجأ إليه سلطانًا على مشيئتك، فإن عملت خيرًا، وحافظت على توصية ربك، وكنت من حزبه، زادك معونة وأصحبك تأييدًا وقوة على عدوك، وجازاك على ذلك كأنك المنفرد بالعقل المبتدع له، وإن جنحت إلى شهوتك، وآثرت هواك، وتصاممت عن ندائه، وأبيت إلا مضيًا وإقبالًا على شأنك جازاك على فعالك .

واعلم أن الحكمة سُلم العالم إلى نجاته، ومعراجه إلى محل القرب من ربه ومنال

رضوانه، فمن عدمها أو عدم العمل بها عدم القرب من ربه، ومن لم يكن حكيمًا ولا محبًّا للحكمة التي أرسل الله بها رسله وأنزل بها كتبه وخلق بها السماوات والأرض وما بينهما لم يزل ينزل سفلًا في شأنه علمًا وعملًا .

يا أخي، فالبقاء في الجنة العالية خير من البقاء في النار الحامية، والبقاء غدًا في النعيم المقيم خير من البقاء في العذاب الأليم، والبقاء في جوار الرحمن ورضوانه خير من البقاء في البعد عنه وفي سخطه ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء:٣٨]، فأسرع إلى ربك جل جلاله واسأله به لا بسواه عساه يفني عنك ذنوبك وعيوبك، ويقطع ما يقطعك عن طاعته ويصدك عن سبيله، وأن يبقي فيك ما يقربك منه ويزلفك عنده وتحظى لديه، نسأل الله ـ المنان المتطول ـ لنا ولك علمًا نافعًا وعملًا مخلصًا وتوبة صادقة وزادًا مبلغًا وسبيلًا قاصدة إليه، وخاتمة طيبة بمنه ولطف صنعه؛ إنه على ما يشاء قدير .

اسمه الدائم عز وجل

يقال من ذلك: دام يدوم دومًا وديمومة فهو دائم، وهو من أسماء القدم كاسم الباقي، والقائم على بعض وجوهه، واسمه الأول، غير أن اسمه الباقي يشير إلى اسمه الآخر ببعض معانيه، وكذلك قالوا: هو الباقي بعد فناء المخلوقات، وجاء دائم وقائم وباق على بناء اسم الفاعل دلالة على صفات هي الدوام والبقاء والقيام، فهو إذًا الدائم بدوام هو صفته، وكذلك الباقي والدائم، وكل دائم سواه وباق وقائم فإبقاؤه وإدامته وإقامته من القائم الدائم الباقي الحق سبحانه وله الحمد .

وحقيقة الدوام اللزوم والثبوت على حالة واحدة، وأسماؤه وصفاته الأصل الذي عنه انتُزع كل معنى، وإنما شرحنا تقريب المعاني وتفهيم الأغراض، والعلة في ذلك قصورنا عن معرفة حقائق الأسماء في معانيها، وجهلنا بما انتزع منها الأقرب فالأقرب، فربما سبق إلينا أو إلى البعض المنتزع إلا بعد قبل الأقرب، فقربنا بالشرح بألفاظ قد سبقت إلى أفهامنا هي أقرب إلى ما أردنا شرحه أو نظن بها ذلك، فيتطرق مع ذلك إلى ما حاولنا بيانه بعض الإلباس على قوم دون قوم، لكن ضرورة ما ذكرناه دفعت إلى

ذلك، فهو الباقي جل جلاله والدائم والقائم على صفات الألوهية ومعاني الوحدانية والربوبية وشاكلة الصمدانية والقيومية .

والديمة: مطر يدوم يومًا وليلة، ودوم الطائر إذا حلق في الهواء أو رفرف قائمًا في الجو في حقيقة ذلك ولم ينهض على وجهه، ودومت الشمس إذا كانت في كبد السماء، فلم يتبين سيرها بتبين تبين، قال الشاعر:

والشمس حَمرَاء لها في الجو تَدويم

وقالوا: دومت الدوامة، سميت بذلك ؛ لأنها تستدير في حركتها ولا تبرح عن مكانها، وقد قيل في قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣] أنهم إذا قاموا إليها ثبتوا على أحكامها، ولم تبسط جوارحهم لشيء خارج عنها، كما روي عن بعضهم أنه كان إذا قام إلى الصلاة كأنه وتد، وعن آخر كأنه جزع منتصب، وعن آخر ثوب ملقى، وقد يكون المراد بوصف الدوام عليها المحافظة على أوقاتها وأحكامها والبعد عن تضييعها، رضوان الله على جميعهم وجعلنا منهم ومعهم .

فمعنى الدوام إذًا : عدم الحيلولة والزوال، أي: هو على ما لم يزل ولا يزال على ما هو سبحانه وله الحمد، وقيل للجلد المدبوغ: أديم ؛ لأن ذلك أدوم له، إذ الدباغ يذهب رطوبته التي إليها يسرع الفساد والتغير، وقيل لما يؤتدم به في أكل الخبز: إدام، لأن ذلك أطيب في المذاق وأسرع للمأكول وأحرى لاستصحاب الأكل واستدامته، وقد قال رسول الله ﷺ: «**من كان في نفسه خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينهما**» [(١)] .

الاعتبار

اعتباره قريب القرابة من الاعتبار باسمه الباقي، فإن الباقي الحق جل جلاله له ما شاء إبقاء الموجود أبقاه إلى أمده بإبقاء من إيجاده، فإذا قطع عنه الإيجاد أفناه أيضًا، فإفناء كذلك الدوام والإدامة غير أن البقاء ضده الفناء، والدوام يعلم بالثبوت على

---

(١) الحديث رواه أحمد (٤/ ٢٢٥)، وابن ماجه في «النكاح» (١٨٦٤) من حديث محمد بن مسلمة ﷺ، ورواه أحمد (٤/ ٢٤٦)، والترمذي في «النكاح» (١٠٨٧)، والنسائي في «النكاح» (٣٢٣٥)، وابن ماجه في «النكاح» (١٨٦٥، ١٨٦٦) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ وسنده صحيح وصححه الألباني .

حال البقاء هذا في صفات المحدثين، وتعالت على ذلك صفات الرحمن رب العالمين، فالباقي في حال بقائه دائم في ذلك البقاء .

التعبد

اعلم ـ وفقنا الله وإياك لمحابه والعمل بمرضاته ـ أنه جل وعز يحب أسماءه ويحب أن يتحلى بها عباده على ما يحبه من ذلك ويرضاه، فعليك بالمداومة على طاعته ولزوم سبيل محابه، والقليل من العبادة مع المداومة خير من كثيرها مع القطع والسآمة بعدها، قال رسول الله ﷺ: «**أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل**» (١) ، وقال: «**اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا**» (٢) ، وقال عز من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣]، وقال: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨]، وكان ﷺ إذا عمل عملًا أثبته، وكان عمله ديمة، وكان يحب القيد في الرؤيا، ويكره الغل ويقول: «**القيد ثبات في الدين**» (٣) .

ومن انقطع عنه الدوام في عمل البر خسر إن كان في الأصل حبط عمله، وإن كان في الفزع انقطع عنه معروف وجزاء كان يجزى عليه .

يا أخي، فكما يداوم عليك إحسانه ويتابع عليك عواقبه فداوم أنت على شكره والعمل بطاعته وسؤاله، وتضرع إليه دائمًا أن يديم عليك ذلك ويزيدك من نعمائه بالدوام على خدمته والثبات على طاعته، قال الله جل من قائل: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ [النجم:٣٣، ٣٤]، أي: عمل قليلًا، وقطع إلى قوله جل قوله: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩]، وكثيرًا ما كان رسول الله ﷺ يقول: «يا مقلب

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الإيمان» (٤٣)، وفي «اللباس» (٥٦٨١)، ومسلم في «صلاة المسافرين» (٧٨٢) من حديث عائشة ﷺ .

(٢) الحديث رواه البخاري في «الإيمان» (٤٣)، وفي «اللباس» (٥٨٦١)، ومسلم في «صلاة المسافرين» (٧٨٥) .

(٣) الحديث رواه البخاري في «التعبير» (٧٠١٧)، ومسلم في «الرؤيا» (٢٢٦٣)، وأبو داود في «الأدب» (٥٠١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ .

القلوب ثبت قلبي على دينك» [(١)]، وفي أخرى: «على طاعتك» [(٢)]، وكان من دعائه ﷺ: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد» [(٣)].

فسدد ـ رحمك الله ـ وقارب ولازم وداوم، ثم استعن بالله جل ذكره يعنك، وادعه وسله تجده قريبًا مجيبًا، مَنَّ الله بها علينا برحمة منه.

اسمه القائم والقيام والقيم والقيوم جل جلاله

وتعالى علاؤه وشأنه وقد يكون معنى القائم القيام الذي هو الثبوت والدوام على أحد وجوهه، كقوله جل قوله: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ [البقرة:٢٠]، أي: ثبتوا وقطعوا المشي، وكقوله ﷻ: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾ [آل عمران:٧٥].

فإذا كان هكذا فهو قريب المعنى من معنى اسم الدائم والقائم كما تقدم، والباقي يعلم بتوهم الاستحالة والتغير وانتفاء ما يخالف الوجود المتوالي، والقائم على هذا يعلم بمعنى الثبوت واللزوم من جهة ما مع انتفاء ما يخالف ذلك، كقولهم: لم يزل ولا يزال على ما لم يزل، وهنا يجتمع اسم الدائم والقائم، فإنه مَنْ هو قائم على ما لم يزل عليه ولا يزال كذلك فهو الدائم على ذلك أيضًا، ويختص بعد ذلك القائم بمعنى القوام، وينضم إلى ذلك من أوصافه وأفعاله ما يعبر عنه بالعدل، وضده في صفات المحدثين الاعوجاج، فهو على ذلك بمعنى الاستقامة والقوام، كذلك قالوا: دينار قائم، والجميع قيم وقوم، أي: لزمت موضع العدل والقوام، وقائم السيف مقبضه؛ لأنه منبعث استقامته، ومنه قامة الإنسان وغيره، والقامة: رجل يبني على البئر توضع عليها البكرة

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي في «القدر» (٢١٤٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٢٥)، من حديث أنس ﷺ، ورواه النسائي في «الكبرى» في النعوت (٧٦٩٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٣٣) من حديث عائشة ﷺ، ورواه أحمد (٤/ ١٨٢)، وابن ماجه في «المقدمة» (١٩٩)، والنسائي في «الكبرى» في النعوت (٧٦٩١) من حديث النواس بن سمعان ﷺ وسنده صحيح، وصححه الألباني.

(٢) الحديث رواه أحمد (٢/ ٤١٨و٦/ ٢٥٠، ٢٥١) من حديث عائشة ﷺ وسنده صحيح لغيره.

(٣) الحديث رواه الترمذي في «الدعوات» (٣٤٠٧)، والنسائي في «السهو» (١٣٠٤)، وأحمد (٤/ ١٢٣-١٢٥)، من حديث شداد بن أوس ﷺ وصححه الألباني بطرقه.

ومنه قوام الرمح والسهم والغصن، ويقال: قامت الحرب على ساقها إذا استوت بين الفريقين، ومنه: القيام الذي هو ضد القعود، قيل له ذلك ؛ لأنه صعود إلى كمال الخلقة واستوائها، ومن ذلك: دين القيمة، وملة قيمة، أي: مستقيمة على سنن العدل لا عوج فيها، فعلى هذا هو من أسماء الذات تبارك وتعالى، قال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، ثم قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل:٩٠]، ثم قال عز من قائل: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، أي: يعظكم بسبيله ويرغبكم في الاقتداء بمعاني أسمائه وسلوك آثارها، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨]، وقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩] .

وسمى جل ذكره امتثال ما يأمر به، ومجانبة ما ينهى عنه، والعمل بمعاني أسمائه حكمة بقوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦٩]، وبالجملة فإن معاني أسمائه وصفاته ومقتضى أوامره حكمة، وهي القيمة والقوام، فهو إذن القائم على الصراط المستقيم الذي هو الحكمة والعدل والقوام والإحسان دون قطع منه لذلك ولا حول بل لا يجوز عليه ذلك ويستحيل لديه .

الاعتبار

هو الله الذي لا إله إلا هو القائم على كل نفس بما كسبت رقبةً وخلقًا وأمرًا، كل استواء واعتدال وعدل وثبوت وقوام فهو موجده، وبه عرف وهو السلام جل جلاله القائم على الصراط المستقيم الدين القيم دين القيمة وهو موجد القيمة، المقيمين للدين القيم غرزه في جبلتها، وعجن به طينتها وجمع عنه خلقتها من مختلف أمشاجها ومتوحد ذواتها، فأبرزه في ظهورها، وأطلعه في كونها، فكل له قانتون، خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، فلأجل ذلك كل شيء له مستسلم ولعزته خاضع ولكبريائه متصاغر .

فهم القيمة وهذا الدين القيم، هو القائم على كل شيء بجميع معاني وجوده، والقائم على كل نفس مكلفة إقامة الدين القيم بما كسبت، وهي المراقبة، قال رسول الله ﷺ: «ضَرَبَ الله مَثَلاً صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ

مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلاَ تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جوف الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ»[1]، ثم قال: ﷺ: «فالصراط سبيل الله»، وفي رواية أخرى: «الإِسْلاَمُ، وَالأَبْوَابُ: مَحَارِمُ الله، والسور حدود الله، وَذَلِكَ الدَّاعِي الذي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ الله، وَالدَّاعِي مِن فوقه عظة الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[2]، مصداق هذا في قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، مع قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥].

وأما القيوم والقيم والقيام ﷻ فقد يكون القيوم بمعنى القائم وفعله القيام، ويبالغ بقيم، ويبالغ في قيم وقيوم وقيام، والعرب تقول: من يقوم لهذا الأمر، أي: من يطيقه، من يقدر عليه، فهو القائم للخلائق بجميع معاني وجودها، قال الله جل من قائل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]، وقال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فالحي على الإطلاق لا يجوز عليه النوم ولا ما قاربه، والقيوم لا ينبغي له أن ينام، كيف وهو القائم بجملة الخليقة بجميع وجودها جملةً وتفصيلًا ؟! ووجودها كذلك مشاهد لنا على الدوام، والسنة والغفلة والثبوت وما يقتضي ذلك وما قاربه معدوم في موجود قيوميته، وموجود قيام الخلائق بأمره، وقال عز من قائل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فوصف الكرسي بما دونه من الخلائق ظاهر أمره في قيامه بها، قال رسول الله ﷺ: «الكرسي موضع القدمين»، جل جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه، ثم عبر عن نزاهته عن لحاق اللغوب، ومثال النصب بقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]، كيف بأن يناله شيء من ذلك وهو العلي العظيم، فقيوم وقيام بمعنى كما يقال: ما في الربع ديور ولا ديار، وهما للمبالغة من قائم، وتختص قائم بمعانٍ هي أظهر، عبر عن ذلك قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ

(١، ٢) الحديث رواه أحمد (٤/ ١٨٢، ١٨٣)، والترمذي في «الأمثال» (٢٨٥٩)، والنسائي في «الكبرى» في التفسير (١١١٦٩)، والحاكم (١/ ٧٣) من حديث النواس بن سمعان ﷺ وسنده صحيح، وصححه الألباني في «سنن الترمذي».

عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد:٣٣]، ثم قد يتناولهما مبالغة .

اسمه القيوم والقيام والقيم

عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ إلى قوله الحق: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ومعنى الكسب المذكور في قوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد:٣٣]، كل ما هو في السماوات وما في الأرض ووصف الكرسي يتناول وصف العرش بوصف الملك والأمر فافهم .

فاسم الحي الحق يتناول بالشمول جميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلا على مقتضى الحياتين، وهو اسم للذات جل جلاله، ثم اسم القيومية يتناول القيامين كله من لدن الأمر إلى منتهى وجود الموجود، وهو اسم للفعل كله، وبالحمد لله رب العالمين تتم الصالحات، ويحق ما قال رسول الله ﷺ: «اسم الله الأعظم الحي القيوم»(١)، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد:١٧]، ثم بذكر التوحيد مع المشاهدة والحضور بحقيقة المعرفة والعمل بما يُرضي الله تتحقق إن شاء الله .

التعبد

اعلم أن مفتاح التعبد بكل اسم طلب علمه، فتحقق - رحمك الله - حقيقة معناه حسب الاستطاعة، وإياك والقناعة بأوائل العلم، ثم استقر مجاريه في الموجودات، وتتبع آثاره في العالم حتى تبلغ درجة اليقين من معرفته، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإنك إن فعلت ما ذكرته لك تجده قوّم كل مقوم من دين أو دنيا، هو صوّر الصور فأحسن تصويرها، وأقام الأعلام وشرع السبل إلى مقاصدها، وأقام الصراط المستقيم، وقوّام بإطلاقه عبارة عن العدل كله والحسن كله والقصد القويم كله، تيقظ لاستقراء ذلك كل حيث وجدته، وتطلبه في مظانه .

ثم استعمل نفسك بموجبه ظاهرًا وباطنًا حتى تصدق فيه علمًا وعملًا، فهو الدين القيم والصراط المستقيم، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها، وفطر عليها السماوات والأرض، وهي ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة:١٣٨]، لقوم يعلمون

---

(١) الحديث رواه أبو داود في «الصلاة» (١٤٩٦)، والترمذي في «الدعوات» (٣٤٧٨)، وابن ماجه في «الدعاء» (٣٨٥٥)، وأحمد (٦/ ٤٦١) من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها وصححه الألباني في السنن الثلاث .

ولذلك كل شيء له عابد، ولعزته خاضع .

أمرنا ـ جل جلاله ـ أن نلتزم ذلك عقلًا وشرعًا كما ألزمناه في أصل القضية، وجملة الخليقة جبله وكونه ليتصل منا ظاهر التكليف بباطن التكوين، والأمر الآخر الذي هو الشرع بالأمر الأول الذي هو من الفطرة والكون، والواصلون إلى ذلك هم الذين وصلوا ما أمر الله به أن يوصل، وهو الوصل الأعلى والقوام الأرفع، وهم الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، وهم الذين لهم عقبى الدار، وما بين هذه المنزلة من منازل الاستقامة وبين منزلة من صدق بشهادة قلبه ولسانه شهادة فطرته منازل لا يعلم حقائقها إلا الله جل ذكره، وهذه آخر منازل الاستقامة، وأدنى وصل الواصلين، فافهم .

عبر عن ذلك بقوله جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت:٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: «قل: آمنت بالله ثم استقم» [١] .

وبها عبر لنا من جملة الخبر في أم الكتاب التي جعلها مفتاحًا لعبادتنا ومثناة في صلواتنا .

وأجمل لنا فيها المطلوب كما بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] .

ثم اعلم بعد ذلك أن هذا الصراط المطلوب هو صراط الذين أنعم عليهم لا صراط من غضب عليهم ولعنهم، وإنما يدور القرآن وحديث رسول الله ﷺ ووجود الموجودات بما هي عليه على طريق الاستقامة وتفسيره، وما تفاوت الناس إلا في درجات الاستقامة علمًا وعملًا، فقوم له نفسك وأهلك وولدك وأتباعك، وتذكر قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] ثم ناصح الأقارب في ذلك، وقوم من شأنهم ما استطعت، ثم عامة المسلمين، ثم الأباعد حسب الطاقة في المواصلة في الله، والمناصحة في سبيل الاستقامة، وفقنا الله وإياك لما يرضيه بمنه ورحمته .

اسمه الكبير عز وجل

كبر كل شيء مقدمه ومعظمه موضع جملته المشار إليه منه، وقيل للأقعد من الأهل

(١) الحديث رواه مسلم في «الإيمان» (٣٨)، وأحمد (٣/ ٤١٣) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي، رضي الله عنه .

بالولاء: كبر ؛ لتقدمه على غيره وقيامه بالأولاد دونهم، ومنه: قيل للشرف: الأكبر لما فيه من التقدم، ويقولون: ورثنا المجد كابرًا عن كابر، وقيل: شيخ كبير؛ لتقدمه على من هو أحدث منه سنًّا، والكبر مصدر الكبير والكبار، والكبر والكبرياء ما يجده المتكبر من في نفسه، وهو جماع تعزز وتعاظم مع استصغار لمن تتكبر عليه، قال الله جل من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر:٥٦]، أي: هم من العلو والعتو ما تنقضي منه نهمتهم .

الاعتبار

الكبير في الوجود على أنحاء، والذي يليق به جل جلاله من أوصاف ذلك كبر القدر والخطر والمرتبة، وفي الأسماء الحسنى، واستحقاق الصفات العلا، وقد تقدم أن أسماء الله تعالى هي الأصل في وجود الموجودات كلها، ومنها انتزعت أسماؤها، وعنها تتفرع علوم المعلومات، فسميت المسميات على ظواهرها عندنا بما قارب معانيها فيما هناك وبما وجدت عنه منها .

شبهة

وربما استمروا على تسمية أشياء مع كثرة الاستعمال، وإن عدمت المقارنة التي لأجلها سمي ذلك المسمى كما فعلوا في باب اسم العلي، قالوا في دعاء بعضهم لبعض: تعال وكان الأصل في ذلك أن يقول من في العلو لمن هو في السفل: تعال، ثم كثر استعمال ذلك حتى ربما قال من في السفل لمن في العلو: تعال، وكالذي فعلوه في المطمئن من الأرض وهو الغائط، وشبه ذلك فلذلك بعدت بعض أسماء المعلومات من مبادئها وأنكرت تسميتها إلى مبعثها .

واعلم أنهم لم يخرجوا بذلك عن المعنى؛ إذ كل معنى يقع عليه أسماء الله ﷻ فإن ذلك المعنى وخلافه وضده وما دار حوله تحتوي عليه الأسماء المشيرة إليها الواقعة عليها، غير أنه ليست لأسماء الله جل جلاله أضداد، كما أنه ليس له ضد جل عن ذلك، وهو القاهر فوق كل شيء خالق الموجودات وأضدادها ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦]، فكل كبير وصغير موجود في العالم كله فهو موجود بإيجاد الكبير الحق ومأخوذ من حقيقة اسمه، ومعلوم من علمه، كذلك ذوات الموجودات أجمعها هو خالقها وموجدها، وأضدادها وما خالفها،

وما توسط بالوصف بين أوصافها، هو الواحد القهار وليس وصف الكبير والكبرياء والتكبر إلا إخبارًا عن استحقاقه نعوت الجلال والمعالم القدسية المنزهة عن الآفات والنقائص، فكل ذلك إعلام بوجود ذاته كذلك، فاعلم ذلك؛ إذ ليست معاني الأسماء مدركة إلا ببصائر القلوب.

وأما مدارك الأبصار التي في الرؤوس فإنما يقع على الأماكن، وما تقدر تقدير الأماكن، وجل ربنا وتعالى عن ذلك.

فصل

فكبرياء الله شرفه في نفسه، وتكبره هو لإكباره وهو لم يزل كبيرًا، ولم يزل متكبرًا كذلك لم يزل عليًّا ولم يزل متعاليًا، كما لم يزل عزيزًا ولم يزل مسبحًا نفسه، كما أنه لم يزل سبوحًا كذلك لم يزل متباركًا كما أنه لم يزل مباركًا وقدوسًا، وكل شريف سواه وكبير فإنما كبر قدره وشرفه بغيره.

التعبد

اعلم - وفقك الله - أن إعلاء الله العلي قدره وإكباره وتكبيره، وتبريكه نفسه وإجلاله نفسه وإعزازه ومدحه نفسه، وتقديسه نفسه وتنزيهه عدل منه وحكمة وقسط وصدق، أعطى نفسه قسطه الذي هو له أهل، فعدل في ذلك وأقسط وصدق وقال الحق وفعله وأفضل به على عباده وهو العلي الكبير، وما استعبد به خلقه من ذلك فهو من منه عليهم وفضل أفضل به وآتاهم إياه، ونعم أنعم بها عليهم وجب عليهم شكرها والقيام بحقها، فحقت عليهم بذلك الخدمة بالجوارح شكرًا له، وحق عليهم إشغال القلوب بحبه وتفريغها عن الأغيار إلى ما يرضيه ويقرب منه، وذلك أوجب لهم القرب منه لقربهم من صفاته، وطلبهم في ذلك سبيل مرضاته، وبالأخرى التي هي خدمة الجوارح واستعمال الأركان بوظائف الأعمال أوجب لهم جنته والراحة العظمى من عذابه؛ لإجهاد أنفسهم واستعمال أركانهم فيما يرضيه.

فإذا التعبد له بهذا الاسم الكريم التصاغر لكبريائه، وترك الإباء عن المسارعة في طاعته، وترك الاستكبار، هذا في الباطن، وأما في الظاهر فالمسارعة وتمريغ الخدود في التراب ذلًّا بين يديه، وصغارًا ومجانبة لكل ما يكرهه، كما قيل:

هي النفوس قليل العز يبطرها   فلن ينال العلا من لا يعفرها

ولكثر هذه الصفة العالية قال جل جلاله: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعنيهما قصمته»[(١)]، فمن أجل ذلك كان استشعار صغر قدر النفس في التعبد وقلنا آثر شيء في العبادة وأكثره عناء وقربة وبالضد، وكذلك كان ثوابه في الدار الآخرة إكبار قدر العبد، وإجزال الحظ في القرب من الله جل ذكره، وكان موضعه من العقاب المقت والإعراض وتصغير القدر وعدم الحظ، قال رسول الله ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة على صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم تصغر لهم أجسادهم في المحشر حين يضرهم صغرها ويعظم لهم في النار حين يضرهم عظمها»[(٢)]، نسأل الله معافاته ومغفرته.

فمن الحق الواجب على من عرف أن الله هو الكبير أن يلزم التصاغر فيسلك بها سنن التذلل، وقد خلق الله عباده أطوارًا فمنهم من يستقيم حاله على الغنى وقضاء الحاجات والإفضال عليه، ومنهم من يستقيم حاله على الفقر وإلزام الابتلاء إياه والتعزز عليه، وإرخاء الحجاب دونه، ولذلك ما قد تجد عيش بعضهم مع تعززه عليهم واحتجابه عنهم أحسن، وقلبه لربه أصفى، كلما ضربه بالبلاء ازداد له حبًا وأثرة بالضد في الطور الآخر إذ كان بعباده خبيرًا بصيرًا، فأسرع إليه ـ وفقك الله وإيانا ـ بصغار منك، وخضوع في تحقق مقتضاه منك، فإن العمل بمقتضاه أصل الطاعة كلها إذ الكبر أصل لأخلاق الشر كلها، فالتواضع إذن أصل أخلاق الخير كلها، كما أن حب الدعة أصل لتضييع العمل كله، ومن أجل الكبر وجدت الدعة والاستنكاف الموجودان في النفس، فلأجل ذلك فرض الأمر والنهي، فاحرص ـ هداك الله ـ على ألا

---

(١) الحديث رواه مسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٦٢٠)، وأبو داود في «اللباس» (٤٠٩٠)، وابن ماجه في «الزهد» (٤١٧٤)، وأحمد (٢/ ٢٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٩٠)، والحاكم (١/ ٦١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٦٣ ـ ١٤٦٥) من حديث أبي هريرة ﷺ بألفاظ متقاربة.

(٢) الحديث رواه الترمذي في «صفة القيامة» (٢٤٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩)، والنسائي في «الكبرى» في الرقائق (١١٨٢٧)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٢٢٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده ﷺ، ورواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٢٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ والحديث حسنه الألباني في «سنن الترمذي».

يظهر منك الكبر في هيئة ولا خلق، ولا تساعد نفسك على ما جر إليه، وقرّب منه، وخذها بالرياضة إلى كل ما يخضعها ويكسر سورتها ولا يتركها وما تريد منه، ولذلك قيل:

حذرتك الكبر لا يعلقك ميسمه ... فإنه ملبس نازعته الله

يا بؤس جلد على عظم مخرقة ... فيه الخروق إذا كلمته تاها

إني لأمقت نفسي عند نخوتها ... فكيف آمن مقت الله إياها

فصل

قد يوجد منك الكبر محمودًا ومذمومًا، فمذمومه: التكبر على الناس والاستنكاف عن عبادة الله وطاعة من تجب طاعته، قال رسول الله ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[(١)]، ومحموده: التكبر على أعداء الله جل ذكره والأخذ بالإغلاظ عليهم .

واعلم أن تصاغرك بين يدي ربك شرفك عنده، وتصاغرك بين يدي من يلزمك طاعته طاعة لربك، وزين لك عنده وعند أبناء جنسك، كما أن تصاغرك لذي دنيا لدنياه هدم لدينك وتصغير لقدرك عند الله .

واعلم أن من غمط الناس ازدراهم ومن ازدراهم رد الحق على قائله، وهو أصل العصيان كله، والحكمة ضالة المؤمن من حيث وجدها عقلها، فلا تردن حقًّا على قائله، ولا تنظرن إلى أحدٍ بعين الاستصغار، وإياك ومشية الخيلاء وهي جر فضول الثياب، وهز الأعطاف بطرًا والتخصر، ومشية المُطَيْطاءِ وجانب الكبر كله وما تولد عنه، وفقنا الله وإياك لما يرضيه .

اسمه العلي تبارك وتعالى

يقال من ذلك: علا الشيء يعلو إذا ارتفع وأعجز من رامه، وحقيقة العلو من وراء الرفعة والسمو ؛ لأن السامي والمرتفع إنما يفعل ذلك ليعلو، وموجود العلو فيما ههنا هو الرفعة في اعتدال وحسن قوام، ومنه قيل للقناة: عالية، ولجميعها: عوالٍ، ومنه علاء الشرف وكسبه، يقال لذلك المعلاة، لأنه يكسب بالأمور المحمودة والسير القويمة، ويقال: فلان من علية الناس إذا كان رفيعًا فيهم، ويقال: جئت من علٍ ومن

---

(١) الحديث رواه مسلم في «الإيمان» (٩١)، والترمذي في «البر والصلة» (١٩٩٩) من حديث ابن مسعود ﷺ، ورواه أبو داود في «اللباس» (٤٠٩٢) من حديث أبي هريرة ﷺ .

عل بمعنى فوق، وقيل للرأس: العلاوة لعلوه فوق الجسد، وقيل لما يُعلى به فوق الحمل: علاوة، ولم يأت من سما يسمو اسم له ﷻ، ولا من معنى الرفعة على قوله: رفيع الدرجات، وذلك وصف لدرجات فمجازة كقولك: الله رفيع الدرجات، كما يقال: الله الكريم العفو، وحروف العلو والعلاء بأطباعها تعطي معاني العلو لمن تأملها، وهو باب فتح وسبيل قصد إلى تعرف معاني ما عبر عنها بها تطلب ذلك فيها هذا سبيله تصب البُغية إن شاء الله.

وأتى من سما اسم الأسماء، فقولك: باسم الله عند كل بداية، أي: أبدأ بذكر علو الله، وقد تقدمت إلى ذلك إشارة في بابها، ويمكن أن تكون إنما سميت الأسماء بأسماء المعنى السمو لسموها في أفهامنا، وتساميها في تطريقها لنا في الإعلام لنا بها، لترقينا في تعلم معانيها من سفل إلى علو، ولسموها أيضًا في أنفسها بالإضافة إلينا، فإن أسماء الله جل ذكره أظهر في الدار الآخرة منها في هذه الدار لصغر هذه، بالإضافة إلى تلك، وذلك على مقادير عقول الطالبين لمعرفتها لكمال العقول فيما هنالك في أنفسها وتفرعها يطلب علمها يومئذٍ، وإنما يتجلى جل جلاله في سماء علائه لعقل العاقلين عنه على مقادير جعله إياها ثم هو يظهرها في دار البرزخ أبين بيان وأجلى تجلية، ثم يظهرها يوم القيامة أفخم ظهورًا وأوضح، لكنه يبقى إشكالًا في حق المنافقين، ومن كان يعتقده في الدنيا على ما ليس به ثم في دار القرار لا تزال معارفهم تسمو، وسمو أسمائه العلا في حقهم تعلو بهم، وهو لا يزال يبدي لهم منها ما لم يتوهمه وهم ولا خطر على قلب بشر، ثم هو هكذا أبدًا في تجريد ومن يد فهو العلي الأعلى، وأسماؤه تسمو بهم أبدًا.

الاعتبار

سبحة اسم العلاء - والله أعلم - لنفي الأنداد والتنزيه عن الأشكال والأشباه والأمثال، وقد تقدم في صدر الكتاب من ذلك ما يغني عن الإطالة والإسهاب، فكل علو أو علاء فهذا الاسم دال عليه، وهو مأخوذ منه، وكل متصف به سوى العلي الحق فله منه مجاز، وإنما حقيقته للعلي الأعلى - تبارك وتعالى - والعلو في وجود المخلوقين ضده السفل، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، وقال في قوم آخرين: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين:٥]، وقال: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ [طه:٤]، فذكر الأرض وأحال بذلك على السفل كله، وذكر العلو أحال على العلو المجعول كله،

ووصف نفسه العلي جل جلاله بالاستواء من العلو على العرش، وهو أعلى مجعول، ووصف بشمول ملكه جميع ما في العلا إلى أسفل سافلين، وهو ما تحت الثرى، كما قال جل قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين:١٨، ١٩]، ثم أَعْلَم بأنها قرار المقربين، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ [المطففين:٧، ٨] .

ثم أَعْلَم بأنها موضع جزاء المكذبين ودار قرارهم، وهي أسفل سافلين في أبعد البعد عن موضع القرب موضع سجنهم، وهؤلاء هم أهل النار الذين هم أهلها ليسوا منها أبدًا بمخرجين، وأَعْلَم أن أصحاب اليمين في علو الجنات بقوله الحق: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء:٧١]، إلى قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ [الحاقة:٢١، ٢٢]، وجنات أصحاب اليمين جمعها: عوال، والمقربون هم في عليين، وجمع جنات أصحاب عليين علال واحدتهن علية، قال بعضهم رضي الله عنهم جميعًا:

ألا يا عيني ويحك أسعدتني بغزر الدمع في ظلم الليالي
لعلك في القيام أن تفوزي بخير الدهر في تلك العلالي

وأصحاب عليين جلساء الرحمن ـ عز جلاله ـ وهم أصحاب المنابر من النور في المقعد الصدق، وهم الأعلون تعلو بهم عليون أبدًا في علو علوها بأنهم ما سمت بهم أسماؤه جل جلاله وتعالى علاؤه وأسماؤه وشأنه .

التعبد

مفتاح التعبد بأسمائه طلب علمها، فعليك بطلب حقيقة المعرفة به، وطالب أعلى درجات ذلك فإنه العلي المتعالي بالسناء والبهاء والمجد والمحامد كلها والأسماء الحسنى والصفات العلا، سبحانه وله الحمد، ليس له عديل ولا مثل، لا تتقلب به الأحوال ولا تضرب له الأمثال، وإذا تحققت ذلك أبصرته ببصر قلبك ونور إيمانك، فارجع النظر إلى نفسك، وزن لها بميزان العدل، فتستشرف بذلك على حقيقة المعرفة بها، وتبين لك حطيطة منزلها وسفال درجتها، فتقرب إلى الله بالخشوع والخضوع، وأكثر له من السجود باستشعار صغر القدر وسفال المنزلة، وترك طلب العلو ومحبة ذهاب الصيت والزهد في رفعة الذكر في الناس، وشياع الثناء، ثم راجع العمل فيما بينك وبينه بطلب

معالي الأخلاق والتحلي بمقتضى أسمائه على ما يحب من ذلك ويرضاه، ونافس في عُلا الدرجات من ذلك، وسابق إلى ذلك وسارع فيه وتفرغ إليه، وترضه بالرضا عنه، وقطع التعرض في شيء من أحكامه بالتسليم، وارض منه باليسير من عطائه برضى عنك بيسير ما تأتي به، وكما علوت بإيمانك إليه فوحدته دون شريك أو ظهير أو مثيل فوحده أنت في قصدك إليه، واعْلُ بهمتك صعدًا إلى التقرب منه والتخلق بمعاني أسمائه والعمل بمعاني صفاته، ليكون ذلك وصفًا لك عنده على سبيل شاكلة العبودية والخضوع لعزة الربوبية، فإنه جل جلاله: «**يحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها**»[1]، وسله بإخلاص من قلبك وجد من عزمك أن ييسر ذلك عليك، وكل ما نهيت عن استعماله فيما بينك وبين ربك سبحانه والمؤمنين فالتزمه في أهل الكفر والعناد والجحد له.

والذين يطلبون العلو والفساد في الأرض والنفاق في دين الله وأبغض من أبغضه الله، وأحب من أحبه الله، فإن الله يحب المؤمنين التوابين المتطهرين الذين يقضون بالحق وبه يعملون ، واسلك سبيل مرضاة ربك وسنة نبيك ﷺ، وقابل كل فريق منهم من ذلك بقدر ما زاغ عن السبيل وحاد عن الطريق، والسلام على من اتبع الهدى، ولا تدع أن تسأله الرفيق الأعلى واللحاق بالذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وقل: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، وقل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، وقل: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]، وبالجملة فإن موضع التعبد بهذا الاسم الكريم من الثواب هو رفع الذكر وإعلاء المنازل والتقريب بعد التقريب، مَنَّ الله بذلك علينا وعليك وحسن استجابتنا عنه وفضله، إنه ولي ذلك لا شريك له ولا مسؤول سواه .

اسمه العظيم جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

عظم الشيء فيما ههنا أكثره وموضع جملته ومنبعث مادته وقوته، ومنه عظمة الذراع

---

(١) الحديث رواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٦)، والطبراني في «الكبير» (٥٩٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٥)، والحاكم (١/ ٤٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٠٧٨١) من حديث سهل بن سعد ﷺ وسنده صحيح .

للنصف الذي يلي المرفق منه ؛ لأنه المالك لما بعده من المرفق إلى الكف وحامله ومعظمه، ومنه العظم المعروف، سمي بذلك لبقائه على الشدائد وصبره على الأغلب، وهو حامل جملة جسمه وغيره، ألا ترى أن الجسم ليس له قيام إلا به، وهو بالإضافة إلى جميع مؤلفات الجسم أكثر بقاء وأشد عارضة، لذلك قيل لخشب الرجل: عظم لقيامه عليه واعتماده، وحروفه أيضًا بأطباعها تدل على ما عبر عنه .

الاعتبار

العظيم مضاده: الحقير، وقد تقدم أن وصفه بالكبر والعلو ليس يوصف بكثرة أجزائه ولا ذهاب في الجهات ولا علو مكان، فكذلك العظم إنما وصفه بهذه الأوصاف لعظم القدر وعلو الوصف واستحقاقه نعوت الجلال والتعالي وأوصاف القدم، وأنه يقدر على جميع المقدورات بقدرة واحدة، ويعلم جميع المعلومات بعلم واحد، ويريد جميع المرادات بإرادة واحدة، ويكون جميع الكائنات إذا شاء ذلك بكلمة واحدة، وجميع المتناولات تناولًا واحدًا، لم يعجزه قط شيء ولا فاته فائت ولا تعذر عليه متعذر .

ومن أوصاف عظمته أنه قريب من كل شيء بقرب هو وصفه، لا يبعد عنه شيء من العرش العظيم في أعلى العُلَا إلى منتهى المنتهى، وهو مع كل شيء، وإلى هذا فإن خاصة العظم من الكبر إلى الإعلاء أن الكبير يعرف من طريق صفة القدم والدوام والبقاء في الأزل والأبد، لا إلى أمد مع صفة الشرف والسؤدد، فلا سؤدد أبلغ من سؤدد من له الغنى المطلق من كل وجه وعلى كل معنى، وله المجد والكلام بكل وجه وكل معنى، كما أنه لا شرف يبلغ شرف من ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص٣، ٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] .

والعلاء يعرف من طريق سني المراتب ورفيع الدرجات، ولا أسنى ممن له الأسماء الحسنى والصفات العُلا بحقائقها على الكمال الأقصى والتمام الأرفع، ولا أرفع درجة ممن لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه، السبوح القدوس، والعظم والعظمة صفة له، والإعظام والتعظيم حال المعظم له يصيبه عند مشاهدته معاني العلاء والكبرياء والعظمة والجلال، فيجل قلبه إكبارًا له وإعلاء وإجلالًا، فربما عبر عن جملة ذلك ممن حال العبد بتعظيم، وإعظام لعظيم ما شاهده وما يرد عليه من ذلك، فالعظيم إذن هو المهيب المهول ؛ لأنه المتناهي في الشرف والسؤدد مع سعة الملك وشمول وجوده

المدركة لا يعزب عنه منها مثقال ذرة ولا أدنى من ذلك ولا أكبر إلا هو معهم أينما كانوا، وهو الرقيب الشهيد، هذا إلى ما تقتضيه الأسماء الحسنى والصفات العلا وصفته التي هي العظمة تبدو فيما أوجده من عظائم مخلوقاته، كإيجاده السماوات العُلا والأرضين السفلى، وما بين ذلك إلى ما تحت الثرى، ثم إلى المنتهى علوًا وسفلًا، ثم ما بين ذلك من عظيم موجوداته وأعاجيب مبتدعاته، وكيف أقل الجملة بقدرته وعمرها بقوته وحفها بحوله ودبرها بأمره ! وأمسكها بأيده دون علائق من فوقها تمسكها ولا دعائم من تحتها تقلها خلا عظمته وعظيم قدرته بإحاطة قيوميته ! وكيف أودع ما شاء من الجملة ضروب التغاير، ووسم ذلك بسمات النقص ! أودعها دلائل الحدث بما جعل فيها من انقيادها لخالقها وخضوعها لعظمته من قبولها بما وسمها به من ذلك وعجزها عن التخلص والاقتصار على ما قصرها عليه، ثم شهدت له بالقدم وعلى نفسها بالحدوث، وشهدت له بالعظمة وعلى نفسها بالحقارة، وشهدت له بالعزة وعلى نفسها بالذلة، وشهدت له بما شهد به لنفسه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وشهدت على نفسها بما شهد له به وعليها، وكيف رماها بالنقص والافتقار بعضها لبعض حتى أحوج الأعلى إلى الأسفل كما أحوج الأسفل إلى الأعلى، وافتقر الكل منها إلى كلها وسخر البعض منها إلى بعضها، والروح من أمره يتخللها وبحكمته يجري مصالحها، وبما يسخره منها لها جملة بما انهارت قط، ولا انهار منها جانب ولا انهدم منها جانب ولا انتقلت عن مكانها الكلي الذي لا مكان لها سواه موجود، والانتقال والتغير والحراك ولوازم الحدث وعوارض التصريف في سواء الجملة مقصود، وقد يظهر اسمه العظيم جل جلاله في أفعاله يحدثها وأحكام في هذه الجملة يوجدها ؛ كتجليه للجبل فصار دكًا من جلاله وما شاهده من عظمته، قال الله جل من قائل: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤]، ثم قال عز من قائل وقوله الحق: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥]، أي لما يرد عليهن من علو جلال العظمة وعلاء الأمر، فقائل ذلك من عظمته برأفة منه في حكمته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: مكان من لم يسبح من هؤلاء يستغفرون لمن لا يستغفر منهم حتى يأتي أمر الله، فذلك الذي يرد على السماوات من فوقهن، وما عبر به عنه من معنى هذا الخطاب هو متى ظهر لشيء أو

أظهر من ظهوره لشيء ما شاء من ذلك كيف شاء، فهي آية وآيات لعظمته التي هي صفة ذاته جل جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه .

قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته**»[1]، ولكن إذا تجلى الله لشيء من مخلوقاته خضع له فعظمته يظهرها لعباده من عظيم قدرته وعظيم مشيئته وعظيم كلامه وعظيم نظره وعظيم سلطانه وعظيم ملكه وملكوته، وكل ذلك موجود في عظمة ذات ذي الجلال والإكرام، فسبحانه وله الحمد، ما أعظم ما ترى من سلطانه وما أصغره في جنب ما لم تر .

التعبد

قال الله جل من قائل: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، فأولى العبادات وأرفعها قدرًا التفكر والنظر، وقد أخبر الصادق الحق جل جلاله أن النظر من العبد والفكر يسع السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء إذا سلك بنظره صواب القصد، وهذا من أخص الشواهد على عظيم عظمة ربنا جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه أن يجعل همة عبده العارف تتسع لجملة المخلوقات علوها وسفلها، ويسر لعلمه أن يحيط بها خاطره دون زمان محصل، فسبحانه وله الحمد، ما أعظم شأنه، وإذا كان تعظيم العبد ربَّه عن عظيم القدر بمعرفة عظمة ربه وعظمة صفاته رأى عظمة الله في كل شيء دق أو جل، لأنه يعظم عنده قدر اللطيف من حيث لطف لما شاءه حتى أتم فيه مشيئته، كما يعظم قدره عنده بإيجاده العظيم من مخلوقاته، والجسيم من جليل موجوداته .

وإذن كل ما نظر فيه المعتبر ببصره أو يقع عليه همه فعظمة الله جل جلاله تبدو له فيه وشاهدها، فكيف به أن فتح لوهمه باب الممكن الجائز، بل هو الواجب وجوده، وذلك أن العلم قد تحصل بأنه جل جلاله لا تتناهى مقدوراته ولا تضيق مشيئته عن أن يشاء لما شاء، فإنه لو شاء أن يوجد أمثال ما قد أوجده من عوالم على عدد ذرات ما أوجده فيما أوجده، وأضعاف مقادير مثاقيل الذر عوالم، كذلك أوجد على تضاعيف ما تقدم لم يكن ذلك عليه بأعظم من إيجاد خردلة أو مثقال ذرة من ذرات، وهذا العالم كذلك، ليست

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الكسوف» (١٠٤٤، ١٠٥٨)، ومسلم في «الكسوف» (٩٠١) من حديث عائشة ﵂ .

الذرة بأهون عنده من إيجاد أضعاف أضعاف ذرات ما أوجد عوالم، سبحانه وتعالى عن مس النصب واللغوب ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

«قد جاء أن جبريل عليه السلام أرى رسول الله ﷺ نفسه على خلقته التي خلقه الله عليها سادًّا أعظم خلقة ما بين المشرق والمغرب، له ستمائة جناح، فهال رسول الله ﷺ ما رآه من خلقه واستعظمه فقال: كيف لو رأيت إسرافيل ؟ إن العرش لعلى كاهله وإن رجليه لتحت تخوم الأرضين، وإنه على ذلك ليتضاءل أحيانًا من عظمة الله حتى يصير كالوَصَعِ»[1]، يعني: العصفور الصغير.

فهذا عبد من عباده فما ظنكم بخالقه العلي العظيم رب العرش العظيم، فلذلك فاعبده على ذلك، واستقم كما أمرت، ولا تطغ، وميز صفاته العلا من صفاتك الحقيرة، فصفاته: العظمة والعلاء والكبرياء والألوهية، وصفاتك: المحدثة المخلوقة المربوبة المملوكة، وقرر نفسك على ذلك حتى يصح ذلك منك علمًا وعملًا به.

عَظِّم قدره جل ذكره وعظم أسماءه وعظم صفاته، فلا تذكره عند لهوك ولعبك وأباطيلك إلا ذكر تعظيم لشأنه وتوقيرًا لمقامه وهيبة له، حتى ينهاك ذكره عن الفحشاء والمنكر، وعظم اطلاعه عليك ونظره إليك، فإنه ناظر إليك أبدًا، حتى كأنه ما خلق خلقًا سواك ولا يراقب غيرك، فعظم عظيم نظره إليك ومشاهدته إياك، ولا تعصه إلا بحيث لا يراك، ولا تخالف أمره إلا في أمر لا يطلع عليك فيه ولا يشاهده منك، وتحقق في ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**أحيوا قلوبكم بقلة الضحك، وطهورها بالجوع تنظروا إلى عظمة الله**»، قيل له: يا رسول الله، ينظر إلى عظمة الله ؟ قال: «**من جاع عظم قلبه وعظمت فكرته**»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من السوء لا يلقي لها بالًا**»، وفي أخرى: «**يريد أن يضحك بها أصحابه يهوي بها في سخط الله أبعد ما بين السماء والأرض**»[3]، وقال الله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، ﴿فَلَا

---

(١) ذكره ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث» (٥/ ١٩١)، وقال: الوصع: طائر أصغر من العصفور.

(٢) لم أجده.

(٣) الحديث رواه البخاري في «الرقاق» (٦٤٤٧، ٦٤٤٨)، ومسلم في «الزهد» (٢٩٨٨)، والترمذي في «الزهد» (٢٣١٤)، وابن ماجه في «الفتن» (٣٩٧٠)، وأحمد (٢/ ٤٠٢)، وأبو نعيم

تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران:١٧٥]، ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ [البقرة:١٩٧].

وكذلك عظم كتبه وعظم رسله وملائكته وأولياءه وعظم المؤمنين، وعظم طاعته وعظم حرماته، وعظم مناسكه وشعائره.

واعمل في ذلك كله بما يرضي العظيم الحق ﷻ، قدم من ذلك كله ما قدمه وأخر ما أخره، وعظم حدوده أن تتعداها ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ [البقرة:٢٢٩].

وكذلك فحقر ما حقر الله، تعاظم على أعدائه وأهل مشاقته على السبيل التي يرضاها، وقابل كلًا بما يستأهله على قدر خروجه من الهدى واتباعه مهالك الردى، تكن بذلك من حزبه وأوليائه، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم اجعلني حربًا لمن حاربت، وسلمًا لمن سالمت**»[(١)].

اسمه الجليل جل جلاله

قد يستعمل في الظاهر على جريان العوائد، الجلال بمعنى العلو، فمن ذلك تسميتهم غطاء الدابة جلًا، وجلال كل شيء غطاؤه، وجللت فلانًا بالسيف أي: علوته به، وقد يستعمل فيما يقاربه بمعنى الظهور، من ذلك قولهم: أمر جلي، أي: ظاهر بيّن، وجلا القوم من ديارهم، أي: ظهروا في غيرها، ومنه: رجل أجل الجبين، لظهور أعلى الجبهة بعد انحسار الشعر، وكذلك قولهم: جلوت العروس، أي: أظهرتها، وذلك بأن تجعلها على منصة ليكون ذلك أظهر لها، وجلوت السيف والمرآة إذا أزلت صداهما وأظهرت صقلتهما، ومنه قوله ﷻ: ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ [الأعراف:١٤٣]، أي: ظهر له، أو أظهر له من آياته، وأمره ما شاء، وقد يستعمل بمعنى الخيرورة، من ذلك قولهم: خذ جليل هذا، أي: أفضله، ورجل جليل من ذلك أيضًا، وقد تستعمل بمعنى العظم والكبر، ومن قولهم: جللت الشيء: أخذت جلاله وهو كبيره وجليله، وقد يكون من الأضداد في هذا الباب فيقع على الصغير كما يقع على الكبير، هذا حكاه نقلة اللغة والأصل المتفرع منه، هذا ما تقدم ذكره أنه من الجلل والكبر والعظم، وعندي

=في «الحلية» (٣/ ١٦٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٨٣٢) بألفاظ متقاربة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) الحديث رواه الترمذي في «المناقب» (٣٨٧٠)، وابن ماجه في «المقدمة» (١٤٥) من حديث زيد ابن أرقم رضي الله عنه بلفظ أنه ﷺ قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: «أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم» وسنده ضعيف ضعفه الألباني.

ـ والله أعلم ـ أن هذا الاسم متردد بين هذه المعاني المتقاربة، أعني: العلو والظهور والكبر والعظم والخيرورة، ولذلك ما أشكل فعبر عن كل واحد منها مقاربةً وتجوزًا، غير أنه يتبين بما تركب من حروفه على الأكثر والأغلب من ذلك فأكثر ما يكون وأبين وقوعه بمعنى الظهور إذا تركب مع الجيم واللام حرف جوفي أو صدري فيكون من الكلمة بموضع اللام من الفعل، كالجلي والأجلة والأجلى، وقد قالوا: الأجلح كجلاء العروس والسيف والمرآة، فإذا تركبت الأصليتان الجيم واللام، ثم تكررت اللام في الكلمة في موضع العين واللام منها كان ذلك عبارة عن معنى العظم كقولهم: خطر جليل وجلل، وكذلك في الأمر وأمور جلى وجلية، وجل الشيء معظمه، وتارة عن معنى الظهور، كجلال البدن وجللته بالسيف، وتارة عن معنى العلو في القدر، كقولهم: رجل جليل من قوم جلة، والإجلال والإعظام إذًا جامع معاني الخير والعلو والعظم والكبر والظهور هو صفة للجليل، والإجلال والإعظام حالتان للمعظم والمجل لازمتان عن العظمة والجلال ضرورة .

الاعتبار

يقال: فعلت ذلك من أجلك، ومن جللك، ومن جلالك أي: بك وبسببك على يديك ونحو هذا ويقرب من الآجال كلها على تصرفها، وإنما ضربت الآجال لتفصيل القضايا عند حلولها فيكون الكائن من أجل حلول الأمر الذي أحل الأجل ولكل شيء أجل ؛ لأن لكل كتاب أجل وكل أجل له كتاب قال الله ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢]، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣]، كما قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، وكل كائن فمزموم بزمامه محدود بآجاله، مقادير الخلائق كلها قد فرغ الله جل ذكره منها، فهي مسطورة في أم الكتاب على مساطيرها المقدرة في المشيئة العالية والعلم المحيط، ثم هي مرتبة في الإيجاد بالأمر النازل المتقيد على مراتبها، فيفصل بالأمر العلي عند انقضاء الأجل المضروب والوقت المحدود ما أراده على ما سبق في علمه السابق خطه القلم بإذنه في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢] .

فإذن كل شيء حادث يحدث أو أمر ينزل أو قضاء يفصل أو عمل يصعد أو كائن يكون فلجلال ذي الجلال يكون، إذ الجلال وجود نعوت التعالي، والإجلال حال تلزم نفس المجل ضرورة، فلأجله يكون الانفعال في الكائنات، والطاعة لمن لأجله تكون طاعة، والله أعلم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**»(١).

وعلى معاني الإجلال والإعظام والإكبار أنبتت حقيقة الصلاة، فالقيام للإجلال، والركوع للإعظام، والسجود للإعلاء، والافتتاح والخفض والرفع للإكبار، وما بين ذلك معنى قوله ﷺ: «**لو يعلم المصلي من يناجي ما التفت**»(٢).

وعلى معاني هذه الأسماء والصفات ونحو هذا مما يقابل صفات العبد قسم الله جل جلاله الصلاة، فقال: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل**»(٣)، إلى ما يعرض في أثناء الصلاة من اختلاف الأغراض والمطلوبات من سؤال محبوب وتعوذ من مرهوب، أو تعداد نعم يجب عليها الشكر أو امتنان منه ﷻ، يتعرف به إلى العبد يجب عليه الإيمان به والشكر والحمد عليه، ثم جميع أعمال الطاعات والانتهاء عن جميع المنهيات متابعة للصلاة، وعلى هذه المعاني بنيت مع ما يختص به كل من معناه الخاص به على ما سيأتي ذكره إن شاء الله، فاعلم ذلك.

التعبد

أيها العبد ـ وفقك الله ـ أجل ربك جل جلاله وأجل مقامه ونظره إليك وتهيبه، والزم الوقار والسكينة والحياء بين يديه، واضرع بخضوع واستكانة وخشوع بجلاله، واسأله به أن يرحمك ويعافيك ويعصمك، عساه أن ينظر لضعفك ويرحم فاقتك ويجبر

---

(١) الحديث رواه أحمد (٤/ ١٧٧)، والحاكم (١/ ٤٩٨، ٤٩٩) من حديث ربيعة بن عامر ﷺ، ورواه الترمذي في «الدعوات» (٣٥٢٤مكرر، ٣٥٢٥) من حديث أنس ﷺ، وصححه الألباني في «سنن الترمذي».

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٠) عن الحسن ﷺ بلفظ: «**لو علم المناجي من يناجي ما انفتل**»، ورواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (٤٢٢)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١٦٠)، عن عباد بن كثير ﷺ وسنده صحيح.

(٣) رواه مسلم في «الصلاة» (٣٩٥)، وأبو داود في «الصلاة» (٨٢١)، والنسائي في «الافتتاح» (٩٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

كسرك ويقوي ضعفك ويشجع جبنك ويصلح لك جميع أمورك، فقد قال رسول الله ﷺ: «ألظوا بياذا الجلال والإكرام»[1].

وكذلك فأحل ما أحل الله، والتزم إجلال أسمائه وكتبه وملائكته ورسله وأنبيائه، واسلك في ذلك كله مسلكًا يرضيه عنك، تنبه لمحابه وتأدب له بما أدبك من آدابه، إنه فرض عليك الوضوء للصلاة، والغسل من الجنابة إجلالًا لمناجاته والوقوف بين يديه، وإجلالًا لكلامه وكتابه أن تتلوه على غير طهارة، وذلك عزم منه عليك على ظهر باطنك بالتوبة النصوح، وكذلك حضك على السواك يعرض لك في ذلك المحافظة على غاية الطهارة والنظافة في جسمك وقلبك ونفسك، قال رسول الله ﷺ: «لا يصلي أحدكم بحضرة الطعام ولا وهو يدافعه الأخبثان»[2]، إجلالًا لجلاله ﷻ أن يقف أحدنا بين يديه وهو مشتغل بسواه غير مقبل عليه ولا مفرغ قلبه لتفهم كلامه ونعرف معاني خطابه، وهو أيضًا إجلال لمن توجهت بعملك إليه، يعرض لك في ذلك بقطع العلائق ونبذ الشواغل والتجرد لخدمته وتفريغ السر لذكره، قال الله جل قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، أي: على كل أحيانكم وعلى جميع أحوالكم، ومن يتعبد بمقتضاه طول القيام له على الأقدام والقصد له في بيوته وعمارتها بما يرضيه ويقرب منه ومن ذلك طول المراقبة له في السر والعلانية وترك الالتفات إلى سواه.

وحقيقة المقصود في ذلك أن يصير الغالب على قلبك ذكره، فإنه شاهدك ورقيبك مطلع عليك فترجع إليه في كل حال وتخاف من سطوته في كل نفس، سئل بعضهم: بم يستعين المرء على حفظ بصره عن المحظورات ؟ فقال: بعلمه أن نظر الرقيب سابق نظره إلى تلك المحظورات.

واحرص كل الحرص على أن يجعل عملك كله له ولأجله، لأنه الله الذي لا إله إلا هو ذو الجلال والإكرام، ولما يستحقه من عبادة، لا لصواب ترجوه ولا لعقاب تتقيه، فتكون حينئذٍ كالمتطوع بعبادتك، وإلى هذه الدرجة انتهت عبادة العابدين وعنها

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) الحديث رواه مسلم في المساجد (٥٦٠)، وأبو داود في «الطهارة» (٨٩)، وأحمد (٦/ ٤٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

انبعثت، وهو المراد الأول بها لما لم يكن لكل المكلفين تناول هذه الدرجة فصلها لهم على درجات رأفة بهم ورحمة، فعبده قوم لأجل مخافته، وآخرون لأجل رجائه، وآخرون لأجل جلاله؛ لأنه الله ذو الجلال يستحق من عباده الإكرام فتذوق من طعم العبادة مذاقًا لا تحسن أن تتوهمه فكيف أن تصفه ؟! واحذر ثم احذر أن تجل نفسك أو تطلب لها ذلك، واسمع إلى قول رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**» (١).

وروى أنس بن مالك ﷺ قال: «ما كان شخص أحب إليهم رؤية من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك» (٢).

وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه جالسًا، وقد جحش شقه الأيمن، فقاموا خلفه فأومأ إليهم أن اجلسوا، فلما فرغ قال: «**كدتم أن تفعلوا كما تفعل الأعاجم تقوم على ملوكها، إنما جعل الإمام ليؤتم به**» (٣).

ثلاث أكرم الله ﷻ بهن الإسلام والحمد لله رب العالمين: لا يسجد أحد إلا لله جل ذكره، وتحية التعظيم وهو الركوع لا يفعل ذلك من آمن بالله ورسوله إلا لله، وتحية الإجلال نهى المجل أن يرضاها وأن ينتظرها وندب المجل أن يفعلها إكرامًا ليبتلي الله كلًّا في مقامه ويختبره في درجته .

قال رسول الله ﷺ للأنصار وقد جيء بسعد بن معاذ مريضًا بين وسادتين من ليف ليحكم في بني قريظة: «**قوموا إلى سيدكم**» (٤).

اسمه ذو الجلال عز ذكره

يقال: جل يجل جلالًا وجلالة وهو جليل، والله جل ذكره جليل بنعوت التعالي،

---

(١) رواه أبو داود في «الأدب» (٥٢٢٩)، والترمذي في «الأدب» (٢٧٥٥)، وأحمد (٤/ ٩١، ٩٣، ١٠٠) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ وصححه الألباني في «سنن أبي داود والترمذي» .

(٢) الحديث رواه الترمذي في «الأدب» (٢٧٥٤)، وأحمد (٣/ ١٣٢) وصححه الألباني في «سنن الترمذي» .

(٣) الحديث رواه البخاري في «الصلاة» (٣٧٨)، وفي «الأذان» (٦٨٩، ٧٣٢، ٧٣٣، ٨٠٥)، وفي «تقصير الصلاة» (١١١٤)، ومسلم في «الصلاة» (٤١١) من حديث أنس ﷺ، ورواه مسلم (٤١٣) من حديث جابر ﷺ .

(٤) الحديث رواه البخاري في «الجهاد» (٣٠٤٣)، وفي المغازي (٤١٢١)، وفي «الاستئذان» (٦٢٦٢)، ومسلم في «الجهاد» (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

وعلي الصفات وكريم الأسماء وعظيم العظمة ونزاهة وجوده، الرفيع عن جميع نقائص المحدثين وحالات المخلوقين ومقارنة المقارنين، وهو ذو الجلال بمعنى أن له الجلال، وقد تقدم الكلام في معنى اسمه الجليل فأغنى عن الترداد.

اسمه الرفيع الدرجات سبحانه وله الحمد

هذا الاسم معناه من معنى اسم العلي ﷻ أي: رفيع درجاته، كما يقال: حسن الوجه، أي: حسن وجهه، وجزيل العطاء، أي: جزيل عطاؤه، ويكون رفيع بمعنى رافع، والله أعلم، كرحيم بمعنى راحم.

اسمه العزيز عز وجل

العزة: المنعة، لذلك قيل: إنها بمعنى الغلبة والقهر، قيل للمغالبة: المعازة، قال الله ﷻ حكاية عن أحد الخصمين إلى داود عليه السلام: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣]، ويقال أيضًا للشدة: المعازة، من ذلك عازني فلان فعززته بمعنى غالبني فغلبته، وشادني فشددته، قال الله جل قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:١٤]، أي: شددناهم وقويناهم، والشديد منيع، ومنه قولهم عن الشيء: عزازة إذا قل، وكل منها عبارة عن المنعة، والعزوز من أسماء فرج المرأة البكر، قيل للشاة الضيقة الأحاليل: عزوز، لامتناع خروج الدر عنها إلا بجهد وعسر وشدة على متناوله، وقيل للأرض الصلبة: عزاز، لامتناعها على من أراد أن يحفرها، وقد عزز المطر الأرض إذا لبدها فاشتدت لذلك، وقالوا: العزاء السنة الشديدة، ويقولون: أعززتُ بما أصابك، أي: اشتد علي ذلك وعظم، ويقولون: ملك أعز، أي: منيع، وأعززنا في الأرض إعزازًا إذا أوقفوا بلدًا غليظًا، وعاز الرجل غنمه إذا كانت مراضًا لا ترعى فيتجشم أن يحتش لها، من ذلك أيضًا لشدة ذلك عليه وصعوبته، وقالوا: أعززت الرجل إذا وددته، ومن ذلك قولهم: أنت عزيز عليَّ، أي: امتنع عليَّ وجود مثلك، واشتد عليَّ ما أصابك، ومن أمثالهم: مَنْ عزيز، أي: امتنع وجود مثله، أو عز لقاؤه، ارتفع قدره، والرفيع من المتاع يقال له: عز، ومن كرم في قومه فامتنع عليهم وجود مثله، أو العوض منه، فهو لذلك عزيز عليهم رفيع القدر لديهم.

العبرة

ينبغي لنا أن نتطرق إلى الاعتبار لمعنى العزة باعتبار الوجود، فهو جزيل النفع كثير الغنى في هذا السبيل، إذ الوجود عبارة عن وجود الموجود بمعانيه كلها بأسمائه وصفاته، وما يجوز عليه وما يستحيل لديه، فهو الموجد الواجد والموجود أيضًا بمعنى

يقال من ذلك: وجدت الشيء بمعنى أصبته، أجده وجدًا ووجودًا ووجدانًا وجدةً، وقالوا: وجدت وجدًا وجدة بمعنى استغنيت، ووجدت في الحزن أجد وجدًا وموجدة في الغضب، والاسم في ذلك الواجد، وقد قيل: الواجد اسم من أسماء الله جل جلاله، وهو بمعنى الغني، والله أعلم، وسيأتي الكلام على اسم الغني في رسمه إن شاء الله تعالى.

ومن العبرة: بما يقارب ذلك الجدي وهو الغنى، تقول: ما يجدي عليك هذا، أي: ما يغني، ويقال: جدى عليه يجدو أعطاه، وهي الجدوى، والجدي معنى هذا كله الغناء، وكذلك هو الموجد بمعنى المعطي بمعنى الإيجاد، وهو إخراج الموجودات من العدم إلى الوجود، وقد قيل: إن الموجد هو من الأسماء والله أعلم.

فهو إذًا الموجد لكل موجود بإيجاده إياه، يقال من ذلك: أوجد يوجد إيجادًا فهو موجد وأجاد في إيجاده فهو مجيد، وكذلك هو الموجود لمن طلبه بما نصب على معرفته من الآيات، وأقام على سبيل معالمه من الدلالات، وهو أيضًا الموجود لمن طلب طاعته والعمل بمرضاته، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠]، وقال عز من قائل: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور:٣٩].

وإنما يعلم وجود الموجودات سواه من وجود الحق، كما يتحقق وجوده الحق من وجود مفعولاته، فهو إذًا الواجب الوجود وما سواه ممكن وجوده، وإنما دخل وجود الأغيار في الإمكان من حيث مشيئته العالية وقدرته النافذة وعلمه المحيط، ما شاء من الإيجاد أوجده وما لم يشأ لم يكن له وجود، وسيأتي ذكر هذا إن شاء الله تعالى، فالعزيز إذًا هو الغالب الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يقهر، والمانع الذي لا يمنع.

ويقال: عز يعز برفع العين إذا غلب كقول القائل: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣]، أي: ملك الخطاب دوني فمنعني المحاجة، وقد قيل: العزيز هو الذي لا مثل له، ويقال: عز يعِز بكسر العين في المستقبل، أي: صار عزيزًا، ويقال: عَز الشيء إذا قل وجوده، وإذا كان الذي يقل وجوده عزيزًا، فالذي لا يجوز أن يوجد له مثل ولا شبيه أولى بذلك جدًا، وقد قيل: العزيز في وصفه هو بمعنى القادر القوي، يقال منه: عَز يعز بفتح العين في المستقبل إذا اشتد، وإذا كان ما يتعذر الوصول إليه مع جوازه يسمى عزيزًا، فالذي يستحيل الوجود إليه أولى بأن يكون عزيزًا.

والعزة فينا ضدها الذلة، وكل متصف بهذه الصفة سوى العزيز الحق فإنما له منها مجازها وله ﷻ منها حقيقتها على الإطلاق، فهو العزيز الذي لا يضام جاره ولا يذل أنصاره، وهو المنيع الذي امتنع عن الأبصار أن تدركه وعن الأوهام أن تكيفه، وهو القوي الذي لا يغالب، والقادر الذي لا يناهض، وهو الذي لا يعجزه شيء ولا يتعذر عليه، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، لا تدركه الحواس ولا يقاس بالناس، تعالى في علائه وتقدس في كبريائه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم فعله، أمضى القضايا دون راد لها، وإنفاذ الأحكام دون متعقب فيها، هو الذي رتب المرتبات على جريانها، وقسم الأقسام على متقاسماتها، وصرف الأمور في متصرفاتها، وأجرى التدابير في حكمته على أحكامها، فأحل أهل الخصوص عنده أعالي الدرجات وأسفل بآخرين إلى أسفل الدركات، ويسير جميعهم لما سبق في سابق علمه فيهم، ولكل درجات مما عملوا يخفض القسط ويرفعه، لا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، ما عازه أمر قط، ولا عزه ولا شاده أمر ولا أعجزه، ولا أراد شيئًا إلا شيأه له، تقاصد البعيد ولان الشديد وتذلل الصعب وظهر الغيب، كيف فكل غيب فهو غيبه وهو مشاهده وكل صعب فهو الذي كذلك أوجده وكل هارب عنه ففي قبضته يتغلب وكل شارد عنه، فإليه يذهب عز العقول فلا تتصوره، وجل عن الإشارات فلا تثبته، ألبس الجبابرة عزته فذلت، وصب على الوجوه مخافة سطوته فعنت، ورمى الغلب من الرقاب بهيبته فخضعت، عز فلا يذل ولا يغلب، وقدر فلا يتكلف ولا ينصب، كيف يجوز عليه النصب أو اللغوب ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، الحدود لا تقطعه والأعداد لا تحصره، ليس لذاته تكييف ولا لفعله تكليف .

فاستصحب ـ هداك الله ـ النظر بصحيح الفكر فإنك تجده ﷻ عزيزًا منيعًا معزًا لأوليائه مانعًا لهم وعنهم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨]، ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة:٢٥١]، المعنى إلى آخره وكذلك فانظر إلى أنواع المخلوقات على تباينها فما امتنع الممتنع ولا انتصر المنتصر ولا شاد المشاد على اختلاف ذلك كله إلا بمقتضى ما عبر عنه هذا الاسم الكريم وموضعه من الأعمال، الطاعات لله كلها على الصراط المستقيم وموضعه من الثواب العافية والجنة، إذ العافية كلها نصر والجنة ظفر، كما موضعه من العقاب العذاب كله

والخاصة الإذلال والخزي والهون كله، ولذلك كانت هذه الصفة وما عبر عنه هذا الاسم جامع.

التعبد

اعلم - هداك الله - أن العزيز الحق ﷻ حرم على عباده العلو والتكبر والتعزز في الأرض بغير الحق، فقال ﷻ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٦]، وقال جل قوله: «**الكبرياء ردائي والعزة إزاري**»، وفي أخرى: «**العظمة**» مكان العزة «**من نازعنيهما قصمته**»[١].

وإنه ﷻ للذين سبق في سابق علمه وأراد من إنفاذ حكمه الذي جعله ابتلاءً واختبارًا لعباده عن فهم بأنفسهم ليعرفوه إحسانًا منه إليهم وامتنانًا عليهم، فأعلمهم مما خلقهم وفيما أنشأهم ليعرفهم بقدرهم ويوقفهم عند خطهم ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢]، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢، ١٣]، وقال جل قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة:٧، ٨]، ومثله في القرآن كثير شائع، فأعلمه أنه جعل أصله من التراب الذي جعله للأقدام مداسًا وللنعال موطئًا، ثم جعل خلقه بعد من ماء مهين لا حراك به ولا انتصار له، تقذره نفس الإنسان وتغسل منه الثياب، وأكد ذلك عنده بأن أوجب عليه غسل بدنه كله من ذلك لعلة خروجه منه، إعلامًا له بأصله وتنبيهًا بقدره.

خطب رسول الله ﷺ يومًا فقال في خطبته وبصق في كفه: «**يقول الله ﷻ: أتعجزني يا ابن آدم وإنما خلقتك من مثل هذا**»[٢].

ثم أبرزه بعد ذلك وأقره في قرار وجمعه في وعاء وغذاه بغذاء لو أبصره بعينه وشاهده بعقله لسخنت بذلك عينه وانزوت عند ذلك نفسه، ثم قدر خروجه عن مستقره ذلك من حيث يعلم لا يستطيع إنكار شيء من ذلك، ولا يمكنه جحده، كان أبو بكر الصديق ﷺ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الحديث رواه أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه في «الوصايا» (٢٧٠٧) من حديث بسر بن جحاش القرشي ﷺ، وحسنه الألباني في «سنن ابن ماجه».

كثيرًا ما كان يقول في خطبته: أيتكبر أحدكم وقد خرج من مخرج البول مرتين ؟!

ثم بعد هذا ألزمه ذلك ذل الفقر إليه فلا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن من ذات نفسه بل بمعونة من بارئه ﷻ، وهو مع ذلك تنقض عزائمه وترد إرادته وتنعقب أعماله وتترقب أحواله وتحصى أنفاسه، مزموم بزمام القدر، مثقف بإلزام مقتضى الأمر والنهي، مملوك الأولية والآخرية، مصور الظاهر على غير اختياره، مجهول الباطن، قد ألزمه الذل العتيد والفقر القعيد، ذل الفقر إلى الطعام والشراب وذل إخراجه، ويكفي بذلك ذلًا مهينًا، ثم جعله يتنخم على فيه شيئًا إذا نظر إلى ما خرج من فيه قذارة وأشاح بوجهه عنه نزاهة منه وإبعادًا له، وإلى هذا جعل المخاط على فمه في وسط وجهه الذي هو أعز الأعضاء عليه، وجعل الوسخ في أظافره والوضر على جلده، والقلح في أسنانه، والشعث في شعره، والسهك في بشرته ما لم ينظف، والقذى في عينيه إلى غير ذلك من أقذاره .

وكذلك أذله بالخوف اللازم لا يكاد يخلو منه على حال ما كان معدودًا في أهل التمييز ؛ لأنه إن لم يهتم بآخرته اهتم لدنياه ولا محالة، وأذله أيضًا بالمرض وبالموت وبالفقر فهو يتقلب ولا يأمن مخافته طرفة عين، يتوقع أبدًا ميتة تفاجئه أو بلية تنزل به أو فتنة تضله ومحبوبًا يفقده أو مطلوبًا يفوته، وكل مكروه يتوقعه قد جعل لكل هذا عرضًا إلا ما دفع الله كل ذلك منًّا الله عليه، ليعرفه قدره فينبهه على رشده، وجعل هذا كله آيات على مكروهات تصيبه إن لم تحطه رعاية من ربه جل ذكره .

ذكر بعض المعتبرين: عجبًا لابن آدم بكل مرصد له عدو، إنه ليغلق بيته على أعداء ذوي عدد أولها: نفسه المضلة له وهي أكبر أعدائه وأضرهم عليه، وشيطانه، وزوجته وولده، وماله، وحية تكون في بيته من عوامر البيوت، والوزغ والفأر والقمل والبق والبراغيث، وصدق رحمة الله عليه .

وإذا أمعنت النظر وتابعت التدبر وجدت كل شيء في الدنيا له عدو إلا ما كان من ذكر الله أو أوى إليه، ألا ترى أن كل مأمول عنده ومرغوب فيه، كل تقصير عنه له مؤذ وكل إفراط منه مضر، وكذلك إن حققت النظر وجدت جميع أحوال بني آدم في متقلبهم ومثواهم وتحركهم وسكونهم مبنية على التعذيب والنكد، وإنما معنى الراحة فيها خاطر طارئ، لو قيل له: اقعد أبدًا، أو كن متكئًا أبدًا دهرك كله أو مضطجعًا أو

قاعدًا أو قائمًا، أو اسكن في مكان مقصورًا عليه لا تصير منه إلى غيره، أو ارتحل أبدًا، لكان قد كلفه ما لا صبر له عليه، فتحقق بذلك ما ذكرناه، وإنما الراحة بالتحول من حال إلى حال، ثم ترجع حاله إلى ما أنبتت عليه، وهي حقيقة قول رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1] من حيث إن الإيمان قيد الفتك في حق المؤمن، فهو لا يتقلب في كل شهواته ولا ينطلق إلا على ما أبيح له من مطلوباته، والكافر بضد ذلك .

فمتى أردت ـ وفقك الله ـ العز الأكبر، والخير الأكمل، والشرف الأرفع ففر من هواك إلى ربك، ومن نفسك إلى ربك، ومن عدوك إلى ذي النصر العزيز والحرز المنيع، واطلب العزة عنده، وصابر على ذلك، ورابط واصدق في طلبها لديه تجدها عنده ـ إن شاء الله ـ غير ممنوعة ولا محجور عليها، وإياك أن تطلبها إلى سواه فيكلك إلى من طلبتها عنده، فإنه جعل هذه الصفة الرفيعة خالصة لمن طلبها عنده، فقال عز من قائل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [فاطر:١٠]، وذكر قومًا طلبوا العزة عند من سواه فقال جل قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٣٩]، فأنبأك نصًّا صريحًا لا إشكال فيه أن العزة له يعز بها من يشاء ويذل من يشاء، والذين خصَّهم بالعزة من بين خليقته في الدنيا والآخرة هم أهل طاعته، قال الله جل من قائل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [فاطر:١٠]، وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٨٨] .

وتذلل ـ هداك الله ـ لعزته الذل كله، وتضاءل لعظمته التضاؤل كله، وتضرع إليه في خلوتك، وسله ﷻ عساه ينظر إليك نظر عطف ورحمة، فيهب خدك للتراب ذلًّا بين يديه، ويدخلك في أوليائه والعاملين بطاعته، فذلك يفضي بك إن وهبك إلى عز لا ذل يصحبه، وشرف، لا ضعة تتخلله، حيث يدوم العز والشرف مع ما يعجله لك من ذلك في دار الدنيا، ثم تذلل لأوليائه وأهل طاعته، فبذلك أمر نبيه ﷺ حيث يقول: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨]، ومدح أقوامًا بذلك ـ رضي الله عنهم وعنا ـ رضي فعلهم، فقال جل قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٥٤] .

---

(١) رواه مسلم في «الزهد» (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ .

وتعزز على المنافقين والكافرين والعصاة واغلظ عليهم، وقابل كل طائفة من ذلك بقدر بعده عن الحق وخروجه عن سواء القصد، فقد مدح جل جلاله أقوامًا ﷺ فقال: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣] .

اسمه الصادق عز وجل

يقال منه: صدق يصدق صدقًا فهو صادق، وصدوق مبالغة، والصديق الكثير الصدق، فمن صدق الآيات وأتم بالدلالات وأجال فكره في الملكوت، ولا يمر بخاطره ذكر آية من آيات الله إلا ازداد بها إيمانًا وتصديقًا، وصدق الله فيما عاهده عليه ووفى فهو صديق، وقد يقال لمن كثر صدقه: صديق أيضًا .

واسمه الصادق ـ جل ذكره ـ قريب معناه من اسم الحق، فالصدق ضده الكذب، والحق ضده الباطل، وكما أن الباطل ليس يرجع إلى حقيقة تعتقد كذلك الكذب ليست له حقيقة يقع عليها الخبر ؛ لأنه خبر عن مخبر ليس به، ألا ترى أن حقيقة الصادق وخاصته التي يختص بها ـ والله أعلم ـ هي مَنْ صدرت عنه أفعاله وأقواله عن هذا المعنى المسمى بالحق، والصدق حقيقته استواء الظاهر والباطن في حكم الحق من قوله: عود صدق إذا فجئته فوجدت ظاهره مساويًا في الصلابة لباطنه، ومنه الصديق، يقال منه صديق بين الصداقة إذا محض الود صديقه، فمحضه الود ظاهرًا وباطنًا .

ويقال من ذلك: رجل صدق، وامرأة صدق، وصدقة إذا كانا كاملين في الوداد والخير، ومن ذلك قوله في الفرس: إنه لذو صدق إذا كان جريًا صادق الجملة، وجاء الصديق على وزن فعيل لكثرة ذلك منه مثل فكِّير وضريب وشريب ؛ لأن الصديق صدق الله في آياته وشواهده ودلائله وأسمائه وصفاته وأفعاله وحكمته وكلماته، وارتقاء بالتصديق للغيب في درجات المعرفة واليقين، قال الله ﷻ يصف نبيه ﷺ: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف:١٥٨] .

ولا يقع عليه اسم صديق حتى يوافق بتصديقه ذلك الحق بتوفيق من الله ﷻ له إلى الذي هو عنده الحق، ويقال: رجل صادق إذا صدق في وعده ووفى بعهده، وصدوق إذا أكثر ذلك منه، كضروب وقتول، ومنه الصداق والصداق والصدقة وهو المهر، قيل له ذلك؛ لأن كل واحد من الزوجين أفضى منه إلى صاحبه وأخذ عليه الميثاق والعهد

بحسن الصحبة وجميل العشرة في ذلك لما جعله الله ﷻ من أجله بينهما من المودة والرحمة، ومنه الصدقة قيل لها ذلك ؛ لأن صاحبها يصدق بها ضميره المغيب .

اعتبار

اعلم ـ رحمك الله ـ أن الطرق إلى معرفة هذا الاسم العلي من جهة الاعتبار كثيرة جدًّا، وهو عظيم النفع، كثير الغنى في سبل الإيمان ؛ لأن منه خرج وعنه أخذ، وهو لا محالة موجود في معاقد كلماته الصادقة من عهده ووعده ومجاري أحكامه، وفصل قضاياه من مبدعاته ومن منشآته، فتدبير أمره من تكوين الأكوان والمحو والإثبات، فأنت إذا حققت النظر وتابعت الفكر واستصحبت الاعتبار راغبًا في ذلك كله إلى الحق أن ييسر لك الصدق ويلحقك بالصادقين ويقصد بك قصد الحق تجد أوائل الأشياء كلها التي هي مبادئ لما تحتها تتصادق على مقدار تقاربها، وتتجاذب على أوزان تشابهها، ثم تجده تعالى ابتدع البدائع أصنافًا وقدَّرها أنواعًا مؤلفًا بين متباعداتها، مفاوتًا بين أوقاتها، مباعدًا بين ذواتها، ملائمًا بين أخلافها وأدواتها، كلٌّ لكل مفارق، وبعض لبعض مقارن، مختلفات في اتساقهن، متفقات في اختلافهن، جعلها سبحانه ـ وله الحمد ـ دلائل على أنه الواحد الأحد خلق كل شيء وقدره وقهره شواهد على قدرته، نواطق عن صدقه .

وسأضرب من ذلك أمثلة يستدل بها على سواها، فيبدأ أولًا بطرق الاختراع والإنشاء في أوائل الوجود، فإني أرجو لمن تمهد له طريقها أن يشرف بها بعون الله تعالى على ما تحتها، إذ الكتاب لا يحتمل الإكثار والأمر أوسع من أن يوقف على خفاياه عيانًا، فإيثار الاختصار إذن أولى، ومن استهدى فسيهتدي، من ذلك ما أخبرنا به الصادق الحق جل ذكره من خلقه آدم عليه السلام، ومما خلقه ؟ وأين أسكنه ؟ ولما أخرجه من مسكنه؟ وإلى أين أهبطه ؟ وقصصه كله من أوله إلى آخره، كيف صدقت كلمته في ذلك كله في أعمالنا وفي أطباعنا ومواريثنا منه ؟! وكيف صدقت الكلمة فيه وفي مواريثه مما خلق منه؟! قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لما خلق آدم واستخرج منه ذريته رأى أحد ذريته عليه نور كثير، قال: رب من هذا من ذريتي ؟ قال: هذا ابنك داود، قال: رب كم قدرت له من عمر ؟ قال: ستين، قال: زد في عمره، قال: ذلك الذي كتبت له، قال: رب زد من عمري في عمره أربعين سنة، قال: فأنت وذلك، فكتب عليه يومئذٍ كتابًا فلما أهبطه الله**

إلى الأرض جعل يعد لنفسه حتى أتاه ملك الموت قال: إنه لم يأن لي بعد، قال: إنك قد وهبت ابنك داود أربعين سنة، قال: ما كان ذلك، فأخرج له كتابًا يكتبه عليه يومئذٍ، قال رسول الله ﷺ: فجحد آدم فجحدت ذريته، وغوى آدم فغوت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته»[١].

وذكر في بعض الآثار: «أن الله ﷻ لما أراد خلق آدم قبض من الأرض قبضة فكان من الأرض الحزن والسهل والأبيض والأحمر والأسود والطيب والخبيث، فخرج بنوه على مثل ذلك»[٢].

فانظر إلى صدق الكلمة التامة في ذريته منه من جهة الشبه، وفي الأرض من جهة الأولية والمبدأ، وكذلك أيضًا لما كان من الأرض ما يخرج نباته طيبًا بإذن ربه، كالزرع والزيتون والرمان والنخيل والأعناب والثمرات الطيبة كان من ذريته المؤمن والمسلم والطائع والشاكر، ولما كان من الأرض ما لا ينبت كالسباخ ورؤوس الشواهق الجردة والبقاع الجدبة كان من ذريته الكافر، ولما كان من المرار ما منظره حسن وريحه طيب ومن الشائكات، كذلك وقد يطلع القبيح المنظر منها زهرًا وينضج ثمرًا كان من ذريته المنافق والمرائي بعمله، ونحو هذا تتبع هذا بحسن الاستقراء ـ هداك الله ـ بتصحيح النظر والاعتبار تجده يفترق بافتراق الأشخاص والنبات والحيوان كله، حتى أن العاقل اللبيب ليرى شبهه ويعرف إلفه بينهما مائلًا في شخص منها أو مفترقًا في أشخاص وأنواع عدة.

فانظر إلى سريان صدق الكلمة بالحكمة في هذا كله، وكثيرًا ما جاء هذا التمثيل في القرآن العزيز وحديث رسول الله ﷺ تنبيهًا على الاعتبار وتحريضًا على الأذكار، وذُكر أيضًا في بعض الآثار: «أنه كان بين أخذ القبضة وبين نفخ الروح فيه مائة وعشرون سنة» والله أعلم.

---

(١) الحديث رواه الترمذي في «التفسير» (٣٠٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ وصححه الألباني في «سنن الترمذي».

(٢) الحديث رواه أبو داود في «السنة» (٤٦٩٣)، والترمذي في «التفسير» (٢٩٥٥)، وأحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ وصححه الألباني في «سنن أبي داود والترمذي».

فإن كان عن نقل يقطع العذر ويزيل الريب، فما أشبهه بالأصول فإن الاعتبار يعضده منها، أن ذريته يجمع خلق أحدهم في بطن أمه نطفة أربعين يومًا، ثم علقة أربعين، ثم مضغة أربعين، ثم ينفخ فيه الروح عند تمام الأجل الثالث وأول الرابع وهو مائة وعشرون يومًا، وأشبهت السنة اليوم من حيث إن اليوم مدة دورة الشمس من المطلع إلى المغرب، ثم إلى مطلعها من الغد، إن السنة مدة قطع الشمس الدائرة كلها إلى مطلعها الذي منه أولها، وإن اليوم تمام فعل ما، وفي الخبر: «**إن الله جل ذكره لما خلق آدم** ﷺ **وصوره تركه كذلك أربعين سنة**»، وهذا الخبر يعضده الاعتبار المتقدم، فأشبه ذلك مكث أحدهم نطفة أربعين يومًا، ثم علقة أربعين يومًا، ثم مضغة أربعين، ثم ينفخ فيه الروح على رأس مائة وعشرين يومًا، وأشبه ذريته به الذكور لقربهم منه بحال الذكورة، فإن أحدهم يصور على رأس أربعين يومًا عند انتقاله إلى كونه علقة، أما الإناث من ذريته فإنهن لا يصورن إلا عند آخر الأجل الثالث في أخريات كونها فبعدن من شبهه بقدر ما بعدن عنه بالأنوثة، وأيضًا فإن حواء خُلقت بعد آدم فلهذا فانظر إلى سريان صدق كلماته جل جلاله وتمامها صدقًا وعدلًا، وكذلك فانظر في معنى قول رسول الله ﷺ: «**خلق الله الملائكة من نور وخلق الجان من نار السموم وخلق آدم من طين**»[1]، كيف أشبه كل جنس أوله الذي عنه خلق ومنه كُوِّن، فردد الفكر وتابع التذكر، واستصحب الاعتبار، وداوم على البحث والنظر تظفر ببغيتك إن شاء الله تعالى.

واعلم أن على مطلوبك هذا يدور الطالبون، وهو مدار الإيمان واليقين، فربما وجده من لا يعرفه، وربما سمعه من لا يجده، وإنما عمي الأكثر عن مذاهبهم فأخطؤوا وجود مطالبهم ؛ لأنهم خلف بعد سلف، مستأنف بعد سالف، فالمدرك الشادي ربما حاجز عن ذات نفسه وكاتم بينات صدره، طمعًا في تشويق الأتباع وحرصًا على تعطيشهم، أو خوفًا منه على نفسه أن يتناولوا قوله بعد التأويل ثم يتقولوا عليه الأقاويل، فنبذوا المعرفة وأطرحوا التجربة وأضاعوا الحزم، وفرطوا في العزم، فعدتهم عن حظوظهم عوادي الدهر، وتحفهم دونها نوائب الأحداث، فأعيتهم عند ذلك المهالك، وانقطعت بهم المسالك، والداعي ينادي بهم لا يقلع، والمنادي يفصح بالمراد فيها لو يسمع، والمحل لو تعلمون أمم شمل الرغائب قريب ملتئم سهل الحجاب موطأ الأكناف، وفي دون ما

(١) الحديث رواه مسلم في «الزهد» (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مع اختلاف يسير في اللفظ.

ذكرناه دليل على ما إليه أومأنا، وطريق معرفة صدق كلماته في إطباق خليقته وتدابير أمره، ولولا مخافة التطويل لأكثرنا منها وفيما تقدم غنية لمن فهم، وهو الصادق الحق لا يكذب صادقًا، ولا يصدق كاذبًا، فمن أخلص طاعة ربه وصدق الله في طلبه لن يخلفه وعده، والله أسرع إلى عبده المريد من العبد إليه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التعبد

اعلم ـ رحمك الله ـ أن أسماء الله تعالى يختلف التعبد بها لاختلاف ما تحتوي عليه من المعاني والأغراض.

فمنها: ما منع التسمي به وأوجب التجلي، كاسم الله والرحمن.

ومنها: ما منعه تجليًا وأباحه تسميًا ووصفًا لكن على شريطة الإضافة واعتقاد المجاز فيه لمن وصف به، وأن حقيقته لله ﷻ، كاسمه الرب والعلي والكبير والعظيم والجليل ونحو هذا، أما شرطه الإضافة كقولهم: رب الدار، ورب المال، وكقولهم: هذا أكبر من هذا وأجل منه، وكذلك ما جرى هذا المجرى.

ومنها: ما أوجبه تجليًا على شرط التزام العبودية وأباحه تسميًا بشرط السلامة من إرادة التزكي، كاسم الطاهر والطيب والعدل والبر وما يجري نحو هذا.

ومنها: ما أباحه تسميًا فأوجبه تجليًا على شرط التماس رضاه في التجلي به، كاسمه الولي المولى المغيث ونحوه.

ومنها: ما أوجبه تسميًا ندب إلى التجلي به، كقوله: العفو الغفور ذو الفضل العظيم ونحوه.

ومنها: ما أوجبه تسميًا وتجليًا، كاسمه المؤمن التواب الصادق ونحو هذا، فأعمل نفسك ـ وفقك الله ـ في معرفة هذا الاسم حتى تعلم أنه الصادق الحق وأن الصدق صفة من صفاته لا يجوز عليه مفارقتها له يستحيل عليه ضدها، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وكذلك هو الصادق في خبره وقصصه ووعده ووعيده، وأن كلماته تامات من كل جهة صادقات من كل وجه، وأن رسله وملائكته صادقون، وأن كتابه صادق كما أنزله، وأن حديث رسوله صادق كما حدثه، فعليك بالصدق في المواطن كلها في إيمانك وأعمالك.

واعلم أن الصدق صفة رفيعة وحلية سنية، وأنه ليبلغ من شرف الصدق أن

الصدوق ربما كذب فيصدق، وأنه ليبلغ من صفة الكذوب ربما صدق فيكذب، ومن أمثالهم الكذوب لا يؤمن صدقه، والصدق أصل بكل حال وأُس لكل مقال ومقام، وقوام الصدق بالصبر، وقوام الصبر بالاستعانة، فكل مَنْ صدق الله تعالى وتحقق في صدقه نجا، فإذا كان أساس معرفتك على أصل عقد للصدق بالعلم والتقوى فزت وظفرت، ولم يبق عليك إلا خوف الخاتمة، وكلمة جامعة جميع الطاعات لا تخلو أن تكون ظاهرة بادية على الجوارح، أو باطنة في القلب، فحكم الجوارح المسارعة إلى ما يرضى خالقها جل ذكره.

وصحة ذلك صدق النية في إنفاذه وإخلاص السريرة في توجيهه، وحكم ما بطن في القلب تصديق عقد الإيمان، وصدق النية في التقى والخوف والوجل والخشية والإشفاق، وكفى بهذا شرفًا ورفعةً، وما هلك من هلك إلا بالكذب، وما نجا من نجا إلا بالصدق.

والصدق يحتاج المؤمن إلى استصحابه من بدء إيمانه إلى أن يرتقي إلى أعلى درجات الصديقين، ويصحب النبي في نبوته، والصديق في صديقيته، والرسول في رسالته، والمؤمن في إيمانه، والمسلم في إسلامه، والعامل لله في عمله، وكل ذي مقام ودرجة في مقامه ودرجته، كلما ارتفعت درجته كان الصدق أصله وأولى به؛ لأن العبد إذا عبد ربه بالصدق أوصله ذلك إلى العلم، والعلم يوصله إلى التوكل، وصدق التوكل يورثه الغنى والرضا، وأيضًا فإن أصل الوصول إلى اليقين الصدق، واليقين يوصل إلى البر، والبر يوصل إلى الإخلاص، والإخلاص يوصل إلى اليقين، والصدق يوصل بالطمأنينة، والطمأنينة حال السكون إلى الله ﷻ، والسكون إليه موصل بالرضا عنه، فأصل كل حال هو الصدق، وكلما ارتقى العبد درجة من الصدق نزل عليه من العزيمة بقدر صدقه، فإذا أوقعت العزيمة ارتحل حب الدنيا من القلب وارتفع إلى ملكوت السماوات والأرض، وإذا لم تقع العزيمة اضطرب القلب ورجع إلى محبته، والصادقون هم الذين أعطوا ربهم جهدهم فيما بينهم وبينه بالصدق، **«وإن العبد ليتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا»**[1].

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الأدب» (٦٠٩٤)، ومسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

وإذا فتح على الصادق باب الفطنة احتوشه نور الهداية، وقام على جوارحه ولسانه شاهد الصدق، وبدت له فتوحات الإلمام بشواهد الحق، فحينئذٍ ارتفع قلبه إلى الملكوت، وجال في الجبروت، وسرح في الحجب، وكوشف بمجاري القدرة، فعلم ما يدخل على أهل التوحيد من الإشكال والمغالط، ورأى انتصاب الهوى في مشاهد الردى حيث لا يرى إلا في المنتهى كأنه ناظر إليه بوجود إيمانه، لا بنظر عقله؛ لأن العقل في ذاته محدود والإيمان ليس بمحدود، فيجد عند ذلك لذيذ طعم الأذكار في شاهد الأسرار، ويرى حلول الأنوار في القلوب ومحلها في الصدور، فانجلت عنه غاية الفتنة، واكتنفته العصمة، وهو مع ذلك لا يفارق الإشفاق، ولا يأمن الجور، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: **«يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»**(١).

ونقيض الصديقية الزندقة، توجد معها من بدء الإيمان إلى رفيع درجاتها وجود خلاف ومناقضة كوجود الشك في موجود اليقين، قال رسول الله ﷺ: **«الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة المظلمة»**(٢).

غير أن الصديقية كلما ارتفعت درجات الصديقية في مقاماتها دقت معارضة الزندقة لها وخفيت مناقضتها حتى تكون معها كالشرك مع الإخلاص في بابه، وهي كلمة مولدة مركبة من معنيين حقيقتها الخروج عن الحق في سر واختفاء، وهو شيء يخلف الكفر في الأمم الموحدة، يسري مسراه ويسلك مسلكه في بواطنهم حتى يعود كفرًا ظاهرًا بعد كونه باطنًا، فأوَّل الزندقة جحد ما لله جل جلاله من الأسماء والصفات، والطعن في النبوة واستقلال علمها والإصرار على رد ما جاءت به الرسل، كما أن أول الصديقية: إثبات ما لله من الأسماء والصفات، وإثبات النبوة واستعظام علمها والإيمان بها، والمسارعة إلى ما أتى به الرسول ﷺ، والحب لله والرسل، فإن الله ﷻ يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [الحديد:١٩] أي: لشهادتهم وأعمالهم بما أمروا ونورهم لإيمانهم وصديقيتهم، وحذر الله ﷻ المؤمنين من ترك استشعار الذكر لله وتعظيم ما نزله من الحق من عنده أن يجرهم ذلك إلى ترك

---

(١) سبق تخريجه في باب اسمه الدائم عز وجل.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٣)، والحاكم (٢/ ٢٩١) من حديث عائشة ﵂ وفي سنده عبد الأعلى بن أعين قال عنه الدارقطني: ليس بثقة.

الخشوع، وترك الخشوع إلى الغفلة، والغفلة إلى الإصرار على تعطيل شيء من أحكام الله ﷻ ورسوله، فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ [الحديد:١٦]، أي: الغفلة وترك تعظيم أسماء الله ﷻ وشعائره، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]، ثم دل جل جلاله على موضع الدواء بقوله الحق: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧]، أي: بذكره ولزوم العمل بطاعته واستشعار تعظيم أسمائه وصفاته وكتبه ورسله وما جاء من عنده، ثم قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧] .

واعلم أن كل من ادعى علم معرفة الله جل ذكره وخالف ما جاء به الرسول ﷺ ردًّا له واستغناءً عنه فهو عدو لله زنديق في مكر به وضل عن سواء السبيل، وهو الإصرار على تعطيل أحكام الله ﷻ ورسوله ﷺ، وربما قال: استغنيت بالله عن الكتاب والرسول، وربما قال: العلم يبطل في المعرفة، والمعرفة تسقط الأحكام، وأنه من عرف الله ﷻ أبيح له ما كان حظر عليه من قبل، أو خرج عن رق العبودية، فهذه كلها زندقة .

واعلم أن كل من ادعى علم المعرفة وضيع أحكام العلم صارت المعرفة عليه حجة، بل الصادق هو الذي عرف الله ﷻ بشاهد الربوبية، وعبده بالوحدانية، ورد عقله إلى العلم واستعمله بموافقة السنة، قائل الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر، والمعرفة يكشفها العلم ويدل عليها، والمعرفة أصل العلم واسم لليقين، والعلم اسم الدين وأصل الدين العلم، والعلم هو التوحيد، وما جاء به الكتاب والسنة، وكمال المعرفة الإخلاص باليقين على شهادة الإيمان بالغيب، وكمال العلم الخشية لله بالغيب، فمن قال بهذا فهو صادق، وهو على هدى من ربه، وأصل من عمله ؛ لأن العلم أصله الكتاب والسنة، إلا أنه من صدق الله صدقه وأنجزه ما وعده، ألا وإن الصدق نبذ الشواغل وقطع العلائق والتشمير والجد وإعطاء المجهود في ابتغاء المقصود على سبيل الحق، ومن أسرع سبق ومن أبطأ بُطئ به، ولحق من خفف نجا لخفة ظهره، ومن ثقل رَزَم بحمله وأسره عدوه، من صافى صوفي، ومن خلط علق، ولم ينل سرورًا، خشوع الجوارح من خشوع القلب، سيرى على الوجوه ما تضمر القلوب، فضول اللسان من فضول القلب، مع العزم تكون المعونة ومع الجزع والتثبط يكون الخذلان .

يا أخي، عليك بالصدق في المواطن كلها تظفر وتغلب، إن الله ﷻ لا يكذب صادقًا

ولا يصدق كاذبًا، من الله بها علينا وعليك ولا حرمناها وإياك برحمته: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

اسمه الكريم عز وجل

يقال: منه رجل كريم وكرام، وقوم كرام وكرم، رجل كرم أيضًا وامرأة كرم، وامرأتان كرم ونساء كرم، الرجل والأنثى والتثنية والجمع سواء، هذا اسم متردد بين أن يكون من أسماء الذات وبين أن يكون من أسماء الأفعال، والله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه لم يزل كريمًا ولا يزال، كذلك ووصفه بأنه كريم هو بمعنى نفي النقائص عنه ووصفه بجميع المحامد، وعلى هذا الوصف يكون من أسماء الذات جل ذكره، إذ الشيء الخطير النفيس يوصف بأنه كريم، قال الله ﷻ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤]، قالوا: ثوابًا حسنًا لا نكد فيه ولا تنغيص ولا انقطاع له، منه قوله ﷻ: ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان:١٧]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، ويؤول هذا في وصف الله تعالى إلى استحقاقه صفات الجلال ونعوت التعالي، وقد يكون الكرم عبارة عن العفو وإيثار الصفح عن الجاني والإحسان للمسيء والسبق بالإنعام، فيوصف بأنه كريم السجايا جزيل العطايا، لذلك قالوا: أرض كريمة إذا كانت كثيرة النبات طيبة المرعى، وقالوا للسخي: كريم، ولا أكرم عفوًا من الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وصفحًا ولا أجزل إحسانًا وإنعامًا، فهو المحسن الحق المنعم على خلقه من غير استحقاق، وهو الأخذ بأيديهم في الضرورات من غير استيجاب، وما عهد كرم وحسن فعال وإجزال إنعام وإفضال وعدل أحكام وتجاوز عن الذنوب العظام من مستحقي ذلك وغير مستحقيه إلا من كريم الذات كريم السجايا، لذلك كرمت أفعاله، ومن قولهم: لا تطيب الفروع إلا إذا زكت تربة الأصول، وقد يكون الكرم عبارة على الجاه والسؤدد اللذين يكونان عن بذل المعروف، وانتحال المحمود من أخلاق وصفات من ذلك قولهم: فلان كريم عند الملك، وكريم في قومه، ومن هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان:١٧]، ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، بمعنى أقربهم وآثرهم عنده، قال رسول الله ﷺ: «**أنا أكرم ولد آدم ولا فخر**»(١).

---

(١) الحديث رواه الترمذي في «المناقب» (٣٦١٠)، والدارمي (٤٨) من حديث أنس ﷺ، ورواه=

ثم ذكر ما أكرمه الله به من مقامه المحمود وشفاعته وحوضه المورود، وقد يكون الوصف بالكرم عبارة عن طيب النجر وعلو النسب، من ذلك قولهم: فرس كريم إذا كان جيد الخبرة حسن التأتي للمراد منه قد ورث ذلك على ما سلف له متقدم، وهو العتيق أيضًا، قيل له ذلك من حيث إن له قدمًا وسلفًا على ذلك، وسئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف نبي الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله**»، فأوجب له الكرم صلوات الله وسلامه على جميعهم بما كانوا عليه من النبوة والتقى، وحسن المناقب والقرب من الله جل ذكره، وبما سلف لهم من ذلك، وورثوه كابرًا عن كابر، فقيل له: يا رسول الله، ليس عن هذا نسألك، فقال: «**أعن معادن العرب تسألوني ؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[1] .

وليس معنى ذكر السلف هنا إلا أن الخير كثير أما يوجد في معدنه ذلك ما قدره الله جل ذكره من وراثة الشبه وإذا كان الكرم من هذه الجهة فضده اللؤم، وإذا كان الكرم من جهة السخاء وضده الشح والبخل، وقد يكون وصف الكرم عبارة عن حسن التأتي للخيرات وانتحال المحمودات فعالًا ومقالًا، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقول رسول الله ﷺ: «**لا كرم إلا بالتقوى، الناس لآدم، وآدم من تراب**»[2] .

لما كان التقى قد أحسن الاستجابة وأسرع في الطاعة، ولذلك قالوا للحجارة

=الترمذي (٣٦١٦)، والدارمي (٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وضعفه الألباني في «سنن الترمذي» .

(١) الحديث رواه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٣٥٣، ٣٣٧٤)، وفي «التفسير» (٤٦٨٩)، ومسلم في «الفضائل» (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الحديث رواه الطبراني في «الكبير» (٣٥٤٧) من حديث حبيب بن خراش العصري عن أبيه رضي الله عنه بلفظ: «.... **لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى**»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٤): فيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة وهو متروك، ورواه البزار (٢٠٤٤ ـ كشف الأستار) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه بلفظ: «.... **أبوكم آدم وآدم خلق من تراب**» .ورواه الطبراني في «الأوسط» من حديث أبي سعيد بنحوه وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٤): رجال البزار رجال الصحيح .

المنقادة: كرم ؛ لتيسر انقيادها، وقيل للقلادة: كرم لما فيها من الذخائر، وقيل للحبلة: كرم لطيب طعم ما يؤخذ منها وتأتي قطاف ثمره من غير تجشم مشقة ارتقاء كالنخل وغيره وليس له شوك يعقر جانيه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «المؤمن أولى بهذه التسمية» [(١)]، إذ قلبه كثير التأتي لمعرفة الله ﷻ ولعمارته بالذكر والحب والوداد له والخشية والحياء والمراقبة.

وعن قلب المؤمن تنبعث أنواع الطاعات إلى جوارحه، وتكلموا في الكريم من هو؟ وما هو؟ وبم يسمى كريمًا؟ فمن قائل يقول: الكريم هو الذي لا يحوجك إلى وسيلة، ومن قائل يقول: الكريم هو الذي لا يسأل من أعطى وإلى من أحسن، ومن قائل يقول: الكريم هو الذي يرى المنة لمن يقبل عطاءه على نفسه، وقيل: الكريم لا يستقصي، وقيل: الكريم الذي لا يحوج أن ترفع إليه الحوائج، وقيل: الكريم الذي لا يضيع من توسل إليه ولا يترك من التجأ إليه، وقيل: الكريم إذا أبصر خللًا جبره وما أظهره، وإذا أولى فضلًا أجزله ثم ستره، وقيل: الكريم الذي إذا أذنبت اعتذر عنك، وإذا هجرت وصلك، وإذا مرضت عادك، وإذا وافيت من سفر زارك، وإذا افتقرت أحسن إليه ببقية ماله، وقيل: الكريم هو الذي إذا رفعت إليه حاجة عاتب نفسه كيف لم يبادر إلى قضائها قبل أن يسألها، وقيل: الكريم الذي إذا عفا عن عبد عفا عمن عمل بتلك المعصية وعمن كان سميًّا له، وكلامهم هذا ـ رحمة الله على جميعهم ـ في جزئيات معنى الكرم، وهي مأخوذة كلها من كرم الله جل جلاله موجودات عن علي صفته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

الاعتبار

ولما كان معنى الكرم ما تقدم ذكره فطرق اعتباره كثيرة جدًّا، والحمد لله رب العالمين، فابحث عنه إن كنت له طالبًا في مظان الجاه والشرف والحلم والصبر والشكر وعلى الإيمان والمغفرة والعفو والصفح والبر والإحسان والإكرام والإفضال وسبل المعروف كلها من حسن التجاوز وجميل المعاملة إلى غير ذلك من وجوه الأسماء والصفات.

(١) رواه البخاري في «الأطعمة» (٥٤٤٤)، وأحمد (٢/ ١٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بمعناه.

وأما اعتباره من طريق الحسب والشرف، فما من كريم أكرم كرمًا من الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣، ٤]، من لم تنقله الأصلاب، ولم تحوه الأرحام، ولا يُذم بذميم ولا يُعاب بمعيب، بل هو الأول لكل أول ولا أول له، والآخر لكل آخر ولا آخر له، الخير كله بيديه والشر ليس إليه، خالق كل شيء ومقدره، ورازق كل مرزوق ومدبره، لم ير قط إحسان إلا من عنده، ولا عهد الدهر بزمن سواه له الأسماء الحسنى والأمثال العلا، وأما طريقه من غير هذه الجهة، فإن كرم الكرماء بأسره انتهى إلى كرم المحسن إلى من انتهى إليه مع وجود القدرة منه على مجازاته ذلك، واحدنا في ذلك لا يخلو في ذلك من ابتغاء منفعة يجرها إلى نفسه أو مضرة يدفعها عنها .

والكريم الحق جل جلاله يحسن إلى من يكذبه ويكذب رسله وكتبه ويكذب على الله ورسله وكتبه وأوليائه يرد أمره وهو البريء النزيه عن استجلاب المنافع ودفع المضار على وجه من الوجوه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، قال رسول الله ﷺ: **«لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله»**[1] .

إنهم يسبونه، ويجعلون له الصاحبة والولد وهو على ذلك يعافيهم ويرزقهم، وأظهر من هذا كرمًا أنه ما عادى إبليس لعنه الله، ولا تبرأ منه إلا من أجلهم لما أبى عن السجود لآدم عليه السلام واستكبر عليه واحتقره، وفاخره بأصل الخلقة لعنه وطرده وأبلسه من رحمته واتخذه عدوًا، ثم أعلم آدم وزوجه عليهما السلام، وذريتهما موضع عداوته بقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١١٧]، وقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف:٢٧] إلى آخر القصة، وأمرهم أن يتخذوه عدوًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، يسمع في ذلك كله بالنداء ويبالغ في النصيحة بلطف المأخذ وأبلغ المواعظ، وهو عن ذلك كله غني لا افتقار به لشيء من ذلك سوى فضل جوده وعظيم كرمه جل ثناؤه وتقدست أسماؤه،

---

(١) رواه البخاري في «الأدب» (٦٠٩٩)، وفي «التوحيد» (٧٣٧٨)، ومسلم في «صفة القيامة» (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

ثم إلا على نفسه ﷻ أنه من تبعه منهم ليعادينه وليقطعنه وليدخلنه مدخله في دار لعنته وعذابه ومن عاداه منهم وتبرأ منه أدخله دار أمنه وأحله منزلة كرامته ؛ تأكيدًا للقطيعة وإبلاغًا منه في العداوة، وإلى هذا انتهى البعض في والولاية فعلى هذا ما دخل أهل الجنة الجنةَ، وأهل النار النارَ إلا بفضل كرمه، فافهم .

ثم لا تسأل عن حسن تجاوزه وجميل معاملاته، ألا تراه جل ذكره كيف يرد المولين إليه تفضلًا ويقبل بالشاردين إليه كرمًا حتى أن أحدهم ليمكث في عصيانه والكفر به مائة سنة يتوب إليه قبل موته بيومين ويوم أو ساعة من نهار فيقبله يغفر له ويحبه ويدخله في أوليائه ويبوئه جنته، فهل رأيت مثل هذا كرمًا ؟!

وجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين إلى سبعمائة وإلى ما لا يحصيه المخلوق، والسيئة بمثلها ويغفرها ويمحوها بضدها، فهل رأيت مثل كرمه كرمًا ؟! والحمد لله كثيرًا لا إله إلا هو الحليم الكريم، فتتبع معاني كرمه في سبلها فإنك تجد من ذلك إلى ما لا تصل منه إلى غاية، ولا تبلغ من معرفته إلى نهاية، فكل شيء يأتي عليه الإحصاء والفناء، وصفاته وكلماته ومقدوراته لا تبيد ولا تفنى، وإنما ارتجلنا هذا القدر تنبيهًا للمبتدئ، والعارفون بربهم ﷻ قد استغنوا بما وهب لهم من معرفته وفتح عليهم من العلم به عما نحن بسبيله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

التعبد

عليك ـ وفقك الله ـ بعد التحقق بمعرفة هذا الاسم الكريم حتى تعرف أنه الكريم الحق من جميع الوجوه، وأن كل كرم موجود أو متوهم على أي وجه كان، فعن كرمه وجد ومنه عرف، فاجتهد أن تعمل نفسك بمقتضاه جهدك، ففي ذلك بلوغ مرضاته وحصول محبته وحسن اتباع رسوله إن شاء الله تعالى، فإنه يحب معالي الأخلاق ويرضى مكارم الفعال، ويحب العاملين بها والمؤثرين لها، وبذلك أنزل كتبه وبعث رسوله، والتعبد بمعاني أسماء الله جل ذكره هو الدين القيم وهو الحق المخلوق به السماوات والأرض، قال رسول الله ﷺ: «**بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، أو قال: «**معالي الأخلاق**»[1]، فلن يكرم أحد نفسه بمثل طاعة الكريم الحق عز جلاله، ولن يهينها

---

(١) رواه البيهقي في «الكبرى» (٢٠٧٨٢) بلفظ: «مكارم الأخلاق»، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وأحمد (٣/ ٣٨١)، بلفظ: «صالح الأخلاق»، من حديث أبي هريرة ﷺ.

بمثل معصيته، فعليك بالطاعة ولزوم السنة والجماعة، فإن الذي جاءت به الكتب والرسل معبر عن معاني أسماء الله وصفاته، فحافظ على ذلك تظفر ببغيتك إن شاء الله وتفز بحظك، أدِ إليه ما افترضه عليك بوجه طلق ونية سمحة، واجتنب الشح والبخل جهدك وتعوذ بالله منهما، فقد قال عز من قائل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، وقال رسول الله ﷺ: «**وأي داءٍ أدوأ من البخل**» (١).

وكذلك فعامل أبناء جنسك، أد إلى كل ذي حق حقه تفضلًا ووفاء وسخاء نفس وسلامة صدر، وإن كنت ذا حق وجب لك على أحد فتعذر عليك أخذ جميعه فلا يكن همك في استقصائه، وأبق للتكرم موضعًا، فقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كفى بالمرء لومًا أن يقول: آخذ حقي كله**» (٢).

ومن أمثالهم ما استقصى كريم قط، وقال رسول الله ﷺ: «**كان فيمن كان قبلكم رجل لم يعمل خيرًا قط غير أنه كان يعامل الناس فكان ينظر المعسر ويتجاوز في السكة**»، وفي أخرى: «**كان يقول لغلمانه: أنظروا الموسر، وتجاوزوا عن المعسر، لعل الله يتجاوز عنا، فلما مات قيل له: ما كان عملك ؟ قال: كنت أنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر، فقال الله جل قوله: نحن أولى بذلك منه، تجاوزوا عن عبدي**» (٣).

وأنت ـ وفقك الله ـ فاعتمد الناس في معاملتك إياهم بمثل ما اعتمدك به الكريم الحق جل جلاله في معاملته إياك، حيث لم يكلفك إلا بعض وسعك، ثم رد نفع ذلك

=وصححه الشيخ شاكر على المسند، ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٧٧) من حديث علي بن الحسين ﷺ، ورواه الطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٨)، كلاهما من حديث جابر ﷺ بلفظ: «يحب معالي الأخلاق»، وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفه.

(١) الحديث رواه البخاري في «فرض الخمس» (٣١٣٧)، وفي «المغازي» (٤٣٨٣) من حديث جابر ﷺ.

(٢) الحديث رواه الديلمي في «فردوس الأخبار» (٤٨٩١)، والحاكم (٢/ ٢٠، ٢١) من حديث أبي أمامة ﷺ بلفظ قريب وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) الحديث رواه البخاري في «البيوع» (٢٠٧٨)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٨٠)، ومسلم في «المساقاة» (١٥٦٢)، وأحمد (٢/ ٣٦١)، والنسائي في «البيوع» (٤٦٩٤، ٤٦٩٥)، وابن حبان (٥٠٤٩، ٥٠٥٠ـ إحسان) من حديث أبي هريرة ﷺ بألفاظ متقاربة، والبيهقي في «الشعب» (١١٢٤٤).

عليك، وأعاد عائده عليك، وعفا لك عن الكثير، تقدم إليك بالنعم من عنده قبل أن يكلفك أولًا في تسميتك بالإسلام، وجعلك من أهل الإيمان، وكان لك في القدم حين لم تكن أنت لنفسك، ثم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٧، ٨]، كامل الأعضاء سليم الحواس، يوصل إليك لطفه جنينًا في ظلمات ثلاث حيث لا يصل إليك لطف الآباء ولا إحسان المحسنين إليك سواه، ثم أخرجك بخفي لطفه وكريم رفقه إلى ما قد أعده لك في هذه الدار نزلًا بنقلك في ذلك منقلة، ورزقك السمع والبصر واللسان.

وعلمك البيان وركب فيك العقل والفهم والذكر والفكر وجميع صفاتك، من الذي شفع لك في القدم حتى عافاك في الدنيا من السجود إلى الصنم؟ من الذي عافاك من الإخداج والشَّين؟

ألا تراه كيف يصل من قطع الوصلة بينه وبينه، وييسر عليهم العسر في طرقاتهم، ويفتح عليهم وعلى جميع خلقه من رحمته؟ فإنه ليستر عليهم وهم المجاهرون، كما يحسن إليهم وهم المسيئون، هذا مع شدة سلطانه وعظيم اقتداره وجلال كبريائه.

وندب إلى الإتمام به معاملته الكرام من عباده في مواضع من كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤].

ثم بين لنا حسن عائداتها، وأرانا موضع الراحة من المكابدة في خلافها بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، ثم رفع قدرها من خصلة وعظم شأنها من درجة بقوله ﷻ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]، وقال رسول الله ﷺ: **«صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك»** (١).

عوِّد ـ هداك الله ـ نفسك السخاء، ويدك الإعطاء، وخلقك المكارم والتصاون عن

---

(١) الحديث رواه أحمد (٤/ ١٤٨، ١٥٨، ١٥٩)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٩، ٢٠)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢٦٩، ٢٧٠) رقم (٧٣٩، ٧٤٠)، والحاكم (٧/ ١٦٢) من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٢١)، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ وسنده صحيح.

دنيات الأمور، وتنزه عن اللوم والدقة وترفع عن الاستقصاء بمجانبة الرغبة، وإياك والمداقة في الكيل والوزن .

احرص على أن يكون إعطاؤك أوفر من أخذك، فهو أسلم لدينك وأفر لعرضك، لا تجازِ مسيئًا بإساءته، اصفح عن المعتذر، واعف عن الجاني، واسم بهمتك علوًّا إلى المكرمات، اشكر الصنيعة، واجتهد أن تقابل المحسن بأكثر من إحسانه، وإذا أسديت يدًا إلى أحد فليصغر في نفسك ما أسديته، فبذلك يعظم المعروف عند المسدى إليه، وإذا أسدى إليك إسداءً فليكبر في نفسك ما أسداه إليك، فذلك ركن عظيم من مكارم الأخلاق، وباب لطيف من الشكر، وتذكر في ذلك قول القائل:

زَادَ مَعْرُوْفَكَ عِنْدِي عِظَمًا ... أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتُورٌ حَقِيرْ

تَتَنَاسَاهُ كَأَن لَمْ تَأْتِهِ ... وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ خَطِيرْ

ثم لا تكن عذابًا على أهلك وولدك إذا أنت فرغت من تقويمهم على سبيل دينهم فاقبل بعد ذلك من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم، وتناوم عن عثراتهم، وتغافل عن الكثير من زلاتهم، فقد كان يقال: يعرف كرم الرجل في سوء أدب غلمانه، وإنما ذلك لأنه لا يطالبهم بحقه كله عندهم فينبسطون لذلك ينزلون إلى بعض شهواتهم، وإنك لتجد ذلك في عباد الله الكريم الحق جل ثناؤه، فما أسوأ أدبهم بين يديه مع عظيم سلطانه، ولزوم مشاهدته وبعده عن الغفلة عما هم به عاملون، لكن حلمه وكرمه مبسوط لهم حتى يخرجهم ذلك إلى عصيانه جهارًا وركوب المحظور عليهم عيانًا ذلك لقلة مطالبته إياهم بكل حقه وكثرة صفحه عن زللهم بقول الله جل قوله في ذلك: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل:٦١]، أعاننا الله وإياك على طاعته، والعمل بما يقرب منه ويزلف عنده بمنه ورحمته .

اسمه ذو الإكرام جل جلاله

قد تقدم الكلام في بعض معاني وجوه الكرم فأغنى ذلك عن إعادته، غير أن الاسم فيما ههنا في قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، فعله، وذو اسم يشير إلى الذات ويقتضي باستحقاقه ما أضيف إليه، والإكرام صفة فعل يخص الكريم الحق ﷻ بها من يشاء من عباده، والكرم صفة شائعة معناها في صفات الذات، والفعل يتقلب في مقتضاها الطائع والعاصي والمؤمن والكافر وجميع الخليقة والإكرام منه خاص لعباده

وأوليائه، فهو لا يكرم بإكرامه وهو الإيمان والإسلام والعمل بطاعته وابتغاء مرضاته على إتمام النعمة والموافاة عليها، وأيضًا لها بدار الآخرة إلا من يحبه ويرضاه، وما ظهر من ذلك ما يشبه الإكرام على الكافر والعاصي من حيث عصيانه، فليس بإكرام لكنه الاستدراج والإملاء والمكر والمخادعة والاستهزاء، وعلى نحو ما يأتي من ذلك جزاء لأعمالهم ليأخذهم على أوفر ما جنوه وأكبر ما آتوه، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨].

التعبد

تعلم ـ وفقك الله ـ معنى هذا الاسم حتى تقف على خاصته بقلبك، ثم أعمل نفسك بمقتضاه أكرم الكريم الحق ذا الجلال والإكرام، إياك أن تجعله أهون الناظرين إليك تستتر من سواه ولا تبالي به باطلاعه عليك أكرم أسماءه وصفاته تستوجب بذلك محبته، وقدم مراده على مرادك تكن لك منة خاصة، أكرم من أكرمه الله جل جلاله وعز، أكرم ملائكته ورسله وأنبياءه وكتابه وعباده المؤمنين، أكرم المؤمن العالم فإنه جاء ـ والله أعلم ـ أنه تبارك وتعالى يقول يوم القيامة للعلماء من عباده: «إني ما وضعت حكمتي في صدوركم وأنا أريد أن أعذبكم»[(١)]، ومصداقه قوله ﷻ: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه:٢، ٣]، فكذلك من تذكر بالقرآن وخشي منزله لله بحكم التبعية للمنزل عليه ألا يشقى، وأبين من هذا قوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ [طه:١٢٣]، أي: في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ أي: في الآخرة، وربما كان ذلك فيها، وقال الله تعالى في فضيلة العلم والعلماء: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩].

وكذلك فأكرم ذا الشيبة المؤمن فقد جاء في بعض الآثار ـ والله أعلم ـ أنه يقول: «إني لأستحي أن أعذب ذا شيبة شابت في الإسلام»[(٢)].

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٦٢)، وفي سنده عثمان بن عبد الرحمن الجمحي مجهول كما قاله البخاري في «التهذيب».

(٢) رواه العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٨٤) رقم (٧٤٢) وعزاه للغزالي في «الدرة الفاخرة».

وكذلك فأكرم نعمه بأن تشكرها، ومن إكرامها ألا تضعها في غير موضعها، وأن تسلك بها سنة الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، ألا ترى أنه تبارك وتعالى سخر لنا بركات السماوات والأرض، وذلك عن كرمه الذي عم به جميع الخليقة، وكذلك فأكرم أبويك وذوي قرابتك وجيرانك ومن أمرت بإكرامه، نسأل الله البر الرحيم الحليم الكريم الذي لا إله إلا هو أن يجعلنا ممن خصَّه بإكرامه وتغمده برحمته، إنه على كل شيء قدير.

اسمه النور جل جلاله

معنى النور الإشراق والإبصار ظاهرًا والهداية به إلى المقصود باطنًا، وأصل مفهوم لفظة النور من جهة اللغة ـ والله أعلم: النفور عن السوء والبعد عنه، من ذلك قولهم: نارت المرأة تنور نورًا إذا نفرت عن الفاحشة، وامرأة نوار من نساء نور إذا نافرت السوء وبعدت عنه، وناورت المرأة باعدت ذلك ونافرته، ونُرتها أنا إذا نفرتها، فقولهم: إذا نار النور، وأنار معناه نفر الظلام والضلال عمّا أناره وأبعده عنه، ومن ذلك سميت النار لإضاءتها ما حولها عند إيقادها فتطرد الظلام عما هنالك، منه سميت النورة لإماطتها الأذى من الشعر وغيره، وإبعادها إياه، ومن ذلك قولهم: نرت الدابة إذا وسمتها فجعلت عليها بذلك علمًا تعرف به؛ لأن ذلك يباعد الجهل بها فمفهوم النور من جهة المعنى أنه المنزه عن الأدناس المبتعد عن الآفات، كما أن ظاهره منفر لإجراء الظلام كلها على اختلاف أنواعها.

اعتباره

النور من أسماء الله جل جلاله، نطق به القرآن وجاءت به الروايات، قيل: معناه منور السماوات والأرض، وإنما قالوا ذلك؛ لأنه على تحقيق العلم والمشاهدة نور الأنوار، قالوا: والعرب تسمي الشيء باسم شيء إذا كان منه بسبب، كتسميتهم المقبل بالإقبال، والمدبر بالإدبار، واحتجوا على ذلك بقول الشاعر:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار

وهذا وجه صحيح يعضده الوجود، هو النور؛ لأن منه النور، وعلى هذا فهو بمعنى اسم البارئ والمبين والمرشد؛ لأنه يهدي بالنور الظاهر الأبصار إلى المبصرات الظاهرة، ويهدي بالنور الباطن البصائر الباطنة إلى المعارف الباطنة، فهو إذن منور السماوات والأرض، وهو النور الذي أنار كل شيء ظاهرًا وباطنًا، قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

ثم أعلم جل ذكره بأنه يوصل ذلك بالنور الباطن في الصفات الباطنة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:٣]، وفي مثل هذا المعنى قال بعض القائلين:

إن بيتًا أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السرجِ

وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتي الناس بالحجج

لا أتاح الله لي فرجًا ... يوم أدعو منك بالفرج

وإذا كان هو النور؛ لأن منه النور، بالنور بصر البصائر والأبصار، وأنار الآفاق والأقطار، وأبعد الفواحش والظلام فهو صفة فعل وصفات الأفعال يؤول العلم بها إلى التوحيد بأنها صفة الذات العلي جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، كخالق ورازق وكافٍ ونحو هذا.

ولم يتسم بالخلق والرزق والكفاية؛ لأنه خلق ورزق فقط، بل لأنه لم يزل على صفة لا يتعذر عليه الخلق والكفاية إذا شاء ذلك لما شاء وكيف شاء، فعلى هذا فالنور إذا اسم علم له لا يقال فيه إنه هو بوجه ما ولا هو غيره بوجه ما، وكل مفعول فهو له غير لا محالة، فهو النور الحق استحق ذلك استحقاقًا نفيسًا، قال رسول الله ﷺ وقد سئل: هل رأيت ربك يا رسول الله؟ قال: «**نور أنى أراه، رأيت نورًا**»[(١)].

فرؤيته النور الذي أخبر بأنه رآه هو ما قيل فيه: إن محمدًا رأى ربه ﷻ، وربما إلى هذا المقام العلي الإشارة في قوله جل قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، فربما وقعت رؤية البصر على ذلك النور العلي القريب منه وهو ما أخبر عنه بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨]، وقوله: «**نور أنى أراه**» وهو وصف له بأنه النور حسب لا مجال في العلم به للعقول، خلا أنه النور جل جلاله يهدي الله إليه بالإيمان من يشاء من عباده فيعبرون إليه من شهادة إلى غيب، وكما أن العلم يتفاضل في درجات معرفة هذا النور كذلك يتفاضلون في دار الآخرة في رؤيته، فعامة أهل الجنة يرون الله هو الحق المبين، أي: المبين هذا الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بين ذلك، وهم أيضًا في

---

(١) الحديث رواه مسلم في «الإيمان» (١٧٨) من حديث أبي ذر ﷺ.

رؤيته على درجات على قدر ارتقائهم في مشاهدته فيما ههنا فهذا لهم على تفاضلهم فيه على الدوام قال رسول الله ﷺ: **«ترون ربكم كما ترون الشمس ضحى ليس دونها سحاب وكما ترون القمر ليلة البدر»** (١).

وقد تقدم في هذا بيان لمن تحقق إيمانه ثم هم في زيارته جل ذكره يرون بنوره القريب العلي الخاص به وهم على ذلك في درجات، ويراه رسول الله ﷺ، ومن شاء الله ذلك له بنوره منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض.

فصل

قد تقدم أن النور منه ظاهر ومنه باطن، فباطنه متى حل بباطن العبد كان انشراحًا وانفساحًا، فاتسع العلم وظهر اليقين ونزلت المعونة، وكان النشاط في النفس والجوارح وخفت المؤونة في العمل بالطاعة، ثم كان العمل الوارد عن ذلك على سنن الإخلاص وطريق العلم وخلق الحلم والتواضع وهيئة الخشوع ؛ لأنه جماع معنى الهداية والإرشاد، والتسديد والتوفيق، والتبيين والمعونة، وهو أصل العلم والحلم والحكمة والإخلاص والصبر والخير كله، قال رسول الله ﷺ: **«الصلاة نور»** (٢).

وكل سبيل يؤدي إلى مقصود ظاهر أو باطن من الخير أو دليل يبلغ إلى مطلوب كريم فهو عن النور، فالقرآن والعلم وآيات الله كلها نور، وقد جاء عن رسول الله أنه قال ﷺ: **«يؤمكم أكثركم نورًا»**، كما جاء في غيرها أنه قال: **«أكثركم قرآنًا وأقرؤكم لكتاب الله ويؤم القوم أفقههم وأعلمهم»** (٣).

ومتى حل ظاهره بجسم ظاهر رقيق شفاف طرد عنه الظلام، وأبعد عنه الكدرة، فإن زاد ذلك الجسم أن يكون صقيلًا أو ما يقوم مقامه أشرق وكان سراجًا فأضاء به ما حوله، وكذلك متى حل بصورة كان حسنًا، ومتى حل بجسم كان زهرة وجمالًا وبهاء وكمالًا ونحو ذلك، وقد تقدم أن لهذا النور الظاهر والباطن نورًا هو العلي عنه وبه وله كل نور، صفاته وأسماؤه كلها نور وخير وبركة وحمد، وأسماؤه عبارات عما هو النور

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الأذان» (٨٠٦)، وفي «الرقاق» (٦٥٧٣)، وفي «التوحيد» (٧٤٣٧)، ومسلم في «الإيمان» (١٨٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ، ورواه البخاري (٦٥٧٤، ٧٤٣٨، ٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) الحديث رواه مسلم في «الطهارة» (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

(٣) سبق التعليق على مثل هذا في باب اسمه الواحد جل جلاله.

العلي الأعلى، ولهذا النور الظاهر الشمس والقمر والنيران نور ظاهر كان هذا الظاهر المشاهد عنه هو نور الكرسي والعرش والحجب وذلك كله عن نوره الكثيف الحق المبين العلي النزيه الرفيع، وهذا النور العلي ليس له ضد بالباطل، قال الله جل من قائل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] .

ولما أوجد جل جلاله النور أوجد الظلام فطرد النور الظلام إلى نهاية أنهاه إليها، فخلق بين الحدين برزخًا، كالشبهة بين الحلال والحرام، وكالعشاء بين انتهاء النهار وابتداء الظلام بالليل، وكالغبش عند انتهاء الليل وابتداء النهار، وكاللوى بين الرمل والجدد، وكالحيف بين السهل والجبل، وكالبرزخ بين الدنيا والآخرة، وشبه هذا في الوجود كثير شائع لحكمةٍ لازمة في التدبير يجب الإيمان بها، وربما جاء هذا في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى، ولما أن جعل النور والظلمة طرد النور الظلمة إلى حد انتهائه وابتداء ضده حدثت بين حديهما النار للعلة المتقدمة الذكر، كما حدث الشفقان بين الحدين في الانتهائيين والابتدائيين من الليل والنهار، وكالحمرة والخضرة والغبرة في الألوان، فإنها عن مثل ذلك تركبت فاكتسبت النار لقربها من النور لازمة بين الحدين من بياض النور ضياء، ومن زهوته وإشراقه وصفائه لمعانًا وبريقًا وإصلاحًا ونفعًا، واكتسبت عن الظلام الحمرة والكدرة والإفساد، لكن الظلام أصلها إن أفسدت، والنور أصلها إن نفعت، ولم يخلق الله جل ذكره على علمي من خالص الظلام خلقًا ظاهرًا، إنما خلق منه البواطن كالجهل والكفر والكذب، ونحو هذا من الأخلاق المذمومة، لذلك كانت جهنم أعاذنا الله برحمته منها سوداء مظلمة .

وخلق تبارك وتعالى من النور العرش، والكرسي، والحجب، والملائكة عليهم السلام، والجنة وسكانها، وخلق أيضًا من النار الجان، وهو قبيل من الملائكة عليهم السلام، خُلِقوا من النار السموم أضل الله جل جلاله بينهم إبليس فلعنه وطرده من ملكوت السماء وعزله من عمالة الملائكة، فمن كان من خالص النور جعله خيرًا كله يدعو إلى الخير ويلهم إليه ويعين عليه، ومن كان مخلوقًا من النار أعني الملائكة منهم - عليهم السلام - جعل على يديه عقاب من كذَّب وكفر وعتا على الله وشرد عن طاعته وطاعة رسوله وجعل إبليس وأتباعه - لعنهم الله - يدعون إلى النار، وإلى ما هو من قبيل خالص الظلام، ومن كان مخلوقًا من الممتزج كالأرض والنار والماء والهواء وجعل

أعمالهم ممزوجة إلا ما رحم ربك فمنهم الشقي والسعيد والمقرب والبعيد والخير والشرير: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣] .

فكان ما خلق من الطين أقرب إلى التوفيق لصحبة الماء له، ولو شاء لهداهم أجمعين فجعلهم أمة واحدة لكنه جل جلاله جعل أحكامه على حكم لا تنثلم، وأجرى قضاياه على سبيل لا يختلف، ليبين للمعتبرين حكم الأحكام باتساق النظام، وهو اللطيف الخبير لما يشاء، فهذا أصل النار التي غلط فيها المجوس، وحقيقة النور والظلام اللذين ضل بهما أهل التثنية بأجمعهم، كما قيل غلط فيها رئيسهم فضل الضال المضل الملعون في قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢] .

والله أعلم حيث يجعل رسالاته وهو العليم الحكيم، ذلك بأنهم قالوا: إن فاعل العالم أصلان قديمان: أحدهما: نور، والآخر: ظلام، فكذبوا ههنا، وضلوا وعدلوا بربهم، وإنما صانع العالم كله واحد هو النور الحق نور الأنوار الحق الأول جل جلاله هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، قالوا: فالنور خير بطبعه، والظلام شرير بطبعه، وليس بينهم خلاف في أن النور هو الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٣] ومنهم من يقول: إن الشيطان حدث عن النور عن فكرة فكرها أو شكة شكها، تعالى الله عن إفكهم وضلالهم، ولهم على ذلك حكايات وأخبار يطول وصفها .

وفي انقسام العالم إلى الخير والشر وتنازع النور والظلام بزعمهم كلام شبيه أنواع ضلالاتهم أضربنا عن ذكرها لسخافتها، وإن كان ذكرها يدل بأول وهلة على ركاكة منتحليها رأينا تنزيه كتابنا هذا عن دنس استعراضها صوابًا، وإنما أوقعهم غلطهم هذا استقراؤهم الموجودات عند عدم التوفيق لما لم يتكلموا عن كتاب منزل، ولا لجؤوا إلى أصل وثيق، ولا نظروا بنور نبوة نبيه، فوجدوا العالم لا يخلو من خير وشر، وصفاء وكدرة، ونور وظلمة، فقالوا لذلك: كل جسم شفاف يصف ما وراءه، أو صقيل يضيء ما حوله، أو خفيف لا يوهن حامله، ولا يعتمد على ما تحته فهو من قبيل النور، وقالوا: وكل جسم هو على ضد ذلك فهو من قبيل الظلام، واستمر لهم ذلك في الموجودات الدنيوية حيث مرج الله البحرين لم يصعدوا بالعلم إلى السماوات العلا، ولا إلى ما علا عند سدرة المنتهى وجنة المأوى ولا إلى الأفق المبين والعرش العظيم، ولا نزلوا بالعلم

إلى الأرضين السفلى ولا إلى ما تحت الثرى من سجين وأسفل السافلين، فدانوا لجهلهم بعبادة النور ظنًّا وضلالًا، والظن لا يغني من الحق شيئًا، وكان أقرب موجوداتهم لهما ههنا النار والنيران، ولم يحسنوا التفرقة بين النور والنار، فعبدوا النار وعظَّموا النيران، وأثبتوا لذلك الهياكل، واتخذوا للنار بيوتًا أوقفوا لها الأوقاف وأجروا لها الجرايات وقدموا لها السدنة، سموا بيوت النار التوبهارات، واحدها: توبهارت، وسموا زعيمها: البرمك، ثم اتخذوا لها الشرائع، وسنوا من أجلها السنن وبعدوا بذلك عن النور الحق عز جلاله بعدًا عظيمًا، نسأل الله التوفيق في النظر إلى ما هو الحق عنده والصواب ونضرع إليه في التسديد لطيب القول والعمل.

وقد ذكر الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه مصداق ما أردنا في كتابه العزيز فقال جل قوله يبين سوء ما ذهبت إليه الثنوية وهم المجوس: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

ثم أعلم جل ذكره بأنهم عبدوا المجعول دون الجاعل، وعدلوا المربوب دون الرب، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وأعلم أن النار تنقسم إلى ما ينقسم إليه النور من ظاهر وباطن، فباطنها متى حل بقلب أفسده، وغير ما به من نعمة حتى يصير عليه شبهة، ويقينه ظنًّا وانشراحه تزيينًا، وخلقه عجبًا وكبرًا، فلا يزال به حتى يرده إلى الظلام الذي هو أصله فيعوضه الجهل بعد العلم، والكذب بعد الصدق، والكفر بعد الشكر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، متى حل ظاهرها بجسم ظاهر أفسده وأعدمه لم تكن لشيء معها بقاء لولا الضد الذي جعل الله جل ذكره لها من رحمته في الموجودات مقاومًا لها، والأصل الذي منه منبعث ظاهرها جهنم أعاذنا الله برحمته، قال رسول الله ﷺ: «واشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»[1]، وقال ﷺ: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»، قالوا: يا رسول

---

(١) الحديث رواه البخاري في «مواقيت الصلاة» (٥٣٧)، وفي «بدء الخلق» (٣٢٦٠)، ومسلم في «المساجد» (٦١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الله، إن كانت كافية، قال: «**أما إنها لتزيد عليها تسعة وستين جزءًا غير أنها ضُربت بالماء مرتين، لولا ذلك ما كان لبني آدم فيها نفع**»[١].

ولذلك كانت جهنم ـ أعاذنا الله منها برحمته ـ تفيح بسعيرها فيعم ذلك منها الجو وتملأ الهواء، ثم يرسل الله جل جلاله الرياح في الهواء نشرًا بين يدي رحمته فيخلق فيه الماء ويرسل به السحاب إلى حيث شاء من أرضه، فهذا إحدى الضربتين ثم ينبت من الأرض ما شاء عن ذلك الماء من نبات وشجر فهذه ضربة أخرى، قال جل من قائل: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]، فهذه النار التي عبدها الجاهلون وعظمها الضالون، ليصيرهم في الدار الآخرة إليها، كما في هذه أنشأهم عنها وخلقهم من ممزوجها، وحقت فيهم كلمته الحق: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥]، ولو عبدوا خالقها ودانوا لجاعلها ومالكها لأصابوا، فأعتقهم منها ولكنهم لا يعلمون.

ولنرجع بالكلام إلى ما كنا بسبيله فقد تقدم في صدر الباب أن أصل النار الظلام، وأن الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه أوجدها يوم أوجد الضدين النور والظلام، وللنور وجود في الصفات العلا، وليس للظلام وجود فيما هنالك تعالى الكبير، بل الله جل ذكره خلقه بقدره، وجعله آية على النور برحمته، والله خالق العدم، كما هو خالق الوجود الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ولظاهر هذه النار المشاهدة نار ظاهرة هي لهذا أصل في ظاهر الوجود هي الشمس وأكثر النيران أما البريق والمعاني والنفع فيها فمما يرد عليها من علو، وأما الحرارة والإحراق والإفساد فمما يصعد إليها من سفل بحكم الفيح، ونحن في هذا العالم في موضع الشبهة الكائنة بين الحدين ـ كما تقدم ـ من ذكر البرزخ الكائن من الموجودات كالغبشين بين الليل والنهار ونحوهما، جعل ما ههنا سجنًا لنا عقوبةً للمعصية المتقدمة، أما ما فوقنا فنور ساطع وجوده على التدريج، وأما ما تحتنا فظلام مطلق، كذلك ونحن فيما بين ذلك في موضع يضيء بالنيران، فمن عمل بطاعة الله رفع إلى موضع النور وحكمه، ومن أساء فعمل بمعنى الظلام أسفل به إلى حقيقته، وأصل النار اليبس ؛ لأنه أصل الإعدام فيما ههنا، متى حل اليبس مع الحر

---

(١) الحديث رواه البخاري في «بدء الخلق» (٣٢٦٥)، وفي «الجنة» (٢٨٤٣)، وابن حبان (٧٤٧٣، ٧٤٧٤ ـ إحسان) من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ لابن حبان.

كانت النار، متى حل مع البرد كان الزمهرير، وكلاهما مفسد بذاته ما لم يجعل الله ضدًا من رحمته يقاومه، فنار جهنم ـ أعاذنا الله برحمته منها ـ أصل وجود النار في هذه الدار، وأصل نار جهنم نار الحجاب والله أعلم .

قال رسول الله ﷺ يصف به ربه جل جلاله: «**حجابه النار**»، وفي أخرى: «**حجابه النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره**»[(١)] .

وفيها يذكر أنه من الكتب المنزلة ويوافق ما جاء به القرآن وحديث رسول الله ﷺ، ويدل دلالتها، وهو أن الله هو القيوم ملأت العالم عزته ووسع السماوات والأرض كرسيه، وأحاط بجميع ذلك عرشه الذي خدامه الآلاف الآلاف ولا يحصى من خدامه، ولا من جيوشه إلا ما شاء، جنوده نيران تلتهب وأودية اللهيب جارية قدامه، وكل مرعوب من أسمائه وجازع من هيبته وحذره المختبئ عن الأبصار الغمام ستره، والظلام سرادقه، والضياء بين يديه، والنور أمامه، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، هذا إبليس وقبيله من الملائكة وخلق الجان من مارج من نار، هؤلاء ولد إبليس لما لعنه الله وأهبطه إلى الأرض وجعله ينسل خلق ما أنسله مما ههنا فتح وفيح المارج المختلط ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩، ٢٠]، وفيها اجتلبناه دلالة على ما تركناه .

فانظر ـ هداك الله ـ إلى كل نماء وبركة وخير وفضل وعلم وحلم وطهارة وذكاء، فهو عن النور، وكل جهل وكفر وقبيح وكذب وفجور ونحو هذا فهو عن الظلام، والنور الحق جل جلاله خالق كل شيء هو الواحد القهار، ولا يهدي ولا يضل ولا يوفق ولا ينمي ولا يزكي سواه، العالم كله دليل عليه شاهد قائم له بما هو أهله نور ساطع لأبصار العقول وضياء واضح لبصائر الفهوم مع زوال آفاتها المفضية لسبل الهدى، والصارفة لها عن سنن الهدى، إنما العالم كله بنور الله ﷻ المشرق فيه ظاهرًا وباطنًا كالبيت ملئ سروجًا، وكالهواء في الضحى والشمس عزلة ضاحية، فهكذا إشراق العالم بنور ربه ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢]، فهذا للعقول نور يضيء لها كما تقدم، وقال عز من قائل:

---

(١) الحديث رواه مسلم في «الإيمان» (١٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور:٣٥]، إلى آخر المعنى، والبيت على هذه العبرة هو العالم، والزجاجة على ذلك فهو منبعث النور من الأفق المبين، ومن تدبر بإيمان وعقل وجد مصداق ما ذكرناه في قوله من لدن افتتاح سورة الجاثية: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ [الجاثية:١- ٣]، إلى قوله: ﴿هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية:١١]، قال تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٢، ١٣]، فأنبأك نصًا لا تعريضًا أن بالفكرة يعلم أنه ليس في الوجود شيء إلا الله جل جلاله، وإنابة المسيرة إليه الشاهدة له بما هو أهله، فإنه هو نور الأنوار كلها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، فمن لم يجعل له نور الأنوار نورًا من نوره فما له من نور، فالله جل جلاله هو النور الحق نور السماوات والأرض وهو منورهما.

واعلم ـ وفقك الله ـ أنه كما ليس كمثله شيء كذلك ليس كنوره نور، فالمتذكر يصعد بفكره في معارفه، ويرتقي في الأسباب بمعونة بارئه، ويبصر الهدى بنور الحق المصور المبثوث في عالمه، فإذا وصل بنور إيمانه إلى النور الحق أغشى بصره ذلك النور المبين، وسطع على كل نور عهده.

التعبد

تحقق ـ وفقك الله ـ حقيقة الأنوار فبذلك تصل بالفهم إلى النور الحق، وتعرف النور الظاهر من الباطن ومواضعه وطرقاته في العالم بحقائق ذلك كله فهو الله لا إله إلا هو نور النور، منور الأنوار كلها باطنًا وظاهرًا ومنور الآفاق بالنجوم والأنوار والنيرات، ومنور الوجود كله بمسالك معاني الأسماء الحسنى والصفات العلا، والمحقق في طلب ربه المتصبح بمصباح اليقين هو كما قال الشاعر:

يذكر فيك الخير والشر والذي ... أخاف وأرجو الذي أتوقع

ومنور القلوب والصدور بالإيمان والإسلام وخالص الإخلاص وصنوف العلوم وأنواع الدلالات والحجج البينات، ومنور الأبدان بأنواع العبادات وضروب الطاعات، ومنور الأسرار بمحاسن الأخلاق وإيثار الحقائق، ومنور العالم كله بما نصب

على معرفته من الدلائل وأقامه على حقيقته من الشواهد .

واعلم أن الذي تصل به إلى معرفة ذلك ورؤيته هو صفاء القلب من جميع ما تراكم عليه من ظلمات الجهل بالعلم والمعرفة، ومن الذنوب بغسول التوبة والندم والعزم على ترك المناهي كلها ثم العمل بما يرضى الله جل ذكره، فعليك بالتوبة من كل ذنب، والمباعدة من كل دنس، والنفور عن كل ريبة، والطهور من كل مكروه، والتطيب بكل محبوب عند الله ﷻ، وليكن شعارك تقوى الله والعمل بطاعته فبه تنال النور في قلبك وجوارحك مع إعمال الفكر وتدائب الذكر فيقوى صدقك ويتحقق إيمانك ويحتوشك النور ظاهرًا وباطنًا .

واعلم أن النور ليس شيئًا يكتسب، ولا يتناول بل هو من قبيل العطايا والمواهب، وهو ميراث عن التقرب إلى الله ﷻ، والتزكي، وذلك أن الله جعل لهذه الأمور الرفيعة عن الاكتساب مفاتيح من أمور مكتسبة لولا ذلك لم ينل، والمفتاح الذي يحتاج إليه عند كل درجة ومقام تقوى الله ﷻ، والدعاء والتضرع، ألا تسمع إلى قوله جل من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:٢٨]، فجعل النور والرحمة ثمنًا للتقوى والإيمان، وذكر قومًا ملازمهم هذا النور وملازمونه، فوصفهم بأنهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧] .

فجعل جل جلاله الخوف والتقوى والعمل الصالح أصلًا لملازمة النور واكتسابه، فعلى قدر تقوى الله تكون الطهارة من الأدناس والأرجاس، وعلى قدر ذلك يُقتبس النور في بصر القلب حتى يمتلئ نورًا، ثم تضيء الجوارح، فتبصر بالنور، وتسمع بالنور، وتتكلم بالنور، وتعمل به وتمشي به، وتقوم وتقعد وتؤخر وتقدم، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اجعل لي نورًا في سمعي، ونورًا في بصري، ونورًا في قلبي، ونورًا في فؤادي، ونورًا في قبري، ونورًا في شعري، ونورًا في بشري، ونورًا عن أمامي، ونورًا عن شمالي، اللهم ارزقني نورًا، اللهم أعظم لي نورًا»[(١)]، وربما قال:

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الدعوات» (٦٣١٦)، ومسلم في «صلاة المسافرين» (٧٦٣) من حديث ابن عباس ﭬ .

«اللهم اجعلني نورًا»[1].

وهذا تفسير قول الله جل من قائل: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**»[2].

واعلم أنك إن بالغت في الطهارة والعبادة ولم تتفرغ للنظر والتدبر والفكر لم يتم لك هذا الأمر، ولم ترتفع عن درجة عموم المؤمنين إلى درجة العلماء الناظرين في ملكوت الله سبحانه، فإذا واصلت التقوى والطهارة بالتفرغ للنظر والتدبر، ولم يشغلك ظاهر العلم عن باطنه، ولم تستجز بعلم اللسان ولا آثرته على علم القلب، بل إذا سمعت العلم رسخت بفهمك إلى باطنه، وتطلبت وجوهه، والمراد به اتصل بك الحبل واستنار لك السبيل ؛ لأن صفاء النور بقدر طهارتك وتقواك وحدة بصر عقلك بقدر تفرغك، وظهور الفوائد بقدر العناية بالتفكر والتدبر، وإصابة الصواب بقدر اللجوء إلى الله ﷻ وطلب المعونة منه والتبرؤ إليه من الحول والقوة وعلى قدر الصدق فيه تكون المعونة .

فصل

وإذا وصلت بنوره الذي هو الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بين ذلك بالعلم إلى الحقيقة الذي هو النور المبين نور الأنوار جل جلاله وتعالى علاؤه وثناؤه، فاسجد له واعبده وحده لا شريك له، واستشعر الإعظام له والإجلال والخضوع له والخشوع لعظمته وكبريائه، وكبره تكبيرًا، وقل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، فهو الحليم الكريم لا إله إلا هو العلي العظيم .

وإن العارفين من أوليائه لما أعطوا المعهود في موافقته ازدادوا كلفًا بذكره وحبًّا لمناجاته وشغفًا بالعلم به والمعرفة له، فذكروه في سرائرهم، وناجوه بخفي ضمائرهم، وقرؤوا كتابه الحكيم، فوقعوا منه على حسن أنبائه وكريم قصصه عليهم، ونصائحه لهم سموا بمعارف ألبابهم إليه، وهيجتهم دواعي اليقين، وبسطهم طوارق إيمانهم وصادق تصديقهم فإنه يرى في الآخرة، فربما هجم بهم من حيث هم الشوق المزعج، وبسطهم كريم المؤانسة إلى أن كاد أحدهم توهمًا بنظر عيني بمقارنة الإعظام والإجلال .

وما يقترن بذلك من هواجس الإيمان فلا يكاد يقع ذلك منهم من حيث هم الأعلى

---

(١) هو الحديث السابق عند مسلم .

(٢) سبق تخريجه .

حذاء، وكيف وربما زاحم ذلك وقوع الذهن على صفة مدركة ممثلة قد عبر عنها ظاهر الوحي بالمعهود المشهود، فمن أراد الله ﷻ عصمته عاد عليه برحمته من حيث هو، فمنعه عند ذلك من الخطأ، وحماه من الغلط بأن يؤنس سره عن نيل ما انبسط إليه، ويردع قلبه فيكر بهمه ناكصًا على عقبيه، راجعًا حسيرًا مستحييًا مجلًا له، قد بهرته طوارق العظمة، وأذهلته هيبة الجلال.

تلك سُنة الله جل ثناؤه في عباده الذين وصلوا إليه بصحيح المعرفة، وناجوه بحقيقة المناجاة شغفًا به وكلفًا بقربه، أخبر بذلك عز جلاله فيما تلاه علينا من نبأ موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ومواعدته ربه جل ذكره ومجيئه للميقات وكلامه إياه، وإن من هؤلاء لمن يوجب الحال له أن يرجع مما هنالك بأجناس من الفهم وغرائب من العلم بالله جل ذكره، وإن منهم لمن يرجع بخشية وخوف ورجاء وخجل، ومنهم الراجع باقشعرار وانقباض وفزع وفرق، ومنهم الراجع بصعقة وصيحة وصرعة وغشية وسكتة أو بزفير وأنين وأحزان وأشجان وغصة وحسرة وكمد وبآلام وأسقام وأوجاع وأمراض، أو تائه في المهامه سائح في البلاد لا يُقر به قرار ولا يأوي إلى مكان أو مستلب العقل مختلس الفهم يعنيه الذي بدا له عن الذي بعده، وكان موسى ﷺ مثلًا لهؤلاء.

ثم لابد ولا محالة أن يكون منهم الراجع ثابت العقل رابط الجأش شاهدًا لما بدا له عارفًا بالذي ورد عليه ثابت النفس في العبارة عما حل به مخبرًا إن سأله سائل، أو فرحًا مسرورًا متنعمًا بما وصل إليه، قرير العين بما عجز عنه، عارفًا بالنعمة شاكرًا لها بما أورثه عليه الفهم، طالبًا للمزيد من المواهب حامدًا له، إن كان ربه، هكذا يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣] وشهدت لنا شواهده بالحق، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والأولياء والمرسلين مثلًا لهؤلاء.

واعلم أن ما يرجع به أهل الفهم عن الله جل ذكره أكثر من أن يوصف، وأما ما يرجع لأولي الأمر السقيم من المغالط والفساد التي تعدوهم من صفة الجهل، فكثير جدًا نسأل الله العصمة، وأن يبارك لأهل الإيمان في حظهم من لقائه، إنه واهب ذلك وميسره.

اسمه الطاهر سبحانه وله الحمد

الطهارة بكمالها البعد عن الأدناس كلها والبراءة من الآفات أجمعها، وقيل للمرأة إذا انقطع عنها دم الحيض: طهرت فهي طاهر، وقيل للماء: طهور مبالغة في هذه الصفة من أجل طهارته في نفسه وتطهيره غيره، والمطهرة: إناء يتخذ من أدم للماء ليطهر به، وقيل لأيام النساء اللاتي لا يحضن فيها: أطهار ؛ لأنهن قد باعدن فيها أذى الدم .

الاعتبار

ضد الطهارة النجاسة، والنجاسة هنا البعد عن الخير، تنجس فلان عني أي: بعد، وقد يكون اسمًا للرجس، والرجس عمل الشيطان، قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [التوبة:٢٨]، وقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المائدة:٩٠]، وعمل الشيطان باطل يبطل عند الله ﷻ، والطهارة صفة من صفات الله جل جلاله وهي الحق، والحق لا يفنى لبقائه، قال الله جل جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:١]، أضلها وأهلكها، لأنها رجس من عمل الشيطان، ثم قال عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [محمد:٢]، أي: طهرهم وأصلح بالهم، أي: بواطنهم من دنيء الأخلاق التي هي من الشيطان، ثم بين تبارك وتعالى العلة من ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد:٣] .

فأعلم ـ عز جلاله ـ بما ذكرناه نصًا بينًا، وحامل الرجس هو النجس، ولذلك كان المشرك نجسًا ؛ لأنه بعيد عن الله وتولاه الشيطان، فهو يعمل بعمله ويأتمر بأمره، وقال رسول الله ﷺ: «المؤمن لا ينجس»[1]، أي: لأنه قرب من ربه بالإيمان والإسلام والتعبد له، وما أصاب المؤمن من بقايا الرجس على وجه الخطأ أو العمد من طريق العصيان مع الشهادة والإقرار طهره بالتوبة والعمل الصالح، فهو لا يكون حاملًا لرجس يكون به نجسًا .

ثم ما أصاب من ذلك أو أمثاله وإبداله مما أباحه مالك الأعيان ﷻ لضرورات الجسد المرتبطة به فقد خرج بذلك عن أن يكون رجسًا، فالمؤمن لا ينجس شرعًا على

---

(١) رواه البخاري في «الغسل» (٢٨٥)، ومسلم في «الحيض» (٣٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ .

حال، والحمد لله رب العالمين.

غير أن الله تبارك وتعالى كتب على ابن آدم حظه من الرجس فهو نائله لا محالة بجريان الشيطان منه مجرى الدم، والإثارة غذاؤه من الأرض وتنفسه في الهواء بواسطة الفيح، ولعقوبات سبقت عن ذنوب تقدمتها، فللضرورة اللازمة له أبيح له أن يأخذ من ذلك كله على قدر معلوم ورسم مرسوم، وأوجب عليه الطهور بالماء؛ ليطهر به من ذلك المعنى الموجود من الرجس في ذلك الطعام والشراب الذي قد خالطهما من المعنى الجهنمي في الهواء والماء والأرض في حال صنعه، ولذلك كان الأمر الأول من رسول الله ﷺ من الوضوء مما مست النار فعفا الله جل جلاله عن ذلك، وأبقاه علينا عند إخراج ثفله، أو صار رجسًا وخبثًا، وخفف عنا الطهور العام واقتصر بنا على غسل الأطراف، ومسح ما لو أمر بغسله لأعنتنا وشق علينا، كل ذلك تخفيف منه ﷻ عن واجبه ورأفة ظاهرة بعباده، وأمر بطهور جميع الجسد عند النكاح، إذ شهوة الجماع تستغرق الميز وتستنزف العقل وتغمر الروح بالجملة فإنه إصغاء محض وميل خالص إلى الغير بالمباشرة فقد خفف من ذلك واقتصر بنا على غسل الجوارح.

وجعل الله تبارك وتعالى ذلك للمؤمن شكرًا للنعم التي أباحها له في بلوغ بغيته من قوام بدنه وإيصال نسله ليتطهر بذلك، وكفارة لما أصابها من ذنوب أصلها من عمل الشيطان، قد برئ من اعتقادها قلبه، واجترحتها جوارحه، وإطلاقًا للروح من أذى غمرة الشهوة وعقابيل مباشرة اللذة، وتطييبًا للسر وتأنسًا له؛ ليبسط في المحادثة، وتنزاح عنه حشمة إيثار المباعدة بالميل إلى الغير، فإن السر يتأذى من ذلك ويتدنس به، ألا ترى أنه قد منع من النوم والأكل في حال الجنابة إلا على طهر ولو على طهر الوضوء، ولم يفتح له باب الوصول إلى ربه من جهة الصلاة، ومنع من مس المصحف وقراءة القرآن، وأنه ليفسد بمباشرته كثير من الأشياء فسادًا كثيرًا، وما ذلك إلا لمعنى وصل إلى معنى الطهارة منه في باطنه فغيره فذلك المعنى يطهره الماء زائدًا إلى ما تقدم، فافهم.

ألا تسمع إلى قول الله جل ذكره: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

فهذا تطهير من الذنب بالماء، ويذهب نصيب الشيطان منه، ويشجع الجبن ويثبت زلل الأقدام، أي أن العصمة كثيرًا ما تكون مع الطهارة، وأما الحيض فهو أذى

ورجس، كان أوله رجسًا بعث على حواء عليها السلام لمكان خطيئتها في الجنة حين أكلت من الشجرة وجرأت عليها آدم ﷺ هذه المرأة التي جعلتها صاحبة لي أعطتني منها فأكلت، قال رسول الله ﷺ: «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها» [1]، فقال الله ﷻ: «علي أن أدميها في كل شهر مرة»، وفي بعض الروايات: «مرتين وأن أجعلها سفيهة فقد كنت خلقتها حليمة، وأن أجعلها تحمل كرهًا وتضع كرهًا فقد كنت جعلتها تحمل يسرًا وتضع يسرًا فتلك البلية أصابتها ولكل نساء الدنيا، فقال لآدم ﷺ: إذ قد سمعت لامرأتك وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها قد لعنت الأرض لعمارتك إياها، فلا تصيب خيرها إلا بشخوص وسينبت لك البقل والشوك وتأكل عشب الأرض في عرق بدنك وتطعم الخبز إلى أن تصير إلى الأرض التي خلقت منها لأنك غبار وستصير غبارًا» [2].

لهذا ولما تقدم ذكره دخل الرجس أطعمة هذه الدار، وعادت أثفالها إلى رجس محض ورجس، فوجب التطهر منها في أصل المعصية وعفا لنا ربنا عما شاء من ذلك، والطهارة تنقسم إلى ما انقسم إليه المتطهر منه وهو الرجس، والرجس ضربان: ظاهر وباطن، الباطن منه ضربان:

أحدهما: خلق لازم للإنسان كالشح والجبن والبخل والكذب الخلقي والطيش والحمق ونحو هذا مما هذا سبيله، فإنما تطهيره إلى الله ﷻ.

وضرب: هو ذنب يعتقده المرء ويصر عليه مما ليس يبدو على الجوارح، وطهور ذلك التوبة على شروطها والرجوع منه إلى أصل إيمانه وإسلامه.

والظاهر منه ضربان:

أحدهما: عمل يخرج على الجوارح يعتقده القلب وتتعهده الإرادة وتنويه النية، فطهور ذلك من جهة القلب التوبة على ما تقدم ذكره، والعمل الصالح يخرجه على الجوارح بدلًا من القبيح الذي بدا عليها في حال المعصية، وإن أمكنه أن يجعل الطاعة مقابلة للمعصية فهو أفضل وأنجع لدواء الداء في مبالغة الطهارة.

---

(١) الحديث رواه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٣٣٠)، ومسلم في «الرضاع» (١٤٧٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) لم أجده.

والضرب الآخر من الضربين الظاهرين ينقسم قسمين:

أحدهما: عمل بمعصية لا قرار لها في القلب ولم يكن حاولها بقصد، وإنما هو شيء سنح له من غير إرادة متمكنة، ولا عقد في القلب مرتبط، فذلك يكفره إن شاء الله مع حال الإصرار طهر الماء والصلاة والصدقة والصيام وذكر الله، وقد كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يقول في دعائه: «اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد، اللهم اغسلني من الذنوب والخطايا كما يغسل الثوب الأبيض من الدنس»[1].

والقسم الآخر من هذين القسمين: هو ما يعلو الجسم مما يكون ظاهرًا وهو ما سماه رسول الله ﷺ: الفطرة، فذكر الختان وقص الشارب وحلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظافر وغسل البراجم والسواك والمضمضة والاستنشاق وانتقاص الماء، يعني: الاستنجاء، فهذا يغالب كل ضرب بما يكون طهرًا له، والأصل في تطهير الماء للرجس مع رحمة الله به أن الماء أصله طاهرًا طهارة مطلقة، قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الماء طهورًا لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو ريحه أو طعمه»[2]، ومصداق ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧] فهذا دليل على أنه طاهر في نفسه، وأما دلالتنا على أنه مطهر لغيره ففي قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، وقوله جل وعز: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، وأصل وصف الحياة طاهر، ألا تراه أنه تطهير الموات من الموت، فالماء بما هو ماء طاهر الذات على الإطلاق مطهر لسواه.

فأراد ربك ﷻ - وهو أعلم - إذا أصاب أحدنا رجس من الشيطان أن يرده بالطهور إلى أصل خلقته، والدليل على صحة هذه العلة أنه جعل التراب في ذلك بدلًا من الماء عند عدمه؛ لأنه كان مصاحبًا للماء في خلقة آدم ﷺ، والماء أشرف لأنه موضع الرحمة وأصل لكل حي طاهر.

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الأذان» (٧٤٤)، ومسلم في «المساجد» (٥٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه ابن ماجه في «الطهارة» (٥٢١)، والبيهقي في «الكبرى» (١٢٢٦ ـ ١٢٢٩)، والدارقطني (٤٤) من حديث أبي أمامة ﷺ، ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٦٤)، والدارقطني (٤٣، ٤٦، ٤٧)، من حديث راشد بن سعد ﷺ مرسلًا والحديث ضعفه الألباني في سنن ابن ماجه.

وقال أحد العارفين: خلق الله السماوات والملائكة والجنة والنار وما فيها من نور وأصل ذلك الماء، ثم قرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، فقام الماء لإزالة الرجس والنجاسة والدَّرن، مقام النور للظلام يطهر منه موضع حلوله، فاتسقت الأحكام وظهرت الحكمة وانتظمت الدلائل الأول بالآخر، والظاهر بالباطن، والشرعة بالجبلة، وميثاق النظر ببرهان المشاهدة بتقسيم القسط ووزن العدل، والحمد لله رب العالمين، هذا طهور التوبة وطهور الماء، وللطهارة أيضًا طرق كثيرة:

منها: طهارة الصلاة، قال الله عز من قائل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما**»(١).

وقال ﷺ: «**ما من عبد يسبغ الوضوء كما أمره الله فيصلي الصلاة التي أمره الله إلا غفر الله له**»(٢).

وقال: «**إنما مثل الصلوات الخمس كمثل نهر غمر عذب بباب أحدكم ينغمس فيه كل يوم خمس مرات فما ترون يبقى ذلك من درنه**»(٣).

ومنها: طهر الصيام، قال رسول الله ﷺ: «**رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر**»(٤).

ومنها: طهر الصدقة، قال عز من قائل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

ومنها: طهر الحج، قال رسول الله ﷺ: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»(٥).

---

(١) الحديث رواه مسلم في «الطهارة» (٢٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) الحديث رواه مسلم في «الطهارة» (٢٣١) من حديث عثمان بن عفان ﷺ بلفظ قريب.
(٣) الحديث رواه البخاري في «مواقيت الصلاة» (٥٣٨)، ومسلم في «المساجد» (٦٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) سبق تخريجه قريبًا.
(٥) رواه البخاري في «الحج» (١٥٢١)، وفي «المحصر» (١٨١٩، ١٨٢٠)، ومسلم في «الحج»=

ومنها: طهر الذكر، قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»[(١)].

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله»[(٢)].

ومنها: طهارة الصبر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، إلى غير ذلك من الرضا عن الله ﷻ والتفكر في آياته، وفي وعده ووعيده، والرجاء، والخوف، والحزن والإشفاق والمحبة وغير ذلك، ومن ذلك طهارة الابتلاء بالمصائب كلها، كالأمراض والأوصاب وفقدان الأحباب، قال الله جل من قائل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال رسول الله ﷺ: «حتى الشوكة يشاكها العبد طهرة له»[(٣)].

ومنها: طهرة الشكر فما من نعمة ينعم بها على عبد مؤمن يشكر الله عليها إلا كانت طهرة له من ذنب وكفى لحسابها، وبالجملة فكل طاعة لله ﷻ طهرة، كما كل معروف صدقة، فتتبع هذا شيئًا شيئًا إن شاء الله وهو المستعان، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التعبد

فاعلم ـ رحمك الله ـ أنه يجب عليك التحقق بصفة الطهارة علمًا وعملًا، فتطهر من المعاصي بمجانبتها، فذلك أفضل لك عند ربك وأيسر مؤنة من طهور التوبة، ومتى ابتليت بمواقعة شيء منها فأسرع إلى التوبة منها فذاك طهورك، ومتى عملت عملًا فأخلص فيه وطهره من الشوائب وخلصه من الآفات، فبذلك تستوجب موعوده

=(١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) رواه البخاري في «الدعوات» (٦٤٠٥)، ومسلم في «الذكر والدعاء» (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» في كتاب القرآن (٢٤)، والترمذي في «الدعوات» (٣٣٧٧)، وابن ماجه في «الأدب» (٣٧٩٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه موقوفًا وصححه الألباني في هذه السنن موقوفًا ورواه مرفوعًا أحمد (٥/ ٢٣٩) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وسنده منقطع.

(٣) رواه البخاري في «المرضى» (٥٦٤٠)، ومسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٥٧٢)، وأحمد (٦/ ٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، ورواه البخاري (٥٦٤١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه مسلم (٢٥٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

طهر قلبك من كل ما يدنسه بالتوبة النصوح، وطهر خلقك من الآفات، وبصرك من الجناية، وثيابك من الرجس والدنس، وجسمك عن التفث والدرن، وفاك بالسواك، ولسانك من الكذب والهجر، وبطنك من الحرام، وأسنانك من القلح، وعينيك بالتعاهد من الرمص والقذى، وشعرك من الشعث والأذى، وليكن ذلك كله على ما يرضي ربك، وعليك بالتطهر للجمعة فإنك لا تدري بأي أعمالك تستوجب رحمة ربك، قال رسول الله ﷺ: «**غسل الجمعة واجب على كل محتلم**» [(١)]، وفي أخرى: «**حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يومًا، يغسل فيه رأسه وجسده**» [(٢)].

اسمه الطيب سبحانه وله الحمد

يقال من ذلك: طاب الشيء يطيب طيبًا فهو طيب، والطيب في كل شيء جوهره ونفيسه، وهو ما سلم من الخبث كله ثم ارتفع بعد إلى أرفع درجاته، ومنه قيل للماء: طيَّاب إذا كان عذبًا صافيًا، مطيبًا لغيره، أي: مطهر، فهو طيب في مذاقه، حسن المأوى مطيب لغيره، وقيل لشجرة في الجنة: طوبى لطيب عيش في منحها وصفائه من كل كدر وارتفاعه على أرفع غاياته، وقيل للأكل والنكاح: الأطيبان، لمحبة النفوس ذلك وميلها إليهما، وقيل للخمر: طابة لعشق شُرَّابها إياها وميل نفوسهم إليها وحبهم لها، وسمي المستنجي مستطيبًا لإزالة الخبث عن نفسه بذلك الفعل.

وأرى - والله أعلم - إنما سميت المدينة طابا ؛ لأن الله ﷻ أرصدها للهداية وطيبها في نفسها بكونها كطيبة لغيرها من البلاد لدخولهم في دين الإسلام من أجلها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى**» [(٣)]، أي: تغلبهم على أمرهم فتردهم إلى أمرها، ولكونها أيضًا في نفسها بالوصف الذي وصفها به رسول الله ﷺ في قوله: «**المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها**» [(٤)]، وهي معدن طيب من هذه الجهة،

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الأذان» (٨٥٨)، وفي «الجمعة» (٨٧٩، ٨٨٠، ٨٩٥)، ومسلم في «الجمعة» (٨٤٦، ٨٤٧/ ٧)، وأحمد (٣، ٦، ٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) رواه البخاري في «الجمعة» (٨٩٧)، وفي «أحاديث الأنبياء» (٣٤٨٧)، ومسلم في «الجمعة» (٨٤٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) الحديث رواه البخاري في «فضائل المدينة» (١٨٧١)، ومسلم في «الحج» (١٣٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) الحديث رواه البخاري في «فضائل المدينة» (١٨٨٣)، وفي «الأحكام» (٧٢٠٩، ٧٢١٦)، وفي=

ومبعثه منها خرج وإليها يعود، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»(1)، وسمي المسك والرياحين كلها طيبًا، لطيب ما يذيعها على النفوس من زكاء الروائح وطيب الأرج.

اعتباره

معنى الطيب قريب القرابة من معنى الطهارة جدًا يعسر الفصل بينهما إلا بعد إمعان النظر، غير أن الطيب وصف زائد على الطهارة، وذلك أن الطهارة عبارة عن ذهاب الرجس والنجاسة أو عدم ذلك عن المحل المقصود بالوصف، والطيب عبارة عن شيء زائد موجود فيه على الطهارة، يظهر للبصر صفاءً وجمالًا، وهو في الشم طيبًا وأرجًا، وفي الذوق لذاذة واستساغًا، وفي الأفعال جودةً وحسنًا.

فالأفعال الدينية كلها شيء متى ألفت بعاملها رجسًا طهرته، وإن لم تجد ما من تطهره طيبته فكانت شكرًا، ولذلك قيل لهم عند دخولهم الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣]، وقال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، وقد تقدم أن ضد الطهارة النجاسة التي تكون عن الرجس، كذلك ضد الطيب الخبث، وهو ثقل الشيء وحثالته وبنيته المتعلق به من أصل بنيته، والمتشبث بذاته من سنح معدنه لعلة المزج المتقدم في أصل البنية التي عنها المحنة، فالممتزج بذوات بني آدم من المذموم من جهة المذموم في المزج هو الخبث، كخبث الحديد والنحاس والفضة والذهب والفلز، وذلك المعنى هو حظ الشيطان من أحدنا، لكنه خلق لله جل ذكره.

ثم ما كان من هذا المشار إليه من تلك الجهة المذمومة من سقم نفساني أو وصب أو مرض، وما كان من ذلك أيضًا من خلق من حرص أو شره أو جبن أو كسل أو حسد أو غيره فهو رجْز، وما كان عن ذلك من عمل فهو رجس، لأنه من عمل الشيطان وأمره، ثم ما كان من جزاء عليه فهو رجْز، والممتزج بذلك المذموم من محمود هو خالص ذلك الجوهر وعليه وطاهره وطيبه كجوهر كل فلز بعد خلوصه من خبثه، ثم

=«الاعتصام» (٧٣٢٢)، ومسلم في «الحج» (١٣٨٣) من حديث جابر ﵁.

(١) رواه البخاري في «فضائل المدينة» (١٨٧٦)، ومسلم في «الإيمان» (١٤٧) من حديث أبي هريرة ﵁.

ما كان من عمل أو خلق عن هذا المشار إليه في هذا الموضع فهو الخير والطيب، وهذا المعنى هو أثر الله ـ جل ذكره ـ في الإنسان يتحقق بالإيمان ويزكو بابتغاء رضوان الله ويظهر على الجوارح بالتطهر والتوبة، وهو خلق لله جل ذكره، وهو حظ الملك ﷺ من العبد، وهو المخاطب منه وموضع نظر الله منه، وهو طريق الهداية والتوفيق فيه، فافهم.

وقد كان بعض العلماء ـ رضي الله عنا وعنهم ـ يقول في دعائه: «اللهم خلصني من ذنوبي وعيوبي كما تخلص الفضة البيضاء من الخبث في يسر وفي عافية»، وقد جاء التنبيه على الطيب والخبيث والطهارة والرجس في القرآن مكررًا مرددًا في مواضع كثيرة؛ لأنهما اجتمعا بالمعنى بهما، والمخبر به عنهما في الحق والباطل، اختصرنا ذكرها لشهرتها، وكان رسول الله ﷺ يقول عند دخول الخلاء: «**اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث**» [1]، سمى البول والغائط: الأخبثين، ومنع الصلاة مع مدافعتهما.

وقال ﷺ لصاحبه: «**ائتني بثلاثة أحجار**» [2]، وفي أخرى: «**ثلاثة أشياء أستنفض بهن، ولا تأتني بعظم ولا روث ولا حممة**» [3].

وقال ﷺ لما أتي بها لاستطابه: «**إنها ركس**» [4]، أي: أنها أركست من بعد طهارتها إلى الخبث، ومن اعتبر هذه الأحاديث التي جاءت عنه ﷺ في هذه المعاني من الاستطابة، ولم اجتنب الثلاثة أشياء؟ فالذي غير حكمها حتى لم تكن مطيبة وحدانيته في الذكاة، وقد قيل له: يا رسول الله، إنا نلقى العدو غدًا، وليس معنا مدى أنذبح بالقصب؟ فقال ﷺ: «**كل ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل**»، وفي أخرى: «**وأفرى الأوداج ليس السن والظفر، وسأحدثكم، أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة**» [5]، وكالذكاة

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الوضوء» (١٤٢)، وفي «الدعوات» (٦٣٢٢)، ومسلم في «الحيض» (٣٧٥)، من حديث أنس ﷺ.

(٢) الحديث رواه البخاري في «الوضوء» (١٥٦)، والترمذي في «الطهارة» (١٧)، وابن ماجه في «الطهارة» (٣١٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) رواه البخاري في «الوضوء» (١٥٥)، وفي «مناقب الأنصار» (٣٨٦٠)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) هو الحديث قبل السابق.

(٥) الحديث رواه البخاري في «الشركة» (٢٤٨٨، ٢٥٠٧)، وفي «الجهاد» (٣٠٧٥)، وفي «الذبائح والصيد» (٥٤٩٨، ٥٥٠٣، ٥٥٤٣، ٥٥٤٤)، ومسلم في «الأضاحي» (١٩٦٨) من حديث رافع بن خديج ﷺ.

طهارة وتطيب، والعلة موجودة في الظفر كوجودها في العظم فافهم .

وكذلك الحديث الذي جاء عنه ﷺ في جوابه وفد نصيبين من جن الجزيرة ليلة قرأ عليهم القرآن وعلمهم الإسلام سألوه الزاد فقال: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**» .

فانظر ـ وفقك الله ـ كيف جعل المطهر الطيب، اسم الله جل جلاله، ثم قال: «**فلا تستنجوا بهن فإنها طعام إخوانكم من الجن**» [١] .

وأضف إلى هذه الأحاديث التي جاءت في معنى ما تقدم كقوله ﷺ في أمره بتقليم الأظافر: «**إن الشيطان يقعد على ما طال منها**» [٢]، إشارة منه إلى الوسخ المجتمع تحت الأظفار مع الغفلة عن تقليمها، وكحضه ﷺ على الاستنشاق والاستنثار، وقال ﷺ: «**إن الشيطان يبيت على خياشيمه**»[٣]، فإنما تجده أبدًا يدلك على أن مكان الشيطان موضع الخبث وأن عمله الرجس ، وأن ما يعتري الإنسان من كسل أو ملل أو سقم أو مرض في جسمه ونفسه مما تضيق به معيشته أو ما ينزل به من السماء من بلاء أو عذاب جزاء لعمله فهو رجس .

ثم اعلم أن من أراده الله جل جلاله برحمته نقله إلى الخير، وقربت له بمشيئته انصرام أيام البلاء عنه وجه به إليه، سبحانه وله الحمد فيجعل ما كان له من خلق مذموم محمودًا، كالشره والحرص والحسد ونحو هذا، فيجعل حسده على الخير والحكمة وبذل النفس والمال والجهد والاجتهاد في ذات الله ﷻ، ثم صير حرصه وكبره وشرهه وفقره وإباءه وبغيه إلى غير ذلك من ذميم الأخلاق في طاعة ربه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه بأن يجعل كبره على أعدائه وفقره إليه وإباءه عن معاصيه ومكروهه ونحو ذلك، هكذا يمحصه برحمته ولطفه، فإذا هو قد أبدل له بسيئاته حسنات يحييه بذلك حياة طيبة كما قال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

---

(١) الحديث رواه مسلم في «الصلاة» (٤٥٠)، وأحمد (١/ ٤٣٦)، والترمذي في التفسير (٣٢٥٨) من حديث ابن مسعود ﷺ .

(٢) رواه الخطيب في الجامع كما في الإحياء (١/ ١٨٨)، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء .

(٣) الحديث رواه البخاري في «بدء الخلق» (٣٢٩٥)، ومسلم في «الطهارة» (٢٣٨)، والنسائي في «الطهارة» (٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ .

تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣]، فلا يبقى مع هذا سيئة إلا أصلحها ووجه بها وجهته إليه سبحانه، فاستعمله بها فيما يرضيه فاستحالت بذلك حمدًا وخيرًا، وقد كان قبل ذلك في معيشة الضنك أعمى عن الهدى أصم لا يسمع الداعي، وإنما كان كذلك لأجل خبث باطنه ورجس أعماله، نسأل الله الذي لا إله إلا هو معافاته ومغفرته، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله قرين من الجن ..... فهو لا يأمرني إلا بخير»[1] فأخبرك ﷺ بمعنى ما تقدم.

التعبد

فاجهد نفسك - وفقك الله - العلم بأسماء الله ﷻ، واستعمل نفسك بمقتضاها حسب الاستطاعة، ولتعلم أن التطيب من الخبث الخلقي ليس من قبيل الاكتساب إنما ذلك لله تعالى وحده لا شريك له، لأنه من أصل الصنعة وتركيب الخلقة، ولا استطاعة للعبد على تغيير الخلقة إنما إصلاح ذلك لله وحده، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، لكنه تبارك وتعالى ما خلق من داء إلا جعل له دواء، ولا أغلق غلقًا إلا أوجد له مفتاحًا، قال رسول الله ﷺ: «إن لكل داء دواء، فإذا وافق الدواء الداء برأ الداء بإذن الله تعالى»[2].

ومفتاح هذا الغلق الدعاء والتضرع بالاستكانة والتبرؤ من الحول والقوة وانتظار الفرج من عند الله تبارك وتعالى، ودواؤه المجانبة لمظان الريب، والفرار من مواطن المعاصي، والبعد عن مواضع الآثام والفواحش، والعزلة وقلة الخلطاء إلا ما يعينك منهم على مطلبك.

وقطب ذلك كله معرفة النفس ومخالفة الهوى، فتوسل إليه جل جلاله بأحسن الوسائل وأحبها إليه، وترقب أوقات الغفلة، وتحين أحيان رقة قلبك، وناجه بلسان الافتقار، وتضرع بين يديه بجلال الاضطرار، وابك إذ أتاح لك البكاء واسأله، واشك

(١) رواه مسلم في «صفات المنافقين» (٢٨٨٤)، وأحمد (١/ ٣٨٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٦٥٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٤٢١، ٤٢٢)، رقم (١٠١٧) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) الحديث رواه مسلم في «السلام» (٢٢٠٤)، والنسائي في «الكبرى» في النعوت (٧٥١٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

إليه بثك واعتذر من عجزك، فإنك لا تدري متى تكون الاستجابة وهو الرؤوف العطوف ذو المن القديم والفضل العظيم، لا إله إلا هو رب العرش الكريم، منحنا الله وإياك حسن هدايته، ولا حرمنا كريم إجابته، إنه ولي ذلك لا شريك له .

اسمه الزكي جل جلاله

أصل الزكاء ـ والله أعلم ـ هو استواء صفة الشيء الموصوف به في الخير، فإذا استوى في ذلك ظاهره مع باطنه، وشماله مع يمينه وآخره مع أوله فذلك الزكاء، والموصوف به زكي، وقيل للفرد: خسي، فإذا أفهم للفرد صار زوجًا قيل: هو زكي، ومن قال: إنه النماء فلم يبعد من الصواب ؛ لأن النهوض إلى الخيرات صعود كما أن النزول إلى الشر سفال، ألا ترى أنك لا تقول في الشر: زكاء الكذا ويقال في الخير، ثم ترجع بالكلام إلى أنه تثنية الخير في الموصوف فيه وإعادته عليه، فيقال من ذلك: زكا الشيء يزكو زكاءً إذا نما وزاد، لأنه كان فردًا في نفسه وواحدًا في ذاته، فعاد بنمائه وسيادته زكاء، وقيل للرجل التقي: زكي من رجال أزكياء، نمت حاله في الصلاح وزادت أسماؤه في معاني الحمد على ما يأتي في الاعتبار بعد إن شاء الله تعالى، وذلك كأن موضع الحدث والرجس منه لحق بموضع الطيب والطهارة منه .

وزكاة المال مفروضة من ذلك ؛ لأنه يذهب خبثه يؤدي بذلك تباعته فيعيد على مخرجها سائر المال مضاعفه أضعافًا في الآخرة مع كونه في الدنيا قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢] .

اعتبار

اعلم ـ وفقك الله ـ أن الموضع خصّ بالطهارة والطيب جبلة وفطرة هو موضع اليمين، وضد ذلك في موضع الشمال، وكذلك الأمام من الوراء والفوق مع التحت، ولا يقال لموصوف: إنه زكي حتى تجتمع جهتاه في الخير ؛ لأن الزكاء صعود في معاني الأسماء الحسنى، ومن أسمائه جل ذكره الواحد والأحد، فإذا صرف العبد جهتيه معًا إلى الخير وجمعهما بمعنى الحمد لحق بالحمد وهو الزكي، غير أنه قد يوصف الموصوف بالزكاء متى وجدت منه بعض هذه الصفة مقاربة وصفحًا للتقصير اللازم لفضل الله ﷻ، ولذلك ما أباح التسمي بمعاني أسمائه على المجاز والمقاربة، والله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه وصفاته وأسماؤه البريء النزيه عما يلحق المحدثين من حقائق الخبث

والرجس، كما هو البريء النزيه الرفيع عن قصور صفات البشر ونقائص الحدث، وهو معنى قول رسول الله ﷺ: «**وكلتا يدي الرحمن يمين**» [(١)]، يريد أنه لا يوصف بصفة ولا يسمى باسم يخالف معاني اليمين، إذ ذلك لا يجوز عليه ولا يليق بنعوت جلاله وصفات تعاليه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

هو الطاهر الطيب في جميع صفاته المحمود منها من كل أسمائه، وهذه هي الصفة العالية في حقيقة الزكاء لا يوصف بها حقيقة سوى الزكي الحق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، ومن سواه من المتصفين بها فمجاز وقصور عن حقيقة الصفة العالية، ومما يزيدك إيضاحًا أن تتصفح بعقلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، فأضاف السماوات إلى يمينه لطهارتهن وبراءتهن من الخلاف فيما سبيله المناهي، وطهارتهن من الرجس، ونسب الأرض إلى يمينه الأخرى، ولأجل ذلك سبح نفسه وله الحمد ما ينبغي له أن يقدره فيضيف إليه ما يستحيل عليه، بل هو الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات، الزكي القدوس الطاهر الطيب له المثل الأعلى، قال رسول الله ﷺ في حديثه المشهور: «**لما خلق الله آدم ﷺ مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيده الأخرى وكلتا يديه يمين**» [(٢)]، فاشتبه هذا في المعنى تسبيح الله جل ذكره في الآية المذكورة.

واعلم - فهمنا الله وإياك عنه - أنه لا يكون عن الخير إلا الخير، وأن فعل الله جل ذكره خير كله، عدل كله، حسن كله، وهو الواحد الحق، خلق آدم ﷺ وخلق منه زوجه، وأوجد عنه رجالًا كثيرًا ونساء، كذلك خلق الماء واحدًا ثم أنزله إلى الأرض ثم فصله إلى ما فصله إليه، قال الله جل من قائل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦]، فتلوم - رحمك الله - بفهمك على هذا الموضع من النظر وتثبته بعقلك

---

(١) رواه مسلم في «الإمارة» (١٨٢٧)، والنسائي في «آداب القضاة» (٥٣٧٩) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) الحديث رواه أبو داود في «السنة» (٤٧٠٣)، والترمذي في «التفسير» (٣٠٧٥)، ومالك في «الموطأ في القدر» (٢)، وأحمد (١/ ٤٤، ٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدون لفظ: «وكلتا يديه يمين»، وصححه الشيخ شاكر على المسند.

وإيمانك، ففيه أشكال كثيرة فإنه مما قيل في بعض ما يذكر أنه من الكتب المتقدمة المنزلة، يا جولة الخاطر تلومي بمقدار ما بين المظنون والمتيقن والواجب من الممكن، ولا تقضين بظاهر القول على باطن الفعل، فإن الأشكال في هذا العالم أكثر من الإبانة، وهو كالموضع المظلم الذي لا يستقصي المستعرض فيه فرق ما بين الألوان والأكوان، فإذا خلص لك شيء بمقدار طاقتك فضعيه في موضعه، ولا تتجاوزي به محله، فإن التقصير عنه أسهل من التعدي به ورغبي إلى ممسك عصم الإصابة في تسديدك، واتهمي ما يغلب على إرادتك، فإنها تمسك مع يسير الشبهة إلى معاندة الحقيقة، واعلمي أن ما صدر عنك مثبت في صحائفك ومخلف عنك، فاختاري منه ما حمدت صحبته ووجبت زلفته، فإن الأيام تحد به وأنت مرتهنة بقولك وفعلك .

اعلم أنه مقعد عظيم لعقد خطير ضل عن حقيقته الضالون، من أجله شبه المشبهون فتاهوا وأبطلوا، ولمكانه أشرك المشركون فعدلوا بالله غيره وأكثروا وعَندَ الضالون وألحدوا في أسمائه وصفاته، فسبحانه وله الحمد ما قدروه حق قدره، وهو منبعث المحنة والابتلاء، فالله جل ذكره هو الزكي الطاهر الطيب القدوس من جميع جهات النظر والاعتبار ونواحي التذكر، لا تلحقه الآفات، ولا يليق به نقص، ولسواه من أسمائه وصفاته مجازها، فطيب منهم بوجه أو مرحوم مطهر قاصر الصفات ممكن أن توجد به الآفات إلا ما رحم ربي ليس كمن ليس كمثل ذاته ذات ولا كصفته صفة، أفمن هو جبار لا نقص فيه كمن هو مجبور لا غنى به، أو من هو كبير لم يزل كمن هو حقير لم يكن، كيف تشبه الخليقة الحقيقة أم كيف تماثل القدرة الفطرة ؟! الكل أبان بجبروته، وأخبر بدوام ملكوته، وسبح بحمده لطهارة قدسه، أمارات الصنع على الجميع واضحة، ودلائل الحدث على الكل لائحة، ولألباب أولي الألباب بأنها ليست كمثله مناحيه، قال الله عز من قائل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل:٤٨]، فأعلم ﷻ بإفراد اليمين أنه معمور النور، وأنه يطرد الفيء عنه بقوله عن اليمين، وأن موضع الشمال من كل ذي فيء معمور الأفياء، والنور بفيئها عنه سجدًا لله داخرة له .

التعبد

اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أنه يجب على كل من ذكر الله جل ذكره باسم من أسمائه أو

أثنى عليه بنعت من نعوته فإن من آداب ذلك: أن يطالب نفسه بمقتضى ذلك الاسم وموجب ذلك الذكر على ما يرضي المذكور المحمود بذلك الحمد، قال الله جل من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤، ١٥]، فأعلمك أنه من الواجب المأمور به المفروض على من عرف ربه ألا يقف بنفسه على العلم به دون العمل له والتعبد لجلاله ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:١٨]، وإن من التزكي أن يعمل بطاعة الزكي الحق جل ذكره ليتزكى عنده ويتقرب منه، ومن التزكي ما هو داخل في المفروض الموجب وهو العمل والتعبد، ومنه ما هو خارج عن طاقة البشر اكتسابه، وقد تقدم في اسم الطيب غير أنه يجب عليه أن يكف حسده إلا في الخير، وبغيه إلا عن أعداء الله جل ذكره على ما أذن له فيه، وإغلاظه وفظاظته وشدته وبطشه وكبره واستهزاءه ونحو هذا إلا على وجه أذن له فيه وأبيح له، فعليك بالصعود في درجات الخير وتطلب معالي الأخلاق، فالله جل ذكره يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها، فما كان بمعنى التطهر من الأدناس والآثام والأرجاس، والتطيب بطاعة الله وصالح الأعمال فهذا هو المفروض وهو التزكي، وما كان من نقل الأخلاق المذمومة إلى المحمود منها والهداية لأحسنها والعزيمة عليها والثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، فذلك إلى الله تعالى يوصل إليه بالرغبة والتضرع والسؤال والتعمل، والله يمن على من يشاء من عباده، قال رسول الله ﷺ: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»(١).

والمفروض على العبد امتثال ما هو موصل إلى هذا بإذن الله ﷻ، وهو ثواب له وكلمة جامعة متى أردت التزكي فكل خلق في القرآن محمود تفعله وكل خلق في القرآن مذموم تنهى عنه فهذا هو التزكي المراد منك، فاعمله وبالله التوفيق .

اسمه السبوح جل جلاله

جملة المراد بهذا الاسم الكريم اعتقاد بعده ونزاهته عن المكروهات، وبراءته من نقائص المحدثات وافتقار المكنونات، وقد تقدم من شرح ذلك جملة تشرف بذوي الألباب على قصد الصواب، وقد جاء على وزن فعول، وهو غريب للبناء لم يأت في

---

(١) الحديث رواه مسلم في «صلاة المسافرين» (٧٧١)، وأبو داود في «الصلاة» (٧٦٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحديث سبق في باب اسمه الآخر عز وجل .

الأسماء فيما نعلمه على بنائه إلا قدوس عن آية البناء في الأسماء أمرًا يأتي لرفعة الذكر وعلى قدر الذاكر واختصاصه به .

فأما اشتقاقه ـ والله أعلم ـ فهو من سبح يسبح، فالسابح متباعد بسبحه عن المكروه من الغرق والهلاك ونحو هذا، وكذلك قولهم: قدس سابح إذا كان خفيف الوطء حسن الجزاء سابقًا إلى غايته فهو متباعد بسبحه ذلك عن موضع ابتداء جريه ليقرب من غايته، يباعد بذلك أيضًا في جريه الصفات التي توجب وصف الهجنة، وأما مجيئه على وزن فعلان في التسبيح فذلك متردد بين وجوه لن يخرج عن أن يكون منها إن شاء الله ﷻ، نقول من ذلك: سبح يسبح سبحًا من الجري والعوم كما يقول: عدا يعدو عدوًا من الجري، وخطا يخطو خطوًا من الخطا والخطو، وهكذا تأتي مصادر الأفعال الظاهرة من هذا الباب، فإذا أتت المصادر عن الأفعال صدرت عن الباطن جاءت على وزن فعلان، يقال من ذلك: عدا عليَّ يعدو عدوانًا من الاعتداء، كذلك سبح عن كذا يسبح سبحانًا إذا كان التباعد عن خلق مذموم فخولف بناؤهما في المصادر تفرقة لذلك.

وكلمة سبحان توجد بما هي عبارة عن جميع معان نزهت عظمته عمّا لا يليق به ولا يجوز في نعوت جلاله، كقضب وقضبان، وكثب وكثبان، والعرب تأتي بهذا البناء علمًا للجمع وأسماء الجموع في معان مخصوصة كقولهم: قرأت أقرأ قراءة، واسم المقروء قرآن، وقطعت أقطع واسم المقطوع قطعان، وقربت أقرب واسم المقرب المبتغى به التقرب قربان، فعلى هذا يكون اسم جمع السبحات المسبح بها سبحان، ويكون واحد هذا الجمع سبحة كما واحد الخطوات خطوة، وواحد القربات قربة، ويقال أيضًا: حسبت أحسب حسبانًا، قالوا: وجمع الحساب حسبان، وهذا راجع إلى ما تقدم ذكره أولى به أن يكون الحسبان من حسبت أحسب تحسيبًا على وزن فعلت أفعل تفعيلًا، أي: جعلته على حساب، فيكون المحسب حسبانًا كذلك قالوا: سبحت أسبح تسبيحًا، واسم المسبح به سبحان، قال الله ﷻ: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥]، يقال: هذا قربان زيد وقطعان عمرو، ويقول الله جل جلاله: «سبحاني سبحاني» ويقول المسبح له: سبحان الله، أي: نزاهة لله عن الأسواء كلها وبعدًا عن الآفات أجمعها، قال الله ﷻ: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٨]، وقد جاء سبحان الله مدائح الله ومحامده وثناؤه الأعلى، قال الله ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه:١٣٠]، ﴿وَإِن

مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، فالأولى: سبحة لوجوده العلي بما هو عليه من الوجود العلي، والثانية: سبحة بمحامده وثنائه ومدائحه.

الاعتبار

قد مضى فيما تقدم أن الوجود وجودان:

وجود واجب وجوده، ومعنى ذلك أنه لم يزل ولا يزال.

ووجود ممكن وجوده بين عدمين، ومعنى ذلك أنه لم يكن ثم كان، ثم حال كونه بمشيئة تكون إن شاء الله أبقاه بإبقاء منه، فإن شاء أعدمه وأفناه بإعدام منه، والمعتمد في وجود هذا على مشيئة الموجود الحق الواجب الوجود لا إله إلا هو ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، هذا هو المعتقد الأول في الوجود، وأما المعدوم فينقسم أيضًا إلى وجهين:

معدوم معلوم، ومعدوم غير معلوم، والمعدوم المعلوم ينقسم إلى قسمين: معدوم معلوم لم يكن بعد وسيكون، ومعدوم لم يكن ولا يكون أبدًا، فالمعلوم منه ما لم يكن بعد، كمجيء الساعة وإحياء الموتى والجزاء الآجل كله ونحو هذا.

ومعلوم معدوم كان ثم انقضى، كالقرون الماضية والآجال الخالية وكأمس الذاهب وغير ذلك، وغير معلوم ما هو في علم الله لم يطلع عليه أحدًا، ولله غيب السماوات والأرض ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

والمعلوم المعدوم الذي لم يكن ولا يكون وكونه ممكنًا هو: ما لم يرد الله جلّ ذكره أن يكون كخروج أهل النار وأهل الجنة من دار الخلود، وكإمضاء بشفاعة الشافعين التي لم يأذن الله تبارك وتعالى بها، ونحو ذلك.

ومعدوم متوهم، متوهمه كاذب ومعدومه صادق، ليست له حقيقة في وجوده بوجه ولا على حال، لا يقع عليه علم ولا يتعلق به عقد صادق، وهو ما لم يكن ولا يكون ولا يجوز أن يكون له وجود ألبتة، وهو: وجود إله مع الله سبحانه أو شريك أو ولد أو والد أو شبيه أو مثل أو نظير أو ظهير أو صاحبة أو كفو ونحو هذا مما يستحيل وجوده، وصح من جميع المعاني والوجوه كلها عدمه، وهو ما عبرت عنه كلمة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»، وكذلك عبرت عنه كلمة: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»، وكلمة: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، وكلمة: «سبحان الله»، فهذه الكلمات عبرت عن الوجود أجمعه، ولم تبق لعدم

في الوجود وجودًا فمن التسبيح .

فاعلم ما يكون تنزيهًا من العدم كله لكنه أظهر تنزيهًا عما يضاد الأحدية والفردانية والصمدانية في الأزل حيث لا ذكر ولا مذكور سواه جل جلاله ولا وجود لشيء سواه إلا وجوده، ومنه ما يكون تنزيهًا عن نقائص الموجودات وقصور المحدثات عز علي الوجود كما تقدم ذكره في باب اسم العزيز ﷻ، وقد جمع المعنيين رسول الله ﷺ في تسبيحه من قوله: «**سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[1] أي: سبحان الله في وجوده العلي، حيث لا حيث، وحين لا حين، ولا وجود سوى وجوده، عز عن مماثل أو مقارن أو قديم معه أزلي يوجد مع وجوده، وقوله بعد هذا: «**وبحمده**» بواو العطف، فمعناه: وبحمده أسبحه عن جميع ما لا يجوز عليه من نقائص البشر وآفات المحدث، وكل ما يستحيل عليه .

«سبحان الله العظيم» إشارة إلى جميع السبحتين، والأولى أن يقال في قوله: «**سبحان الله وبحمده**»: إنه تسبيح له بمحامده وتنزيه لنعوت جلاله وعلي صفاته وأسمائه عما لا يجوز في وجوده، وقد تقدم من أسمائه ما نطق به كتابه أو أجمع عليه المسلمون أنه الأول والآخر، أي: هو الأول لا أول له ولا أول معه في أوليته، وهو الآخر ولا آخر له ولا آخر في آخريته يشبهه، أو يكافئه، وعن إثارة هذين الاسمين أوجد لنا الدنيا والآخرة، لكنه ـ جل ذكره ـ لا فصل بين أوليته وآخريته هو هو عز به جلاله، إنما تغايرت الأسماء من حيث عبارتها وإعلامها بما عنه أعلمت، فأوليته تلك التي لا أولية لها هي التي عبر عنها بصفة العظمة والعلاء والمجد، قال الله جل من قائل: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣]، والجد يعبر به عن الفردانية التي لم يزل عليها ولا يزال قبل إيجاده الكائنات وإظهاره المخلوقات، وهو ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»، وفي أخرى: «معه»[2] مكان «قبله» ثم كتب في الذكر كل شيء، كذلك كان وجوده العلي، ولا شيء مذكور سوى وجوده وذكره، فهو الفرد الحق الأحد الذي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣، ٤]، كان كل شيء في كتابه العلي قدر كونه، ثم كتبه في الذكر في وجوده العلي الأعلى

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الأيمان والنذور» (٦٦٨٢)، وفي «التوحيد» (٧٥٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) سبق تخريجه .

قدرة، وعلمًا ومشيئة وكلمة، فقوله: كن، وعلمه بالكائنات وقدرته ومشيئته فيها هو المستودع الأعلى، وسنته في الموجودات مستقر لها إلى أن أخرجها جل جلاله في سبل سنته على ما سبق لها من مشيئته، وذلك أيضًا مستقر للكائنات؛ لأنه لما أظهر ما كان في علمه ومشيئته أن يظهره لم يضل عن ذلك ولا نسي سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فنظير هذا في الوجود الأسفل كل مستقر له، وكل مستودع في طبقات الوجود، ألا ترى أنه قد أوجب على الوالد أن يرزق ابنه حال ضعفه عن الاكتساب وكفالته، كما أوجب ذلك على نفسه جل ذكره بوعده، وجعل للأم حضانته كأوليته في مشيئته التي لا تبديل لها، ثم أوجب ذلك على الابن طاعة أبويه وبرهما وشكرهما ولو كانا كافرين، وجعل عقوقهما من الابن كفرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبويه فهو كفر**»[(١)]، وفي أخرى: «**فقد كفر**»، وقال: «**من ادعى إلى غير أبيه فقد كفر**»[(٢)]، وفي أخرى: «**فالجنة عليه حرام**»[(٣)]، فهذا كفر معدول من كفره بربه، وخالقه ورازقه وكافله كما كانت أولية الأب وإحسانه وتعزيته ولطفه وبره موجود ذلك كله عن أولية الحق وإحسانه ورزقه وكفالته وحياطته، فعلى هذا ـ والله أعلم ـ جاء في المشروع الأول اسم الأب في أسمائه جل ذكره، إن صح ذلك عندهم، ولما ضل حاملوه بذلك وأعضل بهم من أجل مفهومه داوهم نسخ عنهم في شرعنا المتبوع به، ونهوا عن الانتساب إليه بالبنوة، وأن ينادونهم بمعنى البنوة والأبوة، وفي اسم الفاطر ـ جل ذكره ـ من هذا ما يتبين به ويزداد إيضاحًا ـ إن شاء الله ـ وهو المستعان والمستعاذ من الضلال والحيرة.

فمتى أردت التسبيح فاجمع ـ وفقك الله ـ من جملة ما تقدم لك ذكره من التنزيه بالوجود العلي والتنزيه بالمحامد كلها ما علمت منها وما لم تعلم، ثم أرسل كلمة سبحان الله فإنها تعم ذلك كله، واعتقد في ذلك بعده عن كل ما لا يجوز عليه، فذلك نصف الميزان فإن عارضك العدو بما يلحده إلى ما لا يجوز في وصفه العلي فاعتمد على قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، لما قال الملحدون: البصير بما لهم وينتفع بمعتقد قوله الحق: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [الروم:٢٧]، فإنه

(١) رواه البخاري في «الفرائض» (٦٧٦٨)، ومسلم في «الإيمان» (٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) رواه البيهقي في «الكبرى» (١٥٣٣٥)، من حديث أبي ذر ﷺ، وسنده صحيح.
(٣) الحديث رواه البخاري في «الفرائض» (٦٧٦٦)، ومسلم في «الإيمان» (٦٣/ ١١٤) من حديث سعد ابن أبي وقاص ﷺ، ورواه البخاري (٦٧٦٧)، ومسلم (٦٣/ ١١٥) من حديث أبي بكرة ﷺ.

جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه ما أوجد حكمة في الوجود إلا لها منتزع في العلا، وفيما ههنا هو حقيقة المحبة فقد رفع لنا العصمة بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وبقوله الحق: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

ثم أرسل التحميد مفردًا أو مقرونًا بالتسبيح بأن تقول: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، وكذلك متى وصفته جل ذكره بالعلاء أو بالعظمة أو بذلك كله فقد أبلغت، وذلك هو ملء الميزان إن شاء الله، وهو يملأ ما بين السماوات والأرض، هو إن شاء الله ملء الميزان ما خلق من شيء، وكان رسول الله ﷺ يقول: «سبحان الله العظيم وبحمده ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا وزنة العرش»[١].

فأنبأك بما تقدم والحمد لله رب العالمين كثيرًا كما هو أهله، وبهذه الجملة ومعنى ما احتوت عليه التزم بسنن التسبيح ومسالكه، والله المؤيد بنصره والملقن للصواب بفضله ورحمته.

التعبد

انظر - وفقنا الله وإياك - لما يرضيه إلى ما تقدم ذكره في اسم النور - جل ذكره - والطيب والطاهر والزكي من أضداد موصوف بها في سواه، فينزهه عن ذلك سبحانه وله الحمد، فتجده هو العلي الأعلى، فأت كل طبع دركًا، وبوجوده الأزكى وأسمائه الحسنى تعالى عن اللواحق أن تناله عظمة وعلوًّا أنى لها ذلك، وكل شيء خلقه وكل وجود سواه إيجاده وصنعه، والتسبيح فاعلم إبعادًا له عن الحدوث وما يقتضيه، ثم التسبيح قد يكون بالقول وتارة بالبيان وبالاعتقاد وتمام البرهان، وهذا لا يصح إلا بعد التوغل في العلم والمعرفة وإكمال التحقق، وهو لا يصح إلا على أصول أهل الحق الذين عبدوا بأوصاف التعالي ونعوت الجلال.

فاعلم أنه لا تصح لمسبح حقيقة التسبيح حتى تنزهه عن أوصافه الذميمة، فينزه نفسه عن الشهوات، ومطعمه عن الحرام والشبهات، وأعماله عن التزيين لأبناء جنسه إنما تكون عابدًا متى صفت فعالك عن المعاصي، كذلك إنما تكون زاهدًا متى صفا ما لك عن الحرام والشبهات، وكان ما قل وكفى خيرًا عندك مما كثر وألهى، ومتى صفيت نفسك وأحوالك عن الأغيار وصلت إن شاء الله تعالى، وسمي التسبيح تسبيحًا؛ لأن

---

(١) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٢/ ٦٣٥) وعزاه للديلمي.

المسبح قلبه في بحار الفكر وتسبيح اللسان إذا صدر عن سكينة الإيمان حسن، لكنه ليس كتسبيح صدر عن قلب سائح في بحار عوالم الملكوت، لاسيما إذا لم تتلاطم عليه أمواج الشبهة، ولم تزعزعه رياح البدع، فإن سلم في سياحته تلك من عجز وملل، ولم تشتمله موادة سلف ولا محبة خلف، ولم تسبق إلى قلب سابق تقليد فيقطعه عن سواء الطريق وهل فضل الله ورحمته إلى جواهر العلوم ولطائف الفهوم، والناس فاعلم في معرفة تسبيح العجم والصوامت .

وقيل: الهوام درجات: **أولها:** الإيمان بأنها تسبيح، وذلك لعموم المؤمنين، ودرجة أخرى يعلمها أهل الاعتبار وهي شهادتها على نفسها بالنقص ولبارئها بالكمال، فهي تسبحه بكماله في الصفات العلا عن نقائصها، وبقدمه في وجوده الأول الواجب الأعلى لا إلى أول آخر لا إلى آخر عن حدوثها هي وتكوينها بعد أن لم تكن، وإنها سوف لا تكون بعد أن كانت، ولها أيضًا تسبيح باطن يعلمه منها بارئها جل جلاله وتقدست أسماؤه، وقد يسمعه تبارك وتعالى من يشاء من عباده، قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]، وما علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير والنمل وغير ذلك، ومحمدًا نبينا ﷺ حنين الجذع وتكليم الذراع وشكوى الجمل وغير ذلك، وقال ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث**»[1] ونحو ذلك .

وما بين ذلك درجاتهم من المعرفة والفهم والكشف، وعلى نحو ذلك يكون أيضًا في معرفة سجودها وصلاتها وأنواع عباداتها، فسبحان المسبح بكل لسان، المعبود في كل مكان وأوان، سبحانه وبحمده عمّا يقول الملحدون في ربوبيته وخالص وحدانيته وتعالى علوًّا كبيرًا .

اختصرنا ذكر مسالك التسبيح في طرقات العلم ومواضع العبادات لكثرة دوره فيما ينبئ به الاعتبار في كل اسم، لأنه عبارة عن الاستسلام، والله جل ذكره قد فطر العالمين على دين الإسلام، والله السلام يدعو عباده على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم وسلامه على جميعهم إلى دار السلام، وأحوال الموجودات تنبئ أيضًا عن ذلك، وهو

(١) الحديث رواه مسلم في «الفضائل» (٢٢٧٧)، والترمذي في «المناقب» (٣٦٢٤) من حديث جابر ابن سمرة رضي الله عنه .

الصراط المستقيم.

اسمه القدوس سبحانه وله الحمد

القدس: الطهارة، وقيل: هو بمعنى البركة، قال الله جل قوله: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة:٢١]، وقال: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٧١]، والطاهر مبارك، ويقال للسلطان: قدس ؛ لأنه يتطهر به، ومنه القادوس بواحد الأواني التي يستخرج بها الماء من البئر بالسانية.

اعتباره: قال الله ﷻ قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٣]، وقال أيضًا جل قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة:١]، كما قال الملك الحق.

وأرى ـ والله أعلم ـ أن معنى القدس جامع لمعاني الطهارة والطيب والزكاة والعدل والحمد كله والتنزيه عن الطبع والظلم والمعايب مما لا يليق به سبحانه وتعالى، وأن الفرق بينه وبين اسم السبوح أن معنى السبوح تنزيه لوجوده العلي عن المثل والنظير والكفء، وبحمده عن حوادث المخلوقين ونقائص المحدثين، فآية التسبيح الأول التوبة المفروضة والطهارة، وآية التسبيح الثاني الحمد كالصلاة والأعمال التي يصعد بها عاملها في درجات الشكر، والسبوح اسم للمسبح بهذه السبحات كلها جل جلاله، ومبالغة في المراد المقصود بالتسبيح، ثم اسم القدوس عبارة عن هذا كله مع اقترانه بالملك وتوابعه، وأنه لا يجوز في تدبيره الظلم ولا في قضائه الحيف، ولذلك ـ وهو أعلم- أتبع الاسمين قوله: ﴿ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢٣]، يقال: سبحت الله وسبحت لله وقدست الله، أي: وصفته بالقدس والطهارة والطيب، وقدست لله بمعنى قدست لله عبادة، قالت الملائكة عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]، أي: عبادتك، وقال عز من قائل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة:١]، وقد يعبر بالتقديس عن الصلاة، ثم عن سواها من الأعمال من ذلك قولهم: إن أرضًا لا تقدس صاحبها، إنما يقدس الإنسان عمله، وهذان اسمان جمعا ذكر المحامد كلها، والله أعلم، فقول القائل: سبوح قدوس رب الملائكة والروح شبيهة بقوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

اسمه النظيف جل وعز

النظافة قريب معناها من معنى الطهارة والطيب، غير أن الطيب ضده الخبث، والطهارة ضدها النجاسة، والنظافة ضدها الدنس، فكان الطيب مباعدة لعيوب هي فينا لا صفة بأصل الخلقة تضاد الصفات المحمودة، والنظافة مباعدة لعيوب خارجة عن عين الموصوف غير لاصقة بذاته، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**نظفوا أفنيتكم ونظفوا حاجاتكم، ولا تشبهوا باليهود**» (١)، وقال: «**اليهود أنتن خلق الله عذرة يريد أفنية**» (٢)، وقال ﷺ وقد قيل له: الرجل يحب أن يكون نعله حسنًا وثوبه حسنًا: «**إن الله نظيف يحب النظافة**» (٣)، وفي أخرى: «**الله جميل يحب الجمال**» (٤).

النظافة فينا إماطة التفث ومباعدة الشعث والقلح وافتقاد العينين من العمص وغسل ظاهر الجسد من الدنس وأشباه هذا، ولذلك قال رسول الله ﷺ وقد اسْتَلْبَثَ الوحي: «**وما له لا يبطئ أو يلبث وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تقلمون أظفاركم ولا تسوكون أسنانكم**»، وهو المراد منا بغسل الجمعة، قال رسول الله ﷺ: «**حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يومًا يغسل براجمه وأرقافه وذلك يوم الجمعة**» (٥).

وقد كانت علة الأمر بهذه العبادة كونهم ﷺ مهنة أنفسهم، فكانوا على ذلك ينتابون السعي إلى الجمعة في الحر والغبار فيصيبهم العرق فيتصعد عنهم أبخرة مؤذية، فأمرهم بالتنظيف ليومهم ذلك وإن أمكنهم الطيب من ذلك فهو أتم لعبادتهم، وقد تنزه ربنا تبارك وتعالى بسبحات قدسه وعلي وجوده عما يضاد النظافة تعالى ربنا في الطيب والطهارة، والخيرة كله منه وله وبيده، والشر ليس إليه، والاعتبار والتعبد به مفهوم مما تقدم.

اسمه الجميل جل جلاله وتعالى علاؤه وثناؤه

يقال منه: جمل الشيء يجمل فهو جميل، كما قبح فهو قبيح، والجمال مأخوذ من الجملة وهو اجتماع أشياء إلى شيء واحد يكون ذلك الشيء عمادًا لها، وقيل للشحم المذاب:

---

(١) الحديث رواه الترمذي في «الأدب» (٢٧٩٩)، وأبو يعلى (٧٨٦، ٧٨٧)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٧٩) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ وفي سنده :خالد بن إياس متروك كما في التقريب.

(٢) رواه ابن الأثير في النهاية في «غريب الحديث» (٣/ ١٩٩)، وقال: العذرة: فناء كدار وناحيتها.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ كاملًا، ولفظ: «**إن الله نظيف يحب النظافة**» جزء من الحديث قبل السابق.

(٤) الحديث رواه مسلم في «الإيمان» (٩١/ ١٤٧) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٥) سبق في باب اسمه الطاهر سبحانه.

جميل من ذلك ؛ لأنه جمل، أي: أذيب فتجمعت أجزاؤه بذلك واختلط فعاد بذلك شيئًا واحدًا، ويقال من ذلك: اجتمل فلان إذا ادهن بالجميل، ومنه قيل للحساب إذا قطع على حروف، أي: جاد جمل لاجتماع الأعداد فيها، وقيل لجماعة كل شيء جملة ؛ لأنها أبعاض تجمعت فصارت بذلك كالشيء الواحد، وقيل: امرأة جميلة إذا اجتمع لها صفات الحسن، وينطلق عليها اسم الحسن إذا كانت محسنة الصفات، ولا ينطلق عليها اسم جميلة حتى تكون مع ذلك عبلة الجسم، والله تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى بكمالها والصفات العلا جميعًا بإطلاقها دون نهاية متوهمة ولا نهاية مدركة مع استحالة أضدادها كما تقدم ذكره، فهو إذا الجميل الحق ومن سواه فيقال له: جميل مجازًا واتساعًا واستعارة من صفته العالية وحقيقته المتناهية في الجمال تبارك وتعالى علوًّا كبيرًا.

اعتباره

قد تقدم أن حقيقة الجمال المسمى فيما بيننا هو عن اجتماع الأبعاض إلى كلها فتكون بذلك جملة واحدة، فسنن الاعتبار في هذا أن جمال الله جل ذكره هو اجتماع الأسماء الحسنى والصفات العلا أجمعها ما علمنا من ذلك وما لم نعلم، فوجوده العلي على ذلك هو الجمال هذا إلى ما يبدو لأوليائه في الجنة من حسن لا يتوهم وصفه، وجمال لا يقدر بقدره، ولا يبلغه العلم اليوم، فهو الجميل بجماله السني البهي، وتحسب ذلك جمال ذاته العلي الأعلى في هويته ونعوت جلاله في ظهوره، وإنما يرى جماله في هذه الدار محبوبة فهو جل جلاله يكاشفهم في سرائرهم، مرة يوصف جلاله، وتارة يوصف جماله، ففناؤهم وغيبتهم عن مكاشفة جلاله وارتياحهم عن مكاشفة جماله، ومن مقالاتهم في ذلك أنه من غاب فهو مهيم، ومن طاب فهو متيم، فهو بين حالتين، تارة يحضرهم بلطفه، وتارة يكشفه، فمن أحضره بسطه، ومن أسكره أخذه عما نيط به واستلبه.

وكذلك الحقائق إذا اصطلمت القلوب فلا تبقي ولا تذر، والمعاني العلا إذا استولت على الأسرار فلا عين ولا أثر، قالوا: وللعلوم على قلوب العارفين مطالبات، ولحقائق جماله سلطان يغلب على أقسام الترتيب، آية ذلك غلبة سلطان الهوى على قلوب ذويه، وقهر أحكام العشق على قلوب منتحليه، ودهشتهم عند صدمتها مقام الإبعاد والهدد عما أقام لهم منه أحكام الجلال مكاشفته إياهم، وأما هؤلاء فإنه أقام لهم منه أحكام مكاشفته إياهم بجماله بارتياح نيلهم عند ذلك، وسرور به يبسطهم مقام التقريب

والوصل، وفي نحو ذلك قالوا:

فقلت أخلائي هي الشمس ضوؤها قريب ولكن في تناولها بعد

وقال غيره:

يا من أشاهده عندي فأحسبه مني قريبًا وقد عزت مطالبه

فصل

وأما طريق وجود الجمال عن وجود جماله العلي في مخلوقاته فمن طرق كثيرة:

منها: أنه أوجد الأشياء على ما هي عليه في مخلوقاته، فأوجد الخير كله لنفسه لا لعلة سواه، وتنزه هو عن القبيح كله والشر أجمعه ؛ لأنه لم تجز عليه بل استحال في علائه وجلاله، سبحانه وتعالى أوجد الشر كله بعد لا لنفسه بل لعلة الابتلاء، وأوجد لموجودات الخير أضدادًا في مخلوقاته، فكان ذلك إرصادًا لابتلاء الثقلين وعمارة الدارين دنيا وآخرة ثم جنة ونارًا، فكل خير وجمال وحسن على الحقيقة موجود في العالم كله فهو أوجده من نفسه لنفسه ؛ لأن الحسن كله والجمال منه، فهو يحبه ويرضاه، أعني: هو منه بالولاية، وله بالمحبة والرضا، وكان إيجاده الشر أولًا خيرًا ثم بواسطة الغير أصاب عنه الشر لما شاءه من الابتلاء والاختبار كما تقدم، ولم تلحقه ملامة بتقديره له ولا بخلقه إياه كما لم يلحقه ذلك بعلمه به، ولأنه لا أمر فوقه ولا حجة تتوجه عليه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فكل جميل أحدثه فقد أوجد له ضدا من القبيح، لكن ليس لكماله ولا لجماله ضد تعالى عن ذلك، كذلك الصفات العلا لها في العالم مسميات تشير إليها وتدل عليها، والشر كله والقبيح ليس له في صفات القديم ﷻ أول يرجع إليه ويشير عليه، إنما تشير موجودات الشر في هذا العالم إلى الصفات العلا بما لها من التضاد لمسميات الخير من المحدثات .

فاعلم ذلك، وقِف على هذا بنفسك وحسن الظن بالمخاطب لك، فما انفتح علمك منه فاحمد الله تعالى عليه، وما انغلق عليك الحول والقوة لله وهو على كل شيء قدير، والجمال منه ظاهر ومنه باطن، فالباطن منه: النفس، والإيمان، والمعرفة، والمحبة، والعلم النافع، والرضا والتوكل، والخضوع لله جل ذكره، والخشوع، والزهد في الفاني، والرغبة في الباقي، والورع ومعالي الأخلاق، وفي الوجود والحق المخلوق به السماوات والأرض وقد تقدم ذكره مكررًا، وكل ما كان آية له أو دليلًا عليه أو معرفًا به أو شاهدًا

له أو مشيرًا إليه وقد تقدم ذكر موجود بعده نوره في السماوات، فاحرص على تتبع ذلك.

والظاهر منه: الإسلام، والطاعة لله ﷻ، وأعمال الصالحات كلها فما صرف من هذه المعاني على وجوهها، والمراد منها فهو جمال وحسن وزينة عند الله ﷻ، ومن ذلك قول عمر ﷺ: «تزينوا للعرض الأكبر» [(1)]، وكان بعض الصالحين يقول في دعائه: «اللهم زيني في عبادك بطاعتك، وزيني بين يديك بحسن الخدمة لك».

ومن ظاهر الزينة أيضًا ما زين الناس من التكاثر في الذهب والفضة، وأنواع الأحجار الرفيعة، والمراكب الغزيرة، والمواكب النبيلة، والمباني المشيدة، والبساتين الأنيقة، ورياض الرياحين، وزهرات النواوير، إلى غير ذلك من رخامة الألفاظ واعتدال القدود وملاحة الحركات ورونق الخدود وتلون دبابيجها وحسن تخطيط الصور وجمال جملها وعنج الألحاظ وحسن تقلبها وحسن الأصوات وشهي ترجيعاتها وما شابه ذلك كله.

واعلم أن ذلك كله أرباب العقول وأصحاب التحصيل ليس بجمال على الحقيقة بانفراده عن الجمال الباطن الذي يقدم ذكره بل هي زخارف ومتاع، قال الله ﷻ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٥]، وإنما مالت الفتنة بجملتها إلى هذا وسمته جمالًا لاحتواش الشهوات إياها، ووافقت مع ذلك قرابة بينها وبين النفوس قريبة ومناسبة لطيفة ورحبًا هناك واشجة، فلذلك ما عدلت إلى معازلتها وحامت حولها، فلم يستطع قوي العقل مغالبتها، ولا أطاق الحلم صرفها إلا بمعونة الله عصمته بالكفاية وعظمت المحنة واشتد البلاء لذلك.

التعبد

فمن الواجب ـ وفقك الله ـ تطلب الفرق بين ما هو جمال عند الله وحسن وبين ما لا يجمل عنده ولا يحسن، واستقر آثار ذلك في العالم فليس الجمال والحسن إلا ما رضيه الله ﷻ وحسنه لا غير ذلك، فاعمل عليه وخذ نفسك باجتناب ضده، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**» [(2)]، وقوله: «**وما من أحد يكلم في سبيل الله والله**

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» في «الزهد»، باب كلام عمر بن الخطاب ﷺ (٨/ ١٤٩) رقم (١٨)، وأحمد في «الزهد» (٦٣٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٢).

(٢) الحديث رواه البخاري في «الصوم» (١٨٩٤، ١٩٠٤)، وفي «اللباس» (٥٩٢٧)، وفي «التوحيد»=

أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا اللون لون دم والريح ريح مسك»[(١)].

وما أحال وجود الدم عن ظاهره، وكذلك خلوف فم الصائم إلا حقيقة رضا الله ﷻ عنه ومحبته إياه فافهم.

واعلم أن الناس في التجمل الظاهر الذي هو الملبس والهيئة على ثلاثة أضرب بعد اتفاقهم على الجمال الباطن الذي تقدم ذكره:

فمنهم: من حسن ثوبه وطيب ريحه ورجل شعره وادهن واكتحل واقتصد في ذلك كله واحتسب على الله ﷻ ما وجد حلالًا واتسع له، استقامت قلوبهم على ذلك، وهذه طريقة الشاكرين، وقد درج على ذلك الكثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم: من لزم البذاذة والشعث واحتمل التفث في الهيئة إلا ما أقام به السنة وإن وجد الحلال واتسع له زهدًا في التنعم وإيثارًا لشظف العيش، وهذه طريقة الخائفين والمحزونين، وقد درج على ذلك أيضًا من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم: من يتقلب بين هذا وهذا، وجد الحلال والاتساع فيه ليعمر إلى ربه الطريقتين ويسلك في عبادته الجادتين، وهذه كانت سنة إمام المتقين وسيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قد كان ﷺ يلبس الحلة الحمراء، وكان أحسن شيء فيها والثوب ذا العلم تارة، ويلبس الرداء النجراني الغليظ الحاشية والجبة الشامية، ويأكل اللحم ويجوع مرة ويشبع أخرى ويرهن درعه فيما يؤكل في بيته، ومات بأبي هو وأمي ﷺ في كساء ملبد، وإنما كانوا يراعون في ذلك كله قوام قلوبهم، فإذا استقامت قلوبهم لبسوا وأخذوا من ذلك ما استقام عليه أمرهم مما لا يشهرهم باتضاع ولا بارتفاع، وكان ﷺ أوتي من التقى والخلق الجميل وحسن السمة ما لا تبطره به النعمة ولا يقعده الفقر، وكان مع ذلك ﷺ معلمًا فسن لنا الطرق الثلاثة، قد كان لتميم الداري رضي الله عنه حلة اشتراها بثمانية دراهم أو نحوها يلبسها للجُمع والأعياد والليلة التي يرجو أنها ليلة القدر، وكان كثيرًا ما يتطيب لقيام الليل ويدهن.

=(٧٤٩٢)، ومسلم في «الصيام» (١١٥١/ ١٦٣، ١٦٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) الحديث رواه البخاري في «الجهاد والسير» (٢٨٠٣)، وفي «الذبائح والصيد» (٥٥٣٣)، ومسلم في «الإمارة» (١٨٧٦/ ١٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورأى رسول الله ﷺ رجلًا عسيفًا على بعض أصحابه عليه ثوبان خلقان فقال: «أما له ثوبان غير هذين»، فرجع الرجل فلبس ثوبين أحسن من ذينك، فقال رسول الله ﷺ: «ما له ضرب الله عنقه أليس هذا خيرًا له»، فقال الرجل: يا رسول الله، في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «في سبيل الله» (١).

ورأى ابن عمر غلامًا له يصلي في خلق له، فقال: ألم أكسك خيرًا من هذين الخلقين؟ قال: نعم، قال: فالبسهما ثم صلِّ، قال له: أرأيت لو بعثك إلى أحد من الناس هل كنت تلبسهما ؟ قال: نعم، قال: فالله أحق أن تتزين له (٢).

وقال عمر بن الخطاب: «إذا أوسع الله عليكم فأوسعوا» (٣).

وسُئل ﷺ عن الصلاة في ثوب واحد فقال: «أولكلكم ثوبان؟» (٤).

وكان الخلفاء الراشدون ﷺ من الزهد في الدنيا ولزوم البذاذة في الهيئة وإيثار الشظف بحيث لا يجهل شأنهم، ولا يخفى أمرهم، ولأنهم كانوا على أموال الله جل ذكره، وأئمة المؤمنين، فلم يسعهم سوى التشمير والجد والكلف والورع ليكونوا حجة لمن بعدهم على الدين، لم يتخذوا مال الله دولًا وأموال المسلمين نجعة ومغنمًا، فكان أبو بكر الصديق ﷺ مقتصدًا في مطعمه ومشربه وملبسه وشأنه كله .

وكان عمر ﷺ يلبس الجبة ويرقعها، ولقد كانت في جبته ثلاث رقاع من لبد بين كتفيه وبعضها فوق بعض، وكان يمشي حافيًا وينام نهارًا في أفنية الجدر، وكانت له قطعتان يجمع عليهما كل يوم من حضره من المسلمين، فقيل له: لو اتخذت طعامًا ألين من هذا، قال: أخشى أن أذهب طيباتي في حياتي الدنيا، أخاف إن أخذت غير طريق صاحبي يؤخذ بي غير سبيلهما، ورأى مرة بأهل قرية فاقة فقال لهم: اكتبوا إليَّ فقراءكم، فكتبوا أميرهم أول من كتبوا .

وشكا إليه أهل قرية عاملهم فقالوا: إنه لا يخرج إلى الناس حتى يرتفع النهار، وله

---

(١) الحديث رواه مالك في «الموطأ» في اللباس (١)، وابن حبان (٥٤٢٧ ـ إحسان) من حديث جابر ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح موارد الظمآن» (١٢٠١) .

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٣٩٢، ١٣٩٣) .

(٣) رواه مالك في «الموطأ» في «اللباس» (٣)، والبخاري في «الصلاة» (٣٦٥) .

(٤) رواه البخاري في «الصلاة» (٣٥٨)، ومسلم في «الصلاة» (٥١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ .

يوم في الجمعة لا يخرج فيه، وله يوم في الشهر فيه لا يخرج في الليل لو حدث ما عسى أن يحدث، فقال عمر ﷺ: لم لا تخرج حتى يرتفع النهار ؟ فقال: لي أهل وصبية لا أخرج حتى أنظر في طعامهم ثم أخرج خالي القلب، فقال: فلك يوم في الجمعة لا تخرج فيه، فقال: أقيم أصلح على أهلي ما رث من ثيابهم، قال: فاليوم في الشهر، قال: كنت في المشركين يوم قتلوا خبيبًا فلما ضرب صاح صيحة عظيمة فإذا كان ذلك الوقت أغمي عليّ وظننت أن الله لا يغفر لي، قال: فما بالليل ؟ قال: عافني يا أمير المؤمنين، قال: لتقولن، قال: عافني عافاك الله، قال: عزمت عليك لتقولن، قال: جعلت الليل لله والنهار لهم، فلا أحب أن أخلط العملين بالآخر .

ولما قدم الشام وخرج أمراء الأجناد وكان على حمار وأسلم مولاه على جمل يصرف الناس عنه يقولون: أين أمير المؤمنين ؟ فيقول لهم أسلم: أمامكم، فيتقدمون إلى ورائه ويسير عمر إلى أن خرج أبو عبيدة ﷺ على جمل زمامه من شعر، فلما قرب منه أناخ ونزل، ونزل عمر فسلم عليه وتسايرا، وقال لأبي عبيدة: مل بنا إلى منزلك، قال: وما تريد إلى منزلي ؟ قال: مل بنا، فلما دخل البيت لم ير فيه جهازًا، وألقى له وسادة محشوة من ليف، فقال: هل من طعام ؟ فآتاه بجونة فيها كسيرات شعير، فقال: كل الناس غيرتهم الدنيا غيرك يا أبا عبيدة، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة، وأمر له بمائة دينار فتصدق بها، وأمر لمعاذ بمائتي دينار فتصدق بها .

ولقي يومًا امرأة تحمل قربة ماء فقال لها: أما كان لك من يكفيك هذا ؟ فقالت: لو كان ما حملتها، فتناولها منها وقال لها: هلا أتيت عمر ؟ قالت: بلغني أنه فظ غليظ، قال: لعل فظاظته وغلظه على الظالم المعتدي، قالت: لا أدري، فلما قربت من موضعها، قالت: هذا موضعي، فناولها إياها، وقال لها: لا عليك أن تأتي عمر، فأتت تستدل على موضعه، فإذا صاحب قربتها الآمر والناهي، فلما رأته ولت هاربة، فقال: يا يرفأ رد المرأة في رفق، فردها وأعطاها خادمًا .

وكان عثمان ﷺ مقتصدًا في مطعمه ومشربه حييًّا ستيرًا إلا أنه وقع فيما دعا عمر ﷺ على نفسه من أجله بالموت من انتشار الرعية وكبر السن، فبذل الأموال في المسلمين حتى اشتريت جارية في أيامه بوزنها مالًا وفرس بعشرة آلاف، وتفاقم الأمر عليه فجعل نفسه دون دينه، وفتح بموته باب الفتنة ووقع الاختلاف .

وكان علي ﷺ مقتصدًا في مطعمه ومشربه وملبسه يميل إلى خشونة الملبس ويقطع كميه من منتهى أطراف أصابعه، ويخوض طين المطر برجليه، ويفرق بيت ماله كل سبت، وإذا رأى ما فيه يقول:

هـــذا جنـــاي وخيـــاره فيـــه وكـــل جـــانٍ يـــده إلى فيـــه

يا حمراء يا بيضاء غري غيري، ولم يوجد له يوم مات سوى ثلاثمائة درهم أعدها لشراء خادم، وأتى ابن عوف ﷺ بطعام فبكى وقال: مات حمزة وكان خيرًا مني، وكفن في نمرة جذبت على وجهه فبدت قدماه فجعل عليها الإذخر، ومات مصعب بن عمير وكان خيرًا مني، ولم يجدوا له إلا نمرة ففعلوا به ذلك، وشتم طلحة ﷺ خادمًا له فتصدق بخمسة عشر ألف درهم، وكان يقال له: فتى قريش من الجود والنجدة، ومات الزبير ﷺ وعليه مائة ألف درهم فأديت من رباعه، وكان سعد وسعيد ﷺ من أزهد الناس وكانا مستجابي الدعوة، وتوفي الخلفاء الراشدون المهديون الأربعة ﷺ وفي ولد كل واحد منهم من لو عهد إليه لكان أهلًا لذلك .

وكان معاوية ﷺ بذولًا للمال حليمًا رفيقًا وربما خطب في ثوب مرقع، فلما ولي غير الصحابة تغير الأمر، إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ورضي عنه ـ فعدل ورد المظالم، ورد ما اقتطعه الأمراء قبله من بني أمية، وأتته امرأة من أهل العراق ليفرض لبنات لها، فلما رأت داره قالت: أتينا نطلب الغنى من دار الفقر، فدخلت وعمر يطين حائطًا في الدار فجلست مع فاطمة امرأته، وجعل عمر ينظر إلى فاطمة مرة بعد أخرى فقالت المرأة: إن هذا الطيان ينظر إليك، فقالت لها: ذاك أمير المؤمنين، فجمعت عليها ثيابها واستحت، فلما فرغ سألها عن حاجتها فقالت: عندي سبع بنات، قال: قد فرضت لإحداهن، قالت: الحمد لله، قال: قد فرضت للثانية، قالت: الحمد لله، فلم يزل يفرض لواحدة بعد واحدة وتحمد الله ﷻ إلى السادسة، فقالت: جزاك الله خيرًا يا أمير المؤمنين، قال: لو تماديت على حمد الله لفرضت السابعة، ولكن هي مع أخواتها، وكتب لها بذلك كتابًا فلم تبلغ العراق حتى سبقها خبر موته، ودفعت الكتاب إلى العامل فنفذه .

وكان قبل خلافته ذا ملبس، فلما استخلف زهد فرفض الدنيا، واشترى له قبل خلافته كساء بستمائة درهم فلم يرضها، واشترى له في الخلافة كساء بستة دراهم فجودها، ثم درج على ذلك كثير من التابعين وخيار السلف رحمة الله عليهم جميعهم

ورضوانه وألحقنا بهم من كتب إنه حميد مجيد .

حبس ابن المسيب رحمه الله فتكلف له أهله في طعام فأبى أن يأكله وقال: انظروا إلى الأقراص التي كنت آكلها فأتي بها، وبعث إليه أمير المؤمنين بخمسة آلاف درهم فأبى أن يقبلها ووجد يماري غلامه على نصف درهم، فقال له: ترد خمسة آلاف وتماري غلامك على نصف درهم ؟ فقال: هذا النصف أحب إليَّ منها، وبعث الوليد إلى بشر بن سعيد بمال فرده .

ولما أشخص المنصور ربيعة إلى العراق أمر له بخمسة آلاف درهم وجارية فأبى أن يقبل ذلك، قال مالك: وكان من أنزه الخلق، ووعظ مالك رحمه الله أبا جعفر المنصور وأمره بافتقاد أحوال الرعية وقال: يا أبا عبد الله، أليس إذا بكت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحى فتحرك لها لئلا يسمع الجيران بكاءها، فقال مالك: والله ما علم بهذا أحد إلا الله تبارك وتعالى، قال: فعلمت هذا ولا أعلم أحوال رعيتي .

فهؤلاء ونظراؤهم في أعصارهم والأعصار التي بعدهم، هم الذين علموا أن الجمال والتجمل هو الاستقامة فيما بينهم وبين ربهم عز جلاله، فعملوا لذلك وتركوا المذموم من زينة الدنيا وزخرفها وتكاثرها، سمعوا الله جل جلاله يقول: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤]، ثم قال جل قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤]، ثم دل على حقيقة الزينة والحسن بقوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران:١٥] إلى قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران:١٧]، ثم أتبع ذلك كله بأكبر الشهادة لأكرم مشهود إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، فافهم فهمنا الله وإياك، واعقل عن ربك إنه الحكيم العليم، ألا تراه كيف يحسن وجوههم ويرفعهم إلى غاية الجمال فيجعل وجه أحدهم كالقمر ليلة البدر وكأضوأ كوكب في السماء، يصورهم على درجات أعمالهم: ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٦]، جعلنا الله يا أخي وإياك منهم ومعهم إنه ولي ذلك والقادر عليه لا شريك له .

اسمه الحميد عز وجل

يقال: أحمدت الرجل وجدته حميدًا، ويقال: حمادًا كان يفعل كذا، وجاء في الأسماء

على وزن فعيل للمبالغة، حميد، أي: كثير الحمد، كرحيم وعليم، فيكون على هذا هو الكثير الحمد لعباده المطيعين له، الكثير الحمد في أفعاله، وقد يكون بمعنى محمود، كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح، هو المحمود من جميع خلقه على جميل صنعه، وهو الحميد بمحامده ونعوت جلاله سبحانه وصفات تعاليه.

اعتباره

الحمد فينا هو شيء يحمده الحامد منا عند تذكر نعم المنعم وإحسان المحسن، وهو عن إكبار وإجلال وود وحب للمحسن المنعم، تستصحب نفس المتذكر لزوم حق هذا المنعم عليه لا يكاد يمتنع من ذلك مع الاتصاف بالتذكر الصحيح فتجيش النفس وتتشوق إلى إظهار ما فيها، فينبعث على اللسان الثناء بما يعلم أنه موافق لمحبة المنعم المحسن، فهذا ظاهر الحمد المنبعث عن باطنه الموجود في النفس وصفًا وثناء لموجود مكارم ومعالي صفات في الموصوف، والحمد أوسع الصفات وأعم المدائح، والطرق إلى الاعتقاد فيه كثيرة جمة، والسبل إلى معرفته واسعة واضحة، إذ جميع أسمائه حمد وصفاته حمد وأفعاله كلها حمد، وأحكامه حمد يستعلن عنها ثناء وحمد ومدح تنطوي في ذلك، له نعم على عباده المؤمنين تعجز الأفكار الصحيحة عن تحصيلها وتقصر الأوهام الصائبة عن تصور حقيقتها، وسنقتصر في خطابنا هذا إن شاء الله ﷻ على رموز من ذكر بعضها، أو نبدي من أعراض تدل على بعض ظواهرها، وربما أشرنا إلى شيء من خفي بواطنها ليكون ذلك تذكيرًا للمتأمل وتنبيهًا للمتوسم فيما عدا ذلك من اعتبار هذا الباب.

فأقرب طريق أعلمه في ذلك وأجله فائدة وأعظمه غناء وعائدة لشمول معاني الحمد وانبساطها على جميع المعلومات في حق الحميد الأعلى الاعتبار على طريق الأسماء والصفات؛ لاجتماع ما تفرق في العالم في معانيها، وقد تقدم ذكرها في صدر الكتاب وهي الألوهية والوحدة والحياة والملك والعلم والقدرة والإرادة، فنبدأ بالعبرة من صفة الألوهية والحياة فهما صفتان جامعتان فنقول: إن من أفضل النعم وأجل القسم بلا غاية ولا نهاية أن كان لنا إله حي جامع لكل صفة عالية واسم حسن وثناء جميل وفعل كريم، بل تحيرت الألباب في أدنى العلم بمعرفته، وتاهت الأوهام في عز جلاله وعظيم شأنه، وربما لججت الأفكار بمكنون لطائف النظر في لجج بحار الأوهام لتدرك كيفية معنى أوجده، كالذرة في قلتها إلى جنب عظيم ما ترى من خليقته وجنسه ولطفه،

تنحسر صحيحات النظر تائهات في تلك المهاوي إلى غير قرار، استقرت عليه ولا إلى مدى ارتقت إليه، فكيف بإدراكه وهو العزيز الذي لا يضام والملك الذي لا يرام.

جعل جل جلاله هذا لنا عوضًا من إله باطل لا يملك ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فكنا نكون بذلك عبيدًا لعباد أمثالنا كالأباعد خلقًا هملًا متروكين سدى في الدنيا عابثين لا يكون لنا إله نعول عليه ولا رب نرجع إليه، ثم يضطرنا في الآخرة إلى سوء المصير نعوذ بالله من ذلك فإنه هو العلي الكبير، وقد نبه على هذه النعمة وأمرنا أن نحمده على ذلك بعد الوقوف على حقيقة المعرفة بالنعمة فقال: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٥]، وقال عز من قائل: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥].

وهذا النوع من الاعتبار هو فرض ما يستحيل أن يكون، وإنما يجوز أن يفرضه الناظر عند جحد ما يستحيل أن يكون سواه، مثاله في القرآن العزيز: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقوله جل قوله: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ [الزمر:٤]، كذلك قوله ﷻ: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٧]، ونحو هذا.

ومن مننه العظام: أن كان واحدًا لا شريك له ولا مثل له ولا ند ولا صاحبة ولا من يشركه في ملكه، أو يخلفه في التدبير، أو يحجبه عن داعيه وسائليه، فكان يدخل على ذلك من الخرم في الأحوال، ويقع من أجله من النقص في التدبير وفساد الأمر كله ما لا يثبت معه حال ولا يصلح عليه وجود، فله الحمد كثيرًا أن خلقنا عبيدًا لإله حي قيوم واحد لا يجوز في علي شأنه التكثر، لا شريك له، ولم يجعلنا نهبًا متقسمين ملكًا لشركاء متشاكسين.

ومن مننه الجسام أيضًا: أن كان عزيزًا لا يضام، منيعًا لا يرام، لا تلحقه الحوادث ولا يجوز عليه النقائص، لا يعجزه شيء ولا يفوته فائت، ولا يغالبه ولا يقوم له شيء، مالك الملكوت رب العزة والجبروت، وقد نبه على هذه المنة آمرًا نبيه ﷺ أن يحمده عليها في قوله جل من قائل: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء:١١١].

فعدد له في هذا النص المبين نعم الإلهية والوحدانية، وأنه لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وأنه منيع عزيز وكبير له الكبرياء والعظمة، فله الحمد على ذلك كثيرًا، حمدًا يوافي حمده هو نفسه ويربى على جميع حمد الحامدين له.

ومن مننه الجسام أيضًا: أنه الخالق لكل شيء، وفاطر كل شيء، والقادر على كل شيء، والعالم بكل شيء، ومالك كل شيء، والقاضي على كل شيء ومدبره، والشهيد على كل شيء والخبير به، لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء، وقد نبه على هذه النعم أجمعها وحمد نفسه عليها، فتارة جمع وتارة فرق ليؤكد بذلك آلاءه ويبين نعمه ويعلمهم حمده، وكيف يحمدونه عند تذكرهم إياها، وأن ذلك واجب عليهم عند تجديد ذكرها في نفوسهم بقوله جل قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، إلى قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام:٢]، وبقوله عز من قائل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ:١]، إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ:٢]، وبقوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١]، وبقوله عز من قائل: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:١]، وبقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٨، ٩]، وبقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية:٣٦، ٣٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠]، وعلى القول بالإجمال فكل صفة علياء واسم حسن وثناء وحمد ومدح وسبحة فهي لله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وكل ذلك نعم لله ومن الله على عباده المؤمنين تفوق على نعمة له على خلقه، كفضله هو على جميع خلقه، إذ جعلهم عبادًا له ولم يرض لهم بما هو غير له لا يملك شيئًا ولا يقدر عليه، وجميع ما يوصف به فهي محامد له وثناء وسبحة، فسبحانه وله الحمد، حمد نفسه على أن له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العُليا.

فله الحمد أولًا وآخرًا حمدًا كثيرًا ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده أبد الأبد وآخر السند، هذا على حمده على ما أسداه إلينا مع النعم التي تقدم ذكرها

من جزيل مواهبه، وكريم إجادته، وجميل متابعه، وحسن معاملته عباده، وسعة رحمته من سرعة الإجابات لدعاء المضطرين وكشف كذب المكذبين وإغاثة المستغيثين وجوده بالنعم قبل سؤالها، وكفايته المحن قبل حلولها، ولطفه في إيصاله ذلك إلى من أراده بأحسن الألطاف وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته إياهم إلى سبيل الإسلام، ألا ترى إلى حمايته إياهم عن مراتع الآثام، وتحببه إليهم بالنعم، وهو الغني عنهم مع تبغضهم إليه بالمعاصي مع فقرهم إليه وهو يدعوهم دعاء لدًّا ويستنزلهم مهلًا مهلًا بأكرم المآخذ وألطف الوسائل فيقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر:٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر:٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦ـ٨] ومثل هذه كثير.

وتارة يوصيهم جل جلاله بأحسن وصية وينصحهم أبلغ نصيحة بأحسن خطاب وألطف مأخذ فيقول جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [آل عمران:١٠٢، ١٠٣].

ثم نص ﷻ على ما عرضنا إليه بقوله الحق: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وكقوله جل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨]، ثم قال ﷻ: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران:١١٨]، وأكثر القرآن العزيز جاء على نحو هذا من خطابه المؤمنين بمعاني النصيحة وكريم الخطاب والوداد والمحبة ووضوح مخايل الولاية، ألا تراه كيف يعلمهم بأنه لا يرضى لهم إلا

أكرم الوسائل وأفضل المنازل في قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ويتصل إليهم من موضع الظنة التي هو نزيه عنها سبحانه وله الحمد عند تكليفهم ما يقربهم منه ويزدلفون به عنده فيقول جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧]، ويقول: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل:١٠١]، «لم أخلق الجن والإنس لحاجة مني إليهم، ولا لأربح عليهم لكن خلقتهم جودًا مني ليعبدوني فيربحوا عليَّ»، كقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ﴾ [الروم:٤٤]، وقال ﷻ بعدما علَّمهم الطهارة التي تحط عنهم أوزارهم، ويقرعون بها بابه، ويرفعهم بها في درجاتهم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦]، أي: بالطهارة من الذنوب، فيكون عملكم بعد في درجة الشكر يرفعكم بذلك عن درجة العاملين في تكفير الذنوب إلى رفعة الدرجات، وتبؤ منازل القرب، وقال ﷻ بعدما علمهم مما يتقون وكيف يوجهون أعمالهم وما ينفقون، وحذرهم من دخول الآفات عليهم، فمن ذلك: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧]، يقول ﷻ هو غني عما ينفقون أن ينال منه شيئًا نزيه عن قبول ما أريد به غيره، أو عمل على غير ما يرضيه، حميد للزكي المرضي ينفقونه وإن قلَّ، كما قال: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧].

هذا إلى كريم مخاطبته عباده المؤمنين في وعظه إياهم بالتعريض، وحثه إياهم بالتحريض وتأديبهم سواهم يقص عليهم ما أصاب من كان قبلهم، ويواجههم بالبشارات تفضلًا، ويعدل عنهم بخطاب الوعيد إكرامًا.

وقد تقدم من هذا الفن في صدر كتاب «الإرشاد إلى سبل الرشاد» ما يكون طريقًا للمبتدئ وتذكيرًا للمنتهي، ومن الواجب على من لم يجد طعم هذه الأذكار عند تلاوة كتاب ربه ﷻ أن يعالج قلبه بالتقوى، ويواظب اللجوء إلى ربه، ويكثر الدعاء في أن يحيي له قلبه وأن يصحح له سمعه وبصره، فالقلب الميت لا يجد طعم التلاوة، وبالحياة

الباطنة تنال الحظوظ السامية وتتبوأ المراتب السنية، فأفن في ذلك - وفقك الله - طاقتك، واشغل بها نفسك، واستنفد استطاعتك، واستقرئ أسماءه العلا تجدها مدائح وثناء تقصر بلاغه الراضين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام الصائبة عن الإشراف إلى خفي سترها، ومع ذلك ستشرف بعظمة بارئها وتعليم خالقها على أنه له مدائح ما تحركت إليها الخواطر، ولا هجس تحقيقها في الضمائر، وأن له علاء وسناء لم يسنح في فكر ولا لاح لمتوسم إلا إيمانًا وتسليمًا .

شبهة

اعلم أنه قد يعرض العدو بوسوسته إلى النفس الأمارة بالسوء، إذ هي عيبه وموضع مغالطه، لاسيما من عزب عنه الفهم، وقصر به سوء النظر عن بلوغ تحقيق العلم فيسول إليه بمكره أن الأسماء التي تعبر عن معنى المحبة والابتلاء خارجة عمّا ذكرناه: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:١١] .

فاعلم يقينًا أن جميع أسماء الله تعالى مدائح وثناء على ما تقدم ذكره، لكن الله يختص برحمته من يشاء ويقصد بعذابه من يشاء، وإنما هو فضله أو عدله، وكل محمود فالمؤمنون بفضله ورحمته مخصوصون، وغير المؤمنين بعدله وعذابه مقصودون، ولكل واحد من الحكمين قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان على وجوه ذلك كله خير للمؤمنين ونفع ورحمة للموقنين، بذلك يرتفعون إلى أعلى درجاتهم ويتبوؤون منازل قربهم، فبالمعرفة يسعدون، وبالمحنة يتحققون، وبالعلم يقتدون، وبالإيمان يصلون، وبالأعمال الصالحة يصعدون ذلك ؛ لأنه خلقهم للخيرات وأعدها لهم واستعملهم بذلك، فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم فيه من مشيئته .

فهم بعد ذلك لا تضرهم الأدواء القاتلة، ولا تؤذيهم السموم الوحية، فمتى وسوس لهم العدو - لعنه الله - أو نزغ لهم بنزغ تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، وإن واقعوا معصية صغيرة أو كبيرة عاد عليهم ذلك رحمة وفضلًا، ذلك لأنه جل ذكره يعرفهم بنفسه بما أصابهم حيث نقص عزماتهم، وقد عزموا ألا يعصوه ولا يكون منهم ما يكرهه، أعطوا ذلك من أنفسهم وعقدوا عليه عقودهم، فنزلوا بعد ذلك بإذنه وقدره، فعرفوا بذلك عظيم اقتداره وجميل ستره عليهم وكريم حلمه عنهم وحنانه وعطفه ورأفته في انتظاره بهم حسن الأوبة وأوان رجوعهم

إليه بالتوبة، فعجوا إليه حينئذٍ بالدعاء وتضرعوا إليه، فأعلمهم بذلك حسن إجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه، ثم تاب عليهم فعرفهم في ذلك رحمته وحسن عائدته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل امتنانه وسرعة مبادرته قبول عبده إليه بعد ما كان منه من شرود ونفور إلى غير ذلك من ألطافه.

ومتى نالهم مكروه أو أصابتهم مصيبة من مصائب الدنيا ومحاذيرها عوضهم منها العوض الأكبر وجازاهم على مصائبهم الجزاء الأكبر، فهم على كل حال يربحون عليه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له شيئًا إلا كان خيرًا له**»[1]، وليس ذلك إلا للمؤمنين، قال الله جل من قائل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

من ذلك قولهم: إن الله ينعم في الدنيا بالعطايا الفاخرة، فإذا استرجعها كانت من عطايا الآخرة، هذا فيما يكون أصلح للعبد في دينه وأجزل لحظه في آخرته، فهو ظاهر صلاحه بين نفعه عند علماء الآخرة وأهل المحبة لها، وفي هذا الوجه جاء الترغيب وأنواع التعازي من الله ﷻ للرسول والأنبياء صلوات الله وسلامه على جميعهم ولأتباعهم من المؤمنين رضي الله عن جميعهم، وعليها أمرهم بالصبر، ووعدهم أجزل الثواب من غير حساب.

وقسم آخر: هو أن الله جل ذكره خلق جملة العالم علويه وسفله له ومن أجله كما قال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وقال في كتابه العزيز: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

فإذا إنما أراد جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه أن يظهر لعباده في قدرته وجلاله وكبريائه وإمضاء مشيئته وعظيم سلطانه وكرمه، وعلي شأنه من حكمته ورحمته وعفوه ومغفرته وجوده وجزيل عطاياه وحلمه، وعلي جوده في أسمائه وصفاته إلى حيث انتهى المستقرئ لذلك فلنفرض الآن فيمن أوقع عليهم عدله، وجعل قسمهم أنواع المعاصي وفنون الكفر والتقلب في مقتضى سخطه وغضبه، نعوذ بالله سبحانه من ذلك كله.

ولو أنهم رضوا ذلك منه وقالوا: نحن ملكه وعبيده، وإنما أوجدنا ليظهر بنا مجده،

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٤)، وأبو يعلى (١٢٠٢، ٤٢٩٧) من حديث أنس ﷺ وسنده صحيح.

ويقيم بنا أمره، ويتم بنا كلمته ويصدق علمه، ويعمر بنا عالمه، ويصدق بنا قوله، وما كان منه إلينا وفينا مما يوجبه تتميم كلماته وصدق قيله، وتحقيق مقتضى أسمائه فهو حقه، وكل ذلك حسن منه، وحكم منه فينا عدل وقضاء فصل، وله الحمد، وهو المحمود على ذلك كله، لا يوصف بظلم ولا ينعت بجور، سبحانه لا يجوز ذلك عليه بل يستحيل في صفات تعاليه وعلي وجوده، بل هو كمال أظهره في حقه، وعز أبداه، وملك أعلنه، ومراد من إرادة له أنفذه كما فعل بالبدن، وضروب الإنعام أتم مناسك أوليائه وقرابين عباده.

وإن كان ذلك في حق الإنعام إهلاكًا فإنه له مراد ومحبوب عنده ومتقرب بها إليه، أليس ذلك منهم إرضاءً له، وفاعل ما يرضيه جل جلاله مرضي عنه والمرضي محبوب له، والمحبوب عنده غير معذب بعذاب الآخرة.

وهذا العقد هو الذي حُجب عنه الكفار بأغلظ حجاب، وأُبعدوا عنه بأقصى البعد، وأُسكنوا عن نوره في الظلمات، وغُيبوا عنه من الجهل به في غاية الجهالات، ليتم عليهم أمره وينفذ فيهم حكمه، وهذا أحد الوجهين في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، وإلى هذا العقد ينتهي الأمر في الفريقين أهل الجنة وأهل النار يوم الفصل: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

فصل منه

وقد يوسوس العدو ـ لعنه الله ـ إلى من لم يمعن النظر فيسول له بخدعه أن محاذير الدنيا على اختلافها، وجميع ما يتعوذ بالله منه ؛ كإبليس وجنوده، وما كان بإذن الله وخلقه عن إفراط الأصول عند تعاقب الفصول وازدواجها حين امتزاجها، وكذلك الأناسي الكفار والفجار والسباع والحيات والأفاعي والعقارب والبق والقمل والبراغيث والبعوض وخسيس الموجودات الخشاش كل بها أوجده الله جل ذكره في عرض المزدوجات، وظلها في إقبالها وإدبارها وبآخره عنها ومنها، وهذا يكون في طرفي الإفراطين لعداوة ما كان مقصودًا في عمدة الأصول وأنفسها التي هي الكمال، والخير أقرب أصله الابتلاء، ولذلك سماها رسول الله ﷺ: فواسق ؛ لخروجها على هذه التي هي أكمل وجودًا، وكل حكمة من الحكيم العليم، وكل صنع الله جل ذكره وإيجاده وخلقه، فكانت بذلك فاسقة عن أمر الله ﷻ الذي هو رضاه وموضع وده إلى أمره الذي هو بكلمته، وتقديره للابتلاء والمحنة، جمع ذلك كله من المرضي وغير المرضي

اسمه الملك جل جلاله مزجهما في هذا السجن، فإذا كان في دار الآخرة ميز بينهما وخلص هذا إلى دار، وهذا إلى دار ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

وأكثر ما يكون هذا القسم في العقوبات يوجدها الله جل ذكره في التقاء الفصول، وعند مصادمة الأهوية في معارك اختلاف الأزمنة بالفيحين من جهنم، والفتحتين من رحمة الله بالماء، ومشيئته بها في التدبير، وكذلك ما خلقه الله على مشابهة الفيح من مرار وشائك وأنواع المؤذيات في النبات والحيات والعقارب وخسيس الخشاش في الحيوان وخبيث الموجودات.

وقد تقدم في باب اسم الطيب جملة من ذلك فيسول له بخدعة أن هذه كلها ليست بداخلة في باب الحمد، وكلا، إن الله جل ذكره وتقدست أسماؤه قد أدحض حجته وكسر شبهته من وجوه، وإن كان قد أقام ذلك مقام الشبهة للعقول القاصرة والقلوب الغافلة لما أراده من المحنة، ولئلا يصل إلى الرفيع من علمه إلا من بذل ما يكافئ ذلك من جهده، نعم ـ ولله الحمد ـ قد يسر ذلك للمؤمنين بأن جعله جملة معتقده في أصل الإيمان، وكلمة جامعة في معارف المؤمنين، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وقال: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣]، وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦].

وقال رسول الله ﷺ وذكر شعب الإيمان: «**وأن تؤمن بالقدر كله خيره وشره حلوه ومره**»[١]، وقال زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أن الله عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان جبل أحد ومثل أحد ذهبًا تنفقه في سبيل الله ما تقبل الله منك حتى تؤمن بالقدر كله، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار**»[٢].

---

(١) رواه مسلم في «الإيمان» (٨) من حديث عمر ﵁ بلفظ: «**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»، ولفظ المصنف رواه ابن ماجه في «المقدمة» (٨٧) من حديث عدي بن حاتم ﵁ وضعفه جدًا الألباني في «سنن ابن ماجه».

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٩)، وأبو داود في «السنة» (٤٦٩٩)، وابن ماجه في «المقدمة» (٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٤٩٤٠)، وصححه الألباني في «سنن أبي داود وابن ماجه».

وطريق الكسر لهذه الشبهة هو أن الله جل ذكره هو خالق كل شيء، وهو الموصوف بالرضا والغضب والإعطاء والمنع والرفع والخفض، وتصريف المشيئة كيف شاء، خلق دارًا لطالبي رضاه العاملين بطاعته المؤتمرين لأمره هي الجنة، جعل فيها كل شيء مرضي، وملأها من كل محبوب ومرغوب، كذلك خلق للمنافقين العاملين على مواضع سخطه وغضبه ـ نعوذ بالله من ذلك ـ دارًا هي جهنم ـ أعاذنا الله برحمته منها ـ أحضر إليها كل كريه، وشحنها من كل مؤذ مؤلم .

وخلق الدنيا دار سجن لعباده لينظر كيف يعملون، وأي دار يبتغون ويؤثرون أخرج إلى هذه الدار من دار رحمته ما شاء أن يفتحه منها بالماء، وأخرج إليها أيضًا من دار غضبه بواسطة فيح أذن له في الخروج إلى هذه الدار منها، ليدل بذلك على ما قد أثبته من قدرته ووحدانيته وتصريف مشيئته في مخلوقاته من منع وإعطاء ورضا وسخط وحب وغضب إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته وموجودات الدارين في الدار الآخرة .

خلق ذلك كله وقدره في الأزل بقسط معلوم وقدر موزون، كتب على هذه الدار حكم المزج من المعنيين، الخير والشر، والحلو والمر، الكريه والشهي، والمنعم والمؤذي، وخلص الجنة من الشر كله، وجعل فيها الخير كله بحذافيره، وخلص جهنم من الخير كله، وجعل الشر كله بحذافيره فيها، وأبقى من رحمته في هذه إن عدل بالخير ناحية وبالشر ناحية على الأغلب في الوجود إلا ما أبقى من حكم المزج، ليسهل بذلك للمؤمنين مقاصد الخيرات وييسرهم لها، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢] .

فناب كل فريق منابه في نزل الدارين، كذلك خلق المنافقين وخلق العصاة من المؤمنين، ليرحم أو يغفر أو يعذب، وليصحح حكم الوارث فيما هنالك كما صحح حكمهم فيما ههنا بمناب كل فريق منابه في طاعته أو عصيانه ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ وأمر عزم ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر:٥]، يقال للكافر: هذا مقعدك من الجنة أبدلك الله به مقعدًا من النار، ويقال للمؤمن والموقن: هذا مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، ويؤتى كل مسلم بيهودي أو نصراني فيقال له: هذا فكاكك من النار، كما فعل بهم في دار الدنيا أنزل هذا منزلة الكفر والتكذيب، وهذا منزلة التصديق والإيمان، فكان شرهما لخيرهما الفداء، والله يؤتي فضله من يشاء والله عليم حكيم، والحمد لله أولًا وآخرًا وله

الحمد في الدنيا والآخرة، وله الحكم وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه.

فصل

في تبيان ما تقدم وهو أنه قد تقرر عند ذوي الألباب أن الله جل جلاله أحد الذات وأحد الأسماء والصفات، ذو قدرة وعلم ومشيئة، أوجد كل شيء دون شريك ولا ظهير له في ذلك ولا معين، ولا يكون على كامل الصفات إلا الفعل المحكم، وكما خلق كل شيء على الفطرة كذلك أوجده على سنن الحكمة، وكما أن الآباء والكافلين يلقنون الأبناء والمكفولين ما يخرجهم عن نور هداية الفطرة، ويعدل بهم عن سنن الحنيفية بالعقل بعد صبغتهم فيها وخلقتهم عليها، وإن كانوا ـ ولله الحمد ـ لا يقدرون على تبديل خلق الله، كذلك بالأغيار يخرج بعض المخلوقات عن سنن الإيقان ويعدل بهم عن سنن الحكم بعد كونهم في ذلك بحكم الأولوية، آية ذلك الماء، واحد في نفسه أنزله الله جل جلاله طاهرًا مطهرًا لكن بالأغيار تغيرت أوصافه، وخرج بذلك عن حد الطهارة والتطهير، ولما مازج الأرض وسالت به أوديتها أوجد جل جلاله بينهما وفيهما موجودًا ثالثًا هو الزبد، ليس بالماء ولا هو الأرض، ثم أوجد جل ذكره على ذلك ما قد وصفه في قوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [النحل:١١].

هذا الشبه للماء المنزل من السماء، وأوجد مع ذلك كل مرار وشائك ومؤذ وسؤلم، هذا الشبه ما أذن فيه لفيح جهنم بنفسها سعيرها وزمهريرها، ثم يصرف حكمته على تصريف مشيئته، فيحيل طيبات ما أوجده هنا إلى خبث وركس، ويحيل ذلك إلى كريم الوجود بواسطة الماء، ثم يركسه أيضًا، هكذا يقلب الله الليل والنهار وما فيهما، وكما يقلبهما يوجد فيهما وعنهما امتزاجًا واختلاطًا حقًا وباطلًا، يسلك ذلك كله سنن التكوين ليتم حكمته في المعنيين، ويسلك أمره الجادتين، كذلك يضرب الله الحق والباطل، كالقرآن عمدته مقصوده الإخبار عن صفات الله جل جلاله وأسمائه، والإنباء عن عظمته وعلاه وأحكامه في حكمته وإبداع صنعه في عجيب صنعته، والإعلام بأمره ونهيه، وإثبات نبوة أنبيائه ورسالة رسله وكتبه وبراهين ذلك ودلائله، وتبيين مراده من ذلك كله فكان في ذلك أنواع الخطاب وقصص ما قبل ونبأ ما بعد، وأوجب ذلك اختلاف الأخبار عن الكافرين والمكذبين وذكر ما أجابوا به رسلهم،

ووصف فعالهم وعتوهم، وكيف كذبوا على الله وكيف كذبوا على رسله، وردوا أمره ونصائحه، فكان في اجتلاب ذلك من مراد التبيان ما كان في النفي مع الإثبات الذي في شهادة أن لا إله إلا الله، وكان في ذلك فتنة من أراد الله فتنته لموضع النفي ووصف الخلاف، وهداية من أراد الله هدايته لمكان التحقيق ومقصود الغرض به، وكان ذلك من الكتاب العزيز كالتسبيح في الوجود، أعني: العالم، وكانت أذكار أسمائه وصفاته العلا موضع الحمد من العالم، وكل كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فافهم ووف اعتبارك وفقك الله، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، ألم تر أن كل مخلوق حقير، وكل شيء في العالم صغير القدر خسيس وإن كان قد لُعن وفُسق في الشرع وذُم وجوده بالوحي وعافت النفوس رؤيته واقتحمته الأبصار لمقته، كل ذلك مسبح لعظمة الله مقدس له شاهد له بالوحدانية والقدرة، ساجد له طوعًا أو كرهًا، وهذا أحد التأويلات في قول رسول الله ﷺ في الدجال لعنه الله وخفف على المؤمنين والمسلمين وطأته: «**بين عينيه كافر مكتوب يقرؤه كل مؤمن، وأنه أعور عين اليمين**»[1]، وسيأتي تفسير ذلك إن شاء الله تعالى.

تقرر المعقول والإيمان أن أحدًا سوى الله ـ جل جلاله ـ لا يستطيع ولا يوصف بالقدرة على أن يخلق بعوضة ولا ذرة، ولا أن يجمع مؤداها من خزائن السماوات والأرض، ولا يعلم ذلك ولا يهتدي إليه ذاكرًا ولا ساهيًا لنقص قدرة مبدعهم وعدم الروح في نفخ نافخهم، قصارى قدرهم الكسب على شروطه، وأبلغ نفخ أحدهم ريح ميت لا روح فيه ولا حياة من أجله.

ثم هذه المحاذير كلها رحمة لعباده المؤمنين ونعم في حقهم أنعم بها عليهم، فإنه خلقها تذكيرًا لهم وتخويفًا ينبههم بها في أحيان غفلاتهم، ويزعجهم بالمقصود بها عن مواطن فتراتها، فهم إذا ذكروا جهنم أعاذنا الله برحمته منها بسعير ما هنا وزمهرير تعوذوا بالله منها، وإذا رأوا محاذير ما هنا تذكروا ما هي منتزعة منها فيما هنالك، وأن إليها تصير آخرتهم ذلك وأقلقهم فتعوذوا بالله من شر ما خلق، ومن حال من أعدت له

---

(١) رواه البخاري في «الفتن» (٧١٣١)، وفي «التوحيد» (٧٤٠٨)، ومسلم في «الفتن» (٢٩٣٣) من حديث أنس ﷺ، ورواه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٤٣٩)، ومسلم في «الإيمان» (١٦٩/ ٢٧٤) من حديث ابن عمر ﷺ.

وما أوجدت من أجله، فيتيقظون من أجل ذلك لسلوك سبيل النجاة، وعملوا لربهم خالقها لينالوا بذلك دار الأمان، يتذكرون بحيات ما هنا حيات ما هنالك، وبعقاربها عقاربها، وبضيقها وظلمتها ضيق ما هنالك، وظلمته وبالآلام وأوجاعها، وفقره وجوعه وعطشه وهونه وحزنه وشجونه وأحزانه أحزانها، وبكل شيء يكون من مكروه هنا يتذكرون ما يجانسه فيما هنالك، فإن أصابهم منها ما يؤذيهم أثابهم على ذلك، فكل شيء في الدنيا والآخرة رحمة، ولله تعالى عليهم فيه نعمة، وتمت كلمة ربك الحسنى على عباده المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

وجه آخر: ولأنه خالق كل شيء وموجده وربه ومليكه لا شريك له فيه، فهو في فعله فيما يملكه بين خيرتين يقتضي كل وجه منها الحمد له وحده، إما أن يكون فعل ما له أن يفعله فهو عدل، والعدل حمد، لأنه من حق المالك التصرف في ملكه كيف يشاء، يعطي ويمنع ويقدم ويؤخر، فإن أعطى أو قدم وفضل وهو حمد على حمد فإن منع فهو عدله وهو حمد وبذلك صح الحمد في الدنيا وفي الآخرة، وليس الاعتماد على إضافة الذم إلى العالم به بحجة، إنما تضاف الأفعال إلى محالها التي صدرت عنها.

التعبد

فأجهد نفسك ـ وفقنا الله وإياك ـ في العمل بمقتضى هذا الاسم المبارك، وجملة ذلك هو ألا تأتي إلا ما يحمدك عليه، وكما انبسط معنى الحمد على معاني الأسماء والصفات والعمل بمقتضاه ينبسط بانبساطه، فاحمده ﷻ على كل نعمة وعلى كل حال بمحامده كلها ما علمت منها وما لم تعلم، وبالكليات حق المحامد، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**ربنا ولك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد**»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله تملأ الميزان»[2]، ولا تملؤه إلا بعمومها جميع الموجودات ما علا وما سفل، وقال: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**»[3]،

---

(١) سبق تخريجه في باب اسمه الآخر ﷻ.

(٢) رواه مسلم في «الطهارة» (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ؓ.

(٣) رواه الترمذي في «الدعوات» (٣٣٨٣)، والنسائي في «الكبرى» في عمل اليوم والليلة (١٠٥٩٩)، وابن ماجه في «الأدب» (٣٨٠٠)، وحسنه الألباني.

وقال ﷺ: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه»(١)، وقال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمده عليها»(٢).

وقال ﷺ: «عجبًا للمؤمن أنه يوحد في كل شيء إن أصابه خير حمد الله، وإن أصابته مصيبة فهو حمد الله فهو يوحد على كل حال حتى اللقمة يرفعها إلى فيه».

وقال ﷺ: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، قالت الملائكة في السماء: ربنا لك الحمد، فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»(٣).

والموافقة في هذا الموطن ـ والله أعلم ـ بالعلم وإحضار الفهم وشهود معاني الحمد وحقائقه، إذ الملائكة عليهم السلام لا تشغلهم عن ذكر الله ـ جل ذكره ـ الشواغل فمن أجهد نفسه في ذلك واستفرغ وسعه، نال موعود ربه، فالجد الجد في إحضار ذهنك وإيقاظ نفسك واكتساب العلم بمحامده، ثم تذكر من عظمة الله ﷻ أعظم ما تقدر عليه حتى يمتلئ قلبك إجلالًا وحبًا له، ثم أرسل الثناء بالحمد على لسانك وجوارحك خاشعة وقلبك حاضر حتى تعلم أن جماع الثناء كله والحمد على التحقيق الأقصى له في ذلك، وأن له الحمد على أن له الحمد، وكذلك له الحمد على ما وفقك للحمد، وله الحمد على حمد أبدًا ما صعد علمك واستصحبت حمده، فمتى فعلت ذلك رجوت لك الظفر إن شاء الله، وللعلماء بالله جل ذكره والمعتبرين إلى ملكوته، وصالحي سلفنا رحمة الله عليهم ورضوانه تحميد وتمجيد سوى المذكور منه في القرآن العظيم، وحديث رسول الله ﷺ ذهبنا أن نذكر منها فقد تستعملها عند مطالعة اعتبارك، وتتقرب بها في أوقات خلواتك، وترسلها عند صعداء أنفاسك، فمن ذلك ما جاء في القرآن العظيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، وهو جماع الحمد كله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]،

---

(١) رواه البخاري في «التفسير» (٤٦٣٤، ٤٦٣٧)، ومسلم في «التوبة» (٢٧٦٠) من حديث عبد الله ابن مسعود ﷺ.

(٢) رواه مسلم في «الزهد» (٢٩٩٩) من حديث صهيب ﷺ بنحوه.

(٣) الحديث رواه البخاري في «الأذان» (٧٨٠)، وفي «الدعوات» (٦٤٠٢)، ومسلم في «الصلاة» (٤١٠، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧)، وأبو داود في «الصلاة» (٩٣٦)، والترمذي في «الصلاة» (٢٤٠)، والنسائي في «الافتتاح» (٩٢١، ٩٢٥ـ ٩٢٨)، وابن ماجه في «إقامة الصلاة» (٨٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف:١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر:١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل:٩٣]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر:٧٤] .

ومما جاء في غير القرآن العزيز: الحمد لله الذي تتابعت علينا نعمه، وترادفت لدينا منه، الحمد لله الذي اكتمل في مخلوقاته حججه بواضح البيان ونير البرهان ومحكم آي القرآن، ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب، الحمد لله الأول بلا زمان، والآخر بلا أوان، الذي غاب عن الحواس فبطن، وظهر لقياس العقول فعلن، الحمد لله ذي الفضل المنيف والصنع اللطيف، الحمد لله الذي لا بأس مع فضله ولا بأس من روحه، الحمد لله المرجو لإزالة الإيواء وإنالة النعماء، الحمد لله الذي مواهبه لا يفي الشكر بجزائها ولا بأقل جزء من أجزائها، الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض الخلق لا على مثال سبق، ولا من شيء خلق ما خلق، الحمد لله الذي خلق الخلق بقدرته ودبرهم بمشيئته، الحمد لله قابل الحمد والمجازي به وواهبه، والمثيب عليه، الحمد لله حمدًا يصعد ولا ينفد ويزيد ولا يبيد، الحمد لله فقرًا إلى نعمته واعترافًا بفضله، وشكرًا على حياطته وفزعًا إلى كفايته، الحمد لله على ما ساء وسر ونفع وضر، وأجلى وأمر، الحمد لله الذي جعل الحمد أقرب وصلة إليه، وأمت شفيع لديه، الحمد لله على ما خلق وأنعم به ورزق، الحمد لله على قديم ما أبلى وحديثه، وخاصته وعامته حمدًا يبلغ رضاه ويحوي من مداه، الحمد لله بجميع ما حمد به على جميع ما استحمد عليه، الحمد لله حمدًا لا انقطاع له ولا نفاد، حمدًا لا يحيط بكنهه سواه، الله محمود على بلائه، وعدل في قضائه، الله محمود على نعمه، مستعان على شكره، مرغوب إليه في إتمام ذلك وإدامته، الحمد لله إذعانًا من عبده بقصور نهاية الشكر عن بعض حوادث نعمه وترادف مننه، الحمد لله الذي جعل ما أنعم به من المعرفة بنعمه عاصمًا من تكليف إحصائها .

الحمد لله الذي حمد المعظم له لحقه المكبر لجلاله، العارف لمقدار العارف لديه والمنعم به عليه، الحمد لله حمد معترف بعجز حمده وشكره عن أداء حقه ومفترضه، الحمد لله على نعمة الاعتراف والمعرفة، الحمد لله حمدًا يوجب شكرًا وتتابع مزيد، الحمد لله يوازي رضوانه ويستدعي إحسانه، ويكافئ حسن بلائه، يحمد الله حمدًا لا انفصال له دون بلوغ رضاه واستجلاب مزيده، الحمد لله على النعمة التي حصنها بالشكر وحسنها بالمزيد، الحمد لله حمدًا مستنفذًا لقوانا مستوعبًا لأقصى وسعنا، الحمد لله كاشف الضر ومسهل الوعر ومصرف الدهر، ومدبر الأمر، الحمد لله الجاعل بعد عسر يسرًا وبعد كره خيرًا، الحمد لله الجاعل بعد ضيق سعة، وبعد هرج دعة، الحمد لله الآتي بالفرج من حيث لا يحتسب، والمتلاقي بالرحمة إذا نابت النوب .

الحمد لله الذي إذا استفتح فتح، وإذا استمنح منح، وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له من دونه من وال، الحمد لله واهب النعماء وجالب السراء وكاشف الضراء، الحمد لله القائم على كل شيء والدائم بعد كل حي، الحمد لله الشامل عطاؤه العادل قضاؤه، الحمد لله أطلق ألسنتنا بحمده، وأوجب لنا المزيد مثوبة من عنده، الحمد لله على النعمة فيه وفي غيره من صنوف فواضله حمدًا يقضي واجب حقه، ونستدعي حسن مزيده، ويؤمن من تغيره وتبديله، الحمد لله النافذ في جميع الأشياء قضاؤه وقدرته، الحمد لله المحيط بجميع الأمور حفظه وخبره، الحمد لله الذي لا يعارض في حكمه ولا يشارك في علمه، الحمد لله الذي لا يغار في سلطانه ولا يستطاع إبطال حجته وإنكار برهانه، الحمد لله الذي لا يعارض ولا يناهض ولا يماثل ولا يعادل في القضاء الذي لا يرد في العطاء الذي لا ينفد، الحمد لله العدل في حكمه والحكيم في أمره، الحمد لله على النعمة به، والحمد لله على النعمة منه، والحمد لله على حمده يبلغ حق حمده، وصلى الله على محمد المصطفى نبيه وعبده وعلى جميع ملائكته وأنبيائه ورسله وسلم تسليمًا .

واعلم يقينًا أن أول من حمد الله الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وكما حمد نفسه بكلامه العلي قبل البدء الذي لا أول لأوليته لذلك حمد عباده الذين أثنى عليهم بخصالهم الحميدة، وأوجب لذلك عليهم حمده، والحمد يتصرف على وجوه:

فيكون بمعنى المدح والثناء، ويكون بمعنى الشكر، والشكر هو في مقابلة الإحسان، والحمد في مقابلة الرضا، والعلم بصفات علية مرضية في المحمود، وهذا الحمد ينبعث

من خالص الود والحب، وقد يقال: الحمد بمعنى العافية، يقال: حماد لك أن تفعل كذا، وحماد أمرك كذا، فقول القائل: الحمد لله، أي: المدح كله والثناء والحسن لله، والشكر لله، والعاقبة لله، والرضا منا بالله ولله، وحمد الله العلي هو شكر الشاكرين له على شهود النعم والمنعم، فإن لم يكن معًا فشهود المنعم؛ لأن حقيقة الشكر الغنية بشهود المنعم عن شهود النعم، وأفضل النعم ما وصلك إلى المنعم، وأشأمها ما شغلك عنه، فإذا النعم ما كان منها دنيئًا، فإن كان مع النعم راحات معجلة فهو الكمال، فإذا وافق التوفيق الشكر كان حمدًا كاملًا وإلا انقلبت النعمة نقمة، والحمد هجنة.

اسمه المبارك جل جلاله

أصل البركة ـ والله أعلم ـ لزوم الخير للمكان وبقاؤه فيه مع نماء وزيادة، من ذلك قولهم: برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح، واسم موضعه المبرك، وقيل لمستنقع المياه: بركة؛ لاجتماعه فيها ولزومه هناك، وأبرك السحاب: ألج بالمطر، وقيل للجائين على الركب: مبتركين، وهذا كله معناه لزوم الجملة من الخير موضعًا واحدًا، وقد قيل: إن البركة مأخوذ لفظها من البر، والله أعلم.

وإنما قيل: ابتركت الرجل بمعنى انتقصته، إذ المنتقص يحاول بذلك انتزاع الخير منه، إذ سماه بأسماء تضاد الحمد، فكان ذلك بمنزلة التحنث والتأثم، المبترك هو الجاثي على ركبتيه من قوم مبتركين، فالمبترك للرجل والمرأة منتقص له، إذ هو يحاول بذلك إذلاله، يجعله إياه في حالة الاحتياج والاضطرار، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية:٢٨].

وتبارك الله معناه: لم يزل بأسمائه الحسنى والصفات العلا، واستحال عليه ضد ذلك، ثم أوجد كل شيء، وكان هذا أيضًا في بابه بمنزلة تكرم وتعالى وتمجد وتعزز وتقدس، وربما أتى بيان معنى هذا البناء، أعني التفعل في الأسماء كالمتكبر والمتعالي والمتعاظم، ونحو ذلك في باب مفرد إن شاء الله، وهو المستعان.

تبارك الله تفاعل البركة والخير والفضل في إظهار الأسماء الحسنى وإعلان الصفات العلا، ومقتضيات ذلك من الوجود أجمع كان جل ذكره أحدًا في كونه النزيه العلي، ثم جاد بجوده الكريم فقدر المقادير ثم خلق الخلائق وقضى القضايا، فكان في ذلك أن أوجد العرش العظيم والكرسي الكريم والملائكة المكرمين والأنبياء والمرسلين والأولياء

والصادقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وأوجد لذلك الإيمان والإسلام والعلم واليقين وأعمال الطاعات كلها، وأوجد كل موجود كريم، وكل مرئي شهي، وكل مبصر حسن بهيج، وبالقول وبالإجمال، فإن الموجود كله بفضل جوده وبعلي مشيئته ومقتضى أسمائه وصفاته، فكان الوجود بركة منه عنه، لذلك لا تكون بركة إلا عن شيء موجود سابق أول له فافهم .

اعتباره

اعلم أن كل لزوم موجود في العالم بمعنى التبريك والبركة واجتماع الخير والبر بمقتضى هذا الاسم، والله أعلم .

وهو قريب القرابة من معناه ومقتضاه من اسم الزكي، غير أن المبارك إنما يوصف بذلك إذا كان موضعًا للخير ومعرفًا له، ويوصف بالزكاء من وجد فيه الطيب والطهارة والخير، ولا تكاد تجعل واصفه بقدم ذلك أو حداثته، إنما هو وصف لحالته تلك، فإن كان اللزوم من حيث الخير فهي البركة وذلك المحل مبارك، وإن كان من جهة الشر فهو اللزام والغرام والمغرم، ولا تكون البركة حتى تكون هذه الزيادة والنماء من أصل موجود، ويتعرف ذلك بما قبضه الله جل ذكره على يدي نبيه ﷺ من الزيادة والنماء في ماء عين تبوك، وماء الميضأة يوم الزوراء، وطعام أبي طلحة، وجمل جابر، وثمر حائطه، وطعام أبي بكر ﷺ أضيافه رحمة الله على جميعهم، ومزادتي المرأة وغير ذلك كثير، كذلك بشرى ملائكة إبراهيم وأهل بيته عليهم السلام في قولهم: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٣]، كيف لزمتهم البركة ونمت فيهم الخيرات، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف:٢٨]، يعني كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، يظهرها في ذرية الأنبياء وأتباعهم، وتبطن في أحيان الفترات، قال الله ﷻ: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات:١١٣]، حتى أعلنها في ابنه محمد ﷺ وعلى جميعهم وفي العرب، ثم أفاض من تلك البركة على سائر الأجناس والأمم فأدخلهم منها فاستعملهم بمقتضاها، وكذلك قال لنوح عليه السلام: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ [هود:٤٨]، فخص بالبركة أممًا يكونون ممن معه، ثم أخبر عن الباقين أنهم وإن نالهم النماء والتكثير في العدد فإنما ذلك متاع يمتعون به لقوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨] .

ومن البركة ما جعله الله جل ذكره في الماء وفي الأرض، يقول جل من قائل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ [ق:٩]، وقال في الأرض: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت:١٠]، وبركة الماء والأرض أشهر من أن يجتلب عليها الشواهد، يبدو ذلك في تضعيف البذر والثمرات، ثم ما صرف من ذلك كله في طاعة فهو بركة، وما كان في شهوات النفوس أو وجه به لغير الله فهو متاع.

ومن البركة أن يصلح عنده ويوفقه بصالح الأعمال ويطهره حتى يبلغ من زكائه وبركته أن يدفع به السوء عن عباده ويكشف به الكرب عنهم ويجعله للخيرات سببًا، كما جعله لطاعته منزلًا وموطنًا، يهتك بوعظه سخف الشهوات، ويبعث برؤيته على أعمال الصالحات، يبرئ بكلامه القلوب من مرضتها والأسماع من وقرها، فتنطق ببركته الألسنة بعد بكمها، وتنجلي الأبصار من غشاوتها، وتنطلق الجوارح بعد كسلها، وتحيي القلوب بصيب وعظه فتكون عن ذلك أعمال وأقوال ونيات وأمور مرضية تصعد فلا ترد، وتعلو إلى عليين ليشهدها المقربون، فهم ببركة الله فيهم كالدواء النافع والترياق المجرب.

بل أفضل من ذلك فائدة وأحسن غناء وعائدة، ومن البركة تضعيفه الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة، كما قيل لأبي هريرة ﷺ: أسمعت أن رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة»، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «إن الله جزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة»[1].

بل أين هذا من قوله ﷺ: «إذا صلى أحدكم على جنازة كان له قيراط من الأجر، فإن حضرها حتى توارى كان له قيراطان، القيراط مثل جبل أحد»[2].

وكقوله: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»[3].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٢٧)، والبيهقي في «الزهد» (٧١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع».

(٢) رواه البخاري في «الإيمان» (٤٧)، وفي الجنائز (١٣٢٥)، ومسلم في «الجنائز» (٩٤٥)، والترمذي في «الجنائز» (١٠٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه البخاري في «الزكاة» (١٤١٠)، وفي «التوحيد» (٧٤٣٠)، ومسلم في «الزكاة» (١٠١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بل أين هذا من قوله ﷻ لعبده الفقير من الحسنات يوم الحساب وقد ألح عليه بالمسألة فترفع له الشجرة بعد الشجرة: «يا بن آدم، ما يضيرني منك، أيسرك أن يكون لك مثل الدنيا كلها في الجنة ؟ فيقول: رب رضيت، فيقول: إن ذلك لك وعشرة أمثاله»[(١)] .

بل أين هذا من قول رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الخير ما يعلم مبلغها يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه»[(٢)] .

كذلك بركات الآخرة تنشئ إليها بركات هذه، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء:٤٠]، أي: وإن تك مثقال حبة حسنة يضاعفها ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، فيدخله بذلك جنته ويبوئه منازلها ويسكنه قصورها وكرامته فيها بمثقال الذرة تكون حسنة وما أتى من لدنه لا يبلغه حسابنا، ولا يناله تحصيلنا: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨] .

وقد يريد الله إيقاع العذاب بأمة من الأمم أو بأرض لشمول عصيانها وقبيح فعالها، فيكون فيهم العبد الصالح فينظر الله إليه من بينهم فيصرف عنهم الهلاك به أو بدعائه رحمة منه جل ذكره لبركة ذلك العبد، قال الله جل من قائل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال:٣٣] .

التعبد

اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن مقتضى هذا الاسم ليس يتناول باكتساب، بل هو من باب العطايا والمواهب، والسبيل الذي يوصل إليه هو العمل بطاعة الله والتطهر والتزكي ونحو هذا باحتساب على الله جل ذكره، ونية صادقة على اللزوم والمداومة، والجزاء على ذلك من الله تعالى مضمون من الله ﷻ إنه لا يخلف الميعاد، والبركة تبسط على جميع أعمال الطاعات ؛ لأنها واقية باقية في الدنيا والآخرة، وأسماؤه كلها مباركات

(١) الحديث رواه البخاري في «الرقاق» (٦٥٧١)، وفي «التوحيد» (٧٥١١)، ومسلم في «الإيمان» (١٨٦، ١٨٧) من حديث ابن مسعود ﷺ، ورواه مسلم (١٨٨) من حديث أبي سعيد ﷺ و(١٨٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ .

(٢) الحديث رواه أحمد (٣/ ٤٦٩)، والترمذي في «الزهد» (٢٣١٩)، والنسائي في «الكبرى» في الرقائق (١١٧٦٩)، وابن ماجه في «الفتن» (٣٩٦٩)، والطبراني في «الكبير» (١١٢٩ـ ١١٣٦) من حديث بلال بن الحارث ﷺ وصححه الألباني .

فلتخص كل اسم منها بما هو من مقتضاه في الوجود وعلى القول بالعموم فاسمه الله جل جلاله كاف شاف كالسلام عند الدخول في البيوت وعند التذكية، وتسميته عند الشروع إلى كل وجهة وفي كل عمل، والحمد لله عند الفراغ، والتعوذ بأسمائه كلها حسن، وبخاصة ما كان كفاء للمعنى المتعوذ منه، كل ذلك طلب لبركتها والتطيب بها.

وضد البركة الشؤم، وعنه يكون وجود النقص من الخير وذلك هو الهلاك وكان رسول الله ﷺ يقول في وضوئه: «**اللهم إني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة**»[١]، ووجود اليمن والشؤم في وجود الموجودات المحدثة في البواطن منها في ذلك عملها بإذن ربها ﷻ وبصفته التي هي البركة، والتبرك باسمه المبارك تبارك وتعالى يستعاذ من مرهوب ذلك، ويستعان على مال المرغوب منه، قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم من صاحبه ما يعجبه فليدع له بالبركة**»[٢]، وقال ﷺ في العين والسحر: «**إنها حق**»[٣]، وقال ﷺ: «**أكثر موت أمتي من النفس**»[٤].

وقال الله ﷻ في يعقوب عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨]، ويقال: إن العين من الإنس، والنفس من الجن.

وبالجملة: فإن جميع الطاعات موصلة إن شاء الله تعالى لمقتضى هذا الاسم، لأنها كلها باقيات صالحات مباركات، وهو تقرب إلى الله تعالى، والمتقرب منه مبارك لمنال البركة إياه وبأسمائه تتم الصالحات وتنال البركات، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اسمه السلام جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

معناه - والله أعلم - سلامته من نقائص البشر وآفات الحدث، ومنه السلام والسلامة

---

(١) ذكره الغزالي في «إحيائه» (١/ ١٧٨).

(٢) الحديث ذكره النسائي في «الكبرى» (٩٩٦٥ - ٩٩٦٨)، وابن ماجه في «الطب» (٣٥٠٩)، وأحمد (٣/ ٤٤٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٠٥، ٢٠٦) وصححه الألباني.

(٣) الحديث رواه البخاري في «الطب» (٥٧٤٠)، وفي «اللباس» (٥٩٤٤)، ومسلم في «السلام» (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، ولفظ: «العين حق» جزء من الحديث السابق.

(٤) لم أجده بهذا اللفظ وروى الديلمي (٤٠٤٧) من حديث عبد الله بن جراد رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «العين والنفس كادا يسبقان القدر فتعوذوا بالله من النفس والعين»، وفي سنده يعلى بن الأشدق قال البخاري: لا يكتب حديثه.

والسَلْم والسَلَم والسِلم الصلح لما في الصلح من معاني السلامة، وقيل للملدوغ: سليم تفاؤلًا بالسلامة، وقيل للشيء المسلف: السلم، وأسلمت إليه الشيء بمعنى: دفعته إليه وسلمته مني، ومن دعواي فيه وتسلمه مني قبضه تفعل مني ذلك ترك الدعوى فيه والحجة، والسلامى: عظام الأصابع من اليدين والرجلين، سميت بذلك لسلامتها من التجويف الموجود في غيرها.

وقد يطلق على غيرها من العظام هذا الاسم إما لصلابتها بالإضافة إلى اللحم الذي عليها، وإما بحكم المجاورة، والسلام الحجارة الواحدة سلمة، سميت بذلك لصلابتها، أو للتفاؤل بالسلامة منها، والسلَّم السبب إلى السماء والسلم المرقى، والإسلام الدخول في دين الإسلام، والمسلم هو الداخل فيه، كمنجد ومتهم وملين وشبه ذلك، أسلم أي: دخل في السلامة، واستسلم استفعل من ذلك الإسلام، كالإيجاد والاتهام، والداخل في الإسلام قد سلم من محذور من دخل فيه من أجله، ومنه قول رسول الله ﷺ: «أسلم تسلم» [(١)]، ولأنه أيضًا ضمن السلامة من نفسه لمن أسلم له ولإخوانه المسلمين فدخل في ضمن قول رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» [(٢)].

اعتبار

لما كانت أسماؤه وصفاته جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه لا تنازع لها ولا تغاير ولا تمانع، إذ هو أحد الذات وأحد الأسماء والصفات لا كثرة فيها هنالك ولا نقص عنها، إنما الله إله واحد أحد صمد، متى رضي لم ينازعه الغضب، وإذا حلم لم ينازعه الاستعجال وسرعة الأخذ، كذلك إذا أخذ لم تنازعه الأناة، إذا عفا لم تنازعه إرادة الانتقام، كذلك إذا أراد شيئًا فلا تنازع ولا تخالف في صفاته ﷻ عن ذلك كله وتعالى علوًّا كبيرًا، فهو السلام الحق كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر وافتقار المحدث وآفات المصنوع، ولذلك سميت الجنة دار السلام لسلامتها من الآفات والغير

---

(١) الحديث رواه البخاري في «بدء الوحي» (٧)، وفي «الجهاد» (٢٩٤١)، وفي «التفسير» (٤٥٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري في «الإيمان» (١٠)، وفي «الرقاق» (٦٤٨٤)، ومسلم في «الإيمان» (٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ورواه البخاري (١١)، ومسلم (٤٢) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، ورواه مسلم (٤١) من حديث جابر رضي الله عنه.

والحدثان المحذور، وسلامتها من التخالف والتحازب .

ألا ترى أن الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه لا شمال له كلتا يديه يمين مباركة، كذلك صفاته وأسماؤه يمين كلها يمن أجمعها، إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون، فهو السلام الحق لا إله إلا هو، وقد قيل: إن السلام هو بمعنى ذو السلام، أي: منه السلام لعباده كي يسلمهم، وقيل: هو السلام على أوليائه ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] .

وقيل: السلام بمعنى السلامة، كاللذاذ بمعنى اللذاذة والرضاع بمعنى الرضاعة، ومعناه: يعود إلى تنزهه عن الآفات وتقدسه عن سمات المخلوقين، فهو بمعنى القدوس والسبوح والسلام، الذي هو بمعنى التسليم تكون بمعنى الإخبار عن المسلم للمسلم عليه بسلامته منه من الغل والغش والبغضاء، وغير ذلك بقوله: السلام عليكم، فيرد الراد عليه: وعليكم السلام، أي: لك منا في السلامة والأمان مثل الذي جعلت لنا منك، ووجه آخر هو راجع إلى هذا، وهو أن يكون معنى قوله: السلام عليكم: أذكركم الله الذي عافاكم من محذوره، وسلمكم من مكروهه، فاذكروه واقتدوا به وعاملونا من السلامة منكم والأمان بمثل ما عاملكم، فيرد الراد عليه بمثلها أو أحسن منها، فيكون ذلك من جميعهم إقرارًا بالسلام الحق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه وبنعمه، ويكون ردًا لراد عليه شكرًا أو تأدية حق وتأدبًا بتأديب الله جل ذكره .

وقد يكون معنى سلام المسلم وردًا لراد بشارة من الله ﷻ جعلها على ألسنة المسلمين أمرهم أن يبشر بها بعضهم بعضًا بالسلامة والبركة والرحمة منه، لدخولهم في دين الإسلام فأعظمهم أجرًا أحسنهم تحية وأكثرهم بشرًا وأكرمهم بشاشة لأخيه المسلم، وقال رسول الله ﷺ: **«السلام اسم من أسماء الله فأفشوه بينكم»** [١]، وقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»** [٢] .

واسم السلام إذا كان بمعنى الطهارة والسبحة عن النزاع والخلاف، وكما تقدم في

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٩) من حديث أنس ﷺ، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٣٠٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ له وحسنه الألباني في «الصحيحة» .

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٠)، ومسلم في «الإيمان» (٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

صدر الباب فهو من أسماء الذات، وإذا كان من تسليمه عباده وأولياءه فهو من أسماء الأفعال، وأما معرفة مسالكه في العالم فطرقه كثيرة جدًّا، كل موجود كائن ما كان فهو مستسلم لله جل ذكره مسبح له خاضع خاشع، والإسلام دين الله ودين ملائكته، ودين جميع الموجودات علوًّا وسفلًا ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣] .

ووجود الموجودات بأجمعه يعطي إسلامه لبارئه، قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل:٤٨]، وتقصي هذا يؤدي إلى الإطالة وغرضنا الاختصار وبالإيماء يكتفي الألباء، ونحن إن شاء الله نشير إلى نبذة منها تومئ إلى ما وراءها، فطر الله تعالى الموجودات علوها وسفلها على الإسلام فوجودها على تلك الفطرة صعدًا من لدن جامدها إلى مليكها، جمد جامدها على مباني الإسلام، غير أنه أعلن بالتصاغر إلى الكبير الحق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه والتضاؤل لعظمته والخضوع لجلاله وعلائه وجمد على سائرها ثم بدت مبينة في نباته بصفة الجمود، وانشرحت في حيوانه من وراء حجاب الذهول، ثم ظهرت في الإنسان لكن بصفة الغفلة، ثم استعلنت في المؤمن بصفة الإيمان كل ينفع، ويعطي مما آتاه الله ﷻ بالحيوان مما في وجوده وكل ثمرة وشجرة وغير ذلك من أنواع النبات كل ينفق بوسعه لا يمنع ماعونه، ومانع الماعون من ذلك ملعون مفسق على لسان الشرع ومعهود الوحي، والوجود لخروجه من الفعل المرضي والعمل الحميد الزكي الذي جاء به الإسلام وسنة الرسل عليهم السلام بسنتها عن الإسلام، فإسلام ما دون المؤمن كون وفطرة، وإسلام المؤمن كون وشرعة، والأمر أمران: أمر كون وأمر شرع، وكلاهما إسلام منفصل من أمر الكون، فما سقط عن أمر الشرع ثبت في أمر الكون، فافهم .

كل يسبح الله ويحمده، وإنما توجه أمر الشرع على العقل يوم أوجده، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٣٥]، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، ومباني الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان .

فالصلاة: هي الدعاء في عرف اللغة، وأقرها الشرع على أنها دعاء وقراءة قرآن وذكر مقرون بقيام وذكر وركوع وسجود وقعود وتكبير وسلام، كل ذلك على حدود محدودة وسنن مبينة.

والزكاة: النماء في اللغة ثم أقرها الشرع على أنها نصاب محدود ونصيب معلوم على سنن مسنونة وتمام حول، ومن يأخذها، ولمن تؤدى وكيف يعمل فيها.

والحج: في اللغة القصد، ثم أقره الشرع إلى مقصود معلوم وهيئة محدودة بأفعال موصوفة في وقت محدود وأقوال مأثورة في مناسك مشهورة.

والصوم: هو الإمساك، وأقره الشرع على إمساك محدود عن أشياء معلومة في وقت محدود وشهر معلوم، ولما أن كان الله جل ذكره هو ممسك السماوات والأرض أن تزولا وممسك ما بين ذلك وممسك الأشياء كلها علوًا وسفلًا على ما قد شاءه منها وبها من وجود، فكل شيء من أجله ذلك ممسك بأمر الله، والممسك صائم كونًا كما الممسك طوعًا صائم شرعًا، ولما كان ذلك كذلك قال الله جل قوله: «**كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»[1]، يقول وهو أعلم: «أنا ممسك السماوات والأرض وما بين ذلك وكل شيء أن يزول وكل ذي بقاء فبإبقائي بقي وكل فان فبإفنائي فني، فمن أمسك لي نفسه على ما أمرته به وعما نهيته عنه كما أرضى فأنا أجزيه بذلك ولا تسل عن جزائي له».

والصوم من حيث هو صوم ملكي غير أن الإكبار والإعظام والإعلاء خصوصًا لغير الإنسان، فهو حال من حيث هو إنسان عصي على الإكبار والإعظام والإجلال والتسبيح لخالقه للغفلة وصدت عنه البلدة، ونقل المؤمن من الشهادة؛ لأنها درجة من وراء الإكبار وأنار له بإيمانه موضع الغفلة منه، وانكشفت له بالعلم ما غطت عليه البلدة فوجد المؤمن ما دونه من العوالم يكبر الله ويعظمه ويسبحه، فشهد لله بالعظمة والكبرياء، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فهو الله لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى: قال رسول الله ﷺ وقد سمع مؤذنًا يقول: الله أكبر الله أكبر، فقال: «على الفطرة»، ولما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: «**خرجت من النار**»[2].

---

(١) رواه مسلم في «الصيام» (١١٥١/ ١٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الحديث رواه مسلم في «الصلاة» (٣٨٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

فليس بالإكبار فقط تخرج من النار وتدخل الجنة بل بما يعطيه عظيم قدر المكبر المعظم المجل من أن لا شبيه له ولا مثيل له ولا عديل، فتشهد بأنه إله واحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فهذا هو ما يهدي به الله من أراد الله هدايته، ومن لم يرد الله هدايته بقي في موضع الإعظام والإكبار والإجلال بما فطر عليه من ذلك ضالًّا تائهًا يعظم المفعولات ويكبر أنواع الموجودات، وربما ضل مع طول الناس عن إكبار الكبير الحق، وقصره الشيطان ـ لعنه الله ـ على إكبار معبوده الأدنى، وعلى نحو ما يرشده إليه الإله الذي هو هواه، حتى يأتي الله بهدايته فيحكم العقل بهداية الله بواسطة الإيمان، فتعود الشهادة التي كانت قبل الإكبار والإعظام الموجود في الفطرة حقًّا مكشوفًا، وقد كانت قبل الإيمان مظلمة، وكان المكبر بها المعظم لا يدري من يعظمه ويكبره، فعاد ذلك توحيدًا محضًا، وإنما يتلخص اليقين باستعراض الجملة، ولا يكون ذلك إلا بتوفيق الله للعقل بنور الإيمان وسكينة الإسلام من الجولان إلى ما كان الهوى يبعث عليه والحمية والعصبية والتقليد ينفر عنه.

فمتى استعرض العقل الصائب الموجودات بما هي وجمع في معقوله إكبارها لجاعلها وإعظامها لخالقها ورأى ذلك بنور إيمانه وعصمة خالقه، وحمد الله جل جلاله خالق كل شيء ومدبره، كل في قبضته ونواحي الموجودات جميعًا بيده، فلزمه إكبارًا له وحده وإعظامًا وتسبيحًا، وشهد له بما وجده عليه من الوحدانية والصمدانية والعظمة والكبرياء والبعد عن الأشباه وعن ما لا يجوز عليه، ويستحيل وصفه لديه، إذ الشهادة باللسان عبارة عما استقر علمه في الجنان فعمل له على الإسلام، وسيأتي الكلام على الشهادة في بابها إن شاء الله تعالى.

فشهادة التوحيد أم الشهادات كلها على اختلافها، إذ التوحيد هو ينبوع الحق المخلوق به السماوات والأرض ومبعثه، وكذلك هو أصل للذكر كله، كالتهليل والتكبير والتحميد والتمجيد والتعظيم والاستغفار والدعاء والتعوذ.

فصل

وهذا الفصل يعلمك أن العلم عليه مدار الإيمان والإسلام، وما قبل الله جل ذكره مما هو دون ذلك فهو فضله وحسن تجاوزه في معاملته، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم

مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٤].

فهو إذا وقر العلم في القلب بما شهد به اللسان استوى القلب بحقيقة ما فيه إلى حقيقة المشهود له، وتوجه إليه بالعمل، فذلك الإسلام المتصل بالإيمان، فالذي وقر منه في القلب هو الإيمان الخارج عن الجوارح، هو الإسلام وباعث المنبعث بين ذلك، هو موضع اتصال الإسلام بالإيمان ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام:٨٠]، والنية حركة حقيقة العبد الباطن بهمته العقل وتوجيهها لله وحده لا شريك له: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

واعلم أن الأذكار كلها مجموعة في موجود الوجود مفرقة في أنواعها، ونقل المؤمن الاستغفار والتوبة والإصلاح في مقابلة اكتساب الذنوب، والصلاة أصل الخشوع كله، وهي إعلام بترتيب الذكر، وكيف يكون المتخشع الخاضع المتعبد لله جل ذكره من قيامه وقعوده وفي حال خفضه ورفعه، كما قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: كنا إذا سرنا مع رسول الله ﷺ في سفر كلما استهللنا هللنا، وإذا صعدنا قلنا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإذا علونا شرفًا كبرنا، وإذا هبطنا سبحنا [(١)].

وهذا ترتيب الذكر على ما جاء في الصلاة ليمتثل العبد ذلك في جميع أحواله حتى يكون أعماله مصاحبًا لفطرته التي فطر الله عليها بعبادته، لتتصل محبته بفطرته وعبادته بجبلّته، ومعلوم أن الصلاة لا يوصل إليها إلا بعد الطهارة بالماء، فهي إذن داخلة مع الخشوع والخضوع في جزء الصلاة.

والطهارة تشتمل على طهارة الماء والبقعة والثوب وتشتمل أيضًا على الطهارة من الذنوب والفواحش أن تظهر على الجوارح فلا تبرز إلى مأثم دقيق ولا جليل من نظر وكلام وغضب وسعي إلى ما لا يحل، وزنا وسرقة وما شاكل ذلك في ضمن امتثال الممتثل للصلاة على حقيقتها التنزه عن هذا كله، كما في أداء الزكاة الطهور منه، كذلك في امتثال بقية المباني، قال رسول الله ﷺ: **«كفى بالصلاة شغلًا»** [(٢)]، ومن قول السلف

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الجهاد والسير» (٢٩٩٣، ٢٩٩٤)، وأحمد (٣/ ٣٣٣)، والدارمي (٢٦٧٤) من حديث جابر رضي الله عنه بنحوه.

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٦٠١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظه، ورواه

رحمة الله عليهم: كفى بعبادة الله شغلًا، ومن أخذ نفسه بمقتضى قول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، شغله ذلك عما سواه.

والحج رأس في تقريب القرائب إلى الله ﷻ وأصل في القصد إليه في بيوته، والسعي بالمال والجوارح في ذلك، وحض على لزوم البذاذة في الهيئة وحد في ستر العورة على اختلاف ذلك كله مع حسن الاقتداء والتزام الأمر واجتناب المنهي عنه.

والزكاة رأس في الإنفاق على وجوهه واجبه ونفله، والصدقات كلها كالهبة والعارية والعرية والمنحة والسلف والتوسعة والتجاوز عن المعسر وإنظار الموسر وبذل المال في وجوهه والقول به هكذا كما قال رسول الله ﷺ هربًا من تبعات المال وتقربًا إلى الله ﷻ.

والصوم أصل في الإمساك كله، والزهد في المباح والحلال وتضييق مجاري الشيطان في الدم والإضرار بالشهوتين البصر والفرج على سنة الإسلام وحدود الشريعة، فهذا القول محصلًا في مباني الإسلام التي تتشعب عنها شعب الإسلام وبيانها على التفصيل في القرآن وحديث رسول الله ﷺ من استقرأهما وجد ذلك فيهما، والله ولي التوفيق يقول الحق: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

التعبد

أي أخي، إني أوصيك ونفسي بتقوى الله، وسلوك سبيل المريدين الذين أرادوا الله جل ذكره والدار الآخرة، ودع عنك أعمال البطالين الذين حادوا عن الطريق ورضوا لأنفسهم بغير ما خلقوا له، فعملوا في غير مرضاة مليكهم، واعتمدوا على إقامة شهوات أنفسهم، فإن الله قد قدر على قوم بالذنوب وموت نفوسهم بالغفلة وأشغلوا أنفسهم بأعمال أهل البطالة، وركبوا طريق الجهالة، فاهرب عن طريق الغفلة وخواطر اللهو، واندم على ما مضى من عمرك في غير طاعة ربك، وابك له، واعتذر إليه، مما أحدثته في حال الغفلة، واسأله الصفح عنك والعفو عن ذلك، ودُمْ على الصوم والصلاة، وأنفق مما رزقك الله، وجد في وجهتك، وأخلص فيها لربك عساك تدرك تقصيرك فيما مضى من عمرك بإصلاح، واترك الغيبة والكذب والفحشاء والمنكر،

=البخاري في «العمل في الصلاة» (١١٩٩، ١٢١٦)، وفي «مناقب الأنصار» (٣٨٧٥)، ومسلم في «المساجد» (٥٣٨) من حديث ابن مسعود ﵁ بلفظ: «إن في الصلاة شغلًا».

واستغفر الله من قليل ذلك وكثيره، وأكثر في ذكر الله والتسبيح يمح عنك بذلك ما سارعت فيه من السيئات حال البطالة والجهالات، وارغب إلى الله في العفو عن الذنوب السالفة إنه هو الغفور الرحيم والعفو الكريم، وداوم على الطاعة جهدك، واهرب عن المعاصي ومواطنها، وازهد في دار الفناء واطلب النعيم في دار البقاء فما عند الله خير وأبقى وتحبب إليه بحب عباده والنصيحة لهم وسلامة الصدر والدعاء لهم.

واعلم أن الصوم جُنة من النار وحصن من الآثام فتعلق به، واجعل الوحدة حصنًا لصومك، والقعود فيها قيدًا لرجلك وحياطة لحسناتك وزيادة في نيتك، فالوحدة أقرب إلى السلامة والراحة من مداراة الناس ومعالجة النفس، وأبلغ في وجود الصدق وهي السلامة لمن أراد السير إلى الله تعالى والدار الآخرة.

واطلب العلم وتحفظه جهدك، واعتمد في ذلك على طلب أنفعه، وهو العلم بالله جل ذكره والمعرفة به والعلم بآياته وأحكامه والوقوف على ما لابد منه من العلم بحلاله وحرامه، وثابر على تطلب حكمته في وحيه وصنعه، وإياك والقنوع بأول درجة من العلم ما استطعت، وارغب إلى الله في الفتح عليك والتسديد لما يحبه ويرضاه.

واعلم أن العلم هو سلاح المجاهدة ونور البصيرة في ظلم المشكلات، والأنس في الوحدة هو سمير الفكر وراحة الروح ومرتع الذهن وشرف العقل وموضع نظره، به يشرف على مطالع الدنيا والآخرة، فترى ما ليس يدرك بالحواس، وتبصر ما لا تقع عليه الأبصار وتعلم ما يعجز عنه الفكر ولا يتوهمه الذهن.

ولتعلم أن فيما بطن هواء باطنًا وروحانيًا فيه يظهر ما غاب، وهنالك يصل ما بعد، وإنما يكون ذلك بتوفيق الله جل ذكره وكريم هدايته عند ولوج الضمائر في بحار الأفكار، وخلوصها من ظلم المشكلات، وحنادس الغفلة في أثناء المشاهدات، فتصمت في حقه ضوضاء الوجودات، فيصل العقل بروح الإيمان إلى نسيم الهواء الواصل إلى الألباب من الأفق المبين، فينشرح القلب بالهواء الواصل إليه، ويمتلئ الصدر من نور ذلك الضياء فيشاهد ما يرى بصيرة وسماعًا وحسًا وحدسًا وإلهامًا، ويصل الروح والعقل إلى المطلوب الأعلى إيمانًا وإيقانًا، فما ظنكم بكريم فوائده وعظيم إكرامه.

فاعمل بهمتك يعل بك، وأزك قريحتك سددك الله تزك لك، وترق بهمتك صعدًا إلى

مكنون الضياء في الملكوت الأعلى حيث القدرة الغائبة عن الأبصار، فبالأفكار على ابتغاء مرضاة الله يصفو كدر الأخلاق، ومع الصفو يكون عيش الأرواح وعلى الإيمان، ومن رضي بأول العلم وظاهر من الأمر ولى ما تولى، ورضي له ما لنفسه يرضى، وربما حجبت عنه إصابة المصيب وبقي على كدره بغير تهذيب .

إن الأفكار لا تلحق غوامض الأسرار ما دامت في حجب الاغترار، فما تناهت الأهواء قط من معادنها، ولا قويت الهمم من مواطنها، ولا أبصرت غيوب عيون الآخرة من حجب غفلاتها إلا أن تنهض إلى العلا مهلة بالحج إلى ربها، فتتجرد من هواها وتتبرأ من أوصافها، وتلبس لها ثياب الخشوع، وتكثر إهمال الدموع، وتستشعر حال الفقر إلى مطلوبها العلي شاكلة الخنوع وتعظيم شعائره فيما هنالك، وتقف بالمناسك المشروعة لها، وتلقى تفث ضراوتها، وتعلن بالقصد إليه وحده ابتغاء فضله ورجاء مثوبته، فتجده قريبًا مجيبًا، ولربما تحركت الفطن إلى مراداتها، وحميت الأذهان من سجون هياكلها، فعاقها عدم الصفو وقلة اعتياد السفر، فرجعت الفطن إلى مستكناتها، وطفت شعل الأذهان في أماكنها فأصمتها ضوضاء المشاهدات، وشغلها هوى المحبوب عن ظواهر الموجودات .

فعليك يا أخي بتقوى الله تعالى والعزم على ما أمرت به، والمثابرة على ما فيه حظك واستقم كما أمرت، ولا تطغ ولا تبغ على أحد، وعليك بلين الجانب والنصيحة للمسلمين والحب لجماعتهم، واحتمال الأذى والتغافل عن زلل الإخوان، والدعاء لهم بظهر الغيب واترك مجالسة الناس دون ربهم تسلم وتغنم، وكف عن أعراض الصالحين، واترك الطعن على المذنبين، وكِلْهم إلى ربهم إنه كان بعباده بصيرًا، وبين سبيل ربك لمن جهلها، فإن قبل منك احمد الله وإن رد عليك قولك فاحمد الله، وفارق الغضب، واترك الحقد، واصفح عن إساءة الجاهل، وأقل أهل المروءة واستر العثرة، وأعظم العالم، وأكرم ذا الشيبة المسلم، وارحم الضعيف وواسِ الإخوان، وأقر الضيف، وأنفق مما رزقك الله، ولا تترك الحج ما استطعت إليه سبيلًا، ولا تداخل الأغنياء ولا تصحب أبناء الملوك وجالس الفقراء والمساكين، وانبذ الشعر إلا ما كان شعر الحكم، ولا تسهر بنفسك، والتزم الدخول في جماعة العامة، وإياك والعجلة في القول والفعل حتى تبصر كيف وقع الأمر، وكيف تكون عاقبته وابذل المجهود وناصح

الحق، وعليك بالدعاء في الأسحار وإتقان الفرائض، وعليك بالمحافظة على صلاة الأوابين في الضحى وعند الزوال وبين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء وجوف الليل، واركب طريق السلف الصالح، وانهض إلى ربك قدمًا على منهاج الإسلام فإنه يفضي بك إن شاء الله إلى دار السلام، واستقر مسالك مباني الإسلام في العالم وتعلم اليقين، وارغب إلى مالكك جل ذكره أن يعلمك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، أسأل الله لي ولك علمًا مرضيًا وعلمًا نافعًا، مقربًا إليه ﷻ وسبيلًا قاصدًا، وزادًا مبلغًا إلى مرضاته ومحل رضوانه بمنه ورحمته إنه قريب مجيب .

اسمه الأمين سبحانه وله الحمد

يقال منه: أمين آمنًا وأمانًا، والأمنة والأَمَنَة والأمانة نقيض الخيانة، ورجل أمان بمعنى أمين، يقال للرجل: فعال وفعيل تكثيرًا، وآمنت بالشيء صدقت به، والتأمين تفعيل من قولك: أمين، وقد تمد، وأصل ذلك كله من الأمن، من حيث كان الأمين مأمونًا بوائقه محمودًا في مواطن التجربة لاختبار بواطنه وظواهره، ومن ذلك قيل: ناقة أمون إذا كانت مشددة الأزب قوية الأعضاء جلدة مجربة، قال الشاعر يخاطب الأمين الحق ﷻ:

ما عاقني كره بوجه مساءة ... إلا اهتديت به إليك طريقًا

فامض القضاء على الرضا مني ... به وجدتك في البلاء رفيقًا

وتشبث الإيمان بالأمانة في اشتقاقهما لقرب معنيهما، كتشبثه في مبعثها ورجع إليها في أصل الاشتقاق، كرجوعه إليها في أصل المعنى يقول من ذلك: آمنت من كذا، أمن إليها، فأنا آمن وهو مأمون، والاسم الأمان، وأمنني أيضًا من كذا يؤمنني، فأنا آمن وهو مؤمن على مثال مُفْعِل، ويقول: أمنتني على كذا يؤمن تأمينًا، فأنا مؤتمن وأمين، وهو المؤتمن والاسم الأمانة، وأمنتني أيضًا على كذا فهو مؤمن على مثال مُفْعِل، ومؤتمن على مثال مفتعل .

قال الله تعالى فيما حكاه لنا عن نبيه يعقوب عليه السلام وابنه ﷺ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤]، وقال عنهم في موضع آخر: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف:١١]، ثم قال عنهم بعد وقوع الخيانة منهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]، أي بمؤتمن لنا على مثلها،

ولا مصدق لنا فيما نقوله بعد هذا.

واسم هذا كله الأمانة وحاملها القائم بها الأمين، كقولهم: فلان ذو قرابة فهو قريب، وذو شهادة فهو شهيد، وذو سلامة فهو سليم وأمثلته كثيرة، ويقول أيضًا: آمن بكذا، أي: دخلت به في الأمن، كما تقول: أتهمت بكذا، وأنجدت به، أي: دخلت تهامة ونجدًا، فأنا مؤمن كما تقول: فأنا منجد ومتهم، وتقول أيضًا: آمنت به، أي: أعطيت من نفسي الأمن وآمنت فأنا مؤمن، أي: معطي الأمن من نفسي، كما تقول: مُلبن ومنبل أي معطي اللبن والنبل، من أجل ذلك آمن، أي: ذو أمن، كما يقال: لائن ونابل وناصر، ومن هذا قول رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى تؤمن بوائقه**»(١)، وفي أخرى: «**حتى يأمن الناس بوائقه**»(٢)، وآمنت فأنا ذو إيمان، كقولهم: أنا ذو إتهام وإنجاد وإقبال وإدبار ونحو ذلك، والإيمان حقيقته من جهة التكليف فعل، إذ امتثال المكلف ما كلفه هو إدخال النفس والعقل وجملته فيما أوجبه الحق وقضى به العدل من التصديق باطنًا، والتحقيق بما جاء به من توابعه ظاهرًا، ألا تراه على وزن إفعال كإنجاد وإتهام وإقبال وإدبار وإدخال ونحو هذا.

وأما حقيقته من حيث هو فإعلاؤه هو من صفات الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه ليس بمحدث ولا مربوب وجود منه، وفضل محدث هو صفة للعبد مربوب حال في قلب المؤمن يهبه الإيمان الذي ليس بمخلوق، تصديق الرب نفسه بنفسه لنفسه، إذ من أسمائه المؤمن، فمن صفاته الإيمان وجود منه، وفضل محدث هو صفة للعبد مربوب حال قلب المؤمن يهبه الله لمن يشاء من عباده، يكون وجوده في العبد نورًا يضيء به باطنه، وروحًا يُحيي به جملته، محدث مربوب واسم المؤمن هو من أسماء الأمن، لأن الأمين حمل أمرًا هي الأمانة، فتحققت بالإيمان فسمي بذلك أمينًا مبالغة لاستغراق وصفه جميع معاني الإيمان، وتحقق وصف الإيمان به ولذلك بولغ فيه ببناء فعيل، فسمي ذو الأمانة أمينًا، ولم يبالغ كذلك في تسمية حامل الإيمان بل سمي بصفة فعله، فقيل:

(١، ٢) الحديث رواه أحمد (١/ ٣٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (٥٥٢٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «لا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» وضعفه الشيخ شاكر على المسند، ورواه البخاري في «الأدب» (٦٠١٦)، ومسلم في «الإيمان» (٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**».

هو مؤمن كما قيل في داخل تهامة: هو متهم .

والإيمان إذا كان كاملًا بشروطه كان أداء الأمانة، فالأمانة فينا إذا باطن الإيمان كما الإيمان باطن الإسلام، وكما الإسلام باطن العمل، ومن تدبر ما ذكرنا بفراغ من قلبه وقف على صحة ما قلناه، ولذلك كان رسول الله ﷺ قل ما تُخلى خطبته من أن يقول فيها: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**» [(١)]، ألا ترى حديثه المشهور الذي يرويه عنه حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال**» [(٢)]، فأعلمكم نصًا صريحًا أن الأمانة ركبت في سنح الجبلة المتشبث بأصل الخلقة .

كما أن المعرفة فطرت عليها العقول في أخذ الميثاق وقضاء القضية، لما أخرجهم من موجود علمه بهم وقدرته ومشيئته فيهم إلى وجودهم بصنعة إياهم أوجد فيهم ما أخرجهم عنه، وفطرهم على ما منه كان بدؤهم آية ذلك الماء ينزله من السماء إلى الأرض فيخرج به نبات كل شيء، وثمرات كل شيء ﴿جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام:١٤١]، وإنما فتح به من رحمته التي هي الجنة، وكان عنه شبه ما عنه أنزل، ألا ترى أن الإسلام فيهم أيضًا صبغة مركبة في الإنشاء الأول مع تركيب الأمشاج وتخمير الطينة، ذلك لأنه السلام المؤمن ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠] .

فهم أبدًا يتذكرون ما قد نسوه من علمهم يومئذٍ، لذلك يقول أبدًا: لعلكم تتذكرون، لعلهم يتفكرون ويعقلون، أعقب قوله الحق: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]، أي: هذا النبأ العظيم طال الإعراض عنه فاتصل النسيان، ثم قال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم:٣١]، ووصف الوجود على ما هو عليه، فكل ما خلق من شيء منيب إليه، وإنما ذهب بأكثر المكلفين عن علم حقيقته، وجودهم ضلالهم عن مقاصدهم بواسطة الشياطين اجتالتهم عن دينهم، فهذه صبغة

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٥) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٤٨، ٨٤٩)، وابن حبان (١٩٤- إحسان) و(٤٧- موارد)، والبيهقي في «الكبرى» (١٢٦٩٠)، وفي «الشعب» (٤٣٥٤) من حديث أنس ﷺ وسنده حسن .

(٢) الحديث رواه البخاري في «الرقاق» (٦٤٩٧)، ومسلم في «الإيمان» (١٤٣) من حديث حذيفة ﷺ .

الله جل ذكره ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨]، إن شاء الله على ذلك، وهو المستعان، ولا قوة ولا هداية إلا به.

قال الله ﷻ منبهًا على هذا الغرض: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢]، هنا محذوف لما قالوا: بلى، أشهدهم على أنفسهم ذلك قالوا: أشهدنا ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١، ٨٢]، أي: قد خرج عما تقدم ذكره من ولاية الإيمان، وحفظًا للأمانة التي اؤتمن عليها، فالإيمان خاص ونزول الأمانة في جذر القلوب، وفطر الجبلة على الإسلام، وغرز المعرفة في الذوات عام، فافهم.

ثم أخذها ولاء بيمينه وهم أهل الإيمان الذين قد شاء في تقديره الأول هدايتهم إليه، ومن قد سبق في تقديره إضلالهم أخذهم في يده الأخرى، وكلتا يديه يمين مباركة، فالأمانة من قبيل المعرفة وهي تمدها، والإيمان من قبيل العلم، وهو يمده وبهما يضيء موضع الأمانة والمعرفة، ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة**»[(١)]، فأنبأك أن الإيمان تستجلب مواده بالعلم، وأن الأمانة بالإيمان والعلم يتحقق، وإنما هي شجرة تميزت أفنانها عن أصل متوحد بكل ما ظهر عنه مبعثه، متصل بخزائن الغيب.

وجاء التأمين على ضربين من البناء أحدهما: بالمد، والآخر: بالقصر، وهما لغتان مشهورتان، المفهوم الأول منهما الأشهر: التصديق، ثم الدعاء والنداء، فالمد إثبات لحرف النداء، والقصر إسقاط له اختصارًا، وربما كان المد توجيهًا بالكلمة إلى اسم الإيمان، وهو التصديق والصدق هنا وإعطاء الأمن من نفس قائلها، وفي الكتب الأول التي تذكر أنها الإنجيل والزبور أمين أقول لكم أنه يكون كذا وكذا أمين أقول كذا يعبر بذلك عن الصدق فيما قاله وربما كان القصر إلى اسم الأمين، وربما كانا معًا على معنى واحد، ومقتضى الكلمة في قول المصلي عند فراغ الإمام من قراءة أم القرآن: آمين، راجع إلى قوله جل ذكره عند قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، «**هذه**

---

(١) هو الحديث السابق.

لعبدي ولعبدي ما سأل»[1]، ثم يسأل ربه جل ذكره بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، يعني: أهل الكتاب والذين اجتالتهم الشياطين عن دينهم فأضلوهم عن سواء السبيل، فيقول العبد: آمين رجوعًا بها إلى قول الله جل ذكره: «**هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل**»[2]، فكأنه قال لربه جل جلاله: «اللهم أنجز لي ما وعدتني»، ووجه آخر أن يكون رجوعه بقوله: آمين، إلى تصديق قول الله جل ذكره: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢ـ ٤]، مع ما في قوله الحق: «**فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل**»[3]، فيكون معنى قوله: آمين، صدقت، وآمنت من خلف في وعد أو نقض في عهد، فتكون مركبة من المعنيين، والله أعلم بما يوحي إلى عبده ورسوله وينزل عليه، وكثير جاء مثل هذا الخطاب في القرآن العزيز كون الكلمة لها وجه لمعنى ووجه آخر لمعنى، كالخطاب تكون جملته موجهة لمعنى آخر فاعلم ذلك.

اعتباره

قد تقدم أن الأمانة معنى باطن وهو في المخلوق صفة يتصف بها باطنه المسمى بالعبد، وتمام النعمة على هذا العبد أن يشفع أمانته بالإيمان، فإذا فعل ذلك به وإلاه الأمين المؤمن الأعلى ونظر إليه، وكان منه أن وافى ذلك منعمًا عليه، وعلامة على أنه كان يوم أخذ الميثاق في قبضة اليمين، وهذا العبد هو المؤتمن على ما ائتمنه عليه الأمين الحق، وهو المخاطب في الجملة، والمتبوع من المخلوق، والحاكم عليه، والإمام المشار إليه منه، وهو خليفة الله على الجملة التي جعلها محلًا له، وهو في الجملة التي حمد عليه حامدها، وحمد عن النهوض إلى إظهاره مصامدها، ونبت به نابتها، وظهر في حيوانها، ثم استعلن منها في الإنسان، وكمل في أهل الإيمان، وتحقق في أهل النبوة إذا كانت الشواهد من المصنوعات.

والآيات على المخلوقات منها خفية ومنها بينة، وكانت المكونات في أنفسهم لمن انقباض وانبساط وجلاء وخفاء وتفاوت أوصاف لا تنحصر، بالإضافة إلى أوهام

---

(١) الحديث رواه مسلم في «الصلاة» (٣٩٥)، والترمذي في «التفسير» (٢٩٥٣)، وأحمد (٢/ ٤٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢، ٣) هو الحديث السابق.

المعتبرين وإنما ذلك على قدر الحظ من ذلك المشار إليه، والأنجاس منه، ثم رؤيتها والوقوف على معرفتها على مقادير نفاذ البصائر وكمال القرائح، وإنما يكشف هذا على الكمال في الدار الآخرة لنشء الدنيا إلى الآخرة، ويقف عليها بالمشاهدة الأنبياء والمرسلون والصديقون، من ذلك حظ مقسوم ومقام من الله معلوم، وعلى مقدار الحظ من الخصوصية والتوفيق من الله والتأييد فهو الذي يشهد في المصنوعات لصانعها ما يجب له، وعلى أنفسنا بما هي له أهل، وبه تسبحه وتقدسه وتكبره وتهلله في محال كماله، هو الشاهد والمشهود عنده بوجه، وهو الذي يبصر ويسمع ويعلم على قدر كماله ورفعته في درجاته، وهو المكرم بأمانته المتولي من أجل طاعته ومعرفته، والمهان من أجل خيانته وفسقه عن أمر ربه، فافهم فهمنا الله وإياك عنه.

ثم المطلوب من هذا العبد والمراد منه في أداء الأمانة هو: ألا يجعل هذا المشار إليه مأمومًا، فيؤمه الحزب الأدنى إلى دناءته، بل يكون إمامًا للحزب الأفضل، وهو الإمام المجعول بتولية الله جل جلاله إياه، ولا تجعله محكومًا عليه وهو الحاكم الوالي، ولا تابعًا وهو المتبوع، ومتى فعل ذلك فقد ظلم نفسه وخان أمانته، وأخلد إلى أرضه واتبع هواه ونكس على رأسه، وهو متى فعل في هذا المذكور المشار إليه بما أمر به إيمانًا واحتسابًا على الله جل ذكره، كان بذلك مؤمنًا، أي: مدخلًا نفسه في الأمن، وقد أدى أمانة ربه تبارك وتعالى، فكان بذلك مأمونًا بوائقه.

وكذلك يدخل في اليمين البركة فيكون ميمون النفس عظيم البركة حسن العلانية والسريرة، إذ حققه ذلك في قبضة اليمين فيسره لليسرى، وصارت بذلك جهة اليمين في هذا العبد ظاهرة غالبة، وهي الحاكمة على جهة الشمال منه، فيومئذٍ أفاض الله جل جلاله عليه من بركته ويمنه تذكر بالله سبحانه رؤيته، ويعظ الغافلين صمته، ويزيد في العمل والإيمان منطقه ذلك ميراث الصدق في أداء أمانة ربه ﷻ بمثله يرفع الله البلاء وينصر على الأعداء، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، فهذا عام في كل شيء، هو في الأرض، وهو أكبر في السماء منه في الأرض.

والغرض الأول المشار إليه به هو آدم عليه السلام، إذ هو المشار إليه وبنوه في الأرض، ثم بآخره ما سواه، ولما قالت الملائكة عليهم السلام طلبًا منه علم ما به أنبأهم: ﴿أَتَجْعَلُ

فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، أي: بما أخلقه، وكيف ويكون خلقه بما لا تعلمون، وكان سبق إليهم - على جميعهم السلام - ما هو طريقة الفساد، وكان الذي كان في علمه هو ﷻ ما استعلن في المؤمنين والأنبياء والمرسلين والأئمة الراشدين، ثم في جميع ما خلقه من شيء، ويتضح هذا على قراءة من قرأ: «إني جاعل في الأرض خليقة» بالقاف وقد تقدم إيماء إنباء إلى هذا المعنى في سورة البقرة، يشرف باللبيب إلى سواء القصد إن شاء الله تعالى.

والأمانة قد تكون الشيء المؤتمن عليه، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب:٧٢]، المعنى وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، ويقال لفعل الأمين الأمانة لحفظه المؤتمن عليه تجوزًا واتساعًا، قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له» (١)، وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، يقول وهو أعلم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، ميثاقهم أو الميثاق ونحو هذا، وهو محذوف مقدر يتعلق به قوله: أخذ، والميثاق مأخوذ على حفظ الأمانة وأدائها إلى ربها المؤتمن عليها أن ترد إليه ظاهرة صادقة على نحو أوليتها، والميثاق هو الارتباط إلى الحق بروبه الإجلال، وتلك شهادة مشاهدة وحضور يقين، فمن ركب هذا الطريق وشاهد حظ نفسه من ذلك الحظ المستودع فيه المؤتمن عليه تبينت له السبيل، وشهد بقلبه ذلك اليقين، فقرب شاهده عن غائبه، وعاد الغيب عنده حضورًا ومشاهدة.

ومن هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢]، وهي أن تخرج أفعالها على معاني اليمين من كلتا الجهتين، وقد جبلها على معاني اليمين والشمال معًا، وجعل لها هوى في المذموم والمنهي عنه، ولها إن وفت ثواب وعليها إن لم تف عقاب، فنظرت إلى العقاب قبل نظرها إلى الثواب، وسبقت إليها من أجل ذلك الرهبة قبل الرغبة، فزهدت في الثواب جزعًا من الوقوع في العذاب، وأبت من تحملها دون ضمان العصمة والمعونة، وأشفقت من مواقعة التشبه بالربوبية في ادعاء الحول والقوة؛

(١) سبق في نفس الباب.

لأنه من لم تخرج أفعاله على حكم اليمين مع تحمل الأمانة اقتحم الجرأة على ادعاء صفات الربوبية بغير حق، فكان بذلك ظالمًا لنفسه جاهلًا بقدره، فقالتا وما فيهما وما بينهما: أتينا طائعين مستسلمين لك عابدين بك .

وأما الإنسان فحين عرضت الأمانة عليه سبق نظره إلى الثواب قبل نظره إلى العقاب فأسرعت إليه الرغبة في الثواب قبل الرهبة، وحمله الحرص على منال الثواب، وأقدمه الجهل على ادعاء الوفاء مغمضًا على موضع الخوف، فقال الله ﷻ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] .

فصل

اعلم أن الإنسان بما هو إنسان ظلوم جهول، فإذا أدخل الله عليه روح الإيمان فاسم المؤمن أولى به كالمهاجرين والأنصار، ألا ترى أن المهاجرين كانوا أنصارًا لكن كان اسم الهجرة أولى بهم، إذ النصرة منطوية في هجرتهم، وإنما سمى الله جل ذكره عباده بأرفع أسمائهم، كذلك المؤمن وإن كان إنسانًا في خلقته فقد أربى على الإنسانية بحلية الإيمان، ولم يذكر الله جل جلاله الإنسان في موضع من كتابه إلا ذمه ونسبه إلى أصل خلقته، وما ذكر المؤمن إلا أبانه عن الإنسانية بأحسن الصفات وأرفع الرتب، قال الله ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩ـ ٢١]، ثم قال عز من قائل: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:٢٢]، ثم استمر على وصفهم بأحسن وصف قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود:٩ـ١١]، وغير ذلك في القرآن كثير يقف عليه بكثرة التدبر وطول الاستقراء .

واعلم أن المؤتمن لا يصل إلى العصمة التي جبلت عليها السماوات والأرض وما بينهما إلا بالتبرؤ من الحول والقوة والقدرة وصحة الاستسلام وصدق اللجوء إلى الله، فبذلك تدركه من ربه المعونة، وتحتوشه العصمة، وتُقبل معذرته ويُرحم ضعفه، والأمانة منبعث المعاملة، كما الإيمان منبعث العلم، كما الإسلام منبعث العمل .

وتحتوش الأمانة سبعة معان إليها تنزم أنواع المعاملة أجمعها وهي: الفطرة، والميثاق والعهد، والمحنة، والخلافة، والإمامة، والخلة .

ففي معرفة الأمانة معرفة الصدق كله والعدل.

وفي معرفة الفطرة معرفة الوصل الأعلى ومنبعث الوسيلة واتصال الإل بالخلق المخلوق به السماوات والأرض.

وفي معرفة الميثاق معرفة عظم قدر الارتباط برؤية الإجلال عند إنشاء النشأة وإظهار الفطرة وتركيب أركان الجبلة.

وفي معرفة التقدم في العهد والتوصية والإقرار على النفس بشاهد العبودية، وأخذ الميثاق عليها بذلك، وهو منبعث التبرؤ عن شاكلة الربوبية إلى الإله الحق جل جلاله بخالصة الوحدانية.

وفي معرفة المحنة معرفة الحكم كله والعدل الذي بين الله وبين عباده ومعرفة الأمر والنهي، وأن ذلك كله متصل بالعدل الذي استأثر الله به جل ذكره في أحديته ومواضع ذلك أجمعه.

وفي معرفة الخلافة معرفة الاستعمال والاصطناع وعظم قدر ذلك وموقفه، وفي معرفة الإمامة معرفة جميع معاني الخصوصية، وكيف نشأ الأمر في حكم الإمامة والائتمام إلى الإمام الأكبر، كما قال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

وفي معرفة الخلة معرفة الاتصال الأعلى والاختصاص الأكبر وما جرى إلى ذلك، وفي معرفة هذه الجملة معرفة التسخير من التيسير من التكليف من التكييف، وكيف الإطلاق مع الإثبات، وفي معرفة ذلك معرفة عدل الحكمة معرفة صفة الابتلاء، وعوارضه، وينجز مع معرفة براهين النبيين ومعرفة فرقان حقائق المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - من تخاريف أباطيل المبطلين، ومعرفة قدر ما بين كرامات الأولياء من معجزات الأنبياء، والفرق بين ذلك وبين دعاوى أهل الجهالات وأباطيل الدعوى من المدعين، ويبين لك مع ذلك تحقيق شرائع الشارعين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بالقسط الموضوع للمكلفين، وأنه هو الحكمة وأنه الصلاح كله.

وفي ذلك كله معرفة المكروه والمحبوب، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والأمر والنهي الواجب عنهما الجزاء العاجل والآجل في الدنيا والآخرة جزاءً وفاقًا، وهذا كله تتعرفه في أمر القرآن مجملًا، ثم هو في سورة البقرة أشرح من ذلك، ثم في سائر القرآن أشرح وأوضح جدًّا وأبسط، ثم من معرفة الوجود، أعني: العالم، يتصل

لك العلم بالمشاهدة، فعليك باستقراء ذلك في مظانه تتبعه في سبل مسالكه.

واعلم - وفقنا الله وإياك - أن كتاب ربك جل ذكره هو الغاية القصوى، ثم حديث رسول الله ﷺ، هما المرشدان لمن استرشدهما بتعريف وتعليم، ففيهما إلهام وحي إلى قلوب الطالبين له يتجدد من حيث هما مهد الوحي، وعنه وجد، لن يعدم ذلك عندهما طالبه وقد انقطع وحي المشافهة وبقي الآن وحي الإلهام، قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى له»[1].

كما أن من تعرف بدائع العلم وتصفح عجائب الملكوت حكمة واصلة إلى قلوب طالبيها منه لا تبيد، وعلمًا مترادفًا أبدًا موجودًا لمن طلب ذلك عندها واسترشدها إلى معرفة حكمة الله جل ذكره، إذ العالم عن حكمته جل وتعالى وجدوا للدلالة عليه جعل، فهو معدن لذلك من حيث رجوع الأشياء إلى أوائلها ودلالتها على جاعلها، فلن يعدم الإلهام، والحكمة من هذين الوجودين ما دامت السماوات والأرض، وإنما تصد عن ذلك الغفلة وتحجب عنه المرح واللهو والتشاغل عنهما بغير ما وجدا له، فعظمت من أجل ذلك البلدة واستولت على القلوب القسوة، يقول الله جل من قائل: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:٢، ٣]، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، ثم قال: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥]، وإنما شرط الله ﷻ الفهم عنه والعقل والعلم والفقه للمتفكرين والمتذكرين والمتوسمين والمؤمنين، وإنما يقوى الإيمان ويستنير الفكر بالنظر والتدبر وتدأب ذلك والمداومة عليه.

فأعمل هداك الله فكرك، واستعن بالله جل ذكره يعنك، واستفتح بابه يفتحه لك، إنه قريب مجيب، ولا يبعدن عليك فما هو إلا أن تقصده بجد من عزمك ونية صادقة من ذاتك، ثم تداوم المواظبة على لزوم الباب وتكثر من القرع، فتح لك بفتح من لدنه إنه هو الفتاح العليم.

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (٢٥٩١)، والحاكم (١/ ٥٥٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

التعبد

فاحرص - وفقك الله - كل الحرص على ما فيه حظك، وخذ لنفسك بالوثيقة وانصح لها جهدك، فمتى لم تنصحها لم تجد بعدك من ينصحها لك، وعليك بلزوم التقوى فهو أصل وأس لكل خير، ولذلك أكثر جل جلاله من التوصية به وعم بتوصيته تلك جميع العباد، وبالتقوى تُؤدى الأمانات ويُوفى بالعهود وتُحفظ المواثيق وتُصلح المعاملات، وبها ينال النور في القلب، ويدال الفرج من الكرب، واليسير من العسير، وقد حذر رسول الله ﷺ من ذهاب الأمانة بالغفلة عن التقوى فتضيع من أجل ذلك فروع الأمانات، ويرضى دونها بضروب الخيانات بقوله ﷺ: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة**»[(١)]، فقال ﷺ: «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا وليس فيه شيء**»، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصى قد دحرجه على رجله فقال: «**فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا حتى يقال للرجل: ما أجلده ما أظرفه ما أعقله، وليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**»[(٢)]، تصديقًا لقوله ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[(٣)].

والنوم المذكور في هذا الحديث هو نوم الغفلة عن رعاية عهد ربه ﷻ والمحافظة على ذلك، لأن ذلك ينزله إلى شهوات نفسه، ويخلده إلى أرضه، فيترك لذلك التيقظ لحظه، كما قال ﷻ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، وذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال: «**لا ينجو منها إلا كل مؤمن نومة، فقال: نومة عن خوض الناس في الأباطيل والفتن وأخذهم فيما يؤدي إلى الهرج**»[(٤)].

كما قال أبو صدقة اليماني: يوشك أن يأتي على الناس زمان يمقت فيه الفقهاء، ويكثر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الحديث رواه البخاري في «الرقاق» (٦٤٩٧)، ومسلم في «الإيمان» (١٤٣) من حديث حذيفة ﷺ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) لم أجده.

فيه السفهاء، ويكثر فيه أولاد الزنا، فمن أدرك ذلك الزمان فاستطاع أن يتخذ عنزًا شعرًا وأنيقًا حمرًا ينزل بواد معترض على غير طريق، فطوبى لذلك عبد راعي غنم على جنب علم يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، يعرفه الله بصلاته، ولا يعرفه الناس باسمه، فهذا هو الرجل النومة هنا .

ثم ضرب رسول الله ﷺ مثلًا كيف تعرض الفتن على القلوب في آخر الزمان، وهو زماننا هذا والله أعلم فقال: **«تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها فنكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير الناس على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه»** [(١)] .

فأنبأ صلوات الله وسلامه عليه بتتابع الفتن، وكيف يخلف بعضها بعضًا، تزول فتنة وتخلفها أخرى، والذكر بينهما خفي بمقدار الفصل بين الجسمين في الحصير، وأتى بالسلامة للمؤمن على هذا، وإنما تركت الحصير عن أجسامه المؤلفة فكذلك ذلك الزمان المشار إليه جملته فتن والذكر بينهما خفي غير متبين، والفتنة تستشرف من استشرف إليها، وهي المقصودة بالجعل في دار البلوى، وهي الداخلة على العافية أولًا .

وكان يقال: أول ما يرفع عن الناس الألفة، فإذا كان ذلك فخير أولادهم البنات، وخير نسائهم العقر، وخير دوابهم الحمير، ويومئذٍ لا يستكمل أحد الإيمان حتى يكون ألا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرة الشيء، وأن يتعلم، وأن يعتزل، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ له حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر، وكان غامضًا في الناس لا يشار إليه بالأصابع، وكان عيشه كفافًا، فصبر على ذلك، ثم عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه»** [(٢)]، نعوذ بالله من مضلات الفتن .

ونعم صومعة الرجل بيته يومئذٍ، أو سلاح صالح وفرس صالح يزول به حيث

---

(١) رواه مسلم في «الإيمان» (١٤٤)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٠٨) من حديث حذيفة رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٥٢، ٢٥٥)، والترمذي في «الزهد» (٢٣٤٧)، وابن ماجه في «الزهد» (٤١١٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وضعفه الألباني في «سنن الترمذي وابن ماجه» .

زال، وروي عنه ﷺ أنه قال: «يأتي على الناس زمان المؤمن فيه كالأمة، أكيسهم نبه الذي يروغ بدينه روغان الثعلب»[(١)]، وفي أخرى: «يأتي على الناس زمان المؤمن فيهم أنتن من جيفة حمار»[(٢)].

فليتق الله العبد، وليعرف نفسه وعمله باطن ذلك وظاهره، وليعرف زمانه وأهل وقته وجيرانه وسلطانه وليعمل على ذلك، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اسمه المؤمن جل ذكره

قد استغرق رسم الأمانة الكلام في اسم الإيمان بأكثر الجهات والمعاني، غير أن علم خاصة الإيمان من الإسلام يجري على مجرى معرفة النية من العمل، والعقد من القول، والقلب من الجوارح، واللب من العقل، والكلمة من السنة، والأمر من الخلق، وهذا القدر من الإيماء يكفي إن شاء الله، غير أنه لا يجاوزه في داره دار الأمان والإسلام، إلا من اتصف باسم الأمانة والإيمان والإسلام، وكفى بهذه الإشارة إلى المراد قدرًا، ثم يتوجه القول في إيمان المؤمن الحق إلى أنه آمن بنفسه جل جلاله وبأسمائه وصفاته وبما هو عليه، ولما كان المعهود أن إيمان كل مؤمن بقدر عمله كان إيمانه ليس كمثله إيمان، هو المؤمن الأعلى والعلام العليم، ويكون أيضًا المؤمن بأنه: أمن العباد منه البوائق، إنما يخافون بوائق أنفسهم.

اسمه المهيمن عز جلاله

قيل: هو بمعنى الشهيد، وقيل: بمعنى الرقيب، وقيل: بمعنى الأمين والمؤتمن، وقيل: بمعنى المؤيمن فقلبت الهمزة هاء كما فعلوا في أرقت وهرقت، وإياك وهياك، ولو كان كذلك لكانت الياء للتصغير، وهذا مذهب مرغوب عنه ؛ لأن أسماء الله جل ذكره لا يطرقها التصغير ولا ما هذا سبيله، وإن كان قد جاء في لسان العرب ومعهود المتعارف التصغير لفظًا، والمراد به التعظيم كقول الشاعر:

دُوَيهية تصفرُّ منها الأنامل

وقال آخر:

إذا عــذلوا فيهــا أجبــت بأنــة ... حبيبتــا قلبــا فــؤادًا هيــا جمل

---

(١) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (٥٠١)، وابن المبارك (٣٢٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وسنده صحيح.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨١) عن مكحول رضي الله عنه بلفظ: «عالمهم» بدلًا من «المؤمن».

فهذا وإن كان كما قالوا فإنه لا يجوز إلا فيما قد يطرقه التصغير يومًا ما أو على حال ما، فإذا عظموه وأحبوه صغروه باللفظ، إشارة منهم إلى لطف موقع هذا المذكور من القلب ولصوقه بما هنالك، أو عبارة عن إعظام قدره، أي: هذا الصغير القدر عندكم وفي نفوسكم من شأنه، كذا يخاطب المخالفين له فيه المعتقدين فيه غير معتقده.

وأما أسماء الله جل جلاله فلا يجوز عليها ذلك قطعًا، بل قد ملأ ذكره القلوب ونواحي التفكر به، وقيل: هو بمعنى العلاء، ووصف نعوت التعالي، وهذا الوجه ـ والله أعلم ـ هو جماع معاني ما جاء فيه هذا الاسم، ومن ذلك قول العباس ﷺ في رسول الله ﷺ:

مـن قبلِهـا طبـتَ في الظـلالِ وفي ... مـستودَعٍ يَـوْمَ يُخْـصَفُ الـورَقُ

ثـمَّ سَـكَنتَ الـبلادَ لا بـشَرٌ ... أنـت ولا نطفـة ولا عَلَـقُ

مطهـرٌ تركـبُ الـسفينَ وقـد ... ألجـمَ نـسْراً وأهلـه الغَـرَقُ

تُنقـل مـن صـالبٍ إلى رَحِـمٍ ... إذا مـضى علـمٌ بـدا طبَـقُ

حتَّـى اسـتوى بيتـكَ المهـيمنُ ... مـن خِنْـدق علياء تحتَها النُّطـقُ

وجاء هذا الاسم فرد البناء غير متصرف، ولا مستعمل ماضيه ولا مستقبله، ياؤه كياء مسيطر يقال منه: سيطر وتسيطر وهو يسيطر ويتسيطر سيطرة وتسيطرًا فهو مسيطر ومتسيطر، ولا يقال: هيمن يهيمن هينمة، لم يأت مستعملًا فيما علمناه، بل في المهمل المذكور إهماله، فالله أعلم، فأخرجوه عن الاستعمال ودخوله في غريب الأفراد اشتمل على معانٍ كثيرة وعجائب جمة، كاسمه القدوس والسبوح، اللذين دلا بغرابة بنائهما على قربهما من تقديسه نفسه وتسبيحه، وحروفه بأطباعها تدل على ما ذكرنا وتشير إلى ما إليه المعنى تقريبًا وتذكيرًا.

فالهاء حرف جوفي هوائي من حروف النفس، وهو أعرف وصفًا في ذلك من حرف الهمزة، والياء أصلها الألف المطلقة، أسكنت عنها لاتصالها بالظاهر وعملها فيه، وهي من حروف الروح، والميم والنون حرفان راجعان من حروف العقل، وتدل على ذلك استقراء وما في مظانها، من ذلك قولهم: الهيف للريح الباردة، والريح اليابسة ذات السموم المعطشة الميبسة، وهي الهفوف إذا كانت قوية في هبوبها، والواو والياء وجدا

معًا عن الألف المرسلة التي أرسلتها المخارج عن الحروف مطلقة، وعنها كانت الحروف كلها، والكلام بأجمعه إنما هو صوت مديد تقطعه المخارج على أطباعها، فإن انخفض الصوت حدثت بعده الياء، وإن ارتفع حدثت الواو، ويقال: هو رجل مهياب وهيوب: لا يصبر على الماء، والهيام شدة العطش، وإبل هيم: عطاش لا يرويها الماء، قال الله جل جلاله: ﴿فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة:٥٥]، وذلك أنه إذا كان العطش والجوع خاصًا بالباطن لا يشبعه الطعام ولا يغنيه ولا يرويه الماء إنما يروي الشراب ويشبع الطعام، الجوع والعطش الجسمانيين، كذلك قال الله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:٥ـ ٧]، وهو مفهوم من قول رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»[١].

ثم نرجع إلى ما بدأنا به، ويقال: هام فلان إذا تحير يهيم فهو هيمان، فظهرت النون في اسم الهائم كظهورها في بناء فعلان من العطش والغضب، والهيام كالجنون وهو المهيوم، أي: المجنون، والهيوم أيضًا أن يذهب الرجل على وجهه إذا تحير وانسدت عليه مذاهبه فهام على وجهه هيومًا، والهيمان أيضًا العطشان، والهيماء مفازة لا ماء فيها، وهذه كلها أدواء تصيب الباطن، فدل بهذه الدلالات أنه باطن لاسم المؤمن كما أن المؤمن باطن لاسم السلام، ألا تراه في الوجود الشهيد والرقيب والحفيظ والأمين لا يستحق مجاز هذه الأسماء إلا العلية من أهل الإيمان، وأهل الرفعة في الدرجات، فالشهداء والمؤمنون هم الرسل عليهم السلام وأهل العدالة من أتباعهم والأمين جبريل عليه السلام.

اعتباره

قد كان المؤمن من قبل أن ينفخ فيه روح الحياة مواتًا، فلما نفخ فيه الروح صار حيًا بحياة جسمانية، فلم يزل ينشأ من ضعف إلى قوة لا يزيد على درجة الحياة الجسمانية مرتقيًا بها في درجات الإنسانية، حتى إذا أيد بالروح ـ روح الإيمان ـ أبصر باطنه بعد العمى، وسمع من بعد الصمم، وتكلم من بعد البكم، ثم كذلك ينشأ في درجات الإيمان حتى تتدارك حواسه الباطنة إلى الشم والذوق والفراسة، هكذا تتزايد الحياة

(١) رواه البخاري في «الرقاق» (٦٤٤٦)، ومسلم في «الزكاة» (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

العلياء في درجات العلم، وفي أثناء ذلك يستقر العلم في مستقراته، فيصير يقينًا ثم ينزل عليه الفرقان بنور البيان، فيفرق بذلك بين المشتبهات ويمشي بنور إيمانه في الظلمات، بمثل ضياء الشمس الضاحية في الأهوية الصافية، ثم حينئذٍ يكمل تصديقه بما لم تره عيناه ويتحقق له إيمانه بما لم تسمعه أذناه، لأنه عن شهادة باطنة يشهد، وتلك درجة الصديقين، وربما ألقى في روعه وكلم وحيًا إلى سره، فإن كان مرادًا بالكمال المعهود لابن آدم ناطقه روح القدس بالحق، وتنزلت عليه الملائكة بالروح من أمر ربه بالصدق، ثم أيد بروح القدرة فخرقت له العادات وظهرت على يديه أنواع المعجزات، هذا كمال ابن آدم في الدنيا، وهي خاصة للأنبياء، وقد انقطع هذا أصلًا ولا مطمع فيه، أعني: الكمال المعهود، ثم يبعثه الآخر فينشئه، إذ ذلك خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين .

فيكون يومئذٍ أول درجات الإيمان أن يرى أحد ربه ﷻ على العيان، ويكلمه رب العزة ليس بينه وبينه ترجمان، ويحيا فلا يموت، ويقول للشيء يشاؤه: كن فيكون، ويجمع له ربه جل جلاله بأول نظرة تنظر إلى وجهه الكريم، وبأول كلمة يكلمه بكلامه الودود العظيم كل نعيم أوجدهم إياه في تلك الدار، ثم يستزيدهم ثانية فيرونه أيضًا على ما هو به أيضًا من حقائق جلاله ونعوت تعاليه، ثم يعجبهم وينعمهم هكذا أبد الآبدين، ودهر الداهرين، لا يبدو لهم برأي واحد مرتين، ولا يكلمهم في معنى واحد بكلمتين، ثم يصعد ذلك في درجات النشوء إلى أهل العلية من الصديقين والشهداء والعلماء والصالحين والنبيين والمرسلين وأحبته وأهل خلته كما صعد وأقبل في درجات الإيمان، والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا، وهذا أحد المعلومين من مفهوم قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر:١٥] .

وأما هو جلّ جلاله فإنه يتعالى في كبريائه، ويتكبر في عليائه، ويتعاظم في جبروته ويتجبر في شأنه، ويتعزز في نعوت جلاله، وتبارك في معالي أسمائه وصفاته، لا يكسبه ذلك منه وصفًا لم يكن له قبل في قديم كانه وجليل تعاليه وشأنه، كما لا يكسب علمه بوقوع أفعال العباد ومشاهدته إياها علمًا ومشاهدة لم يكن له قبل في أزل أزله ذلك في مفهوم قوله جل جلاله تبارك وتعالى وتكبر، وما كان من هذا الباب .

جل المهيمن عن صفات عبيده	ولقد تعالى عن عقول أولي النهى
راموا بوصفهم صفات مليكهم	والوصف يعجز عن مليك لا يرى

فخاصة اسم المهيمن الحق جل جلاله - والله أعلم - المبالغة والعلو على كل اسم تسمى به العباد معاني مجاز حقيقة أسمائه العلا فهو المهيمن عليه، أي: هو العلي عليه والرقيب والشهيد والحفيظ والأمين بمعنى أنه واهبه له ومتممه وممسكه له، وهو العلي عليه؛ أي أن له حقيقته، وكل متسم به سواه له منه مجازه، وهو تعالى المتصف به، وله تمامه الأقصى وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية.

هو المؤمن المهيمن على كل مؤمن، وهو الكريم الرحيم المهيمن على كل كريم، والرحيم المهيمن على كل رحيم، والحليم المهيمن على كل حليم، والبر والصادق هكذا في سائر الأسماء والصفات، هذا في حق المهيمن عز جلاله، وأما حقيقته في العبد فهي الحيرة والهيوم على ما تقدم من ذكر معنى ذلك في الحروف المنتظمة في بنائه، فالأوهام هامت، أي: تحيرت في مهيمنته، أي: في حقيقة أسمائه وصفاته وكنه مزيد حقيقتها على مجاز أسماء عباده، وهامت الألباب إلى معرفة رفعة درجاته في فضائل نعوت جلاله، أي: عطشت هيومًا فهي مهيومة وهيمانة، وهو ﷻ المهيمن لها، وهي هامت تهيم هيومًا وهيامًا، وهو المهيمن عليها، من هامت تهيم فهي هيمانة، خفيت النون في الفعل وظهرت في الاسم.

التعبد

إذا كان بمعنى اسم المؤمن أو الأمين فقد تقدم التطرق إلى الكلام والنظر في ذلك، وإذا كان بمعنى الرقيب والحفيظ والشهيد، فربما جاء ذلك في أولى المواضع به إن شاء الله ﷻ، وإذا كان بمعنى التقدم والعلو والرفعة، فطريق التعبد في ذلك بعد طلب العلم به والانقياد له والطاعة والتزام ذلك له على سبيل التواضع وتخسيس النفس والإزراء عليها وطلب التضامن بها ومجانبة العلو، قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص:٨٣]، والله هو العلي الكبير.

اسمه الملك عز وجل

يقال منه: ملك يملك ملكًا وملكة، والاسم: المُلك، والمِلك: ما ملكته، ومنه قولهم: أقر العبد بالمِلك، والمَلكة وملاك الأمر ما اعتمد عليه، ومنه ملاك التزويج؛ لأن أحدهما يعتمد على صاحبه في المعنى الذي لأجله ازدواجًا، ملكت العجين أملكه إذا أجدت عجنه حتى اختلط وتماسك بعضه ببعض، وقيل للملائكة: ملائكة؛ لأنها تملك الملكوت، أي: تجيد ملكه وتماسكه بعون ربها ﷻ، وبما ألقاه إليها من ذلك بتدبيرها

لأمور بإذنه وتقسيمها إياها على مشيئته وشفاعتها فيما سبق تقديره إياها حتى يأذن فيه ويرضى وغير ذلك مما يسرها لهم جل جلاله ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، وقيل لملوك الأرض: ملوكًا، لما جعل الله سبحانه إليهم من تدبيرهم ممالكهم التي استخلفهم فيها، وإمضاء أمور مصالحهم ونحو ذلك .

الاعتبار

اشتملت لفظة الملك على ثلاثة حروف: الميم، وهي من حروف العقل، واللام: وهي من حروف الإضافة وهي معنى الملك، والكاف: وهي من حروف النفس فلذلك اشتمل الملك على ثلاثة أركان:

أحدها: الإمساك، وهو الإبقاء والمحافظة والزم للمملوك حتى لا يشذ عن الملك منه شيء أصلًا، ومن هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر:٤١]، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ﴾ [الحج:٦٥] ونحو هذا .

والركن الثاني: الإضافة والاختيار، وهو خاصة الملك والملكة، وحكم ذلك يعطي لا محالة تصرف المالك في مملوكه على وفق إرادته ومشيئته دون راد لأمره ولا معقب لحكمه، لاسيما إذا كان المالك لا مالكَ فوقه يملكه، فملكه مطلق من جميع الوجوه لا يجوز عليه حكم التقييد ألبتة .

والركن الثالث: هو بمعنى باطن يلزم المملوك ويصحبه في إيجاده وإنشائه وإمساكه وتصريفه، ظاهره وباطنه، وأنواع تدبيره، وفي وجوده كله، وهو رباطه والدال عليه منه، والمعنى المشار به إليه، وهو الذي يكلم العقول اعتبارًا، وبه قوام الأشياء كلها، وهو أمر الله ﷻ وأثره في مصنوعاته، قال الله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٢] .

ثم اعلم ـ علمنا الله وإياك من علمه ـ أن أرباب الاعتبار والسلف ـ رحمة الله عليهم ـ فرقوا بين العبادة في لفظتي الملك والملكوت، فقالوا: لفظة الملك تدل على عالم الشهادة، ولفظة الملكوت تدل على عالم الغيب منه، وربما قال بعضهم: ملكوت سلطانه، وهذا يتحول إلى ما تقدم، ومنهم من عبَّر عن العالمين معًا بإحدى الكلمتين، وكل ذلك غير بعيد عن الصواب، ولم يقصد بعضهم مناقضة بعض، إذ ليس هذا من شأن القوم ﷿ ،

لكن التجوز في العبارة جائز عند كل أهل الفن، وإن كان من لخص عبارته عند تحقيق معاني أسماء المسميات فأوقع على كل حق طبقه هو أولى باسم السبق وأحق بدرجة المعرفة، ولا يجب أن ينكر على من قال: إن الملك معروف من الملك، وإن الملكوت من الملكة، تقول: ملكت مِلكًا، فالمِلك هو ما مُلِك، والمِلك أيضًا هو وصف المالك ونعته، تقول: مِلكُ زيد لأمر كذا غير صحيح، ومِلكُ عمرو له أصح وأحسن، إذا هو ملكه من وجه حق، كما تقول: ملك عمرو ولا من كذا أحسن، أي فعله وسيرته ؛ لأنه من الملكة، والملك هو موجود الملك من الغبطة والنعمة والسرور والفرح واللذة بما هو فيه مع ما يبدو من كثرة المماليك له وسعة الخطة وحسن الطاعة إلى ما يتبع هذا من كثرة الإكرام، وتبجيل الإجلال، وإظهار عظم قدره .

ومن هذا المعنى خطاب القرآن أيضًا في قول الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان:٢٠]، والمُلك أيضًا اسم لما مُلك، والمالك والملك اسمي المَلِكِ، قال رسول الله ﷺ: «رأيت ناسًا من أمتي يركبون البحر ثبج هذا البحر الأخضر ملوكًا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة»(١) فأشار إلى عظم أخطارهم ورفعة أقدارهم، والأسرة كناية عن هذا كله، ويقال: فلان حسن الملكة أو سيء الملكة، فملكوت الله جل جلاله حسن ملكته لمملوكيه من حسن التدبير، ورعاية الحفظ وشدة الزم وبديع الإتقان وعجيب الترصيف والإحسان، إلى غير ذلك مما يبلغه العلم أو لا يبلغه .

وعن معرفة حقيقة الملكوت يكون علم اليقين، كما أن عن معرفة حقيقة الملك تحصل المشاهدة وهو عين اليقين، والعباد في معرفة الملك والملكوت متفاضلون، لأنهم في منح الاستعداد للنظر والتفرغ له متفاوتون، وفيما تقسم لهم ويفتح عليهم من أنوار الهداية ونفاذ البصائر، والتوفيق لإصابة الصواب، والتأييد بالفرقان عند تشابه الأشباه متفاوتون، وإن كان للعقل جهالة وانبساط فله أيضًا تناه وحصر فيما أُعطيه من الإحاطة والانبساط، وجد منه قوة الأخذ بحمل الأمور، واستوى عنده القريب المسافة

---

(١) الحديث رواه البخاري في «الجهاد والسير» (٢٧٨٩، ٢٧٩٩، ٢٨٧٧، ٢٨٧٨، ٢٨٩٤، ٢٨٩٥)، وفي «الاستئذان» (٦٢٨٢)، وفي «التعبير» (٧٠٠٢)، ومسلم في «الإمارة» (١٩١٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

والبعيد وبما - فيه من التناهي والحصر عجز عن كثير من التحقيق، واقتصر به على بعض الإحاطة، ولولا إمداد الله ﷻ إياه بمزيده ما قام لشيء، والعالم أوسع والعظمة أعظم، وقدر المخلوق أخس وأحقر من ذلك .

وإنما عظم قدر العقل بالإيمان وبه حيي، فأضيفت إليه صفات لم تكن به موجودة قبل، فعقل الغيب وقويت القوة الباصرة والسامعة والعاقلة، وهدى بإيمانه وحق له النظر ممن آمن به وصدقه، فقوي له الإلهام واستنار له موضع العلم، فهو ينظر بالنور ويسمع به ويعقل به ويتكلم به ويتحرك به ويسكن، قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] .

فإذا عَلا قدر كمال العقل وقوة نور الإيمان، ومشيئة الله ﷻ في إتمام النعمة على العبد وإجزال الحظ له من ذلك تكون رفعته وعلوه .

ثم اعلم - علمنا الله وإياك - أن الداخل في الملكوت بفكره وإيمانه إنما يرى ما أذن له في رؤيته، والعلم به على طريقه المسلوك به، ألا ترى أن رسول الله ﷺ حين أُسري به إلى بيت المقدس على الدابة البُراق ثم عرج به إلى ما فوق السماوات السبع إنما أخبر عما رأى في طريقه، وكم في طريقه ذلك مما يجب الإيمان به من عجائب ربه جل جلاله وسرائر ملكوته لم يطلعه عليها، ذلك مما يجب علينا الإيمان بذلك، فإن لم نرزق علمها مع أن كل داخل لا يقدر أن يصف كل ما رآه، بل منهم من لا يستطيع من الوصف الأعلى أقل أجزاء ما رآه، ومنهم من تلجلج الحكمة في صدره فلا يقدر على نشرها وإجرائها على لسانه، ومنهم من منح ذلك، وكل مدبر لا يستطيع تقدمًا ولا تأخرًا إلا بإذن المقدم والمؤخر .

وعلى كل حال فالعقل أكثر انبساطًا من القلب واللسان، وقد تقدم ذكر القلب ما هو ؛ لأن العقل يستمد من المعرفة وهما للباطن، والقلب يستمد من العلم وهما من الظاهر، بالإضافة إلى العقل والمعرفة، والقلب أفصح من اللسان ؛ لأنه يستمد من العلم وهو باطن القلب، واللسان يستمد من القلب وهو باطن اللسان، كما أن اللسان أفصح من الكتاب ؛ لأن اللسان حي والكتاب ميت، وبالإيمان تتنور الجملة على ما تقدم، ثم لابد أن يبقى عليه ما لا يستطيع وصفه وإن رُفع في البيان إلى أرفع درجات

البشر، ألم تستمع إلى قول المرسل للتبيين المعطى جوامع الكلم حين وصف بلوغه إلى سدرة المنتهى قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها فذكرت الياقوت، قال: ثم عُرج بي حتى لمستوى أسمع فيه صَرِيف الأقلام»[1]، فلم يستطع ﷺ أن يبين ما علمه في هذا المستوى، لأن صَرِيف الأقلام صوت يكون عن كتب العلوم، فترادفت حينئذٍ سؤل العلوم على فؤاده، وازدحمت أنوار المكاشفة على قلبه فبُهِر لذلك.

وكل مدبر في مقامه وإن ارتفع مقهور في درجته وإن علا، والإسراء أعلى وأكبر وأما هو ﷺ فما سمعه من صَرِيف الأقلام حينئذٍ في موجود قلبه هو بيان الحظ المقسوم له، لكنه ربما تأخر بيانه في قلبه وعبارته على لسانه إلى موضع الحاجة إليه، ثم الموقنون بعد هذا في الإخبار عن المرئي لهم في الملكوت على ثلاثة أضرب: فضرب منه أذن لهم في الإخبار به، وضرب منه لم يؤذن لهم في ذلك، وضرب منه هم مخيرون، ثم المخيرون على ثلاث طبقات: خاصة، وعامة، وما بين ذلك، فسنتهم ﷺ جميعهم في المشافهة أن يقابلوا كلًّا بما يحتمله إيمانه ولا ينكره عقله، لقول رسول الله ﷺ: «لا تحدثوا الناس بكل ما تعلمون، أتحبون أن يُكذب الله ورسوله»[2].

وآداب المخيرين أيضًا على وجهين لا يخلو أن يفهم السامع ما سمعه إذا لم يفهمه فما فهمه، واحتمله إيمانه واستقر في عقله، وشهدت له الشواهد بتصديقه، اعتقده وحمد الله ﷻ على ذلك، فهي هدية من ربه ﷻ إليه، ويسر يسره له، وما لم يبلغه فهمه وأعجزه فليبحث عن ذلك، وليطلبه بعقل وأدب، وليصدق في ذلك حتى يدركه صافيًا نقيًا من قبل عقله ونور إيمانه، وإن لم يكن من أهل ذلك فليرجه وليرجع إلى إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله وآياته وبدائعه، وإن له الخلق والأمر كله في الدنيا والآخرة، فكل وجود من حقيقة حق داخل في هذه الجملة، وليجانب الإنكار جملة إلا فيما لا يحتمله التأويل

(١) الحديث رواه البخاري في «الصلاة» (٣٤٩) وفي أحاديث الأنبياء (٣٣٤٢)، ومسلم في «الإيمان» (١٦٣) من حديث أنس ﷺ.

(٢) رواه البخاري في «العلم» (١٢٧) من حديث علي ﷺ بلفظ: «حدثوا الناس بما يعرفون...» الحديث.

لغلبة دلائل الباطن عليه .

فاستشعر الجد والحزم رحمك الله، وعليك بالتفرغ لوجهتك والإقبال على شأنك، واحرص على سهر الليل ولزوم الخلوة وترداد التدبر والاستكثار منه والتفكر وسادك على أفضل ساعاتك وأولاها بالظفر لطلبك وأقربها إلى النجح هي الثلث الأخير من الليل ؛ لأن قلوب المؤمنين حينئذٍ تتنور وتنشرح وتنفسح لقرب الرب تبارك وتعالى منها، وهذا أثر نزوله جل جلاله إلى ملكوت السماء الدنيا .

ومن فيض بركة قربه فلذلك وفقك الله، واظب على حظك، وثابر على مطلبك، واصطبر على زلفتك، ولا يصرفنك عن وجهتك أقوال الغافلين فإن المكافيف لا تعرف فضل الأضواء، والصم تجهل تقدير الأصوات، وليس يعلم محلك إلا من فيه جزء مما أشرف فيك، فابتدر ـ وفقك الله ـ الدخول في باب الاختصاص الأكبر والفوز الأعظم وتذكر قول القائل الأول:

في ملكــــوت الله ســـــبحانه ... تجـول ألبـاب لبـاب الفطـــن

فهـــم خــصوص الله في أرضـــه ... حقًّـا بهـم تــدرأ عنـا المحــن

ســـموا بفــضل الله نحـــو التـــي ... مــن حــل في جيرتهـا قــد أمــن

ونزهـــوا الأنفــس عــن منــزل ... نازلـــه مـــستوفز للظعـــن

وضــمروا الخيــل ليــوم بــــه ... يُنكـب مـن يركـبُ فـوق الهجـن

فليتنــــي كنــــت لهـــم خادمًـــا ... وليتنــــي إذ لم أكــــن لم أكــــن

ولقد تجد الباب دونك مغلقًا، والسبيل إلى مطلوبك حزنًا صعبًا، وذلك عن آثار ضرورات سوء بقيت عليك ولوثتك ذنوب لم تتحقق التوبة منها، وذكر لم يترام إلى فكر، والنفس أبدًا تستصعب عند مراودة هذه المعاني، لما في ذلك عليها من ثقاف الحجران وتقييد الفتك بالتقى، فإذا لزها العقل واحتوشها الإيمان واقتادها الرجاء وساقها الخوف وأسرها الحزم وأزعجها العدم كانت هي الطالبة لمطلوبك، الراغبة في مرغوبك، فمتى وجدت الباب مغلقًا، فاسأل وتضرع وتب من ذنب أحدثته، ومما علمت من ذلك وما لم تعلم، وانزع إلى ربك مما لا يرضاه منك، وتبرأ إليه من حولك وقوتك ومن عملك، كذلك فعلت الملائكة صلوات الله عليهم وسلامه على جميعهم

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:٣٢].

واعلم أن الذي غلق الباب عنده مفاتحه، وإياك والعجز وحب الدعة واستشعار الاستغناء فذلك سبب كل خيبة، وتذكر قول عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين، بحق أقول لكم لا يدخل الأغنياء ملكوت السماوات، والجد والصبر واستشعار الافتقار إلى الله سبب النجاح وأحذرك التمني مع الركون إلى الدعة.

وما طلبُ المعيشةِ بالتمني ولكن ألق دلوك في الدلاء

تجئك بملئها طورًا وطورًا تجئك بحمأةٍ وقليل ماءِ

فمتى جاءتك دلوك بحمأة، فالحمأة أيضًا دليل على الماء، فاحمده تبارك وتعالى على ذلك، وارجه وسلم إليه الأمر كله، ثم عاود فاغسل الدلو بماء الإيمان، وبخرها ببخور التعوذ من شر نفسك وشر عدوك، ثم شد الأوذام إلى العراقي، واستجد الرشاء ثم أرسلها في الدلاء، فمتى أتتك بقليل ماء فاعلم أن القليل من الكثير فعد إليه وسله والزم بابه، فإذا جاءتك ممتلئة، فاحمد الله الذي أعطاك من فضله وكرمك على كثير من خلقه، فلتبشره نفسك عساه أول الاختصاص.

وليشتد حذرك وخوفك من أقل ذنوبك، فليس عهد من علم وكوشف بآيات الله ﷻ وبيناته كعهد من لم يجر به هذا المجرى، فقد جاء في بعض الكتب المتقدمة: وبشر المذنبين وأنذر الصديقين ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨]، فالآن رحمك الله الزم بابه وتعرض لتحفه، فإنه جل جلاله كريم تحاف، جرد أعالي ثيابك، وشمر من أردانك، وحزم على وسطك بحبل العزم على مئزر الحزم وتيقن أنه ﷻ أسرع إقبالًا وأحسن إجابة.

ومن المحال أن تتوكل عليه بحقيقة من ذاتك فيسلمك، فما تلبث إلا يسيرًا حتى يفضي بك من معرفته إلى حياض واسعة، ثم إلى أنهار جارية، ثم إلى بحار عذبة صافية أشد بياضًا في بصيرة العقل من اللبن، وأحلى في إدراكه من العسل، فيومئذٍ يستحيل دلوك غربًا، ويعود عجزك كيسًا، فما شئت من طهور وشراب عللًا بعد نهل، وكلما شربت من ذلك الماء عطشت إليه، وكلما تطهرت به فنيت عنك أخلاقك، وانمحت عنك صفاتك حتى يأخذك عنك إليه بمعنى منه، فالجد الجد رحمك الله وفرغ القلب للجد، وذلك أول الطريق ولا قوة إلا بالله.

واعلم - وفقنا الله وإياك وعلمنا من علمه - أن أتباع الرسل وأتباع الفلاسفة اختلفوا في أشياء من الهيئة، والعالم منها السماوات اتفقوا على أنها سبع في أيها هن، فاعتقد أتباع الفلاسفة أنها هي الأفلاك السبعة، وقال أتباع الرسالة رحمة الله عليهم: إنها هي السماوات العُلا الأربعة التي هي فوق هذه الأفلاك كلها، وإنما قال أتباع الفلاسفة بما أدركوه نظرًا، وقال أتباع الرسالة - رحمهم الله - بما أدركوه خبرًا وإيمانًا، وإنما ذلك أتباع الرسالة اعتمدوا على السماع والإيمان، واعتمد أولئك على عقولهم ونظرهم، والله جل جلاله يفرق علم بيناته بين عباده، فيعلم هؤلاء ما شاء الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب وجماع الصواب لأتباع الرسالة بدليل الكتاب والوجود، وقد جاء في القرآن ذكر الأفلاك وأنها سماوات، إذ المعلوم في لسان العرب الذي جاء به الرسول ونزل القرآن بلسانها: أن كل ما علاك فهو سماء، قال الله جل قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح:١٥، ١٦] .

فسماوات الأفلاك هي التي جعل القمر والشمس فيهن نورًا وسراجًا، وأما السماوات الأربع العُلا التي فتحت للرسول ﷺ ليلة الإسراء التي زينت أدناها لنا بالنجوم فمن قبلهن يأتي إلى الشمس والقمر النور والضياء، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ [المؤمنون:١٧]، يعني والله أعلم: طرائق الأفلاك، فإذا أراد أن يخص السماوات العلا بالذكر عرفهن بالألف واللام أو وصفهن بالعلية فقال: ﴿وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه:٤]، وقال: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون:٨٦]، وإنما سمى تبارك وتعالى سبع سماوات، فمتى ذكر هذه أشار إلى تلك كما خلق سبع أرضين وما ذكر منهن إلا واحدة، وأشار إلى سائرهن من غيرها، وذلك لعلة الابتلاء حتى يترك الكتاب موضع بيان للرسول، أو يتركان معًا موضعًا للفكر، قال الله ﷻ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤] .

وكذلك اختلفوا أيضًا في الأرضين كم هن ؟ فقال أتباع الرسالة رحمهم الله: هن سبع كما جاء بهم الخبر، وقال أتباع الفلاسفة: هي واحدة، فلزم هؤلاء موضع المشاهدة، ولزم هؤلاء موضع الخبر، والصواب لأتباع الرسالة بدليل الكتاب والاعتبار، أما الكتاب فقول الله جل جلاله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢]،

وقول الرسول ﷺ: «**أتدرون ما تحت هذه الأرض؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ماء، أتدرون ما تحت ذلك ؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هواء، أتدرون ما تحت ذلك؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أرض، أتدرون ما تحت ذلك؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، حتى عد سبع أرضين [(١)] .

وأما الاعتبار فلأنه لما أوجد أفلاكًا سبعة، وأوجد لهن أمثلة سماوات سبعا عالية تلك للأفلاك السبعة دلالات عليهن وآيات لهن، وأوجد في الأرض أيضًا أقاليم سبعة هن على معاني الأفلاك السبعة، وأوجد أيضًا أرضين سبعة سافلة، تلك الأقاليم السبعة دلالات عليهن وآيات لهن وقال أتباع الفلاسفة أيضًا: إن الأفلاك التي هي السماوات، وإنها حية عالمة موصوفة بالعقل، واستدلوا على ذلك بأنها متحركة، وقالوا: إنها تعلم جميع المعلومات بالتفصيل، وإنها مدبرة، قالوا: وإذا كانت تتحرك على إرادة لها فهي تعلم جميع جزئيات العالم جملة وتفصيلًا، وإصابة الصواب في معتقد أصحاب النبوة بأنها حية بحياة الإسلام والإيمان، وهي مسخرات بتسخير الله جل جلاله إياهن، كما قال الله عز من قائل: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، والأحياء بالتحقيق هم الملائكة الموكلون بهن، المحركون لهن بإذن ربهم بحوله وقوته، وهم العلماء بالأمر النازل عليهم من ذي العرش جل جلاله، وكذلك اختلفوا في شكل الأرض ما هو ؟ فقال أتباع الرسالة: هي سطحية، وقال أتباع الفلاسفة: هي كرية .

اعتمد أتباع الرسالة على طريق الوحي، ولزموا موضع الإيمان بالخبر، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ [الذاريات:٤٨]، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح:١٩]، ونحوه كثير .

واعتمد أتباع الفلاسفة على طريق مشاهدتهم دوران الأفلاك، ولو تتبعوا حقيقة الخبر لوقفوا منه على حقيقة العلم، وإنما خلق الله جل جلاله الأرض أول خلقه لها على شكل الكرة ثم بعد ذلك دحاها وبسطها، فجعلت الأرض تميد، فأرسى عليها الجبال، ونصب قننها بالوزن شكلًا على هيئتها يوم خلقها، أعني: الأرض .

---

(١) رواه البقاعي في «تنظيم الدرر» (٩/ ٦٨) .

ولو لم تكن قنن الجبال كذلك لانبسط ضوء الشمس ونور النهار عليها انبساطًا واحدًا، فكان يكون ذلك مناقضًا لقوله الحق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣]، فلما رأينا الليل والنهار عيانًا فلكيين في جريهما وأنبأنا الخبر الصادق بذلك علمنا أن انبساط الشمس على الأرض كروي، وسمعنا الله ﷻ يقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وسطحها، علمنا أن في نفسك سطحية، وأنه لم يكن انبساط الليل والنهار عليها هيئة الكرة إلا لشكل الجبال، فترك القرآن طريق النظر لم يذكره إلا تنبيهًا وإشارة إليه، وقصَّ علينا طريق الخبر ؛ لأن كونها سطحية طريقه الخبر من حيث إنه لا يتبين أنها سطحية أو كروية من نفس الأرض ؛ لصغر الجزء الذي نشاهده من جرمها بالإضافة إلى جملتها، ويتبين التكوير في الجو، لأنه كبير بالإضافة إلى الأرض، وإن كان صغيرًا بالإضافة إلى ما لم ير منه، وإلى ما فوقه فلهذه العلة تبين التكوير علوًّا ولم يتبين التمهيد في الأرض فاحتاج إلى الخبر، فجاء الإنباء عن الغائب الذي لا طريق إلى معرفته إلا به، وترك النص على ما إلى معرفته سبيل بالمشاهدة، بل عرض به وأشار إليه بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥]، فالأرض هي الذلول بتمهيدها والجبال هي مناكبها .

واعلم يقينًا أن الله جل جلاله لم يفعل شيئًا قط فيبطله ألبتة، وإنما يغير صورته ويثبت حكمه، وهو لا يحيل ما يحيله إلا لحكمة، ويثبت ما يثبت لحكمته، فمتى أحال عين شيء ما أثبت حكمه، وإن أحال عينه وحكمه أثبت له حكمًا ما على حال، إنما وجود الإعدام هو في أفعالنا نحن بوجه ما، وأما هو فهو الحق، فكما لا يفعل شيئًا عبثًا كذلك لا يبطل ما فعله واعتبره، ذلك بفرضه الصلاة على عباده ليلة الإسراء خمسين، ثم لم يزل يخففها رأفةً بعباده ورحمةً حتى فرضها خمسًا عملًا وأبقاها خمسين ذخرًا وأجرًا، بل لكل ردة ردها موسى محمدًا ﷺ إلى الله جل جلاله فيخفف الله له عن أمته تارة بعد تارة، حكم ذلك كله موجود في أحكام الصلوات، بحث عن ذلك حكمها في مصنوعاته كلها من اعتبرها وجدها، كيف لا وهو يقول وقوله الحق: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق:٢٩]، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:٦٣] .

كذلك الأرض لما خلقها أولًا على شكل الكرة ثم دحاها رحمة منه لعباده صرفها عن شكلها الأول في الحكم وأبقى رحمته في العين، هكذا فليكن بحثك عن صنيعه حيث ما

تدبره، وكذلك أيضًا اختلفوا في المد والجزر، والغيض والفيض، وإنما وجود ذلك وجودًا فلكيًا وهو أقرب الأفلاك إلى الأرض، ودائرته على نصف دائرة القمر غربيها وشرقيها، فالحركة الشرقية في الأفلاك هي الدائرة المنسوبة إلى الليل وللمد والجزء في مد دائرة الليل والنهار حركتان إقبالًا وإدبارًا سوى موضع التقليب، كذلك للغيض والفيض في ثمانية وعشرين يومًا حركتان إقبالًا وإدبارًا وإقبالًا وإدبارًا، تتم الحركات في تسعة وعشرين يومًا إلى ثلاثين يومًا، وهو حكم التقليب، ثم فوق ذلك فلك الرياح، والأصل فيها أنها ريح واحدة، ثم تقسمت إلى ريحين، تهب إحداهما شرقية والأخرى غربية، ثم تقسمتا إلى أربع رياح جنوب وشمال واللتان تقدم ذكرهما، ثم تقسمت هذه الرياح الأربعة وهي العاملة للنواحي الأربع إلى أربعة أجزاء تتمة الثمان، رياح بين كل ريحين ريح، ثم تقسمت هذه الثمان إلى ستة عشر ريحًا تهب كل ريح منهن بين مهاب ريحين، كالنكباوات الأول بعد الأربعة الرياح الأصول، وإلى هذا العدد انتهت معرفة العرب وأكثر الأمم، ثم بعد هذا تصعد معرفة الخواص العلماء بمهاب الرياح إلى أربعة وعشرين ريحًا معرفةً بها وتمييزًا، ثم قياسًا إلى اثنين وثلاثين ريحًا.

وبعد هذا فاعلم لها مهاب تتصل في معرفة الملائكة الموكلين ثم على تدقيق التحصيل مهاب يجب الإيمان بهن تنبعث عنهن رياح يتفصل بهن الأمر في مهابهن حتى يعم الأقطار من دوائر الفلك المجعول لهن في أحكام تداورهن على ما يأتي التبيين في ذلك، وأما الأفلاك المعلمة بالكواكب فهي سبعة سوى فلك البروج، وليس له كوكب يكون له كالعلم كالسبعة المشهورة بالدراري سوى البروج الموجودة به، أدناها فلكًا إلى الأرض بعد فلك المياه وفلك الرياح وفلك الليل والنهار فلك القمر، ثم فلك عطارد وهو المسمى بهرام والأحمر، ثم فلك المشترى وهو المسمى البرجيس وهرمز، ثم فلك زحل وهو المسمى كيوان والمقاتل، ثم فوق هذا فلك البروج، وفوقه الفلك التاسع الفلك الأعظم بحركته يتحرك ما تحته، قال الله جل جلاله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وفوق هذا الماء، وفوق الماء أمر من أمر الله ﷻ عنه ينزل الأمر إلى ما تحته، وعنه ينفصل بالتدبير النازل عليه بالأمر من علو.

وكل دائرة فلك مركبة من ثلاث دوائر بدوارها يعود الأمر آخره على أوله عودًا بعد بدء، سنة الله في خلقه وأمره ولن تجد لسنة الله تبديلًا ولا تحويلًا، وكل دائرة من هذه

الدوائر تنفصل إلى ثلاث دوائر، ثم يتضاعف ذلك بدوائر الجيب والميل إلى عدد هو أصل لعدد أيام العام باعتبار موضع التقليب، كما عدد الأفلاك السبعة أصل لعدد السبعة الأيام الزمانية، وأصل التداور هو من شرق إلى غرب، والتقدير من غرب إلى شرق، فهذه للمطالع والمغارب وهذه للإحصاء والعلم، ومن الدوائر ما تكون حركتها وتداورها من علو إلى سفل، ومن سفل إلى علو، ومنها ما يكون تداورها علويًا كدوران الرحى، فتلك الحركة للأمر وهذه للخلق فتتقاطع الدوائر بتركيب أحكامها للمقسوم عن دورانها من مشرق إلى مغرب، ومن جنوب إلى شمال، من الفلك الأعظم إلى أدنى الأفلاك إلى الأرض، والأرض في آخر الدوائر ويعمل كلٌّ على شاكلته، ويحكم له عن أمر ما جُعل إليه، وينتج عن ذلك حكم يعلمه اللطيف الخبير .

ثم يرجع بنا الكلام إلى نسقه وتستدير هذه الدوائر على دوائر دونها، والتي دونها تستدير أيضًا على دوائر دونها، وحكم الأعلى تنتظم الأسفل حكم هكذا إلى ما تكون لها منهن، كالدقائق ودقائق الدقائق المفصلة على التحصيل الإلهي لدقتها وضيقها، كالجواهر التي لا يتجزأ المركب عنها الأجسام كلها، والأمر في تلك الدوائر محمول حمل الجواهر الأعراض يتنزل الأمر من سمائه إلى ما تحته، فتستدير بحكمه جملة الأفلاك كل على حركته، وأمره الذي حمله على ما هو به، وإلى أدق دوائره من ذي العرش جل جلاله إلى حيث شاء انتهاءه .

فيعم الأمر بمشيئته منزلة الجملة ويشملها شمولًا كليًّا، كشمول الغذاء جملة الجسم المغذى بغذائه، وتمتلئ الجملة، فالتدبير كامتلاء الجو بهوائه والبحر بمائه، ثم فوق ذلك السماء الدنيا بما جعلت له من الأمر ويسرت له من الوجود، ثم كذلك أيضًا سماء وهواء وماء، والهواء والماء محمول فيهما تداور التدبير، وليس فيها فوق السماء الدنيا ليل ولا نهار ولا نجوم ولا كواكب، لكن ما جعل الله ﷻ مما ذكر آيات على معارف غيرها في غيابات العلو، فاعلم .

وهي أيضًا علامات ههنا لمظان الأمر ومعرفة تفصيله، أي أن الأمر إذا وصل إلى فلك من هذه الأفلاك فهو سماؤه، وقد تحقق بما عليه أن يتحقق به من حقيقة، كالغذاء يكون في معدة الإنسان ثم يتقسمه التدبير فيحصل في اليد يدًا وفي القدم قدمًا وفي العين عينًا، وكذلك في كل مسمى في الجسم يتحقق الأمر في ذلك العضو بحقيقة ذلك العضو الذي جعل له، فافهم .

ثم كذلك أيضًا إلى السماء الثالثة سماء وهواء ثم ماء والهواء والماء محمول فيهما الأمر كما تقدم، ثم ما فوق ذلك، كذلك إلى انتهاء عدد السماوات السبع، ثم حكم تداور الدوائر في الأرض بالأمر على سياق تداورها به في العلو على ما تقدم من تقسيم الأمر في الأرض على أقاليمها، واختلاف حرورها وصرورها باختلاف ليلها ونهارها بالإيلاج والخلفة في أحكام التكوير والغشيان بفيح نفسي جهنم من سعير وزمهرير على سنن التدريج بالحكمة فتختلف الأزمان، تنقسم بذلك إلى أربعة فصول كل فصل منها مختص بنوع من تدبير الأمر بما اختص به، وما جعل له، وفيه ينبعث معلوم هذا الباب من المعنى الذي عبَّر عنه رسول الله ﷺ: «**إن النار اشتكت إلى ربها فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر فمن جهنم، وأشد ما تجدون من البرد فهو من الزمهرير**» (١)، وإن ذلك أمر معجزة عن أمر خلقت له جهنم ووجدت له، تدور به دوائر صاعدة به علوًا ونازلة به سفلًا على مجاري معدلة وأحكام من الأمر مقسطة، فيوم صعود هذه الدوائر بالحر تميل ودوائر الميل سفلًا بالبرد، ويوم صعودها بالبرد يصعد الجيب منها بالحر، وعند تقاطع الأفلاك يكون حكم الإيلاج، وفي دورانها وحال سيرها في مطالعها ومغاربها يكون حكم الغشيان يداخل الحكمان بعضهما بعضًا، ولكل بناء مستقر، ولكل أمر مصعد ومنزل، وكما صعد النظر بالاعتبار علوًا فكذلك ينزل به سفلًا إلى سبع أرضين إلى ما تحت ذلك كله إلى سجين إلى حقيقة جهنم أعاذنا الله منها .

كما فوق السماوات العلا حقيقة الجنة وفقنا الله لما يقرب منها برحمته، حتى إذا كان يوم القيامة سعت الجنة فيما دونها إلى وجه الأرض العليا فتصير الجملة جنانًا وتسعى جهنم - أعاذنا الله منها - فيما فوقها إلى باطن الأرض الموجودة يومئذٍ فتصير الجملة نارًا، قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وقال عز من قائل: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:٩٠، ٩١]، ثم الجملة في الكرسي الكريم كحلقة في فلاة من الأرض، والكرسي موضع الحكم، قال رسول الله ﷺ: «الكرسي موضع القدمين» (٢)، وليس لهذه الجملة في حكم الكرسي علائق من

(١) سبق تخريجه في باب اسمه النور جل جلاله .
(٢) رواه الحاكم (٢/ ٢٨٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

فوقها ولا دعائم من تحتها تثقلها، ولا جواذب من نواحيها تجذبها خلا أمر الله جل جلاله أوجد له الكرسي، وذلك الأمر هو الذي يمسكها أن تزول وهو الحول، فافهم .

وتدبير الأمر وتفصيل الحكم هو القوة، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]، ثم الكرسي بحكمه وبما أحاط به في العرش العظيم كحلقة في فلاة، والعرش يحيط بالكرسي وبما أحاط به على ذلك من القيام والاستسلام، أيضًا يمسك جل جلاله الجملة بالأمر الذي أوجد له العرش علائقه ودعائمه ومجاذبه أمره، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، وإنما عمدها قدرته وأمره، ولذلك نفى إدراك الرؤية لها، ثم لا يحيط بالعرش إلا الله وحده لا شريك له مساكه الأمر الذي احتوى له والخرق الذي شمله وزمه، والوجود الذي له أوجده، يعم ذلك كله الأمر ليس فيما دون ما احتوى له وجود يصير إليه الموجود لو لم يحتو له من الأمر ما احتوى له، فافهم .

والقوة داخل الجملة، ويتخلل الحول القوة والقوة الحول كما يتخلل الأمر الخلق وأحكام التدبير أحكام التفصيل، ثم لكل بناء مستقر ومتنزل خاص، وذكر أن فيما دون العرش الكريم شموسًا وكواكب ودراري نورانية مضيئة مشرقة من نور ذي الكبرياء والعظمة، آياتها ما دون السماء الدنيا من زينة المصابيح، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤]، ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]، أي: أنها آية لمن عقل عنها تدل على ما يجانبها في العلو، وتشهد لما يماثلها حيث لا تنفذ الأبصار ولا يدركه إلا الإيمان، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] .

وهذا إلى ما في الجملة من خلق وأمر وكلمة وسنة وفطرة وجبلة وطبيعة وشريعة وعلم ومعلوم وروح ونفس ومحو وإثبات وإيتاء وكتب ورسالات بتوابع ذلك كله وأحكامه ومسالكه وتأويلاته ودلائله وآياته، وكونها آيات بينات وشواهد لما هي له آيات وشواهد عليه ودلائل وعلامات، وعقل ذلك كله وعلمه وفهمه وترتيب ذلك على معاني أسماء الله جل ذكره، ومقتضى صفات الخالق ﷻ من علمه وقدرته وحياته وقيوميته إلى غير ذلك من غيب ملكوته .

وكذلك اختلفوا في الليل والنهار وحقيقتهما فقال أتباع الفلاسفة بل الأكثر من الخواص والجم الغفير من العوام: إن الليل عن فقدان الشمس، وأنه لما كانت الهيئة كما تقدم من ذكرها من نصب قنن الجبال على وزن معدل كهيئة الكرة، فكان الليل والنهار مكورين، لذلك قالوا: فالليل إذن عن ظل الأرض، قالوا: بل هو إياه، وكذلك قالوا في النهار: إنه عن طلوع الشمس، وأن ضياءه عن نورها، وهذا وإن كان ظاهره كما ذكروه فباطنه ليس كذلك بل الليل والنهار مقدران في علم الله تعالى موجودان حكمًا في أيام الدهر، فذلك النهار الباطن هو الذي يجلي الشمس، ليكون عنها هذا النهار، فالحكم والعين النهار الباطن وهما لا يعدمان والعين فقط للظاهر.

قال الله ﷻ وذكر الشمس: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس:١]، ثم قال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ [الشمس:٣]، والليل يوجد عينه يغشى الليل ثم ينسلخ النهار من الليل فيظلم الجو، قال الله جل قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس:٤]، يعني: الشمس، وقال عز من قائل: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [يس:٣٧]، قال رسول الله ﷺ: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار»[1]، أي ليس عند هذا الليل الذي هو من عدم الشمس، ولا هذا النهار الذي هو عن طلوع الشمس وذهاب للظلام، فلئن كان أيام الدهر في العلو ضياء كلها لا ظلام يعاقبها كان النهار ههنا يجلي الشمس ويسلخ عن الليل وكان هو الدائم، ولئن كان عين الظلام موجوبًا كان الظلام هو الذي يغشى النهار، فحكم نور النهار الباطن باقٍ في بطن ما نراه ونشاهده ظاهرًا، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ [الإسراء:١٢]، أي: على ما هو في الدار الآخرة، ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء:١٢] أي: فيما هنا، ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء:١٢]، ثم قال عز من قائل: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [الإسراء:١٢]، معناه: أنه فصل أيام الدهر بأيام الزمان على ترتيب تغليب حكم العين والحكم ظاهرًا أو باطنًا، فتفهم ذلك وتثبت.

وكذلك الكواكب التي ينسب إليها الأنواء لما كانت الرياح في الأكثر من مجرى العوائد تتحرك عند طلوع بعضها وغروب رقيب الطالع منها، وجعل الله ـ جل ذكره ـ ذلك توفيةً لها بمشيئته يرسلها في جو السماء فتلقح السحاب ماء أضيف ذلك إلى

(١) ذكره عبد الرزاق في تفسيره عند تفسير الآية (٣٧) من سورة يس.

المطالع منها أو الغارب تجوزًا واختصارًا لذكر الفاعل، وكثر ذلك وتداولته الأعصار حتى أعضل الداء بمعتقديه، فجاء الشرع فنهى عنه، ورد بذلك النعمة إلى وليها والفعل إلى فاعله .

وكذلك في المد والجزر الجاريين على مساق الحركة الشرقية، والفيض والغيض الجارين على مساق التقدير، وكذلك ما يكون من هذه المعاني في الأسابع وأسابع الأسابع وعشرات الأسابع وأسابع العشرات، ما صعدت الأعداد وكذلك في الخوامس والثوالث، وكل شفع ووتر، فإن هذه الأحكام وإن كانت فلكية جريها دائري، فكما تقدم في ذكر الليل والنهار من أمر الله جل ذكره في دورانها فإن وراء أفلاكها ودورانها من أمر الله الذي لا تكون هذه المشاهدات آيات عليه ودلائل إليه حكم يكون أحكام هذه عن ذلك الباطن، وكما تقدم أنه قد قدر عن حكم تقاطع الدوائر حكمًا ليس يدرك ببصر ولا يناله العقل فقط، بل بأنباء النبوءة وإعلام الوحي، ثم بآخره يدرك البصر الماهر المؤيد بنور الإيمان بعضه علمًا وجملته إيمانًا وتسليمًا .

وكما أن هذه العلوم المشار إليها بقولنا: هذا يُعلم منه بالأنبياء ما شاءه العليم الخبير فكذلك في بداياته من دقائقه ودقائق دقائقه إلى غاية نشوته وكماله، فأنى للعقل يدرك هذا كله وأمثال هذا مفردًا عن نور نبوة أو نبأ صادق ينبئه فينظر في معناه وحقيقته، فكل كائن ما كان ليل أو نهار أو غيض أو فيض أو طلوع كوكب أو غروب أو إشراق في الكواكب أو إظلام في الجو أو خسوف أو جلاء فكل ذلك عن معاني أسماء له جل جلاله، ولا تأت تدل على أمور غائبات يجب الإيمان بها مبشرات أو منذرات .

قال الله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢]، فأخبر نصًا صريحًا أنه خلق ذلك كله بالحق وللحق، وهي أسماؤه وصفاته وأحكامه وأفعاله، وما إليه المصير في حق الآخرة، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، فعلم ذلك آدم عبده وصفيه ؑ قال عز من قائل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]، أي: علمه أسماءه التي اقتضت مقتضياتها أسماء كل شيء خلقه ثم باهى ﷻ به ملائكته يوم اختبرهم بالسجود له إقرارًا منهم له بخصوصية الله ﷻ له، واقتداء به في سجوده له .

وكان ذلك أول التكليف والمحنة باعتقاد الخصوصية والإيمان بالنبوة والاقتداء بالأئمة والأمر بالنظر والاعتبار، وصرف كل مفعول في العالم إلى فاعله وتسمية كل مسمى بمعنى الاسم الذي تضمنه من أسمائه، فكان عن ذلك ما قصه علينا بصدق قيله وحكم تنزيله ﷻ، ثم توارث ذلك بنوه من بعده إلى أن بعد الأثر، وانفرق ما بين النبوة والنظر، فخلف بعد ذلك من بعدهم خلف أفردوا العقل وأغمضوا في ذلك على الإصغاء إلى الخبر، فغربت شمس النبوة في حقهم واعتدت لذلك بصائرهم العمش، فهم يستقرئون الموجودات عقلًا ومعقولًا ولا يهتدون يمشون فيما بينهما في مثل الغبش فلا يصلون، صمًّا عن الداعي عميًا عن الهادي بلهًا عن جدي الجادي، يتكلمون في الطبع والمطبوع، ويقتصرون على الأسباب والأواسط، ويعكفون على عبادة المعقولات والأفاعيل، ثم من أدرك منهم التوحيد استعمل عبادته لغير المعبود؛ إذ هو لنفسه شارع ولها بعقله ناهٍ وآمر، وهيهات هيهات إنما يضيء العقل بالنبوة.

ونفهم المراد من الله جل جلاله لمبلغ الرسالة، وإنما ينظر العقل إلى غيابات غيوب الدنيا والآخرة بالنور الذي هو خليفة النبوة وهي الصديقية، هذا سبيل أتباع المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فانظر - وفقنا الله وإياك - متى اعتبرت في مصنوعات ربك جل جلاله فألفيت لذلك المصنوع واسطة أوجبتها سننه ﷻ أو سببًا ينسب ذلك المسبب إليه، ويعول العقل في وجوده حين يطلبه إياه عليه، فاقض بإيمانك أن الله ﷻ وجوده ذلك المنظور فيه وجودًا فيما بطن هو غير لما أدركه البصر، أو حصله العقل بواسطة النظر، يدركه بحاسة الإيمان ويوجد بعلم اليقين، فبذلك يتطلع الناظر إلى أحكام الآخرة وغيوب الملكوت، والآخرة أكبر من الدنيا وأوسع جدًّا، والدنيا نبذة من الآخرة وقطعة منها، غير أنها صغيرة من كبير، وفانٍ من باق، فلسعة تلك كانت وسائطها أقرب ومسبباتها عمَّا جعلت له أعرب وشواهدها أكرم وأصدق.

وبعد: فإن للملك توابع منها: التحية والسلطان والإمارة والرسالة، ثم الصنائع والعبيد والفتية والإماء، وقد تقدم الكلام في معنى ذلك في غير هذا الموضع.

واعلم أن الله جل جلاله قد جمع في ابن آدم كله ظاهره وباطنه معاني عالمي غيبه وشهادته تقريبًا للمعتبرين ورحمة بالمستدلين، اجتملت فيه الآيات وانطوت فيه معانيه

البينات، كذلك سنته جل جلاله في دلالته بصغير مصنوعاته على الكبير منها، وكجمعه معاني القرآن كلها في أم الكتاب، ومعاني أسمائه في قول العبد: بسم الله، وفي آية من الكتاب العزيز تيسيرًا وتقريبًا، وقد نبه على مصداق ما ذكرناه بقوله الحق: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠، ٢١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم:٨]، ينبههم كي يتبصرون بأقرب الأشياء إليهم، وأمسها بهم.

فمتى تعذر عليك معنى العلم أو أُبهم دونك باب من النظر، أو تحيرت عن هدايتك، فارجع إلى نفسك، وتعلم العلم من ذاتك، واقتبسه من هداية فطرتك، ثم أحسن العبرة ففي حسن العبرة الشأن كله، وهو المثال للصراط في الدنيا، فاعلم، ومتى لم تحسن العبرة سقطت في هوة من التشبيه، وهوت أمك في هاوية من التعطيل والكفران المبين، فاعقل واعلم وتبصر، وما توفيقك إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل.

التعبد

اعلم ـ رحمك الله ـ أن جملة القول في التعبد بهذا الاسم الكريم بعد تحقق حقيقته أن تنزل نفسك منزلة المملوك لمالك هو ملك الملوك وجبار الجبابرة ومالك الدنيا والآخرة، لا يمانع في عطاء، ولا يغالب في قضاء، ولا يعارض في حكم، ولا يناهض في منزلة، ولا يناقض في أمر، هو القوي فلا يعجزه معجز ولا يفوته فائت، رد الفوائت في قدرته كإمضائها، وإصدار الجائيات كإيرادها، ونسخ العادات بالأضداد كإقرارها، إن شاء نعم بالذي به عذب أو عذب بالذي به نعم، وإن شاء أسقم بالذي أصح وأصح بالذي به أسقم، وإن شاء أحرق بالذي به برد أو برد بالذي به أحرق، كذلك إن شاء جوز كونه أو أحال كون ما جوز كونه، كل ذلك عليه هين، وفي قدرته يسير، له التدبير المبرم والقضاء المحكم، وهو على كل شيء قدير.

هذا هو الملك الحق مالك الملكوت على الحقيقة، وأنت المملوك من جميع جهاتك بحقيقة المملكة وتعرف حقيقة المملكة، وأعط من نفسك العدل، وأد الأمانة إلى أهلها ووليها، وآت كل ذي حق حقه، ولا تهمل نفسك فلست بمهمل، إن كنت تعلم أنك مملوك لمالك حي عالم قادر قاهر مراقب لك مشاهد لأفعالك يحصي عليك جميع شأنك، ثم ينزلك على ما أنزلت عليه نفسك من إساءة أو إحسان، فلا ترسلن جارحة من جوارحك إلا بإذنه، ولا تنبسطن إلى شيء دق أو جل إلا بأمره، ولا تنطقن إلا بما

يرضيه، وإياك والمعارضة في شيء من قضاياه، والتعقب عليه فيما دق أو جل من أحكامه، فقد أخبرك أنه لا يشرك في حكمه أحدًا .

وإن من آداب العبيد إذا تحققوا أن الملك لله ﷻ تنكبوا عن أوصاف الدعوى، وتبرؤوا من الحول والقوة، وسلموا الأمر إلى مالكهم، ولم ينزعوا إلى شيء من احتيالهم عند طلب الخلاص من مهالكهم، فلا تقولن في شيء كان أو يكون بي ولا عليَّ ولا مني، وكذلك لا تقولن في أمر من أموره ولا قضية من قضاياه: لا، ولا لولا، ولا هلا، ولا تجدن في حكم من أحكامه حرجًا في نفسك، ومتى فعلت فقد عارضت وتعقبت في أحكامه بقدر ما وجدت في ذلك، وخرج عليه كلامك، وكذلك قالوا: حقيقة التوحيد إسقاط الياءات، يعنون: إسقاط الإضافة إلى النفس، وبذلك يكون قوام التوحيد فالزمه ما استطعت، ألا تسمعه يقول جل قوله في أحكام رسول الله ﷺ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، وعليك رحمك الله بمتابعة التذكر وموالاة التفكر ولزوم النظر والاعتبار، واستعن على ما تريده من ذلك بالتطهر .

واعلم أنه من تفكر ولم يتطهر ولا هو يحب الطهارة فهو مبعد ممقوت، ومن تطهر ثم فكر أدرك بعون الله بقدر ما بذل من جهده، ثم لله ﷻ فضل يؤتيه من يشاء، ومن أنفع آلات الجد والأهبة ترك ما لا يعني واختصار الكثير مما يعني، وأخذ البلغة من ذلك، وعليك بالتجوع مع إحضار النية فيه لمن تجوعت وما تريد به فهو خواص الأدوية، والأعمال بالنيات والأخذ في ذلك كله على سبيل السنة، ودم نفسك على سهر الليل، ففي حنادس الظلمات توجد الأنوار الغائبات، وقد قيل: تخل وتجوع وتفرد واصدق تَرَ العجب.

يا أخي، ليشغلك عن خدمة جسدك علمك بسرعة فنائه، وعن التشمير للدنيا معرفتك بوشك زوالها، واعمل لمُلك دائم لا يفنى في جوار مَلك رحيم، لمقتدر لا يلحقه حول ولا زوال، فعليك بما يبقى ويدوم، ودع عنك ما يفنى ويزول، فإنما أنت بغدك ولست بيومك، وكأن ما هو الآن لم يكن، وكأن من لم يكن قد كان، وكل آتٍ قريب الأوان البعيد ما ليس بآت اشكُ بثك إلى مالكك فهو أعلم بفقرك، وأقدر على صلاحك، وعليك نفسك فلست من الناس اليوم بسبيل فر منهم إليه، ودع الناس يموج بعضهم في بعض إذا أعرضوا عن النصيحة القائدة إلى رضا مليكهم تسلم

وتغنم، واخدمه بجد وأسلم له نفسك وأمرك كله بذلة تربح وتظفر، ومن قولهم: من جد في الارتحال وصل إلى الاتصال ومن نصح في الخدمة نال من كريم البغية، من الله علينا وعليك برحمته ولا حاد بنا عن سواء سبيله .

اسمه تعالى المجيد

تقول: مجد الرجل يمجد وأمجد إذا أكرم فعله، ويقال أيضًا: مجدت الإبل تمجد مجودًا إذا نالت شبعها، وأمجدتها أنا، أي: أنلتها ذلك، والقوم في مجد، أي: في سعة وخصب، ورجال أمجاد إذا كانوا كرام الأفعال ذوي أحساب وسعة أحوال، فالمجد إذا كرم الأفعال مع سعة الجدة تمكن الملك وشدة السلطان وكثرة الأفضال، لأن كرم الأفعال إنما ينبسط مع سعة الجدة، ويتمكن الملك مع عظيم الهيبة في قلوب العبيد، وبشدة السلطان تلزمهم المخافة، فهم في هذه الأحوال بين الرجاء والخوف على قدر تمكن الملك من هذه الشروط، فشدة الهيبة تعطيهم، وقوة الرجاء تقدمهم، وعظيم الخوف ينفرهم، ولرفيع درجات الملك لا ترضى لعبيده إلا بأرفع الدرجات، ومنه قول رسول الله ﷺ: **«قال الله ﷻ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله ﷻ: مجدني عبدي»** [(١)] .

للمجد أربعة أركان لا يكون موجودًا وجود كمال إلا باجتماعها وهي: الملك، والسلطان، وكثرة الجدة، وكرم الأفعال، وقول القائل: هدمت ركن المجد إن لم أفعل كذا، أي: تركت فعل المكارم وركبت دنيات الأمور، فيكون بذلك هادمًا لأحد أركان المجد، وإذا كان الملك قد تمكن سلطانه وكثرت مماليكه وازدحمت عليه حوائج العبيد مع رفعة منزلته صفوحًا عن الجاني، كريم العفو عن المسيء، غافرًا للذنب، قابلًا للمعاذير، حسن الإجابة للصريخ، مكسبًا للمعدوم، يكرم الوفود، ويغيث الملهوف، ويحمي البيضة، ويذب عن الحريم فهو مجيد، وقد مُجِّد بكريم فعله وشرف مرتبته وعلو منزلته، فكيف بملك لا تقدر الأوهام قدره ولا تبلغ الألسن وصفه ولا تهتدي العقول إلى معرفته، بل ليس في معناه منبسط وهم ولا في المسألة عنه جواب، فلو كانت الأشجار بأجمعها منذ خلقت الشجر إلى أن تفنى أقلامًا، والبحار مدادًا ريمد البحر أضعافها إلى أن يفنى العدد والخلائق أجمعون كتابًا أبد الآبدين ودهر الداهرين لم يُبلغ

---

(١) سبق تخريجه في باب اسمه الأمين سبحانه .

له مدائح اختص بهؤلاء انقضت له كرامات اقتطعها، إنما أسماؤه تعبير ونعوته تفهيم، ألهم العباد تحميده وعرفهم توحيده، وأوله العقول الأوهام على تمجيده، كل شيء لعزته راهب، وإليه راغب، ولكبريائه خاضع، ولأمره طائع، ولديه ضارع، ولسلطانه خاشع، لا ينازعه فكر ولا يخالطه شغل ولا يمازجه الخلق، إنما قربه كرامة، وبعده إهانة احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، لا تقاربه الظنون ولا تقابله العيون جل جلاله وتقدست أسماؤه وعلت مشيئته .

اعتباره

كل وصف عن وجود الملك وصفاته الذاتية ومدائحه الأزلية كالعبارة عن الجمال والكمال والتمام والبهاء والسناء والسؤدد والشرف وعظيم الملك وحسن الملكة للملكوت وكثرة الجنود وحسن طاعة الخدام، مع ما اتصف إلى ذلك من وصف بهجة الحضرة وإشراق الحومة وسعة الخطة وسماحة اللقاء وكرم الفعال فهو تمجيد، وإنما هذا إيماء إلى غرض خطير، وإشارة إلى معنى عظيم، والتفصيل يكثر الكلام ويطول، وبالإيماء يكتفي الألباء، ويتبع المجد الثناء والسؤدد والثناء من ثنيت الشيء أثنيه، أي: جعلته ثانيًا لأول، كان له مثل ذلك أن تصف رجلًا بكرم وعطاء ونفع ورفع وعلم وحلم وسؤدد وشرف ونحو ذلك .

وهذه معانٍ معلومة لليمين وتصفه أيضًا بمنع وضر وخفض وعقاب وبطش وسرعة أخذ ونحو ذلك من معاني الشمال فمتى وصفناه بأنه مخرج معاني الشمال على سنن معاني اليمين فتجعل مكان المنع عطاء ومكان الخفض رفعًا ومكان البطش رفقًا، أو تصفه بأن يكون منعه في مقاومة العطاء هي مقامه، والخفض في مقاومة الرفع عدلًا وحكمًا فهذا هو الثناء ؛ لأنه قد شاء موضع اليمين على موضع الشمال، ولذلك يقول الله تعالى حين يتلو عبده قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، «أثنى عليَّ عبدي»[1]، لأنه أبدل السطوة والبعد الرحمة والقرب، ولأنه أيضًا أثنى مدائح اسم الرحيم على مدحه اسم الرحمن، وثناهما أيضًا على ما تقدم ذلك من مدائح الحمد والربوبية .

وأما السؤدد فهو من ساد يسود وأصله من السواد هو ضد البياض، يقال: لكل شخص سواد ؛ لأنه يمنع البصر من التخطي عليه، إما بعض المنع وإما كله لزوم

---

(١) هو الحديث السابق وقد سبق .

وصف السؤدد السيد من أجل كثرة أتباعه، يقال: رجل سيد إذا كان كثير الأتباع، فلكثرتهم يكثر سوادهم، وأصل سيد سيود، ويقال منه: ساد القوم يسودهم سودًا، ومما يقارب هذا المعنى لتقارب الحروف والبناء السداد، يقال منه: رجل سديد، يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون أصله من السداد وهو القوام.

والآخر: وهو أصل لهذا، وهو السد، أي: سد ثلم من إليه حياطته، ومنه: سداد الثغر يسد بذلك ثلم المسلمين أن ينالهم العدو منه، فهو للعدو سد، وفعله سداد للمسلمين، ومنه: التسديد، يقال من ذلك: سددت فلانًا لمرشده، وسددت السهم للغرض، واستد ساعد فلان للرمي، كل ذلك عبارة عن سد الثلم؛ لأنه يمنع بذلك السهم من الصدوف إلى غير الغرض المقصود، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1]، ثم ذكر مقامه المحمود يوم الجمع المشهود، وأنه يسد يومئذٍ مسدًّا لا يسده غيره، هذا أصله والله أعلم.

وقد قال بعض المسودين لقومه: إنما سدتكم ببذل المال وحماية الحريم والكف عنكم مع الإفضال عليكم، فمن فعل مثلي فقد ساواني، ومن سبقني فقد سادني، ومن زدت عليه فقد سدته، لم ينبع ذلك الجاه من حيث إنه من سد لقوم ثلمهم فقد سادهم، وكان وجيهًا عندهم ولا تمتنع النفوس من ذلك، وجماع هذه الصفات عند السيد الحق الحميد المجيد ـ جل ذكره ـ لكن بينها ما بين صفات العبودية والربوبية، هو يسد ثلم العالم كله جملةً وتفصيلًا، فيمسك السماوات والأرض أن تزولا، وهو القائم على كل شيء والمحيط به من ورائه، وفي ذلك من التفصيل ما يقف على الإيماء إليه أولو الألباب والتفكير، وجملة القول في ذلك أنه لا يقوم شيء إلا به، ولا يوجد إلا بإيجاده، واستعمل الفكر في هذه المعاني كلها، فبذلك تستخرج فائدتها وإلا ذهبت عنك صفحًا وكنت عنها من الغافلين.

---

(١) رواه مسلم في «الفضائل» (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، بدون لفظ: «ولا فخر»، ورواه بلفظه الترمذي في «التفسير» (٣١٤٨)، وفي «المناقب» (٣٦١٥)، وابن ماجه في «الزهد» (٤٣٠٨)، وأحمد (٣/ ٢) من حديث أبي سعيد ﷺ، وصححه الألباني في سنن الترمذي وابن ماجه.

التعبد

جملة التعبد بهذا الاسم الكريم إنما هو عقد وقول، فالكلام في العقد قد تقدم، والقول كلام بتمجيد المجيد الحق، وأولى الأسماء بمعنى التمجيد على فهمي - والله أعلم - فاسم المبارك، إذا أضيف إلى اسم الإله ثم حققت له الوحدانية، ثم تذهب بالتمجيد مذهبه وتجري فيه على سننه، كقولك: تبارك الله الذي لا إله إلا هو الملك الأمين القدوس تبارك الله الذي لا إله إلا هو العزيز الجبار السبوح، تبارك الله الذي لا إله إلا هو الدائم الحي القيوم، تبارك الله الذي لا إله إلا هو الخالق البارئ المصور، تبارك الله الذي لا إله إلا هو السلام المؤمن المتكبر إلى آخر التمجيد .

وأما الثناء: فقولك: هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الطول والآلاء والإحسان والنعماء، هو الله الذي لا إله إلا هو خالق الخلق ومقدر الرزق ومفرج الكرب، هو الله الذي لا إله إلا هو المغيث في الضراء، والمعين في البأساء، هو الله الذي لا إله إلا هو الثقة والرجاء والكفيل بما شاء هكذا أيضًا إلى آخر الثناء .

اسمه تعالى الجبار جل جلاله

معنى هذا الاسم - والله أعلم - متردد بين معاني أسماء العلو القهر والعظمة، ومحصوله في المعهود من معناه الإجبار والاضطرار، وفي الحقيقة رد الأشياء بعد تغيرها إلى حالتها المعهودة، من ذلك قولهم: الجبار للعاتي من الملوك، وفعله الجبرية والجبروة والجبروت ؛ لأنه أجبر الناس عن مرادهم إلى مراده وحكمه، ومنه نخل جبار إذا ذهب علوًّا وكانت فيه مع ذلك فتوة وقوة، وقولهم: جبرت العظم فجبر ؛ لأن ذلك قهر له، والجبارة: ما وضع على الكسر لينجبر، وكذلك قولهم: جبرت الرجل إذا أحسنت إليه، وإذا أصرته من حالة الضر إلى الحالة المثلى، وأجبرته إذا اضطررته إلى ما لا يريد، ومن ذلك أيضًا: الجبار ما يهدر من الدماء ؛ لأن المظلومين بالدم مجبرون بوضع الدم عنهم ؛ كجبر الكسير، ثم يلحق بذلك أن يكون أولياء الدم اضطروا إلى ذلك فلم يجعل لهم في هذا الحكم سلطانًا وسمي يوم الثلاثاء: جبارًا والله أعلم المعنى هنا غامض، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر والماء يوم الاثنين، وخلق الظلمة يوم الثلاثاء»[1] .

---

(١) رواه مسلم في «صفات المنافقين» (٢٧٨٩)، وأحمد (٢/ ٣٢٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ «المكروه» بدل «الظلمة» .

والظلمة في نفسها مانعة للمفترق من البصر وغيره، وكثيرًا ما يكون عنها اضطرار وتضييق أو يكون مع الاسم تفاؤلًا، كما سميت الخرقة على الكسر جبارة وجبارًا، وكما سمي القفر: مفازة، واللديغ: سليمًا، وإذا تأملت الحروف ألفيتها تعطي كل حرف منها حيث يظهر سلطانه، وتبدو أفعاله، وذلك لمجاورة ما جاوره من الحروف سواه قسطه المقسط له، حتى إذا احتملت الحروف بجملتها، ثم المعنى الذي جعلت مغيرة عنه وعلى قدر النقصان منها، والزيادة فيها من غيرها وامتزاجها بخواص غيرها من الحروف، يكون تمام المعنى الذي يعبر عنه بها ونقصانه، من ذلك قولهم: رجبت الرجل بمعنى عظمته، والرجب الهيبة، والله أعلم.

سمي الشهر رجبًا وأوجب الله تعظيمه لما فيه من الحروف التي تدل أو تعبر عن معنى العظم والهيبة، ثم قالوا: رجب شهر الله الأصم، ومن ذلك قولهم للرجل العظيم البطن: بجر وقد بجر، والبجر الأمر العظيم، والبجار الدواهي، وكذلك قولهم: البرج، يعبرون بذلك عن سعة بياض العين، وتبرجت المرأة: أبدت وجهها، والبرج واحد البروج من السماء، كل ذلك تدل على السعة والعظم، وقيل لحساب مبهم ما جذر كذا ما مبلغ كذا: برجان ؛ لعظم تفسير المبهم على النفس، وربما أبدلوا الباء بالميم فتبقى مع ذلك معنى من معاني الجبروت ؛ لقرب مخرج الباء من الميم ولبقاء الجيم والراء ؛ كقولهم: الجرم جرم الجبل، وأجرام الكواكب، يعنون: أعظامها، وكذلك الجريم الجلة من الإبل، والجرم أيضًا الصوت والجميع: أجرام، وكذلك قولهم: جرم على نفسه وقومه شرًّا، وحول مجرم، أي: تام، وتجرمت السنة نقصت عن ذلك أيضًا، ومن ذلك قولهم: مجرت الناقة مجرًا إذا حملت وعظم حملها فلم تستطع القيام، ومجر مجرًا إذا أكثر من الماء فلم يرو المجر العسكر الضخم العظيم، وكذلك المرج: أرض ذات نبات تمرج فيه الدواب والماء والنبات، أي: تختلط لسعته، والمارج: اللهب الشديد.

فانظر ـ هداك الله ـ بعقلك وتدبر حكمته تبصرها جارية في مخلوقاته وآثاره موجودة في مصنوعاته تحتوي على ما جعلت له من المعاني احتوائها على حروفها وتباينها على قدر تباينها بأقساط مقسطة وأوزان معدلة تقدير العزيز العليم.

اعتباره

العوالم كثيرة، والمفهوم منها باعتبار المعتبرين ثلاثة:

أحدها: عالم الملك، وهو عالم الشهادة، وهو أكثر عمارة باعتبار المعتبرين، لوجود ذواتهم فيه وظهوره لحواسهم، ومنزلته من المخلوقات بين يدي مدبره بمنزلة المولود ساعة يولد، لم يستهل بعد صارخًا فالذي يبدو منه من حجم وتخطيط صورة وشكل مما تدركه الحواس الخمس، هو عالم الملك والشهادة ثم عالم الملكوت، وهو عالم المولود بمنزلة لزوم أجزائها بعضها وانقسام غذائه وتحوله في كل عضو منه وموطنه إلى نحو ما جعل ذلك العضو له بتعديل ذلك كله وتقسيمه وتقسيطه، وتماسك أبعاضه الباطنة، ولزوم صفاتها إياها ملك، كالعلم والعقل والفرح والحزن والإرادة والقدرة ونحو هذا.

وإلى هذا العالم الإشارة في الرسالة بالنظر والاعتبار والبحث وتطلب درجة اليقين من المعرفة به، وبإصلاح السير والمعاملات في عالم الملك أتت الرسل، وأن عالم الملك وجوده، ثم عالم الجبروت وهو من المولود وجوه عالم الملكوت بمنزلة الطفل إذا استهل صارخًا، ثم نشأ حتى بدت له إرادة وقوة وقدرة وكلام ونحو ذلك، وأما وجوده في أنه المعلوم فربما أتى ذكره مشارًا إليه في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

وبهذا العالم تدبير عالم الملكوت ومبعثه إلى عالم الملك والملكوت من الأزل وأنه هو الدهر الماضي، وهو المشار إليه بقوله ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقها بخمسين ألف سنة**»[1].

وهو المشار إليه بمنزلة إنشاء النطفة إلى ما قبل ذلك، وأما من لدن تخمير للنطفة إلى حين الولادة فهو المتشبه ما بين العالمين، وأنه من الدهر، أعني: ما بين العالمين موضع قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

ثم ما قبل عالم الجبروت عالم ولوائح وتقديرات لا يحصيها غيره سبحانه القديم الأزلي الموجود علمه وحكمه في الدهر الماضي والدهر الباقي، وخاصة هذا العالم من حيث الأزل التقدير كالمتقدم في الأمور ونحو ذلك، وخاصته في عالم الملكوت التقييد والإمضاء وخاصته في عالم الملك الجبر على المقدور الأزلي، فكل حركة في عالم الملك والملكوت قد أحاط بها معنى الجبر والاضطرار ؛ لأن ذلك حقيقة الملك، وما تخللها من

---

(١) رواه مسلم في «القدر» (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

حركة الاختيار في عالم الشهادة، فلأجل الحياة الحالة في محل الحركة وشرفها لأجل شرف الروح، ثم الابتلاء المقدور والجبر مع ذلك أصلها من حيث كان الاختيار أيضًا حقيقة الجبر، وتمهيد ذلك بأن تقول الحركة تغيير يحل بالمتحرك يكسبه حالًا ووصفًا لم يكن عليه قبل، وقد يجوز بأن يعبر عن هذا المعنى الذي يحل بالمتحرك بالنقلة وبالاستحالة، من حيث إن ذلك تغير، غير أن النقلة معهودها في الأمكنة، والاستحالة معهودها في الأحوال، والتغير يجمع ذلك كله، ولا بد للحركة من خمسة شروط بوجودها واستبقائها، توجد بالحركة ولا توجد بعدمها ولا بعدم شيء منها، وهي:

المحرك، والمتحرك، والمتحرك فيه، والابتداء، والغاية .

فالمحرك: هو المصرف المدبر وهو الأول جل وعلا، وهو المحرك ليس بمتحرك ولا محرَّك .

المحرك المتحرك: هو الإنسان وشبهه الذي ينسب إلى الاختيار، والمحرك الذي ليس بمحرك ولا متحرك إلا على المجاز والاتساع هي: الجمادات ونحوها، فكون الإنسان محركًا هو من جهة الاضطرار، وكونه محركًا من جهة إنفاذه مراده، وكونه متحركًا يلحقه مع اتصافه بهذا الوصف .

والمتحرك فيه: هو الزمان والمكان والابتداء والغاية تكونان في المتحرك فيه بجملته وتوابعه على ما يأتي عليها من حكم إرادة المحرك .

والحركة بنفسها تنقسم من جهة الوجود في المخلوق إلى قسمين:

ضرورية: وهي الأصل فيها الذي منه تنبعث وإليه تعود .

وكسبية: وهي الفرع لما سنبين فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وتنقسم من جهة المعنى أقسامًا خمسة يكثر تعدادها لكثرة المرادات بها والاضطرار على وجهين:

اضطرار إرادة وقدرة معًا؛ كحركة المحل بالفالج، وكحركة الشجرة بالنسيم وغيره .

والوجه الآخر: اضطرار إرادة لا قدرة ؛ كحركة الذي يقدم إلى القتل فيفعل السعي إلى المكان الذي يقتل فيه بقدرته لا بإرادته، وحركة النائم والمغمى عليه غير هذين وغير خارجة عنها، وربما أتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

وأما الحركة الباطنة فهي أيضًا على نوعين: ضروري: وهو الجبر، وكسبي: وهو

الاختيار، وقد تقدم لنا أن مبعث الاختيار من المخلوقين جبر، فالنوع الضروري منها هو الشيء الواقع في النفس ابتداء، وهو أيضًا على نوعين:

نوع منه لا تشعر به النفس، ولا تفطن له، ونوع منه هو مما تشعر به النفس وتفطن له، وعليه يقع كلامنا ههنا، ولم ينقسم هذا النوع من الحركة من جهة نفسه؛ إذ نفسه جبر محض، وإنما انقسم من جهة حاله وانفعاله فيقول: إن الشيء في النفس ابتداء هو المعبر عنه بالهاجس والخاطر واللمة ونحو ذلك، وهذا النوع من الحركة اختراع منه سبحانه وتعالى وإجبار منه للواجد لها وضرورة له، فإذا شعرت النفس حدث لها نوع آخر من الحركة وهذا النوع غير خارج عن كونه ضرورة للعبد وإجبارًا، ثم لا تخلو النفس حين شعورها به من أن تنظر فيه وتميزه من سواه أم لا، فما لم تنظر فيه لحق بالنوع الأول الذي لم نتعرض لذكره مغفولًا عنه بعد أن كان مذكورًا، فإن نظرت فيه حدث لها أيضًا نوع آخر من الحركة، ونظرها فيه لا يكون إلا بترداد وتفكر، فإذا فعلت ذلك وقع منها أنواع كثيرة من الحركة.

ثم يقع التمييز بعد ذلك، تمييز المحبوب من المكروه، وهذا النوع هو نوع العلم، وإن كان ما تقدم لا يخرج عن أن يكون علمًا ولكن التمييز أخص بنوع العلم، فإن كان من قبيل الخير كان إلهامًا، وإن كان من قبيل الشر كان وسواسًا، وإن كان من المخاوف كان إنجاسًا، ثم يقع الاختيار بنوع آخر من الحركة فتقع الإرادة للنظر في ثاني حال شعورها بالخاطر وفطنتها به، ويقع التمييز ثاني حالي وجود النظر ويقع الاختيار ثاني حال وجود الميز، والتمييز غاية لأفعال القوى الباطنة من النظر على نحو ما تقدم التفاضل في التمييز ومنزلته من العلم من لدن غلبة الظن إلى اليقين التام، فما كان من تقدير الخير وأمله فهو نية، وما كان من التدبير والتمني فهو أمنية، وما كان من تدبير المناجات وترجيها فهو أمل، وما كان من تذكر الآخرة ووعد ووعيد فهو تذكرة وتفكر، وما كان من تحدث النفس بمعانيها وأحوالها فهي: همم، وكل ذلك يسمى خاطرًا وهمة نفس وإلقاء من ملك أو عدو، فما كان منه قبل التمييز فهو من خاصة عالم الجبروت، وما كان بعد لك فهو من عالم الملكوت بمشاركة الجبروت، ومبلغها مع التحصيل ثلاثة أضرب معفو عنها بحمد الله ﷻ: أول ذلك الهمة يجدها العبد بالحس كالبرقة، فإن صرفها بالذكر أمحت، وإن تغافل عنها كانت خاطرًا، وهو من خطور العدو بالتزين، فإن بقي

الخاطر ذهب، إن تركه بالغفلة صارت وسوسة، وهذا محادثة العدو للنفس وإصغاء النفس إليه، فإن نفي العدو بذكر الله ﷻ خنس العدو وضعفت الوسوسة، فهذه الثلاثة معفو عنها برحمة الله تعالى.

وإن أمرج العبد النفس في المحادثة وطاولت النفس العدو بالإصغاء والمحادثة قويت الوسوسة وصارت نية، فإن تاب العبد واستغفر وأبدلها بنية خير، وإلا قويت فصارت عقدًا، فإن جل هذا العقد بالتوبة وهن الإصرار وإلا قوي وصار عزمًا وهو أول القصد ثم تأخذ القوى في إخراج ما ميزته إلى العقل إن كان مما لا يتم إلا خروجه إلى الفعل، وذلك إخراجها من عالم الملكوت إلى عالم الشهادة، فتصير الحركة في هذه المعاني من أعمال الجسم أعمال بر أو إثم، فما كان منها من البر همة ونية وعزمًا كان محسوبًا للعبد في باب النيات مكتوبًا له في ديوان الإرادات له به حسنات، وما كان منها من الشر نية وعقدًا فعلى العقد فيه تبعات من أعمال القلوب نريد ما يتم في النيات دون الجوارح ونيات السوء وعفو المعاصي، وأعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم من الأجر والوزن معًا، إلا ما لا يأتي أن يعمله بظاهر الجسم من شاهد التوحيد أو وجود الشك والكفر.

وبعد، فتحرك المتحرك وتوابعه ما تقدم ذكره من الحركة وتوابعها موجودة عن المحرك الأول سبحانه وله الحمد، وهو المدبر للأمر تدبير الأمر للملك وإمساك الجملة للهالك، وتقدير المقادير للجبار الحق، وإمضاؤها جبرًا وقهرًا على مشيئته العالية وتقديره السابق، فرغ ربكم فرغ ربكم، والتأثير لا محالة لازمة عن الحركة بإذن الله ﷻ كالألم عن الضرب وقطع المسافة عن الانتقال وتسويد الكاغد بالمداد مع تحريك القلم عليه باليد، كما أن الصور لازمة من التأثيرات، كتصوير الحروف عن تسويد القلم الكاغد بالمداد حتى تكون الحروف على صور تتميز بها المعاني، وككون القاطع للمسافة بالحركة في مكان غير المكان الذي كان فيه قبل الشروع في الحركة ونحو ذلك، والحركة لازمة عن القدرة، والقدرة لازمة عن الإرادة، لكن ليس كلزوم الحركة من القدرة والتأثير عن الحركة، والصورة عن التأثير فأصغ إليَّ بسمعك، وأحضر معك قلبك إن القدرة وما فوقها بالإضافة إلى ما دونها من عالم الملكوت وما دونها هو من عالم الشهادة بالإضافة إليها؛ فلأنها من عالم الجبروت بالحظ الذي انتسبت به إليه أعطيت من الحرية

حظًا بقدر ذلك ولم يبالغ في حريتها لكونها من عالم الملكوت ؛ لأنها بذلك من جملة العبيد، ألا ترى أن حركة النائم والسكران المستغرق سكرًا والمغمى عليه والساهي وما أشبه هؤلاء لا تنحل حركاتهم عن قدرتهم وتنحل عن إرادتهم، لكنها لا محالة لازمة عن الإرادة المحيطة العالية إرادة المدبر الحق، وكيف كان الأمر وعلى أي وجه توجه.

فالجبر والاضطرار لازمان لجملة المخلوق، وإرادته بعد هذا قائمة مقام الاختيار بالإضافة إلى نفس عقله وعمله، بالإضافة إلى نفس العلم السابق والتقدير المرصد والأمر المحيط والإرادة العالية مجبورة مضطرة، ونمثل ذلك بمثل وإن كان واسطة بين علم التوحيد وبين علم المعاملات، لكنه من باب الأحوال والأحوال واسطة بين المعلوم والأعمال برجلين قائمين بمرأى من الملك، فأرسل إليهما الملك رجالًا يأتونه بهما سحبًا وجرًا، ففعلوا بهما ذلك فلما بلغوا بهما إلى مكان ببعض الطريق تلقاهم من عند الملك رجال فقالوا لأولئك: خلوا عنهما، ففعلوا، ثم قالوا لهما: إنكما بمرأى من الملك وقد أرسلنا إليكما لنخبركما إذنه، كيف يختار كل واحد منكما الورود عليه سحبًا أو جرًا أو مروحًا مطلقًا، ونحن نخبركما عنه أنه من ورد عليه مسحوبًا في طريقه هذا إليه مجرورًا فإنه يطلقه من وثاقه ويكرمه ويسكنه داره ويكتبه من أوليائه ويجعله من خيرته، وأنه من ورد عليه مطلقًا مروحًا، وأنه يأمر بإيثاقه وسحبه وإهانته وجره على أقبح الوجوه وأخس الهيئات، ويسكنه دار سخطه وعذابه، وهو مع ذلك لن يخرج في كلا الوجهين عن حكمه وتدبيره، فإنما أولئك الذين أوصلوكم إلى ههنا عبيد الملك ونحن الذين تلقينا عبيد الملك، ولا نفعل شيئًا إلا بحكمه على سنن تدبيره، فاختارا لأنفسكما فكل واحد منكما لابد قادم على الملك ومجازيه على اختياره، فاختار أحد الرجلين أن يطلق ويروح عن وثاقه، واختار الآخر أن يرد على الملك موثوقًا مغلولًا ومحمولًا سحبًا وجرًا، فسار أولئك يصاحبهم على طريق وهؤلاء أيضًا يصاحبهم على طريق فقل ما ساروا حتى أوعز الملك إلى أصحاب الوثاق أن كلما سرتم بصاحبكم خلوا عنه من وثاقه وأقيموه ماشيًا وأطلقوا له في أمره ويسروا عليه ما تعسر منه وبشروه عني وبلغوه عني خيرًا، فلو قدم عليَّ لأقررت عينه بإكرامي له، وأوعز إلى الآخرين أن كلما سرتم بصاحبكم غلوه من حيث لا يعلم، وأعموا بصره من حيث لا يبصر طريقه إليَّ، ثم اسحبوه وجروه وهو لا يشعر، وخوفوه من وروده عليَّ ولابد له من ذلك، وبلغوه عني

شرًّا وهيئوا له اختياره وزينوا له شأنه، فلو قد ورد عليَّ لأسخنت عينه بما يلقى مني من الخزي والإهانة، فامتثل الفريقان ما أوعز إليهما الملك من أمره، فقل ما لبثا حتى وردا على الملك فأنجز لكل واحد منهما ما وعده به .

فالملك هو الملك الحق جل جلاله، والرجال المرسلون إلى الرجلين هم القوى التي جعل الله لعبده الحركة والقدرة والتأثير اللازم عن الحركة، فهم يحملون الإنسان بإذن الله مسحوبًا مجرورًا من حيث الاختيار له في لزوم بعضها عن بعض، بل هي لازمة لما لزمت له شاء المخلوق أم أبى، والمكان الذي تلقاهم فيه أولئك هو مكان الإرادة وتخيرهم له هو ما يجده المكلف من الاختيار، وتلك فسحة المهل بين ضغط المتادير اللازمة، فأن يكون مجرورًا من هناك هو أن تلتزم وثاق العقل على حكم العلم الكتاب والسنة وتدخل إرادته في العبودية المحضة حتى يكون عبدًا حقًّا في طريقه كله وشأنه أجمع، وإطلاقه هو أن يطلق على قوى شهوته وهواه ويباعد حكم العلم وثاق الشرع، وكون الرجال عبيدًا للملك هو عدم خروجهم به عن العبودية وحكم الإرادة العالية وتدبير الملك، وإيعاز الملك إلى أوليائه بما أوعز به إليهم في الرجلين هو ما يجده الملتزم عبوديته للملك الحق من الحرية والعزة بربه، وما يجده من الانشراح والنور البشري إذا ذكر القدوم على ربه ﷻ بمعرفته منهم بعظيم صدقه وجزيل ثوابه، وعظم قدرته على إكرام مثواه عنده، كما قيل في الحكمة: من أراد العاقبة فليلتزم التقوى، وفي الآخرة ما يجده من العبودية المحضة للخلق وكلب الطمع ولزوم الطمع واستحكام الشهوة وغلبة الهوى وظلمة القلب، فأصبح بذلك عبدًا للعبيد ونهبًا لقرناء السوء، كما قال الحسن رحمه الله: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ووطئ الناس أعقابهم إن ذل المعصية لفي رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه، وكذلك من صبر على حكم الشرع وما أمره ربه ﷻ عاد كرهه طوعًا وعسره يسرًا، ومن انطلق على هواه وشهوته عاد يسره عسرًا أو طوعه كرهًا، والعاقبة للتقوى، فالإرادة في العبد هي موضع الحركة لو كان حرًّا وعلى إدخالها في العبودية ولها من الحرية في الظاهر هذا الحظ يكون الجزاء، وعلى إخراجها من العبودية وهي في وثاق ربقتها يكون العقاب، فافهم .

واعلم أنه لا يتصور الاعتبار في عالم الجبروت ولا يطرقه الفكر إلا بإحضار عالمي الملك والملكوت، فإن كان نظرك فيه من حيث هو من أسماء الأفعال هو بمعنى أنه قدر

مقادير الخلائق في الأزل، ثم خيرهم حال وجودهم على ما قدره لهم وفيهم، وإن كان نظرك فيه من حيث هو من أسماء الذات جل جلاله فهو بمعنى العظمة والكبرياء والعلو والقدم في الأزل بجميع صفاته وأسمائه، وأولى الصفات بالجبروت الإرادة كما أولى الصفات بالملكوت القوة وأولاها بعالم الشهادة القدرة .

التعبد

اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن الذين سددوا للنظر في جبروت الله عز سبحانه وله الحمد أخذوا علمهم من أول الأمر، وهو المشار إليه بقوله ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢]، وبقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، فثبت يقينهم لذلك وقل عناؤهم.

ومن صفاتهم: أن يكون نظر أحدهم مصروفًا إلى إصلاح حاله، أما ما فات فليس إلى رده سبيل إلا بإصلاح ما هو فيه، وأما ما لم يأت فليس إليه حكمه، وإنما هو بأوانه وحينه ولهم في ذلك درجات ومقامات ومقالات في موجودات يجدونها، ومكاشفات يكشفونها ومذاقات يذوقونها من فتوحات تفتح عليهم، وأمور صادقة تجلى لهم، لا يعرفها الغافلون ويجهلها المبطلون، ثم لا يعلم حقيقتها إلا من قام مقامهم وشرب بكأسهم ومخاطبك ليس هناك، فذكر أخبار المخبرين قصص، ووصف موجودات الواجدين تزين، والله لا يحب التكلف وهو يؤتي فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

غير أنّا نقول بفضل الله ورحمته: آمنا به كل من عند ربنا، وعند الله يحتسب مصيبة التقصير وغبينة التخلف، وإنما قصر بي عنهم حبي لدار ملئت بالفتن، ومع ذلك فبساطهم التوكل وشأنهم التفويض، وكهفهم اللجأ ؛ لأنه حسبهم ووكيلهم، وبنعم الحسب ظهروا وإلى نعم الثقة فوضوا، والتوحيد العلي لهم، هم الذين لا يرون مع الله سواه، ولا يشاهدون في الوجود سوى وجوده، وأهل النظر في عالم الملكوت، هم أهل التوكل من حيث شاهدوا أن الملك كله بيد المالك، هو القابض له والباسط والمانع والمعطي فلم يطلبوا شيئًا من سواه دق أو جل لعلمهم الذي وقر في نفوسهم وأضاء نوره في قلوبهم، وسيأتي ذكره في رسمه إن شاء الله تعالى .

اسمه العليم عز وجل

العلم صفة باطنة للعلم المتصف بها ومعنى موجود به، وينقسم إلى قسمين: قديم

ومحدث، فالقديم: صفة الله سبحانه وتعالى، والمحدث: صفة للمحدث المربوب، وفي هذا يقع التفاضل وكلامنا عليها يتوجه .

وأما صفة القديم ـ جل ذكره ـ فلا ينبغي لأحد التعرض إلى نعتها والكلام فيها، فصفاته هي العلا لا تبلغها العقول إلا إيمانًا بها، ولا تقاربها الظنون إلا تسليمًا، فنقول وبالله التوفيق: العِلم والعَلم والعلامة ألفاظ متقاربة المعاني، مثل ذلك العلم والعلامة تجعلان على شيء ما، فالمطلوب عنهما الموجود عنهما بدلالتهما عليه هو المعلوم، وما حصل من المعرفة بكيفية ذلك الشيء وكميته وصفاته ونعوته وأشكاله وأحواله، وما نحو هذا فهو العلم، وسمي العالم عالمًا ؛ لأنه قام مقام العلم، والعلامة على ما جعل عليه دليلًا فيما حصل عنه من جهة الاستدلال به، فهو العلم والبيان حقيقة العلم عسير ؛ لأن العبارة عنه تقع به .

اعتباره

اختلف المعتبرون في العالم ما هو، فقال قوم وهم أتباع الرسالة: العالم هو كل موجود سوى الله جل ذكره، قالوا: وإنما المبتغي من العالم والمطلوب منه العلم بالله سبحانه وبصفاته وأسمائه، وما يجوز عليه وما يستحيل لديه على ما تقدم ترتيبه، واستمرت لهم على ذلك الشواهد من القرآن والسنة، وحجج العقول على سنن الاعتبار، تركنا اجتلابها طلبًا للاختصار، وقال قوم وهم أتباع الفلسفة: العالم جميع الموجودات من خالق ومخلوق وجاعل ومجعول، وعلى الحقيقة فالمصنوع يشهد لصانعه، والمفعول يدل على فاعله، والأعلى يرشد ويهدي ويعلم، والعلم وغيره من الصفات غرائز غرزت في جبلة الموجودات، وفطرة فطرت عليها المفطورات، تسمو بالإنشاء وتنشرح بانشراح المعاني والقوى، وتقوى بالروح وتظهر بالحياة وتستوي بالإيمان .

وهذه جملة جامعة ذهبنا إلى أن نشير إلى بيانها في الموجودات، إذ هو العالم، وعنده يطلب العلم لانبساطه على المعلومات وشموله لمعانيها اسمًا ومعنى، وبعد ذلك نرجع في الكلام في حقيقة العلم ومبعثه إن شاء الله وقد تحققت الإشارة وبيان المقصود والله المستعان .

انقسم أتباع الرسالة وأتباع الفلسفة في النظر في بدء العالم على قسمين، فسلك أتباع الرسالة سبيل الكلمة في اعتبارهم وتلك سبيل النبوة، وانتظم لهم السبيلان سبيل السنة التي أخذت عليها الفلاسفة، وسبيل الكلمة، وكذلك نور النبوءة يخرق الحجب إلى المعلوم المراد والأعلى أبدًا ينتظم الأسفل، فقالوا في ذلك إن شاء الله جل ذكره: خلق

الخلق كيف شاء ومما شاء وعلى أي وجه شاء، فأفرد وزوج وجمع وفرق في البداية والنهاية، كل ذلك غير متعذر عليه ولا ممتنع: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

والكلام عنوان جميع الصفات معبر عنها من علمه وإرادته وحكمته وقدرته وغير ذلك من الصفات، ومن أجل ذلك سمي فيما بيننا أمر القول الذي جمعه أوامر باسم أمر الباطن الذي جمعه أمور فإحاطة قوله بالمأمور كإحاطته هو به ﷻ قدرة ومشيئة وعلمًا وحفظًا ونحو هذا وإلى، وهو الحاصل المفهوم من هذا هي الإشارة بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، قالوا: فإذا هو فاعل الأشياء حقيقة، وكل فعال سواه فعن إذنه وعونه، وكل فاعل سواه قرب أو بعد سواء في الحاجة إلى معرفته ومشيئته استوت النهاية والبداية والكثرة والقلة والوكيل، وما وكل عليه والمدبِّر والمدبَّر في الحاجة إليه، وإن معونته وإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى عن غير هذا وهو بكل شيء عليم وحفيظ ومحيط، وعلى كل شيء قدير وشهيد ورقيب، النزيه عن كل نقص، الغني عن كل شيء، المالك لكل شيء، هذا وشبهه معتقد أهل السنة المتوجهين إلى الحق سبحانه الطالبين له.

وشكك أتباع الفلسفة في أكثر هذه العقود، وإنما كان ذلك منهم لأنهم أفردوا نظرهم لسنة الله جل ذكره في خليقته، فطال لذلك طريقهم، وجار عن القصد بقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]، فتفرغوا لاستقراء طرق الحكمة في صنعهم بزعمهم، وهذا لا يتم للناظر دون إضافة الكلمة وسلوك سبلها مع السنة وباستصحابها يتم النظر ويزكو الاعتبار إن شاء الله مما شككوا فيه إذ قالوا: كيف يوجد الواحد الذي لا يجوز عليه التكثير المفعولات الكثيرة ؟! قالوا: بل كيف يوجد الحكيم السفه ؟ وكيف يوجد العدل الجور ؟! واستمروا في نظرهم على هذا، فاضطرهم ذلك إلى التثنية وإلى التثليث، وإلى أن قالوا: إن فاعل العالم أربعة فواعل، ومنهم من خمس، وتخبطوا في ذلك بما يشبه ضلالاتهم وبعدهم عن هدايتهم.

ومنهم من وجد بإجماع الجملة فسماه طبعًا دونيًا، ومنهم من وصل بهمته إلى الواحد الحق فاعتقده جاعلًا للخليفة وصانعًا، لكنه لم يهتد لطريق الكلمة كما تقدم، ثم تفرقت الطرق بالواصلين، فمنهم من نظر إليه سبحانه من حيث منعه من الجهل بسنته في

خليقته فرأى الأسباب تجري على طريق مسبباتها، والأفعال في الظاهر تصدر عن أيدي فاعليها المسمين بفاعلين على وجه المجاز، بالإضافة إلى الفاعل الحق، فاعتقد معه شريكًا من أجل ذلك، وجعل له من عباده جزءًا سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا .

ومنهم من تشبه بصنعه وسوى بينه وبين خلقه، وذلك عن أثر اسم الواحد الحق المسجى في أصل الخليقة التي يكون عنه الأشباه وهو المسمى العبد .

ومنهم من جحد الحق وعَنَد عنه إباءً واستكبارًا لأجل ذلك، وربما آل به الضلال إلى أن يدعو إلى نفسه .

ومنهم من اعتقده واحدًا لا شريك له ولا مثيل له ولا عديل لكن حجب عن معرفة أكثر الأسماء والصفات فأنكرها .

ومنهم من أضاف إلى ذلك إنكار الرسالة والنبوءة والاختصاص فرد عليه عمله ولم ينتفع بتوحيده، إذ كان شارعًا لنفسه .

ومنهم من فضل الرسل والأنبياء ورأى لهم الحق لكنه اعتقد أنهم أرسلوا شارعين إلى من لم يصل إلى المعرفة التي تقدم ذكرها، قالوا: وإنما الغرض إرشاد الخليقة إلى بارئهم وخالقهم، قالوا: فإذا وصل الواصل على درجة المعرفة فقد استغنى عن الإرشاد ووجب أن يتوجه بذلك إلى غيره، فهؤلاء ضلوا من حيث اهتدوا إلى النظر في سنة الله تعالى في خليقته وضلوا بتركهم الاقتداء بسنة الله التي شرعها برسله صلوات الله وسلامه على جميعهم لعباده بالأمر والنهي، ولو انكشفت لهم الغطاء لرأوا أنهم في هذه المرتبة بمنزلة الأعور العين اليمنى وعلى العين اليسرى طفرة ؛ لأنهم أصيبوا في عين الإيمان وبقيت لهم عين العقل، لا يضيء إلا بنور النبوة، فكان ذلك نقصًا في عين العقل .

أما علموا إن كانوا وصلوا أن الواحد الحق له الظاهر والباطن فكما للباطن سنة يسير عليها لو أخطأها هلك، وهي جريه على سنة الله جل ذكره في خليقته، هكذا أيضًا الظاهر بسنة يجب عليه امتثالها، وهي سنة رسول الله ﷺ وإلا ضل ثم هلك، وإنما يضيء موضع التوحيد بنور النبوة وسنة رسول الله ﷺ تظهر أفعال التوحيد، وهناك يتصل الظاهر بالباطن وإلا عاد موضع التوحيد ظلمة، ومثل التوحيد مع النبوة مع العمل بشرعتها مثل القوة مع القدرة والحركة، ومثل الإرادة مع المشيئة مع التدبير، ومثل اللب مع العقل مع الحس، ومثل المعرفة مع العلم مع المشاهدة، لا يتم واحد

منهم دون صاحبيه، فالظاهر بالباطن، والباطن بالظاهر والفطرة بالشرعة والشرعة بالفطرة، والوصول بالوصل والوصل بالوصول، هذا هو الدين القيم والصراط المستقيم والسبب الموصل، فافهم.

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤]، ولما بدت آثاره جل ذكره في المصنوعات فبطنت فيه كما تقدم وظهرت وتأخرت وتأملت وأحاطت بالمصنوع هذه الإحاطة لزوم المصنوع في هذه الأركان الأربعة المحيطة به إحاطة أخرى أحاطت بتلك المعاني المتقدمة الذكر التي سمتها الأوائل طبائع وأحاطت أيضًا بحاملها.

وهذه المحيطة بما تحتها المشار إليها ههنا قوى ملكته، أوجدها سبحانه عن إثارته في المصنوع، فلها سخرت تلك المعاني الأول التي قالوا فيها: إنها هي الطبائع وربما انبسطت، وفي طرفها سرت الروح والنفس وتنزل الأمر وتركب الصنع وهي سبل الروحانية ومقامات الملائكة صلوات الله على جميعهم في مصافها لتدبير ما جعل إليها والشفاعة إلى ربها ﷻ في إتمامه، وهي القوة الماسكة والقوة الرافعة والقوة العادية والقوة الجاذبة والقوة الهاضمة والقوة النامية، ولهذه قوى أخرى تباع لها فسرى الصنع بهذه القوى سريانه الذي به ظهر الوجود واستوى، وهي من مقاعد الملكوت، ومنها ابتنى وعنها انتشر ثم بدت للموجود عند ظهوره أيضًا جهات هي الأمام والوراء والفوق والتحت واليمين والشمال فأحدقت بها أيضًا إحاطة ضرورية كلزومها غيرها مما تقدم ذكره.

وأوجد عن إثارته جل ذكره في الجهات المحمودة من المصنوع الصفات الكريمة، ثم أوجد عن تلك الصفات الأسماء الحسنة، ثم أوجد الأفعال التي تظهر عنها وتدل عليها وأوجد الجهات المذمومة ضد ما تقدم ذكره من الأسماء والصفات والأفعال، وأصحب الخليقة هذه الجملة مما ذكرناه ومما لم نذكره وما نعلمه وما لم نعلمه فانغمست في أعناق العالم واتحدت معه لوجودها شاكلتها فيه من حيث إن الكل صنع لواحد خلقه بالحق وللحق، قال الله ﷻ لخليله عليه السلام: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة:٢٦٠]، فلم تمانع لذلك ولا تنافرت بل تحادثت واتحدت لقرب تناسبها وتماشج أرحامها، ثم انشرحت بانشراح العالم واتسعت باتساعه على وزن معلوم وأمر مقسط مقسوم، فظهرت الأسماء

والصفات بظهور الأفعال والحركات كما بطنت ببطون المعاني وجمود الجمادات، فتسبح المعاني التي هي الأول الطبائع بحمد ربها وتعظمه، فبالتسبيح قوامها وبالحمد، زائدًا على ذلك تسخير ما تحتها لها من المواد وغير ذلك وعطف ما فوقها عليها من القوى والملائكة إلى ما فوق، وتسبح القوى بحمده وتعظمه فعن التسبيح القوام لها، وعن الحمد تسخيرها دونها، وعطف ما علاها وتسبح الملائكة بحمده وتعظمه، فبالتسبيح قوامها وبالحمد يتم لها مرادها مما جعل إليها تدبيره، ويسبح الموجود بحمده ويعظمه فبالتسبيح قوامه وإمساك جملته وبالحمد ما تقدم ذكره، وبالتعظيم للعظيم الحق يظهر المزيد في كميته وكيفيته ويعظم جرمه ويذهب في الجهات، وهنا ظهر تعظيم ما اشتمل عليه الموجود في هذا قول رسول الله ﷺ للرجل الذي اشتكى إليه العيلة: «**فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق، وبها يرزقون سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[(١)]، وقال الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، ولنا تسبيح هو أبطن من هذا ولهذا قال عز من قائل: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، ثم مزج أيضًا هذا بأشكاله وقرنه بأمثاله وركبه كما شاء سبحانه فانغمس بإذنه في أعماق الموجودات فكل يعمل بأمره على شاكلته من موضع وصفه وموضع امتزاجه ومجاورته ومن حيث ظهر ومن حيث بطن وحيث تأوله وتأخره ومن جميع جهاته الست اختلاف أوصافه وصفاته على التضعيف وتراكمت الموجودات وازدحمت العوالم وتضاعفت الخلائق وتفسحت بلطفه ورحمته وأظهر الموجود بقهره وعظيم اقتداره في أحسن معارضه ومن الموجودات ما ظهرت فيه هذه القوى المذكورة وما فوقها مما تقدم ذكره ومما لم نذكره وانشرح لها الموجود فتمت به أفعالها وظهرت فيه صفاتها التي يسرت له ومنها ما ظهر فيه بعضها وجمد على سائرها فبطنت فيه لذلك لكنها موجودة فيه بالقوة وسنلمح من ذلك إلى أغراض على طريق النبوة يكون تنبيهًا على غيرها إن شاء الله تعالى، إذ طريق النبوة هو النور المبين والمعتصم المنيع.

فنبدأ بالنوع الجمادي الذي هو من جهة العالم بمنزلة العظم من الإنسان فنقول وبالله التوفيق: إنه جمد على القوى والمعاني التي تقدم ذكرها حاشى القوة الماسكة والقوة الدافعة، فإنهما ظهرتا فيه، ومن المعاني البرودة واليبوسة وللجماد صعود إلى حد النوع

---

(١) رواه الدقاق في «مجالسه» (٥٧٨).

النباتي، كالشعر والعصب من الإنسان، وبث الله جل جلاله في عالم الجماد أكثر الصفات التي أوجدها في الإنسان لكن على شريطة غلبة الجمود عليه كمحلها الموجودة فيه، وهذا كلام على المقاربة وإلا فالصفات كلها في غير أنه حمدها على أكثرها كما تقدم فبطن فمنها الشريف والوضيع والكريم والخسيس وجعل لها حبًّا وبغضًا، وصداقة وعداوة، وعشقًا وشوقًا وتوقًا وفكرًا، وحنينًا ونفارًا واختلافًا واتفاقًا، ومنافع ومضار، وأرواحًا وأنفسًا، واختصاصًا وتقريبًا وتبعيدًا، وإكرامًا وإهانة شواهد ذلك كله في الكتاب العزيز وحديث رسول الله ﷺ كقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤]، وقوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨]، إلى غير ذلك يوقف عليه بالاستقراء تركنا لشهرتها سياقها اختصارًا.

وقال رسول الله ﷺ في أحد: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**» (١)، و«**إني لأعلم حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث**» (٢).

وحدث ﷺ عن فترة الوحي فقال: «**كنت آتي الجبل لأتردى من أعلاه فتكلمني الحجارة والشجر: يا محمد ويا نبي الله اثبت فإنك على حق**» (٣)، أو كما قال ﷺ وكذلك ما أعلمنا به من الحجارة المعبودة كلها والبنيات المتخذة من دونه سبحانه وتعالى التي لم ينزل باتخاذها سلطانًا وإنها كلها في النار، قال رسول الله ﷺ: «**يقال يوم القيامة: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد**» (٤)، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

وبالجملة فليس حجر أو مدر اعتمد عليه بيت يعبد الله فيه أو يطاع به كحجر اعتمد عليه بيت يكفر بالله تعالى فيه، وإلى هذا وغيره الإشارة بقوله ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ

---

(١) الحديث رواه البخاري في (٣٣٦٧)، وفي «المغازي» (٤٠٨٣، ٤٠٨٤)، وفي «الاعتصام» (٧٣٣٣)، ومسلم في «الحج» (١٣٦٥) من حديث أنس ﷺ.

(٢) سبق تخريجه في باب اسمه القدوس سبحانه.

(٣) لم أجده.

(٤) رواه البخاري في «التفسير» (٤٥٨١)، ومسلم في «الإيمان» (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧]، فالخبيث ما أشرك به أو أعان على ذلك أو كان إليه له والطيب بضده، والله يؤتي فضله من يشاء.

ولعل من لم يمعن النظر يحيل هذا فيقول: ما للحجارة والجمادات وهي غير مكلفة تعذب بالنار ولم يكن منها إرادة لهذا الذنب ولا نية فيه؟

فجوابه: أن يبين له أن العذاب في مقابلة التمتع بالوجه المُعصى به والإحساس به مقابلة التلذذ والإهانة في مقابلة التعزز والتمتع بالمعصية والتعزز بالعلو والتكبر بغير الحق موجود بالإنسان الكافر، ومن أجل اجتماع هذه الأنواع اجتمع عليه الجزاء من نواحيه والحجارة وغيرها من المعبودات لما لم تتمتع بعبادة المتعبد لها لم يجعل لها حسابًا بعذاب ولما لم يكن حسابًا لم يكن عذابًا في حقها ولما أعزها المتعبد بعبادته، وإن لم يجد المعبود إعزازًا بذلك في نفسه أسكن معه في دار الهون وهي لا تجد ـ أعني المعبودات ـ خزيًا لهونها، بل إنَّا نقول والله أعلم بحكمه: إن الله ﷻ أوجد المعبودات في النار إحساس التلذذ بالانتقام ممن حوله وعمَّا جعل إلهه له من التعريف بربه والدلالة عليه والتذكير به وذلك معنى قوله له: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، أي: من الخلائق أجمعين، وذلك أعظم لندمهم وآكد لأسفهم.

وفي الحديث قال: «**تحاجت الجنة والنار عند ربهما قالت النار: أوثرت بالمتكبرين والجبارين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، فقال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من آشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها**»[1]، فأخبرك نصًا أن النار والجنة يختصمان، وأن النار تفخر بانتقامها لربها من الجبارين والمتكبرين، وأن الجنة تغبطها بمنزلتها تلك من ربها فحكم أحكم الحاكمين بينهما بحكم فصل فقال: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، معنى ذلك أنها وإن كانت تنتقم لي من الجبارين والمتكبرين ومن عصاني فإنك مني بمنزلة من أجازي به، من تواضع لعظمتي وتطامن لعلوي وتذلل لعزتي أرحمه بك، ثم قال لهما: ولكل واحدة منكما ملؤها من هذا والحجارة المعبودة من دون الله سبحانه والمستعان بها على تلك المحولة عمَّا جعلها خالقها له تحمى النار وتوقدها عليهم انتقامًا لله ﷻ منهم،

(١) رواه البخاري في «التفسير» (٤٨٥٠)، ومسلم في «الجنة وصفة نعيمها» (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ثم انشرحت المعاني والقوى أيضًا في النبات أكثر انشراحًا وأوسع انبساطًا منها فيما تقدمت فظهرت فيها المعاني الأربعة وتوابعها والقوى المذكورة وتوابعها، وظهرت فيها بعض أفعالها وأسمائها.

والنبات من العالم بمنزلة اللحم من جسد الإنسان، وينزل إلى النوع الجمادي فيكون ذلك بمنزلة العضل والرباطات من الإنسان، كما يصعد إلى النوع الحيواني فيكون ذلك بمنزلة البصر والسمع والشم وسائر الحواس التي هي مطالع الباطن إلى الظاهر، وما تقدم ذكره في الجماد من المعطيات والهبات والخصوصية والأخلاق والأنفس والأرواح فهي أبسط في النبات وأشرح، وقد نبَّه رسول الله ﷺ على ذلك في النخلة وأنها «مثل المؤمن»(١)، وقال: «نعمت العمة النخلة» (٢).

وقال: «إنها خلقت من فضل طينة آدم» (٣)، وقال في الحنظلة: «إنها مثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن» (٤)، وفي الريحانة: «إنها مثل المنافق الذي يقرأ القرآن» (٥).

وقال في الغرقد: «إنها من شجر اليهود» (٦)، وتتبع هذا يطول.

وبالجملة فشجرة طوبى أم للمكرم من الشجر، وشجرة الزقوم - أعاذنا الله منها - أم للمهان من الشجر، ثم انشرحت أيضًا هذه الجملة في النوع الحيواني البهيمي وانبسطت واتسعت وظهرت أفعالها إلى عالم الملك والشهادة، فبدت الأفعال الدالة على الأسماء والأسماء الدالة على الصفات، كالقدر والعلوم والإرادات وغرائز العقول والتميز

---

(١) رواه البخاري في «العلم» (٦١، ٦٢، ٧٢، ١٣١)، وفي «البيوع» (٢٢٠٩)، وفي «التفسير» (٤٦٩٨)، وفي «الأطعمة» (٥٤٤٨)، وفي «الأدب» (٦١٢٢، ٦١٤٤)، ومسلم في «صفات المنافقين» (٢٨١١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٣)، والديلمي في «فردوس الأخبار» (٢٣٩) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظ: «أكرموا عمتكم النخلة»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٨٩): فيه مسرور بن سعيد التميمي وهو ضعيف.

(٣) هو تكملة الحديث السابق.

(٤) رواه البخاري في «الأطعمة» (٥٤٢٧)، ومسلم في «صلاة المسافرين» (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٥) هو الحديث السابق.

(٦) رواه مسلم في «الفتن» (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والحياة التي هي رباط جميع ذلك وعنها تصدر وإليها تجتمع وبث فيها سبحانه مكارم الأخلاق وسفاسفها وتصعد في التفاضل إلى آخر النوع الإنساني كما ينزل بضدها في أبطانها إلى أول نوع من النبات، غير أنه حمد على موضع العقل الذي سيأتي ذكره، ولذلك سمي بهيميًا.

والبهيم: الذي لا شية فيه ولا علامة من غيره، والبهم: صغار الضأن، اسمًا عرفيًا واقعًا عليها من أجل ذلك، وما ذكر ما في النبات من الخصوصية التي مبعثها من الهبات والعطايا فهي أبسط في هذا النوع على التدريج المتقدم، لظهور أفعال النفس والروح فيه، وكل ما ذكر في القرآن وحديث رسول الله ﷺ أنه من الجنة من الدواب والطيور والحيوان فهو تشريف لصنعه ههنا، وبالضد لما ذكر أنه في النار، وفي هذا النوع ـ أعني الحيواني ـ ظهر صنف الجن أعني المستجنين في الحيوان.

وقد كان جمد عليه النوعان قبله النبات والجماد غير أنهما أعربا عمّا فيهما من إشاراته بمعنى الضر كله من كريه المضار والمطعومات والمشمومات والملموسات وقبيح المناظر، ثم انشرح في الحيوان واتسع فظهرت أفعاله وحركاته من العداوة والبغضاء والإفساد كله كالخديعة والمكر والخب والكيد والباطل ومخاتل السوء، تعرف ذلك بالوقوف عليه في استقراء أصناف الحيوان الهوام وما جاء في أثناء الوحي عن ذلك؛ كإخباره ﷺ عن الحيات والفأر والحداء والعقارب والغربان والوزغ والكلاب العقورة وأنهن فواسق، فنسبها إلى الشيطان، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]، وكان هذا الوجود الجني قبل خلق آدم عليه السلام وقبل إعلان إبليس بفسقه موجودًا في الثلاثة عوالم قبله كما تقدم، فلما أوجد الله عبده وصفيه آدم عليه السلام حن إليه منها البعض وسخر له وبان البعض منها عنه، وشرد فسلط عليه، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ثم هذا النوع من الجن يشرح في النوع الإنساني، ويعرب عن نفسه فيكون وسواسًا، وقد نزل فيه قرآن وأمرنا بالتعوذ منه، أعني: وجوده عن استقرائه والكلام فيه، وأما سائر الجن من خارج الذين هم عن إبليس ـ لعنهم الله ـ فهم والله أعلم ثلاثة أصناف: جزء في الهواء، ومنهم المسترقون للسمع على تفاضل بينهم في ذلك ودرجات ومصافات يصفون فيها، فالمسترق الأعلى الأقرب إلى موضع السمع يلقي الكلمة التي

يسترقها إلى وليه في مقامه تحته والثاني إلى الثالث، والثالث إلى الرابع هكذا حتى تبلغ إلى الكاهن، هكذا إن أدرك الشهاب الأول، وقد ألقاها فإن أدركه قبل ذلك بطلت وفي حين إلقائها إلى وليه يكذب على ملقى كذبه هكذا إلى الكاهن، ولذلك قال الله ﷻ يصف الملائكة عليهم السلام وتلقيهم الأمر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، وقال رسول الله ﷺ فيما أخبر به عن الشيطان: «صدقك وهو كذوب»[١].

ومنهم جزء سياحون في الأرض يظعنون ويقيمون، ومن هؤلاء صنف غواصون في الأرض، ومنهم من لا يستطيع ذلك، وجزء ثالث منهم الكلاب والحيات زائدًا على ما جن منها، أو بأن يتحولوا في صورهم ومساليخهم، قد أعطوا ذلك، وكل مدبر في مقامه لا يتعداه، ومنهم مؤمنون وكافرون وطائعون وعاصون.

وكان ظهور هذا الصنف من الجن المستجن في الموجودات عن وسواس الخليقة أظهر مظهره جل جلاله عن إثارة المعنى الناري فيها ومن قبيل الطبائع والقوى المنسوبة إلى الوراء والشمال والتحت من الجهات وربما كان هذا المعنى بقوله ﷺ: «وخلق التقن يوم الثلاثاء»[٢].

قال المفسرون: التقن سوس الأشياء، وكان وزان استجنانه، على سبيل الاعتبار في عالمي الجماد والنبات وزان استجنان شر إبليس ـ لعنه الله ـ منذ خلقه قبل من نار السموم فعبد ربه مع الملائكة عليهم السلام مستجنًا فيه خبثه وسوء مكتومه إلى أن أظهر الله ﷻ ذلك منه بوجود آدم ﷺ، ووزان عبادة الوسواس في الخليقة بالفطرة والنشوء بأمر الفطرة وكان إظهاره خبث طوية وعداوة لآدم ﷺ حين قال: لئن سلطت عليه لأهلكنه وزان تضليله بنيه وإلقائه إليهم ما يهلكون به وكان وزان ما علمه علام الغيوب جل جلاله من سره في حال عبادته تلك وزان ما أظهر لنا في الخليقة من الكريه والضير كله والقبيح المنظر، وما تقدم ذكره مما أعرب عنه الجماد والنبات وإلى

---

(١) رواه البخاري في «الوكالة» (٢٣١١)، وفي «بدء الخلق» (٣٢٧٥)، وفي «فضائل القرآن» (٥٠١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه مسلم في «صفات المنافقين» (٢٧٨٩)، بلفظ: «المكروه».

قلت: والتقن بالكسر الطبيعة كما في القاموس.

هذه الجملة وجملة آدم عليه السلام وأوسع من ذلك مما نعلمه ولا نعلمه، قال جل جلاله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، وقال: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣] سبحانه وله الحمد ما أتقن ما صنع وأحكم ما دبر.

ومن الحيوان أيضًا صنف آخر بان عن الإنس غير مؤذٍ غير أن صنفًا من الشيطان غير مؤذ اكتنفتها فنفرتها ووحشتها عن الإنس ومنعتها من التسخير والاستمتاع بها طلبًا لخلاف قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة:٢٩]، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**على ذروة كل بعير شيطان**»[1]، فأحكم الله جل جلاله أمره وصدق قوله فإن أطلق النوع الإنساني اصطياد هذا الحيوان المتوحش منه وأباح له أن يقعد له بكل مرصد كما يفعل بالكافر وألحق بذلك ما ند من هذا النوع المسخر، قال رسول الله ﷺ وقد ند بعير عن أصحابه فأعجزهم فرماه أحدهم بسهم فأثبته الله: «**إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش، فما غلبكم منها فاصنعوا به هكذا**»[2]، قال الله جل قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء:٧٠].

يريد وهو أعلم: على كثير مما تقدم ذكره في هذا الاعتبار من العوالم المذكورة، وبوجه آخر وهو المقصود باعتبارنا هذا فكل ما كان للمؤمنين قنية وعونًا على طاعة الله سبحانه من خيل وأنعام وحيوان على صنوفه وغير ذلك من القنيات كائنًا ما كان فهو بجملته منسوب إلى الله تعالى ورسوله والمؤمنين، وما كان من ذلك للكافرين والمشركين فهو منسوب إلى الشيطان والكفر، قال الله ﷻ: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٩٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٩٩٤)، وابن حبان (٢٦٨٩ ـ إحسان)، بلفظ: «على ظهر»، من حديث حمزة بن عمرو الأسلمي ﷺ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣١): رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ورجالهما رجال الصحيح غير محمد ابن حمزة وهو ثقة.

(٢) رواه البخاري في «الشركة» (٢٤٨٨، ٢٥٠٧)، وفي «الجهاد» (٣٠٧٥)، وفي «الذبائح والصيد» (٥٤٩٨، ٥٥٠٣، ٥٥٤٣، ٥٥٤٤)، ومسلم في «الأضاحي» (١٩٦٨) من حديث رافع بن خديج ﷺ.

﴿ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء:٦٤]، ولذلك أحل جميع ذلك للمؤمنين من حيث إن الدنيا كلها له ملك وللمؤمنين عبيده، وما كان من ذلك منسوبًا إليهم فهو منسوب إليه تبارك وتعالى، وإنما هو سبحانه وتعالى والمؤمنون عباده وسائر ذلك لا يعبأ الله بهم هم المؤمنون فداء وأموالهم وأولادهم نهب، ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض، فأعظم بقدر رجل مؤمن آتاه الله تعالى من علمه أو ملكه، وعوده النظر في مواطن الحروف تتم على يديه كلمته في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، ويكذب ظن إبليس لعنه الله في قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، إلى آخر المعنى فهو يسلب إبليس لعنه الله خيله ورجاله وأمواله ويسبي نساءه وأولاده وتردهم إلى ربهم، وتحقق الملك للملك الحق إن هذا لهو الفضل المبين وبالضد للضد.

وأما النوع الإنساني فهو الذي تجمع فيه ما تفرق في غيره مما تقدم ذكره وهو من العلم كله بمنزلة القلب من جسده أما الأعلى فينزل إليه ويعطف عليه، وأما الأسفل فيسخر له ويضطر إليه، ومن هذا النوع من جمد على موضع اللب من صفة العقل وعمي عن موضع نور الإيمان من العلم فجهل نفسه ولم يعقل قدر منزلته، فكفر لذلك بربه وبطر نعمته وكابر بينته وجحد فطرته وخان أمانته فلم تنفعه صفاته ولا أغنت عنه شيئًا مقدماته، بل أربى جهله على جهل البهائم وزاد عظيم جرمه على العظائم، قال الله ﷻ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، ودرجة الإنسان غاية من الغايات ونهاية من النهايات في هذا العالم فإما أن يصعد به إلى ما علاه خلقًا ورتبة، وإما أن يسفل به إلى ما تحته والكافر ممسوخ الباطن إلى ما قارب طبعه من البهائم والهوام والنبات والجماد فاعلم ذلك، يوقف على ذلك بالاستقراء لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وتتبع النظر فيما يشبهه من الموجودات، وقد تقدم إلى ذلك إشارة من الاستقراء منعنا من استيفائها مخافة التطويل، وما كان من هؤلاء من أفعال حسنة وأخلاق كريمة وسجايا محمودة فهو كالمرار أطلع زهرًا وكالشوك أثمر ثمرًا سخر لك لينتفع غيره ولا ينتفع لتقوم الدار على إرادة جاعلها ويظهر العالم بذلك في أحسن معارضه وفي هؤلاء يقول عز من قائل: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا

عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

وأما في البرزخ بعد الموت فيصور باطنه على صورة ما مسخ إليه من الحيوان في الدنيا فيعذب فيه عذاب القبر حتى يبعثه الله ﷻ يوم القيامة على صورته التي خلقه عليها ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤] وكما تركت أرواح المؤمنين والشهداء والعلماء في طير خضر وبيض وفي قناديل معلقة بساق العرش كل على منزلته ينعم فيها حتى يبعثه الله على صورته الأولى والله عليم حكيم، ومن هنا ضل قوم فقالوا بالتناسخ لما وجدوا هذا في اعتبار سنة الله جل ذكره، ولم يستضيئوا بنور نبوة يروا بها البعث الآخر فوقفوا من أجل ذلك في موضع البرزخ، وقالوا بالتناسخ في كلام لهم طويل أضربنا عن ذكره لتناقضه وسخافته، والوحي إنما إنباء عن دار البرزخ رمزًا وإشارة وعلى سبيل الإدراج في غيره من الأغراض وذلك لما كان الغرض الإعلام بالدار الآخرة وما فيها وليكذب الذين لا يعلمون بعذاب القبر، وغير ذلك من الابتلاء، ومن هذا النوع ـ أعني الإنساني ـ من حقت عليه كلمة المسخ من باطنه بظاهره في الدنيا فجعل عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين ومسخ الظاهر لا يكون إلا بعد مسخ الباطن، فاعلم ذلك.

وعنه ينبعث جزاء عليه ومنه قول رسول الله ﷺ: «**أما يخشى أحدكم ـ أو لا يخشى أحدكم ـ إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار أو يجعل الله صورته صورة حمار**»[1]، فإن الذي يرفع رأسه ويخفضه قبل إمامه ناصيته بيد شيطان فهو لأجل ذلك لا يفقه ما يراد منه ولا يعقل مقامه ولا يعلم بين يدي من هو ولا يقدر قدره باطنه باطن حمار لبلادته وقلة فقهه فحذر رسول الله ﷺ من مداومة ذلك فيستوجب به اتصال المسخ الباطن بمسخ ظاهره وقد قال ﷺ: «**يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم قردة وخنازير**»[2].

---

(١) رواه البخاري في «الأذان» (٦٩١)، ومسلم في «الصلاة» (٤٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه ابن حبان (١٣٨٤ ــ موارد) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ، ورواه النسائي في «الأشربة» (٥٦٥٨) من حديث ابن محيريز عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مختصرًا بالشطر الأول وصححه الألباني في «سنن النسائي».

ومن اعتبر أحوالهم في استصحابهم إياها في الدنيا في أخلاقهم ومجالستهم وترف عقولهم وأبدانهم علم بذلك أنه قد عجل لهم المسخ في بواطنهم.

ومن هذا النوع من ظهرت فيه الخفيات وبدأت منه المخيلات وانشرحت عنده المعاني وحييت القوة وتبينت الإثارة المكرمة السابقة في الأزل على أركانه الأربعة وجهاته الست وحقت له كلمة السعادة واستوى فيه الوجود إلى غايته ورفع إلى أرفع في عالمه فحسن ظاهره وزكا باطنه واتصل آخره بأوله فأسلم لله تعالى وجهه وائتم بإمامه واستن بسنة نبيه حتى ورد عليه فتولاه وشفع له ومنهم من جمع إلى ذلك حسن المعرفة بمن أسلم وجهه له إحاطة العلم لمن اقتدى به فجد في سيره وتحقق في اقتدائه واعتقد ذلك صافيًا قويًا من جهة القلب وطمأنته وشهادة الغيب بلا ريب ولا تقليد فاقتبسه الله جل جلاله في بصر قلب نور الصدق، وقام على ظاهره وباطنه شاهد الحق وصدرت معاني الشمال منه على حكم اليمين فتولته الملائكة عليهم السلام وحلت به البركة، وكان ميمون الطالع، طاهر السريرة، ناصحًا للخلق، مقدس الغيب فارتفع ذكره، وشهر في السماء اسمه.

ومنهم من سما بهمته فصعدت إلى العلا، فارتقى في معالي الارتقاء، وآثر الوصول إلى الحياة العظمى والاختصاص الأكرم فقطع العلائق ونبذ الشواغل القاطعة عن بغيته، فتعبد نفسه لربه ﷻ على مقتضى الأسماء الحسنى غير مفارق للاقتداء، ولا متبع سبيل الهوى فلم ينشب أن تلافاه ربه ﷻ فتولاه وأكرم مثواه وأحبه واجتباه واصطفاه لنفسه وأعانه لذلك كل شيء وأكرمه كل شيء وذكره في نفسه وأثنى عليه في الملأ الأعلى عنده وباهى به ملائكته، وربما أعطاه الوسيلة والشفاعة بينه وبين عباده أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون، ولما أردناه من تبيين صفة إحاطة العليم الحق بالموجودات علمًا وحفظًا وصنعًا.

سردنا الكلام في الاعتبار إلى هذا القدر فلنرجع إلى ما هو أخص بهذا الباب فقد تمهد بما تقدم من الاعتبار أن العلم وغيره من الصفات غرائز غرزت في جبلة الموجودات وفطرة فطرت عليها المفطورات، وإلا فالعلم نور باطن، وصفة للعالم حصة عاجلة بما خصَّه به من لدن عالم مشاهدة العبد إلى أعلى عالم روحه، كما يتصل أيضًا من أعلى عالم روحه إلى وليه ومبعثه، وهي الصفة العالية، وكذلك صفة العقل، ولهذه العلة

عزت التناهي في هاتين الصفتين، وتختلف عليهما الأسماء لاختلاف العوالم المعترضة لهما في طريقهما ولا يستوي النظر في صفة العلم والعبارة عنه على الحقيقة إلا بمشاركة في الكلام في صفة العقل ؛ لأنهما غريزتان ممزوجتان في الأصل ومنزلة إحداهما من الأخرى في طريق الملازمة وتمام إحداهما بالأخرى بمنزلة القوة الناظرة من الحدقة ونور الشمس من ضوئها والنار من إحراقها وشبه ذلك ولذلك قل صواب من إفراد الكلام في إحداهما وإن الأخرى لتداخل معنييهما فأول أسماء العلم المشاهدة وهو شهود الموجودات الظاهرة بمشاركة العقل ثم اسم العلم وهو ما عرف بدلالة أو كتاب أو علم أو علامة أو شيء يقوم مقام الواسطة ويعم ذلك كله اسم العلم ثم المعرفة وهي في أول عالم النفس وهو أول عالم الغيب وأقصى عالم الشهادة فجهة العليا منها هي اليمنى التي على الروح، وفيه يلقى الملك ما يلقيه للعبد من تذكير ينزل وإلهام أوامر بمعروف أو نهي عن منكر وجهة الشمال منها مما يلي الجسم فيه يلقى الشيطان ما يلقيه للعبد مما يناقض إلقاء الملك، وهذا هو الفرق بين الإنساني والبهيمي من هذه السبيل للبهيمي قوى ملكية وشيطانية تصدر عن تلك القوى أفعال تشاكلها لكنها لم يعرب بعد النطق وزيد الإنساني على تلك القوى ملك وشيطان معربان عن شاكلتها موجودان عن أصل بنيته وموضع إلقاء العدو من العبد هو موضع الأمنية منبعث النسيان قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]، المعنى فمن أصغى بحواسه إلى ذلك الإلقاء وأسفل بوجهه إلى ما هنالك شغلته علائق الموجودات وأصمته ضوضاء المشاهدات عن الاستضاءة بنور العلم ومكاشفات اليقين وفتوحات الإلهام وتفجير ينابيع الحكمة عن أنهار المعرفة إلى أرفع من ذلك وانتهى إلى حيث يسمع فيه لغو ولا تأثيم وكل هذا بمشاركة العقل كما تقدم ثم لا يتم شيء من ذلك إلا بالإيمان والمعرفة يمدها العلم واسمها مشتق من العرف إشارة إلى المعنى المغروز في أصل الجبلة الذي به وجبت الحجة يوم أخذ الميثاق في الأزل، فإنه وإن كان ﷻ علم الأسماء كلها آدم ﵇ وهو موجود بالفعل يومئذٍ فقد علَّمها بنيه معه في الأزل، وأجملها لهم في بواطنهم، وعرف صفاتهم حين إيجاده إياهم بأن غرزها في جبلتهم، ومزج بها أمشاجهم بما ألقى إليهم من الحق ميَّزوه لإثارة تلك المقدمة بها إليهم، فهو عرف من أجل ذلك بتلك السابقة التي لا تنكر، والمقدمة التي لا تجحد

ويذنك لا يحتاجون عليه إلى دليل، ولا علم يقام عليه غير إيمان جزم، وإنما يظهر من بواطنهم على ظواهرهم بقوة الإيمان ونور اليقين.

وموضع المعرفة هو مورد اليقظة، وهي في أعلى المعرفة، والفعل الوارد عن هذا الموضع هي الحكمة إذ كان الفعل خارجًا عن حكم العلم، وبصيرة العقل وعقد الإيمان وإصابة السنة، فإن الحكمة مركبة من هذه الأربعة، ثم أعلى موضع اليقظة هو موضع الإلهام، وإعلاء موضع الإلهام متصل بعالم الروح موضع الشعر، وهو موضع التكليم والمجادثة، قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي مكلمين» وفي أخرى: «محدثين»[1].

ثم أعلى موضع الشعر موضع وحي المشافهة، وهو إنباء العبد المراد في ذلك بما لم يكن له أن يعرفه ولا تقدمت له به دراية أصلًا، ولذلك كان حظ النبوة خارجًا عن حد البشرية، وكان الذي يأتي به من الإخبار بالغيوب، وخرق العادات، والإتيان بالمعجزات خارجًا عن طاقة الإنس والكرامات، فالعلم في مقابلة الإلهام، والمعجزات في مقابلة الإنباء، وإنما ينزل الروح الأمين عليه السلام على موضع الروح من هذه الصفة قال الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل:٢]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فأنبأك أن الروح الأمين ينزل على الروح بما لم يكن العبد يعرفه وما تحت ذلك إلهام لما قد نسي من أصل فطرته التي تقدم ذكرها، وللصديقين والموقنين في الإلهام درجات ومقامات يتفاوتون فيها.

ثم اعلم أنه وإن كان الترتيب على ما تقدم ذكره وما نحا نحو ذلك، فإنه تبارك وتعالى مزج هذه المراتب، وخلط أعمال هذه الصفات، فلا يخلو من كان في أول درجة العلم من وجود المراتب كلها ما عدا درجة الأنبياء غير أنه يدق ويخفى عليه أعلاها لبعدها عنه، ورفعتها عن مرتبته، ويقرب منه أدناه فالأدنى إليه هكذا، وكذلك صفة العقل على ما تقدم وصفه، والعقل مع العلم كذلك والجملة بعضها لبعض أيضًا كذا فافهم.

وإنما يجد مذاق مشروبه وما مزج له به مما قاربه، ومسكن العقل الغريزي الدماغ،

(١) رواه مسلم في «فضائل الصحابة» (٢٣٩٨)، والترمذي في «المناقب» (٣٦٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «محدثين».

لكن ظهور سلطانه من القلب، وهذا هو العقل الإيمان، فأوله الحس: وهو إحساس الموجودات الظاهرة بمشاركة العلم على ما تقدم وصفه، فمتى بلغ إلى أن ينتهي في موضع إلقاء العدو عمَّا أمره بنهي الله ﷻ إياه عنه كان نهيًا، فإن بلغ إلى أن يطيع في موضع إلقاء الملك بأمر الله جل جلاله بذلك كان له من حيث احتجز بطاعة ربه ﷻ عن معصيته، فإن بلغ إلى أن يحصل معاني الكلام، وتستدل بمذكوره على محذوفه، وبمظهره على مضمره، وبأوله على آخره، وبآخره على أوله، وبتأليفه على تفريقه، وبمركبه على بسيطه، وانتزاع الفروع من أصولها كان فقيهًا، فإن بلغ إلى أن يضرب الأمثال ويقارن فيها بين الأشباه، ويستخرج عويص المسائل في مواطن المحاجات، واستقدر على تلفيق مفترقات المعاني في أثناء تداخل الخطاب، ورد عواري الاستعارات إلى مواضعها، وإقرار المتجوز بها إلى موضوعاتها كان حجيًّا، فإن بلغ من الاستدلال بالأقوال والأفعال والتصرف في أحكامها إلى ما تقدم ذكره، وحتى يرد شاهد ذلك على غائبه، ويحكم بالأشباه على أشباهها، وعرف انعطاف أواخر الحكمة على أوائلها، ورجوع فروعها إلى أصولها كان عقلًا، فإن سما وعلا حتى يتخطى مشارع سنن الله ـ جل ذكره ـ في معالمه بعد سلوكها في طرقاتها إلى كلماته الصادقة، ويتجاوز أحكام أطباع الخليقة بعد التزام عقدها إلى صفاته الكاملة وكلماته التامة حتى يبلغ النظر في مجرد مجاري القدرة الغالبة بحكم المشيئة العالية على ما سبق في العلم السابق، فتبين له أن لا ضار ولا نافع إلا الله جل وعلا، وأنه إن شاء أن يحرق بمائه بردًا أو يبرد بمائه أحرق، أو يبرئ بالذي به أسقم، أو يسقم بالذي به أبرأ فعل، وحتى يرى تكوين الأشياء من لا شيء، وإقرار الأشياء كلها لا على شيء، وإدخاله الواسع في الضيق، ولم يضيق الواسع ولا وسع الضيق، وحتى يؤمن بكلام الجمادات ونطقها إن شاء ربها ذلك وكذلك النبات والبهائم، وبعلومها ويقينها وخشيتها، وحتى يجوز أن يحجب الإنسان عن الظاهر الجلي في موضعه الذي يضيق كونه فيه على الحاضرين، ويرى عالمًا آخر في موضع ذلك، ولم ينتقل منه بصره إلا إلى أدناه، ولا يتصور وهمه أقصاه.

وتلك فاعلم علوم الموقنين، ومعارف الصديقين، ومشاهدات النبيين إذا هم أوجدوها أوجدوا لها أنوارًا في بواطنهم يرونها بما يجمع لهم معاني المشاهدة والحضور بالحواس الموجودة بالظاهر، بل هي أنور وأوحى من ذلك كثيرًا، وبهذه الصفة المباركة

كان عامة الإيمان آية ذلك وجود الإيمان الجزم أكثر ما يظهر ذلك في أهل التصميم والجزم من عموم المؤمنين، فإذا يطلب العبد حقائق الموجودات لزم سبيل الاستدلال والمحاجة على صناعة تنتج النظر، وطرق ذلك كله حتى إذا تحقق بالمشاهدة وتوثق بموجبات اليقين فيومئذٍ تعمل الصفات المذكورة بخواصها، ثم ترفع عملها إلى هذه فإذا به قد صعد إلى منزلة اليقين، فعملت أيضًا عليه صفاته بما وجدت له، وأضر آخر أمره إلى بدئه ؛ لأنه يومئذٍ في عالم الصدق وذلك من أعلام الصديقية .

وإذا بلغ العقل إلى هذا المقام فهو اللب، وهم المخاطبون بجليل الأمر، والعقل هو الشجرة المباركة على هذه الجهة من الاعتبار، ومعنى اللب: زيتها، والمصباح: الإيمان، والزجاجة: القلب، وكما أن لكل لب لبابًا كالدهن لا يستخرج ذلك منه إلا بمعالجة اللب كذلك بعد هذه الدرجة الدرجات أكبر وأرفع وأسنى مما تقدم ذكره، ولا غاية لمتسع مرآه ولا نهاية لمنفسحه كما أنه ليس لمعرفة مطلوبه غاية ولا نهاية، ويحمل غريزة العقل في الدماغ أربعة معانٍ وهي: الذكر والفكر والفهم والوهم، فأعلى الذكر الذهن، وأسفله النسيان، وأعلى الفكر اليقظة وأسفله الغفلة، وأعلى الفهم الذكاء، وأسفله الفقه، وأعلى الوهم التصور وأسفله التخيل .

والعلم يحمل أربعة معانٍ: الإحصاء والحفظ والميز والشهود، ولكل واحد منها أيضًا أعلى وأسفل، وكانت قبل هذه الصفات أوجادًا مزجها جاعلها جل جلاله، ثم ركلها في حاملها، فهي على ذلك تعمل بخاصتها من حيث انفرادها، ومن حيث امتزاجها ومن حيث تركيبها، وينزل الأمر من أعلى الدماغ إلى القلب، ويترکب فيه تركيبًا حقيقيًا بعد تركيب، ولهذه العلة كان القلب من الجسد بمنزلة الإنسان من العالم قصد بالخطاب وأمر ونهي وأثيب وعوقب بالحسنة نورها وبالسيئة ظلمتها، ثم انبسط منه الجزاء على سائر الجسد كما انبسطت الحركة بالفعل منه ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦].

والعلم من القلب في موضع الأمام، والجهل في موضع الوراء، والبيان عن يمينه، والإشكال عن يساره، والحلم في أعلاه، والإيمان داخله، قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، وبه تضيء هذه الصفات، والهوى أسفله، وتركب الحلم من أربعة معانٍ بعد تركيب أول، ولذلك رزق القوة وقام في الباطن مقامًا لم يقمه

سواه: وهي الصبر والشجاعة والعقل والحلم، وهو رئيس القلب، وصاحب مفاتيحه وزين الباطن من فاته قبل انتفاعه بسائر أوصافه كما أن من فاته الإيمان خرب قلبه وطمس نوره فبطل باطنه، ولما وصفناه من محمود هذه الصفات وغموضها وأضدادها ثار الخلاف وعظمت المحنة عند تصادم الجنود بين العقل والهوى فاشتد البلاء لذلك .

والهوى فاعلم مأخوذ من هواء الجو سريع الحركة كثير الاختلاط، فالعقل يعقل منه ما جاوزه، وكلما عقل منه شيئًا تفلت عليه سواه حتى ينزل العون والتأييد من المدبر الحكيم على العقل، وتنبعث السكينة والطمأنينة على الهوى، فيقوى العقل ويطمئن الباطن ويستقيم الشأن كله والله قوي عزيز .

والعلم ينقسم قسمين: شهادة وغيب، فالشهادة منه ما حصلت معرفته من طريق الشهود والظاهر الشهود حضور ذات العالم حيث المعلوم، وشهوده إياه بجملته وما عدا ذلك غيب بالإضافة إليه، ثم يكون ما حصلت معرفته من أعلى عالم شهادة العبد إلى أعلاه عالم روحه شهادة بالإضافة إلى عالم ما لم تحصل له معرفته بعد .

واليقين مستقر العلم وهو موضع حقيقته كموضع العقل من غريزته، ومسكنهما القلب من حيث تركبت فيه معانيهما، وعنه تصدر أحكامهما وإليه تعود، واليقين مأخوذ من يقين الماء، وهو موضع مستقره وصفائه، تقول العرب لمحبس الماء وصفائه: يقين شبه الموضع من هذه الصفة بذلك ؛ لاجتماع العلم هناك وصفائه، ونقيضه الشك وهو الحركة ومنبعثه من موضع الجهل بواسطة الغفلة والعدو، وقد يفهم سامع تصنيفنا هذا تحصيل مسافة وتجديد أماكن وعدة أغيار تغاير ذات العاقل العالم، وليس ذلك كذلك إنما هي عبارة عن حكمة الله ﷻ في لطيف صنعه وكريم تدبيره وأعاجيب ترتيبه حين أظهر الكثرة في الوحدة، ثم صور الوحدة من متغايرات الكثرة ومتنافرات الأضداد في أصل الجبلة فاض الأمر على سنن هذه الحكمة أن كثرة المسميات والصفات لا تفيد المسمى بها والموصوف تكثيرًا إنما تتوجه العبارة بالوصف على الصفة تبيينًا، وتفيد كثرة الأسماء للمسمى تعريفًا، ولكثرة الأسماء والصفات كثرت الأوصاف والتعريف بالمسمى، وكل ذلك لا يعد وإن يدل على المسمى والموصوف، وعلى معاني الأسماء والصفات بما عبرت عنه من أجل ذلك تغايرت الأسماء والصفات في أنفسها حسب لا أن تثير كثرة ولا بمغايرة للمسمى والموصوف، فافهم .

فزيد واحد في نفسه من حيث هو زيد لا من حيث هو أبعاض وأجزاء جمعت لم تتم وحدته إلا باجتماعها، فهو واحد بجملته كذلك باطنه المعنى منه المسمى بالعبد واحد وهو أولى بذلك وأحرى، وكماله حواس ظاهرة، فكذلك له حواس باطنة قد أخبر الله جل جلاله عنها في غير ما موضع من كتابه العزيز بقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، وإنما يصف بذلك الأعين الباطنة والآذان الباطنة، وقال أيضًا: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨]، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، وإنما كان ذلك في بواطنهم لا في ظواهرهم، كذلك قال عز من قائل في الصنف الأعلى المقابل له: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه:٥٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج:١٨]، فباطن زيد لا محالة له واحد هو العبد وهو السر، وقد يوجه إليه معنى قول الله جل جلاله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الفرقان:٦]، وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥] فيخرج هذا السر من خزائن السماوات والأرض ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥] أي: هذه الذوات، فافهم.

فهذا العبد واحد في نفسه له صفات جمّة وأسماء عدّة ليست له بأغيار لكنها قاصرة ليست بكاملة، إما لأنها صغيرة معرضة للتشوه، وإما لأنها في حال كمالها بالإضافة إلى أبناء جنسها؛ وذلك لأنها محدثة ومخلوقة وملك لمالك الحق والكمال الأرفع والتمام الأعلى للعلي الكبير: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦]، الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات، يشهد المآل والأواخر إلى نهاية نهاياتها في أبد أبدها، يشهد من حيث علم بعلم هو وصفه، وبشهادة هي نعته لم تتفاوت عليه صفاته ولا يختلف علمه وشهادته؛ لأنه لا موجود في الأولية والآخرية سواه قوته كنه قدرته دوام بقائه نظرة سعة علمه مدى نظره يدرك الأشياء كلها على اختلاف أوصافها بصفة من صفاته، ثم يدرك بجميع أوصافه ما أدركه بهذه الصفة لا يدخل الترتيب في صفاته، أعني: بقبل ولا بعد، ولا يوقف بحد، ولا يوصف بالتعقيب، لقوته وأحكامه بثم، ولم

يعلم بنظره وينظر بعلمه الأوائل والأواخر كلها لديه كشيء واحد، صفاته آحاد كاملات تامات غير محدودة للمحدودات ولا مؤقتة مرتبة للمرتبات إذ الترتيب في النعوت من صفات الخلق والله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه ليس كمثله شيء في كل الصفات، ليست صفاته ذات جهات، فيتوجه إلى جهة دون جهة، أو يدرك بصفة دون صفة، قريب من كل شيء بوصفه ولا يحجبه شيء، ولا يبعد عليه شيء، الأحكام والأفكار واقعة على خلقه، والحجب والأستار متصلة بمخلوقاته سبحانه وله الحمد جاوز المقدار والأحكام وفات العقول والأوهام سبق الأقدار، واحتجب بعزه عن الأفكار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، فيعرف بالتمثيل، ولا جنس له فيقاس على التجنيس، ليس بمتصل بالكون ولا مفارق، ولا مماس للكون ولا مباعد، هو المنفرد بنفسه المتحد بوصفه، يخلق بيده إذا شاء وعن كلمته إذا شاء، وبإرادته إذا شاء، وبمعاني صفاته كيف شاء، لا يضطره التكوين للكلام، وكلامه إليه كما شاء كان، خزائنه في كَلِمِه، وقدرته في مشيئته، إذا تكلم أظهر، وإذا شاء قدر، ومتى أحب ظهر، وبأي قدرة شاء استتر، عزيز في قربه، قريب في علوه، قال الله ﷻ: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل:٨]، وقال عز من قائل: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، فوصفها بأنها شيء وذلك لوجودها عنده، وقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] .

لا ترتيب في علمه، ولا حذر، ولا مسافة، ولا بعد في قدرته فهو لذلك جل جلاله يخبر بما يكون في الدنيا والآخرة، وما بعد ذلك بلفظ أنه قد كان لاستواء ذلك في علمه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، قال الله ﷻ: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ [النجم:٣٥] نقصه بذلك وذمه، وكذلك قوله: ﴿يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨، ٢١٩]، أي: ويرى تقلبك وبه انتسب التقلب في درجات الخلقة في أصلاب الساجدين، وبطون الساجدات مستودعًا ومستقرًّا، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الأعراف:١١] .

وإنما كان خلقنا وتصويرنا بعد السجود لآدم، فأخبر عنه أولًا بشهوده له في علمه إذ لابد من كونه فهو عالم بالكون كله، ناظر إلى ما علمه، لا حجاب بينه وبين معلومه،

سامع لما شهد متكلم إنما سبق النظر والسمع والكلام الكون كله في حقه من حيث سبق العلم والإرادة والقدرة، وهو ناظر سامع متكلم بنفسه من حيث كان عالمًا مقتدرًا مريدًا بنفسه، ثم أظهر الخلق عالمًا بعد عالم وقتًا بعد وقت، فجاؤوا على نظره وسمعه وعلمه وكلامه كما كانوا أولًا في علمه وقدرته ومشيئته بغير زيادة ذرة ولا نقصان خردلة ؛ ذلك لأنه لا يمنعه عدم الكون ولا يحجبه فقدُ الظهور ولا بعد المتأخر، كذلك يشهد اليوم ما كان في قدمه بعلمه به وقدرته عليه وحيطته، وكما لا يجوز أن يستفيد الآن علم ما لم يكن علم في الأزل كذلك لا يجوز أن يدرك اليوم ما لم يكن أدركه في القدم سبحانه وتعالى عن ذلك أيكون متكلمًا بما لم يشهد، وهو معلومه ينطوي في علمه أو يكون مستزيدًا بها أظهر حين أظهره، وهو في قبضته وغيبه جل عن ذلك وصفه وتعالى عن هذا إجلاله وعزه ؛ ولأن العلم ليس محلًا للكون ولا هو حال فيه، وقد سبقت أوليته الكون والمكان فليس لهما في قدمه قدم .

والكون ليس بكائن موجود لنفسه فيكون أولًا مع أوليته جل الواحد الأحد المتوحد عن ثان معه في الأزل أو شريك له في القدم، ولما هو ـ عز جلاله ـ لا يختلف الأواخر والأوائل في صفاته، ولا تتفاوت صفاته على ترتيبها من نظر وعلم ؛ لأنها معلوم علمه وموجود إرادته، فهو سبحانه وله الحمد ناظر لأسباب الكون والمكان وما يكون في العاقبة والمآل إلى آخر الأحوال، ناظر إليها في علمه لا يوجدها لاقتداره عليها وإحاطة علمه بها .

والكون معدوم لنفسه لتلاشيه ؛ لأنه خالق العدم كما هو خالق الوجود، ليس للعدم قدم مع قدمه فيكون ثانيًا معه، ثم ظهرت الأشياء بعضها لبعض بإشهاده، فوجدت بإيجاده وظهر عليها بإظهاره بحد ووقت ولا لها أول ولا قبل، بل هو الأول الذي لم يزل بلا أول، والقديم الأبد بلا وقت ولا أمد، هو القائم بصفاته وصفاته موجودة به، وبهذا يتبين لك الأقدم للعالم إذ لا قديم مع الله ﷻ في كينونة أجله، وهذه هداية الإيمان والتبصر بنور اليقين، ومن لم يقتدِ بنور النبوءة، ويهتدِ بالإيمان، وينظر بنور العقل دخلت عليه الشبهة و-جحد بقدم الحدثان أو جحد بقدم العلم بنفي وجود الحدث فيه وهو شرك في الصفات، لترتيبه إياها بالعقل، لأنه من قال: إن شيئًا قديمًا مع الله أو موجودًا بنفسه لنفسه فقد أشرك في الصفات، ومن قال: إن الله تعالى نظر بعد أن لم ينظر

أو علم بعد أن لم يعلم أو تكلم بعد أن لم يتكلم، أو ظهر بعد أن لم يظهر، فقد قال بحدوث الصفات، وقدم عليها المعلومات، والمعلومات منطوية في العلم، والله تعالى لا يعدم معلومًا، والمعلوم معدوم لنفسه غير موجود بنفسه حتى أخذه وأوجده، فظهر حين أظهره بعض لبعض، فرأى بعضه بعضًا إذ فرغ منه بنظره له كما لم يحدث به علمه إذ علمه صفته لم يزل هو قائم بوصفه، فكما لا يجوز أن يحدث شيئًا لم يعلمه كذلك لا ينبغي أن يفقد شيئًا علمه على ما علمه ثم يجده، ومن اختلف عليه ما ذكرناه دخل في مذاهب أهل البدع، وهذه شهادة الموقنين وإيمان المقربين، فاحذر العقل والمعقول، فذلك يحجبك عن شهود ما ذكرناه، وإنما يرى هذا بنور الإيمان لا بنور العقل، فافهم .

التعبد

اعلم ـ وفقنا الله ـ وإياك أن طلب العلم أول الواجبات عليك مع الإيمان، فتعلم العلم واسأل ربك جل جلاله أن ينفعك بما علمك، ويبارك لك فيه، وأن يزيدك من فضله، فيعلمك من علمه الذي يقرب منه ويزلف لديه، وتعوذ به من علم لا ينفع، وعليك بكثرة النظر، وطول الاستدلال، ولزوم التدبر والتفرغ لذلك فهو طريق الوصول إن شاء الله تعالى إلى علم اليقين، واللحاق بأرباب التوحيد .

ولتعلم أن علم الأسماء والصفات جماع علوم التوحيد، وعلم ما يجوز على الموحد سبحانه منها وما يستحيل لديه .

يا أخي، إنه من عرف أن له ربًا كريمًا يكرم المطيعين له، وأن طاعتهم له إنما تكون مع توفيق الله على قدر معارفهم به لجدير ألا يزهد في توفيق حكمه من تلك المعرفة حتى يصل إلى حقيقة التوكل عليه، وصدق الانقطاع إليه، والاستغناء به والدأب في طاعته إن كان يعلم ذلك، وإن كان لا يعلمه فبكاؤه على نفسه آكد الأشياء عليه .

واعلم ـ وفقك الله ـ أنه ليس شيء من فضائل النفس، ودرجات الزلف إلا وهي مراق بالعلم في العلم، فالعلم يرقى بك إليها، والعلم يصحبك فيها، وبقدر قوة علمك رقيك في درجاتها، فالخشوع عن العلم يكون، والورع عن العلم يكون، والخشية بالعلم تكون، وبقدر تفرغك للنظر والتفكر يصغي إليه قلبك بسمعه وبصره بسبل هدايته وبقدر سعة معرفتك بربك جل جلاله بصفاته وأسمائه ومواقع قضاياه، وتصاريف تدبيره وأحكامه تستبين لك عظم الخطر، وجلالة الخطب مما بين يديك، وما أنت فيه

وبكثرة مادة العلم والانتفاع به يكون تفرغك لنفسك في حال تنبيهك إياها من سنة غفلتها، وتوليد صفات التفريغ، وبقدر ذلك تزداد في منزلة الرقة والخضوع، وكلما ازددت علمًا بذلك ازداد الأمر عندك عظمًا، وازداد قلبك هيبة وتخويفًا وإشفاقًا، وكان الخشوع بقدر الخوف فكان النشاط بقدر الرغبة، وكان الحذر بقدر الهيبة، ولكل شيء وجه ومطلب، ولكل مطلب تدبير ونظر، ولكل تدبير همة وجدة وأهبة، فمن لم يأخذ لمطلبه جدًّا وأهبة لم يغن عنه الهمة، ومن لم يكن له همة لم تكن له عناية، ومن لم تكن له عناية لم يصح له مطلب، ومن لم يكن له مطلب لم تكن له فائدة ؛ لأن من طلب الأمور بغير أسبابها وابتغاها في غير سبلها فقد ضل سعيه، وجهل أمره وأخطأ بغيته، فلا يدركها ولو أعانه عليها أهل السماوات والأرض إن الله ـ جل ذكره ـ سبق في تقديره ألا يُنال شيء إلا من بابه الذي فتحه الله إليه، ولن يسلك إلى المطالب العلا من غير الباب الذي فتحه الله تعالى، وقد مضى فيما تقدم من الاعتبار أن جميع الموجودات معبدة خاشعة له خاضعة لما أحاط بها من قدرته وعظيم سلطانه وقهره وشمول إحاطته علمًا وخلقًا وأمرًا، فكذلك أيضًا هي عارفة به مسبحة بحمده من أجل ذلك قنتت له وسجدت ؛ لأنه ـ عز وجهه ـ ألزمها من معرفته ما لا تستطيع إنكاره، ولا جحده وفي بعض الآثار: إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلقه لحظه فرجف من قواعده، ثم لحظه أخرى فكاد أن يزول من مكانه، ثم لحظه ثالثة فكاد أن يمهد من خوفه وإنما فعل ذلك ؛ ليعرفه نفسه، ويلهمه ربوبيته، فعرف الخلق ربوبيته يومئذٍ معرفة لا ينبغي له أن ينكرها أبدًا، وذل الخلق له يومئذٍ ذلًّا لا ينبغي له أن يعتز بعدها أبدًا، ودخله من الخوف يومئذٍ خوف لا يخرجه منه بعدها أبدًا .

وأقر له بالمملكة يومئذٍ إقرارًا لا ينبغي له أن يستنكف منه بعدها أبدًا، ثم صارت تلك المعرفة وراثة فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة .

هذا ولم يكلف العبء الذي كلفته ولا جعل الإصر الذي حملته وقال الله ـ جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢] .

فقد تمهد بما تقدم ذكره أن العلم وجب في أصل القضية ولوجوبه قدمه جل جلاله قبل إيجاد الخلقة غرزه في سنخ [(١)] الجبلة، فكيف تطمع أنت أن تصل إليه بالجهل به ؟ أو تتقرب إليه بتضييع ما أوجبه عليك حتى تعلم من خلقك، ولم خلقك وما أمرك به ؟ وكيف تأتمر له ؟

وقد قيل: العلم إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك لم يعطك كله ولا بعضه، والعلم لا ينال مع راحة الجسم، وروي في بعض الأخبار أنه مما أنزل في بعض الكتب المنزلة: يا بني إسرائيل، لا تقولوا: العلم في السماء من ينزل به ولا في تخوم الأرضين من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبر يجيء به، العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين، وتخلقوا إليَّ بأخلاق النبيين، أظهروا العلم في قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم.

وقال عون بن عبد الله رحمة الله عليه: من تمام التقوى أن تبتغي إلى ما علمت علم ما لم تعلم، فإن النقص فيما علمت ترك ابتغاء الزيادة مما لم تعلم، وإنما تحمل العبد على ترك ابتغاء الزيادة قلة الانتفاع بما قد علم، ثم قال ﷺ: رأس التقوى البصر، وحقيقته العمل، ويكمله الورع، والهدى من الله كثير، ولا يعمل به يسير ولا يبصره إلا بصير بمنزلة نجوم السماء ما أكثرها، ولا يهتدي بها إلا العالم بها، وعن رسول الله ﷺ: «من داوم الاختلاف إلى المساجد أصاب الخصال الأربع: آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو علمًا مستطرفًا، أو أخًا مستفادًا» [(٢)]، علمنا الله وإياك من علمه، وأجزل لنا ولك الحظ من معرفته، وأعاننا وإياك على ذكره وشكره وحسن عبادته.

اسمه ذو المعارج جل اسمه وتعالى جده

المعراج واحد المعارج، وهو ما تعرج عليه الملائكة والروح يقال منه: عرج يعرج عروجًا إذا ارتقى، وعرج وتعارج إذا مشى مشية الأعرج، وعرج صار أعرج، ومنعرج الوادي حيث يميل، والتعريج على الشيء العدول إليه، والاسم في قوله جل جلاله:

---

(١) السنخة المتغيرة الريح، والسنخ والأصل واحد فلما اختلف اللفظان أضاف أحدهما إلى الآخر كما في «النهاية» في غريب الحديث (٢/ ٤٠٨).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج:٣]، مضافة إليه كقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ [الرحمن:٢٧]، و﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [البروج:١٥]، وكقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت:٤٣]، أي: له مغفرة وعقاب وله العرش العظيم والجلال والإكرام.

الاعتبار

المعارج طرق الملائكة والروح ـ عليهم السلام ـ فإذا كان منهم صعود كان ذلك منهم عروجًا، ولهم أيضًا تنزل، قال الله ﷻ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، وقال الله ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ [النحل:٢]، وما تنزل الملائكة إلا بالحق، وذكر التنزل والعروج في القرآن كثير، وإن كان طريق النزول هو طريق الصعود، فقد سُمِّيَ ذلك الطريق باسم الصعود والارتقاء، لشرفه أو لأنه تركب من معانيهما، وذلك أن حقيقة مشية الأعرج والمتعارج الماشي مشية الأعرج ارتفاع وميل لقصر الرجل العرجاء وطول الصحيحة بالإضافة إليها، ومنعرج الوادي وكل شيء حيث يميل، وقولهم: خرج عرج على كذا، أي: مال عليه فإن كان المعراج الذي هو طريق الصعود هو طريق النزول فقد سمي مركب المعنيين أو يكونان غيرين، فالله أعلم.

وأن يكون طريق النزول غير طريق الصعود أظهر إن شاء الله، قال رسول الله ﷺ: «**وما من مؤمن إلا له بابان باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه**»[1].

ولكل أمر معراج ولذلك جمعها جل جلاله في قوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج:٣]، وكما يتنزل الأمر بين السماوات والأرض تنزله في منازله كذلك يصعد إليه ـ عز جلاله ـ في معارجه، وكما يملأ ما بين ذلك تنزلًا كذلك العروج بما بين السماوات والأرض عروجًا ومعارج، قال الله ﷻ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤].

فالمفهوم من هذا مع قوله ﷺ: «**ما من مؤمن إلا له بابان باب ينزل منه رزقه وباب يصعد منه عمله**»[2]، أن لكلّ تنزلًا وأن لكل أمر تنزلًا، وأن لكل تنزل أمرًا معلومًا له،

(١) رواه الترمذي في «التفسير» (٣٢٥٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وضعفه الألباني في «سنن الترمذي».

(٢) هو الحديث السابق.

وكمثاله منزل كذلك له مصعد ومعراج فالأمر يتفصل بالتدبير إلى معارجه ومنازله أمره نازلًا وصاعدًا أبدًا لا إله إلا هو الحي القيوم قال الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، فتسمى جل جلاله بمعنى المعارج، لإحاطة ذلك بمنزلة الأرض كما تسمى بمعنى العرش العظيم، لإحاطته بالخليقة.

وسميت الملائكة ـ عليهم السلام ـ ملائكة ؛ لفعلها لأنها تملك الملكوت، أي: تجيد ملكه، يقال من ذلك: ملكت العجين أملكه إذا عجنته فأخذت عجنه حتى تماسك بعضه ببعض ؛ أو لأنها تبلغ الألوكة وهي المالكة، أي: الرسالة، وهي كذلك إما أن تنزل بالأمر على المدبرات أمرًا، وإما أن تعمل عملها، ثم ترسله إلى من يليها منهم هكذا فتقوم الأمر بين تدبير بأمر بإذن ربهم، وتبليغ عنه له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك لا عصيان عندهم لربهم جل جلاله إنما هي طاعة محضة لا تنافس بينهم ولا تحاسد ولا تقاطع كل متوحد بعمل لا يتعداه إلى سواه إلا ما شاء الله، ومنزلتهم في طاعتهم في خدمتهم كالحواس الخمس في بني آدم لا معصية عندها لحاملها على الأكثر، ولا تحاسد بينهم في مراتبهم، وتوحدهم في أعمالهم كالملائكة ـ عليهم السلام ـ فالراكع منهم راكع أبدًا، والساجد ساجد، والقائم قائم، والذاكر ذاكر أبدًا لا يسأمون ولا يفترون، لوجودهم عن النور فردًا إلا تنازعهم صفاتهم، ولا تختلف بهم الدواعي منها سماؤه ومنها أرضه، وهو أنها الأرضية مردهم من السمائية، ثم ينشؤوا النشوء بالملائكة حتى إنه ليحمل العرش العظيم منهم أربعة أملاك والروح من أمر الله جل جلاله يسري سريان الأمر به تثبت الصفات ويتحقق الوجود في الموجود مبثوث في العالم، وهو المخلوق كأرواح الحياة وبرد عليه روح سواه من علو ليس بمخلوق عن أمر الله جل جلاله، فمتى ردف المبثوث في العالم في موجود ما معنى منه زائدًا على الأصلي فيه ازداد وجوده وتحققت حقيقته على نحو ما يريد به جاعله جل جلاله، ومتى حل في الهواء زائدًا على المثبوت فيه منه كان نسيمًا ، ومتى حل في النسيم كان ريحًا في الحديث قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الريح فإنها من روح الرحمن»[1].

ومتى حلَّ في جسم كان حياة، وكذلك وإن حل في حياة تحققت صفاتها على مقدار

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٢٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٠٥، ١٠٧٠٦)، من حديث أبي بن كعب ؓ وسنده حسن.

ما ردفها من ذلك، وكذلك متى حل في صفات عبد تحققت، وإن حل في صفة الإيمان تحقق فكان صديقية، قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة:٢٢].

ثم على قدر أحوال الحظ له من ذلك تحقق صفاته، فيكون ظنه يقينًا، وموضع شكه علمًا ونحو ذلك، ثم يتفقه الحكمة في صدره وتتفجر ينابيعها على لسانه قال الله ﷻ في ذكر عيسى عليه السلام: ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة:٨٧].

وتكثر أسماء الروح لحلوله في الخليقة كما تكثر أسماء الأمر لانقسامه، فيها غير أنه ينزل عنه اسم ويتسمى بأسماء الأمر، ثم يتناوله الوجود في تقليب الموجودات فتزول عنه أسماء الأمر، وتخلف ذلك أسماء الخلق، وكلما بعد بكثرة الوسائط تحقق اسم الأمر والروح فيه كما أنه كلما بعد بكثرة تحققت أسماء المخلوقية، وذكر بعض العلماء أن الله خلق من الأمر خلقًا ظاهرًا سماه بالروح وحلاه بحليته، والله أعلم، قال الله ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ:٣٨].

وذكر بعضهم أن صور هذا الخلق على مثال صور الإنس، وأنهم لأكثر خلق الله عددًا، ولا تنزل الملائكة بالأمر ولا تعرج به أصبحوا من هذا الخلق ـ صلوات الله وسلامه على جميعهم ـ ومما يعرج وينزل أرواح بني آدم وأنفسهم؛ لأنها من جملة التدبير وقد تظاهرت الأخبار من طرق شتى بألفاظ مختلفة ومعان متقاربة أن روح المؤمن يعرج به فتفتح أبواب السماء سماء سماء، وأن روح الكافر يعرج به فتغلق دونه أبواب السماء فترسله الملائكة، وتخر من السماء دون تنزل نقصًا لتصديق كلمته الصادقة جل جلاله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ [الحج:٣١]، وقوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٠]، وقال رسول الله ﷺ: «أرأيتم الميت إذا شخص بصره ذلكم نفسه يعرج بها فيتبعها بصره»[(١)]، وجاء في حديث المعراج أنه ﷺ لقي الأنبياء في السماوات السبع على منازلهم التي تبوؤوها وذكر في حديث آخر أن أرواح المؤمنين في قناديل معلقة بساق العرش، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من شجر الجنة، وأن أرواح المؤمنين في طير بيض وهؤلاء عموم المؤمنين،

---

(١) رواه مسلم في «الجنائز» (٩٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والله أعلم.

ودرجات هؤلاء تتفاوت من لدن أفنية قبورهم إلى السماء الدنيا، وأرواح الكفار في طير سود ودرجاتهم تتفاوت من ظلمات قبورهم إلى سجين تعرض على هؤلاء وهؤلاء على منازلهم من الجنة والنار غدوة وعشيًّا، وجاء في بعض الآثار أن مأوى الكفار برهوت، وأرى ـ والله أعلم ـ إن صحت الرواية أنها أرواح الظالمين من أهل التوحيد، فمن ظلم في توحيده وكفر بذلك كفرًا دون الكفر الأكبر، وقد ذكر في بعض الأخبار ما يدل على هذا أضربنا عن ذكرها لما في ذلك سلب من يأتي ذكره في سياقها، وقد مضت إشارة فيما تقدم إلى بعض أحوال البرزخ فيها غنية لمن تذكر ومعتبر لمن اعتبر.

وجملة جامعة: اعلم أن لكل شيء عينًا ومعنى، ولكل حق حقيقة، فالحق والعين ظاهر، والحقيقة والمعنى باطن كل لما قابله، ومن شهر لهذا فهو أحسن العون، وفي حديث رسول الله ﷺ شفاء لمن طلبه، ودواء نافع لمن عرفه فاستقر ـ وفقنا الله وإياك ـ أحاديثه المشهورة في الإسراء وركوبه البراق وصفته وما رآه ﷺ في طريقه ذلك إلى بيت المقدس، وكيف صعد في المعراج، وكيف أتى باب الحفظة من السماء الدنيا فاستفتح جبريل، وأنه رأى آدم عليه السلام كهيئته يوم خلقه الله ﷻ، وإذ الأرواح تعرض عليه فإذا مرَّ به روح مؤمن، قال: «روح طيب وريح طيبة» [(١)]، وإذا مر به روح كافر قال: «روح خبيث وريح خبيثة» [(٢)]، وفي أخرى إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، ثم لما رآه في السماء الدنيا ثم كذلك سما إلى سماء إلى السماء السابعة، ورأى إبراهيم عليه السلام مستندًا إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه [(٣)]، قال: **«ثم دخلت البيت المعمور فصليت فيه»** [(٤)]، قال: **«ثم نظرت فإذا أمتي شطر عليهم ثياب رمد وشطر عليهم ثياب بيض»**[(٥)]، قال: **«ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا الورقة من ورقها لو غطيت بها الأمة لغطتها»** [(٦)]، وفي أخرى: **«فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كقلال هجر، وإذا السلسبيل قد انفجر من أصلها نهران: نهر الرحمة، ونهر الكوثر»** [(٧)]، قال: **«فاغتسلت في نهر الرحمة فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأعطيت الكوثر فسلكته حتى انفجر في الجنة، فنظرت في الجنة فإذا طيرها كالبخت، وإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير، وإذا بجارية فقلت: يا جارية لمن أنت؟**

(١ـ٧) الحديث رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٩٠ـ ٣٩٦)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٢٠٢٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٥ـ ١٧) وسنده ضعيف من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فقالت: لزيد بن حارثة، وإذا في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونظرت في النار فإذا عذاب الله شديد لا تقوم له الحجارة ولا الحديد»[١]، قال: «فرجعت في الكوثر حتى انتهيت إلى سدرة المنتهى فغشيها من أمر الله ما غشي، ووقع على كل ورقة ملك، وأيدها الله بإياده، وأوحى إليَّ ما أوحى، وفرض عليَّ كل يوم خمسين صلاة»[٢]، ثم ساق الحديث بطوله اختصرته مجموعًا من روايات شتى رواية أبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، وفيه على سياق تخريج الحارث بن أسامة، قال: «لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منّي فإذا أنا برهج ودخان وصواعق، فقلت: ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذه الشياطين تحرق على أعين بني آدم، لئلا يتفكروا في ملكوت السماوات، ولولا ذلك لرأوا الأعاجيب فلما نزلت إلى بيت المقدس فجمع لي النبيين من سمي لي منهم ومن لم يسم، فأممتهم حاشى الرهط الثلاثة: عيسى وموسى وإبراهيم»[٣]، وذكر في حديث أنس أنه رأى موسى ﷺ في قبره قائمًا يصلي، وذلك إلى بيت المقدس في مسراه ذلك، قال: «كنت عند الكثيب الأحمر إلى جانب الطريق لو كنت ثَمَّ لرأيتكم قبره»[٤]، ثم وجده في السماء على هيئته، وكذلك إبراهيم وعيسى عليهم السلام ورأى خازن النار، ورأى الدجال في آيات أراهن الله إياها ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧].

فهذه أرواح جسمانية مجردة من أجسامها، وأجسام روحانية وأرواح، وقد جاء بهذا الخبر الصادق عن صادق مصدق فوجب المصير إلى ما جاءت به، فاعتبر تبصر إن شاء الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران:١٣].

التعبد

فاحرص - رحمك الله - ألا يصعد عنك إلى ربك إلا ما يرضاه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وانظر إلى ما تمليه على كاتبيك، وما تجالس به رقيبك، وما تودعه صحيفتك في ليلك ونهارك، ولا تهمل أمرك فلست بمهمل، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(١، ٢) هو الحديث السابق.

(٣) هو الحديث السابق.

(٤) رواه البخاري في «الجنائز» (١٣٣٩)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٠٧)، ومسلم في «الفضائل» (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ بنحوه، ورواه مسلم (٢٣٧٥) من حديث أنس ﷺ.

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهو يصلون وأتيناهم وهم يصلون» (١).

وفي هذا فاعلم أدب ممن تعالت به همته إلى التأدب بأدب الملائكة ـ عليهم السلام ـ قولهم: «أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»، فكم يشاهدونه من العباد مما لا يرضيهم، فيثبتونه في صحائفهم لأداء الأمانة التي ائتمنوا عليها، فإذا سألهم جل جلاله أثنوا بخير ما شاهدوه، وأضربوا عن غير ذلك ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] فالحمد لله رب العالمين.

كذلك فلتكن أنت ـ رحمك الله ـ أحسن الاقتداء بالطاهرين الطيبين عليهم السلام إذا سئلت عن جملة الحال، فقل خير ما تعلمه، ولا تتخلق بأخلاق الذباب يجتنب صحيح الجسد ويتوخى الموضع الدبر منه فيقع عليه فاستحي أولًا من حفظتك الملازمين لك، ثم من الملائكة الكتبة غيرهم الذين يكتبون فضائل الأعمال قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين فضل على الكتبة يلتمسون حلق الذكر ....» (٢).

وقال ﷺ في رجل جاء الصلاة وقد حفزته النفس، ورسول الله ﷺ يقول: «سمع الله لمن حمده»، فقال: ربنا لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه: «ولقد رأيت بضعة عشر ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أول» (٣)، وقال ﷺ: «دعوة المؤمن مستجابة لأخيه بظهر الغيب عند رأسه ملك يؤمن على دعائه كلما دعا بخير قال: آمين ولك بمثل» (٤)، وقال: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب» (٥)، وقال: «إذا قام الرجل

---

(١) رواه البخاري في «مواقيت الصلاة» (٥٥٥)، وفي «بدء الخلق» (٣٢٢٣)، وفي «التوحيد» (٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم في «المساجد» (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في «الدعوات» (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، والترمذي في «الدعوات» (٣٦٠٠)، وأحمد (٢/ ٢٥١، ٢٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في «الأذان» (٧٩٩)، وأبو داود في «الصلاة» (٧٧٠) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه بلفظ: «بضعة وثلاثين ملكًا».

(٤) رواه مسلم في «الذكر» (٢٧٣٣)، من حديث أم الدرداء رضي الله عنها.

(٥) رواه أحمد (٤/ ١٣٩)، والترمذي في «الدعوات» (٣٥٣٦)، وأبو داود في «العلم» (٣٦٤١)، وابن ماجه في «المقدمة» (٢٢٣) وصححه الألباني في «السنن الثلاثة».

وصلى وحده صلى معه ملكاه، وإذا أذن وأقام صلى معه أمثال الجبال من الملائكة»[(١)]

فلو لم يكن المشاهد لك إلا هؤلاء لوجب الحياء من فعل كل قبيح والاستباق إلى كل صالحة، فكيف بالشاهد الأكبر، والملك الأعظم رب العالمين ؟ إذ اليقين حاصل أن هؤلاء الشهود مع عظم أخطارهم، وجلالة أقدارهم يحبون فعل الصالحات، ويحبون عليها ويمقتون القبائح ويمقتون عليها ومن أجلها وكيف والجزاء مع ذلك جار من ديار العباد خارج مع الأعمال ومدخر معها عاجلًا وآجلًا للحسنة نورها وثوابها، وللسيئة ظلمتها وجزاؤها، بل كم من الشاهدين لك غيرهم من الجن مؤمنيهم وكافريهم، وأرواح الإنس الجائلة في الهواء، ونفوسهم اللازمة أفنية قبورهم، ومن الملائكة وما لا يحصيهم لا يعلم عددهم إلا الله ـ جل ذكره ـ قال رسول الله ﷺ لأبي سعيد الخدري: «**يا أبا سعيد، إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فحضرت الصلاة فأذن فإنه لا يسمع مدى صوتك جن ولا إنس ولا شجر ولا مدر**»، وفي أخرى: «**ولا شيء إلا شهد لك يوم القيامة**»[(٢)]، وكما يشهدون لفاعل الخير فكذلك يشهدون عليه ما عمل من شر، وقال ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون ما في السموات والأرض موضع شبر إلا وعليه ملك يسبح الله ويقدسه**»[(٣)]، وكذلك ينبغي لك أن تستحي من أسلافك الذين صاروا إلى البرزخ، فإن أعمال ذويهم تعرض عليهم، وفي ذلك حديث أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أفضل الأيام يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليَّ**»[(٤)]، وفي حديثه ﷺ عن مسراه أن آدم عليه السلام يعرض عليه

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» في «الصلاة» (١٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٩٥٨) عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» في «الصلاة» (٥)، والبخاري في «الأذان» (٦٠٩)، وفي «بدء الخلق» (٣٢٩٦)، وفي «التوحيد» (٧٥٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي في «الزهد» (٢٣١٢)، وابن ماجه في «الزهد» (٤١٩٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «سنن الترمذي وابن ماجه».

(٤) رواه أبو داود في «الصلاة» (١٠٤٧)، والنسائي في «الجمعة» (١٣٧٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٥)، من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه، وصححه الألباني في هذه السنن.

نسم بنيه من أهل الجنة وأهل النار عن يمينه وشماله فيسر بهؤلاء ويحزن لهؤلاء، وهذا سائر في بنيه من بعده فتعرض أعمال ذويهم عليهم، فيسر المؤمنون بالأعمال الصالحة ويبتئسون بسيئها، ويحزن الكافرون بأعمال من سلك سبيلهم بعدهم من ذويهم ومعارفهم ويشتد ندمهم وأسفهم على فوات ما فات من صالح عمل من أصلح بعدهم منهم، ولذلك قال ابن عباس ﷺ في المتحلين سب عليّ ﷺ:

أحياؤهم خزيٌ على أمواتِهم ... والميتونَ شِرارُ من تحتَ الثرى

وقال الله ﷻ: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٧٠]، وكان أحد المهاجرين، وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن رواحة رحمة الله على جميعهم يقول: اللهم أعوذ بك من عمل يخزي عبد الله بن رواحة .

وكذلك فاعلم أيضًا أن كل من أوتي إلى ذكره من الملائكة الحفظة والكتبة والفضل إلى غير ذلك من جنود الله ﷻ التي لا يحصيها سواه، فإنه تبارك وتعالى قد خلق ضدًّا لهم من الشياطين والمردة والعفاريت، وسائر أنواع الجن يرونك من حيث لا تراهم، ويشاهدون فعلك من حيث لا تشاهدهم بقبيح عملك وترضيهم بهلاكك كما تحزنهم بطلب مرضاته ﷻ وتيئسهم بنجاتك من كيدهم قال رسول الله ﷺ: **«ما رئي الشيطان أذل ولا أدحر من يوم عرفة، وما ذاك إلا لما يراه من رحمة الله عباده وتجاوزه عن الذنوب العظام»** [1]، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]، وقال ﷺ: **«ما من أحد إلا وله شيطان»**، وقيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: **«و لا أنا إن الله أعانني عليه فأسلم، فهو لا يأمرني إلا بخير»** [2]، وقال الله ﷻ حاكيًا عن القرين: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق:٢٧]، فهؤلاء هم الملازمون للعبد .

ومنهم: فضل عن الملازمين في مقابلة الفضل من الملائكة عليهم السلام قال رسول الله

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» في «الحج» (٢٤٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٨٨٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٦٩) من حديث طلحة بن عبد الله بن كريز ﷺ مرسلًا، ورواه البيهقي في «الشعب» (٤٠٧٠) من حديث أبي الدرداء ﷺ، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الترغيب .

(٢) رواه مسلم في «صفات المنافقين» (٢٨١٤)، وأحمد (١/ ٣٨٥) من حديث ابن مسعود ﷺ.

ﷺ: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين»[(١)]
وفي حديث آخر: وذكر رمضان، فقال: «وتصفد فيه مردة الشياطين»[(٢)]، قال: «تخلصوا فيه إلى ما كانوا يخلصون في غيره».

وإنما تصفد الشياطين عمّن دخل عليه حقيقة، فيغل شيطان الطبع منه بإقرار إيمان المؤمن، ودخوله في السلم، وشروط الصوم بتعظيم حرمة رمضان يسر بالصيام عليه منافسه في مجاري الدم، وبقلة الغذاء فتضعف من أجل ذلك إجابته لوحي المسول له الملازم إياه، فتقوى بذلك دولة الحزن الصالح في العبد فلا يجد الشيطان الفضل مساغًا إليه إلا قليلًا، وإنما قوي الملازم منهم للعبد بوسيلة الحال في مجاري الدم منه ومن جنسه الممتزج بأمشاجه وأخلاطه، وقوي الفضل منهم على العبد بقوة الملازم ويشتد جلبه عليه أيضًا بواسطة إنسان مثله، فإن الشيطان يتصيد الإنسي بمثله، فبتقليل الغذاء يضعف الملازم في باطنه، وبرد الخاطر تهز قوة الملازم من خارجه، وبذكر الله ـ جل ذكره ـ يخنس وينقطع الفضل منه بالعزلة ويضعف كيده بمعرفته ومعرفة مكائده والاستعاذة بالله ﷻ منه.

واعلم أن للجن سلمًا دون السماء الدنيا لاستراق السمع في مقابلة المعراج للأرواح والملائكة عليهم السلام قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠]، والملائكة رسل، والشياطين مسترقو السمع، والملائكة صادقون مصدقون، والشياطين كذبة، قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨]، ووصف رسول الله ﷺ مسترقي السمع في مصافهم ذلك ففرق بين أصابع يده ونصبها فجعل المسحة أعلاهن وجعل الخنصر أسفلهن، وذكر أن المستمع يلقي الكلمة إلى وليه الذي دونه في درجة السلم الأدنى إليه ويرميه الشهاب، فإن ألقاها إلى وليه قبل أن يصيبه الشهاب وإلا بطلت.

---

(١) رواه البخاري في «الصوم» (١٨٩٩)، وفي «بدء الخلق» (٣٢٧٧)، ومسلم في «الصيام» (١٠٧٩)، من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) رواه النسائي في «الصيام» (٢١٠٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٠)، من حديث أبي هريرة ﵁، ورواه النسائي (٢١٠٧، ٢١٠٨) من حديث عتبة بن فرقد ﵁ وصححه الشيخ شاكر على المسند والألباني في سنن النسائي.

وذكر أنهم يكذبون فيما يحصل لهم من المسموع، وقال رسول الله ﷺ في الشيطان صدق في شيء ما: «إنه صدق وهو كذوب» (١).

وذكر بعض العلماء أن لله تبارك وتعالى شياطين في البر ليس لهم على ما في البحر سلطان، وشياطين في البحر ليس لهم على ما في البر سلطان، وشياطين في الجهر ليس لهم على ما في السر سلطان، وشياطين في السر ليس لهم على ما في الجهر سلطان، وشياطين في النهار ليس لهم على ما في الليل سلطان، وشياطين في الليل ليس لهم على ما في النهار سلطان، وشياطين في الظلمة ليس لهم على ما في النور سلطان، وشياطين في النور ليس لهم على ما في الظلمة سلطان، وشياطين في النوم ليس لهم على ما في اليقظة سلطان، وشياطين في اليقظة ليس لهم على ما في النوم سلطان، وشياطين في الأنس ليس لهم على ما في الوحدة سلطان، وشياطين في الوحدة ليس لهم على ما في الأنس سلطان، وشياطين موكلون بالرجال ليس لهم على النساء سلطان، وشياطين موكلون بالنساء ليس لهم على الرجال سلطان، وشياطين على المالك ليس لهم على المملوك سلطان، وشياطين على المملوك ليس لهم على المالك سلطان، وشياطين على الضعفاء ليس لهم على الأقوياء سلطان، وشياطين على الأقوياء ليس لهم على الضعفاء سلطان، وشياطين على الصغار ليس لهم على الكبار سلطان، وشياطين على الكبار ليس لهم على الصغار سلطان، وشياطين على العلماء ليس لهم على الجهال سلطان، وشياطين على العباد ليس لهم على أهل الفسق سلطان.

فليتعرف العبد حاله ونفسه وسنه ومجالسيه ومؤانسيه ووحدته وأنسه وزمانه وسلطانه، وجميع أحواله وأموره كلها، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

اسمه ذو العرش عز وجل

العرش في كلام العرب: السرير قال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربُّنا في السماءِ أمسى كبيرا

الأعلى الذي سبق الناسَ ... وَسَوَّى فَوقَ السماءِ سَريرا

(١) سبق تخريجه في باب اسمه العليم عز وجل.

وليس السرير له باسم شرعي فعلى ذلك لا يجوز أن يسمى الله جل جلاله أو شيء من صفاته وأسمائه وخواصه بغير اللفظ الذي جاء في الشرع لم يصفه الكتاب به ولا الرسول ﷺ فلا يجوز من ذلك أن يقال في العرش: هو سرير الله، ولا قبة الله، ولا سطح الله، ولا في الكرسي: منبر أو مقعد أو منزل أو مجلس لا يوصف بشيء من ذلك إلا بتوقيف من الله جل جلاله أو رسوله ﷺ.

كذلك لا يجوز أن يذكر الله أحد بالعجمية إلا أحد لا يحسن العربية، فتبيح له الضرورة الذكر بالعجمية فيما أحاط علمًا بمعناه إحاطة تامة حتى يكونا معنى بمعنى.

والعرش أيضًا: العريش يستظل به، والجميع عروش وعرشة أو أعراش، والمراد به الرفعة والعلو وقوام الأمر ومنه قيل: ثل عرشه وهي عبارة عن دمار الحال والمنزلة، وقيل: سقف البيت عرشه، لعلوه، وقيل للبيت: عرش ؛ لأنه قوام لساكنه، وقيل أيضًا لمكة: العرش، لأنها بيوت مجتمعة رفعت سقفها يرجع إلى قولهم: العريش لشيء يستظل به، وربما كان ذلك ؛ لأن العرب كانت تسكن الأخباء، وكانت بيوت مكة أولى عندهم بهذا الاسم، لعلو بنائها وبقائه بالإضافة إلى الأخباء، أو لرفعة مكة في نفوسهم، أو لأنها قوام للناس، وقد يسمى حامل العرش عرشًا من حيث قوام العرش به، وكذلك قولهم: عرشت الكرم بالعروش هو العريش أي: رفعته بالعمد الحاملة له القائمة به، قال الله ﷻ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحج:٤٥]، أي: قائمة على عمدها الحاملة لها القائمة بها، وقيل للحمتين: مستطيلتين قائمتين مع العنق عرشان من ذلك أيضًا.

وعرش القدم ما بين غيرها وأصابعها سمي بذلك والله أعلم لاعتماد القدم عليه في القيام والمشي، والعريش شبه الهودج، وكان رسول الله ﷺ في يوم بدر في عريش أي في شيء رفع له ليظله، والعرش أرفع المخلوقات وأعلاها وهو قوام كل شيء من المخلوقات والمحيط به وظل العرش هو الظل الحق، وهو مكان العظمة وعرش الملك الأعلى المجيد المدبر الحكيم الرحمن الرحيم عليه استوى جل جلاله وتقدست أسماؤه من أعلاه يقضي القضاء كله ويدبر الأمر كله، ومن فوقه تنبعث الأحكام والحكمة التي بها كون كل شيء وبها يكون الإيجاد والتدبير وبها يكون الخلق كله وعنها يوجد الروح العلي الذي عليه مدار كل شيء وبه ثبات كل شيء وبقاؤه وصلاحه ومن بعده فساد كل

شيء ودماره والله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه وتقدست أسماؤه فوق ذلك كله .

الاعتبار

اعلم ـ أيدك الله بمعونته ـ أن الفكرة تجري في كل شيء دق أو جل فترتفع حتى تملأ الآفاق وتبلغ العرش والدليل على ذلك قوله الصادق: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، فجعل الفكرة في كل ما خلق من شيء، وجميع ما أوجده الله جل جلاله في هذه العاجلة منصوبًا للأبصار فهو درجات يرتفع فيها إلى علم الغيب المكنون الذي يدرك في الدنيا بالقلوب، ويدرك في الآخرة بالعيان فأنت ـ رحمك الله ـ إذا نظرت بنور إيمانك مستعينًا بربك جل جلاله سائلًا إياه أن يسلك بك أفضل السبل، ويهبك أكرم الوسائل لديه في أقل الخلائق جرمًا، وأخسها قدرًا على النحو المتقدم لنا من النظر في الأسماء الحسنى واستقراء آثارها في الموجودات كالخردلة والذرة والبعوضة وأدنى من ذلك رأيت ببصيرة عقلك ونور إيمانك يفلج الخصم ويبهر العدو وتنقطع به شبه المجادلين في آية الله بغير سلطان أتاهم، فإنه ﷻ جعلها في الاعتبار كفاء، ولها في الاستدلال بها عليه غناء، أقامها في الاعتبار في ملكوت مقام فحوى الخطاب في كتابه تنبيهًا للمبتدئ من عباده، وتذكرة للمنتهي من أوليائه، ومن الواجب اللازم عند ذوي العقول المنيرة والفطر السليمة أنه إذا أقام الصغير من مخلوقاته، والدنيء من موجوداته حجبه وبيَّن دلالته، فالأعلى من مخلوقاته والجليل من موجوداته أولى بذلك وأحرى، ولذلك قال ﷻ: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧] .

فاستشعر الجد واستفرغ الجهد ـ وفَّقك الله ـ فلو قد خرجت من ظلمة أخلاط جسمك، وفرَّغت سمعك من ضوضاء هواء جوك لألقيت كل ما عظم الموجود ـ عظم قدره ـ وكل ما علا محله قويت شهادته، وعلى قدر قربه من موجوده تتبين إشارته ويعظم في سنن الاعتبار غناؤه ؛ لأنه كلما قرب عظمت عليه نعمته ولزمته بركته، فكيف لو سموت بلبك إلى الأفق المبين حلت بنور إيمانك بحبوحة ذلك القرب المكين لعاينت وسمعت وشاهدت ما لم تكن تعلم .

هنالك يا أخي تتنور المظلمات، وتتضح المشتبهات، وتتجلى المشكلات فبدت لك المعارف بينة في ذلك الجلاء، وتحققت قصد السبيل في ذلك الصفاء، وسمعت الجوامد

تهرج بالتسبيح، وأصوات تخطب بالتوحيد، وبان لك صمود الأشياء كلها إليه في ذلك الضياء واستسلام جميع الخلائق لديه لعزة الكبرياء، وربما صعدت بلبك علوًّا فوردت عليك الفوائد وازدحمت على سرك السرائر، فلبعضها وقع في القلب وتفصيل معًا، وبعضها تبصرها البصيرة كما يبصر البصر البرق يكاد يخطفه، وبعضها كلمعان البرق في الجو على بعد، وتفصيل ذلك على قدر القرب والبعد، ومشيئة الهادي المرشد ـ جل ذكره ـ فكيف بك لو وصلت بلبك إلى من ليس دونه مقصد ولا وراءه منتهى ؟! إلى الصدق من صفاته والحق من أسمائه إلى سؤال السائلين، وأمل الآملين كيف ترى فصاحة بيانه وقصد إشارته وكريم مشاهداته وعدالة شهادته وحسن تعليمه وكريم إرشاده ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام:١٩]، مثل ذلك مثل رجل أراد الحج إلى بيت الله الحرام من قطر بعيد وفج عميق، ولم يكن قبل ذلك عرف البيت ولا رآه، فاستدل عليه من بعيد قطره من رأى البيت وعرفه، فأقصى جهد الدال له أن يسميه ويصفه ويشير إليه من بعد بالناحية والأمم، فلما أخذ في الرحلة إليه كلما قرب من القطر الذي فيه مقصده واستدل عليه قويت دلالة الدالين عليه، وقربت إشارات المشيرين إليه حتى تقع إشارات المشيرين إلى البيت من حيث يرونه عيانًا حتى سمع أصوات الملبين من كل جهة جهرًا فأخذ لوروده عليه أهبته فعادت الدلالات على البيت إشارات، ثم كيف تراه إذا بلغ إليه وشاهده بمعرفة منه أنه هو مقصده الذي إليه قصد، ومن أجله رحل وتغرب عن أهله ووطنه أتراه يتعداه إلى سواه أو يلزمه ويطوف حوله ويسمي ويحفد عنده، ويعظم قدره ويجل حرمته فبيت الله جل جلاله وزواره مثال للمغتربين في الملكوت المستدلين عليه بآثار صنعه وبدائع فطرة القاصدين إلى معرفته، ألا تراهم كيف مُنعوا من الصلاة في داخل البيت إلا الدعاء، بل جعلت حرمه مثالًا لأمورهم ملاقوها في حومة زيارته وكريم موعده تنبيهًا لهم بأن يعتبروا بمخلوقاته، ولا يتفكروا في ذاته إلا بالقدر الذي يحصل لهم به الفرق بين ما يجوز عليه من ذلك مما يستحيل لديه فكذلك فلتكن أنت ـ وفقك الله:

ولا تفكـرن في ذي العـلا عـز وجهـه	فإنـك تـردى إن فعلـت وتخـذل
فـدونك مـصنوعاته فـاعتبر بهـا	وقـل مثـل مـا قـال الخليـل المبجل

قال رسول الله ﷺ وقد سأله أبو رزين العقيلي فقال: أين كان ربنا يا رسول الله قبل أن يخلق الخلق ؟ قال: «في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء»(١) .

ذكر الشارحون أن العماء هو السحاب الرقيق والأصح والله أعلم أنه الغمام الذي يجيء به يوم القيامة قال الله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة:٢١٠]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان:٢٥] .

وقال رسول الله ﷺ وذكر دعوة المظلوم، وأنها لا ترد: «إنها ترفع فوق الغمام فيقول لها: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»(٢) .

فكأن هذا العماء بمنزلة العرش للمخلوقات ، والهواء لذلك العماء بمنزلة الماء للعرش، وقوله: «ما فوقه هواء» إعلام منه ﷺ أن الله جل جلاله لا يحل في شيء، ولا يوجد في الموجودات إلا بصفات له وأسماء كحلوله على العرش، فالاستواء على ما سيأتي بيانه إن شاء الله ﷻ، فلما أوجد موجودًا ظاهرًا هو العرش جعله لوحًا لشيء ظاهر هو الماء ؛ لأن الماء أيضًا لوح للمخلوقات وخزانة للموجودات دونه، والهواء هناك لوح وخزانة له كما أن العماء لوح للعرش وأول له .

فالعماء والله أعلم موضع التقدير، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة»(٣)، والعرش موضع التدبير، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:٣]، كما أن ما دون العرش موضع التفصيل، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:٣]، ثم قال: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢]، وما دون السماوات موضع التصريف، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:٥٠] .

---

(١) رواه الترمذي في «التفسير» (٣١٠٩)، وأحمد (٤/ ١١)، وابن ماجه في «المقدمة» (١٨٢) من حديث أبي رزين ﷺ وضعفه الألباني في «سنن الترمذي وابن ماجه» .

(٢) رواه الترمذي في «الجنة» (٢٥٢٥)، وابن حبان (٨٧١ ـ إحسان) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في سنن الترمذي .

(٣) سبق تخريجه في باب اسمه الجبار جل جلاله .

وذكر سيدنا علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق العرش أرباعًا ....»، وقال: وأما المكان من الحجب سبعون ألف حجاب، حجب من ماء، وحجب من ريح، وحجب من نار، وحجب من ظلمة وهباء وهواء، وتحت المكان بحر مسجور، وما بين كل حجابين من حجب المكان مثل ما بين أول حجب المكان إلى الهواء من الأرض السفلى ـ فسبحان من يدبر هذا الملك العظيم ـ قال: وتحت العرش مما يلي الذات سرادقات مسردقة من أنوار يكاد ما فيها يذهب بالأبصار عليها أكاليل في كل إكليل منها شموس مضيئة وكواكب درية مشرقة من الذات وساق حديث أبي رزين العقيلي: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟

واعلم أن الأسفل يحمل الأعلى على جهة التلقي منه والائتمار له والتقييد عنه والقيام بما يجب له، والأعلى يحمل الأسفل على جهة الإيجاد له، والإمداد والكفالة والقيام به والأولى في العبارة عن هذا أن يقال: إن الأعلى يمسك، والأسفل يحمل قال الله ﷻ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر:٤١] مثل ذلك الأب يحمل الابن وجودًا وتعليمًا وتغذية له وتحويلًا، والابن يحمل الأب بنشر علمه، وتتميم نقصه، والدعاء له، وإبقاء ذكره من بعده توصيلًا له لما لم يكن له أن يبلغه، لقصر عمره كفعل بني آدم عليه السلام بأبيهم لما قصر قصر عمره عن البقاء عمر الدنيا وصل بنوه ذلك منه بالنسل والعالم كله حامل ومحمول يوجد ذلك بالاستقراء، ولنمثل في صفة الحامل والمحمول مثالًا إذ المثال أحسن بيانًا وأقصد إيضاحًا لحقائق المعاني مع صيانتها عن الابتدال بسلسلة معلقة، فإن الناظر إليها يرى تلك المحاجن كل حجنة منها قد أخذت مأخذها عن التي تليها، فالأولى العليا منهن تحمل التي تليها لولاها أسقطت السفلى ولم تثبت مكانها وهي ممتدة على العليا، وقد أخذت هي في توصيل ما عجزت الحجنة العليا عن وصله إذ كان مراد صانع السلسلة أن تصل بطولها إلى حيث شاء، فقامت العليا في إمساك السفلى والسفلى في التعلق بالعليا مقامًا يتم به مراد صانع السلسلة، وكذلك الثالثة مع الثانية إلى آخرها حامل ومحمول، فتبارك الله رب العالمين الغني الحميد.

وحقيقة السلسلة دوائر متصلة متداخلة، فأعاد النظر ثانية بأن تقلب السلسلة أعلاها أسفلها تجد المعتمد عليه، والحامل محمولًا ذلك بأن الله ﷻ خلق الخليقة، ثم أفقر بعضها إلى بعض وأحوج بعضها إلى بعض كل على جهته وطريقته، فإن ثنيتها

وجمعت طرفيها شاهدت معنى العروج والنزول والحامل والمحمول، وأن الأمر يأتي أيضًا من سفل كما يأتي من علو، وإنما العلو بالحقيقة بالإضافة إلى إتيان الأمر، فمن حيث أتى فمن علو أتى، لأن العلو موضع الأثرة على كل حال، وقد يأتي الأمر من غير جهة العلو المعلوم قال الله ﷻ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٢٦]، ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، وقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [النحل:٤٥]، فأنبأك ﷻ أن الأمر يأتي من سفل ومن علو، وإن كان الأغلب إنما يأتي من سفل هو من قبيل العذاب، وإن الذي يأتي من علو من قبيل الرحمة وبخاصة فإن الذكر والوحي إنما ينزل من علو قال الله ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل:٢] .

وقد جاء الخطاب على طريقه من علو يخاطبنا من جهة السفل بالإضافة إلينا، وهو قوله ﷻ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحج:٤٥]، والعروش: سقف البيوت والجدارات، والذي هوى منها هي القيعان، وهي بالإضافة إلى جهة العلو تحت العروش، ووصف الأمكنة أنها ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ فجاء هذا الخطاب كما ترى من سفل بالإضافة إلينا هو على الحقيقة العلو، وقد تقدم أن العرش هو قوام عما كان عرشًا له، والسقوف والجدارات إنما اتخذت من أجل الأمكنة، فالأمكنة قوام العروش التي هي الجدارات والسقوف، فلما كانت الأمكنة قوامًا لها كانت عروشًا وكانت المحمولة على هذا، وعلى الحقيقة فهي الممسكة لما اعتمد عليها من السقف والجدر، فافهم .

فبهذا أيضًا يتبين لك تصديق ما جاء في الخبر أن ملكًا نازلًا من علو لقي آخر صاعدًا من سفل، فسأل أحدهما الآخر: أجئت من عند ربي ؟ وقال الآخر لصاحبه: جئت من عند ربي، وهذا مشاهد في بعض النبات، بل في أكثره إنما يأتيه الأمر من سفل ؛ لأن رأسه في الأرض ومؤخره صاعد، وذلك والله أعلم لأن الأمر يكون عارجًا بعد نزوله مع الماء أولًا، ومن النبات ما يكون الغرض منه ذهابه سفلًا فقط أو علوًّا فقط وعلى مشيئة موجده ـ جل وعلا ـ والحيوان الإنساني رأسه إلى السماء علوًّا لشرفه على

ما تحته من العوالم، وإن كان غذاؤه من الأرض، والحيوان سواء ذو الأربع والماشي على بطنه ما بين ذلك.

فهذا أيضًا يبين لك إن شاء الله ﷻ أن العرش محيط بالعالم كله من جميع نواحيه لما أحاط به علم موجده وقهره وسلطانه وملكه وأمره وأزمة التدبير لدى قبضة الملكوت جميعه في مسكه وإحاطة المقدار من حفيظ عليم، سقط في أمرين آخرين من قوله، وقد ذكر إليَّ فهذا كله فيه نظر، وقد ذكر بعض أهل النظر أن العقل مسكنة الدماغ وهو معدن الحس في جميعه ابتدت، وسبيله المتصل نخاع متصل بالدماغ يمر على وسط عظام العنق إلى فقرات الصلب إلى عجب الذنب، ثم يسري الحس عنه بواسطة الأعصاب والعضل إلى سائر البدن، قال رسول الله ﷺ في عجب الذنب: «فيه خلق، وفيه يركب، ومنه يعود وهو لا يأكله التراب»[(١)] هذا الغريزي، وأما العقل المخصوص به الإنسان، فقال فيه: «إنه محيط بإنسان غير حال فيه» كذلك قال جلة مشايخ المسلمين ﷺ في الإيمان له ليس لمجعول وهو منه من صفات الله تعالى، قالوا: ولا يجوز زار محل ما ليس لمخلوق في مخلوق، بل هو محيط بالمؤمن وفى هذا كله نظر، وقد تقدم في رسم العلم إيماء إلى نشوء العالم، وأن وضع جملة المخلوقات على سنته في مقتضى اسم المنشئ - جل اسمه وتعالى جده - وأنه وإن كان أوجد رؤوسًا كاملة في الظاهر على صورها التي هي عليها كجملة العالم، وخلقه آدم ﷺ قال رسول الله ﷺ فيما أخبر فيه عن مسراه: «فإذا أنا بآدم ﷺ وإذا هو كهيئته يوم خلقه الله»[(٢)]، فإنه وإن كان خلقه كذلك ظاهرًا فقد سن به سنة النشء باطنًا ألا تراه كيف أسكنه جنته حتى لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى كما يفعل بالمولود يكلفه أبويه أو من شاء من عباده ما دام صغيرًا ولا يكلفه السعي في المعيشة، بل جشم أبويه الإنفاق عليه والحضانة له، والقيام عليه إلى أن يبلغ، فحينئذٍ يكلف السعي في معيشته والعمل لآخرته كذلك فعل بأبناء آدم ﷺ، والعالم كله إنما ظهرت في الجماد منه قوتان وجمد على سائرهما، ثم ظهرتا في النبات، ثم نشأت الجملة في الحيوان، ثم في الإنسان، ثم في المؤمن، ثم في الولي، ثم في النبي، ثم في الملك.

واعتبر هذا أيضًا بإيجاده جل جلاله خليقته في الهواء صورًا كالهباء فأخذ عليهم

---

(١) رواه مسلم في «الفتن» (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٩٠-٣٩٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الميثاق، ثم ردهم في غيبه على ما سبق في علمه، ثم استخرجهم بعد ذلك من ظهر أبيهم آدم عليه السلام كالذر، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢]، فغرز فيهم يومئذٍ المعرفة زائدًا على قبولهم الميثاق وشهادتهم على أنفسهم بقولهم: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] ثم ردهم إلى صلب أبيهم، فكانت هذه أظهر من تلك، ثم أخرجهم بعد ذلك إلى هذه الحياة الدنيا، واستعملهم بأمره ونهيه، فكانت هذه الحياة أظهر كثيرًا من الأوليين، ثم يميتهم فأماتهم بعد هذه الحياة أقرب إلى الحياة من الموتة التي كانت قبلها إذ ردهم في صلب أبيهم ألا ترى أنهم يحسون عذاب القبر ونعيمه، ويعرفون البشرى ويبقى ذكرهم، وآثارهم في الدنيا وفي عليين أو سجين، ويعرضون على منازلهم من الخير أو الشر ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، وتعرض عليهم أعمال ذويهم إلى غير ذلك، بل منهم من قد نُهينا أن نسميهم أمواتًا، بل أحياء وأخبرنا عنهم الصادق الحق أنهم عنده يرزقون، فكذلك يجب الإيمان على هذا الترتيب بأن تكون حياة البعث المستقبلة أتم وأكمل وأبقى من حياتنا هذه اليوم، فافهم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥] فاطلبه.

وكل مطبوع يحمله أربعة حملة، وكذلك الجماد والنبات والحيوان والصفات والمخلوقات كلها كما تقدم غير أن ذلك بعد فهم جمود الجامد على ما حمد عليه، وهمود الهامد والانشراح في النبات إلى الحيوان إلى ما علا، وإنما الغرض منها التنبيه والتصديق والله الموفق، وعليه المعول ولا قوة إلا به.

وبالجملة فإن المراد بحمله أربع: تقدير، وكلمة وإرادة وسنة والكون عن الكلمة والتكوين عن السنة، واختصاص المراد بما اختص به من اسم وصفة، ومعنى وشكل، وصورة وحسن تقديم أو تأخير، ورفع أو خفض عن الإرادة، وما كان من عمل أو رزق وأجل أو سعادة أو شقاوة فعن التقدير.

فكذلك لما نشأت الجملة من معان إلى قوى ظاهرة أو باطنة، ثم إلى ظاهرة، ثم إلى أظهر منها حتى انتهت إلى حيث اتفق الاعتبار مع الخبر الصادق من حملة العرش، وإن حملته على مقدار عظم قدره وشرف خطره كما قال جبريل لمحمد ﷺ حين أراه نفسه على الصورة التي خلقه الله عليها، فغُشِي عليه: «كيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه لتحت تخوم الأرض السابعة، وإنه ليتضاءل أحيانًا من عظمة

الله حتى يكون كالوَصَعِ».

فهكذا فاعتقد في اعتبارك أن الحامل على قدر عظم المحمول فهو من صفاته، فإذا كان يوم القيامة، وأحيا الله جل جلاله الموتى الحياة الدائمة الكبرى صفت الأجسام يومئذٍ من ظلم أكدارها، وطهرت من أرجاسها وكبرت بعد صغرها، وأسمعت الجوامد، وأعربت العجم، ونطقت الصوامت بيانًا، وشهدت الشواهد أنباء، فتلحق الظواهر بالبواطن والبواطن بالظواهر ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٧] ظاهرة وكذلك المحمولات التي يحملها اليوم أربعة يحملها يومئذٍ ثمانية، والحامل على قدر المحمول، لأن نشوء العالم يومئذٍ قد كمل، وأما العرش الكريم نفسه فلم يوجده موجوده سبحانه إلا كاملًا، ولا يحمله على الاعتبار الثاني إلا ثمانية، والله أعلم بالمزيد على ذلك ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الحديد:٢].

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، كما قال في آدم عليه السلام: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧١، ٧٢]، وقد أرانا جل جلاله عن ذلك آيات كان رسول الله ﷺ يبصر من ورائه كما يبصر من بين يديه، ويقول للمصلين خلفه: «**أترون قبلتي ههنا، فوالله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم إني لأراكم من وراء ظهري كما أراكم من أمامي ....**»[(١)]، ويقول: «**إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[(٢)]، وقال في شأن داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:١٨، ١٩]، وقد كان يسلم على رسول الله ﷺ الشجر والحجر، وحن له الجذع وغير ذلك من المعجزات والآيات على ما نريد بيانه يدل ذلك كله أن العرش أيضًا اليوم يحمله ثمانية، لكنه غيب وإنما خاطبنا على المقدار الذي يتوجه عليه اعتبارنا وما يقع به ظاهر مشاهدتنا، ودلنا بما خرق لنا من العادات على أيدي أنبيائه ـ صلوات الله وسلامه على جميعهم ـ إن الأمر أعظم من ذلك جدًّا، قال رسول الله

---

(١) رواه البخاري في «الصلاة» (٤١٨)، وفي «الأذان» (٧٤١)، ومسلم في «الصلاة» (٤٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري (٤١٩، ٧٤٢)، ومسلم (٤٢٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في «الصوم» (١٩٦٤)، ومسلم في «الصيام» (١١٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، ورواه البخاري (١٩٦٦)، ومسلم (١١٠٢، ١١٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ﷺ: «في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[(1)]، بل له ما أطلعتكم عليه، فسبحان ذي العز الذي لا يرام، والقدرة القاهرة سبحانه وبحمده. لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

والسواء فاعلم في كلام العرب: العدل، يقال من ذلك: أرض سواء وسيء إذا لم يكن فيها خفض ولا رفع، وأمر سواء وسوي، وسيان في التثنية قال الله ﷻ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [المنافقون:٦] ويقول: اعتدل الأمران في حقهم.

وصفات الفعل على ضربين: فعل معدى يكسب الفاعل والمفعول فيه صفة ونعتًا لم تكونا عليه قبل إحداث الفعل، والآخر منهما فعل غير معدى لا يوقعه الفاعل على مفعول، فهذا يكسب الفاعل وحده نعتًا وصفة لم يكن عليها قبل ذلك ولا يتعداه إلى غيره، ومن هذا الضرب يكون بناء تفعل مثل: تكبر وتعلى من علا، ومتفعل مثل: متكبر، ومتفاعل مثل: متعال، ويكون منه أيضًا بناء افتعل مثل: استوى من السواء، ومفتعل مثل مستو.

وللإنسان صفات جمة وأحوال كثيرة، فإذا أراد إحداث ما أعد لها من نفسه صفة تقابلها وتشاكلها، فينزل بصفة من صفاته إلى حال يتهيأ معها المراد، كقوله: استوى زيد على العرش أي: استعد لذلك وتهيأ له بصفة تكامل له بها علوه عليه واعتماده وطاعته له وتصريفه إياه من الهيئ لإجرائه وإمشائه وملكه له، فإذا كان كذلك فقد استوى على فرسه، قال الله ﷻ: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٣]، فأخبرك بمعنى ما تقدم؛ لأن قوله: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: تقدموا من أنفسكم إرادة وصفة تكون لكم ظهره المركوب حالًا، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا تصورت لكم تلك الحال واعتدلت بكم وكملت الهيئة من أنفسكم بما تقدم ذكره، ومن الركوب بالتسخير فما كنتم لذلك مطيقين من أنفسكم ولا من مركوبكم، واقرن إلى هذا قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن

(١) الحديث رواه البخاري في «بدء الخلق» (٣٢٤٤)، وفي «التفسير» (٤٧٧٩، ٤٧٨٠)، ومسلم في «الجنة» (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم (٢٨٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

تَمَعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٢٨].

والله جل جلاله وعلت مشيئته، لا يقوم له شيء، ولا يصير لأمره، ولا يطاق سماع كلامه ومع هذا فإنه ما وجد شيئًا إلا به ولا عاش إلا برحمته، وخفي لطفه وإرادته ما أراد به ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧] ما عرف الله إلا بالله، وإنما وضع الأشياء مواضعها من لطفه، وأقامها على مقامات من أسمائه وصفاته، ثم دبرها على مقاديرها من ذلك، فلم يكلف أحدًا فوق استطاعته، ولا حرمه ما في وسعه، وهو الحنان المنان بنعمته تتم الصالحات وهو المدبر الحكيم.

وكيف يقوم الحادث العاجز المتلاشي لأول أزلي فأدر له الوجود أجمع فلا يوجد شيء إلا به، لولا رحمته وسع كل شيء رحمة وعلمًا فإذا أراد ﷻ شيئًا من مخلوقاته بشيء من أمره واعتمد بما شاء من صفاته وأسمائه وأيده فأيده على ما أراده منه وطوقه حمل ما له أهله، وهذا هو معنى السواء والعدل، أي: قابل ما كلفه بما أعطاه، وهو فعله بالعرش أهله لأمر عظيم، فاعتمده من الأيدي والعون بما شاء من مقتضيات أسمائه وصفاته بأمر عظيم يوازي ما أهله له وأراده منه، وكان ذلك منه استواء، ألا ترى أن القاضي إذا قعد مقعد القضاء استشعر صفة السواء والعدل حتى يسوي بين الرفيع والوضيع، والصغير والكبير، والقريب والبعيد من حيث الحكم بغيرها من صفاته معها يعدل العدول، ويتخذ الشهداء ويولي الحكام، ويعزل ويرفع أهل العلم والفضل والإيمان، كذلك الله جل جلاله وتقدست أسماؤه لما خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ المواثيق، وأنزل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، وكتب الكتب، وأحصى كل شيء حسابًا، وزم كل شيء كتابًا خلق السماوات والأرض وما بينهما ثم استوى على العرش: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الرعد:٢] ولما استوى على العرش كتب أيضًا على نفسه كتابًا هو من معنى التنزل والاستواء: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1] لولا ذلك ما قام له العرش ولا شيء وإن العرش مع ذلك ليئط به أطيطًا ؛ لأن العظمة لم تزل والكبرياء لم تزل ولا يزال، وإن السماوات ليكدن يتفطرن من فوقهن، لعظيم ما يرد عليهن من علو.

---

(١) رواه البخاري في «التوحيد» (٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤)، ومسلم في «التوبة» (١٥/٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن معنى الاستواء قول سهل رحمه الله: لم يسع الله جل ذكره أرض ولا سماء ولا كرسي، ووسعه قلب المؤمن، وقال رسول الله ﷺ: «**إنما الكرم قلب المؤمن**»[1]، سبحانه وله الحمد اعتمد قلب المؤمن من صفات الرحمة والأنس والولاية والمحبة والإمساك والكفاية ما بقي به وعاش عليه لولا ذلك لاحترق وذهب شعاعًا، ومن رحمته حجابه النور وحجب به عنه خلقه لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ومن ذلك نزوله جل جلاله إلى السماء الدنيا يعتمد ما ينزل إليه بما شاء من صفاته وأسمائه ما يحتمل ما أراد به، وينزل عن صفات الغضب والبطش والجبروت إلى صفات الرحمة والمغفرة والكرم وحسن الإجابة ونحو هذا، ومن كلام العرب: لقيت زيدًا، أو كلمت زيدًا في كذا فوجدته أبعد من كذا ـ عبارة عن الامتناع من الإسعاف ـ فما زلت أستنزله حتى نزل، أي: نزل عن غضبه وشدة امتناعه عن الإسعاف إلى خلق اللين والأنس هذا متعارف مشهور عندهم، والنزول حقيقة وكذلك الاستواء من فهمه لم يبعد عليه إن شاء الله تعالى، فقد صح النظر على طريق موافقة الخبر والحمد لله رب العالمين.

والاستواء من الأعلى تنزل، ومن المخلوق وكمال وتمام الغاية من شأنه أن يبلغها بالتسوية قال الله جل ذكره: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:٧١، ٧٢]، فكانت تسويته إياه أن جعله مجتبى مصطفى مؤيدًا بالروح العلى منه وبذلك علَّم آدم عليه السلام الأسماء كلها وأوجب الله على ملائكته السجود له طاعة لله وائتمارًا لأمره الحق الباطن من الحق استوى على ظاهر منه علم به آدم عليه السلام ما هو الباطن عنه ومنه، قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:٧٢]، كذلك قال الله عز من قائل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

فهو العالم جل جلاله بالسماوات والأرض، والعرش والجملة كلها بما فيها، وما بين ذلك قبل أن يوجدها، وبعد إيجادها، ما هو سبحانه وله الحمد وهو العالم المشاهد لذلك كله بحكم الاستواء الذي هو حكمه وأمره وفعله على سنن السنة يظهر بذلك

---

(١) رواه البخاري في «الأدب» (٦١٨٣)، ومسلم في «الألفاظ من الأدب» (٢٢٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أمره وحكمته ورحمته إلى غير ذلك من صفاته وأسمائه هذا بحكم التنزل المعبر عنه
بالاستواء، فهو بذلك أقرب إلى المخلوق من نعمه، وأقرب من القرب صفاته وعظمة
شأنه، وإذا استوى الروح على الجسم علا ذلك المحل، وعقل وأدرك ما يصيب محله
ذلك، وكان قبل استواء الروح فيه لم يكن كذلك، والله أعلى وأجل وصفًا لم يزل عالمًا
بالغًا لما قبل الاستواء قرب إلينا تحقيق العلم والمشاهدة والقرب، وجعل استواء الروح
في الجسم وحياة الجسم بالروح له آية على ذلك، فقال: ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾
[سبأ:٢]، المعنى إلى آخره لما تقرر عندنا أن الجسم تكمل بخلق الحياة فيه، وتحقق له
صفاته بالروح، ثم لله المثل الأعلى، فافهم.

والكلام صفة تعبر عن جميع الصفات الباطنة من الفاعل المتكلم، ويعبر أيضًا عن
صفة المفعول بواسطة الفعل، فالمتكلم قد عنون بكلامه عن إرادته وعلمه وقدرته
وحكمته وحياته، ثم يكون فعله عن ذلك أبين إعرابًا وأكثر إفهامًا، فيبدو ظاهرًا في
مفعوله وفعله، وقدرته وحكمته، وكلمه وعدله، وكرمه وبره، ولطفه ورحمته، وسطوته
ورضاه وسخطه وحلمه وإكرامه وإهانته إلى غير ذلك من الصفات اللازمة للفعل.

ولما شهدنا عمرًا يكلم زيدًا فيغلظ له في القول، فيتغير لذلك لون زيد وتتبدل
أخلاقه على قدر إغلاظ المخاطب في قوله حتى نراه يكاد يتميز غيظًا، ثم ربما كلمه
بكلام رضا، فتبدو البشرى عليه والسرور في أسارير وجهه وعينه ويلين خلقه، ولم يعد
عمرو وإن كلم زيدًا فقط فعلمنا لذلك أن غضب زيد ورضاه لمعنى وصل إلى باطنه من
كلام عمرو، وتراه أيضًا يعبر له بكلامه عن علم أو زهد أو حكمة أو عظة يعظه بها،
فيرق قلبه ويتعلم لذلك العلم، ويتخلق به حتى يكون ذلك له نعتًا وصفة يستحق
الوصف بها والنعت، وتراه يأمره وينهاه، فيأتمر ويطيع أو ينتهي، فما ظنك بمتكلم ليس
كمثله شيء لا قدرة كقدرته، ولا كلام ككلامه، ولا مضاء كمضاء مشيئته، ولا حياة
تشبه حياته؟! ليعنون إذًا مفعوله عن فاعله، وليعبرن مراده عن مريده، قال الله جل
قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ
أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٢١]،
فقضى القضاء وأمضى أمره بإلقاء كلمته إلى مريم قوله: كُنْ فخلقه كما خلق آدم، وقال

جل جلاله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١]، فكما ألقى الكلمة إلى مريم عليها السلام، فأرسل إليها الروح فنفخ فيها فحملته فدبره ملك الأرحام بإذن ربه كغيره على تدريج، وكالسنة في تنفيذ الأمر النازل من أعلى العرش كذلك ينزل الأمر من فوق العرش بالروح، فتدور به دوائر التنفيذ على سنته المعهودة في الإيجاد، فيكون مستقر منها ومستودع، أو على تمثيل الكلمة كن فرب أمرٍ يومه خمسون ألف سنة، ورب أمرٍ يومه ألف سنة، ورب أمر أسرع من طرفة العين دون زمان محسوس، قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

فلما ولدته ظهر فيه الآيات، فلأن كان عن الكلمة العالية كلم الناس في المهد وكهلًا، وخلق من الطين كهيئة الطير، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله للحكمة المعهودة في الكلام، ولأن كان بعد الروح العلي أحيا الموتى ونفخ في المخلوق من الطين فطار طائرًا بإذن الله وصحبة روح القدس، فكان لذلك إنباؤه بالغيوب والكلام بالحكمة له موطنًا، فكان آية على قضائه جل جلاله القضايا، وأنزله الروح من فوق العرش الكريم وقيام الجملة به طبقًا عن طبق إلى تمامه، وظهور هذه الحكم في العالم، والتقدم بالإعلام بالغائبات عنه، والمعارف الموجودة فيه والأسماء والصفات، وإلى هذه الإشارة بقوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»[1].

فمن فقه عن ربه ﷻ وعرف آياته ذهب عنه الجوع، ووجد الأمر أيسر مما ظنه الجاهلون، وشرد عنه المتعسفون، وظهر له التنزيه، وبعد عن التشبيه ـ تعالى الله عما يقول الجاهلون ـ ويظنه الملحدون.

والعلم بكله صحيح موجود فائض غزير، هو في كل شيء وعلى كل شيء سبيل ومعلم، وإنما عدمناه نحن لجهلنا بطرقه، ومخالفتنا سنة في طلبه، وإنما أصاب الصواب في ذلك أن يكون طالبًا للعلم فيها على السنة مسنونة لذلك المطلوب قال رسول الله ﷺ: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»[2]، وسُئِلَ رسول الله ﷺ عن الكهان فقال: «ليسوا بشيء»[3]، أي: ليسوا بشيء من أوصاف النبوة، ونهى عن إتيانهم، ويحق

---

(١) سبق تخريجه في المقدمة.

(٢) الحديث رواه مسلم في «المساجد» (٥٣٧)، وأبو داود في «الصلاة» (٩٣٠) من حديث معاوية ابن الحكم السلمي ﷺ.

(٣) رواه مسلم في «السلام» (٢٢٢٨/ ١٢٣) من حديث عائشة ﵂.

ما نهى عن ذلك إذ الطريق من جهتهم مظلم، والسند المسند إلى ذلك العلم ضعيفة جدًا لما كانت النقلة الشياطين، وأنهم يكذبون ويزيدون وأما أوله فصح ؛ لأنه عن الأمر الحق والموحدون عنه الملائكة ـ عليهم السلام ـ وإنما هو الأمر العلي ينزل من لدن رب العزة فيشيع في أقطار العالم، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥، ٧٦]، وهذه النجوم والله أعلم نجوم تنزل الأمر من عنده فتم ذلك الأمر بشياعه في العالم بحركة ما وجد فيه فيما فيه من وصف القدرة أبانها وضدها، وبما فيه من وصف المشيئة أبانها ومقتضاها، وكذلك العلم وغير ذلك من الأسماء والصفات، ثم من العلم ما هو مبثوث في العالم ليعلم مشاهدة واضطرارًا، ومنه ما هو غيب ليعلم بالطلب والبحث عنه، ثم هذا النوع منه ما هو ليعلم بالطلب والبحث والدليل والبرهان والنظر والاستدلال، ومنه ما يعلم بأمارة فتلك الأمارة تحتاج في سلوكها إلى سنن تسنن فيه إليه، وطريق يسلك عليه كسنة الله ﷻ في المخلوقات وكسنته على ألسنة رسله عليهم السلام وشرائعه ومنه ما لا يعلم إلا بطريق الوحي على طرقه من إلهام أو مشافهة، وهو علم النبيين، وقد يعرف من هذا ما يأتي به الكاهن غير أن الفرق بينهما أن النبي لا يوجد إلا صدقًا محقًّا أبدًا، والكاهن خطؤه أكثر جدًّا من صوابه، وكذبه أعم من صدقه، وذو الإثارة كذلك، أما الكاهن وذو الإثارة، فلهدم إصابة السنة أمر النبي ﷺ باجتنابهم وعلى كل حال، فالعلم كله دليل مرشد إلى النبوة بما هو مبني ومعلم وهاد ونحو هذا وأخصه بذلك طريق الكهنة لو صح سنده لكنه مظلم جدًا، ولما فيه من الشبهة عظمت به الفتنة، فنهي عن إتيانها، وحرست السماء من استراقهم.

وحكى بعض العلماء أن أعرابيًا كانت له ناقة يحبها لنجابتها وحسن سيرها، فبينما هو ذاهب عليها بثقله ومتاعه إذ بركت فماتت من حينها، فبقي مدة باهتًا لذلك يطوف حولها وينظر إليها، فقيل له: إنك الآن لتنظر إلى ما لا يجدي عليك نفعًا، فقال: إنما أعتبر في الذي كان يحملها ويحملني معها أين ذهب، أو أي شيء هو وهذه ناقتي لا أفقد منها شيئًا غير الروح ؟!



وقال بعض العلماء: إن الله سبحانه قال للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]، وقال في المسيح ﷺ: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩]، فالنفخ إذا لم يرجع إلى الله ﷻ وصفًا رجع إليه لا محالة فعلًا، والنافخ في الشاهد يفيد المنفوخ فيه ريحًا تجول فيه، فإذا كان الريح حيًّا كان روحًا، وإذا لم يكن حيًّا كان ريحًا، يذكر أن موسى ﷺ وغيره من الأنبياء قال: رب أحب ألا يقال في إلا ما في، فقال ﷻ: إني لم أجعل ذلك لنفسي، ألا تراه لاستوائه على العرش عامل عباده معاملة الأكفاء، ويثيبهم ثواب الممتنين عليه إن هذا لهو الكرم المبين: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، يجازيهم بالسيئة مثلها وبالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ألف ألف، كما حدث أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ إلى أن يعطيهم بغير حساب، ويأخذ بالشهود والبينات، والكتب المزعومة عليهم بأعمالهم، ويعطي على ذلك ويعفو، ويتفضل ويرجع عن علمه إلى علم شهود أهل الأرض، وإن كانوا لا يعلمون إلا ظاهر ما كان عليه المشهود له، وتراه يشتري منهم أنفسهم وهي له عبيد، فيعطيهم فيها الجنة، ويشملهم برضاهم عنه رضوانه وكل ذلك له، وكما يعاقب على ما لو شاء منه لعصم كذلك يثيب على ما إليه هذا أيد وأعان سبحانه وبحمده لزم السواء بينه وبين عبيده وخليقته، وإنما أوجد خلقًا من خلقه في سماواته وأرضه يوحدونه ويطيعونه ويحمدونه بمحامده التي هو لها أهل، وهم مع ذلك لا يبلغون حق حمده أوجد أيضًا خلقًا من خلقه يكفرون به، ويعصونه ويكذبون عليه ويكذبون رسله، ويردون أمره، ويصفونه بما لا ينبغي له ويستحيل لديه مما نزهه عنه علو جده، ويبين ذلك لعباده فيقول: **«يا عبادي، إني حرمت على نفسي الظلم، وحرمته عليكم فلا تظالموا»** [(١)] .

فهذه من حكمته في استوائه فوق عرشه المجيد ؛ ولذلك ترفع له دعوة المظلوم فوق الغمام، فيقول لها: **«وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»** [(٢)] .

وتراه ربما انتقم لعباده بعضهم من بعض في الدنيا أكثر مما ينتقم لنفسه، وربما عجل

---

(١) رواه مسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ.
(٢) سبق تخريجه قريبًا .

الانتقام أيضًا لنفسه، ثم رفع المظالم إلى يوم القيامة فينتقم لعباده وينتقم لنفسه هناك، وربما وضع انتقامه في بعض المواطن وعفا لعباده عنه، ولا يترك مظالم العباد وهذا من فضله، وسبق رحمته غضبه، ولولا صفة الاستواء وصفة التنزل ما قام لجلاله شيء، ولأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ألا تسمعه يقول جل قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فلولا تنزيل كلامه العظيم وتيسيره للذكر لتصدعت الجبال من خشية الله، ولتفطرت السماوات والأرض لعظمته، فاستقر وفقك الله حسن معاملته، وكريم تيسيره، ولطيف مأخذه في تدبيره، وكريم خطابه فيستبين لك معنى قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، من هذه الجهة سوى ما تقدم ذكره، وما أوتينا من العلم إلا قليلًا.

واعلم أن الله تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال آخرًا، يبقى ويهلك كل شيء خلق خلقه وخلائقه كلها، فصورها وفرق بينها على غير مثال احتوى عليه، ولا أمر سبق به إليه.

وفي بعض الإشارات أن الله تبارك وتعالى لما فرغ من جميع خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت على الكلام، فمدح نفسه بما هو أهله، وذكر عظمته وجبروته وكبرياءه، وجلاله وسلطانه وقدرته وملكه وربوبيته، فأنصت له كل شيء، وأطرق له كل شيء، ومن أجل ذلك جعل يوم السبت عيدًا لأهل التوراة أمرهم أن يتفرغوا له، ويفرغوا أهاليهم فيسبحونه ويعظمونه ويصلون ولا يكون لهم في ذلك اليوم عمل إلا ذكره وعبادته وتسبيحه، ولما أقبل - تبارك اسمه وتعالى جده - على الكلام بعد فراغه من الخلق قال: «إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو العرش المجيد والأمثال العلا، إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو الرحمة الواسعة والأسماء الحسنى، إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو المن والطول والآلاء والكبرياء، إني أنا الله لا إله إلا أنا بديع السموات والأرض ومن فيهن، ملأت كل شيء عظمتي، وقهرت كل شيء مملكتي، وأحاطت بكل شيء قدرتي، وأحصى كل شيء علمي، ووسعت كل شيء رحمتي، وبلغ كل شيء لطفي، وأفنى كل شيء طول حياتي، فأنا الله يا معشر الخلائق فاعرفوا مكاني، فإنه ليس في السماوات ولا في الأرض إلا أنا، وخلقي كلهم لي لا يدوم إلا بي، يتقلب في قبضتي ويعيش في رزقي، وحياته وموته

وبقاؤه وفناؤه بيدي، ليس له محيص ولا ملجأ غيري، ولو تخليت منه إذًا لهلك كله، وإذًا لكنت أنا على حالي لا ينقصني ذلك شيئًا، ولا يزيدني ولا يهدني فقده، ولا يكثرني مستغنيًّا بالبقاء كله في جبروت ملكي وبرهان نوري، وأنس وحدتي، وقوة توحيدي، وسعة بسطي وعلو مكاني، وعظمة شأني فلا شيء مثلي، ولا إله غيري، ولا شيء يعدلني وليس ينبغي لشيء خلقته أن يذكرني ولا يكابرني ولا يعاديني، ولا يخرج من قدرتي ولا قبضتي، ولا يستنكف عن عبادتي، ولا يعبد دوني، ولا يعمل بي، وكيف ينكرني جملته يوم خلقته على معرفتي ؟! أم كيف يكابرني من قد قهرته بملكي ؟ فليس له خالق ولا رازق ولا باعث غيري، أم كيف يعاديني من ناصيته بيدي ؟! أم كيف يعدل بي من أعمره وأنقص جسمه، وأنقص عقله وقوته، وأتوفى نفسه، وأخلقه وأهدمه فلا يمتنع مني ؟! أم كيف يستنكف عن عبادتي عبدي وابن عبادي وابن إمائي وملكي وطوع يدي، ولا ينتسب إليَّ وأنا الخالق ولا وارث غيري ؟! أم كيف يعبد دوني من تخلقه الدنيا، ويفني أجله الليل والنهار وهما شعبة يسيرة من سلطاني ؟! فإليَّ إليَّ يا أهل الموت والفناء إليَّ لا إلى غيري، فإني كتبت الرحمة على نفسي، وقضيت العفو والمغفرة لمن استغفرني، أغفر الذنوب جميعًا صغيرها وكبيرها، فلا يكبر ذلك عليَّ ولا يتعاظمني، فلا تلقوا بأيديكم ولا تقنطوا من رحمتي، فإن رحمتي سبقت غضبي، وخزائن الخير كلها بيدي، ولم أخلق شيئًا مما خلقت لحاجة كانت بي إليه، ولكن لأبين به قدرتي، ولأعرف الناظرين بنفسي، فينظر الناظرون في ملكي وتدبير حكمتي، ولتدين خلائقي كلها لعزتي، ويسبح الخلائق كلهم بحمدي، ولتعنو الوجوه كلها لوجهي»(١).

التعبد

اعلم - وفقك الله - أن من التعبد بموجب هذا الاسم الكريم هو أن تعمل نفسك ظاهرًا وباطنًا بما يرضي الله، وتنتهي عمَّا يكرهه، فوجهه فاعلم حيث توجهت، وطريقه حيث استقمت قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥].

وكلما رأيته في طريق اعتبارك وشاهدته في نظرك من الموجودات من لدن العرش الكريم مما دونه فعباد أمثالك ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٤، ٣٥) عن وهب بن منبه رضي الله عنه موقوفًا.

﴿وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣]، وإنما الملك على الحقيقة ذو العرش المجيد لا إله إلا هو رب كل شيء ومليكه القائم على كل شيء، والمحيط به من ورائه فإليه فالجأ، وعليه فتوكل وإياه فاسأل، ولا يشغلنك عنه سواه، وسله بجد من نفسك، وفراغ من قلبك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد وتخط في اعتبارك ما سواه إليه، وأعط كل ذي حق حقه، وتأدب في ذلك بأدب سيد المعتبرين إبراهيم الخليل عليه السلام حين نظر إلى الكوكب بعين الإنصاف، وسلك في الحكم به سبيل العدل، ولما رأى عليه من سمات الحدث وآيات الصنع ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦].

ثم انتقل إلى أكبر منه جرمًا، وأثقب ضوءًا، وأكثر نفعًا، فلما رأى قد سن به سنن صاحبه، واقتفى فيه أثره حكم عليه بحكمه، ثم ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧]، ثم انتقل طالبًا للحقيقة إلى ما هو أعظم قدرًا وأشرف رتبة وخطرًا، فلما رأى شواهد الحدث وافتقار الصنع على الجميع لا يزيد إلا بيانًا حكم على جميع السبعة الأفلاك ذوات الكواكب السيارة بحكم العبودية، ثم تصاعد بنظره إلى جميع الأفلاك إلى السماوات العلا، ثم إلى الكرسي الكريم والعرش العظيم، وتخطى ذلك كله إلى الذي فطر السماوات والأرض حنيفًا لم يشرك به شيئًا سواه، ولا اعتمد بعبادته حاشاه، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

فهذه السبيل فاسلك، وهذه السنة فاستن في استدلالك، فهو إمام المتقين، وقائد المعتبرين، وسيد المتوسمين صلى الله على نبينا وعلى جميع النبيين، ولقد وصف بعض المعتبرين استنانه في اعتباره فأحسن وأجمل ذكر حاله فأبلغ، فقال: ما زلت أطوف بالبيت أطلبه، فلما شاهدته رأيت البيت يطوف حولي، فجعل العالم كله كبيت واحد طلب فيه ربه جل جلاله، فلما شاهده بما نصب على معرفته من العلامات، ودل به على نفسه من الدلالات شاهده ببيناته في البيت غير ساكن فيه بائنًا عنه غير مفارق له، فجعل البيت يطوف به يطلبه بما ضمنه من معالمه، وأداء شهاداته، وتعريف معارفه، وإهداء تحفه ومنافعه بما فيه منه والوسيلة التي بينه وبينه.

وقال الآخر: طلبت لنفسي موضعًا في الملكوت، فلم أجد لها موضعًا حتى ضربت

خيمتي بإزاء العرش، وذلك المقام في الاعتبار موضع الاستواء حيث استوت الخليقة من حيث هي الحال فيما هنالك صدق التوكل، وحقيقة التفويض، وإفراد التقرير بخاصة التوحيد، وهذا هو من كلمة التوحيد بين النفي والإيجاب ذوين موضع الاستثناء منه، فافهم والزم فقد قرب لك الأمر، وبين لك الرشد، واختصر بك الطريق، وحملت على مهيع واضح من التحقيق، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فسقيا للقلوب التي عمرت ساحات الملكوت حتى أميطت عنها حجب الغفلة، وكوشفت مجاري القدرة لم ترض لأنفسها شغلًا إلا بطاعة الملك الأعلى، فعلقت شوقًا بالمحل الأسنى فأفادها لذلك المعرفة التامة، والميز المحيط، وامتلأت نورًا من نورتها، فحدث في خدمته وحدث العلائق دونه في عبادته واتقته حق تقاته، فكل علم أو ذكر أو عمل ظاهر أو باطن وجهوه إليه وأرادوه به، فهو منه وإليه يسرنا الله وإياك يا أخي لما يسرهم له، واستعملنا جميعًا بما استعملهم به، وأورثنا في هذه الحياة الدنيا أعمالهم، وألحقنا في الآخرة بهم إنه كريم العفو حسن الإجابة .

اسمه الخبير جل جلاله

الخبر بالشيء: هو الوقوف على حقيقته، والإحاطة بمعانيه كلها الغائبة والحاضرة والحصر لها، من ذلك قولهم: خبرت الشيء، أي: بلوته أخبره خبرًا، والخبر المصدر والاسم منه الخبر، فهو مختبر ومخبور، وأما مختبر له وخابر وبه خبير مبالغة، وحقيقة الخبر استكشاف باطن المخبور وهتك الستر والحاصل دونه حتى تستوي باطنه في العلم وظاهره من ذلك قيل لحارث الأرض: خابر ؛ لأنه يشقها بالحرث فيجعل باطنها ظاهرًا، وقيل لشقوق يكون في الأرض: خبار من ذلك أيضًا، والخبر أيضًا: القطع والمقطوع منه يقال له: الخبير، وقيل للقديد: خبير لذلك، ومن ذلك الخبر سمي بذلك ؛ لأن المخبر به يطلع المخبر بالخبر على باطن المخبر عنه، والمخابرة أكثر الأرض ببعض ما يخرج منها وهو مأخوذ من الخبر والخبر الذي هو الحرث والقطع .

الاعتبار

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كلامنا على ما تقدم لنا من العادة إنما نتوجه به إلى الصفات المحدثة فينا، والأسماء الدالة عليها من أسماء المحدثين تنزيهًا للصفات العلا والأسماء الحسنى ؛ لأن الله جل جلاله قد جعل للمعتبرين في مخلوقاته غنية عن النظر والتفكر في صفات ذاته وللخبر الذي جاء في ذلك عن النبي ﷺ، ولو لم يرد علينا في

ذلك أثر مذكور لوجب علينا التزام هذا الأدب لقصور عقولنا لها عن درك نور ذلك الجلال، والله المستعان المسدد بمنه.

واعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن الأسماء كلها وإن اختلفت معانيها وتغايرت مدلولاتها فالمسمى بها واحد، وكذلك الصفات فذات الموصوف واحد توجد الصفات بها والأسماء تحقيقًا للوجود لا تكثيرًا للعدد، ولأنها أصل العرف فلا تعرف وأقل للعلم، فلا تعلم بمعالمها وتعرف بمعارفها وتجهل لسابقتها، وتنسى للزوم اتصالها، ولا يمكن جحدها، لقرب مشاهدتها كذلك الحق الأول سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد أن يعلمه ولا يقدر أحد أن يجهله إنما يعرف بمعارفه، ويعلم بمعالمه، ويدعى بأسمائه ويميز من سواه بصفاته، ليس كوجوده وجود، ثم الفرق بين الخبر والعلم وسائر الأسماء الدالة على صفة العلم أن تتعرف حصول الفائدة من حيث تلقى فأضف ذلك المعنى إلى تلك الصفة، وسم الفائدة بذلك الوجه التي حصلت، فمتى حصلت من موضع الحضور كان ذلك الحضور ظاهرًا وباطنًا سميت مشاهدة، والمتصف بها هو المشاهد والشهيد.

وكذلك إن حصلت من جهة سمع أو بصر المتصف بها يسمى بسميع أو بصير، وكذلك إن حصلت الفائدة عن علم أو علامة أو كتاب أو إشارة أو شيء ظاهر أو باطن يقوم مقام العلم والعلامة، فهو العلم والمتصف به العالم والعليم.

وإن حصلت عن استكشاف ظاهر المخبور عن باطنه ببلوى أو امتحان أو تجربة أو تبليغ أو ما قام مقام ذلك، فهو الخبر والمسمى منه الخبير، وعلى سبيل الاصطلاح تجمع ذلك كله العلم، وليست الصفات والأسماء بذوات فيتكثر بها الموصوف أو المسمى، وإنما بها يتحقق وجود الموجود، فما كثرت صفات الموصوف وأسماء المسمى من حيث هي أسماء لمعان موجودة به تحقق وجوده بقدر ذلك وقف بفهمك على هذا المعرف، فإنه مزلات أكثر المعتبرين، وخفي مدارك النظر والمتفكرين، ومن ذلك زل الأكثر إلا من عصم الله ﷻ.

فمنهم: من رأى أن يسمي المسمى بأسمائه تشرعًا وعقلًا، ولا يصفه بصفات ما تسمى به، تنزيهًا له على ما زعمه، وتحقيقًا للتوحيد كما ذكره.

ومنهم: من قال بالأحوال من أجل ذلك وأبوا من إثبات صفة هي العلم والقدرة والحياة أو الإرادة وغير ذلك من الصفات، واستمرار أهل السنة على تسميته ووصفه

جل جلاله بما تسمى به واتصف، وأبى أولئك ذلك، وقالوا فيما قال فيه أهل السنة صفة حالًا، والدليل تشهد الصفاتية من اللغة والكتاب والسنة في مقامها، ومن حيث تكلمت به، لأنهم لزموا ظاهرًا من الحق، فلم يقدموا عليه نصوصًا ظاهرة من الدلائل البينة والبراهين النيرة، وآية ذلك أنه إذا فرضنا جوهرًا وهو الجزء الذي لا يتجزأ المتجزئ إلى أقل منه، فبالوجود والمشاهدة تعلم أنه قد احتمل في كل نوع من الأعراض عرضًا واحدًا ليس الضد، فهذا واحد يحمل معاني جمة إذا نظرت إليها فإنما هي تحقيق لوجوده، بل لولا وجودها به لم يوجد، وإنما يكون وجوده على قدر ما وجد به منها، ولذلك كان الجسم حاملًا لصفاته الموصوفة بها كالبياض الموجود بالجزء، فالمحل به أبيض جسمًا كان أو جوهرًا، فكذلك في الطعم والرائحة وجميع الأوصاف .

التعبد

اعلم ـ رحمك الله ـ أن أكثر ما تتوهمه النفس، وتظنه خطأ حتى يقع التحصيل والنظر ؛ لأن الغفلة تقدمت التحصيل في الإنسان، وكذلك الجهل تقدم اليقين حتى كمل العقل واستعمل فحصل، ومثال ذلك أن كل شيء في وهم ابن آدم مختلط كاختلاط أصناف الحبوب الممكن فيها التمييز فما ترك منه على الأول من جلاله، فهو على اختلاطه، وما حصل منه حصل لمن شاء الله تعالى له ذلك، ولم يمنعه من اجتهد إن شاء الله تعالى، ثم ما كان في النفس محصلًا أن ترك على حاله لم يمتحن ولم يختبر، فهو ظن لم يستبن يقينه فصوابه غير محمود عليه صاحبه، وهو في حاله ذلك غير معتقد نفعه، فهنا يحتاج العبد إلى الخبر حتى يبلغ من مطلوبه إلى درجة الخبر بما أمكنه من امتحان أو تجربة أو بملابسة أو نحو ذلك حتى يميز البعض من الكل، والظاهر من الباطن، والأعلى من الأسفل، والأول من الآخر، والضار من النافع، والأشكال والأحوال والهيئات وغير ذلك حتى يقدم على اليقين من أمره، ويمسك على اليقين من عمله، ومتى لم يقدم الخبر بين يديه كان من أمره على خطر، ومن معتقده على غرر ؛ ولذلك قال الخضر لموسى صلوات الله وسلامه عليهما، حين وعده بالصبر عن نفسه على ما يرد عليه من قبله في حال الصحبة: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف:٦٧، ٦٨] .

وهذه جملة تشهد لها الوجود والمشاهدة أنه من لم يحط علمًا بمطلوبه كذبه، ومن لم

يحط به خبرًا أسرع إليه الجزع عند المحنة، قال الله ﷻ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس:٣٩].

وذلك أن النفس إذا دعوتها إلى الصبر في أمر الله سبحانه، والجلد على عبادته دون تقدم الخبر لم تمتنع من أن تضمن الصبر والوفاء، وأعطتك ذلك من ذاتها في يسر وسخاء منها، وإنما أعطتك ذلك من جهة واحدة وتلك الجهة على علمها بأن ما دعوتها إليه هو طريق سعادتها الواجب عليها سلوكه والتحلي بحليتها، والصبر في نفسه منفرد جهة واحد غير مختلف في الذات، والعلل المنصوب عليها في النفس مختلفة لا في الصبر، ولهذه العلة احتيج أن يتقدم إليها بالخبر؛ ليبين لها ما تصبر عليه، وإلا لم يثبت عند المحنة، وجمحت عن بعض ما يرد عليها عند مواطن الامتحان، فمن حقها عليك أن تقول لك: عرفني إذا ما المصبور عليه؟ وما أنواعه؟ وإلا أقررت لك وأذعنت بما لم أحط به علمًا، ولم يتقدم لي به خبر، فإذا ما جاءني لم أصدقك فيه إذ لم أتوهمه من قبل فأوطن عليه، فعادت حقيقة إذعاني بالصبر رضاء بالثمن الموعود على الصبر لا على المصبور عليه، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان رضا فأمضه، وإن كان غير ذلك فأمسك**»(١).

فعليك بتقديم الخبر في مطلوبك كله، واستشعار عزيمة الصبر عند مواطن الامتحان تظفر ببغيتك إن شاء الله.

ثم ما وجد التعبد به في رسم العلم فاستعمله ههنا تصب البغية، والله المستعان.

اسمه السميع تبارك وتعالى

حاسة السمع فينا هي قوة باطنة موجودة في الجارحة المخصوصة بها من شأنها تأدية معانٍ ظاهرة إلى قوى باطنة أخرى، وخاصتها من المعاني الظاهرة إيصال الأصوات كلها على اختلافها دون ما سوى ذلك، ثم يتلقى الباطن عنها ما أذنه إليه بصفة العلم على ما تقدم بيانه.

والجارحة على الحقيقة ليست هي الحاسة من الجارحة هي الأذن نفسها، والحاسة قوة روحانية باطنة هي واسطة بين باطن السامع والظاهر هذا العالم على شريطة القرب

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤١، ٤٢) عن خالد بن كريمة ﷺ موقوفًا.

من المحسوس والمشاهد، وهو معنى يعم جميع المطالع من باطن المخلوق إلى المطلع عليها.

والسمع هو بعض صفاته وهو خاص من الباطن، فمتى كان المنادي إليه من قبل الأذن كان سمعًا، وإن كان من قبل العين سُمِّيَ بصرًا، وكذلك الشم والذوق واللمس، وتتخذ المعاني في الباطن، فيورده عند الأداء على حسب ما أدته الحواس إليه من خارج، فإن الله ﷻ لم يقسم له من علم الظواهر سوى ما يطلع عليه من هذه الأبواب الخمسة الضعيفة عن بلوغ الغاية القاصرة على درك النهاية، ولله - جل ذكره - صفة الإحاطة على التمام الأقصى، والكمال الأرفع سبحانه، وله الحمد.

والسمع درجات أولها عن تأدية الأصوات على اختلافها، وهي حادثة عن اصطكاك الأجرام بواسطة الهواء المنضغط بينها، أو عن اندفاع الهواء بين جسمين متضايفين، ثم في خروجه ذلك أن تناوبه الانضغاط والاتساع كان تقطيعًا، فإن زاد إلى أن يكون ذلك على أقسام معلومة وأعداد محصورة كان كاملًا ظاهرًا ذا معان يؤديها باطن سوي بظاهر هو اللسان إلى باطن آخر سوي بواسطة ظاهر آخر متصل به هو الأذن، فإن زاد إلى أن يكون ذلك الانضغاط والانفساح على أوزان معلومة إلى نهايات محدودة كان غناء أو ما قام مقامه، فإن زاد إلى أن يكون في الباطن المؤدي معنا محركًا للباطن المؤدي إليه بواسطة صوت ندي حسن النغمة، وساعده المقدار أحدث ذلك طربًا ووجدًا وحركة إما متوازنة الأجزاء، فهي الرقص أو غير متوازنة، فهي العبث واللعب ونحو هذا أو سكونًا أعلاه الموت، وأوسطه الغشي، وأدناه ثقل الأعضاء، واعتقال اللسان وأشباه هذا والبواطن المتلقية للسماع ضروب وأصناف لمعان يكون في المؤدي والمؤدى، وربما جاء بيانها فيما بعد إن شاء الله ﷻ.

أما الأول: فأغلب سلطانه في أول درجات السماع.

وأما الثاني: وهو المؤدى إليه فأغلب سلطانه في أقاصيها ونهاياتها، وعلى نحو ما يكون الغالب على الباطن، فيستحيل المسموع الوارد من المؤدى في باطن السامع، وعن هذا والله أعلم كان التأفيل والصرف والقلب، ولذلك قالوا: ساء سمعًا، فأساء إجابةً.

ثم يعضل الداء وتستحكم علته بما يحل في القلب، ويستحكم من حظ الهوى، وأماني النفس، فيصبو الباطن إلى مقتضى ذلك ويميل إليه، وما ورد عليه مما خالف ما

هو عليه صرفه بحكم الهوى عن حقيقة ما عناه المؤدي حتى يستمر ذلك إلى الضلال المبين نعوذ بالله من سوء السمع، وقلب القلب، ونسأله أن يلقى بأسماعنا وحواسنا إلى سماع كلامه وفهم مراده، وأن يشهدنا مشاهدته ويشرح صدورنا إلى هدايته بمنه وطوله، فرب سامع خير من مريد شر، ومعبر عنه كان عنه نجاته، ورب سامع شر من مريد خير، كان عنه هلاكه كالجسم يريد صانعه ﷻ دماره فدواؤه يستحيل فيه داء، ومتى أراد نماءه وخصبه فبضد ذلك قال الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، وهذا كثير في القرآن والوجود، وعلى ذلك خلقهم فلا يزالون مختلفين في الاستجابة لاختلاف الأماكن التي دعوا منها فالله المستعان، ولذلك اعتقد قوم في قول بعض القائلين:

يا راحتي عندما تشتد بي عللي ... أنت اقتراحي على الأيام والدول

لو كنت بي وفقدت الناس كلهم ... والمال من بعد فقد الأهل لم أسل

الآن لي فيك منهم كلهم بدل ... وليس في كلهم لي منك من بدل

إنه خطاب لمحبوبه من الآدميين، ووصف لمعشوقه من المحدثين، وفي قول الآخر:

لو كان كل العالمين مخالفي ... ما ضرني إن كنت أنت مساعدي

واعتقد آخرون في ذلك حقيقة الحق، وإنما يسمع كل من حيث أسمع، ويبصر الذي أبصر، ويختار الذي اختير له ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١]، وهذا وشبهه مكشوف بين في حيز من صم باطنه عن حقيقة الخطاب، فهذا بسوء اختياره من هواه إلى مثل لمعان السراب والذي يقابله في الطرف الآخر لمن أثقب له نور فهمه، وفتح لمعاني الخطاب مسام سمعه قول الأول:

قالت توق رجال الحي أن لهم ... عينًا عليك إذا ما نمت لم تنم

فقلت إن كان قتلي عن رضا لكم ... فما غلت نظرة منكم بسفك دم

فحملوا قوله أي: قالت الرسل والكتب توق رجال، أي: الحفظة والملائكة في السماء والأرض وسكان الجو منهم والمؤمنين، الحي، أي: الحي الحق - عز ذكره -

والعين عين الرقيب الحق وبالحقيقة، فهو الذي ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] ثم انبع لهم جدًّا واتصلت بهم الأصوات، وكثرت الدعاة لهم من كل جهة، ففي تصفيق الرياح وتصويت ألسنة النيران، وحفيف الشجر ونشيش أوراقها، وتزاخر المياه وضجيجها حال خريرها في مسالك مجاريها، وتغريد الأطيار ومجاوبتها، وصراخ الديكة ونقيق الضفادع وغير ذلك من كل ما صوت، واسمع لبواطنهم منه مذاق وجد وحقيقة حتى ألا تسمع إلى قول بعضهم:

لبـالي لا آوي إلى غـير سـاجع ... ببينـك حتـى كـل شيء حمـائم

ويقول الآخر:

وقـالوا أتبكـي كـل قـبر رأيتـه ... لقـبر ثـوى بـين اللـوى فالـدكادك

فقلت لهـم إن الأسـى يبعـث البكـا ... دعـوني فهـذا كلـه قـبر مالـك

وأنت إذا نظرت إلى مطلوب هذا الطالب إنما تجده قبرًا لا يشغل من الأرض كلها سوى أربعة أذرع، وربما كان ذلك فكيف يطالب مطلوبه ربه ﷻ وهو حيث ما حل بجسمه أو ذكره لا يجد سوى صنعه ومصانعه وتصنيعه وآثاره وملكه وعبيده إلى غير ذلك، ولا يرى فيما يراه من ذلك أو يجده إلا أحسن صنع، وأكرم أثر، وأتقن فعل فشتان ما بين الطالبين والمطلوبين والهدايتين ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦].

وإنما هو الشجو أي: باطن أسكنه على الوجه الذي توجه به إليه خرج سمعه ووجده على تلك الجهة، وعلاقة ذلك الشجو أنه إذا أسكن باطنًا ما، وتحقق فيه أن يفطر صاحبه إلى ترديد الآي بعد الآي، والقول بعد القول من شعر وغيره؛ لفراغ باطنه من سوى ما امتلأ منه ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، رحمكم الله فهكذا تفرقت الطرق بالسالكين، وإن كانت الدعوة واحدة والمدعو إليه واحدًا لكن أماكن النداء شتى فمنادى من قريب ومنادى من بعيد.

اسمه البصير جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

قد تقدم الكلام في صفة السمع، وإن المراد بالكلام الصفة المحدثة بما يغني عن ترداده غير أنه خاصة البصر غير من خاصة السمع تأدية المرئيات كلها من الأكوان والألوان على اختلاف ذلك كله، ولا يجوز لنا عند التعرف من الاعتبار بها أكثر من

شواهد الكتاب والسنة على ما جاءت به، وعلينا التسليم للبلاغ والإيمان بالأخبار وترك التكييف والتمثيل ما تعرفهما من الكتاب والسنة، فقوله تبارك وتعالى لرسوليه موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]، و﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤].

قال: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨، ٢١٩]، وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، كما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، و﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، قيل في التفسير: بمراء منا.

وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:٧٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١) وذكر صفة السمع والبصر في القرآن وحديث الرسول كثير فلا نطول باستقصاء ذلك.

واعلم ـ وفقك الله ـ أنه لا يجوز أن تعتقد في الأسماء تغايرًا من قبل دلالاتها عليه، بل من قبل مدلولاتها من حيث هي، ومن حيث فهمنا عنها لا من حيث هو، لأن صفاته لا تختلف، بل هو الواحد الأحد لا غيرية تلحقه، وإنما تغايرت الأسماء والصفات عند المدركين والواصفين له بها لا غير، فإذا صعدت العقول بإيمانها إلى هذا المستوى ألفته جل جلاله أحد الذات، وأحد الأسماء والصفات لا غيرية فيما هنالك ولا تكثر، وإنما كثرت الأسماء لتحقق الوجود، فافهم.

وما سمي باسم العلم إلا بما أوجبته اللغة والشرع، ومن حيث حصول الفائدة لنا من جهته، وكذلك القدرة لم تسم قدرة من حيث هي؛ إنما سميت بذلك بما أوجبه الشرع واقتضته اللغة، ومن حيث حصول الفائدة لنا بها وكذلك الإرادة وغيرها

---

(١) رواه البخاري في «الإيمان» (٥٠)، وفي «التفسير» (٤٧٧٧)، ومسلم في «الإيمان» (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، ورواه مسلم (٨) من حديث ابن عمر ﷺ.

والأسماء كلها، فاعلم ذلك، فهو ﷻ يعلم بما به يشاء، كما يعلم ويشاء بما به يقدر، كما يقدر بما به يبصر وبما به يسمع، اتحدت الأسماء والصفات من حيث هو، وتغايرت من حيث علمنا بها، وميَّزنا لها ومعرفتنا هو هو ليس شيء كمثله، ومن نظر في خلق نفسه، واعتبر بوجود ما أبدعه الله جل جلاله عليه، وصل بذلك إلى شفاء الغليل وثلج اليقين، قال الله جل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم:٨]، وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠]، ثم قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

ومتى وجد هذا المعتبر في صفات نفسه تغايرًا وفي أسمائه تكثرًا، فمن حيث هو موضع التكثير ومعدن للأغيار، ومهما وجد توحدًا وتصادقًا وتحادنًا وتعاضدًا، وإن الوحدة لا تستحيل إلى الكثرة بكثرة الأسماء والصفات، فهذا الدليل المرشد، وهي الآيات من الحق، والمبثوث في العالم على الحق المبين، قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨]، ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥] فافهم.

فصل

قد تقدم لنا من الكلام في الصفة المحدثة ما يشرف بذوي الألباب، ويغني ذا الفهم النطن عن الإسهاب، وأما الصفة العالية: فلا يجوز لنا التعرض بمطالبة تعرفها بوصفه، ولا السؤال عنها، فكيف سبحانه وتعالى في عزته وجلال بهائه عن الكيف كيف يكيف بكيف من كيف الكيف؟ أو كيف يوصف من لا يدرك كنهه الوصف؟! بل لا كيف ولا وصف، كيف يدركه من لا نظير له من له نظير، بل كيف يدرك العاجز المتلاشي من لا يقوم له شيء مدرك لولا الأسماء والأمثال والحروف والآيات والدلالات.

ولما عسر على الأبصار أن تدرك قرص الشمس في بهاء شرفها، وامتنعت بشعاع ضيائها في سلطان إشراقها، تخيل الإدراك تصور قرصها من صح تركيب السبع الطباق من عينيه، وفوق القوة الباصرة من باصريه بأن ينظر إلى موقع الشمس من الماء فينطبع له مثال صورتها في الماء فينظر مثالها ويدركه.

فهذا سبيل رؤيته بالعلم في الدنيا وآية على رؤيته بالأبصار في الآخرة، فهكذا فلتكن أنت في تعرفك، وهذه السبيل فلتسلك في اعتبارك فهو العزيز الذي لا تدركه الأبصار

وهو يدرك الأبصار، وكما لا تدركه الأبصار فكذلك لا يدركه كنهه البصائر، ولا تحيط بشيء من علمه إلا بما شاء، وعليك بالسكون والطمأنينة والإيمان بهويته وأنيته فهو الحق المبين، فليتق العبد ربه ولا يجاوزن حده، فله عند تعرف الصفات العلا في اقتفاء ما جاءت به الشواهد في كتاب الله العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢] وفي سنة نبيه ﷺ أبين بيان وأعظم كفاية:

إذا انسد باب عنك من دون حاجةٍ فدعه لأخرى ينفتح لك بابها

فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك من سوء الأمور اجتنابها

فصل

ومن الكلام أيضًا في تعرفه وتعرف صفاته العلا من حيث هي فيقول: إن صفاته ليس هو الموصوف ولا غيره؛ لأن الغيرية لا تكون إلا لشيئين مختلفين أو مؤتلفين، ولا يجوز في الصفات العالية أن يقال: لم يكن الكلام، ثم كان هذه صفة المخلوقين لا صفة رب العالمين، وإنما لم يكن استبان لخلقه علمه، وكلامه من أنهم لم يكونوا ثم كانوا فعجزوا عنه ولم يستبن لهم، والاستبانة لهم والقصور عنه يجري عليهم ولهم الأعلى علمه وكلامه تعالى عن ذلك وإنما استبان لهم كلامه ﷻ بالأمثال والأسماء والحروف على ما وصفناه وهي مثال يكتبونه، ليقرؤوه ويحفظوه ويتعلموه، ألا ترى أن قولك: الفرقان، غير قولك: القرآن، المعنى المقصود واحد واختلفت العبارة؛ لاختلاف ما عبَّرت عنه الأوصاف، وكذلك قولك: المكنون، وقولك: المحفوظ والمقروء، فيجري التغاير على الحروف والأمثال والأسماء لتغاير ما غيرت عنه والمعبر عنه واحد.

بالأسماء والمثال واللغات تستدل على كلامه وأمره ونهيه، كما بالآيات والدلالات والمشاعر ويستدل على معرفته، وكلما وقع الوهم عليه كالمثل، والنظير، والشبه، والشكل، واللون، والشخص، فهو مخلوق مكون مصنوع فكلامه إذ لا يدركه بالكيف البشر وإنما يدرك أمره ونهيه بالأمثال تعالى أن يتكلم بكلامه أحد، وكلامه مع هذا ﷻ مسموع بالآذان حقيقة مفهوم بالأفهام يسمعه من شاء من عباده، قال الله جل قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وهذا خطاب قد أمن فيه المجاز، لتأكيد الفعل في المصدر، كذلك يقال: رأيت زيدًا عيانًا، وكلمت عمرًا مشافهة، وقال رسول الله ﷺ فيما حكاه لنا عن ربه ﷻ في خبره المشهور عن مسراه: «أمضيت فريضتي، وخففت

عن عبادي هي خمس، وهي خمسون لا يبدل القول لدي»[١]، وقال: «وما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان»[٢].

وبالجملة فكتبه كلها كلامه أنزله على رسله، وكما يكلمهم يوم القيامة كذلك يرونه، ومن رأى ربه بالإيمان به في الدنيا وسمع كلامه بواسطة كتابه الذي أنزله فإنه يراه في الآخرة عيانًا ويسمع كلامه دون واسطة ولا ترجمان، فأثبت بإيمانك جميع ذلك وأمط عن توهمك ما سواه مما يلزم المخلوق من صغر أو كبر أو عظم جثة ومقابلة أو مجازاة أو ما يجيء نحو هذا لا يخفى على كل ذي عقل سليم - إن شاء الله تعالى - صفاته سبحانه وتعالى من صفات خلقه، قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه عنه أبو رزين لقيط ابن عامر رحمه الله، قال: قلت: يا رسول الله، أكلنا يرى الله يوم القيامة ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال: «يا أبا رزين، أليس كلكم يرى القمر مخليًا به»، قال: قلت: بلى، قال: «فالله تبارك وتعالى أعظم وذلك آيته في خلقه»[٣].

فاعقل قوله ﷺ: «أعظم من ذلك»، وكذلك ﷻ لا يوصف بالأين ؛ لأن الأين مخلوق، والذي أين الأين خالق، وأين يبحث بها عن مكان وكان الله جل جلاله ولا مكان وهو الآن على ما لم يزل، وكذلك تبارك وتعالى لا يجري عليه متى ؛ لأن متى باحثة عن زمان، والذي أوجد الزمان لا يفتقر إلى زمان ولا يتحول به الأحوال خلق الأشياء من غير تفكير ودبرها أحسن تدبير أحاطت بكل شيء عظمته، فابتدأ ما كان في سابق علمه أن يبتدأه، وأخر ما كان في سابق علمه أن يؤخره ليس بعلة لشيء وإنما علة كل شيء صنعه أنشأ الخلق لا من شيء بحكمته وابتدعهم من غير ضرورة بقدرته، ليري آثار صنعه، وعجيب حكمته، وعدل سنته، ولطيف تدبيره، ونفوذ أمره، وليدل على وحدانيته، ويوجب حق ربوبيته، وليعرف خلقه ما توحد به من القدرة، وبان به من الفضل والحكمة، وانفرد به من العزة والعظمة، واستأثر به من الحول والقوة: ﴿لَا

---

(١) رواه البخاري في «بدء الخلق» (٣٢٠٧)، وفي «مناقب الأنصار» (٣٨٨٧)، من حديث أنس بن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري في «الرقاق» (٦٥٣٩)، ومسلم في «الزكاة» (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود في «السنة» (٤٧٣١)، وابن ماجه في «المقدمة» (١٨٠)، وأحمد (٤/ ١١)، من حديث أبي رزين رضي الله عنه، وحسنه الألباني في سنن أبي داود وابن ماجه.

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣]، خلق الزمان والمكان وما حل فيهما أوجدهما في لا زمان ولا في مكان كذلك أوجد جملة العالم لا في عالم إذ لو التفت إلى ذلك، لاعترض عارض التسلسل لا محالة فهو في حيث لا أين ولا كيف ولا متى بهويته، وهو فيما تقلبر المكان والزمان والأين والكيف والمتى وما كان من وجود الخليقة بأسماء له وصفات نورًا زائرًا، وبرهانًا ودلالة، وصنعًا وتدبيرًا وتفصيلًا، وسنة وكلمة، ثم استوى على العرش: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ [الرعد:٢]، وهذه جملة كافية إن شاء الله تعالى. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

خاتمة الجزء الأول

كَمُلَ الجزء الأول بحمد الله تعالى وحسن عونه، والصلاة والسلام والإنعام والإكمال على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا علقه لنفسه، ولمن شاء الله تعالى من بعده الفقير الحقير المعترف لخالقه بالتقصير حمزة بن صالح بن عمر الخزرجي نسبًا الشافعي مذهبًا غفر الله له ولوالديه ولمن قرأه ونظر فيه، ودعا له ولوالديه بالمغفرة ولجميع المسلمين .

وكان الفراغ منه نهار الأربعاء ثالث عشر شهر شعبان المكرم سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بمدينة «صفد» المحروسة حماها الله وسائر بلاد المسلمين .

فهرس موضوعات الجزء الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع

الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع

الصفحة

شرح أسماء الله الحسنى

تأليف الإمام

أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد

ابن برجان اللخمي الإشبيلي

المتوفى سنة ٥٣٦ هـ

تحقيق

عبد الله عبد السميع

الجزء الثاني



بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد ﷺ

اسمه تعالى الشهيد سبحانه وله الحمد

الشهادة: صفة يسمى حاملها بالشاهد ويبالغ فيه بشهيد، كما يعبر عنه بالعلم والخبرة، وغير ذلك من الصفات التي تسمى المتصف بها، وهذا المعنى المشار إليه في المخلوق المتصف به لا يسمى من حيث هو باسم دون اسم ولا بوصف، وإنما يوصف بمعارفه، ويسمى بمعالمه ومواقع أفعاله، ومن حيث حصول الفائدة له وللشهادة ثلاثة شروط لا تتم إلا بتمامها، وهي: الحضور والوعي والأداء.

أما الحضور: فهو شهود الشاهد المشهود، وكون المشهود مدركًا للشاهد مع اجتماع صفاته؛ لإدراك المشهود هنالك.

وأما الوعي: فهو ما شاهده وعلمه في شهوده ذلك.

وأما الأداء: فهو الإتيان بالشهادة على وجهها في موضع الحاجة إلى ذلك.

وحروف اسم الشهيد بأطباعها تدل على ما تقدم ذكره، فالشين منها: حرف فيه شدة وهو يدل على اجتماع، وفيه أيضًا: رخاوة للتفشي الذي فيه، وهي أيضًا تدل على الأداء، والهاء والياء: جوفيان هوائيان ذاتيان؛ لخروجهما عن الصدر:

أحدهما: يدل على ذات غائب.

والآخر: يدل على ذات حاضر، والدال: محكمة الشدة، وذلك يدل على الجمع والوعي مع ما تقدم من دلائل أخواتها، غير إن الشدة تدل على إلزام، فأجمع في هذه الكلمة اجتماع ما غاب من الذات إلى ما حضر منها وألزم، والوعي لما اجتمع له وأداء ما وعاه وشاهده.

والشهادة إذًا: حضور ذات الشاهد المشهود ووعيه لما شاهده منه وذمه إياه، واجتماع حقيقة المشهود في حقيقة الشاهد، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء:٣٣]، وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر:١١-١٣] أي: مجتمعين حضورًا، وقال ﷻ:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

الاعتبار

اعلم أن كل ما ظهر من الحواس فإنما هي أمثلة لصفات باطنة متوسطة بين الحواس الظاهرة وبين الباطن من العبد، فتؤدي ظواهرها شهادة ما شاهدت به إليه؛ أعني: إلى

ما بطن عن تلك الوسائط وهو المشار إليه وهو العبد المشاهد المؤدي إليه، فيعقلها العقل ويزمها في لوح القلب منسوبة عنده نسبة علم إلى طرفها التي جاءت عنها، فعند التذكار أو الحاجة عند أداء الشهادة من الظاهر في مظان أداء الشهادات يرتب خروجها إلى الظاهر للأداء على مدرجتها عند انقضاء الباطن لها للزوم الوعي وتلك:

فاعلم شهادة أولي العلم الذين وصلوا بشهادتهم ما أمر الله به أن يوصل ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] قال الله ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨] أي: شهد الله قائمًا بالقسط في شهادته: أنه: لا إله إلا هو، وشهدت له بذلك ملائكته وأولو العلم من عباده، وكرر الشهادة وهو أعلم جل ذكره بمراده اختصاصًا بالشهادة الأولى، وفرق بين شهادته وشهادتهم؛ إذ شهادة العباد لا تقوم لحقيقة شهادته ولا يحيطون منها إلا بما شاء، وعلى قدر حظوظهم المقسومة لهم منها ومقاماتهم في علمها وحضورهم في حين الأداء لها ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٩] أو يكون تكراره لما تضمنه القيام من معنى الدوام، فإن القائم قد يكون بمعنى الدائم، وقد يكون بمعنى العدل وإعطاء القسط، فتكرار الشهادة على هذا إشعار بتكثيرها وتعريض بالحض على مداومتها، أو يكون المعنيان معا، فالله أعلم.

فبين إذا بما قدمناه أن المشاهدة هي: حضور الشاهد واجتماعه ظاهرًا وباطنًا حيث المشاهد، وحضور حقيقة المشهود به في حقيقة ذات المشاهد، وفي مثل ذلك قال القائل:

عِلْمُ التَّحَقُّقِ عِلْمٌ لَيْسَ يَعْلَمُهُ ... إلَا أَخُو ثِقَةٍ بِالعلمِ مَوْصوفُ

وَكَيْفَ يَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ يَشْهَدُه ... أَمْ كَيْفَ يُبْصِرُ ضَوءَ الشَمْسِ مَكْفُوفُ

وشهادته جل ذكره أصل الشهادات ومنبعثها، شهد سبحانه لنفسه بما هو له أهل، وشهد لملائكته ورسله وكتبه بحقيقة ما هو عليه، وشهد لجميع الخليقة بما لها وعليها، شهادة مشاهدة وحضور يرى ويسمع ويعلم بصفات محيطة لا يغادر باطنًا ولا ظاهرًا من المشهود إلا شاهده، ثم أفاض من مصداق شهادته على الشاهدين سواه سبحانه وله الحمد، فعم جميع الخلائق بذلك عمومًا شاملًا فشهدت له بما هو أهله وعلى أنفسها بما لزمها وما هي عليه، فكل شي له شاهد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ [سبأ:٤٧] شهادة حق بالسنة صدق، فمن شاهد بحال ومقال، ومن شهد بحال حجته عن الإقرار أو مسترقيه المقال إلى يوم الأداء والسؤال، قال رسول الله ﷺ: «لا يسمع مدى صوت

المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا مدر»، وفي أخرى: «ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»[(١)] فالرسل شهداء على أممهم، والحفظة شهود على ما شاهدوه ولزموه من أعمال العباد، والملائكة يشهدون لربهم، وللعباد، وعليهم، والجن، والإنس، وجميع الحيوان، والنبات، والجماد، والهواء، وبالجملة، فكما شاهد عز جلاله كل شيء وشهد له وعليه، كذلك شهد له كل شيء وشهد لشهادته بما شاهده ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

شَهِدَ العَالمونَ أَنَّـكَ رَبٌّ ... كُلُّ جزءٍ منْهُ أَدَلُّ شَهِيد
وَرَاء العَالمونَ بَالعَلْمِ هَذَا ... ثُمّ قَالَ الأَتْبَاعُ بَالتَقْلِيْدِ

وأما أداء الشهادة: فالشهيد الحق جل ذكره يؤدي شهادته لنفسه عند نفسه سبحانه جل وعلا، وفي اليوم المشهود وعلى قدر المشهود لهم وعليهم في قربهم منه حظوتهم لديه، فمنهم من يكون ذلك منه عرضًا، ومنهم: من يكون ذلك منه إنباء وتوبيخًا وتقريرًا وعلى قدر منازلهم عنده وأثرتهم لديه، وجميع الشاهدين سواء يؤدون شهادتهم عنده ثم عند خلفائهم من عباده الذين من أجلهم أقام شواهده ونصب دلائله وهم أولو الألباب والعقول، ثم الناس في تلقي الشهادات عن الشهداء على مراتب شتى، فالكافرون منهم صم عن سماع أداء الشهادات؛ لعدم الحياة الدينية عندهم التي بصفاتها يتلقون شهادة الشاهدين ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١] وعموم المؤمنين غافلون أكثرهم عنها معرضون لا يكاد يجيز أحدهم من الشهادات إلا شهادة الألسن عنها معتقدهم وعليها يعتمدون، وهو طريق مبلغ إن شاء الله تعالى برحمته.

شهادة الأحوال في حق هؤلاء غيب، وفي حق العارفين شهادة الأحوال إعلام، وهي في حق العاملين شهادة، أولئك هم الراسخون في العلم بالله ﷻ وخلفاؤه في أرضه، والعالمون بالله تعالى أيضًا متفاوتون في رتبهم، وشهداء الأحوال والأقوال كذلك في حظهم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

وأما الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم تكشف لهم علوم هي أرفع جدًا من هذه، وأفصح أولئك الذين يكلمهم الجوامد والصوامت مشافهة، وشهادة الشواهد في حقهم صراخًا يناجيهم الحق سرًا وجهرًا والملائكة تتنزل عليهم بالأمر أيقاظًا ونيامًا.

ثم اعلم أن شهادة الزور نقيض شهادة الحق، وهو معنى يميل صفة الشهادة عند

(١) سبق تخريجه في باب اسمه ذو المعارج جل اسمه.

الأداء عن حقيقة حال المشاهدة إلى الكذب والزور، وهو الميل عن الاعتدال والسواء منه، يقال: رجل أزور إذا كان أحد شقيه مائلًا، فالزور إذًا هو الميل عن العدل إلى الجور والظلم، والمائل شهادته عن حقيقة حال المشاهدة هو الكاذب، والشاهد بالزور لميله عن الحق إلى الباطل، وعن الصدق إلى الكذب، وعن العدل إلى الجور، وأعظم الكذب وأقبح الزور الشهادة على الله ﷻ بما ليس به سبحانه وتعالى؛ لأنه كذب شمل بباطله كل كذب، وعم بزور شهادته كل جور وظلم من حيث كان كذبًا على الله جل ذكره فيتناول عموم كذبه كل موجود في السماوات والأرض ما كان أو هو كائن؛ لأن قولها على الله ما لم تقل، وشهد عليها ولها بما لم تشهد به، فنفاها بذلك من وليها وقيمها ونفى النعم التي منه عليها ونسب جميع ذلك إلى غير الذي هو له منه، وكذلك نفى إقرارها بعبوديته وغطى على تسبيحها له بحمده وكفر قنوتها له ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم:٢٦] فملأت هذه الشهادة أقطار العوالم ظلمًا وزورًا وفجرًا وكذبًا ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

وأما من أدرك علم الجمل من علم التوحيد فقد ضرب في العلم بنصيب، وشهادة هذا الشاهد إذا أظهرها بلسانه عبارة عمَّا استقر من العلم في قلبه شهادة حق وأداء صدق، فأما إذا أدرك اليقين وشهد بحقيقة ما شاهده ببصيرة عقل شهادة تثبت واستبصار، فذلك الذي قوي على التفصيل بفضل الله ويرجى له الدخول في خاصة الله جل ذكره، وهم الشهداء والأشهاد من أهل العلم والعدالة الذين رفع الله ﷻ شهادتهم إلى أن أقرنها بشهادته العليا في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨] وهم الأشهاد يوم القيامة، قال الله ﷻ: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر:٦٩].

ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم سبحانه وله الحمد جعلهم بينه وبين عباده، ورضي قيامهم له بحجته في الدنيا والآخرة؛ لعلمهم بعدلها وقسطها علم استبصار ويقين مشهود، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] فشهادة الحق لاسيما شهادة القلوب بحقائق الإيمان تملأ السماوات والأرض عدلًا وبرًا وقسطًا وصدقًا؛ لأنه إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:١] فقد شهد عن الله أكبر الشاهدين ﷻ، وعن الخلائق كلها بالحق، وشهد على الخلائق كلها أنها مربوبة مملوكة، وأن الله وحده هو

ربها وقيمها وولي نعمتها لا منعم عليها ولا قادر ولا مالك على الحقيقة لها سواه، نصدق عليها كلها وصدقها بقولها وصدقها في شهادتها وصدقته هي بأجمعها.

فالعالم كله أعلاه وأسفله وباطنه وظاهره يهتز لشهادة المؤمن، وتشهد له بالحق والصدق، ويشهد على الكافر بالجور والظلم والكذب والله أكبر الشاهدين، قال الله جل قوله في معنى ما تقدم: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

وبحسب سبل القبول تهتز الموجودات سرورًا وتصدق الشواهد قبولًا وتعديلًا، وفي القرآن والحديث من الشواهد على ذلك كثير، وإذا ثبت ما قدمنا بها به بينا فالمؤمنون كلهم شهداء؛ لشهادتهم بالحق الذي ثبت في قلوبهم، وعبرت عنه ألسنتهم، يتفاضلون في منازل الشهادة على مقادير رتبهم في محال اليقين، ويتحققون فيها على قدر تحققهم بحقائقها حتى تصعد بهم رتبهم إلى حيث أهلها الشهيد الحق: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] أن جعلها تلوًا لشهادته العليا، فإذا كان المؤمنون شهداء فهم إذا أحياء في دار البرزخ لحياتهم بالإيمان، ويتفاضلون أيضًا في صفة الحياة على قدر تفاضلهم في صفات الإيمان واليقين، وقد قيل: إن هذه المشاهدة أعني: شهادة العلم واليقين والمعرفة هي الشهادة على الحقيقة، وإن كل شهادة في فرع لها وهي لها أصل، فالله أعلم.

وإن النظر ليعضد هذا القول، والشواهد يشهد له إنما الإنسان مجبول على الغفلة وكذلك المؤمن، فمتى ذكر ذكر، وإن أحدث نية عمل يبذل فيها نفسه وماله كالشهيد في سبيل الله، ووافق ذلك تمام ما نواه تمت له الشهادة بفضل ربه، والعالم بالله جل ذكره العارف به الموقن من أكثر المؤمنين ذكرًا، وأحضرهم عقلًا في مسالك معالم ربه ﷻ وأقلهم نسيانًا له لما عود من كريم مشاهدته وبها أراه من آثاره في كل مصنع له، وعلى كل حال بكثرة الدعاء، والمذكرين له على اختلافها في جميع المناظر والمطالع وخطرات الخواطر من خزائن غيب علام الغيوب إلى لوح قلبه الموجود في عالم الشهادة المستمد من عالم الغيب فهو إذًا مشاهد لأرفع الشهادة ذاكر بأكرم الذكر، فإن اخترمه سبب قاطع للحياة في غالب الأحوال فهو ذلك وإن عري من ذلك فماتت ميتته كان على الشهادة العليا، وفيه يقول عز من قائل: **«ما ترددت في شيء ترددي في موت مؤمن لا يحب الموت»**[1]، وكذلك النبي لا يموت حتى يخير في أن يموت أو يبقى فيرضى

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه ابن أبي الدنيا في الأولياء=

بالموت فيموت.

وإنما نصب الدلائل جل ذكره وصنع المصانع، ورفع ما رفع، ووضع ما وضع، وأوجد الموجودات، واستشهد بالشواهد لهؤلاء فقد شهدوا بها شهادة قيمة، والموت ظاهره قطع لشهادتهم تلك وتعطيل لأعمالهم له بطاعته، فهذا من معنى التردد المذكور، والله أعلم.

لكنه جَلَّ جَلَالُهُ كتب: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] إبانة لصفة البقاء واختصاصًا بصفة ملك لا يموت، فهو يرضيهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأن يجري لهم أعمالهم وآثارهم التي قدموها ويشهدهم الملكوت وهو خير لهم ولهؤلاء والله أعلم هم المعنيون، يقول رسول الله ﷺ: «**أرواح المؤمنين**»(١)، وفي أخرى: «**أرواح الشهداء في قناديل معلقة بساق العرش**»(٢) وسمي المقتول في سبيل الله شهيدًا؛ لقيامه بالشهادة في نفسه لله عَزَّ وَجَلَّ حين الوفاء بالبيعة التي بايعه بها في قوله الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١].

فهذا المقتول في سبيل الله قد باع نفسه من ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى بيعًا تامًا بتلًا على أن يقاتل فيقتل ويُقتل وله الجنة ناجزًا بناجز، قال رسول الله ﷺ: «**واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»(٣).

يخبرك أن الجزاء الواقع على القتل في سبيل الله ليس نسيئة، فقام هذا المقتول في سبيله بشهادته هذه حتى وفاها جَلَّ جَلَالُهُ مشاهدة الثمن في مقابلة المثمون مؤمنًا بذلك محتسبًا بنفسه وماله على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعلم الله ذلك منه فاتصلت شهادة الشهيد الحق بشهادة العبد فسماه شهيدًا، ولذلك قال ﷺ: «**والله أعلم بمن يكلم في سبيله**»(٤) وقال في شهداء

= (٤٥) والطبراني في الأوسط (٩٣٥٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ورواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه النسائي في الجنائز (١٨٣٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني في سنن النسائي ورواه ابن ماجة في الجنائز (١٤٤٩) من حديث أم بشر بنت البراء بن معرور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورواه أحمد (٦/ ٣٨٦) والترمذي في الجهاد (١٦٤١) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ قريب من مسلم حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٢) والترمذي في الجهاد (١٦٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه مسلم في الإمارة (١٨٧٦/ ١٠٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أحد: «أنا شهيد على هؤلاء»[(١)] لبذلهم أنفسهم دونه وقتلهم بين يديه تصديقًا لما جاء به، وعوض الحياة في البرزخ لما بذله من حياته ولشهادته لربه عز جلاله ولنبيه ﷺ بالصدق والوفاء فيحيا بذلك في دار الدنيا حياة دينية، ثم شفعها له بحياة طيبة في مدة بقائه في دار البرزخ لما باع منه حياته الدنياوية وتناول فيها المطعوم والمشروب بدلًا من طعامه وشرابه الذي تركه من أجله فأبدله هناك جسمًا وغذاء وماء وأهلًا أطهر وأكرم من الذي بذله له وتركه من أجله، ومن أوفى بعهده من الله وعنده حسن المآب؟! ثم في الدار الآخرة أحسن مآبا وأكرم جزاء.

والشهادة تتفاضل بتفاضل درجاتها، قال رسول الله ﷺ: «**الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم هكذا- ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته - ورجل مؤمن جيد الإيمان حتى إذا لقي العدو كأنما يضرب جلده بشوك طلح من الجبن أتاه سهم غرب فقتله فذلك في الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة، ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة**»[(٢)].

فأخبرك نصا صريحًا بما تقدم أنه ترفع درجته على قدر عمله ويقينه وصدق عزيمته، وأنه مهما تأخر أو تزحزح عن تصميم العزم نقصه من الرتبة وعلية درجة ولم يخرجه من جملة الشهداء، ويزيد ذلك بيانًا حديث غزوة مؤتة وهي غزوة الأمراء، بعث رسول الله ﷺ بعثًا على نصارى الشام وأمر على الجيش زيد بن حارثة، قال: «**فإن كان كائن فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن كان كائن فالأمير عبد الله بن رواحة**»، فلما التقى الجمعان قتل زيد بن حارثة فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين فقاتل حتى قتل شهيدًا، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فكأن نفسه تأخرت بعض التأخير وتلدنت قليلًا، ثم قال يخاطب نفسه في أبيات له:

يَا نَفْسُ إِنْ لَمْ تُقْتَلِي تَمُوْتِي ... إِنْ تَسْلَمِي اليومَ فَلا تَفُوتِي

ثم صدق رضي الله عنه فقاتل حتى قتل، فأوحى الله جل جلاله في ذلك اليوم إلى نبيه ﷺ ينعي إليه قتلهم، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم أخذ في تبليغهم ما أمرهم به،

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٣١) من حديث عبد الله بن ثعلبة بن أبي صعير رضي الله عنه وسنده صحيح.

(٢) رواه الترمذي في الجهاد (١٦٤٤) وأحمد (١/ ٢٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحسنه الشيخ شاكر على المسند.

فقال ﷺ: «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل شهيدًا، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل شهيدًا، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل» وسكت يسيرًا فتغيرت وجوه الأنصار، ثم قال: «شهيدًا، ورأيت منازلهم فرأيت سرير عبد الله دون سريري صاحبيه فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: إنه كان منه بعض التأخر» أو كما قال ﷺ.[1]

فالشهداء حياتهم رفيعة تضاعف لهم بولاية الإيمان والنصر لله جل ذكره، قال رسول الله ﷺ: «أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة»[2].

وخصهم الله ﷻ بذكر الحياة والرزق في قوله: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] من أجل التضعيف الذي تقدم ذكره، وأنهم عند الله ﷻ لهم منزلة النصرة وللنصيحة فهو يجري عليهم أرزاقهم من لدنه، فعل الملك من ملوكنا بأجناده والأبطال من أهل نصرته تجري عليهم أرزاقه وجراياه من عنده وإقطاعاته وألطافه وما شاكل هذا الغرض.

فهذا وجه يمال به إلى وجه تخصيص الشهداء بذكر الحياة والرزق عنده، والله أعلم بأحكامه وعباده؛ إذ قد جاء من رسول الله ﷺ: «إن أرواح المؤمنين في طير بيض كالزرازير يرزقون من ثمر الجنة»[3]، وقال: «إن نسمة المؤمن طائر يطير»[4].

وعن عبد الله بن عمر: «تحت ظل العرش».

والحديث الذي جاء في فتى جاء إلى رسول الله ﷺ على بكر له وعلى فمه أثر البقل كلما أراد أن يدنو من رسول الله ﷺ ليسأله زعر بكره، فإذا هو يسأله عن الصفرة في ثوب المحرم، وفيه: فلما ولى سقط من أعلى بكره فوقص فمات، فقال رسول الله ﷺ «لقد رأيت الملائكة تدس في فيه من ثمار الجنة»[5].

وقد جاء غير هذا متفرقًا في الشرع فلم يبق في تخصيص ذكر الشهداء بالحياة والرزق

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٠٤) والطبراني في الكبير (١٤٦١) من حديث عبد الله بن جعفر ﷺ وصححه الشيخ شاكر على المسند.

(٢) سبق تخريجه قريبا.

(٣) رواه عبد الرزاق في المصنف (٩٦١٦، ٩٦٢١) عن قتادة ﷺ باختلاف يسير.

(٤) رواه أحمد (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦) والنسائي في الجنائز (٢٠٧٣) وابن ماجة في الزهد (٤٢٧١) من حديث كعب بن مالك ﷺ، وصححه الألباني في سنن النسائي وابن ماجة.

(٥) لم أجده.

عنده ونهيه تبارك وتعالى إيانًا أن نسميهم أمواتًا إلا تضعيف الحياة وزيادتها بالجاه والحظوة، وأن أكثر رزقهم أو كله من لدنه بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقد تفضل الله جل ذكره على هذه الأمة بأن ألحق بهذه الدرجة التي هي شهادة كل مؤمن ابتلاه عند موته بسبب قاطع له عن الحياة، قال رسول الله ﷺ: «ما تعدون الشهادة فيكم» قالوا: القتل في سبيل الله، فقال: «إن شهداء أمتي إذًا لقليل، الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله» فذكر المطعون، والمبطون، وصاحب ذات الجنب، والغرق، وصاحب الحريق، والذي يموت تحت الهدم، والمرأة تموت بجمع[1].

وذكر في غير هذا الحديث: «من قتل دون ماله فهو شهيد»[2] «والمقتول ظلمًا شهيد»[3]، وقال: «من قرأ الآيات من آخر سورة الحشر ثم مات من يومه شهيدًا»، وهذه شهادة العلم والإيمان وقال: «من سأل الله الشهادة رزقها، وإن مات على فراشه»[4] فالمؤمنون كلهم: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] كما تقدم لحياتهم في الدار الدنيا بالإيمان فهم الأحياء في البرزخ يأكلون ويشربون.

وإنما الإنسان في موضع الوسط من العالمين فإن علا بأخلاقه وأعماله رفع إلى أفق الملائكة، فيحيا كحياتهم يطيعون ربهم بما قدموه في دار الدنيا بالإيمان فهم الأحياء من علم علموه أو عمل خير خلدوه من بعدهم؛ ولأنهم كانوا جسمانيين هم بها يطعمون ويشربون وأنفسهم روحانية مركبة من باطن ما عنه ركبت أجسادهم الدنياوية، ولكل حق حقيقة، ولكل حق عند الله ﷻ حقائق كثيرة، فافهم.

فربما أومأنا بنبذة يسيرة إلى هذا الغرض المشار إليه إن شاء الله فيما يستقبله وبالضد فيمن لم ينزل، فأسفل بأخلاقه وأعماله فأسفل به إلى درك الشياطين، فيحيا بحياتهم يعصون ربهم بآثارهم التي خلفوها من أعمالهم في الشر والمعاصي والأعمال التي

---

(١) رواه مالك في الموطأ في الجنائز (٣٦) وأبو داود في الجنائز (٣١١١) والنسائي في الجنائز (١٨٤٦) من حديث جابر بن عتيك رضي الله عنه وصححه الألباني في سنن أبي داود والنسائي.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٤١) والترمذي في الديات (١٤١٩، ١٤٢٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٨٤-٤٠٨٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ورواه الترمذي (١٤١٨، ١٤٢١) والنسائي (٤٠٩٠، ٤٠٩١) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(٣) الحديث رواه النسائي (٤٠٩٣) من حديث أبي جعفر رضي الله عنه بلفظ: «من قتل دون مظلمته فهو شهيد» وصححه الألباني في سنن النسائي.

(٤) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٩) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

خلدوها من ذلك ولا يطيعونه؛ لسيئاتهم التي أحاطت بهم فحبطت بذلك أعمالهم.

فإن قلت: فكيف يكون المعتقد في هذه الحياة المذكورة حياة الشهداء؟ وقد نهينا أن نقول فيهم: إنهم أموات، وأمرنا أن نصفهم بالحياة، ونعتقد فيهم ذلك فما هذه الحياة؟ ومن أي نوع هي؟

فاعلم - وفقك الله - أن حياة الشهداء عند ربهم يرزقون حياة كاملة بالإضافة إلى حياتهم في دار الدنيا مخلصة من حيث الأجساد الدنياوية مطهرة من أرجاسها، سالمة من تمانع الأضداد التي تحويها، متصلة بالحياة الأخراوية اتصالًا صحيحًا، لكنها إنما تتم بوجودها في أجسادها يوم بعثها، وتكمل الكمال الذي أهلت بدخولها في دار الحيوان في جوار الحي الذي لا يموت، وبحكم اسمه المنشئ أنشأها من لدن كونها غيبًا في سابق علمه بها قبل تقديره إياها، فتقديره لها على ما قدرها عليه طبقًا عن طبق، وطورًا بعد طور، وأمرًا وخلقًا وإنشاء إلى أن يبلغها الغاية القصوى التي كتب لها، وبين حياة البرزخ وحياة البعث فصل تعرف به الحياة الأولى من الحياة الآخرة، والميت هو الجسم الذي فارقه الروح الحي، ثم بقدر إيثار العبد طاعة ربه والاستجابة له ولرسوله علوها في درجة الحياة؛ لخلوصها من موانع حقيقة الحياة، فافهم.

وأما الفصل بين حياتي البرزخ والدنيا فهو تعطيل الجسد المسكون من الروح وخرابه من بعده، وانتقال الروح منه إلى دار أخرى، وفي مثل للجسد الذاهب، ثم فصل ما بين حياتي البرزخ وحياة البعث فهي الصعقة مع خمود عندها، ثم يرتفع الأمر إلى أن يكون الفصل بين الحياتين فصلًا يعلمه الله ﷻ، وإن لم يعلمه المخلوق يخص الله ﷻ بذلك من يشاء من أحياء عباده من أهل السماوات أو من أهل الأرض، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، وقال رسول الله ﷺ: «**يصعق الناس يوم القيامة، ثم أكون أنا أول من تنشق عنه فأجد موسى آخذًا بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أصعق فيمن صعق، أم جوزي بالصعقة الأولى**»(١).

وفي هذا الحديث أبين بيان أن العلماء شهداء، فإن موسى عليه السلام لم يبلغنا أنه مات مقتولًا ولا على أي نوع من أنواع الثمانية التي يكون عليها موت الشهداء، بل كان على ما قصه علينا رسول الله ﷺ «**والأنبياء شهداء على أممهم، والعلماء شهداء على** فردهم

---

(١) الحديث رواه البخاري في الخصومات (٢٤١١) وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٠٨، ٣٤١٤) ومسلم في الفضائل (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه البخاري (٣٤١١) ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وأهل بلادهم وجيرتهم وأهل بيوتهم والمؤمنون على درجات»، وقد قال ﷺ: «أنه لقي ليلة أسري به الأنبياء والمرسلين من سمى لهم ومن لم يسم وأمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين» وجاء عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعبد الله بن سلام رضي الله عنهم: ما من مؤمن يقبضه الله بموت إلا هو في مكان بين السماء والأرض، وهناك يلتقي الأحياء في نومهم مع الأموات فيتساءلون ويتعارفون، وقد تقدم فيما قبل إشارة إلى هذا الغرض ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ونرجع بالكلام إلى ما كنا عليه من ذكر الشهادة فنقول أيضًا: إن ذكر الشهادة أيضًا على السماع جائزة، والشاهد بها على وجه الشهادة مقبول معدل تعديل الحكم العدل والقاضي الفصل جل ذكره قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، وقال رسول الله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بقوم نوح صلى الله على نبينا وعليه فيوقفون ويسألون: ماذا أجبتم المرسلين؟ فيقولون: ربنا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فيدعى نوح عليه السلام فيسأل: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فيقال لنوح عليه السلام: هل من شهود؟ فيقول: نعم أمة أحمد، فتدعى أمة أحمد فنشهد له أنه قد بلغ قومه، فيقولون: ربنا كيف يشهد هؤلاء ولم يدركونا ولم يرونا؟ فيقول لهم: كيف تشهدون على قوم لم تدركوهم ولم تروهم؟ فيقولون: ربنا إنك أرسلت إلينا رسولًا، وأنزلت إلينا كتابًا تخبرنا فيه أنك أرسلته إليهم فكذبوه فبذلك نشهد عليهم، فيقول الله جل قوله: صدقوا»[(١)] وكذلك كان رسول الله ﷺ كلما رأى أنه قد بلغ أصحابه قال لهم: «ألا هل بلغت» فيقول ذلك ثلاثًا: «اللهم فاشهد»[(٢)].

وبمثل هذا يقول فتانا القبر للمنافق أو المرتاب حين يتوقف عند سؤالهما إياه، فيقول: ها ها، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فيقولان له: لا دريت ولا تليت، أي: إنك لم تكن ممن تعلم حتى تقع له الدراية بالشهادة على وجهها، ولا تبعت من يدري، وعلم فتشهد بشهادته لتكون تاليًا بشهادتك، وإن امرأً يوصف بتمييز ويذكر في عداد العقلاء ينكر وجود «مكة» و«بغداد» و«خراسان» و«طبرستان» وما

(١) الحديث رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٩) وفي التفسير (٤٤٨٧) وفي الاعتصام (٧٣٤٩) والترمذي في التفسير (٢٩٦١- مكرر) وابن جرير في تفسيره (٢١٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) الحديث رواه مسلم في الحج (١٢١٨/ ١٤٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

يجري مجرى هذه البلاد في الشهرة من أجل أنه لم يرها بعينه، ولا شاهدها بجملته لمكابر عقله متجاهل منكر ميزة متغافل، وكذلك من أنكر معرفة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ونوح وإبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى وغيرهم من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فامتنع من الشهادة لهم بما هم له أهل؛ لأنه زعم أنه لم يرهم ولم يسمع منهم، إنما المراد: حضور الذات الباطنة التي لا تسمى من حيث هي باسم دون اسم، ولا توصف بصفة دون صفة، بل تعلم بمعالمها أو تعرف بمعارفها وأفعالها، فتسمى بذلك وتوصف وفاقًا بذلك معاني ما هي عليه وما صدر عنها وعلى ما توجبه اللغة ويتفاهم به، وقد يعبر عن هذا المشار إليه: باللب والعقل والقلب، وإنما ذلك للتفاهم حسب.

وأما اسم ما يعبر به عن حقيقة وجود هذا المشار إليه فقليل من يعلمه، وإنما يعلمه على الحقيقة، وإنما يعلمه الله جل وتعالى لكنه على تواضع العرف هو العبد الموصوف بالعقل واللب والقلب والعلم والشهادة ونحو هذا، والبدن مطيته ومركبه وحامله، وما يغني مركب زيد مع مغيب زيد، وقد عبر عن هذا قول الله جل قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فعدل جَلَّ جَلَالُهُ وعلا علاؤه وشأنه عن وصف الأبصار الظاهرة بالعمى والبصر إلى القلوب، وهي التي أشرنا بالعبارة إليها، وقال أيضًا جل قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨] فإذا حضرت تلك الذوات الباطنة المشار إليها بشرط الحضور عقلت وأبصرت وأيقنت وعلمت على قدر الحظ المقسوم لها من الواهب الحق جل ذكره لا شريك له، وكانت مشاهدة سواء حصل لها العلم عن بصر أو سمع أو عقل أو علم غير ذلك، وقد مدح الله جل ذكره الشهادة في غير ما موضع من كتابه العزيز وأمر بالشهادة أمرًا عزمًا بقوله الحق: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]، وبقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٣٣] ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

وأعلمنا أن شهداء العلم والمعرفة شفعاء يوم القيامة بقوله الحق: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] وقد تقدم أن الموجودات كلها تشهد لموجدها بما هو عليه من أسماء الحمد، وعلى أنفسها بما هي عليه، وتسبحه عن نقائصها وفقرها اللازم لها وتلك شهادة له، ومباني الإيمان كلها بالغيب على المشاهدة يعتمد، ومعاقده عليها تنعطف وبالشهادة تؤدى، وبطرق الشهادة تتلقى

في سلطانها ألا ترى أن الدخول في دين الإسلام أوله الشهادة بالوحدانية لله تعالى وحده، والشهادة لمحمد ﷺ بالنبوة؟ وتلك شهادة لجميع النبيين والمرسلين وبها جاءوا به صلوات الله وسلامه على جميعهم؛ لأنه ﷺ إنما جاء مصدقًا لما بين يديه من رسل الله وكتبه، وكذلك الصلوات التي هي عمدة الإسلام وموضع الصلة بين الله ﷻ وبين عبده تقدمها الشهادة بالوحدانية والكبرياء والنبوة.

والتشهد في الصلاة فيه جوامع الشهادة، وأداء لها بين يدي الملك الكريم تبارك وتعالى؛ إذ المصلي يناجي ربه ويخاطبه ويشهد عنه بما أمره به وأوجبه عليه يترضاه بذلك، فلينظر العبد كيف يشهد بين يدي ربه، وكيف يكون أداؤه بشهادته وقيامه عليها؟ فليستجمع لذلك، وليغزر مادة علمه استعدادًا لذلك المشهد، وأبصر به وأسمع مشهدًا لباطنك ومشهود عنده وبين يديه.

وقد شهد الله ﷻ لنفسه بما هو له أهل، ويشهد لملائكته وأنبيائه ورسله وكتبه أولهم وآخرهم، وشهد الكل لهم بما شهد به لنفسه وشهدوا لأنفسهم وعليهم بما شهد به لهم وعليهم، وأخذ بذلك مواثيقهم وعهودهم ثم طالبهم بالشهادة بعضهم لبعض وحملهم إصر ذلك وثقله، وأخذ بذلك مواثيقهم وعهودهم واضطرهم إلى الإقرار بذلك كله فأقروا، فلما أقروا قال ﷻ: ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] فوجبت الشهادة في أصل القضية على حكم الحق نازلة من العلي الأعلى إلى المصنوع، ثم صاعدة من المصنوع إلى الشهيد الحق العلي الكبير والله أكرم شهادة وأصدق قيلا، فما لنا إذًا لا نطلب طريق الشهادة، ونرغب فيها، ونتحلى بحليتها، وندخل من أبوابها، ونسلك من طرقها؛ كي نكون من الشاهدين، فنعد في عدادهم وندخل في جملتهم؛ إذ هي أرفع الرتب وأقرب القرب وأقصد الطرق.

والشهداء هم العدول، وأهل العدالة هم المكرمون عند القاضي العدل والملك الحق، وقد تقدم فيما مضى أن أرفع الشهادات شهادة العلم واليقين مع حضور الباطن عند الأداء، فاحرص على ذلك واستعن بالله تعالى يعنك ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى التهجد من جوف الليل يقول: «نامت العيون وغارت النجوم، وأنت الله الحي القيوم، لا يوارى منك ليل داج، ولا سماء ذات أبراج، ولا أرض ذات مهاد، ولا بحر لجي، ولا ظلمات بعضها فوق بعض، تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، اللهم إني أشهد لك بما شهدت به على نفسك، وشهدت به ملائكتك وأنبياؤك وأولو العلم من عبادك، ومن لم يشهد بما شهدت به فاكتب شهادتي مكان

شهادته، أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم إني أسألك فكاك رقبتي من النار»[(١)] وفي أخرى: «أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، وأنبياؤك حق، وكتبك حق، والجنة حق، والنار حق»[(٢)].

وقال ﷺ:«من قال حين يصبح أو يمسى: اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وحملة عرشك، وأولي العلم من عبادك، أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك له، وأن محمدًا عبدك ورسولك، وأن عيسى عبدك وابن أمتك وكلمتك ألقيتها إلى مريم وروح منك أربع مرارٍ عتق الله جميعه من النار»[(٣)].

وقال الله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٦، ٧].

ومن عقائد المسلمين وشهاداتهم عليها مجموعة من القرآن العزيز وحديث رسول الله ﷺ زائدًا على ما تقدم ذكره، وربما تكرر بعضها باختلاف عبارة الازدياد فائدة.

ومن ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه الحق المبين وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، وبكل شيء محيط، وعلى كل شيء شهيد، هكذا إلى آخر الأسماء وأنه يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وأن جميع الملائكة حق، وجميع الرسل حق، وجميع ما جاؤوا به حق من عند الله، وأن القرآن كلام الله، وكلام الله ليس بخالق ولا مخلوق، وأن الهدي هدي الله، وأن الصراط المستقيم صراط الله، وأن حكم الله هو الحكم الحق والعدل القسط، وأن كل شيء خيرًا أو شرًا حلوًا أو مرًّا بقضاء وقدر كل من عند الله ﷻ، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التهجد (٤٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه وفي سنده محمد بن حميد الرازى اتهمه البعض بالكذب.

(٢) الحديث رواه البخاري في التوحيد (٧٤٤٢)ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بدون لفظ «وأنبياؤك حق وكتبك حق».

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٦٩،٥٠٧٨) والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٩٧٥٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٧٣٨) من حديث أنس رضي الله عنه بدون لفظ: «وأن عيسى عبدك....» إلخ وحسنه ابن حجر ورواه الحاكم (١٩٢٠) من حديث سلمان رضي الله عنه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي بلفظ حديث أنس رضي الله عنه.

الأرواح المفارقة للأجسام حق باقية إلى يوم النفخ في الصور منعمة ومعذبة حق، وأن لقاء الله حق، وأن فتاني القبر حق، وأن السؤال حق، وأن الحساب حق والميزان، وأن فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير حق، وأن في الدارين من المزيد في النعيم المقيم والعذاب الأليم ما يقدر قدره ولا يبلغ وصفه حق، والشهادة بالإسراء كله حق، وأن كل ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب وقلب الأعيان وإخراج الأمور عن المعهود من مجاريها كله حق كالإسراء إلى بيت المقدس وإلى السماوات السبع وسدرة المنتهى وانتهائه إلى المستوى بما في ذلك كله، وكذلك الإسراء به في دار البرزخ حيث رأى الذي يشرشر شدقاه، والذي يشدخ رأسه الحديث على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى كل ما أخبره به من الغيوب في الدنيا والآخرة حق على وجهه، وأنه ما ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤]، والشهادة بـ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥]، وإلى هذه الشهادة انتهت الشهادات كلها، وعنها انبعثت أولًا إذ فيها تحقيق الشهادة كلها بجميع الأسماء والصفات كقوله: هو العليم الحق، والحكيم الحق، والرب الحق، والإله الحق، والمولى الحق، وكقوله: وعده الحق، وقوله الحق، ورؤيته والنظر إليه والدار الآخرة الحق، وضحكه إلى أوليائه تبارك وتعالى حق، هكذا إلى جميع ما أعلمنا به من أسمائه وصفاته لا إله إلا هو العلي الكبير، فبذلك أمرنا وعليه قدرنا في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥] ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك:١٩] ونحو هذا تقف عليه بطول الاستقراء لكتابه العزيز.

وكذلك نعتقد في كل اسم وصفة لم يبلغنا علمها جمع هذا كله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥] فشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، عمت الشهادة بها له في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ ينكشف معنى هذه الشهادة لأهل النظر ولأهل الاعتبار في الدنيا، وينكشف للجميع في الدار الآخرة ظاهرة هو الحق المبين في هذه الدار بما خلق به السماوات والأرض، وما بين تلك من حق وهو المبين له يوم القيامة بما يشاهد منه يومئذ وبما يعاين ليس فيها هنالك شمس ولا قمر ولا نجوم ولا أفلاك تدور، وإنما هو أمره يومئذ يقيم على العيان مقام الحق المخلوق به السماوات والأرض اليوم، فافهم.

التعبد باسمه الشهيد فمما يجب عليك - وفقك الله - من التعبد بهذا الاسم الكريم بعد تحقق معرفته حتى تشاهد علمه الدخول في أهل العدالة بكلية أسمائك وصفاتك

ومعانيك كلها من أخلاقك وكلامك وحركاتك بالمحافظة على التورع مما حرم الله عليك، بل عن كثير مما أباحه لك حتى تقتصر على ما لا بد لك منه لتفرغ لما نويته، وتتطهر لنظر ربك، ثم تقصد أبعد من ذلك؛ لابتغاء الشهادة في طرقها، وتطلبها في مظانها، وإنما طريق ذلك أن تجعل نظرك عبرة، وصمتك فكرة، واستعن على ذلك بقلة الطمع، وطول الصمت، وكثرة السهر، ومداومة الفكر، واللجوء إلى الله ﷻ، وإظهار الفقر والضراعة إلى مالك عصم الإصابة، والمحافظة على حسن الاقتداء، واصحب أهل الفكر، وحالف أهل التقى، وتعود الصدق في الخواطر كلها: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] ولا تقنع من نفسك في مطلوبك بأدنى العلم، وسارع وسابق ونافس فقد أمرت بذلك، وتذكر قول رسول الله ﷺ: «**لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله**»[(١)].

وهذا كله بعد أن تحكم معرفة نفسك جدا، فبذلك تعرف ربك، ثم تحمل ذلك كله والتزمه في كلمة واحدة تقولها بصدق من قلبك، وحضور من علمك وعقلك، وهي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وعليك بالمواظبة، وطول المداومة.

واعلم يقينًا أن الله ﷻ لا يمل حتى تمل أنت، واقرأ كتاب ربك حرفًا حرفًا، وتفهم معانيه معنى معنى، ثم انظر في جلال ذلك في ملك ربك ﷻ وملكوته وسنته وكلماته وأيامه وآياته على نحو ما تقدم ذكره في مواضعه، والله المستعان وحده لا شريك له سبحانه وبحمده.

---

(١) الحديث رواه مسلم في الصلاة (٤٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

فصل

في الشهادة بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥]

أجمعت الخليقة قاطبة على أن الله هو الحق إجماعًا تامًّا، وأصفقت الجملة على ذلك إصفاقًا كاملًا، والكل له من أجل ذلك قانت ومسبح وحامد وساجد، فإنه لما خلق الخلق يوم خلقه عرفه نفسه فعرف ربوبيته معرفة لا ينبغي له أن ينكرها بعدها أبدًا، وذل له الخلق يومئذ ذلًّا لا ينبغي له أن يعتز بعده أبدًا، ودخله من الخشية يومئذ ما لا ينبغي له أن يخرج منه بعد ذلك أبدًا، وأقر له بالمملكة يومئذ إقرارًا لا ينبغي له أن ينكره ولا يستنكف عن عبادته بعدها أبدًا، ثم صارت تلك المعرفة وراثة فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة، ثم تفرقت الطرق بالمكلفين في سبل الأمر والنهي بواسطة الإرادة لعلة الابتداء لتحق كلمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

وإنما خرق ذلك الإجماع عقل قاصر، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ولفظة الحق يعبر بها عن معنى هو جماع كل شيء، وعلى هذا تكون الشهادة بذلك، أما الشهادات وقد تقع العبارة بها أيضًا على أنه موجود، وإياه نعني بكلامنا هذا فآية وجوده ﷻ وجود الفعل، فما من موجود دق أو جل ظهر أو بطن إلا هو آية على وجوده تحقيق حق وإثبات ثبت ولزوم قطع من حيث لزوم الفعل عن الفاعل، والضرب عن الضارب، لم تجد العقول قط فعلًا لا عن فاعل، ولا صنعة لا من صانع.

ثم شهدت الخليقة له بعد تمهيد هذه الشهادة شهادة كاملة بالحق الذي أودعها واستخلفه فيها، فهذا المعنى بالحق محيط بالموجود وفيه، وهو الذي يكلم العقول من الموجودات، ويشير إليها ويدل على جاعله فيها بما فيها من آثاره ووجوده، فتلقن عنه الألباب وتصدقه العقول؛ لأنها منه وهو لها أول، وبينه وبينها رحم ووشائج وقرابة قريبة، وهو بمنزلة النطفة في أوليته أو كالبذرة في بدو العالم وجبلته وفطرته، فلا تزال تنشأ بإنشاء المنشئ الحق جاعله جل ذكره حتى تظهر في أعلام العالم ورؤوسه، فيعرب عن نفسه، وعن هذا المعنى العبارة بقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وكثير نظائر هذا في القرآن العزيز، وأما إنشاؤه إياه في العالم فعبر عنه قوله الحق: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

ونظيرتها في سورة النحل، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن

سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [السجدة: ٧-٩].

ونظائر هذا كثير، وهذا كله مما تقدم ذكره، وما يأتي بعد هذا، وما لم يصل إليه العلم ولا تمكنت مشاهدته ولا الوقف عليه يتبين في الدار الآخرة، فكل ما كان الآن دليلًا هو في الآخرة مدلول عليه، وكل خبر أو إعلام بشيء فهو فيها هنالك مخبر عنه ومعلم به، وكل حق هنا فهو فيها هنالك حقيقة.

فالحق هنا آثار أسمائه وصفاته وأفعاله، فربما سلبت العقول وسهت وذهلت عن التحقيق، وأما ما هنالك فمبين كله موقوف عليه بالعلم والمشاهدة؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور:٢٥] أي: المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما وما علا وما سفل، قال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون الشمس ضحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر**»[1] أي: ترونه على الدوام أبدًا، فإن القمر بما هو قمر وبما هو بدر متصل طلوعه بغروب الشمس، وطلوع الشمس متصل بغروب القمر، أقام ﷻ أمره الظاهر للعيان يومئذ مقام أمره الباطن في هذه الدار.

فصل

في الشهادة بقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [لقمان ٣٠]

لما أعلم هذا المعنى المسمى بالحق الموجود في سنخ العالم وجبلة العقول بأن الله هو الحق المبين، أي: إنه هو الحق، والإله الحق، والرب الحق، والمالك الحق والعلي الحق هكذا إلى جميع الأسماء والصفات على ما سيأتي ذكره مع ما تقدم منه، فإذا كان هو الحق المبين من جميع الجهات كلها والمعاني أجمعها قطعًا جزمًا فإذا كل ما يدعى من دونه من إله فهو باطل، أي: مستحيل وجوده معلوم هذا ببداهة العقول وضرورتها دون تردد منها ولا طلب واسطة ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [هود: ٣٢].

واعلم أن وجود الباطل إنما كان بإيجاد من الحق المبين إياه؛ لأنه جل ذكره قسم الموجودات إذ أوجدها بين فتنة وذكر، فالحق في الموجودات من قبيل الذكر، والباطل

---

(١) رواه البخاري في الأذان (٨٠٦) وفي الرقاق (٦٥٧٣) وفي التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم في الإيمان (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٤، ٥٧٣) وفي التفسير (٤٨٥١) وفي التوحيد (٧٤٣٤) ومسلم في المساجد (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

من قبيل الفتنة، ووجوده عن وجود الحق الموجود أولًا بإيجاد من الحق المبين، واحذر هذه المزلة فهي بيننا وبين من زعم أن الله ﷻ ليس هو الموجد لكل موجود، فنسب إليه إيجاد الخير، ونفى عنه غير ذلك، وبين من نسب إليه فعل الجور والظلم على الإطلاق، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرًا.

والحق المبين ﷻ يحق الموجود بتوليه إياه أو يبطله بتركه إياه وتخليه عنه، فإن وليه إيجادًا وجد فكان وجوده حقًا، وإن وليه وجودًا وصفات تحقق في الوجود وكان من قبيل الذكر، وإن تخلى عنه من أي وجه كان بطل في تلك الجهة هو ليس شيء سواه.

فنقول: القرآن حق، أي: حق نزوله، وحق هو من عند الله ﷻ، وحق ما جاء به، وحق من كل وجه؛ لأنه وليه جل وعلا من كل وجه، ونقول: النبي ﷺ حق كذلك، فإذا قلنا: الكفر حق، فمعنى ذلك أنه حق وجوده لا غير، وكذلك إبليس لعنه الله حق، والسحر حق، والدجال حق، أي: حق وجود ذلك كله؛ لأنه تبارك وتعالى أوجد ذلك فحق وجوده، ولما تخلى ذكره عنهم بالتوفيق والولاية في صفاتهم وأعمالهم وأسمائهم بطلت، ونقول: خروج الكفار من النار في الدار الآخرة باطل، وكذلك خروج أهل الجنة منها؛ لأنه لم يقل ذلك إيجادًا ولا صفة فبطل وكان معدومًا.

والحق الموجود في الموجودات له في صفات الحق العلي أسماء يرجع إليها، ولذلك صحت بها شهادة الموجودات وعدلتها الألباب، فقبلتها لقرابة قريبة ووجود لازم كريم.

وأما الباطل فليس له أصل يرجع إليه من الحق إنما أوجد مما أوجد منه تبارك وتعالى لعلة هي الفتنة والابتلاء بواسطة وجوده بحق عن مشيئته في الإيجاد فلذلك لم تقبل شهادته العقول ولا عدلتها الألباب؛ لأن الحق تخلى عنه من تلك الجهة التي هي الولاية، فبطل من هنالك فهو بطل عن بطل أكبر شهادته التزيين، وأحق إذ آية التشبيه ليس لشهادته عند المعقول حقيقة، ولا يشاهده عدالة، والحق هو الشاهد على الباطل بما فيه من زور وباطل، فافهم فقد قرب لك الأمر جدًّا لتستبين سبيل الموقنين.

وهاتان الشهادتان أعني: قوله جل قوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢] عبرت عنها شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فأغنى ذلك عن إعادة الكلام فيها إيثارًا للاختصار مع ما تقدم ذكرها في غير هذا الاسم من الأسماء.

فصل

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [الحج٦]، و﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ﴾[الشورى١٢]
و﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾[المجادلة٦]

إلى غير ذلك من الأسماء والصفات

أمر الله تبارك وتعالى العباد وأولي الألباب بالنظر في العالم، والاعتبار بما أودعه من لطائف الحكمة وغرائب الصنعة من حسن التدبير، وعجائب الترتيب في إيصال بعضه ببعض، وافتقار بعضه إلى بعض مع اختلاف صوره، وتباين هيئاته، وافتراق منافعه ومضاره، فصدق شهاداته، وقرب إشاراته، وفصاحة إعلامه، وبيان خطابه، وحسن إرشاده لمن استرشده، فيعبروا عنه بمعالم ما فيه إلى فاعله وجاعله وخالقه لا إله إلا هو العلي الكبير، ثم إلى النبوة موجودات الدار الآخرة؛ ليعلموا بما شاهدوه من ذلك كله مما ذكرناه ومما لم نذكره.

إن هذا الترتيب العجيب والتدبير المعجز لا يكون إلا من مدبر قدير عليم مريد حكيم، أحسن تدبيره، وأتقن ترتيبه، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[الطلاق: ١٢].

فلذلك بسط ـ جل ذكره ـ الأرض بعد إيجاده إياها على هيئة الكرة، وفصلها سبعًا عن أحدية جملتها، ونصب قنن الجبال الشم الشوامخ ألا تميد بأهلها وزنًا عدلًا على هيئتها يوم أوليتها قبل دحوها وبسطها، وجعل دوائر الأفلاك المسخرة من الشمس والقمر والنجوم جارية بأمره على ترتيب مطرد ونظام غير منخرم، مقدارًا من الجري عدلًا ووسطًا يكون عنه الليل والنهار، والمصيف والخريف والربيع والشتاء؛ لإظهار معاني الآخرة والإعلام بموجوداتها التي أوجدت هذه عنها؛ إذ هي المنتظمة لجماع معاني دار الدنيا، فأظهر بذلك العجائب عودًا وبدءًا، وأتم في ذلك أمره كما شاء الله قولًا وفعلًا من هبوب الرياح، وتبليج الإصباح، وظلام الليل، وطلوع الشمس وغروبها، وانتقالها في محالها من أبراجها، وبدو القمر وسريانه ونشوئه ومحاقه، وجريان النجوم بأمره في دوائر أفلاكها طالعة وغارقة في كنوسها وخنوسها وثبوتها واستقامتها في سيرها، هذا إلى لمع البرق، وعج الرعد، وهمول السحاب بمياهها، وإنبات الأرض أنواع أنباتها فتعمر الأرض، وتنعش الأرواح، وتخصب الأجسام، وتختلف الأيام بتوالج الأزمان، فتظهر الحقائق، وتغرب الشواهد بطلب حثيث، وحث غير مثبت.

حكمة بالغة وحجة قاهرة، أوجد الألباب منحدرًا سهلًا فانحدرت، ومسلكًا نهجًا فسلكت فانجلى عنها الريب واضمحل عنها الحلاج، فأولو الألباب ينظرون إلى تلك من هذه ببصائر عقولهم وثاقب فهمهم وصحيح اعتبارهم، ثم زاد جل ذكره الأحكام إحكامًا بأن بين خضوعها وخشوعها وسجودها له تبيانًا أظهر بذلك قبول الجملة للتغاير والافتقار كما شاء من حال إلى حال، فأجراها بذلك جريًا سرمديًّا على سنن معلوم وقسط من السير معدل مزموم في مشارق ومغارب لها محدودة، وأعمال لتنفيذ منافع العباد مقسومة؛ لتدبير تفصيل الأزمنة والسنين، ومعرفة الساعات والأيام والشهور ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج:٦١] ألا له الخلق والأمر في الدنيا والآخرة تبارك وتعالى رب العالمين.

وكذلك رفع جل ذكره سماء رفيع البناء، عالي السمك، بديع التصنيف حسن التصريف، زاهي الترسيع، واسع البسطة، كريم الخلقة، جعله مسكنًا للمقربين من عباده والمصطفين من أوليائه فصلهن سبع سماوات طباقًا أعلاهن سمكًا أعظمهن خلقًا، وأبسطهن كنفًا، والجملة ثقلها قدرته ويحملها أمره وأبده، أبي بخفاء على من له أدنى مسكة عقل، أو منح أيسر نبذة فهم ولب، عظيم قدرة من أوجد هذا، وإحاطة علم من خلقه، ودبره، ووحدانيته حكمة من أمسكها أبدًا سرمدًا على من هو عليه لم تنخرم منه قط جانب، ولا وهت منه ناحية دون دعائم من تحته تقله، أو علائق من فوقه تمسكه وحده دون شريك ولا ظهير ولا وزير ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

أَيُّ الحَوادِثِ لَيسَ يَشهَدُ أَنَّهُ	صُنعٌ وَيَشهَدُ بِاقتدارِ الصانِعِ
وَالحَقُّ فِي المَجرى أَغَرُّ مُحَجَّلٌ	تَلقاكَ غُرَّتُهُ بِنورٍ ساطِعِ

فصل

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الحج:٦]

آيات ذلك كثيرة جدًّا، وأكثر الآيات التي دلت على الوحدانية هي بنفسها دلت من طريق آخر على إحياء الله الموتى، فطلب ذلك في الوجودين العالم والشرع.

أما العالم: فقد دل على ذلك بذاته وبمعناه وبالذي وجد به، فالأرض دلت على ذلك والسماء والأفلاك والنجوم والأزمان والعصران الليل والنهار، وكل تنقل وتحول إلى غير ذلك، فمن ذلك نهار بعد ليل كحياتنا هذه بعد الموت الأول، ثم يخلف النهار الليل كموتنا بعد هذه الحياة، ثم يخلف الليل النهار كالحياة الآخرة بعد الموتة التي بين

الحياتين، وإنما تمام الحكمة أن ترجع أولها على آخرها عودًا بعد بدء كدائرة قسمها قسمين كل قسم منها جزأين إذ حدث عن كل جزء طرف عن كل واحد منهما هو غيرهما بوجه فحدث عنه آخر النهار وأول الليل العشاء، وكذلك حدث عنه آخر الليل وأول النهار الغبش، فالنهار بانشراحه وضيائه، والاستبشار الذي فيه وهو موضع التيقظ آية الحياة بعد الموت هو أيضًا آية على التجلي العلي، وهو أيضًا آية على اللقاء الكريم، والليل بظلمته وضيقه وسكونه وهو موضع النوم آية على الموت والحادثان بينهما؛ لأنه منهما وليس بهما ولا خارج عنهما ولا بأنفسهما وضيقهما على دار البرزخ، وسيأتي ذكر البرزخ في موضعه إن شاء الله.

وكذلك أيضًا فصول السنة تدل على إحياء الله الموتى دلالة تقطع المعاذير وتحسم على علل المعاندين مصيف بعد شتاء بمنزلة النهار بعد الليل والحياة بعد الموت، ثم شتاء بعد مصيف بمنزلة الليل بعد النهار والموت بعد الحياة، ثم مصيف بعد شتاء هكذا فهو العود بعد البدء ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت:١٩] كاعتبارك المتقدم بالدائرة والحادث بعد كل شطرين ما هو منهما بوجه وليس بهما بوجه الربيع والخريف، فافهم.

وكذلك قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، وقال: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦] أي: هي آية على الإعادة بعد البداية بوجه، وآية على الوحدانية بوجه، وآية عليهم من طريق آخر على أنه حكيم بوجه من الاعتبار غير ما تقدم، وكذلك إلى جميع الأسماء والصفات وموجبات الشهادة بأجمعها.

وكذلك قال ـ وقوله الحق: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾[الفرقان:٤٧]. وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢] وكذلك في الشهور باعتبار نزول القمر منازله ونشوئه إلى كماله، ثم محاقه إلى استدارة، ثم بدئه بعد عوده.

وذكر الله ﷻ دلالات القمر وكررها، والأرض أيضًا تدل على إحياء الله الموتى بينما

تراها هامدة خاشعة ميتة في حال جدبها؛ إذ ينزل الله الماء فتهتز اخضرارًا وتربو وتنبت من كل زوج بهيج وكريم، فيبدو لك استبشارها بالغيث عند استشفائها بغذائها بدلًا من خضوعها وابتئاسها عندما كانت منعت ذلك فتينع الثمار، وتورق الأشجار، وتطلع الأزهار على اختلاف ذلك كله وطعومه وروائحه ومنافعه ومضاره وحركاته عند هبوب الرياح؛ لأنه ﷻ أقام تحريك الرياح للجماد والنبات مقام تحريكه الإرادات والقدر للأجسام الحيوانية فتبدو الأرض في أحسن معاريضها وتتزين بزينة زخرفها إلى غير ذلك مما قد ملأت الخطباء من أوصافه الورق، وأفنت الشعراء في وصفه ضروب القوافي، وما استطاعت مع ذلك أن تصفه ولا بلغت كنهه.

فهذه حياة بعد موت قبلها، ثم يأتي على الأرض أيضا وقت تعود فيه إلى حال موتها وهمودها، فهذه موتة بعد حياة كموتنا بعد هذه الحياة، فإذا أغاثها ﷻ بغياثه عادت حية بعد موتها، وضاحكة بعد عبوسها، ومتحركة بعد سكونها، ولابسة أثواب حللها بعد عريها، وناشرة أرياط محاسنها، ملتفعة أردية وشيها المنمنمة ونواظرها البهية، باسطة أنواع فرشها من رفارفها العبقرية، ودبابيجها المحكمة، ومطارفها السندسية، وروائحها الزكية كالعروس المجلاة والغانية المحلاة قد أبرزت أبناءها، وأحضرت لديها ولدانها فهي بين خدود وردية، وبهاء ريه تبدو من سجف زبرجدية ووجوه شقائقه ينشأ بهن قضبان زمردية وغصون لجينية يطرقن عن نواظر نرجسية ويضحكن فيتسمن ثغور أقحوانية وسوق زرع قد استوى بنمائه واعتدل ببركة غذائه، فالتحف بلحف أوراقه واطلع رؤيته من حجب كفراته، والجو طلق بسام واضح مرتاح، والأرض هشة مهتزة والشمس تلحظ جمعهم ببهجة إشراقها في أفق صفاء صحوها، وتعلمهم بعجيب لطفها عب سمائها، وتهب الأرواح على اختلاف جهاتها، وتدان ولثام وعناق وتلاق وفراق، واستباق وسباق وفر وكر، وانعطاف وانحراف منظر يسلي الحزين ويضحك الكظيم، والعقول تذهل في حسن محاكاة تلك المعاطف، والبصائر تتحير بين بهجة تلك الملاعب وفشيش أصوات تلك الملابس كيف نشأت بدأتها هذه حتى ظهرت عيانًا في ذوات الأعطاف والروادف، وقامت مشاهدة في ملاعبة الفتيان والقينات في الدساكر والمجالس. ثم كيف كملت في الدار الآخرة، وتمت في موجودات الجنان إلى ما لا تهتدي العقول أن تعقله، والأوهام تتوهمه، والأم ضحوك متهللة تؤدي المفترض، وتنهض بأعباء واجبات الشكر والمنن فتسبح بحمد ربها وتقنت بعظمته.

ومن آيات الإحياء بعد الموت اليقظة بعد النوم، ومن آياته تقلب الإنسان باختلاف

الأحوال، فما تقدم من دوران الأزمان واختلاف الملوان من التراب إلى النطفة إلى العلقة ثم المضغة ثم جسمًا ذا عظام وعصب وعضل ومخ ورباطات ثم ذا روح ثم إلى إنشائه خلقًا، وهو إنشاؤه في أخلاقه وصفاته وأسمائه في تبدله من حال الطفولة إلى الشباب إلى الاستواء إلى الكهولة إلى الشيخ، ومن آياته النطفة الميتة فيكون عنها الحيوان الحي.

فهذه الآيات قد اجتلبها القرآن العزيز مفصلة مجملة وتصريحًا وتعريضًا وأخبارًا وأمثالًا، كل ذلك ليدلنا جل ذكره على عظيم قدرته ولينبهنا على حكمته في الابتداء والانتهاء والرجوع بعد الانتهاء إلى حالة البداية، وكذلك رجوع الحكمة إلى أواخرها وانعطاف عودها، وليس البعث غير ذلك ولا سواه، قال الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[نوح:١٧، ١٨] فعبر جل قوله الحق: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ عن الإحياء الأول، وبقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ عن الموت بعد هذه الحياة الأولى، وبقوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ويخرجكم إخراجاً عن الإحياء الآخر بعد الموت، وقال جل قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩] وكذلك النشور، وكذلك الخروج وهو كثير، قال رسول الله ﷺ وقد سئل: ما آية إحياء الله الموتى؟ فقال: «**ألم تمر بالوادي ممحلًا، ثم تمر به مخصبًا، ثم تمر به ممحلًا، ثم تمر مخصبًا، كذلك يحيي الله الموتى**»(١).

فكان قوله ﷺ مبينًا لما جاء به القرآن، ولما أوجد الله عليه العالم واستمرار الوجود ليشهد لهذا؛ ألا ترى أن الحي يتغذى بغذائه فيصير الله ﷻ ذلك الغذاء لحمًا ودمًا وعصبًا وجسمًا حيًا، ثم لا يزال يجتلب الغذاء لحاجته، فلو اجتمع الجسم على ذلك التغذي بما يوجبه التجسم لذهب الجسم عن مقداره وخرج عن بنيته، لكن الله بحكمته وخفي لطفه جعل الهواء من خارجه يجتلب من ذلك التجسم ما شاء الله، فيحتاج الجسم إلى التغذي فيستدعي لأجل ذلك الغذاء، فلا يزال الغذاء يمده من داخله والهواء ينشفه من خارج، وكذلك في كل ما من شأنه النشوء وسلك به طريق النمو والدوام على ما هو عليه، فافهم.

قال الله جل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) الحديث رواه أحمد (٤، ١١، ١٢) والطبراني في الكبير (١٩/ ١٠٨) رقم (٤٧٠) من حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٥): رجاله موثقون.

بَصِيرٌ﴾ [العنكبوت:١٩] وهذا من أبدأ بمعنى أظهر، فلا يزال على هذا يبدئ ويعيد، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٣] وأما البداية فهو من بدأ يبدأ، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت:٢٠] فها أنت تدل نفسك بنفسك على أنك تموت ثم تحيا بعد الموت تقلبك بأحوالك كلها وعمرك ولياليك وأيامك، ويدلك على ذلك الأرض والسماء وما بينهما، والشجر وكل شيء من التدبير والقرآن العزيز، وحديث رسول الله ﷺ بآيات ذلك كله ودلائله وشواهده ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

وها هنا أيضًا إحياء بعد موت يجب الإيمان به إذ قد ثبت بالدلائل الجمة والشواهد العامة قدرة الله ﷻ على إحياء الله الموتى، قال الله ﷻ حكاية عن أهل النار أعاذنا الله برحمته منها: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] وقال رسول الله ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون ولا يحيون، وأما قوم أصابتهم النار بذنوبهم فإنهم يموتون فيها إماتة»**[1] وذكر ﷺ أنهم يخرجون منها ضبائر ضبائر كعيدان السماسم قد أخذتهم النار فصاروا حممًا قال: **«فيلقون في نهر الحياة»**[2].

وقال أيضًا: **«فينبتون في أفواه الجنة»**[3] **«ويقال لأهل الجنة: فيضوا عليهم من الماء»**[4] قال: **«فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ألم ترها ما يكون منها إلى الظل يكون أصفر، وما يكون منها إلى الشمس أخضر»**[5].

فبالغ النبي ﷺ في المحاكاة؛ لينبه الأفهام على أنها نشأة أخرى، وأنهم ينبتون عن ذلك الماء الذي هو ماء الحياة كما ينبتون من قبورهم لحياتهم الوسطى بالإضافة إلى الحياة التي قبلها بالماء الذي ينزله الله من تحت العرش كمني الرجال، وهؤلاء هم أهل الشفاعة الرابعة؛ يقول الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: **«شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، ولكن وعزتي وجلالي، وارتفاعي في**

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري في الإيمان (٢٢) ومسلم في الإيمان (١٨٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٤) رواه مسلم (١٨٥).
(٥) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) وابن خزيمة في التوحيد (٣٩٩، ٤٦٦، ٤٦٤).

علو مكاني لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»[١] قال: «فيدخل يده في جهنم فيخرج منها ما لا يعلم عددهم إلا الله»[٢].

فالنشأة العامة التي هي النشأة من القبور ومن مفترقات مواطن الأبعاض من الأجسام والذوات يقال لها: النشأة الأخيرة بالإضافة إلى هذه النشأة الأولى التي عمرت بها الحياة الدنيا، وأما تلك النشأة فهي الآخرة على الحقيقة، لكنها ليست بعامة وإنما هي لقوم يخرجهم الله من النار، وقد نشأت في نفسها من قبل في قوم يجوزون الصراط فتسفعهم النار مرة وتخردلهم الكلاليب والحسك والخطاطيف، وفي قوم يخرجون من النار، وقد أحرقت النار قدم أحدهم، وإلى أنصاف ساقيه وإلى ركبتيه وإلى حقويه وإلى جملته، غير أنها لم تأكل النار أثر السجود، ثم إلى هؤلاء الذين لم يعملوا عملًا ولا قدموا قدمًا فلا يحرم شيء منهم من أجل ذلك على النار، بل أتت على جملتهم.

وهو أيضًا على الحقيقة البعث الآخر الذي قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام يوم جاء يسأله ليعلم الناس السؤال عن دينهم، فقال: «وأن تؤمن بالبعث الأخير»[٣] فإنه وإن كانت النشأة التي تقدم ذكرها من القبور قد تقدمتها هذه النشأة التي هي الحياة الدنيا فتكون النشأة الثالثة بعدها، فإن هذا البعث لم يتقدمه بعث فيكون آخرًا له، وإنما هو البعث الآخر على الحقيقة ذلك البعث في الدار الآخرة، وقد قال الله جل قوله في ذلك: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان:٥١، ٥٢] إلى قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٥٦] فامتن عليهم بأنهم لا يموتون فيها كما يموت أولئك، كما امتن عليهم بأن وقاهم عذاب الجحيم، وقال أيضًا فيما حكاه لنا عن قول أهل الجنة من غبطتهم بحالهم، وبأنه لا يميتهم كما أمات سواهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصافات:٥٨-٦٠] وجاء مثل هذا لمن تأمله، وقال رسول الله ﷺ: «إن الحوراء تقول لزوجها وقت وروده عليها: الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك»[٤].

---

(١) هو الحديث السابق وكذا رواه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه بنحو.
(٢) هو الحديث السابق وكذا رواه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه بنحو.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه مسلم في الإيمان (١٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فصل:
في الأرواح المفارقة للأجسام بالموت باقية
الى يوم الدين وأنها منعمة أو معذبة الى يوم الدين

الروح سر باطن موصوف بصفاته معلوم بأفعاله وأسمائه، وكل ما وصف بصفات رذيلة كانت أو فضيلة، فهو جوهر قائم بنفسه حامل لأعراضه ومعنى قائم بذاته، وهو لا يكيفه العقل ولا يحيط به العلم، لا يحده الإيمان ولا يكيفه، جعل الله ﷻ في هذه العاجلة الإيمان بالروح آية عليه جل وتعالى وطريقًا نهجًا إلى الوصول بالمعرفة إليه، والإيمان به، وليس الإيمان صفة إحاطة ولا تكييف؛ ولذلك يؤمن الروح بما هو أعلى منه غير تكييف ولا إحاطة، والإيمان وجوده عن صفات الله ﷻ، وهو نور من نوره جل ذكره، واختلف فيه هل هو مخلوق أم لا؟ فقال قوم: إنه غير مخلوق لكنه ليس بحال في المؤمن، وقال آخرون: هو مخلوق حال في المؤمن، قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] وقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام ظاهر، والإيمان في القلب**».

ولو كان غير مخلوق لما جاز أن يحل في مخلوق، والروح هو عبد روحاني، وأمر رباني، ونفس جسماني حبسه ربه ﷻ في الجسم ابتلاء له، وأسكنه في جواره، وأجرى عليه محنته، فواقع المكروه بواسطة الجسم، فعاقبه على ذلك بأن أهبطه إلى الأرض كرهًا لا اختيارًا منه لذلك، بل جعل ذلك له سجنًا وشقاء، ثم أورث ذلك بنيه بعده، فلأن كان عبدًا مفطورًا ابتلاه الله وعافاه، وأمره ونهاه، ونعمه أو عذبه، ولأن كان جسمانيًا افتقر إلى الغذاء الجسماني، وإلى أن يكون محمولًا في جسم، وإلى أن يألم بالموت في خروجه عن جسده الذي ركب فيه، ولأن كان عن أمر ربه جل وتعالى كان باقيًا ولم يوصف بالموت لأجل ذلك، ولأنه لم يكن عن الحقيقة غير التراب لم يرجع إلى التراب لتأكله، ولما لم يوصف ما كان عنه بالموت لم يرجع إلى الموت، وإنما الموت مفارقته لجسده وتعطيل الجسد هو موت الجسد، والجسد هو الميت والروح هو الحي، فافهم.

والعالم مخلوق مذلل مقهور، والروح ابن عالمه وسفله، ولما كان العلو له أصلًا، والسفل له فصلًا وهو بينهما نجل كان عبدًا كأبويه، فإن تبع أباه وهو العلو أصعد بأخلاقه وذاته فسعد، وإن تبع أمه وهو السفل أسفل بأخلاقه وصفاته فأسفل بذاته نشقي.

والجسم فاعلم مخلوق من الأصول الطاهرة، والنفوس مبرأة من باطن ما خلق منه

الجسم وهي روح الجسم، وأوجد الله تبارك وتعالى الروح من باطن ما برأ منه النفس، وهو للنفس بمنزلة النفس للجسم، والنفس حجابه يوصف بالحياة وبإحياء الله ﷻ وموته خمود إلا من شاء الله يوم خمود الأرواح، وسيأتي ذكر هذا إن شاء الله تعالى.

والجسم موصوف بالموت حتى يحيا بالروح، وموته مفارقة الروح إياه كما تقدم، فإذا فارق الحي الميت أعني هذا العبد الروحاني والجسم صعد به.

فإن كان مؤمنًا فتحت له أبواب السماء حتى يصعد إلى ربه ﷻ، فيؤمر بالسجود فيسجد، ثم يجعل حقيقته النفسانية تعمر السفل من قبره إلى حيث شاء الله جل ذكره من الحق، وحقيقته الروحانية تعمر العلو من السماء الدنيا إلى السابعة في سرور ونعيم، قال الله جل قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨، ٨٩] إلى آخر السورة، وقد قرئ «فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ» أي: فحياة دائمة قائمة.

والروح بفتح الراء على قراءة الحرف الأول حال للروح في الحبور والسرور؛ ولذلك لقي رسول الله ﷺ موسى عليه السلام قائمًا في قبره يصلي، وإبراهيم تحت الشجرة قبل صعوده إلى السماء الدنيا، ولقيهما في السماوات العلا، فتلك أرواحهما، وهذه نفوسهما وأجسادهما في قبورهما.

وإن كان شقيا لم تفتح له أبواب السماء، ورمي من علو إلى الأرض وعمر به أسفل السافلين في شقاء وعذاب إلى يوم الدين نعوذ بالله من درك الشقاء ومن سوء ما سبقت به المقادير، تقريب ذلك بأن تتحقق أن الدنيا وهو معنى يعني به غيره، وعرض يعرض وحقيقة العرض هو ما يبقى، قال الله جل قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧].

وإنما هو ماض قد ذهب وتقضى لا تجد لذته، ولا تحس ألمه، خرج عن أن يكون دنيا، بل هو إلى أن يكون من الآخرة أقرب؛ لأنه مروح عليك لمنال ما لك في ذلك أو عليك، فهو إذا آخره أو مستقبل لا تجد أنك هذا أيضًا لذته ولا ألمه أملًا ترجوه أو تخوفًا تحذره والأصل قد لا يدرك، والمحذور قد لا يقع؛ لأن ذلك في حقك غير مضمون إلا أن تكون الآخرة، وإن أدركته أيضًا كان حالًا، ثم ذاهبًا وعمَّا قليل ينقطع الحال ويحبس المستقبل، فيكون الذاهب كله بروح على مستقبل ما هنالك، فحقيقة الدنيا إنما هي عرض يعرض ومعنى به غيره إذ تمامها في سواها والمراد به غيرها، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن النار اشتكت إلى ربها، فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا، فائذن لي أن أتنفس،

فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف» قال: «فأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير، وأشد ما تجدون من الحر أو الحرور فمن جهنم»، وفي أخرى: «من السعير» [1].

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يوم خلق السماوات والأرض، ثم استوى على العرش كتب على نفسه كتابًا، فهو عنده على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» [2].

وفي أخرى: «سبقت غضبي» [3] فأرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل:٦٥] بقدرته فلولا الماء لكانت تلك ـ أعني النفسين ـ جهنم الصغرى، ولولا النفسان لكانت الأرض بما فيها الجنة الصغرى، لكنه برحمته كسر برطوبة الماء يبس الزمهرير، وأطفأ ببرده سموم السعير، وغلبت رحمته على غضبه، فخلق عن ذلك الجنات المعروشات وغير المعروشات، وما أنعم به على عباده وأنعشهم منه متاعًا به إلى أن يبلغوا المحل الذي أخرج عنه الفتح والفيح، فينزل كلًّا حيث أنزل نفسه من ذلك كله قال الله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق:٩].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٠، ١١].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام:١٤١]، وكثير ورد هذا في القرآن العزيز من ذكر الجنات وإحياء الأموات، لكن إنما تصل إلى ما يأتي ذكره بصحة تدبره وفهم معاني فصوله وأغراضه.

فتوهم ـ وفقك الله ـ بعقل حاضر، وإيمان جازم، وانظر بصحة اعتبار إلى الماء النازل حال نزوله من السماء إلى الأرض، ونظر ذلك في وهمك بالنطفة حال نزولها من مستودعها إلى مستقرها وكون الولد عنها بطفوليته ونشوئه، ونموه وشبابه، واستوائه وكماله، وكهولته وشيخه وهرمه هكذا إلى منتهى درجاته، واقض بمثل ذلك على الماء

---

(١) سبق تخريجه في باب اسمه النور جل جلاله.

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٤) وفي التوحيد (٧٤٠٤) ومسلم في التوبة (٢٧٥١/ ١٤، ١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه في باب اسمه ذو العرش عز وجل.

فعجل أجاه، وقرب في نظرك وتوهمك بعبده، فكم ترى على ذلك في الماء النازل أيضًا من جنات وعيون، وأنهار وأشجار، ومن كل النبات والأزهار والثمرات؟ وكم ترى فيه من أناسي وولدان، وشيب وشبان إناث وذكران، ثم من دواب بهائم وأنعام، إنسي ووحشي وهوام، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] أي: بما كان هذا كله عنه من جنة فيها هنالك ونار في دار الأبد من الكون فيها والرجوع إليها، وبرب قادر على إحيائهم كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الرعد:٣] و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧].

وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [النور:٤٥] هذا كله من الماء ثم قال عز من قائل: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦] إشارة إلى ما ذكرناه أكثر من ذلك وتنبيهًا عليه.

فالآن ـ وفقك الله ـ فارجع النظر كرتين، وانظر إلى الماء نظرك إلى النطفة والكائن عنها أليس الكائن عن النطفة على شبه صاحب النطفة الذي هي منه سلالة، وإن الشبه كائن غالبًا عن السابق منهما أي النطفتين سبقت كان الأغلب والشبه إليها، وإن كان لا يخلو الشبه من المتوسط بينهما، فلا يكون عن الآدمي إلا آدمي، وعن البهيمي إلا بهيمي، وكذلك عن كل جنس جنسه، كذلك لما كان عن الماء النازل من السماء جنات وثمرات وحيوان على أنواع ذلك كله وأخلاقه وصفاته وأسمائه، فالكائن عنه الماء إذا هو في الحقيقة جنات وثمرات، وأنهار وأشجار، وما تقتضيه مغاني الجنات، وإن كان ظاهر ذلك رياحًا يرسلها الله ﷻ في جو السماء، فتلقح في الجو السحاب بإذن الله ﷻ وتؤلفه، فينزل الماء إلى الأرض كما تنزل النطفة من مستودعها إلى مستقرها فيكون عنها ما تقدم ذكره أعني: أن النطفة بين آدمي هي منه وآدمي هو عنها، وكذلك سائر النطف كلها، كذلك كون الماء عن شبه ما كان عن الماء، فالماء نطفة بين جنة وجنة غير أن تلك عالية وهذه دانية، فافهم.

ألا ترى أن الولد متى شك فيه نظر إلى الأشبه به فنسب إليه، هذا أبين من الصباح المسفر لمن تفكر وأبصر، لذلك قال الله عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه لما ذكر إنشاءه: ﴿جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام:١٤١]، أعقب ذلك بقوله: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي

ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام:٩٩].

ألا تسمع إلى قوله جل قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠-١١].

ويقرب من هذا قال جل قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات:٢٠-٢٢] أي: ما يأتي بالمطر والأمر من عنده ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: ما يكون عن جزاء أعمالهم، ثم أقسم على ذلك بقوله الحق: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات:٢٣] أليس هذا أبين البيان؟!

وكما أن نطقنا موجود ظاهر لنا، كذلك ما يكون عنه الماء موجود ظاهر مكشوف في حق غيرنا، وإن كان الكائن عنه الماء غيبًا في حقنا، أعني: الجنة العليا لعلة هي الابتلاء، وأن المراد منا الإيمان بالغيب في حق الملائكة عليهم السلام بل ذلك شهادة في حقهم.

ألا ترى في قول رسول الله ﷺ للجن: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**»[1] فهذا أيضًا غيب في حقنا ومشاهدة للجن.

والجن فاعلم مكلفون قد أبقيت عليهم من الغيوب بقايا لعلة الابتلاء، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة إلى أن تطلع الشمس شفقًا من الساعة إلا هذين الثقلين الجن والإنس**»[2].

وكما ذكر ﷺ في الميت المعذب في قبره: «**إنه يصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين الجن والإنس**»[3].

فهؤلاء الجن قد وصلت مشاهدتهم إلى ما غاب عن مشاهدتنا، ولو كان الميت المصلى عليه ظاهرًا لعيوننا لم نشاهد منه سوى حالته المعهودة عندنا، وهو في مدرك الملائكة عليهم السلام حي سوي يسمع ويرى ويجادل عن نفسه، ويحس كذلك نفسي جهنم أعاذنا الله الكريم برحمته منها وكونها آية على ما منه كونها، فالجنة والنار موجودتان حقيقة في دار البرزخ والدار الآخرة دل على هذا القرآن والحديث والوجود،

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) رواه أبو داود في الصلاة (١٠٤٦) والنسائي في الجمعة (١٤٣٠) وأحمد (٢/ ٤٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الشيخ شاكر على المسند.
(٣) الحديث رواه البخاري في الجنائز (١٣٣٨،١٣٧٤) وأبو داود في السنة (٤٧٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

هما مدركتان لغيرنا مشاهدة ولنا بحمد الله إيمانًا، وقد يكفي في هذا قوله جل قوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق:٢٢].

فأخبرنا نصًا صريحًا أن الغفلة هي التي حجبتنا، وأن غطاء على أبصارنا منعنا، وأن المحتضر ليهجم عليه أعظم عجب حين يرى اليقين كيف لم يره؟ كيف حجب هذا عنه؟ كيف غفل عنه؟ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

فصل:
في أن النفخ في الصور حق

قال الله ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، ونظيرتها في سورة النمل، وقال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب الصور، قد التقم القرن، وجثا على ركبتيه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ»[(١)].

آية هذا الفصل غيب، ولكنه غيب شاهدته العقول ببصيرة الإيمان وجودًا قام لها اليقين به، فبهذا الوجه كان آية، وإلا فهو أصل وهو جمعه الذوات في الأزل في يمينيه الكريمتين جل جلال ربنا وتعالت عظمته، وكانت الذوات يومئذ لم تكن قد دنست بعد بأنواع المعاصي والكفر، خلا ماكان في سابق علمه المحيط أن سيكون منهم الذي كان، ولأنه الطاهر القدوس لم يكن لها أن ترجع إلى يمينيه الكريمتين، وقد واقعت المحظور فعلًا وتدنست به فأوجد لهم الصور، وهو من عالم الأمر بدلًا من القبضتين يومئذ ليصورهن فيه، أي: ليضمهن ويجمعهن.

كذلك قال الخليل عليه السلام يوم علمه كيف يحيى الموتى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يريد الذوات، والله أعلم بما أراده، واجعل من الطوائر: ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة:٢٦٠]، وكنى عن أصول الطوائر بالجبال، فأمره أن يجعل على كل أصل منها جزأه الذي انتزع في أول الخلقة عنه؛ ليعاد فيه كالمعلوم من حكمته ﷻ، فأنام الصور التي تصورهن فيه يوم الصعق مقام قبضته والصور من أمره؛ ولذلك عادت الأرواح التي هي أيضًا من أمره إليه حكمة بالغة، وأمر حتم رجوع كل شيء إلى حيث كان آية، ذلك آية فيما بيننا في هذه الدار المطبوعات والمجبولات على ما هي عليه، ولم تكن في البدء كذلك، ألا ترى أنها ليست تكون في البرزخ كذلك، بل يطلقها هنالك من ثقاف الطبع وأسر الجبلة ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١].

---

(١)الحديث رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٣١) وأحمد (٣/ ٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وصحححه الألباني في سنن الترمذي.

وإنما فعل ذلك الابتلاء وما فيه من تعجيل الكلمة وتأجيل مقتضى السنة؛ لتشهد له الشواهد، وليصدق المتلقون عنه رسالاته، فهو لا يخرق جل ذكره العوائد، ولا يفك خاتم الطبع إلا ما يقوم مقام الشهادة منها له، فاعلم ذلك واحرص على منفعته ينفعك الله به إن شاء الله.

ثم يرجع بنا الكلام إلى ما إليه قصدنا، فإذا أذن الله جل ذكره لإسرافيل عليه السلام في نفخة الصعق، صعق لتلك النفخة كل روح في السماوات والأرض إلا من شاء الله، وفزع إلى الصور داخرًا صاغرًا ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]، توحد بالبقاء وقهر العباد بالموت والفناء، ثم يموت إسرافيل عليه السلام وملك الموت، فيومئذ تمت كلمته في رجوع الموت إلى الموت، ورجع التراب والطوائر إلى أصولها، والأجزاء إلى كلياتها، والأرواح إلى الأمر، ويبقى الملك الحق جل ذكره، الباقي الدائم الحي القيوم فينادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] ثلاثًا، ولا داعي يومئذ ولا مجيب سواه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه فيجيب نفسه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

خاصة اسم القهار القدرة على الذوات والأرواح، كما خاصة اسم القادر والمقتدر على إخراج ذوات المقادير من العدم إلى الوجود، وجمع خلقها حتى إذا شاء تعالى أن يتمم كلمته الحق في رجوع أواخر الحكمة على أوائلها، وانعطاف تناهيها على مبادئها أنزل جل ذكره من تحت العرش ماء كمني الرجال، وأمر كل شيء أخذ من شيء حبة خردل أو أدنى أن يأتي بما فيه، فيرجع كل شيء على طريقه الذي ذهب عليه، فينبت أجسام الخليقة كما ينبت النبات، ثم يحيي إسرافيل عليه السلام فيأمره بالنفخ في الصور نفخة النشور، فينفخ وتخرج كل روح إلى جسده ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

فصل في ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٧]

هذا الفصل قريب القرابة من فصل إحياء الله الموتى جدًا غير أن الله تبارك وتعالى ذكرهما وأفرد لكل واحد منهما شهادة فلابد من إفراد الكلام فيه، ولم يكن الله تبارك وتعالى ليذكره إلا وشهادته في مصنوعاته قائمة، فآية هذا الفصل إخراج النبات من الأرض بعد أن كانت جدبة خاوية، فأخرج منها وعنها أجسامًا لم تكن بها قبل قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾[ق:٩] ونظائر هذا كثير، وقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، والميت هو الجسم، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: يخلص الجسم من الروح الذي تشبث به، ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، ثم قال جل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

[الروم:١٩] أي: على هذه الطريق تخرجون من القبور بأن يعيد الحي من الميت ويحيى الميت بالحي.

كذلك قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج:٧] ومن يخبر بها عمن يعقل هي النفس، وهي التي يعمر بها القبور، والبعث لا يوصف به الأجسام، إنما البعث للنفوس، قال جل قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠]، فذكر البعث والإرسال للنفس، وجعل ذلك آية على البعث الآخر، إنما تبعث الأجسام بحلول الأنفس فيها.

ومن آيات البعث أن خلقنا جل ذكره عن الأصول وهي ميتة، فسوانا فإذا نحن أحياء نسعى ونقبل وندبر، كذلك إذا أماتنا وردنا إلى حيث كنا يعيدنا كأول مرة ويبعثنا؛ ولذلك قال عز من قائل:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠].

قد وعد بذلك الخالق القادر عليه جل ذكره الصادق في قيله، ووعد على التصديق به والإيمان أجزل المثوبة كما وعد على التكذيب به أشد الوعيد، وأنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وأقسم عليه بقوله الحق: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وأمر نبيه ﷺ بالقسم على تحقيقه وتصديق الشهادة، فقال: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾، فهو كائن لابد ولا محالة ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤]، نسأل الله من فضله العظيم إيمانًا صادقًا، وعملًا متقبلًا، ورضوانًا منه إنه قريب مجيب.

فصل

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ [الحج:٧]

آيات هذا الفصل أيضًا كثيرة لا يأخذها الحصر، فتطلبها ـ وفقك الله ـ في انقضاء الآجال وتمام الآماد كلها، فما من أمد صغير ولا كبير إلا يريك بتمامه وانقضائه تمام الدنيا وانقضائها، فكما يأتي الأمد بعد الأمد، والأجل بعد الأجل، واليوم بعد اليوم، والساعة بعد الساعة، والحين بعد الحين، والنفس بعد النفس، والطرفة بعد الطرفة، كذلك يقضى يوم الدنيا ويخلفه اليوم الآخر.

وقد أخبر به الصادق الحق، فلا بد من كونه وإتيانه، وذلك هو إتيان الساعة بلا ريب ولا تقليد ولا تردد، والحمد لله رب العالمين.

فمنكر الساعة والدار الآخرة بما فيها على هذا كمنكر الموت، وكمنكر تقلبه في حركته وسكونه وتنفسه، وانقضاء الساعات والأيام بعد الأيام، وتمام الآماد بعد الآماد، ومنكر ذلك منكر لكونه على ما هو.

فصل:

وأن لقاء الله حق

كلامنا في هذا الفصل في لقاء الموت، ولقاء اليوم المشهود لقاء العرض على الله ﷻ، وهو لقاء يعم الكافر والمؤمن، وإنما يفترقان في الإكرام والإهانة، فيكون لأجل ذلك عرف اللقاء للمؤمن، والكافر العرض والتوقيف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود:١٨]، قال الله جل قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾، ثم قال ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] إلى قوله ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ [الانشقاق:١٠]، وقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الأنعام:٣٠] وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم:٨]، وقال ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾[العنكبوت: ٥]، وهو آية لقائه ﷻ أخذه جميع بني آدم في القبضتين.

ومن آيات ذلك أيضًا جعله معرفة في ذواتهم، وأخذه الميثاق عليهم حين أشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم، فجمعه إياهم يومئذ في يمينيه الكريمتين تبارك وتعالى لقاء ومعرفة، والعلم به لقاء، وأخذه عليهم الميثاق، وإشهاده إياهم على أنفسهم لقاء، وإقرارهم له على أنفسهم بأنه ربهم لقاء، ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الأحزاب:١٥] ﴿وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ [مريم:٦١].

ولا بد من رجوع الحكمة آخرها على أولها، وقد أخبر بذلك وبشر به وأنذر، فلا بد منه ولا محيص عنه.

ولا تردد في العلم بالرجوع إلى الله جل ذكره ولقائه، وعليه كان طريقنا فإليه مصيرنا ومنه كان بدؤنا، فلا بد من الرجوع إليه ألا ترى أنا لما كنا من تراب موجودين لم يكن لنا بد من أن نرجع إلى التواب، كذلك الرجوع إلى الله ﷻ، فافهم.

وفي ذلك قال بعضهم:

أَلا إِنَّنـــا كُلنـــا بائِــدُ وَأَيُّ بَنِي آدَم خالِدُ
وَبَدؤُهُم كانَ مِن رَبِّهِم وَكُلٌ إِلى ربهِ عائِــدُ

نسأل الله من فضله وجنته أن يجعل لنا في ذلك كل إكرام وقربة وزلفى إنه رحيم كريم.

فصل
وأن الفتانين منكرًا ونكيرًا حق

وكذلك فتانا القبر منكر ونكير وهما ملكان، قال رسول الله ﷺ: «أسودان مهيبان من غلظهما وفظاظتها وفظاظة منظرهما» (١) نعوذ بالله من فتنتهما، يقيمان الميت أول مدخله بعيد تسوية التراب عليه، حتى إنه ليسمع قرع نعال أصحابه بعد منصرفه من لقاء ربه، فيقولان له: «من ربك ومن نبيك» (٢)، وفي بعض الروايات أنهما ينتهرانه أو أحدهما في السؤال، فيثبته الله تعالى ويقول: ربي الله ونبيي محمد ﷺ، فينتهره فيعود للشهادة ويثبته الله فيقول: صدقت، وينادي ملك من السماء: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال: وأما الكافر فذكر أنه ينتهره فيجيب كالواله، فينتهره بعد حيرته وشكه فلا يزداد إلا شكًا وحيرة، فيقال له: لا دريت ولا تليت، وفي أخرى: تقول الملائكة بعد قبض العبد: أي ربنا إنك أمرتنا بقبض عبدك وقد قبضناه، فيقول: «ردوه فأعيدوا فيه الروح فإنه يسمع خفق نعالهم حيث يولون مدبرين» (٣) وفيه أنه يصعد به من الباب الذي كان يصعد بعمله، وفيه أن الملكين ينتهرانه انتهارًا شديدًا بعد قوله: ربي الله وديني الإسلام، ونبيي محمد، قال: وهي آخر فتنة للمؤمن.

وأما الكافر فيضرب بمطارق من حديد؛ جزاءً لتجاسره على عظيم الفرية والتكذيب، وخزيًا لنفسه المتكبرة عن اتباع الرسول ﷺ واتباع العلماء من أمته، ويضيق عليه القبر حتى تختلف أضلاعه؛ جزاءً لضيق صدره عن الانشراح للإسلام، وحرجه عند سماع الهدى على ألسنة العلماء والأنبياء، ثم تتناوب عليه أنواع الأهوال والمفزعات

(١) رواه الترمذي في الجنائز (١٠٧١) مختصرًا بلفظ: «أسودان أزرقان» من حديث أبي هريرة وحسنه الألباني.

(٢) الحديث رواه ابن جرير في تفسيره (٢٠٧٦٠) وأبو داود في السنة (٤٧٥٣) وأحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وصححه الألباني في سنن أبي داود.

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٠٧٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه الطبراني في الكبير (١١١٣٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وانظر حديث أبي داود السابق.

على الدوام؛ جزاءً لدوامه طيلة عمره على أعماله السيئة دون رجعة ولا توبة، ويقال له: هذا منزلك من الجنة أبدلك الله به منزلًا من النار، فيعرجان عليه جميعًا.

وأما المؤمن أو الموقن فيقول لهما: هو رسول الله ﷺ أرسله بالهدى ودين الحق، ويفتح له منها باب إلى الجنة تأتيه منها بشاراتها ورياحينها وروحها إلى يوم الدين، ويفسح له في قبره سبعين ذراعًا ومد بصره، ويقال له: هذا منزلك من النار أبدلك الله به منزلًا من الجنة.

ولا يبعدن عليك تحقيق هذا وتصوره، فإن لكل حق حقيقة، فالحق ظاهر والحقيقة باطن، كما قال رسول الله ﷺ لحارثة رحمه الله: «**لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك**»، فجعل يصف حقيقة إيمانه بقوله: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وإلى أهل الحشر مقبلين ومدبرين، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة ينعمون، وإلى أهل النار يعذبون[(١)].

وقال رسول الله ﷺ للجن وقد طلبوا له الزاد: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا وكل بعرة علف لدوابكم**»[(٢)].

فكون العظم مسلوبًا من لحمه والبعر على ما هو عليه حق وهو ظاهره، وكونه عليه لحمه أوفر ما كان، والبعر على ما كان عليه قبل أن تعتلفه الدواب حقيقة، وإن كان غيبًا في حقنا فهو شهادة لغيرنا، وهذا يصحب جميع الموجودات من كون الصلاة نورًا والصدقة برهانًا، وأنها تقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل، «**فلا يزال يربيها له، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون الثمرة مثل جبل أحد**»[(٣)].

وكذلك كون الصبر ضياء، والأعمال كلها على مقتضاها لها بواطن يحققها التوجه بها إلى الله المصور الحق، فيصورها على حقائقها التي سبق لها من التصوير في علمه ومشيئته، وهي حقائق لحقوق أوجدها عليه ﷻ على أيدي فاعليها، يوم إظهاره لها في الدنيا، والميت ظاهره ميت وهو الحق منه، وحقيقته أنه حي يسمع ويعقل ويحس ويجادل عن نفسه فيما هو حق وميت، عبر عنه ﷻ بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا

(١)رواه البيهقي في الشعب (١٠٥٩٠-١٠٥٩٢) وابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٤٠٢،٤٠٣) ورواه أحمد مختصرا (٣/ ١٢٤، ٢١٠، ٢١٥، ٢٦٠، ٢٨٢، ٢٨٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢)سبق تخريجه.

(٣)الحديث رواه البخاري في الزكاة (١٤١٠) وفي التوحيد (٧٤١٠) ومسلم في الزكاة (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٦]، وبقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣]، وبقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥]، وبما هو حقيقة وحي عبر عنه بقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور:٤٧]، وقوله: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٥-٤٦]، وبقوله جل قوله: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨، ٨٩] الثلاثة الأصناف إلى آخر السورة، وعنها عبر قول رسول الله ﷺ في الجنازة: «وإنها تقول وهي على رقاب الناس إن كانت صالحة: قدموني قدموني، وإن كانت غير ذلك تقول: يا ويلها، أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الثقلين»(١)، وبقوله الحق: «إن الميت ليسمع قرع نعال أصحابه إذا تفرقوا عنه»(٢)، وغير ذلك مما جاء عن الأموات أنهم في حكم الحياة تجتزئ من ذلك بقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، ونظيرتها في سورة آل عمران: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

فكما أن الكفار أموات غير أحياء ههنا، كذلك الشهداء أحياء غير أموات هنالك، والمؤمنون كذلك، قال الله ﷻ: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠] أي: لكونهم أمواتًا وهذا هو الذي يعطيه الوجود لمن تذكر واسترشد الرشيد الحق المرشد جل وتعالى قال الله ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨].

وفيما تقدم من الاعتبار أن العالم ينشأ بإنشاء المنشئ الحق فقد كنا في الأزل عدمًا لا حياة فيه إلا إحاطة علم الله العلي وزمه إيانا بالتقدير السابق، ثم أوجدنا للتقدير وأخذ المواثيق، فلما كان من ذلك ما شاء أماتنا فجعلنا في خزائن السماوات والأرض، فكانت هذه الموتة الأولى عبر عنها بقوله جل قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾، ثم أحيانا هذه الحياة وابتعثنا من موتتنا تلك، فكانت الموتة الأولى أصغر في حكم الموت من العدم الأول، وكانت هذه الحياة أكبر من الحياة الأولى حياة الإقرار، ثم هذه الحياة حياة بين موتتين:

---

(١) الحديث رواه البخاري في الجنائز (١٣١٤، ١٣١٦، ١٣٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٩٢)، والنسائي في الجنائز (١٩٠٨، ١٩٠٩) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه قبل خمسة أحاديث.

موتتنا الأولى وموتتنا المستقبلية، وهي أصغر من الموتة الأولى لما تقدم من حكم الشيء، وهذه موتة بين حياتين.

ومعاني هذه الحياة تردد وتروح عليها وفيها، وهي لوح وتقدير للحياة العظمى فهذا كله موجب لذكاء هذه الحياة وعظمها في حال هذه الموتة المستقبلة أو كشف الغطاء، وإن هذه الحياة المستقبلة الآخرة راجعة على كوننا الأول في علمه وقدرته ومشيئته لا موت فيها كما لا موت في كانه جل وتعالى، ولما لم يكن إحياء لأنفسنا يومئذ أوجب علينا الموت الذي تقدم ذكره، كما أنه لما كنا يومئذ في كانه الحي الدائم كان الرجوع إليه إن شاء الله لا موت فيه حكمة بالغة، فهذه حقيقة هذه الموتات وحالها، فاعلم ذلك.

فصل
وأن كل ما أخبر رسول الله ﷺ من الغيوب بعد الموت حق

ثم ترقى الفتنة في القبر كما رقت فتنة المحيا، ويرقى الجزاء عليها كما رقت السيئات في الدنيا، قال رسول الله ﷺ: «**رأيت امرأة تعذب في النار في هرة ربطتها حتى ماتت لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض**»[1].

وقال: «**بينا رجل يمشي على الطريق إذ مر بغصن شجرة، فقال: لأقطعن هذا الذي يؤذي الناس في طريقهم، فقطعه، قال: فلقد رأيته يتقلب في ظله في الجنة**»[2].

وقال في أخرى: «**إن رجلًا كان يعذب؛ لأنه كان لا يستتر من بوله**»، وفي أخرى: «من البول» وفي أخرى: «**لأنه كان يمشي بالنميمة**»[3]، وفي أخرى: «**إن رجلًا كان يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فرآه ﷺ يشرشر شدقاه بكلوب من حديد يفعل به ذلك من جانب، فإذا فرغ منه جاء إلى الجانب الآخر من شدقيه، فلا يتم منه إلا وقد التأم الأول فرجع إليه، فلا يتم منه إلا وقد التأم الآخر هكذا يصنع به إلى يوم القيامة**».

ورأى آخر ملقى على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو حجر، فيضربه فيشدخ رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر فينطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا إلا وقد التأم

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٢) ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٦١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الحديث رواه مسلم (٢٦١٨/١٢٨-١٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
الحديث رواه البخاري في الوضوء (٢١٦، ٢١٨) وفي الجنائز (١٣٦١، ١٣٧٨) وفي الأدب (٦٠٥٢، ٦٠٥٥) ومسلم في الطهارة (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

رأسه ويعود كما هو، فعاد إليه فضربه هكذا، فقيل له: هذا رجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل، ولم يعمل به بالنهار يفعل ذلك به إلى يوم القيامة.

ورأى قومًا في نقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع وتتوقد تحته نار، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجوا منها، فإذا خمدت رجعوا فيها رجالًا ونساء عراة، فقيل له: هؤلاء الزناة.

ورأى نهرًا من دم فيه رجل قائم وسط النهر، وعلى شط النهر رجل قائم بين يديه حجارة، فيقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بالحجر في فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء أن يخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقيل له: إنه آكل الحرام.

ورأى الشجرة الخضراء العظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان، ورأى رجلًا قريبًا من تلك الشجرة بين يديه نار يوقدها، فقيل له في الشيخ: إنه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وفي الصبيان إنهم كل مولود يولد على الفطرة، فقال له رجل: يا رسول الله، وأولاد المشركين، قال: «وأولاد المشركين» وقال في الرجل الذي يوقد النار: «إنه مالك خازن النار».

ورأى أنه صعد به في تلك الشجرة، فأدخل دارًا لم ير قط أحسن منها فيها شيوخ وصبيان، ثم أخرج منها وصعد به الشجرة، فأدخل دارًا هي أحسن وأفضل منها فيها شيوخ وشباب فقيل في الدار الأولى: إنها دار عامة المؤمنين، وأن الدار الثانية: هي دار الشهداء.

قال: «وفتح لنا مدينة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطر كأقبح ما أنت راءٍ، فقيل لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، وإذا نهر معترض كأن ماءه المحض في بياض فذهبوا فوقعوا فيه فرجعوا إلينا وقد ذهب السوء عنهم، وصاروا في أحسن صورة، فقيل: هذه جنة عدن، والقوم الذين كانوا شطر منهم حسنًا وشطر قبيحًا فإنهم قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا فتجاوز الله عنهم».

وأما سابلة آل فرعون فرأى: «رجالًا بطونهم كالبيوت فإذا عرض آل فرعون على النار غدوًا وعشيًا، فيوقفون آل فرعون فيشردونهم شردًا بأرجلهم» قال: فقلت: من هؤلاء يا جبريل قال: هؤلاء أكلة الربا»ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٢] [(١)].

---

(١) الحديث بطوله رواه البخاري في التعبير (٧٠٤٧) وأحمد (٥/ ٨، ٩، ١٤، ١٥) من حديث سمرة.

والشواهد على عذاب القبر ونعيمه قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾[الأنعام:٩٣]، وقوله:﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]، ثم قال:﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، فهذا عذاب الآخرة وهو أشد العذاب كما قال:﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧].

وقوله أيضًا:﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وقوله:﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [النحل:٦٣] أي: في دار البرزخ، ثم قال:﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣] في اليوم الآخر، وهذه الآي كلها في المفترين على الله ﷻ والمكذبين رسله.

وقد جاء في الموحدين أيضا ما يوجب العلم أن ذلك حق وواقع لا محالة قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٨٨: ٩٠] إلى آخر السورة، وقوله:﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وقوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ إلى قوله:﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢]، ونصب ميتًا على الحال من الأكل، أي: أن المغتاب يأكل لحم أخيه في دار البرزخ وهو عذابه هنالك وجزاؤه.

وقد تقدم أن آية فتنة القبر هي فتنة المحيا، ومن آيات عذاب القبر ونعيمه الرؤيا والأحلام المبشرات والمحزنات والمفزعات، وكما جعل الله ﷻ النوم بين اليقظتين آية على الموت الفاصل بين الحياتين، كذلك جعل الأحوال فيه آيات ودلائل على أحوال الميت هناك فاعلم صغير بصغير وكبير بكبير إلا ما شاء ربك من كان في يقظته على شيء، فأغلب أحواله أن يكون على مثل ذلك في نومه، كذلك من عاش على شيء

ابن جندب رضي الله عنه ورواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٩)ومسلم في الإيمان (١٦٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وروى ابن ماجة في التجارات (٢٢٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه شطرًا من هذا الحديث.

فأغلب أحواله أن يموت عليه، ومن مات على شيء فعليه يجازى في دار البرزخ وعليه يبعث والرؤيا قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان»(١)

وهو شيء يحزن به الشيطان العبد المؤمن لكنها داخلة في المنذرات، وربما يقع منها التعوذ والتناسي لها، ورؤيا تكون عن حديث النفس وعذاب القبر ونعيمه يدور على هذه الثلاثة الأصناف، وشرح هذا على حكم التقصي يطول ولا يبلغ منه إلى أقل معلوماته، لكن اعتبر ذلك بعبارات الرؤيا منازل أهلها في أعمالهم وطرائقهم وأخلاقهم وغلبة الهوى عليهم أو غلبتهم له.

والكلام في هذا الفصل على الإجمال، واختصار الإكثار أنها على هذا الوجه من الاعتبار ثلاثة دور: دار الدنيا ودار الآخرة، ومنزلة دار الدنيا من دار الآخرة بالمنزلة التي مثلها رسول الله ﷺ: «كإصبع أدخلته في اليم»(٢)، ودار البرزخ دار وسط بينهما في القدر والرؤية فالجنة ومعانيها وحقيقتها أظهر في دار البرزخ منها في دار الدنيا، بمقدار ليس باليسير بل هو كثير جدًّا بالإضافة إلى الدنيا، وكذلك النار وتوابعها ومعانيها ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

غير أنها روحانية الأجسام وجسمانية الأرواح، والأخرى جسمانية كلها إلا ما شاء ربك، وكل ما في الدنيا من المعاني الغيبية فهي هناك موجودة مشهودة مجسمة، حتى أن الموت مجسم فيها حين يذبح، والأعمال كذلك، والصوامت تنطق، والجوامد تشهد وتتكلم، وكل شيء يكمل ويتم، وذلك لسوء الخليقة كلها يومئذ نشأ العالم نشأة على غير قياس منا وكمل، ألا ترى أن الأجسام يومئذ تحمل هول المطلع وفزع المقام الأكبر، وتحمل من التوبيخ أعاذنا الله الرحيم برحمته منه ومن عذاب النار ما لا يقدر الآن قدره، وكذلك المؤمنون يحتملون ذلك الفرح العظيم الذي لو توهموه في الدنيا لذابوا وماتوا وزهقت نفوسهم ويحتمل أبصارهم رؤية تلك الأنوار بل يكتنفها من الأيد على رؤية ذي الجلال والإكرام الملك الجبار ما يحتمل به ذلك، حتى أن عرش ربك ليحمله يومئذ ثمانية، وإنما هي الغفلة التي غطت على القلوب والغشاوة التي جعلت على الأبصار لعلة الابتلاء بالإيمان بالغيب، ولو كشف الغطاء ورفعت الحجب والغشاوات عن

---

(١) الحديث رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٢) وفي الطب (٥٧٤٧) ومسلم في الرؤيا (٢٢٦١) من حديث أبي قتادة ﵁.

(٢) الحديث رواه مسلم في الجنة (٢٨٥٨) وابن ماجة في الزهد (٤١٠٨) من حديث المستورد بن شداد أخي بني فهر ﵁.

القلوب والأبصار لأبصرنا وشاهدنا أكثر مما تبلغه أوصاف الألسنة.

وإن المحتضر حين يكشف عنه الغطاء فيعاين الحقيقة؛ ليعظم عجبه جدًّا مما لم ير في الدنيا ما هو معاينه في ذلك الحين لولا الحين المعاجل، قال سبحانه وله الحمد: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] لو لم يكن من التوصية ما كانت توصيته إلا بالإيمان بما أظهر له في حينه ذلك كما قال الأول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٦- ٢٧]، قال الله ﷻ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾؛أي: بمعاينة ما هنالك ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩] إلى قوله جل قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق:٢٢] فهذه كلها أحضرها ذكرك، واعتبرها بعقلك، وإياك ومفارقة الاقتداء طرفة عين.

وذكر الله ﷻ الدار الآخرة ودار الدنيا، وكرر ذكرهما، وأبدى فيهما، وأعاد يذم هذه ويمدح تلك، وما ذكر البرزخ إلا تعريضًا وعلى سبيل الإدراج لذكرها بينهما، وبأخرى لم ينص على ذكرها؛ إذ النص في الخطاب في مقابلة التجسيم في الخليقة، والتعريض في مقابلة الروحانية.

وكانت دار البرزخ روحانية الأجسام، فجاء الخطاب بها والعبارة عنها على نحو ذلك حكمة بالغة وسنة قائمة، وللابتلاء المقدور وهي التي وجد الأوائل بالعقول فاعتقدوها دون تجسيم الآخرة ولم يستضيؤوا في رؤيتها بنور نبوة، فغلوا فيها وشعروا بالرجعة ولم يروا الآخرة، فاعتقدوا التناسخ لأجل ذلك في الأرواح، وجعلوا الترتيب في الجزاء بعد الموت ترتيب الموجودات في الإكرام والإهانة؛ جزاء لإتيانه بما اعتقدوه بمجرد عقولهم القاصرة من حسن وقبيح.

وتكشط السماوات، وتقويض البناء وتغيير الهيئة وتبديل السماوات والأرض بغيرهما يغيب مع لقاء الله تعالى، هو الذي إليه المصير وعلة خطئهم هي أنهم لم يشعروا لمعنى النشوء في العالم، ولا علموا مقتضى اسم المنشئ فلم يروا الكمال ولا علموه قبل كماله في طريق نشوئه، سواء ما رأوه واعتقدوه في معقولهم، كذلك وجد الآخرة كثير من أتباع الرسالة، وفات عقولهم القاصرة روحانية البرزخ، فقالوا بتكذيب عذاب القبر وسؤال الملكين وردوا أكثر ما جاء من الأخبار بالغيوب كأنهم لا يعلمون، والسلامة، إن شاء الله من عذاب القبر وفتنته إن شاء الله تعالىﷻ ومن نجا من القبر فقد نجا مما بعده أن يلتزم اتباع سبيل المؤمنين واقتفاد سنن المتقين في عقودهم وأعمالهم، وألا تمسي

إلا تائبًا ولا تصبح إلا تائبًا فإنما عذاب القبر من ذنوب وعادات لم تقطع ولم يتب منها، نسأل الله الذي لا إله إلا هو تمام عصمته، وسبوغ نعمته، وألا يكلنا إلى أنفسنا برحمته.

فصل
وأن سيدنا محمداً ﷺ رسول الله حق

قدمنا الكلام على هذا الفصل؛ لتقدم الوجوب علينا في الشهادة لمحمد رسول الله ﷺ بالنبوة والرسالة على غيره، ولأن الشهادة له بالنبوة والإذعان له بالطاعة شهادة لجميع الأنبياء سواه صلوات الله عليهم بما هم له أهل؛ لا جائيا بالتصديق لهم دليل اختصاص كل رسول بالرسالة، وخروجه بها عن جنس البشرية، هو ظهور المعجزات على يديه، وخرق العادات له ومن أجله، وذلك أن الله ﷻ ألزم المخلوقات أطباعها، ورتبها وأجراها على سننها وقوانينها، فهي مستصحبة حال جريانها على سبل جريانها تلك، فكون المطبوعات على ما هي عليه بمنزلة البشرى منا على ما هو عليه سواء؛ فإن سلك به ربه ﷻ سبيل الاختصاص له، وأخرجه من تلك الجهة عن حد البشرية فقد جعل الله ﷻ له في مقابلة خرق سبيل البشرية فيه بالاختصاص إظهار المعجزات، وقضاء خاتم الطبع الذي ختم به على المطبوعات في مقابلة الاختصاص؛ حكما عدلًا وقضاء فصلًا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦]، فإذا خرق تبارك وتعالى لأحد من عباده على وجه يتبين أنه لأجله خرقها، قام ذلك مقام شهادة الشهيد الحق على صدقه ما جاء به.

وإذا تأمل المتأمل المنصف الناصح لنفسه إلى ما أظهر الله تبارك وتعالى على يدي رسوله ﷺ، وجد الذي جاء به من الإعجاز في غاية الخصوصية ونهاية الفرقان والبيان، ثم إن نظر بصحة عقل ونور إيمان وتوفيق من ربه ﷻ، واستسلام إليه، وتبرأ من الحول والقوة إلا إليه ظهر له يقينًا أن الذي جاء به لم يكن له أن يأتي به إلا من عند الله ﷻ؛ لما يشاهده في شرعته من اتساق الحكمة، واستقامة الصراط وهداية السبيل، والوصل الموصل، فإذا تحقق هذا جدًّا صعد بإيمانه علوًا بإيمان جزم لا يفارقه، وطلب التعلم من ربه وحده ناسيًا لنفسه؛ تاركًا لصفاتها، فيجد قواعد ما جاء به ماشية على العدل، قائمة بالفصل، منتزعة من الأسماء الحسنى والصفات العلا، والأمر الحق ولا يتيسر هذا إلا لمن نظر في العالم، فتبين له مسالك الحق المخلوق به السماوات والأرض.

فإن نظر مع ذلك الفطن الماهر الموفق في القرآن العزيز بمثل ما تقدم، فهيهات هناك احتملت الخيرات وتفتحت الإصابات، فسطعت عند ذلك أنوار بصائر وضياء

مشاهدات لا يعرفها الغافلون، فيومئذ يعرف حقيقة المعرفة أن النبوة انفصلت عن الصفات العلا، وأن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم وإمام المتقين من الأولين والآخرين، وأن هذا هو الهدى، وأن ما جاء به هو الحق المبين، وأن صراطه المستقيم، وأن القرآن كما تلاه، وأن الحديث كما حدثه، وأن السنن الحق كما سنه، وكلما أمعنت في النظر والحث بالتدبر بدا لك الأمر وازددت بصيرة، فلاحت لك الحكمة في طرقات سنته، وأن جميع ما جاء به من كتاب وسنة هو عن ربه ﷻ.

فصل
وأن جميع النبيين حق

وما جاء به حق من عند الله ﷻ آيات النبوة وجود العالم كثيرة وطرقها بينة نيرة، والحمد لله رب العالمين، لكنا أردنا أن نبين المعنى الخاص منها الممنوع من سواء الخاص غير الممتنع، وهو المعنى المثبوت في العالم منها، فنقول والله الموفق للرشاد: النبوة الكبرى ممنوعة من سوى النبي الحق، فآيات النبوة ليست بنبوة، كما الدلالة على الإلهية والآيات المبينة ليست بالإلهية؛ فالفرق بين النبوة المجحودة الممنوعة، وبين ما هو آية عليها الذي هو المثبت منها في العالم أن الكبرى الممنوعة هي نزول الملك بأمر الله على قلب العبد النبي المراد بذلك النبي ﷺ إنباء له بذلك، وتبليغًا عن ربه ﷻ، كالإلهية في منزلتها صفتها الحق ممنوعة مقطوعة من سوى الإله الحق؛لكونها جامعة الأسماء الحسنى كلها والصفات العلا بإجماعها على الكمال الأقصى والتمام الأرفع، وما كان من صفاتها المثبتة في العالم، الذي هو آيات ودلالات عليها من معاني الحمد؛ فإنما ذلك من صفات الحق المجبول عليها العالم، وهو أثره ﷻ فيه الدال عليه منه، وهو المعنى بقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [العنكبوت:٤٤]، فيه الدال عليه منه، وهو الذي يشهد به الموجودات على أنفسهم، بما هي عليه من نقص الخليقة وافتقار الصنع، والتناهي في الحدود والأقطار والآماد والصفات والمعاني والأسماء، كما به يشهد الإله الحق بما هو عليه وتسبحه وتحمده وتقنت له.

وحقيقة ذلك المعنى المشار إليه في الخليقة هو أنه عبد متذلل مجعول، وما عدا ما ذكرناه فهو الحق، ومحقق هذا الحق الموصوف ممنوع وصفه، مقطوع إضافته من غير الإله الحق، لا ينبغي إلا له، لا إله إلا هو العليم الحكيم.

تقريب ذلك أن الإنسان وغيره يوصف بصفات ما، كالقدرة والمشيئة والعلم مثلًا، لكن لم يبلغ قط قدرته لسواه أن يخرج جوهرًا أو جزءًا، ليس موجودًا في العالم من عدم

إلى وجود، فكيف بإيجاد السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وكذلك لم تبلغ مشيئته قط أن يكيف حاملها الموصوف بها ما شاء متى شاء على ما شاء وكيف شاء حتى لا يتعذر عليه شيء ولا يفوته، وكذلك لم يبلغ علمه قط من سواه كائن من كان أن يحيط بعلم ما كان، وما لم يكن، وكيف يكون إذا كان، ومتى يكون، وما لا يكون أبدًا كيف كان يكون لو كان على الحقيقة، بعلم يتناول جميع المعلومات تناولًا واحدًا من جميع وجوهه.

وهذا في جميع الأسماء والصفات، فهنا تحققت الإلهية للإله الحق جل ذكره، صفة النبوة في سبيلها خص منها رفيعها للمخصوصين بها، وجعل ما عدا ذلك في العالم مبثوثًا؛ ليدل منه عليها، وليقرب العقول من فهمها، ولو لم يكن من جنس النبوة في جبلة العقول، ولا معنى من معانيها لما عرفتها ولا آمنت بها، ومن خاصتها أن المخصوص بها عليه السلام ما يأتي بها ليس في طاقة البشر الإتيان به، مما تفرد الله ﷻ بفعله من الإنباء بالغيوب وخرق العادات والإتيان بالمعجزات؛ ليكون ذلك دليلًا على صدقهم، وموجبًا لاتباعهم فيما يأتون به من سنن وأقوال وأحكام وتبليغ عن ربهم جل جلاله.

وما كان من صفات النبوة في العالم مبثوثًا، فهو من صفات الحق كما تقدم ذكره ينشأ بنشء العالم وينمو بنموه، حتىٰ يبدو في الحيوان، ثم يظهر في الإنسان، ثم يستعلن في المؤمن، ثم في الموقن، ثم يقوىٰ في الصديق، وكثير تكون هذا في النوع في أهل هذا المقام الرفيع، أعني: الصديقية أن يضرب بالحق علىٰ قلوبهم وأفئدتهم، ويظهر شاهد الحق علىٰ ألسنتهم وأعمالهم، وكثيرًا ما يكرمهم ﷻ بضروب الكفايات، وإجابة الدعوات، وقضاء الحاجات، وقد يخرق الله بهم العادات؛ لأنهم في مكان الوصول بين الأنبياء وغيرهم، لكن بشرط ترك الدعوى، والتزام الإذعان منهم في اتباع الأنبياء والتعزير والتوقير لهم مع حسن الاقتداء، ولم لا؟ وإنما بلغوا حيث وصلوا بالإذعان للأنبياء، وحسن الاقتداء بهم.

وكثيرًا ما يكون أيضًا في هذا الصنف محادثة السر والنفث في الروع والصدق في الرؤيا، فالكرامات لهؤلاء في مقابلة الدلالات لهم، والتأنيس لذواتهم على تصديق محادثة أسرارهم، وتحقيق ما يلقى إليهم من الحقائق في مقامهم بمنزلة خرق العادات في التحدي للأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم، والذي تمت عليه النعمة بالنبوة الكبرى هو النبي الحق، ثم على الرسول الآتي عن ربه ﷻ ما لم يكن لبشر الإتيان

به من قبل نفسه أبد الآبدين، فمن الآيات على النبوة الرؤيا الصالحة، قال رسول الله ﷺ «الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»(١).

وهذه الأجزاء كلها موجودة في العالم، فاعلم ذلك.

فمنها: ما وجودها في وجود الموجودات، ومنها: ما وجودها بوجود الإيمان، وكل ذلك في الموجودات، وإنما يحيا العبد بصفة الإيمان، فيبصر ويرى الحق المفطور عليه العالم، ويكون في كل شيء يراه أو يسمعه دليل من الحق يدل على الحق المبين ومن الآيات على النبوة الإلهام كله، كإلهام النحل والنمل والطير والدواب، والحيوان كله وجميع أصناف العالم، كل صنف منها أمم أمثالها، فعموم منها وخصوص، فالعامي منها يؤم الخاص حتى ترجع فيما هذا سبيله إلى آحاد وأفراد، ومنها: أئمة يأتم بها سائرها هذا في كل صنف، فافهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[الشمس:٧، ٨]، فطريق التقوى هناك يؤدي إلى النبوة صدق إلى صدق، وحق إلى حق، وطريق الفجور يؤدي إلى الفتنة فتنة إلى فتنة، وقال أيضًا عز من قائل: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٣]، فكل إلهام آية على النبوة، وكذلك كل علم واقع عقيب تفكر، وكل ذكر وقع عقيب نسيان، وكل علم سبيله الاختراع، وقال الله جل قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام:٩١]، وهذا خطاب جاء في معرض إثبات النبوة ردًّا على من قال: ما أنزل الله على بشر من شيء.

ومن آيات النبوة جعله ﷻ السبل في الأرض لتسلك عليها وتهتدي بها، ولو سلكنا في الأرض على مقاصدنا على غير طريق مسلوكة، لم نهتد إلى مقصد، ولم نبلغ إلى مراد، والعرب تقول للطريق: نبيا، قال الشاعر:

لأَصبَحَ رَتمًا دُقاق الحصى ... كمتنِ النبِي مِن الكاثِبِ

فالأنبياء لنا كالسبل في الأرض وهم الأئمة، والعرب تسمي الطريق: إمامًا، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:٧٩]، فسمى الطريق إمامًا، وقال في الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣].

(١) الحديث رواه البخاري في التعبير (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ ورواه مسلم في الرؤيا (٨/٢٢٦٤) من حديث أبي هريرة ﵁.
ورواه مسلم (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر ﵄.

وقال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧-١٨]، فهذه دلالة على البعث الآخر، ثم قال جل قوله دالًّا على إثبات النبوة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩- ٢٠].

ومن آياتها النجوم والعلامات التي جعلها ﷻ؛ لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، كذلك قال جل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل:١٦].

ومن آياتها جميع طرق الحق الهادية على أي مطلوب كان؛ لأنها بدلالتها مخبرة عن هدايتها، ومنبئة عما جعلت له، ومرشدة إلى القصد الرشيد، ومبلغة ما استودعته، والعلم كله آية على النبوة وهو أصلها، قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١].

فهذا أصل النبوة من عند الله جل ذكره لعبده، وقوله: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣] هذا أصل التبليغ من الأنبياء لأممهم، فهذه آية النبوة مبثوثة في العالم لا يجهلها إلا متجاهل.

وبالجملة فالعلم ينقسم إلى معنيين: كلمة وسنة، فالكلمة: للتوحيد وما جرى إليه، والسنة: النبوة وما جرى إليها؛ لأن السنة تدل بجريان الأمر منها على سنن، سنها ذو الكلمات التامة لا يوجد لتلك السنن تبديل ولا تحويل، وتدل بذلك أيضًا على وجوب جريان الأمر، الذي ضده النهي على سنن سنة الرسول الآتي من عند الله ﷻ، ثم بعد هذا تتداخل الدلائل، وتنشأ الشواهد على التوحيد من السنة، وعلى السنة من الكلمة، وعلى هذا السبيل من الاعتبار، فالعلم كله مخلوق من دلائل النبوة كما امتلأ من دلائل التوحيد، لكن لها رؤوس ترجع إليها، كما قال رسول الله ﷺ: **«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»**(١)، وكما قال رسول الله ﷺ: **«الهدي الصالح والسمت الحسن جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة»**(٢).

فصل
وأن جميع الملائكة حق

الشهادة للملائكة عليهم السلام بما شهد الله ﷻ لهم به واجب، من أنهم هم

(١) هو الحديث السابق.

(٢) الحديث رواه أحمد (١/ ٢٩٦) وأبو داود في الأدب (٤٧٧٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الشيخ شاكر على المسند.

القائمون بأمر الله عن إذنه، عباد له طائعون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم المصطفون من عباده المكرمون عنده ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، ولا يسبقونه بالقول ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

والملائكة عليهم السلام من عالم الغيب عنا، آياتهم في عالم الشهادة وجودنا، الأخلاق الحسنة من أنفسنا والصفات المحمودة فينا، كالعلم والحلم والعقل والصبر والجلد والرضا والمحبة، والحزب الصالح كله من أخلاق الباطن، وكالحواس الخمس: السمع والبصر والذوق والشم والحس المشترك واللمس والقوة الفكرية والذكر والفهم والفطنة، فوجود هذه المعاني المذكورة ونحوها آيات مبينات عن وجود الملائكة عليهم السلام، ومن آياتها القوى الموجودة للنبات وأكثر الحيوان كالقوة الماسكة والقوة الغازية والجاذبة والدافعة والمقسمة التي تقسم الغذاء بإذن الله ﷻ، فهذه القوى تصحبها ريح قريبة القرابة من الروح الحيواني، وقد عبر بعض العلماء عن هذه القوى بأنها رياح، فقال: ريح دافعة وريح جاذبة ومقسمة.

وكذلك غير ما ذكرنا هم والملائكة ـ عليهم السلام ـ في طبقات العالم يصحبها الروح من أمر ربها ﷻ لتدبير ما يلقى إليها في مصافاتها، ومنها سماوية وأرضية، قال الله ﷻ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤]، ومثله كثير، ويتبع الشهادة بالملائكة الشهادة بالجن والشياطين، وأنهم موجودون وآياتهم كل خلق مذموم مضاد لكل خلق جميل، واسم حسن وصفة محمودة لنا إلا من أسلم وأصلح، كصفاتنا المذمومة وأخلاقنا إذا صلحت بإذن ربها، وإنما نشأت الصفات في العالم بإنشاء المنشئ الحق الكل من قوى نباتية إلى قوى جسمانية إلى خلقية، إلى الحواس، إلى صفات وأسماء.

ثم تنشأ الصفات والأسماء كما تقدم في فصل النبوة، ثم إلى ذوات ملكية أو إلى أضدادها، كنشء النطفة في درجاتها إلى أن تبلغ ما قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] أي: مجادل في الله وفي آيات الله، ويدعي النبوة والربوبية من دون الله، ويملأ الأرض جورًا وظلمًا، ويملأ ما بين السماوات والأرض كذبًا وفجرًا، ويحتبس المطر من أجله، وتقحط الأرض بسببه، ويشيع في البلاد والعباد والشجر والدواب شؤمه وضره، ويكون أيضًا منها المؤمن، فالولي والنبي والرسول ينزل عليه الملك الكريم بالوحي من عند رب العالمين، ويكلمه الله ﷻ وحيا إلى سره وربما كلمه تكليمًا، وعظمه تعظيمًا، أو يجند الجنود، ويقود الجيوش، ويمصر الأمصار، ويحكم بحكم الله ﷻ في

البلاد ويعدل في العباد، وينزل الله المطر من السماء ببركته، ويرسل الرياح نشرًا بين يدي رحمته بدعائه؛ فيحيى به الأرض بعد موتها بيمن سريرته، يسأله فيعطيه، ويدعوه فيستجيب له، وإنما كان نطفة ميتة، ومن قبل كان غيبًا مغيبًا في أعماق العالم جمد عليه جامده، وانشرح به منشرحه، وأعرب عنه معربه، وأفصح به مفصحه، من طبق إلى طبق ومن عالم إلى عالم ومن صلب إلى رحم، فمستقر ومستودع نقله في الأحوال، وقلبه في الأكوان إلى أن بلغه حد الاستواء الذي في الأزل قدره على وفق ما له أوجده في الآن.

وإن الله ﷻ لما خلق عبده آدم وصفيه صلوات الله وسلامه عليه علمه الأسماء كلها، وباهى به ملائكته الكرام المقربين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فانظر ما اختصه به وشرفه من أجله على من سواه، فاتخذه خليفة في أرضه، وقدمه إمامًا للساجدين، فأسجد له ملائكته الكرام المصطفين، أعطاه الله أحسن شيء وأشرفه وأثنى عليه، وأكرمه بمعرفته والعلم به، ألا فاعتبر بصحة فهم ونور عقل أي علم هو الذي يستحق به علمه هذا الشريف عنده، حتى يباهي به ملائكته عليهم السلام؟ أتظن أنه علم متاع الدنيا، وأسماء ما يذهب جفاء ولا يبقى؟ بل لا يثبت منه اسم على مسمى تتداوله الألقاب والاسميات، وقد قال عنه عز جلاله رسوله ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين: «**يؤم القوم أعلمهم بكتاب الله**»[(١)]؛ يعني هنا: كتابه المنزل، لا بل شرف عبده وباهى به ملائكته صلوات الله وسلامه على جميعهم بمعرفته العليا، والعلم بأسمائه الحسنى كلها.

وعلى الحقيقة فما اللوح المحفوظ إلا ما اقتضته أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه، فافهم.

فأوجدها في عبده آدم ذكرًا وعلمًا، وجعل ذلك في نبيه عزة وإرثًا خبأها فيهم خباء، وأشهدهم على ذلك شهادة جزمًا، ثم أنشأها بعد في إيجادهم نشاء أحيا ذلك فيهم بالإيمان، وشرحه على ألسنتهم بالبيان، وفصله فيهم وفيما أوجدهم منه بما أعطاهم من الهدى والفرقان، فتجد المؤمن للبذرة التي في قلبه من المعرفة يصدقها بالإيمان ويقيدها بالذكر، ويرددها بالفكر، يستن في ذلك الاعتبار، فيستفتح الأبواب، ويرتقي في الأسباب، فلا يزال بذلك كذلك، حتى تشمل فكرته أقطار الأرض وتملأ الخافقين، وتخترق السبع الطباق، وتبلغ الكرسي الكريم، وتنتهي إلى العرش العظيم، فتشاهد

---

(١) الحديث رواه مسلم في المساجد (٦٧٣) وأبو داود في الصلاة (٥٨٢) وابن ماجة في إقامة الصلاة (٩٨٠) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

الملكوت وتسرح بين حجب الجبروت، وتصل الوصل الأعلى والاختصاص الأكبر، وتنتهي إلى المنتهى، ويصعد قلبه إلى المحل الأعلى، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

واعلم أن كل ما ذكرناه من خلق وأمر وفكر ونشء وتنقيل لا تغيب عنه الملائكة، وكل ذلك تقسمه وتدبره وتلهمه بإذن ربها ومعونته لها وتأييده إياها، و﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

ولما تقدم ذكره كان ابن آدم على الحقيقة في تطلبه العلم ليس يتعلم، بل يتذكر لما هو مجعول في جبلته، مفطور عليه في أصل بنيته لأمر متقدم لازم، وحكم من الله العلي الكبير واجب، فأبعد ما يرد عليه من العلوم ما يأتي به الرسول ﷺ عن الله جل ذكره، وتعرف مراد الله ومواقع رضاه ما هو من ذلك، فإذا أخبر المؤمن الرسول بذلك سلم، وقبل: فلولا أنه أيضًا في أصل خلقته ما عرفه ولا ميزه، فآمن به؛ ولهذا يتبين أن ابن آدم ليس يتعلم الآن، بل إنما هو يتذكر.

فصل
وأن الصراط المستقيم
هو صراط الله تبارك وتعالى حق

إذ قد تمهد أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأنه الحق، وأن ما يدعى من دونه من إله فهو باطل، والحق لا يأتي إلا من عند الله الحق حسب، فالحق إذًا صراطه وهو الصراط المستقيم، إذ كل صراط خالف الحق فليس بصراط مستقيم، قال الله جل وعز: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، فهو الحق وصراطه الحق، وهو القائم القيوم وصراطه القويم المستقيم.

فصل
وأن الهدى هدى الله

إذ قد تمهد أنه الحق، وأنه محقق الحق، فالهدى الحق هدى الله الحق المبين؛ إذ الحق لا يهدي إلا إلى الحق، وآية هدايته على الحق جعله السبل في الأرض لأهلها ليسلكوا عليها، والنجوم في السماء ليهتدوا بها إلى مقاصدهم، والسبل كثيرة ولكن أهداها إلى الحق أوصلها إلى المقصد على خط مستقيم، كذلك النجوم هداية وليس يهتدي بها إلا العالم بها.

فصل
وأن حكم الله
هو الحكم الحق والعدل القسط

وإذ قد تبين بما تقدم ذكره أنه ﷻ الحق فحكمه الحق لا محالة، وكما اسمه العدل فحكمه القسط؛ ولأن له الملك كله فقضاؤه وقدره العدل؛ إذ هو لا يصادف ملكًا لسواه يظلم فيه بحكمه ولا مملوكًا لغيره، فيجور عليه بقضائه وقدره، ولا سواه ملك يقاومه بتعقب حكمه ولا فوقه آمر يأمره وينهاه، فيتصور الظلم في خلافه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦]، وأن كل شيء كان أو هو كائن خير أو شر حلو أو مر فهو خالقه وحده لا شريك له، كل بقضاء منه وقدره، كل في كتاب مبين.

قد تمهد فيما تقدم والحمد لله رب العالمين أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأنه الحق وأن ما سواه من إله فباطل، فإذًا لا فاعل على حقيقة سواه، وإذا تقرر ذلك فكل موجود سواه خلقه وصنعه؛ إذ كل شيء سواه خلق له وصنع، وإذا كان ذلك كذلك فكل فاعل في العالم كله علوه وسفله، فمسخر في فعله وميسر له بتيسير منه له وتسخيره إياه،وإذ قد ثبت أن العالم من أسمائه ﷻ والعلم من صفاته وأن الأوهام لا تبلغ كنه كمال أسمائه وتمام صفاته فكل ما أوجد ﷻ قد سبق علمه به في أزل الأزل، وإذا كان ذلك كذلك علمه بعلم محيط من كل جهة وعلى كل معنى، وهذا معنى تقديره في الأزل؛ إذ التقدير ليس هو سوى العلم بالشيء قبل وقوعه على وفق ما يكون عنه في آن كونه، ثم إيجاده على وفق ما تقدم العلم به هو التفصيل.

والتفصيل هو تمييز جمل التقدير، والتدبير هو إيقاع ما ميزه من تفصيل الجمل مواقعه، فإذا كل شيء بقضاء وقدر لا خالق سواه، فهو المحيط بكل شيء قدرة وتفصيلًا، أوقع تدبيره على ما سبق من تقديره بسابق علمه في أزل أزله، وإذا كان هو الواحد الحق في ذاته ﷻ، وتقدست أسماؤه، وفعله واحد من حيث هو فعل له خير كله عدل، كله قسط، كله حسن، كله فضل، كله كالماء ينزله من السماء واحدًا، فيختلف ما يكون عنه باختلاف الأرض في نفسها من طيبها وخبثها، كذلك أمره النازل عنه واحد، وفعله وقضاؤه خير كله، وإنما اختلف في حق المقدر لهم، وعليهم باختلاف دواعيهم وأعمالهم وآجالهم وطرقهم وأحوالهم كلها إلى خير وشر وإلى حلو ومر، ثم بالأمر والنهي في عمل العاملين إلى ظلم وجور، وعدل وقسط وطاعة وعصيان، وحسن وقبيح بالتقدير بالعلم على حكم المشيئة العالية، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾

[الأنبياء:٢٣]، والإيجاد بالتدبير على ما سبق من التقدير في اختلاف الوجود بهم وفيهم ولهم وعليهم، فافهم بلغ الله بنا وبك، وأتم نعمته علينا وعليك بمنه.

فصل
وأن السؤال حق

قال الله جل قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، يقول جل قوله للرسل: هل بلغتم؟ وماذا أجبتم؟ ويقول للمرسل إليهم: ماذا أجبتم المرسلين؟ ويسأل المنعم عليه عن نعمه التي أنعم بها عليه كلها: كيف شكره عليها، ويسأل العالم عن علمه وعمره، وماذا عمل فيما علمه؟ والمأمور والمنهي كيف ائتماره وانتهاؤه؟ ولذلك قال: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣]، قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيوقف بين يدي الله ﷻ، فيقول له: عبدي ألم أغنك؟ ألم أزوجك؟ ألم أخولك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وودعتك ترأس وتربع؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول له: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا يا رب؛ فيؤمر به إلى النار»[(1)].

والشواهد على السؤال كثيرة، وهو فيما بعد الموت آياته عهوده ومواثيقه التي أخذها على عباده، قيل: ووصاياه وأمره إياهم ونهيه في هذه الدار، وإرسال الرسل، وإنزاله الكتب؛ إذ من المعهود المتعارف المعلوم في الحكمة أن ينظر المعاهد المستوثق الموصى، والآمر الناهي، والمرسل رسوله في عواقب عهوده ومواثيقه، وما المعهود به فيما أمره به ونهى عنه، ولو لم يكن ذلك كذلك من فاعله لكان منسوبًا إلى التضييع غير راجع آخر حكمته على أولها؛ ولذلك قال جل قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب:١٥].

فصل
وأن الحساب حق

الحساب موجود في ضمن السؤال، والفرق أن السؤال يقال فيه: هل فعلت كذا؟ وكيف فعلته؟ ولم فعلته؟ ومن أردت بفعلك إياه؟ والحساب يقال فيه: هذا عن هذا السؤال على التحقيق حساب، ما لم يكن السؤال عرضًا كحديث النجوى، أو تقريرًا يراد به توبيخ الغير كقوله عز من قائل: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦]، ومن حوسب عذب لا محالة؛ إذ لا يقوم أحد لحساب الله ﷻ وله الحجة البالغة، ولا يؤدي شكر إحسانه، وإنما هي رحمته ومشيئته، الحساب منه عاجل

(1) الحديث رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٨) والبيهقي في الشعب (٢٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومنه آجل، فالحساب العاجل للحسنة نورها في القلب، وثوابها، والسيئة ظلمتها في القلب، وعقوبتها، والحساب الآجل ما أخر جزاؤه إلى دار الآخرة، والعاجل منه آية على الآجل.

فصل
وأن الملائكة الكتبة عليهم السلام حق

قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧، ١٨].

وقال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...**»[(١)]، آية ذلك في الدنيا الشهود في القضايا وأداؤها عند الحكام،ذلك أن الله جل ذكره ينزل يومئذ من عرشه إلى كرسي القضاء من غير تنقل فلا يقضي في حكومة إلا بشهود أو إقرار، ومن شهوده على عباده الحفظة الكرام، قال الله ﷻ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩].

وقال: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق:٢١]، فيقول الشهيد: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق:٢٣].

ومن العقاب يومئذ من لم يؤمن بالكرام الكاتبين، فينكر ما يجد في الكتب ويجحد ما عمله، وذلك في القرآن وحديث الرسول ثابت موجود أنهم يجحدون الرسل، وينكرون التبليغ، ويحلفون على الكذب، ويقولون: والله ربنا ما كنا مشركين وما جاءنا من رسول ولا نذير، فيكلف القاضي العدل من ادعى دعوى أن يأتي ببينته، فيأتون بالشهداء، فيشهد الملائكة بالتبليغ للرسل وتشهد لهم الأمم، وتشهد الأمم بعضها لبعض، وتشهد لهم الرسل وعليهم؛ فيجادلون ويجحدون الأنبياء والأمم، فيختم الله ﷻ عند ذلك على أفواههم، وتشهد جوارحهم حتى أن ابن آدم ليقول لجوارحه: بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت أناضل، ومن آياته الكرام الحفظة ترقيب الملك، وجعل العيون والرقباء على من يشاء من رعيته.

واعلم أيها العبد أنك لست بمسؤول عن علم الله فيك، إنما أنت مسؤول عن عملك فمثاب عليه أو معاقب أو معفو عنه، ووجود الحفظة وتحصيلهم على العباد

(١) رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥) وفي بدء الخلق(٣٢٤٣) وفي التوحيد (٧٤٢٩، ٧٤٨٦) ومسلم في المساجد (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

موجود من اسمه الرقيب تبارك وتعالى.

فصل
وأن الكتب كتب الأعمال واقعة بالأيمان والشمائل حق

قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة:١٩]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:٢٥]، وقال: ﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق:١٠]، وقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣].

الطائر - والله أعلم - هو ما طار لله من الحظ يوم القبضتين من عمل حسن أو قبيح، أو رزق أو أجل، أو شقاوة أو سعادة؛ فينشر له كتابًا يسع أيام عمره، فيملى على كاتبيه ما طار له من حظ يومئذ شيئًا بشيء على تفاصيل الأيام والليالي والساعات والأنفاس، لا يغادر من ذلك صغيرة ولا كبيرة، فإذا فرغ من إملائه حضر أجله، فمات وطوي إلى يوم بعثه، فيلقاه منشورًا يقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، هذا أصل تلك الكتب؛ إنما هو نشرتان وطية تنشر في حياتك فتملى على كاتبيك، ثم يطوى عند موتك، ثم ينشر بعد الموت، وقد ذكر الصادق الحق وأخبر به، فلابد منه لا محالة، الحق من ربك، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

فصل
وأن الصراط حق

قال الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١]، وقال رسول الله ﷺ: «**هو جسر على متن جهنم أدق من الشعرة وأحد من السيف، وهو دحض مزلة على جنبتيه خطاطيف وكلاليب من نار، يخطف الناس بأعمالهم وحسك مثل حسك السعدان**»، وذكر تفاوتًا في الجواز، فقال: «**منهم: طائفة كالطرف وطائفة كالبرق، وطائفة كالطير وكأجاويد الخيل والركاب، وطائفة كشد الرجال، ومنهم: الساعي والماشي، ومنهم: من يحبو عليه حبوًا**»(١).

آية الصراط في الدنيا الحال الموجود بين الزمنين: الماضي والمستقبل، فمتى رام المتحقق في تحقيق الزمان الماضي والمستقبل، وتخليص الحال بينهما؛ عسر ذلك عليه جدًا لا يكاد يدركه إلا وهمًا، وهو معنى الدنيا وحقيقتها وما بين ذلك وما خلفه، ليس من الدنيا وما ليس من الدنيا فهو من الآخرة، فمثال جواز العبد على الصراط في الآخرة

(١) الحديث رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٩) ومسلم في الإيمان (١٨٣) وأحمد (٣/ ١٦، ١٧) وابن جرير في تفسيره (٢٣٨٨٣، ٢٣٨٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قطعه أيام حياته في الدنيا من أول عمره إلى آخره، فمثال جواز العبد على الصراط، ألا تراه أنه إنما جاء من عند ربه، وهو في سيره ذلك إلى ربه يرجع وهو مصيره، وعلى جنبي حد الصراط لازمًا به في عمره أعداؤه من الجن والإنس، ومصائب تطرأ عليه وأكداد وأحزان وغموم وهموم، وغير ذلك مما لا يكاد يخلو غالبًا من فقد المحبوبات وفوت المطلوبات، وقد عبر عن ذلك الفصحاء والبلغاء بغير ما عبارة، فهذا مثال في الوجود لما هنالك من خطاطيف وكلاليب وحسك، ومثال في الوجود الشرعي كون المكلف سالكًا بين الوعد والوعيد، وبين الشرك والإخلاص، وبين الطاعة والمعصية، والرضا والسخط، والأمر والنهي، فإنك إذا أردت أيضًا أن تحقق الزوجين من صاحبه خلصت في صراط بينهما أحد من السيف وأرق من الشعرة، قال رسول الله ﷺ: **«الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا»**[1].

وقال أيضا ﷺ: **«الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات تخفى على كثير من الناس»** وهذا يؤول عند تحصيل التحقيق فيه أيضًا إلى ما تقدم ذكره من الخفاء؛ ولذلك قال: **«ومن رتع حول الحمى يوشك أن يواقعه»**[2].

وإنما حذر من ذلك؛ لدقته ورقته عند البداية في استقصاء معرفة حد كل واحد منهما من صاحبه، وهذا هو معنى الصراط في الدنيا، والذين يتركون ما أشبه عليهم في هذا الصراط العاجل؛ هم الذين يتوسع لهم الصراط في الآجل.

وبالجملة في اعتبار الوجودين، قال الله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، فمعرفة كل واحد من الزوجين يؤول إلى ما تقدم ذكره أيضًا، وذلك آية على الصراط في الآجل، وفي الآخرة أيضًا صراط آخر، وهي قنطرة بين الجنة والنار، قال رسول الله ﷺ: **«إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا»**[3].

الصراط الأكبر منصوب لجملة العباد، حاشى الثلاثة الأصناف من أهل الكفر

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٥٣) والحاكم (٢/ ٢٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها وقال الذهبي في التلخيص عبد الأعلى بن أعين قال الدارقطني ليس بثقة.

(٢) الحديث رواه البخاري في الإيمان (٥٢) وفي البيوع (٢٠٥١) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) الحديث رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٠) وفي الرقاق (٦٥٣٥) وأحمد (٣/ ٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الذين اقتطعتهم عنق النار في عرصة المحشر، أولئك يدخلون النار دون سؤال ولا صراط، وهم المعنيون بقوله جل قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص:٧٨]، وإلى هذا ثلاث طوائف في مقابلة أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ثم الموازين لمن بقي من أهل المحشر، ثم تتبع كل أمة ما كانت تعبد فيكون ذلك فيقعون في النار حتى لا يبقى إلا المؤمنون، ثم بعد ذلك الصراط مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم، فإذا خلص من خلص من هذا الصراط، ولا يخلص من هذا الصراط ولا يخلص منه إلا المؤمنون، الذين علم الله ﷻ عنهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم، حبسوا على صراط خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله تعالى إنما هي الحسنات والسيئات، قال رسول الله ﷺ: «**فإذا خلصوا وهذبوا أدخلوا الجنة** »[1].

وهذا الصراط منصوب لأهل العدل الثالث، والصراط الأكبر منصوب لأهل العدل الثاني، وأما أهل العدل الأول: فهم الذين اقتطعتهم عنق النار في المحشر، والذين دخلوها قبل جواز الصراط، ومثاله في الوجود توبة الاستواء عند الأربعين، وأن نزول قوة المعراج على المرء؛ وهي التوبة الثانية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه الحق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف:١٥] المعنى: فمن خلص من الفتنة الأولى قوي الرجاء في التخلص من الصراط الأول وهلك من هلك قبل ذلك ومن خلص من فتنة الاستواء خلص من الصراط الثاني ودخل الجنة بسلام، إن شاء الله ﷻ.

ومثال ما على جنبتي الصراط على اعتبار الوجود الشرعي ما تحتوش المؤمن زائدًا على ما تقدم ذكره في الاعتبار بالوجود الدنيوي نفس أمارة بالسوء بين جنبتيه، وشهوة وهوى وخلق لا يرضاه، وأهل وولد يجذبونه إلى هلكته، ويثبطونه ويبطئون به، وخطايا لا يعرى عنها تأخذ من دينه ما أخذت، وتترك ما تركت، وكل ما وجب عليه المجاهدة والمثابرة والمرابطة من أجله فهو مثال لخطاطيف النار وكلاليبها وحسك ما هنالك.

فالثبات على التوبة النصوح هو مثال الثبات على الصراط، وتيسير أعمال الطاعات فيها مثال الإسراع عليه، وخفة الظهر من الأوزار أعظم العون وروح الإيمان والعلم يعليه، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة:١١].

فاعلم ـ رحمك الله ـ أنك في الدنيا ماش على الصراط وقد اكتنفتك أهواله ومحنه، فسابق أو مسبوق وناج أو مخردل أو مكدوش في نار العظائم والكبائر، فأيقن بذلك

(١) هو الحديث السابق.

وانظر لنفسك، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مَن لَيسَ يَسعى في الخَلاصِ لِنَفسِهِ كانَت سِعايَتُهُ عَلَيها لا لَها
إِنَّ الذُنوبَ بِتَوبَةٍ تُمحى كَما يَمحو سُجودُ السَهوِ غَفلَةَ مَن سَها

فصل
وان الشفاعة حق

قال رسول الله ﷺ: «خيرت بين أن تكونوا نصف أهل الجنة أو الشفاعة فاخترت الشفاعة»[(١)]، ويقول الله ﷻ: «شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيخرج منها من قال: لا إله إلا الله، وهم عتقاء الله من النار في رقابهم الخواتم بغير عمل عملوه ولا قدم قدموه»[(٢)].

آيات الشفاعة في عاجل الدنيا كثيرة جدًا والحمد لله رب العالمين منها: الأعداد، ثانيها: شافع لواحدها إلى وترهما، لولاه لم يكن لواحدها دخول إلى وصول إلى الوتر بينهما، فسمي بذلك شفعًا، وهذا من آيات النبوة ودلالاتها من حيث المكلف لم يكن له وصول إلى ربه إلا بالرسول الموصل له إليه، ومن أجل تلك الوسيلة التي وسلها بين المكلف وبين ربه، أعطى الشفاعة فيه، إرضاء من الله ﷻ لرسوله لما تصح له في عبيده، ثم كذلك رابع العدد وثالثه وخامسه أبدى شفع ووتر، فكل ما خلق الله جل ذكره شفع ووتر كان المفروض الأول، منها محتاج إلى بلوغ درجة لا يبلغها إلا بمتمم، فيأتي ثانيه فيشفع له إلى مالك الزيادة، فيبلغه مراده بتشفيعه إياه في مشفوعة وإشفاعه إياه في حاجته، وكل متوسط في أمر ما فشافع، قال رسول الله ﷺ وقد سئل حاجة: «اشفعوا فلتؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء»[(٣)].

وبالجملة فالعالم كله مفتقر بعضه إلى بعض علوه وسفله، أوله وآخره، معين بعضه بعضًا، وما في الملك والملكوت ذرة فما فوقها إلا وعليها ملك يسبح الله ويحمده ويشفع، لما جعل إنفاذه بإذن له ﷻ، قد امتلأ العالم كله من شافع ومستشفع ومشفع، تدبير محكم وأمر جميع جزم، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:٣٩].

فهذه الشفاعة في العاجل شائعة ذائعة، لا يقوم القائم ولا يتنفس ولا يتحرك ولا

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤١) وابن ماجة في الزهد (٤٣١٧) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه وصححه الألباني في هذه السنن.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) الحديث رواه البخاري في الزكاة (١٤٣٢) وفي الأدب (٦٠٢٧، ٦٠٢٨) وفي التوحيد (٧٤٧٦) ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

يسكن إلا فيها، وقد أخبر الله جل ذكره ورسوله ﷺ أنها في الآجلة كائنة، فهي كائنة لابد ولا محالة كأخذ باليد ورأى بالعين، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فصل
وأن الميزان حق

قال الله جل قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف:٨]، وقال ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧].

آية الوزن الآجل ومثاله في هذه العاجلة كثير جدًا، قد بينه الله ﷻ تبيانًا يقطع شبهة المعاندين، وينبه ألباب المعتبرين منها العدد، واحده وزان واحده، وعشرته وزان عشرته، وكل عدد منه وزان لمثله كذلك أوزان المعاني كل معنى وزان لمثله فدونك سبل الاستقراء معنى معنى وذلك موجود في المعلومات كلها على اتساع مقتضى العلم؛ فما من حادثة إلا لها ميزان قال الله جل قوله: ﴿كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وأظهر تبارك وتعالى في هذه الدار العاجلة من الموازين مثالات ظاهرة عبارة عما هناك، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] فجعل الله ﷻ بينهم حكمًا عدلًا وقاضيًا فصلًا، وفوض كل إليه، ولم تجد في صدره حرجًا من الحكمة له أو عليه، وكذلك في الآخرة يظهر للعيون والأبصار ميزانًا، كما وصفه عنه الصادق المصدوق عليه السلام كفتان كل كفة منها طباق السماوات والأرض، وآية صدقه ظاهرة في جملة العالم، وهي أن العقول ما وجدت في السماوات ولا في الأرض ذرة فما دونها ولا فوقها إلا موزونة بميزانها، تعالى الله سبحانه عن الإهمال والمجازفة؛ إنما يجازف القاصر للعلم والحكمة والقدرة، وأما هو ﷻ فكل مزموم بزمامه موزون بقسطه، فاعلم ذلك يقينًا، فإنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤].

ثم يرجع بنا الكلام إلى نسقه، قال رسول الله ﷺ: «فتوضع الحسنات في إحداهما والسيئات في أخرى»[(١)].

---

(١) لم أجده بلفظه وإنما رواه البيهقي في الاعتقاد (ص٢٢٧، ٢٢٨) بلفظ: «الإيمان بالميزان» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ولفظ المصنف جاء شرحًا لحديث ابن عمر السابق في البيهقي في الاعتقاد ص(٢٣٣) والغزالي في الإحياء (ص١٢٤).

وقد جاء أن كفة الحسنات من نور، والأخرى من ظلام، فإن كان قال رسول الله ﷺ فهو الحق، ويجب المصير إليه؛ فالنظر يعضده والوجود يحققه، وهو القادر جل وعز على أن يجعل في أنفس الموزون لهم وعليهم من تعديل ذلك الميزان والرجوع إليه أضعاف ما جعل في القلوب في العاجلة من الرضا بهذا الميزان والتعديل له، وكذلك الكيل الموضوع ههنا في العاجلة هو من الوزن، فأعلمه ما عسر معرفته بالوزن وضع عليه الكيل، وقنعت به العقول، ورضيت به وعدلته كالموازين سواء.

وكما في الدنيا موزونات تتفاضل فلا تسمح النفوس بأن تأخذ منها وزنًا بوزن مفضولة، كالذهب مثلًا مع الفضة والنحاس، وغير ذلك من الجواهر المعدنية، وكذلك اللؤلؤ والياقوت في التفاضل أيضًا، كذلك الحسنات مع السيئات، منها كبائر ومنها صغائر، لا تبلغ آحادها الإيجاب، لكنها مع اجتماعها تبلغ، فاعتبر ذلك بصرف الذهب بالفضة، والذهب والفضة مع النحاس والحديد وغير ذلك من الجواهر، ثم اقض بمثل ذلك في نقاص الحسنات بالحسنات، والسيئات بالسيئات، والحسنات أيضًا بالسيئات هكذا العرف فيها.

ثم اعتبر الحسنات والسيئات أيضًا بالضر والنفع في قبيل الإيمان وظلم العباد وفساد الألفة وعلى الضد من ذلك فقد يسد الحديد مسدًا لا يسده الذهب ولا اللؤلؤ والياقوت النفيس، فهكذا فاعتبر الوزن والموازنة الحسنات بعضها ببعض، والسيئات بها موافقة حكمة ربك ﷻ، ويحتاج صاحب هذا النظر إلى تبحر في العلم والفقه، وعقل صحيح غالب على هواه.

وبالجملة فالموازنات فيها هنالك إنما هي إلى الله ﷻ يزن لمن يشاء، ويجعل في العقول تعديل ذلك الحكم والرضا به، كما فعل في الدنيا في موازينها ومكاييلها، وذلك بأن يخلق للحسنات والسيئات ظاهرًا عدلًا ترضى به العقول فتزكيه وتحتكم إليه وتقنع به وبما يكون منه لها، وعليها حكم حق ووزن قسط، ولذلك لما خلق الله تبارك وتعالى الميزان قالت الملائكة: ربنا، ما هذا؟ قال: هو الميزان، قالت: ربنا، لمن تزن به؟ قال: لمن شئت، قالت الملائكة: سبحانك ربنا وبحمدك ما عبدناك حق عبادتك.

وإذا كانت الدنيا ليس إلا ظاهر وباطن والموازين منها ظاهر ومنها باطن؛ فالظاهر منها يوزن بميزان ظاهر يعدله ميزان باطن، هو الميز من صفات العقل، والباطن تزنه العقول باطنًا، وتعبر عنه الألسن بعبارات متوازنة المخارج والمعاني، فليس إذا في الدنيا غير الوزن وتوابعه ومعانيه، وفي مثل هذا قال القائل:

مَلِك تَقُومُ الحَادِثَات لِعَدْلِه فَلِكُل حَادَثَةٍ لَهَا مِيـزَانُ
تَتَصرفُ الأَشْياءُ فِي مَلَكوتِه وَلِكُل شَيْءٍ مُدة وَأَوانُ

ليت شعري كذب المكذب بما هو لا يخلو عنه ظاهرًا ولا باطنًا، وإنما صفات العالم صفات حق أوجدها الحق ﷻ بالحق ليحق بذلك الحق ويبطل الباطل، قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢]، وقال وقوله الحق: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٩].

فأخبرك نصا أنه خلق ما خلق وللحق قد أحاط بالعالم كله ظاهرًا وباطنًا جملة وتفصيلًا، وجعل هذه الصفات الحق آيات مبينات عن صفات حق أجله، جعل هذه الأعلام العاجلة تنتهي إلى تلك الآجلة، ثم أكد صنعه الحق تحقيقًا بأن أخبر عنها بقوله الحق؛ ليبتلي العقول بذلك ويختبرها هل تصدقه في قوله الحق، أو تكذبه؟ فينزل كلا بحكمه الحق حيث أنزل نفسه، كيف لا وإنما هو عالم واحد أوجده موجود واحد جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه، فشاكل بذلك بين أوصافه وشأنه به، من أجل ذلك بين أطرافه بأن أجرى حكمته ذلك بين خلاله، وأثناء جريان الروح والنفس في أجسامه، وأعراضه شهادة غيب بغيب وظاهر بباطن، أقام البواطن للعقول أعلامًا، ثم أنزل إليها بذلك الكتب، وخاطبها بها على ألسنة رسله إعلامًا، بعدما أظهر مما أبطنه وأشهد مما غيبه تبيانًا فالكافر من كفر بهذا الحق وجادل بباطنه في آياته، وكذب بتلك العلامات، وكابر عقله إلى جحد البينات، لم يصدق الصادق الحق ﷻ في قيله الحق، وعند عن الاتباع، وشرد عن الاقتداء، وبدل نعمة الله كفرًا فأحل نفسه دار البوار اللهم غفرًا بل الكافر محمول إلى ما أعد له، والعامل مسوق إلى ما وعد به ميسر لما يسر له، والله ﷻ القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، والله يصير الأمر.

وكذلك كل ما أنبتته الأرض أو حملته في بطنها من مختلف أو متفق في روائحه أو طعومه ولمسه، ونفعه وضره، وخيره وشره، بأوزان مقسطة وحظوظ معدلة، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩]، فدونك ما سطره الطبائعيون في أوزانهم، واستقروه في موجودهم، ثم أثبتوه في أوضاعهم؛ حيث قالوا: كذا حار في الدرجة الأولى، يابس في الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وكذا في البرودة والرطوبة قسموها على أربع درجات، جعلوا معيارها جسم الإنسان، وأعلاها وأدناه الأصول

الأربعة، واستمروا على ذلك موجودهم في استقراء الموجودات واستمرت الأجسام، تصديقًا لذلك تلك الأوزان والموزونات فيها وعندها وفي امتزاجها وانفرادها، قبلتها على تلك الصفات الباطنة أيضًا بأوزانها؛ إذ كل شيء عند المقسط الحق بمقدار.

كذلك في الجزاء، كذلك في الأعمال له، كذلك في الحق، كذلك في الأمر، كذلك في التدبير، كذلك في إنزاله الماء والنشء وتقسيم الغذاء على جميع العالم ظاهرًا وباطنًا، كل شيء له قسطه ووزنه، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١].

كذلك في سماع الكلام ترضى الكلمة، وتسخط الأخرى فيتزن موجوداتها، وتحل الكلمة وتعقد الأخرى، فيتزن المعنى بين ذلك، هكذا كل شيء عنده بمقدار، هذا الوزن في العاجلة فكيف به في الآجلة على عظم تلك الدار وكبر خطرها، وقد قاله الصادق الحق ﷻ وتوعد عليه، ووعد أنه إذًا لكائن في الآجلة، وهي أكبر درجات وأكبر تفضيلًا إن هذا لهو الحق المبين: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور:١١].

فصل:
وأن الحوض حق

قال رسول الله ﷺ: «حوضي ما بين أيلة وعدن، وكما بين مكة وبصرى، وكما بين مكة وهجر، وكما بين الكوفة والحجر الأسود، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل»[(١)].

هكذا جاءت الروايات بهذه الصفات، وأرى - والله أعلم - أنه أشد بياضًا من اللبن أو المحض، وأبرد من الثلج وأحلى من العسل، وألذ في الذوق والطعم من اللبن الممزوج بالعسل، وهكذا وجوده هنالك لا ريب فيه، والله ورسوله أعلم.

موضع ذكر الحوض في القرآن سورة الكوثر، وهو نهر في الجنة أعطيه ﷺ خير كثير، والحوض الموجود في عرصة القيامة يمده ميزابان من الكوثر الذي هو في الجنة، وله في القرآن غير هذه جاءت عن طريق التعريض والإشارة إليه للابتلاء، والله أعلم.

قال رسول الله ﷺ: «يغت فيه ميزابان من الجنة»[(٢)]، وفي أخرى: «من الكوثر، آنيته عدد نجوم السماء، لا يظمأ من شرب منه»[(٣)]، ويذاد عنه من بدل وغير الحديث، وفي

---

(١)رواه مسلم في الإيمان (٢٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه ولفظة: «كما بين الكوفة والحجر الأسود» رواها الترمذي (٢٤٤٥).

(٢)الحديث رواه مسلم في الفضائل (٢٣٠١) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٤) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٣)رواه مسلم في الفضائل (٢٣٠٠) والترمذي (٢٤٤٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

أخرى: «ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع عليه قدح»[(١)] وفي أخرى قال ابن عباس رضي الله عنهما: سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي رب العالمين جل ذكره هل فيه ماء؟ قال: «إي والذي نفسي بيده، إن فيه لماء، وإن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبعث الله سبعين ألف ملك بأيديهم عصي من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء»[(٢)].

وآيته في الدنيا هو ما جاء به من عند الله جل ذكره من الهدى والبينات، وذلك مجموع في القرآن والسنة، غير ذلك عن قول رسول الله ﷺ: «يغت فيه ميزابان من الجنة، أحدهما: ذهب، والآخر: ورق»[(٣)] فميزاب الذهب في التأويل: القرآن وميزاب الفضة: السنة، النازلان من عند الله عز وجل، ونزولهما في الحوض نزول القرآن والسنة، واستقراؤهما في الحكمة، والإيمان الذي ملئ منه صدره ﷺ يوم شرح له، فمن تبعه واستن بسنته وعمل بكتاب ربه عز وجل وختم له بذلك، فقد هدي إلى الصراط المستقيم، وفاز ولن يضل بعدها أبدًا.

وكذلك تأويل آيته التي هي عدد نجوم السماء العلماء، فقد علمت - رحمك الله - من هذا أن الحوض في العاجلة حاضر معك، غير ممنوع منك ولا محجوب عنك فدونك، فاشرب عللًا بعد نهل، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، وامتن علينا بفضله بالإيمان واتباع النبي محمد ﷺ، وأنعم على جماعة المؤمنين أمة محمد ﷺ بالعصمة من الزلل في القول والعمل، وبوجه آخر من العبرة الفضة الماء واللبن والذهب والعسل والخمر.

والمقصود بما هو الحوض الماء، لكنه حقيقته؛ إذ الجنة بما هي حوت الأنهار الأربعة أنهار الماء وأنهار اللبن وأنهار الخمر وأنهار العسل، وقد أنبأ صلوات الله وسلامه عليه أنه يغت فيه ميزابان من الجنة، فلا بد أن يشبه النازل من الجنة، ألا ترى أن الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه ينزل الماء من السماء؛ لأن فيها الجنة حكمًا لا عينًا؟ فصله لأجل ذلك فيما أوجده عنه شائعًا في الوجود الماء والعسل واللبن والخمر.

ومن الأنبياء صلوات الله على جميعهم من يكون حوضه اللبن، لكن يجمع له في ذلك وجود الأربعة منهم صالح عليه السلام آية ذلك ناقته، ومنهم من يكون حوضه اللبن والماء، لكن يجمع له في ذلك، أعني: الماء واللبن والعسل والخمر، وهو موسى صلوات الله

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣، ١٤) والطبراني في الكبير (١٩/ ٢١١-٢١٤) رقم (٤٧٧) من حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه وسنده صحيح.

(٢) رواه ابن مردويه في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦) وقال: غريب.

(٣) سبق تخريجه قريبا.

وسلامه عليه آية ذلك الحجر الذي انفجر له على اثنتي عشرة عينًا، وما كان ينزل الله عليه وعلى قومه منا من الجنة ما كان عينًا، فهو ينفصل إلى جميع وجودها أو جله، فافهم.

ولما كان من آيات رسول الله ﷺ أن جعل الله جل ذكره الماء ينبع من بين أصابعه، جعل حوضه ماء في ظاهره وجمع له الأربعة، ألا تسمع إلى عبارته عنه بقوله الصادق: «ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل».

وفي أخرى: «أشد بياضًا من المحض».

وفي أخرى: «أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وألذ في الذوق والطعم من اللبن الممزوج بالعسل» (١).

ولما كان أيضًا من أعظم آياته القرآن، وما آتاه الله من الوحي الكريم قسمه على معنى الذهب والفضة؛ تنبيهًا على ما هو القرآن وسنته فمن كرع فيها كرع فيما هنالك إن شاء الله تعالى بعدها أبدًا، فمن تبعه واستن بسنته، وعمل بكتاب ربه ﷻ وختم له بذلك، فقد هدي إلى الصراط المستقيم وفاز، ولن يضل بعدها أبدًا، وكذلك آنيته التي هي عدد نجوم السماء العلماء، فقد علمت ـ رحمك الله ـ من هذا أن الحوض في العاجلة حاضر معك، غير ممنوع منك ولا محجوب عنك، فدونه فاشرب عللًا بعد نهل، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، وامتن علينا بالإيمان في اتباع النبي عليه السلام، وأنعم على جماعة المؤمنين أمة محمد ﷺ بالعصمة من الزلل في القول والعمل.

فصل
وأن الجنة والنار حق

إن سمت بك همتك وفقك الله إلى استقراء آيات الجنة والنار في هذه العاجلة، فتطلب ذلك في الوجود من العالم والشرع، أما الوحي فلا يخفى عليك، إن شاء الله ذكر الجنة والنار فيه أغنى اشتهار ذلك، وكثرته عن إعادة الكلام فيه من هذه الجهة، إلا لما لابد منه" قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

فسمى المأكول من ذلك نارًا يعبر بذلك عن تحقيق الجزاء عليه وإحاطته به، كأنه قد كان ووقع، وقوله هو الحق فإن لكل حق حقيقة.

وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩] أي: أن أعمالهم في حال كفرهم وما أوجده من آيات جهنم وحقيقة غيبها، وقد أحاط بهم، قال رسول الله

---

(١) سبق تخريجه.

ﷺ: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»[1].

وقال أيضا: «عائد المريض في خرفة الجنة»[2]، وقال: «وإذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها»[3] يريد مجالس الذكر والعلم وكثير جاء مثل هذا.

وإنما العالم فجملة الكلام فيه من هذه الجهة أن الدنيا نبذة من الآخرة، وعرض عارض عنها خالقها جل ذكره من ممزوجها وسرائها وضرائها، كالمتقدم من الصفات الحق في معاني الشهادات المشار إليها بالبيان قبل، فامتزجت لذلك معانيها وتشابهت فنونها وتشاكلت أوصافها بشكل مشكل من صفاتها وأسمائها، قال رسول الله ﷺ: «إن النار اشتكت إلى ربها، فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا، فائذن لي أن أتنفس؛ فأذن لها في كل عام بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر فمن جهنم، وأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير»[4]، فالحر والبرد أصلان عن ذينك النفسين كما قال رسول الله ﷺ، ولما كان ذلك عن جهنم أعاذنا الله منها، لم يكن لشيء عليه صبر الانفراد، لولا رحمة الله ﷻ بإنزال الماء من السماء، فكسر به من حر السعير، والآن من بينهما وحدة الزمهرير، وتلك في العاجلة آية على المعنى بقول رسول الله ﷺ في الآجل: «لا تزال جهنم يجعل فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الرحمن فيها قدمه»[5].

فانقسمت هذه العاجلة على معنى الجنة والنار، وانقسمت الجنة في العاجلة أيضًا إلى قسمين، كما انقسمت إلى ذلك جهنم، فأنبتت على ذلك أصول العاجلة، وأعربت عن ذلك فصولها، وتنوعت عليه بها أزمانها، فتوزعت من أجل ذلك تلك المعاني أيامها وشهورها، وقام الأمر بالتدبير المحكم على ساق مصيف وشتاء وربيع وخريف، فسبحان الذي كرمه بالقرآن والنبأ العظيم، ومنحه جوامع الكلم، وهداه إلى الصراط المستقيم، فما تقلب متقلب، ولا سكن ساكن، ولا تنفس متنفس إلا بين الجنة والنار، وفي

---

(١)رواه البخاري في الأشربة (٥٦٣٤) ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢)رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٨) والترمذي في الجنائز (٩٦٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٣)رواه أحمد (٣/ ١٥٠) والترمذي في الدعوات (٣٥١٠) من حديث أنس رضي الله عنه وحسنه الألباني في سنن الترمذي.

(٤)سبق تخريجه.

(٥)رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦١) وفي التوحيد (٧٣٨٤) ومسلم في الجنة (٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

معنى من معانيها لكن بالمزج لا بالانفراد، وبالقلة لا بالكثرة؛ فنعمتها آية على نعيم ما هنالك، وشقاؤها آية على شقاء ما هنالك، قليل بقليل، وكثير بكثير.

وكذلك انقسمت الأعمال فيها على مقتضى الوعد والوعيد، فانقسمت لذلك الأعمال إلى سيئة وحسنة؛ لانقسامها إلى طاعة وعصيان لانقسام الآخرة إلى جنة وإلى نار، فالدنيا نتيجة الآخرة وقطعة منها، وعرض عرض عنها، منها بدأت وإليها تعود، وأما الآخرة فإن الله ﷻ خلص فيها الخير كله فجعله بحذافيره في الجنة، وخلص الشر كله فجعله بحذافيره في النار.

فاسم جهنم أعاذنا الله الكريم برحمته منها كلمة معبرة عن جميع معانيها، وهو اسمها الأكبر وغيره من أسمائها معبر عن صفات فيها موجودة، ولفظة جهنم مأخوذة من الجهامة، ظهر ذلك في قوله ﷻ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقول مالك عليه السلام لهم: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

قيل: بعدما طال نداؤهم إياه ثمانين عامًا، قال الأعمش رحمه الله: أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابته إياهم ألف عام، وفي قول الخزنة لهم: ﴿فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠].

وفي المعنى المعبر عنه بقوله ﷻ: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤].

وكل كلام يكلم به أهل النار أعاذنا الله من ذلك وكل فعل يفعل بهم أو حادثة تحدث لهم فيها، فهو معبر عن معنى الجهامة وما يضاد الاستجابة، وبالجملة فجهنم أعاذنا الله منها خلقت من صفة غضب الجبار جل جلاله فالإجابة والرحمة منها بعيد جدًا، فهذا هو معنى الجهامة، والنون في كلمة جهنم قد انشرح معناها في النار حيث كانت، والهاء والميم واللتان فيها عبرنا عن الزمهرير، وقد انشرح ذلك واتسع في صفات البرد في الدارين.

ولجهنم أعاذنا الله برحمته منها أيام وليال وشهور وسنون، والمقصود منها والمراد بكل حادث فيها تجديد العقاب وتأكيد النكال قال الله جل قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٤] و﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] يعني: من أيام جهنم اليوم هو السنة تحقق ذلك قوله في صفة حال أهلها: ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٣-٢٥].

ولم يقل أحد في الحقب إنه أقل من ثمانين سنة، وإنما قيل له: حقب؛ لأن الفلك احتقب

ذلك الفصل بما فيه والحقيبة في كلام العرب ما يجعل مؤخر الرحل، والحقب: من أسماء أيام الآخرة، فإذا كان اليوم الذي هو السنة ألف سنة، مما بعد في هذه العاجلة فنصفه: خمسمائة سنة، والفصل منه: مائتان وخمسون سنة، شهر ذلك الحول: ألف شهر وهو ثلاث وثمانون سنة وثلث، وهو الحقب الذي تقدم ذكره، احتقبه فلك ذلك اليوم بما فيه فقوله جل قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ:٢٤] هي ستة أحقاب أو نحوها، التي هي شهور تلك الدار، وهو زمن مصيفها لا يشربون فيها إلا حميمًا، شبه به في الدنيا النحاس المذاب منه بعض أنهارها، وبه يمطرون في تلك الدار، وهي العين الآنية أيضًا، أي: الحامية طول مصيفهم، بل هي بحار رحمته.

وذكر العين هنا اسم للجنس، ثم تدور عليهم دائرة الزمهرير أعاذنا الله الكريم برحمته منها دون واسطة، وهو أشد العذاب، قال الله جل قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن:٤٣] فهذه مدة الزمهرير، كنى عنه باسم جهنم، يدل على ذلك قوله الحق: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ [الرحمن:٤٤] يعني: حال الزمهرير وبين حميم آن، فهذه حال السعير؛ فيضاعف عليهم العذاب بالزمهرير، طعامهم فيه الزمهرير، ولباسهم منه لهم من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل لا يكنهم منه كن.

كذلك في الفصلين، وتهب في الفصلين الريح العقيم من جميع نواحي تلك الدار، قيل لها: العقيم؛ لأنها تعقمت من الرحمة، وهي من جنس ريح عاد التي أهلكهم منها المقدار الذي خرج من مثل منخر الثور، وقيل من مثل حلقة الخاتم، فبهذه الريح تسعر النار فيها، والزمهرير أيضًا يخرجها ربها ﷻ يومئذ بجملتها إلى جهنم، فيحطم بعضها بعضًا، وتدخل في بعض تمزق لحومها وتقطع جلودها، هكذا حتى إذا فرغت أحقاب الزمهرير، وانتهى فصله دارت عليهم دائرة السعير، فذلك شتاؤهم وهذا صيفهم أبد الآبدين ودهر الداهرين، قال الله ﷻ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]، ويمطرون ولكن الحميم، قال الله ﷻ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩-٢٠] ويصعقون، وقال الله ﷻ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرحمن:٣٥]، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات:٣٢].

ولهم طعام ولكن من الضريع والزقوم، وكل طعام خبيث ضائر يتحول بتحول دوائره السعير والزمهرير إلى ما هو في وقته، وشرابهم في زمان الزمهرير الغسلين والصديد، وما لا يكاد الشقي يسيغه؛ وإنما يقدر على أن يسيغه ليذوق به نوعًا من

العذاب، أشد من معالجته في تجرعه إياه، ويأتيه الموت من كل مكان من جسده ومن داخله ومن كل مكان في جهنم، أي: إنه يذوق الموت وأنواع العذاب من كل ما دنا منه من جهنم أو بعد وما هو بميت، فهذه حالة من الزمهرير، ثم قال: ومن ورائه عذاب غليظ، يريد عذاب السعير.

شبهة

ولما كان نزول القرآن وحلول النذارة بموضع من الأرض الغالب على ذلك القطر هو الحر؛ كان الغالب الإنذار هنالك التهدد بالنار والسعير وتوابع ذلك؛ لأنهم أعقل لذلك الخطاب وأفهم؛ لكثرة تعذيبهم بالحر، ومقاساتهم حر سمومها، وإنما يدافعون ذلك بالبرد والتبرد والاسترواح وإراقة المياه، حتى ظهر ذلك في أدعيتهم وأمانيهم، فقالوا: أقر الله عينك وبرد ضريحك، وأثلج ببرد اليقين صدرك، وسقى معهدك ماء الغوادي، وسحاب المزن، ونحو هذا.

وجاء في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل مكررًا: قذفوا بهذا العبد السوء في الظلمات السفلى، حيث يطول العويل وقلقلة الأضراس، وهذه عبارة عن المبرود، وإنما ذلك لأجل أن أهل القطر الذين بعث إليهم فيه عيسى صلوات الله وسلامه عليه الغالب عليه البرد لتعذبهم في الدنيا بالبرد في قطرهم ذلك، وكانوا يدافعونه بالحر، ويستجيرون به من إذابته بضد حال أهل القطر المنزل فيه القرآن، وكان التبليغ على هذا التقسيم لحكمة بالغة في ذلك ولتكون ذلك أهيب في نفوسهم، وأوجع لسوط الخوف في قلوبهم، وأجلب لفرقهم وجزعهم، وأشد تحريكًا لبواطنهم إلى الهرب والوعيد الوارد عليهم، وهنا يتبين فضل رحمته؛ لإبلاغه في النذارة جل ذكره، فإن جهنم خلقها جل وعز من سوط رحمته؛ ليسوق عباده الهرب منها إلى جنته، وربما كان في علم الله جل وعز أن يسكن الكفار الساكنين في قطر الحر من الأرض القطر الغالب عليه الحر من جهنم، ويسكن كفار أهل قطر البرد القطر الغالب عليه البرد منها؛ لتصدق كتبه ورسله، وليصل لهم عذاب الدنيا بعذاب الآخرة، وليؤتوا به متشابها: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠].

واسم الجنة كلمة دلت بذاتها على حقيقة ما هي عليه، وهو المعنى المستجن فيها المخامر لها، الشامل لأدناها وأقصاها من اسم المزيد، أقام ﷻ هذا المعنى المشار إليه فيها مقام الأمر من الخلق والملكوت، من الملك والغيب من الشهادة زائدًا على عظم قدر ذلك الأمر والملكوت والغيب هنالك، فاسم الجنة معبر عن حقيقة ذلك والله أعلم، وقد تكون ذلك لكونها مستجنة الآن، قال الله ﷻ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

كعرض ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد:٢١]، وقال جل قوله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقوله عز من قائل: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم:٦١] أي: هي غيب عنا اليوم وبعد الموت يظهرها الله، ثم في اليوم الآخر أظهر فهي الآن مستجنة، فإذا كان يوم الآخرة سعت حقيقتها التي هي عليون في السماوات والأرض، وكان ذلك كله جنانًا.

وكذلك تسعى حقيقة جهنم التي هي أسفل السافلين يوم الآخرة في الأرضين، فكانت كلها دركات نيران، نسأل الله معافاته ومغفرته، قال الله جل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١] آية ذلك في الدنيا، أي: الجنة، الماء ينزله رب العزة جل ذكره من السماء بعد إرساله الرياح اللواقح في الجو، فيلقحه وينشئ لذلك السحاب، فينزله إلى الأرض فيخرج به فيها من كل الثمرات، قال الله جل قوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل:١١]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ونحو هذا كثير من ذكره جنات الأرض عن الماء، وأنه خلق من الماء كل شيء حي، فهذا الماء الذي خلق الله ﷻ عنه جنات الأرض كائن عن جنات هناك، غير أن هذه دانية وتلك عالية، وهذه دنيا وتلك آخرة، مثال ذلك النطفة يكون عنها الإنسان فإنها لا تكون إلا عن إنسان، وكذلك كل جنس نطفته عنه ويخرج منه من جنس ما كانت النطفة عنه، قال الله ﷻ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٢: ٢٣].

فأقسم تبارك وتعالى على تحقيق ذلك ومثله بظاهر وهو النطق منا، وإنما استجن ذلك عن أعين الثقلين، وهو حق ظاهر عند الملائكة عليهم السلام ولذلك قال عز من قائل يخاطب المحتضر عند المعاينة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].

وعن معاينته هذا الغيب عبر رسول الله ﷺ بقوله: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1]

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٤/ ٢٩) وقال العراقي في تخريج الإحياء: لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولذلك كانت الجنات هنالك أربع جنات، قال الله جل من قائل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

ثم أنشأ يصفها جَلَّالُهُ، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢] إلى آخر السورة، وقال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»[1]، آية ذلك في العاجلة الفصول الأربعة الكائنة في العام عن نفسي جهنم وإشارة رحمته بالماء المنزل من السماء كل فصل هنا عن جنة قائمة هناك، ألا تسمع إلى قوله جل قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف:٣٢]، وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ:١٦].

فعبر عن فوائد المصيف والشتاء في الدنيا بجنتين؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبأ:٣٧]، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، وقال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم**»[2]. فانظر بما يرجع منها، كذلك يا أخي ما في الدنيا شيء إلا وشراؤه في العلا، وكل ما ههنا فهو آية على ما هنالك، والجنة أرضها ذهب وترابها المسك زينتها الزعفران، وفيها كل نبت كريم وفيها شجرة طوبى غرسها الجليل جَلَّالُهُ بيده، وكذلك غرس جنة عدن بيده، ونظر تبارك وتعالى إلى تلك الأرض نظر كرامة واستعداد بها للمكرمين من عباده ليعجبهم بها، وخلصها من كل شيء يخالف ما له أوجدها، ثم قال لها: «**كوني وفق مشيئتي وطيبي حتى تبلغي مرضاتي**»[3].

فكيف ترى على هذا يكون بناؤها وشجرها وثمرها وأنهارها وحيوانها وبهجتها ونعيمها؟ وكيف يكون وجد أهلها الطيب مثواهم، وسرور أنفسهم وغبطتهم بما هم عليه، وقد أهلهم لذلك وأرادهم به، وهو يطلب مرضاتهم ويستقصي حوائجهم، مع عظم قدرته على أكثر مما يؤملونه عنده، وسعة خزائنه بقولهم: لا إله إلا الله هو بناؤها لبنة من فضة ولبنة من ذهب، ملاطها المسك، والملاط: الطين الذي يكون بين اللبنتين،

(١) الحديث رواه البخاري في التفسير (٤٨٧٨) ومسلم في الإيمان (١٨٠) وأحمد (٤/ ٤١١) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) لم أجده.

رضراضها وحصباؤها: الدر والياقوت، فيها العيون والأنهار تجري في غير أخدود ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ﴾ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد:١٥].

ولهم عيون شراب يمزجون منها ما شاؤوا على منازلهم وأقدارهم، وهي عيون الكافور، وعيون السلسبيل، وعيون الزنجبيل، وعيون التسنيم، طينة الأنهار مسك أذفر، وفيها الأزواج المطهرة والحور العين، يعطى الرجل في الجماع قوة مائة رجل، وفيها الخدم والأتباع والحشم والولدان والقهارمة، وفيها السماع تهب فيها رياح الرحمة مبشرات برضوان الله ﷻ على شجر الجنة ونباتها، فيهتز بتلك الأرواح ما أتت عليه هناك، وتلك الدار كل شيء فيها معرب مفصح فيفصح بأصوات معربة عن التسبيح والتقديس والتهليل والتحميد، مكان تصويتها بالصفير والنشيش والصرصرة، أعني: ما مرت عليه الرياح في هذه الدار، وبلغنا ـ والله أعلم ـ أنه ينادي مناد يوم القيامة أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان، قال: فيجعلهم الله في رياض من الجنة من مسك، ثم يقول الله ـ عز جلاله ـ للملائكة: «أسمعوا عبادي تمجيدي وثنائي وأخبروهم: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠]»[1].

ولقد جاء أن داود عليه السلام ينصب له منبر حيث شاء الله من الجنة، وفي بعض مواسمه الكريمة، فيأخذ في التسبيح والتقديس، والتحميد والتمجيد، والثناء على الله تبارك وتعالى بما هو أهله، وبما شاء ربك من المزيد لهم من المعرفة والعلم بالذكر، ويقرأ الزبور بصوته المبارك ويزداد له في الحسن وطيب النغمة وكريم البهجة على قدر تباين الدنيا والآخرة، وتهب عند ذلك رياح الرحمة؛ فتهتز أشجار الجنة لهبوبها، ويستجيب الجو من ذلك الأفق المبين إفصاحًا بذكر منه، ذكر لم تسمع الخلائق قط بمثله بنغمات أصوات وعجيب لهجات، وعلى قدر الدار والسامعين والمستمع أكبر بهم، وقد شاء ﷻ تزيين ذلك والتعجب به، وإكرام ذلك الملأ الكريم، فما ظنك يومئذ بحسن مثواهم، وصدق مقعدهم وكريم مجلسهم، وطيب أنفسهم بسرورهم وحبورهم:

يَا حُسْنهم بِمجَالِس مِنْ لُؤلؤٍ ... يَتطلعُونَ مِنَ العَلي للكَوثَرِ

وإنهم ليمطرون ولكن ما يشاؤون بلغنا ـ والله أعلم ـ أن السحابة تأتي على من شاء الله منهم، فتقول لهم: ما تشاؤون يا أولياء الله؟ فيتمنى كل واحد منهم أمنية، فينزل عليه ما

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥١) عن محمد بن المنكدر رضي الله عنه.

شاء الله.

وآية ذلك الغيث ينزله الله تبارك وتعالى من السماء فينبت به ما شاءه من كل زوج، وفيما ينزله بالماء تكون أمنيات أهل الدنيا كلها من طعام وشراب وحيوان وأزواج وخدم وحلي وملابس وغير ذلك، غير أن هذا جار على تأجيل السنة، وذلك جار على الكلمة إنما هو كن فيكون، الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠].

وقد جاء هذا معرفًا في القرآن قوله الحق جل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، و﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، و﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ١١]، كذلك في تلك الدار، فاعلم ذلك.

غير أنها على ما تقدم أقرب مأخذًا وأيسر يسرًا، وأكرم وجودًا بغير مقدار يحدد ولا نهاية عندنا تعلم، فاستفتح - وفقك الله - أبواب الاعتبار فيه يتيسر لك بلوغ المراد من اليقين بها أنبأك به العليم الخبير، وبلغكه الرسول البشير والنذير.

واعلم - يرحمنا الله وإياك - أن الجنة غداي وعشاي وجمع، وشهور وسنون، وأحقاب ودهور وإنما أخذ أسماء ما ههنا ومعانيه من أسماء ما هنالك تختلف عليه الغدايا والعشايا بالأرزاق والتحف والموائد والتحيات والسلام والإكرام، وتختلف عليهم الأيام بعد الأيام من غير ليل ولا نهار بتجديد الأنوار والحبور وتضاعيف السرور، كما كانت في الدنيا أيامهم تختلف عليهم بالاعتبار وتجديد الإيمان والأنوار، ألا تراه جل ذكره أوجد اختلاف الليل والنهار، والاعتبار وزيادة الإيمان والترقي في درجات اليقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]، وإنما تستبين لهم الآيات هنالك الرؤية العلية ومشاهدة ما هي هذه الموجودات آية لها: موجودات الجنة والنار، ولذلك أكثر الآيات في قوله الآيات، فافهم بلغ الله بنا وبك.

ثم يرجع الكلام بنا إلى نسقه، فنقول: إن الأيام لما تختلف على المؤمنين المعتبرين بتجديد الإيمان وتأكيد المعرفة، كذلك تطوف عليهم بتجديد الأنوار وتدنيهم من الزيادة الكريمة ورفيع المعرفة والمشاهدة، وتطوف عليهم بالتجمع مع الإخوان والحساب، ثم بالزيادة العليا التي كل شيء من نعيم الجنة لها تبع، والقرب من القريب والودود والدنو منه؛ كما كانوا في الدنيا يسارعون إلى الجمعة والجماعات ويسابقون إلى الدنو من الإمام،

ويقعدون في ذلك المقعد الصدق في جنات، ونهر وانفساح واتساع ورُوح ورَوح، والنظر إلى ذي العزة والكبرياء، والجلال والملك، والقدرة والسناء، لا إله إلا هو الملك الحق الحليم الكريم، وسماع كلامه الحق بأحسن ما صاروا إليه، ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

وتطوف عليهم الشهور بالعطايا والمواهب: الكساء والإقطاعات السنية ونحو هذا، وتطوف عليهم الفصول بتجديد المباني من غير بلى، والتحول إلى القصور والجنات من غير قلى للمتحول عنها، ولا إخلاء لها عن أهاليها، بل إلى ما في تلك المقاصير من أهل وولدان وأتباع وقهارمة، وغير ذلك مما لا نحسن نحن الآن وصفه، فإن لكل فصل خاصة جنة تحقق لهم حقيقتها من غير قطع لسواها ولا منع، وإنما هو ملك يتجمع إلى ملك ويتحقق بمزيد لا نقص ولا فقد.

آية ذلك: اختلاف الأحوال بالأهوية والفوائد في الفصول، ويطوف عليهم السنون باجتماع الخيرات، وإكمال الزيادات، وتضعيف العطايا والمواهب، وتجديد النزل والمراتب، وتحقيق الأسماء والصكوك والكتب والخطط، وترفيع الجاه والتقريب، فإنهم كلما أسكنوا الجنة، ازداد علمهم واتسعت آمالهم وعظمت فيما هنالك هممهم، وذلك موجود هنالك عن اسم المزيد، فازدادت أمانيهم وارتفعت طلباتهم وشواهدهم، ولهم فيها ما يشاؤون، والله واسع عليم ذو الطول لا إله إلا هو العلي الوفي البر الكريم.

ولله تبارك وتعالى جنة هي باطنة لهذه الجنة الموصوفة، آية على تلك كما كانت الدنيا آية على الجنة منها، يتحفهم كما كان يتحفهم من الدنيا بغرائب العلوم من خزائن الغيوب، ويفتح عليهم بأنوار الفهوم من ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وكما كان المؤمن في الدنيا يرزقه ربه ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]، ويقيه بكفاياته من حيث لا يعلم، ويلهمه بإلهامات من لدنه لم يكن له أن يعلمها، ولا أن يهتدي إليها لولاه سبيلًا ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فصل
وأن في الدارين الجنة والنار من المزيد في النعيم المقيم والعذاب الأليم ما لا يقدر قدره ولا يبلغ وصفه حق

اعلم وفقك الله وعلمك من علمه الصادق الحق جل ذكره الجواد الكريم، من شأنه ألا يستقصي في وعده جميع موعوده وكذلك في وعيده؛ لأنه العزيز الكريم المتناهي في العزة والكرم، بل لا بد أن يفضل لفعله على وعده فضلًا ما مبالغة في صدق وعده،

وإظهارًا لجزيل كرمه وعظيم قدرته، لتوفر مقتضى فعاله على ما ورد من مقاله وما استقصى كريم قط، هذا هو المعهود في أهل المكارم والمعلوم من ذوي الفضائل، ولم يكن لعباده أن يبلغوا بفهومهم وعقولهم معرفة كنه ما أعد لهم هنالك من كرامته، فوصف لهم ما قارب أفهامهم مما جعل لهم في الدنيا مثلًا عليه مع الإشارة منه إلى كمال ما هنالك.

وبالجملة فإنه ﷻ جعل ما أعده في الدار الآخرة زائدًا عن العقول المضافة إلى أهل الدنيا، مربيًا على تحصيلهم وتمييزهم فأعلى ذلك على الغايات ورفعه فوق النهايات؛ فلذلك فات العقول تصويرًا، وأعجز العلوم تحصيلًا، ولذلك قال جل قوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ذخرًا بلهًا»[(١)].

ما أطلعتكم عليه معناه دع ما أطلعتكم عليه أو سواء ما أطلعتكم عليه، لكنه تحصل من معنى لفظة «بله»: ما شاكل لفظه؛ وهو البله الذي يصيب العقول عند تصور ما أطلعنا عليه، وأما ما لم يجده في الدنيا ولم يخرجه بعد من عدم إلى وجود لصغر الدنيا إلى جنب الدار الآخرة، وقلتها عند ما هنالك فلم يعدهم به، ولا توجه إلى وصفه إلا على سبيل الإجمال والإبهام والتعريض به كما تقدم، وذلك منه ﷻ إكرام يكرمهم به خارج عن معنى اسم المزيد لأعمال جاؤوا بها زائدة على فرائضهم، فاحتمل ذلك الخطاب جميع ما يكون فيها من زيادة وفضل وإتمام وإكمال في متشابه ما يأتون به مما يعرفون له مثالات في هذه الدار.

ثم تناول بعد هذا كل ما خرج على اسم المزيد مطلقًا في أسماء وصفات لم يعلمنا بها في هذه الدار، ولا جعل علينا لنا علمًا نهتدي به إلى معرفتها إلا الإيمان بها حسب، وهذا هو المعنى المستجن في الجنة المعبر عنها باسم الجنة، ألا تسمع إلى حديث رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة: «فأقع ساجدًا، فأحمده بمحامد يلهمنيها، لا أجدني اليوم أعرفها»[(٢)]، قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد جاء أن الله تبارك وتعالى خلق جنة من لؤلؤة واحدة وأطبقها بلؤلؤة، وختم عليها بختمه وخبأها عنده، فمن تلك يتحفهم زائدًا إلى الملك الذي أعده لهم في الجنة

---

(١) سبق تخريجه في باب اسمه ذو العرش عز وجل.

(٢) رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٧/ ٣٢٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ورواه مسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا - والله أعلم - جزاء الإيمان، وأذكار وأسرار في أسرار سرائرهم لا يطلع عليها سواه ﷻ لا إله إلا هو الحليم الكريم، وهو في قوله جل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

فصل
وأن فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير حق

انقسام الدنيا إلى ذكر وفتنة، والشرع إلى وعد ووعيد، والعقود كلها إلى إيمان وكفر، والأعمال إلى طاعة وعصيان، بين أن الآخرة منقسمة إلى معنى الدنيا والشرع وغيرها، وأن ليست هناك دار ثالثة؛ إنما يدخل أهل طاعته الجنة وأهل عصيانه النار، ثم يمحص أهل النار تمحيصًا بعد تمحيص بإخراج بعد إخراج، حتى إذا لم يبق فيها من أهل طاعته ولو بشهادة الإيمان أحد، أوصد عليهم أبوابها وقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٨] على هذا استمر الشرع بجميع ما ورد فيه.

أما أصل تمحيص الله ﷻ أهل النار بإخراج بعد إخراج؛ فبالشفاعة وقد تقدم اعتبارها، ولما قاله رسول الله ﷺ: «**خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء، فأخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بيده الأخرى، وكلتا يدي الرحمن يمين، ثم قال: يا أصحاب اليمين، فقالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، ثم قال: يا أصحاب الشمال، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم، قالوا: بلى، قال: فخلط بعضهم ببعض، قال: فقال قائل منهم: ربنا لم خلطت بيننا؟ قال:** ﴿وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون:٦٣]، **إلى قوله:** ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، **ثم ردهم في صلب آدم**»[1].

وقال في حديث آخر: «**خلق الله وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء، وأهل الجنة أهلها وأهل النار أهلها**» قال قوم: يا رسول الله، ما الأعمال؟ قال: «**يعمل كل قوم بمنزلتهم**»[2].

وفي أخرى قيل: ففيم العمل إذًا؟ قال: «**إن كلا لا ينال إلا بالعمل**»[3]، وفي أخرى:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧٦٣٢) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وفي سنده سالم بن سالم ضعيف كما في مجمع الزوائد (٧/ ١٨٩).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٧٩٤٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٨٩): فيه جعفر بن الزبير وهو ضعيف.

(٣) رواه ابن حبان (١٠٨-إحسان) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«كل ميسر لما خلق له»(١).

فوجه الاستدلال من هذين الحديثين أنه تبارك وتعالى علم في الأزل بأهل النار مَنْ هم، وبأهل الجنة مَنْ هم، فقسمهم على ذلك قسمين إلى سعادة وإلى شقاوة فهذان فريقان، ثم خلط بينهم الأعمال ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾[المؤمنون:٦٣]، فتجد المؤمن قد يعمل عمل الكافر، وتجد الكافر قد يعمل بعمل المؤمن، لكن ليس يخرج الكافر عمله الحسن من النار، ولا يخرج المؤمن عمله السيء من الجنة، فتمحص النار من أهل الجنة المذكورين يوم القبضتين بالشفاعة بإخراج بعد إخراج، حتى يرجع الأمر إلى قوله الحق: «هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»(٢)، أجارنا الله الرحيم برحمته من النار، ومن جميع عذابه قليله وكثيره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨].

فصل
وأن الحشر حق

هما حشران سوى الحشر الأول، حشر قبل قيام الساعة، الذي أنذر به رسول الله ﷺ في قوله: «يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا، فمن تخلف منهم أكلته»(٣).

ثم الحشر الأول بعد نفخة النشور حشر عام، قال الله جل قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام:٢٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون:٧٩]، فهذا هو الحشر الأول يوم القيامة كما ذرأهم من عنده ردهم إليه حكمة بالغة وأمر عزم.

وأما الحشر الثاني فحشر الكافرين إلى جهنم، وحشر المؤمنين إلى الصراط الأول ثم إلى الصراط الثاني، قال الله جل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:

---

(١) رواه البخاري في القدر (٦٥٩٦) ومسلم في القدر (٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) هو حديث أبي أمامة السابق عند الطبراني في الأوسط (٧٦٣٢) ورواه أبو داود في السنة (٤٧٠٣) والترمذي في التفسير (٣٠٧٥) وأحمد (١/ ٤٤، ٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه وصححه الشيخ شاكر على المسند.

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٢) ومسلم في الجنة (٢٨٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٦]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١]، وقال رسول الله ﷺ: «ينادي منادٍ يوم القيامة: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت، فيتساقطون في النار»[1]، ومصداقه من القرآن العزيز قوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠].

ثم ينصب الصراط على متن جهنم فيجوزون، قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار»[2]، وهو الصراط الثاني، والحشر وصف من أوصاف البعث والنشور، وقد تقدم الكلام فيه.

فصل
وأن المؤمنين يرون ربهم في الجنة حق

قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] قيل: الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم، وإنما سمى النظر زيادة وهو أعلم؛ لأنه خاص من اسم المزيد، ومعنى المزيد: أنه لا يعرف قدره ولا يبلغ كنهه ولا يحد بحد، أعني: العطاء الذي هو خارج على معنى اسم المزيد، وقد جاء أن الله ﷻ تطلع إلى أهل الجنة، فيقول لهم: «يا أهل الجنة هل رضيتم» فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ فيقول: «هل تريدون شيًا أزيدكم فيقولون: ألم تدخلنا الجنة؟ ألم تجرنا من النار ألم تبيض وجوهنا؟ قال: فيكشف الحجاب لهم عن وجهه الكريم»[3].

فالمزيد في الجنة كل ما أربى على وصفها مما لا تبلغه الآن أوهام ولا تدركه العقول، قال الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦] أي: أن هذه الدار الحسنى، أي: في دار البرزخ، ثم الزيادة بعد ذلك الجنة العليا يوم الآخرة، ثم الزيادة في جنة الخلد الزيادة والنظر إلى الله ﷻ.

ثم عز جلاله لا يزال يمن بمزيد يزيدهم في الجنة أبدًا، تعجبهم وعلومهم تعلو وآمالهم تتسع، وهو أبدًا ﷻ يريهم ما يربى على آمالهم ويزيد على معهودهم، وهو عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه لا يبدو لهم بمراء واحد مرتين، ولا يكلمهم في معنى واحد بكلمتين، بل لكل تجل مزيد رؤية ولكل كلمة معنى، آية ذلك طلوع الشمس اليوم في

---

(١) الحديث رواه البخاري في الأذان (٨٠٦) وفي الرقاق (٦٥٧٣) وفي التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم في الإيمان (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٨١) والترمذي في صفة القيامة (٢٥٥٢) من حديث صهيب رضي الله عنه.

غير مطلعها بالأمس، وبالغد في غير مطلعها اليوم، وخطابه في القرآن لمن تدبره حق تدبره، فإنه لا يتكلم كلمتين في معنى واحد، فافهم فهمنا الله وإياك.

ألا ترى أن الجنة قد وصف الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ منها ما عسى أن يبلغه أفهام العباد، ثم قال جل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «**في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[(١)]، فاشتبه هذا العطاء الذي لا تبلغه العلوم ولا تنتهي إليه الأوهام، النظر إلى وجه الله الكريم وجوب الإيمان بالله، وبما له من الأسماء والصفات، وبالنظر إليه ولا تبلغ العقول قدر ذلك ولا كنهه، ولا تتوهمه الأوهام ولا تتخيله الأفكار، فسماه زيادة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم عيانًا**»[(٢)]، وقال: «**ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس صحوا وليس دونها سحاب**»[(٣)].

وقال أبو رزين لقيط بن عامر ﷺ: يا رسول الله أكلنا يرى الله يوم القيامة وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: «**أو ليس كلكم يرى القمر مخليًا به**» قال: نعم، قال: «**فذلك آيته في خلقه وهو أعظم**»[(٤)].

فجعل ﷺ رؤيتنا الشمس والقمر في هذه الدار آية على رؤيته ﷻ، وذلك أن الشمس أصل لنور الأبصار فبنورها يرى البصر كل ما يقع عليه، فإذا وقع بصر الناظر على مرئية، خرج من باطن القوة الباصرة روح يكتنفها شعاع يضيء بواسطة نور الشمس إلى البصر، فيقع على المرئي، فيشاهد باطن الرائي ذلك المرئي.

وأيضًا فإن لكل موجود وجودًا يكتنفه، وتتفاضل الموجودات في ظهور ذلك عندها وعنها: كالسراج والشمس والقمر والنجوم، وقد ضرب الله تعالى ما يكتنفه السراج من ضيائه مثلًا لنوره العلي، وضرب رسول الله ﷺ رؤيتنا الشمس والقمر مثلًا لرؤيته ﷻ.

وأما غير النيرات من الموجودات، فيدل على ما يكتنفها من الوجود انطباع ذلك منها في المرائي الصقيلة المقابلة لها والمياه وغير ذلك، وإنما كان انطباع هذه الموجودات في

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

صقلة المرآة من أجل وجود لها يكتنفها، وذلك من عالم الغيب من أجل ذلك الوجود المكتنف للموجودات تصل إلى موجود النفس أعني: العين السحر، وإياها تلبس الجن في مصابها، وعلى سبله يصحب الملك والقرين والحفظة الكرام، وفيه يلقي الملقى فيتلقاه الملقي، والمفاضلة تقع بعد ذلك في رفعة المنزلة من الله بالقرب منه وضعتها بالبعد منه، وكما تقع المفاضلة في تحقق الرؤية من جهة القرب والبعد في المسافة ودقة الوجود المكتنف المرئي لدقة المرئي، أو جلاله وسلامة القوة الباصرة من الآفات القاطعة بها من داخل ومن خارج إلى غير ذلك، وإنما يكون وجود اليمن في الموجود وضده بعد حقيقة الموجود في الوجود المكتنف له.

وهذا باب يشرع إلى أحوال البرزخ، ووجود الحياة فيه والموت، وجملة ذلك أنه إنما تحيا الجملة بالإيمان والعلم وبطاعة الله والعمل بها، وتموت بالكفر والجهل والعمل بمعاصي الله، فإن لهذين السبيلين خاصة في حياة البرزخ والحياة الأخرى، والموت فيهما لا يظهر بجملته إلا بعد الموت إلى ما وراء ذلك.

آية ذلك ما يجده الموفق في هذه العاجلة من روح طاعة الله ﷻ وحياة الإيمان والعلم، ولنقتصر على ما ذكرناه من هذا الغرض فإنه مع رفعته وعظيم فائدته، سهل مسلكه قريب مأخذه ندر طالبه عديم مصاحبه، فإذا نظر الناظر إلى الشمس فإنما يراها بواسطة نورها، فهو إذا لقي الشمس شعاع ذلك الروح الشعاعي الخارج من البصر بهره وغلبه، والله تبارك وتعالى أعظم عظمة وأعلى علاء، فإذا أنجز عباده وعده الكريم؛ فإنما يرونه بنوره وبلطف من لطفه ﷻ، ومن بهي سناء نوره النزيه الرفيع العلي وبصر العبد من حيث هو لا ينفذ إليه ﷻ ولا يدركه سبحانه وتعالى عن ذلك، ألا ترى أن الشمس لا يكاد البصر يدركها، بل تبهر البصر وتغشى نوره، فالله أعلى وأجل وأرفع لكنهم يرونه كما شاء هو ﷻ وكيف شاء، والكيف هناك في حق الرائي سبحانه، هذا معنى قوله جل قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٣] أي: يوصل إليها من نور جمال جلاله لطفًا يوصلها من الرؤية له والنظر إليه ما شاء هو تبارك وتعالى؛ فهو المدرك للأبصار ومدركها على مقاربة في العبارة وتجوز في اللفظ، وإلا فليست بمدركة له ألبتة.

آية الرؤية له في الآجلة العلم به في الآجلة العاجلة أن علوم العباد لقصورها لم يكن لها أن تصعد إلى أن تقارب أن تعلمه، كما لم يكن لها أن تحيط به معرفة ولا علمًا، كما آية التوصل إلى رؤيته به هناك، وإن ذلك يكون دون ازدحام ولا تضايق رؤية الشمس والقمر ههنا دون تضام ولا مضايقة، بل يراها كل من منزله وموضعه، والله أعظم

وتعاظمه من هذه الجهة نزاهته وعظمته عن أن يدرك بالأبصار.

فالعلم رؤية باطنة وهي فعل البصيرة، وجائز أن تنشأ بالإيمان، وطاعة الله ﷻ والمعرفة له حتى تكمل وتتم مشاهدة ورؤية كغيرها من صفات الحق الموجودة في العالم، وقد وعد بذلك من الصدق من صفاته والحق من أسمائه، فهو كائن لابد ولا محالة، هو الحق وقوله الحق؛ لأن الموجب لرؤيته وعد بذلك ووعده الحق والموصل إليه هو لا إله إلا هو بالإيمان به والمعرفة، قال الله ﷻ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:٩]، فهداهم بالإيمان إلى صراطه المستقيم، ثم أكمل تلك الهداية لهم بالنشء على سنن سنته حتى هداهم بالإيمان إلى صراط مستقيم، ثم أكمل تلك الهداية في الآخرة بإيمانهم لرؤيته ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ في ذلك كله ﴿وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

ألا ترى إلى حديث رسول الله ﷺ حيث يقول في وصف الموقف يوم القيامة: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيكون ذلك حتى تبقى هذه الأمة وفيها منافقوها فيأتيهم الله ﷻ في صورة غير التي يعرفونه عليها، فيقول لهم: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، حتى إن أحدهم ليكاد أن ينقلب، فيقول لهم: هل بينكم وبينه علامة أو آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيقول: ما هي؟ فيقولون: إنه لا عِدْل له**»، وفي أخرى: «**فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك**»[(١)].

وهذا الخطاب منه لهم، والترائي على ما ليس به إنما هو في حق المنافقين، تصديقًا لقوله الحق: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٥] في العاجلة وجزاء لهم على استهزائهم في الآجلة، ووافق بين الجزاءين عاجلًا وآجلًا، وكذلك قال عز من قائل: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

فانظر - وفقنا الله وإياك - إلى كل مجيء وظهور وتجل منه على ما ليس به فهو في حق المنافقين والمكذبين، وما كان من ذلك على ما هو به فهو في حق المؤمنين والموقنين، لكنه لابد أن يبقى عليهم في ذلك الموقف معنى من اسمه المبتلي والممتحن؛ لكون المنافقين والمكذبين معهم، ثم ينجي المؤمنين بعصمته، ويهديهم بإيمانهم وهو الرؤوف الرحيم.

فهذا أصل لهذا المعنى كيف توجه ثم أحكمه، فمن علمه في الدنيا وعرفه كما أذن له

---

(١) انظر حديث أبي هريرة ﵁ السابق ورواه أحمد (٤/ ٤٠٧، ٤٠٨) من حديث أبي موسى الأشعري ﵁.

وكما ينبغي له، وكما وصف به نفسه وتسمى رآه في الآخرة كذلك ثوابًا لعلمه ومعرفته، وبالضد لمن تجاهل وعصى وكذب وافترى؛ فنسب إليه ما لا ينبغي له واعتقده على ما ليس به، وعلى الرأي تختل الأحوال هناك، وهو العزيز الذي لا يحول ولا يزول لا تختلف به الأحوال ولا تصرف له الأمثال، استرسل بنا عنان اللسان فامتد لذلك طلق اللسان، حتى عدل بنا عن نسق الخطاب؛ رجاء منا بفوز ثواب البيان عن حقيقة هذا النبأ العظيم والبلاغ الكريم، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ثم نعود إلى ما عدلنا عنه قال: «**فيقولون: فارقنا الناس أفقر ما كنا إليهم، ونحن ننتظر ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه، قال: «فكشف لهم عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله ﷻ من تلقاء نفسه إلا سجد، ومن كان يسجد رياء وسمعة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه**» تصديقًا لقوله الحق: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢] إلى قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٣]، قال: «**ثم يرفع المؤمنون له رؤوسهم وقد تجلى لهم يضحك، فيذهب ويتبعه المؤمنون ويضرب الصراط على متن جهنم...**»[1].

آية ظهوره على من ليس به هناك سبق الجهل العلم في الدنيا، وقد تقدم ذكر مخادعة المنافقين واستهزائه بهم، جزاءً لمخادعتهم له ولرسوله وللمؤمنين واستهزائهم، وأنهم لا يرونه على ما هو به كما لم يؤمنوا به على ما هو به، ومثال ذلك أيضًا في المؤمنين الخطرة والوسوسة، وصدق العقد في حينها إلى ما ليس به، قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس يتساءلون يقولون: هذا خلق الله، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك منكم فليقل: آمنت بالله، ولينته**»، وفي أخرى «فليقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤]»[2].

فالعلامة التي بينهم وبينه - والله أعلم - معنيان: **أحدهما**: توحيد مجرد وتنزيه مطلق يشمل معناه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، **والمعنى الثاني**: لطيفة من لدنه إلى بواطنهم تطمئن بها إليه قلوبهم بواسطة إيمانهم به.

آية ذلك في الدنيا اللطيفة التي لم يقدروا معها أن يجهلوه وهو ما فطرهم عليه من المعرفة، وكما قلنا: فعليه من القرآن العزيز، وشواهد ظاهره وباطنه الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمعرفة به والعلم من صفات الحق الموجود في جبلة الغالم المفطور عليه، وكما ينشأ كل شيء فكذلك تنشأ ذوات بني آدم، ألا ترى إلى ضعفها اليوم في العاجلة، وهي في الآخرة تحمل أهوال يوم القيامة وزلزالها وعذاب النار وسرور الجنة ونعيمها، وكما لا يلزم أن يعلم في ناحية ولا مقابلًا ولا بمجاذاة ولا محدودًا ولا محاطًا به ولا متحيزًا ولا في مكان وكذلك رؤيته ﷻ بل يرونه كما شاء، وإنما معنى العلم والمعرفة: مشاهدة معلوم ومعرفة معروف، هو موجود له وجود ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١]، ومسمى له أسماء وموصوف له صفات مع مشاهدة إعظام وإكبار وإجلال لا يحاط بعلم ذلك الجلال، ولا يبلغ كنهه ولا يقدر قدره، يشاهد العالم به علم تقصيره عن ذلك وعجزه وحصره، ولولا لطف رحمته ورأفته، وبره وامتنانه، وعطفه وكريم قربه، وجميل رضاه وإحسانه في نزوله من عظيم عظمته وشموخ كبريائه وعزة علائه إلى قلوب عباده ما استطاع أحد أن يعلم شيئًا من علمه، كما أنه وقد شاء نزولًا إلى قلوبهم لم يستطع أحد مع ذلك أن يجهله ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤].

فإن قلت: إنا قد نهينا أن نقول في الرؤية بالكيف، وأن نسأل عنه تعالى بالكيف، وقد ثبت علاؤه وتنزهه عن التحيز والناحية والتلقاء والمحاذاة والحدود ونحو هذا، وحصل الإيمان به والحمد لله على ذلك هل من سبيل إلى سكون النفس بما هذا سبيله من العلم؟ فقد قال ﷻ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

فاعلم ـ وفقك الله ـ أن مطلبك هذا في تأويل قوله الحق: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١]، وقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ [الأنعام:١٣]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [إبراهيم:١٩].

ولتعلم أن كل مرئي أو معلوم لا يحدث فيه معنى من حيث وقوع الرؤية والعلم به، بل في الرؤية والعلم؛ لأنهما يكتسبان وصفًا وصفة لم يكن عليه قبل، والله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١]، لا يكسبه علم شيء ولا رؤيته وصفًا ولا صفة لم يكن عليه قبل؛ لأنه لم يزل عالمًا رائيًا كل شيء قبل أن يكونه، فلما أوجده أوجده على ما علمه، وأجرى حكمه على ما قدره.

وقد تقدم أن لكل موجود وجودًا يكتنفه ويحتويه، وذلك الوجود المشار إليه ممتد ما لم يحل دونه حجاب يحجبه أو يحجب عنه، وعلى الحقيقة فما ينتهي وجود الموجودات دون

اللوح المحفوظ، فإن كتب فيه الموجودات لم تمح عنه، واللوح في نفسه يتلألأ، فحقائق الموجودات كلها على أحوالها كيف تصرفت تنطبع فيه انطباع الصور في المرائي، عنه صدرت وإليه ترجع، وبه يعترض تصحيحها، والرائي من المخلوقين حين رؤيته المرئي يخرج من حدقته روح شعاعي بواسطة صفاء الهواء يستمر ممتدًا على وجود الرائي المكتنف له إلى المرئي، وشكل هذا الشعاع حال خروجه متسع كلما امتد استدق، حتى تكون جملته من أوله إلى أبعد امتداده على شكل مخروط، فما كان قريبًا من الرائي وافق المتسع من ذلك الشعاع، فرآه على مقداره الموجود عليه بما كان منها في أقصى البعد، ونهاية امتداده وافق طرفه المستدق منه جرأة على ذلك صغيرًا، وما بين البداية من ذلك والنهاية على التدريج، فإن كان هذا المرئي ليس مقابلًا لبصر هذا المبصر لم يدخل في طريق ذلك الروح الشعاعي، وإن كان قريبًا منه أبصره يعرض وراءه عن جنب وإن أدار حدقته إلى ذلك المرئي دخل في طريق الروح أبصره كالمعهود، فالبصر لا يبصر على هذا إلا ما كان بحذائه وفيما يقابله وأمكن دخوله في شعاعه، وكأنما ذلك الشعاع للمبصر عصا يتحسس بها الموجودات غير أنه أعطى طواعية تقليب الحدقة، فيبصر بها على ذلك ما شاءه، وإن كان لا يشعر بحكمة الله ﷻ فيه.

ورؤية الله ﷻ خاصة ليست كذلك، بل وجود ليس كمثله شيء وجود، وشعاع بصر العبد لا نفوذ له في تلك الحضرة العزيزة ذلك قوله جل قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام:١٠٣]، إنما هو وجود ذي الوجود الأعلى يتلافى وجود العبد، فيعلو بذلك وجودًا صفاتٍ وأسماء بصرًا وعقلًا وإيمانًا وعلمًا، وما لا تبلغه العبارة ولا يصل إليه الآن علم، فيراه على ذلك به ﷻ ذلك قوله عز قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وقد قال رسول الله ﷺ وذكر الشفاعة: «**فأخر له ساجدًا، فيلهمني محامد لا أجدني الآن أعلمها ولا أخبر بها**»[1].

ولما لم ينبع لشعاع بصر أو روح بصر ومبصر، لضمان أن يكون له هناك نفوذ بل استحال تصرفه في تلك الحضرة، وثبت عجزه عن القيام لسبحات ذي الجلال والإكرام عدمت الناحية فيما هنالك، والمقابلة، والمحاذاة، والتلقاء، والأمم، والإحاطة، والمحدود، والمسافة، والتحيز، وغير ذلك مما لا يجوز عليه سبحانه وتعالى، وتستحيل له

(١) سبق تخريجه.

به، إذا الرؤية له عز جلاله بوجوده الذي أعلى وجود العبد كله فرآه به، وفي ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومما هنالك انبعث ذلك إلى سائر الجنة وهو المزيد، وإنما التحيز والنواحي في وجود المخلوق لا في وجود الخالق جلّ وعلا وعلى الإجمال في القول والله عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه لجلاله وعظمة شأنه وكبريائه وعظيم سلطانه وجبروته لا يستطاع رؤيته ولا يقوم له شيء، ولا يثبت للنظر إليه ولا إلى سماع كلامه لولا نزوله إلى ما يزيدهم به من فضله، واعتماده إياهم من أيده، وتثبيته إياهم بما يقابل به ما أهلهم له، كذلك فعل بهم في أول إيمانهم، ثم في زيادته إياهم إيمانًا إلى إيمانهم، ألا ترى الكافر لا يستطيع ثبوتًا على المقام في مقام التوحيد ولا صبرًا على الإيمان بالله ورسوله، بل يصرفه الإضلال، ويسلمه الخذلان، وتغشى بصيرة قلبه ذلك النور، وتصك سمعه حقيقة صوت التوحيد، فيحيق به الصمم والعمى والبكم، فهم أموات غير أحياء، فاقض بحاضر على غائب وبعاجل على آجل، والفاعل واحد والفعل من جنس واحد، والمعقول به واحد.

كذلك في كل ما عرفوه وسمعوه من أسمائه وصفاته، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويبقى عليهم من ذلك ما يشوقهم به إلى معرفته والعلم به، ما يريهم في جمع آخر من مزيده سبحانه وبحمده، حتى إذا رأوه في يوم مزيد آخر، وكذلك هكذا أبدًا مع خلودهم في أبد الآبدين لا إلى غاية ولا منتهى، فسبحان من لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه، وكلما رأوه تبارك وتعالى، وداموا في جواره ازداد علمهم واتسعت آمالهم، وتكاملت أمانيهم، وعلى قدر سعة علمهم تكون رؤيتهم إياه في مقاماتهم، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

وأنه ﷻ يكلم أولياءه في الجنة والمحشر حق

قال الله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال جل وتعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، وقال عز من قائل: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل:٥١]، وهو كثير، وقال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فيقول

له:...»[1].

الكلام صفة من صفات الكمال، وكل صفة لا يخرج الباري ﷻ اتصافه بها عن صفة الكمال التي هو لها أهل، فهي لله جل وعز، وهو أحق بها، وقد اتصف ﷻ بالكلام وتمدح به، لا بل يستحيل عليه ضده، فإذًا كل كلام في العالم ظاهر أو باطن آية لكلامه العزيز دليل عليه، من حيث إن النطق والبيان والكلام من صفات الحق، التي جعل الله عليها العالم فهو ينشأ فيه نشأة، حتى يتحقق ويكمل كغيره من الصفات التي للحق.

وقد قال عز من قائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤]، فتمدح ﷻ بتعليم البيان كما تمدح بتعليم القرآن، والقرآن من كلامه فكذلك البيان من صفاته، وقد قال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١].

وهذا وحي الإلهام ومحادثة السر، وكما قال رسول الله ﷺ: «**إن من أمتي مكلمين أو محدثين، وإن عمر لمنهم**»[2]، وهذا قد يكون من الملك، وقد يكون من تكليم الله ﷻ لعباده كالكلام في السر؛ لأنه قد يكون الوحي بواسطة الملك، وقد يكون تكليمًا منه وقذفًا في قلبه.

وقد قال عز من قائل: ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١]، وهو كتكليمه موسى عليه السلام وبخاصة فأبين آية على وجوده إعجاز كلام القرآن الحكيم وكلام الأنبياء، إذ كلامهم عن الوحي، فهو آية له مشيرًا إليه بقدر ما قرب منه، وأبين الكلام هو القائم في نفس المتكلم الواقع في نفس المخاطب بواسطة السمع، أو ما يقوم مقامه والحروف أقسام؛ فمنها: حروف ذوات أشكال وألوان وأوزان وأسماع، وعن مركبها تألف كلام البشر، ثم منها حروف باطنة هي حروف كلام البشر، وهو المشار إليه بقول القائل:

إِنَّ الكَلامَ لَفِي الفُؤادِ وَإِنَّما ... جُعِلَ اللسَانُ عَلَى الفُؤادِ دَلِيْلا

ولما كانت حروفًا لكلام باطن بطنت لذلك صفاتها، التي هي الأوزان والأشكال والأسماع، فلها مما اتصفت به الحروف الظاهرة حظها لكن باطنًا، وفي هذا الموضع يلقي العدو إلى النفس، وفي ذلك الموضع من الإلقاء تكون اللمتان وهو إلقاء ملك الطبع وإلقاء شيطان الطبع، قال الله ﷻ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

﴿يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨]، وقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة:٣٠]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾[طه:٩٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[يوسف:٥٣].

ومنها: حروف باطنة لحروف السر هي حروف كلام الروح، وهو موضع الروع والله أعلم، قال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي إن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها»(١).

وهو كلام أعلى من كلام العبد، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤]، وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧].

ثم هذه الحروف التي هي لروح القدس هي واسطة بين كلام رب العالمين وبين ما شاء الله تنزيله إليه، قال الله جل علاؤه وشأنه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[النحل:١٠٢] أي: بنزول الملك على قلب الرسول ﷺ، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٩٧] بالغيب الصادر من قلب الرسول إلى لسانه للتبليغ، وإنما هو تنزيل الله ﷻ كلامه إلى روح القدس، ثم إلى الروح الأمين إلى قلب النبي، ثم كذلك يبقى في كلام القرآن الظاهر وكلام النبي، المنزل عليه الوحي تنزيل بعد تنزيل، ينزله الله ﷻ على قلوب العلماء وأفهامهم، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾[الأنبياء:٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٧٧].

فهكذا ينزله عز جلاله بعد تنزيل الإبلاغ والإفهام، والحروف الظاهرة يسمعها البر والفاجر، ولكن الإيمان بما حملت وفهم ما ضمنت، هو العزيز وجوده، فهم يسمعون تقطيع الحروف بواسطة الأصوات ولا يفقهون، وهو كله كلام الله ﷻ لكن بوصف ما أو بصفة ووصف، قال الله ﷻ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] أي: يسمع القرآن، وقال في غير هؤلاء: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[البقرة:١٧١].

ثم فوق هذا كله هو له جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه من حيث هو ليس كمثله

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٧) من حديث أبي أمامة ﵁، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

كلام، قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [سبأ:٤٨] منزه عن الكيف والكم والشكل واللون والوزن، والمقادير منزهة في أنفسها عن التقدم والتأخر؛ إذ لا قبل هناك ولا بعد.

فانظر - وفقك الله - إلى كل ما جاء عنه جَلَّ جَلَالُهُ من الحروف، التي عبر عن نفسه أو عن صفة من صفاته وترتيب أفعاله، فأجر ذلك كله على نحو ما تقدم ذكره من التنزيل والتقريب، كقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[النساء:١٣٤]،﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١٥٢]، وكقوله جل قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١]، وكقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[الشمس:٥-٧] وكذكره ﷻ الاستواء والمجيء والكيف، كقوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وكقول رسول الله ﷺ للسوداء: «أين الله»، فقالت: في السماء، فأقرها على ذلك[(١)]، إلى غير هذا مما يعبر عن وجوده وأفعاله.

واعلم أن العلماء من السلف رضي الله عنهم تلقوا هذه العبارات، وما نحا نحوها على وجهين، افترقوا إليهما فريقين، والوجهان يرجعان إلى وجه واحد والحمد لله وهو أن هذه عبارات لا تجوز عليه حقائقها المعهودة عندنا، فكل ما جاء من هذا النوع أولته إحدى الطائفتين، ومنعت أن يعبر عنه بها جَلَّ جَلَالُهُ سوى ما جاء من ذلك مذكورًا فيما تلوناه أو رويناه، وأمروا الأتباع أن يمروا هذه العبارات على نحو ما جاءت به دون زيادة فيها أو نقصان منها أو وقوف يتعرف إليها، وزجروا عن ذلك جدًّا خشية الإيهام، وهو وجه صحيح درج عليه كثير من السلف رحمة الله على جميعهم.

والوجه الآخر: هو لأهل العليا في المعرفة، فإنهم قالوا بصحتها وإثباتها مواضعها، قالوا: وإنما جاء بها ﷻ ليوصل عباده بها إلى الفهم عنه، قالوا: وما في العالم من وجود حمد ولا حقيقة حق إلا وله في العلا أعلى وجودًا وأكرم حقيقة، هذا المشاهد آية له ودليل عليه، فهذه الحروف المحدثة والأدوات المخلوقة تعبر عن أمثالها وتنبئ عن أشكالها، ولها في القدم أصول عنها أخذت ومعان عنها عبرت، وهي وإن كانت محدثة الكون فلها وجه إلى القدم من حيث عبرت عنه، أناها من بركته ما عبرت عنه، ونور ما به أخبرت، فإزالة الإيهام ونفيها المعهود منها والتشبيه، وإبقاء المفهوم عنها من التنزيه لذلك الإجلال، فقوله ﷺ: «كان الله»[(٢)]، هي هنا غير متصرفة، فلا يقال في هذه خاصة: كان يكون كونًا،

---

(١)الحديث رواه مسلم في المساجد (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٢)سبق تخريجه.

بل هي عبارة عن توالي الوجود المطلق، دون تقييد في كانه التنزيه ألبتة في أزل الآزلين في أول، فهذه من بركة ما أنالها من حقيقته النور، الذي نشر عليها من قربه.

وقد قال بعض العلماء: كان هو الله، وإنما قال ذلك معبرًا عن استمرار الوجود، وكذلك غيرها في بابها، وأما ما في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧]، وبابها حيث جاء، فإنها وإن كانت من فرعون على وجه البحث عنه بما هو ما نهينا عنه، فإنها من عند الله ﷻ على وجه التعاظم والافتخار والجلال، ولذلك رده موسى عليه السلام إلى العلم الأول بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم:٦٥]، فحاد عليه السلام عن بحث فرعون لفساده إلى الطريق المرشد والسبيل القويم، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] أي: إنكم إذا علمتموه من هذا التعرف الذي وصفه لكم، ووصلتم إليه على هذا الطريق الذي عليه دلكم شاهدتموه بنعوت جلاله جل عظمته، وكنتم من الموقنين صح لكم البحث عنه.

وهكذا في معنى قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:٥-٧] يريد التعظيم لشأنه، والافتخار بجليل اقتداره ومن ذلك قول المرأة من العرب: زوجي مالك، وما مالك، مالك خير من ذلك، وقول الأخرى: زوجي أبو زرع، وما أبو زرع...[1]، وأما قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤].

فاقطع - وفقك الله - قطعًا باتًّا أن القبل والبعد لا يصل إليه حكمهما، فالقبل لا يقطعه عن البعد، وأن البعد لا يفوته القبل؛ إنما هي عبارات عن ترتيب إلهي وحكم رحماني، يشير إليه الإيمان جملة ولا يتصور تفصيلًا، إلا ما شاء الله والقبل والبعد وترتيب ثم، ووجود المهابة في مفهومها موجود في الأفعال، كإيجاده العرش والكرسي قبل إيجاد السماوات والأرض إلى غير ذلك، فعلى هذا قد يتوجه الترتيب بحرف ثم، وعلى هذا السبيل فاحمل معاني ما جاء من ذكر الاستواء والمجيء والكيف والحيث، أمط عن هذه العبارات فيما هنالك ما يستحيل، وأثبت بها ما يجوز فهو الحق وقوله الحق، وما أعجزه قط مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فكيف تعجزه عبارة تعبر عن شأنه وجليل صفاته.

(١) الحديث رواه البخاري في النكاح (٥١٨٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فإن كنت - وفقك الله - ممن يمشي على هذا الصراط سويا فدونك، وإلا فارجع إلى ما تقدم ذكره من الوقوف وإقرارها على ما وردت، فتلك أيضًا سبيل سائله وأمر قويم إن شاء الله، وكما أنه تبارك يخفض القسط ويرفعه، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولأنه الملك الحق فلا يلحقه اسم الظلم، وهو المنزه بحقيقة الحق عن نقائص الجور؛ من حيث إنه لا يصادف ملكًا لسواه يظلم فيه ولا عبدًا لغيره ويجور عليه، فكذلك يتكلم بكلامه ولا يطرق ما هناك القبل والبعد، ولا التعاقب ولا التضاد كل ذلك لا يجوز عليه ولا يلحقه، بل هو مستحيل وجوده في حضرته المنزهة إلا ما شاء كيف شاء وكما لا يلحقه اسم الظلم في تقديره المقدرات أولًا، وإخراجها آخرًا على ما سبق في علمه المحيط، سبحانه الممتنع من سواه لعزته لا سواه الممتنع عنه، فافهم وأتقن.

وهو الغني الحق فلا يحمل كلامه هواء، ولا يخرج عن مخارج، ولا يعتمد على اعتمادات؛ إذ كل هذا غير جائز كونه فيما هنالك المحدثات لا تطرق ساحته، والمكونات لا تعدو على صفاته، هو القادر جلاله على إيصال كلامه العزيز إلى ما شاء ذلك به، من عباده أو شاء من ذلك كما شاء وكيف شاء، والكيف في حق المخاطب لا في حقه سبحانه، وله الحمد هو نزيه الحضرة، الرفيع الدرجات، وإنما جعل الهواء والصوت لكلام عباده للتوصيل واللسان والمخارج واللهوات للتقطيع؛ لفقرهم وعجزهم وعوضًا من غناه هو؛ لأنه يقدر أن يوصل إلى مخاطبه، وأن يفهم مخاطبه من كلامه ما شاء يفهمه، قال الله تبارك: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، فتفهم ما تقدم لك في هذا الباب عن معنى التنزيل، مع ما مضى في غيره من معنى الاستواء ترشد إن شاء الله تعالى وإياك ومفارقة الاقتداء بالكتاب والسنة، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فصل
أن له صفة هي الضحك

وإن له جل ذكره الضحك، يضحك إلى أوليائه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه.

الضحك صفة من صفات الحق، كغيرها من الصفات التي تقدم ذكرها ينشأ بنشء العالم، وكل صفة حق موجودة في العالم على سنن الحكمة فهو أولى بها وأهل لها، لكن على وصف الكمال الأقصى والتمام الأرفع، والسبحات المنزهة عما لا يليق به، ويستحيل عليه من لواحقها، لأنه جل وعلا المتفرد بالكمال، ومن سواه فله من ذلك الكمال مجازه وعلى نحو ما قسم له منه، قال رسول الله ﷺ: «**ضحك ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره أو**

خيره منهم» فقال أبو رزين بن لقيط بن عامر: يا رسول الله، أو يضحك الرب؟ قال: «نعم» فقال: لن نعدم من رب يضحك خيرًا»[(١)]، ضحك الحق المنسوب إلى الحكمة يكون لموافقة الحق.

كما قال كميل: كنت رديف علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة، فمررنا بالجبانة فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك، قال: ثم التفت إلي وهو يضحك، فقلت: يا أمير المؤمنين، استغفارك ربك والتفاتك إلي تضحك؟ قال: كنت رديف النبي ﷺ، فمررنا بالبقيع فرفع رأسه إلى السماء، وقال: «**رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك**» ثم التفت إلي يضحك، فقلت: يا رسول الله، استغفارك ربك والتفاتك إلي تضحك؟ قال: «**ضحكت لضحك ربي لقول أو من قول عبده: فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك**»[(٢)].

فهذا ضحك لموافقة الحق لما أقر العبد له بالوحدانية، وعلى نفسه بالعبودية واعترف بذنبه وشهد له الحق أنه لا يغفر الذنوب أحد غيره، ولا يؤاخذ بها سواه، ولا معقب لحكمه، ولا مكره له، ضحك له رضا فذلك منه جل جلاله.

ومن ضحك العجب، وهو ضحكه عز وجل من قنوط عباده، وقرب غيره وقرب خيره» ومعنى ذلك - والله أعلم - أنه يعلم من نفسه جل ثناؤه إرادته غياثهم، ورحمته إياهم وعطفه عليهم، وكشف ما بهم من ضير، وأنه غير مضيعهم ولا تاركهم، ويعلم قرب ذلك منه لهم، ويرى غفلتهم عنه، وإعراضهم بالسؤال وعدولهم عنه بالتضرع إليه إلى الجزع والقنوط مع ما تسمى به من أسماء الرحمة والغياث والكفاية ونحو هذا، فيكون بين هذا كله، وبين كله وبين هذا العجب العاجب العجيب، فضحك رب العالمين لعظم شأنه وقرب خيره، ويأسهم وقنوطهم، مع عظيم اقتداره على صرفهم إليه باللجوء والتضرع، وإظهار الفاقة والشكوى إليه والدعاء، وهم لا يهتدون لذلك، لا يستطيعون الخروج عما هم فيه، فاجتمع في هذه الجملة العبارة عن عظيم اقتداره، وجليل شأنه

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١١، ١٢) وابن ماجة في المقدمة (١٨١) والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٠٧، ٢٠٨) رقم (٤٦٩) من حديث أبي رزين رضي الله عنه وضعفه الألباني في سنن ابن ماجة.

(٢) رواه بنحوه الترمذي في الدعوات (٣٤٤٦) وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٦) والنسائي في الكبرى في السنن (٨٧٤٨) وأحمد (١/ ٩٧) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٩٦) من حديث علي رضي الله عنه وصححه الشيخ شاكر على المسند ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٦٠) بلفظ قريب جدا من لفظ المصنف.

وحقيقة ضعفهم، فهذا ضحك حق، وإذا ضحك ﷻ لهذا أدال النوب وأتى بالفرج، وكشف الضر من حيث لا يحتسب.

ومن ضحك الحق: ضحك المحبة، قال رسول الله ﷺ: «**يضحك الله إلى ثلاثة: رجل قام من الليل يصلي، يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي هذا ترك نومه ودفئه وقام إلي طمعًا فيما عندي وفرقًا مما عندي، ورجل قاتل في سبيل الله هو وأصحابه فانهزم أصحابه وقاتل هو حتى يفتح الله عليه أو يقتل، ورجل أسرى هو وأصحابه ثم عرسوا من آخر الليل فرقد أصحابه وقام هو من بينهم يصلي، فهؤلاء قد أحسنوا والله يحب المحسنين**»[1].

وفيه من ضحك العجب كيف آثروه على أنفسهم، وتحملوا فيه المكاره، وكيف علا إيمانهم بالغيب، وقوى عزمهم على ترك العاجل لموعود لم يروه وهو في الآجل، وهو يعجب على ذلك كله.

ومن ضحك الحق: ضحك الحنان والرحمة، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يجوز الصراط حبوًا، حتى إذا جاوزه نظرا إلى جهنم، وقال: تبارك الله الذي نجاني منك، لقد أعطاني ما لم يعط أحدًا من العالمين**»، فذكر كيف ترفع له الشجرة بعد الشجرة، وكيف يدعو ربه ويتضرع إليه أن يوصله مقامًا بعد مقام، وعند سؤال كل مقام يعطي ربه من العهود والمواثيق ألا يسأله غير الذي يعطيه، ويقول ﷻ له كلما نكث عهده بسؤاله غير الذي أعطيه: «**ويحك يا بن آدم، ما أغدرك، ألم تعاهدني ألا تسألني غير الذي أعطيتك**» فيقول: يا رب، ومن مثلك، قال: وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، حتى إذا كان عند آخر شجرة ورأى الجنة انفهقت له وسمع أصوات أهلها، قال: رب، أدخلني الجنة، فيقول له: «**يا بن آدم ما أغدرك، ألم تعاهدني ألا تسألني غير الذي أعطيتك**» وهو يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيقول: يا رب، لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو ويدعو حتى يضحك الله إليه، فإذا ضحك إليه قال: «**ادخل الجنة**» ويقول له: «**تمن**»، فيتمنى ويتمنى حتى تنقطع به الأماني، وربه يقول له: «**ومن كذا ومن كذا**»، فإذا انتهت به الأماني قال له: «**ذلك**

---

(١) الحديث رواه أحمد (٣/ ٨٠) وابن أبي شيبة في المصنف في الجهاد باب ما ذكر في فضائل الجهاد (٤/ ٥٦٢) رقم (١٥) والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٤٦٢) من حديث أبي سعيد ﵁ ورواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد(٢/ ٢٥٥) من حديث أبي الدرداء ﵁ وقال الهيثمي: رجاله ثقات كلهم بنحوه.

وعشرة أمثاله، وعشرة أضعاف الدنيا كلها، ولك ما اشتهت نفسك وقرت به عينك، فيقول له: أتسخر بي وأنت رب العزة، فيضحك الله منه ويقول: «**إني لا أسخر بك ولكني على ما أشاء قادر**»(١).

فهذا ضحك حنان ورحمة؛ لضعف هذا العبد وفقره، وضحك جود وكرم، وضحك إرادة، وضحك عزة، وكله ضحك حق.

ومن ضحك الحق: اقتدار ولطف وحسن تدبير، قال رسول الله: «**يضحك الله لرجلين يقتل أحدهما الآخر يجتمعان في الجنة: رجل مسلم يقتله كافر، ثم يتوب الله على الكافر، فيقتل في سبيل الله، فيدخلان الجنة جميعًا**»(٢)، وفي مثل هذين قول الله جل قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، فضحك ربنا ﷻ لعظيم اقتداره على سوقهما في سلاسل قهره، ولطيف تدبيره عن مرادهما إلى مراده، وهو أيضًا ضحك محبة لإحسانهما في عملهما وهو يحب المحسنين.

ومن ضحكه للمحسنين والمحبوبين من عباده ما يذكر من قصة برخ، كما ذكر أنه أغضب موسى عليه السلام في أمر ما فكاد أن يسطو به، فقال الله ﷻ: «**دعه يا موسى؛ فإنه يضحكني في اليوم ثلاث مرات**»(٣)، وقد قيل في الضحك بمعنى: الكرم والجود:

غَمرُ الرداءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضاحِكًا ... غَلِقَت لِضَحكَتِهِ رِقابُ المالِ

وقد جاء أن الله ﷻ ليضحك للشاب ليست له صبوة وفي أخرى: ليعجب وأصل العجب الإغراب، فإضافة صورة الشباب الذي قيل فيه: إنه قطعة من الجنون، وعليه صفات الهوى الذي قيل فيه: إنه إله معبود، مع ضعف العقل غالبًا في ذلك السن عن مصادمة جنود الهوى إلى تغليب العقل، ونصر حزب الله ﷻ، وإعلاء خصال الإيمان، وخرق العادة بذلك هو العجب، وهو أيضًا يعجب لعظيم شأنه وعلو علائه، وما هو عليه من حسن أسمائه وعلي صفاته؛ لأنه الحق ومحقق وله الحق وهو الحق المبين فيضحك لذلك وحق له فهو لم يزل ضاحكًا، ولا يزال ضاحكًا ضحك حق، وحكمه لعجب عجيب معجب ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١].

ولذلك يثني على نفسه ويمجد نفسه، لا إله إلا هو لا مثيل له ولا عديل، ومعنى

---

(١)الحديث رواه البخاري في الرقاق (٦٥٧١) ومسلم في الإيمان (١٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢)رواه البخاري في الجهاد (٢٨٢٦) ومسلم في الإمارة (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣)رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٢٣) بمعناه عن زيد بن أسلم رضي الله عنه.

العجب والتعجب والضحك الحق والكلام والصفات الحق والأسماء الحسنى كلها موجودة في الموجودات، مأخوذة مما هناك لا ما هنالك، تبارك الله رب العالمين.

ومن نحو ذلك: ضحك رسول الله ﷺ إذ قال له الحبر: يا محمد، إذا كان يوم القيامة يجعل الله السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر والدواب على إصبع، ثم يقول: أنا الملك... أنا الملك أين ملوك الأرض، قال: وضحك رسول الله حتى بدت نواجذه[1] تصديقًا لقول الحبر.

وهو أيضًا بمعنى آخر ضحك سرور إذا وافق الخبر ما عنده من الحق فسره، ولو سئل ﷺ عن ضحك ذلك لأعرب والله أعلم أنه ضحك من ضحك الرب تبارك وتعالى عجبًا من اقتداره وانفراده يومئذ كما سبق في علمه أنه يكون، وهذا يتقرر بطول الاستقراء جميع وجوه الضحك في الصفات الحق، الحق من ربك، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

ومن الضحك ظاهر ومنه باطن، فالضحك الباطن ضحك الحال، وهو ينبي عن سرور الذات والكرم فعل في تلك الحال، وقد قيل في مجاز هذا:

بَكَت السَّماءُ بِدَمْعِهَا المُتَبجسِ ... وَالأرضُ تَضحكُ عَنْ ثُغورِ النّرجسِ

وقال غيره:

تَضْحَكُ الأَرْضُ مِن بكَاءِ السَّماءِ

وإنما قال: بكت السماء ههنا محافظة على صناعة الشعر عند ذكره ضحك الأرض، وصف السماء بالبكاء، وشبه حال نزول المطر بهموع الدموع، وإلا فعلى الاعتبار الحق، فالسماء حينئذ ضاحكة، يعبر ذلك منها جودها بالغياث، ولضحكها ضحكت الأرض، وقد شبه بعض الشعراء البرق بالتبسم، ونزول الغياث بالجود وهو أقرب إلى طريق الاعتبار وأشبه بوصف الحق، وقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس:٢٤] وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [فصلت:٣٩].

يعبر عن ذلك بوجود السرور بها في تلك الحال، والضحك والظاهر يكون حكمة، ولأجل الحق والحكمة، وقد تقدمت الإشارة إليه وما عدا ذلك فهو لهو ولعب، جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه عن ذلك، سبحانه وبحمده.

---

(١) الحديث رواه البخاري في التفسير (٤٨١١) وفي التوحيد (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣) ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الباب الجامع

قد تقدم لنا أن الشهادة بأن الله هو الحق المبين هي أم الشهادات وعمدتها؛ إذ كل شهادة وشاهد ومشهود هو الله ﷻ، والشهادة بأن الله هو الحق المبين شهادة بأنه هو الحق وأسماؤه كلها حق، وصفاته حق، وأفعاله كلها حق ،وأحكامه كيف تصرفت، وأقداره على ما تخرجت، وتدبيره وخلقه وأمره كل ذلك حق، حكمه صواب، يرفع قسطًا ويخفض قسطًا، يبسط فضلًا ويقبض عدلًا، وإنما يوصل إلى معرفة بعض هذه الجملة.

ويوقف على تحقق هذه الشهادة بطول الاستقراء مع التجرد لذلك والتفرد له، ولزوم دوام الأفكار بخالص الأذكار، ومعرفة وجوه الاعتبار مع التوفيق، والتوجه إلى تحقق التحقيق، وصدق الالتجاء في ذلك كله إليه، وإفراد التعول عليه، ومحو الصفات منك والآثار والدعوى والاختيار، وانتظار ما يفتحه عليك شاهد الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

ثم اعلم ـ وفقك الله ـ أن له جل ثناؤه أسماء لم يعلمنا بها، لم يطلعنا على شاهد عليها، يجب له عليها الإيمان، والقطع على أنه سيظهرها في الدار الآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلًا، دل على ذلك قوله جل قوله وتعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، وقوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة:١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (١).

وكذلك له في الدار الآخرة أحكام هي من وراء ما أعلم بها القرآن، دل على ذلك قول الملائكة والمرسلين ـ عليهم السلام ـ يومئذ، وقد أخرجوا من النار جميع الأصناف التي حددها لهم: «ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن» أي: من وجب عليه الخلود، ثم يقول ﷻ: «شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين»، ثم يدخل يده فيها ويخرج منها من قال: لا إله إلا الله (٢)، وإنما تتناوله الأسماء بتمامها وكمالها، كقوله جل قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

ومن الصفات ما هي صفات ذات، ومنها: ما هي صفات أفعال، فمن معاني صفات الفعل هي صفات الفعل، التي بث مفعولاتها في العالم، شاهد ذلك قول رسول الله ﷺ: «إن الله خلق مائة رحمة، أنزل منها واحدة إلى الأرض، فبها تتعاطف البهائم وبها تتواصل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وبها يكون النسل، وأمسك عنده تسعة وتسعين، فإذا كان يوم القيامة قبض هذه إلى تلك ورحم بها عباده المؤمنين»[(١)]، هذا في صفة الرحمة، فاقض بمثل ذلك في غيرها من الصفات السبع وأسمائه.

وكذلك صفاته الذاتية وأسماؤه، كما تقدم لم يعلمنا منها إلا بما قارب أفهامنا، وجعل لنا عليها آيات في صفات الحق المنزلة مفعولاتها إلى الأرض ما عدا ذلك، فلم يشعرنا بها ولا جعل لنا عليها سبلًا نهتدي بها عليها.

ثم اقض بعظم قدر الآخرة وصغر قدر الدنيا فسبيل تلك التي لم يعلمنا بها الإيمان والتسليم؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أعوذ برضاك من سخطك وبعافيتك من عقوبتك وبك منك، لا أحصي ثناء عليك...**»[(٢)]، المعنى مع قوله: «**لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد**»[(٣)].

فأشار إلى أن بها ما لا يعرف من محامد عنده، واستأثر بها لم يعلمه إياها، وأن بها ما يملؤه منها، سواء ما ذكره من الوجود مما استأثر بعلمه في غيبه، قال أيضًا في حديث الشفاعة: «**فأخر له ساجدًا فأحمده بمحامد يلهمني بها**»[(٤)]، وفي أخرى: «**لست أحدثكموها ولا أعرفها**»[(٥)].

فابحث ـ وفقك الله ـ واحرص على تعرف ما أخرج منها، وبث من حقائق في هذه الموجودات في الدنيا وفي الآخرة، فبذلك أمرك، وعلى ذلك قدرك وخصك، وإليه ندبك؛ إذ من أجل ذلك صنع المصنوعات، وأوجد الموجودات، وأقام الأرض والسماوات، وأخبر عنها في الغائبات؛ ليعرف بنفسه، ويدل على حكمته، ويظهر عظيم قدرته وسعة رحمته، معاني صفاته، وتصادق أسمائه، ثم ارم بوهمك إيمانًا إلى ما لم يخرج منها، ولا علم بها ولا جعل دليلًا إليها ولا سبيلًا إلى معرفتها، فآمن وسلم وصدق

---

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٣) من حديث سلمان رضي الله عنه ورواه مسلم (٢٧٥٢) وابن ماجة في الزهد (٤٢٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه ابن ماجة (٤٢٩٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٦) وأبو داود في الصلاة (٨٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٧١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ورواه في صلاة المسافرين (٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

وانظر، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

ثم اعلم ـ وفقك الله ـ بعد هذا أنها ثلاثة أدوُر وأربعة مواطن وخمسة أحوال، أعني: تنقلات وستة أيام، فآمن بها وبما فيهن وبما اشتملن عليهن من موجود ومعدوم، وخلق أمر وإماتة وإحياء، وتقرير وتدبير، وسنة وكلمة وحق وحقيقة، وعين ومعنى، وشاهد ومشهود، واتصال وانفصال، وفرار وانتقال، إلى غير ذلك مما يطول وصفه، تشتمل على ذلك كله السنة والأيام بتوابعها.

أما الثلاثة الأدوُر: فدار الدنيا، ودار الآخرة، ودار البرزخ متوسطة بينهما.

وأما الأربعة مواطن: فأولها الدنيا، ثم البرزخ، ثم عرصة القيامة، ثم الجنة والنار.

وأما الخمسة أحوال: فأولها الحال التي قبل دار الدنيا، وهي المشار إليها بقوله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان:٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم:٣٢].

ثم حال الدنيا سميت حالًا، لأنها تحول بأهلها فتحولهم إلى غيرها، ثم حال البرزخ كذلك، ثم حال يوم القيامة كذلك، ثم حال دار الخلود سميت أيضًا: حالًا، لانقسام أهلها إلى فريقين، وتحول الممحصين من الداخلين في النار ـ أعاذنا الله منها برحمته ـ من هنا إلى هنا حتى يستقر بهم الخلود في دار القرار، وهم أيضًا في قرارهم في حال نعيم أو حال عذاب مقيم.

وأما الستة الأيام: فاليوم الأول: هو المنفصل من يوم الأزل، الذي لا أول ولا آخر وهو المسمى الدهر حقيقة، وفيه كتبت الكتب، وأخذت المواثيق والعهود والإشهاد على الذوات بذلك، وفيه قدرت المقدرات، وقسمت الحصص والحظوظ من الأرزاق والأعمال والسعادة والشقاء، وهو اليوم المشار إليه بقوله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وبقول رسول الله ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة**»(١).

وأما اليوم الثاني: فهو البرزخ بين اليوم الذي تقدم ذكره وبين يوم الدنيا، وهو برزخ أول وهو المعنى بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:٢]، وفيه أيضًا لوح آخر من أخذ مواثيق في أصلاب الآباء، ثم الكتاب في بطون الأمهات، والتقليب في أحوال الخلقة ودرجات الجبلة والفطرة.

---

(١) سبق تخريجه.

وأما اليوم الثالث: فيوم الدنيا وهو المعني بقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢-٣]، وبقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وذكر يوم الدنيا أشهر من أن يجتلب عليه الشواهد.

وأما اليوم الرابع: فهو الذي بين الدنيا ويوم القيامة، وهو البرزخ بينهما، وهو مدة الموت إلى يوم نفخة النشور.

وأما اليوم الخامس: فهو يوم القيامة، من لدن نفخة النشور إلى انقضاء دخول أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم.

وأما اليوم السادس: فهو يوم الخلود ويوم القرار في دار الحيوان، بما في دارك الدارين ولا آخر له؛ لاتصاله بيوم المزيد وهو يوم جمعة، ما هنالك عنه أخذ يوم المزيد في الجنة يوم الزيادة.

وهذه الستة أيام المذكورة في القرآن العزيز، وفي حديث رسول الله ﷺ في أيام الدهر، ركبت فيها أيام الأزمان تركيبًا، ووصلت عنها اسم الزمان وحوله الأحوال، وتقليب الأحكام من أول الأيام، وكون الأكوان إلى يوم الانقراض، ثم إلى يوم الفصل الأكبر يوم العرض على الديان، وانصداع الجمع فريقين: فريق في السعير وفريق في الجنان.

ثم اتصل مستقبل سادسها كأول بأولها بسابع، ليس له اسم ولا صفة ولا أول ولا آخر من حيث هو، بل هو الجامع لهذه الدهور والأزمان كلها.

أما اسمه بالإضافة قبل اسم أيام الدهر فالأول، وبعد تحصيل اسم الخلود فهو المزيد، وهو اليوم المعني بعبارتنا هذه، هو البقاء المطلق والدوام المتوالي الدائم الحق، والباقي الحق، الحي الحق، وعنه انبثق الخير كله في أول أيام الدهر، كما إليه يرجع في دار القرار ويتصل به، يتم منه مزيد أهل الجنة، كما كان علمه السابق العلي، أو حالهم قبل القبل في أول وأول الدهر، وقيل: ذلك حيث لا قبل ولا بعد في أزل الأزل، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤]، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[يونس: ١٠].

اسمه الرقيب، سبحانه وله الحمد

الرقيب، يكون بمعنى الحفيظ بوجه،تقول من ذلك: رقبته أرقبه رقبة ورقوبًا ورقبانًا أيضًا إذا رعيته، قال الله ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، مع قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤].

والرقيب أيضًا بمعنى المنتظر بوجه المراقبة الانتظار، ومنه سمي المال يعطيه صاحبه بعد موته الرقباء، لما في ذلك من معنى الانتظار، وقيل للرجل الذي لا ولد له: الرقوب، قال الله ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر:٢٧] أي: في طول الانتظار بهم، كما قال عز من قائل: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت:٥]، و﴿ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨] ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان:٥٩].

هذه الآي كلها وجه الانتظار أولى بها، وقد يكون الرقيب بمعنى: الحارس بوجه الحراسة، فعل الرقيب يحرس المرقب عليه مما لا يريد به أو مما لا يرضاه له، وفي مثل ذلك قال الشاعر:

كأن رقيبًا منك يرعى خواطري ... وآخر يرعى ناظري ولساني
فما رمقت عيناي بعدك مرمقا ... لغيرها إلا قلتُ قد رمقاني
ولا خطَرت في السر مني خطرة ... لغيرك إلا عَرَّجا بِهِناني
ولا بدرت من فِي دونك لفظة ... بغيرك إلا قلتُ قد سَمِعاني
وإخوانِ صِدق قد سئمتُ حَديثَهم ... وأمسكتُ عنهم ناظري ولساني
وما الزهدُ أسلى عنهم غير أنني ... وجدتُكم مشهودي بكل مكاني

وقد يكون الرقيب بمعنى الأمين، وبذلك سمي أمين الميسر، رقيبًا، قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥٢] أي: أمينًا وحارسًا وحافظًا ومحصيًا، كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

وقد يكون الرقيب بمعنى الباقي، وذلك والله أعلم لما في المراقبة من طول الانتظار ودوام الحراسة، يقال من ذلك: رقبت الشيء ببصري أرقبه، إذا نظرت إليه وأدمت مراصدته، والمرقب للموضع العالي، كحقيقة المراقبة والله أعلم الشهود والحضور والحفظ والحراسة؛ لما يكون المراقبة والانتظار من أجله، مع إحصاء وتحصيل في ذلك الأعمال المرقب عليه وأقواله وأحواله، وهذه خاصة المراقبة، ولكل وجه من هذه الأوجه حال يسمى به من أجل ذلك الحال، ألا ترى أن المشاهد لحبيبه ينظر إليه ويرمقه اغتباطًا بذلك منه التذاذًا، ثم لا يكون في ذلك رقيبًا عليه، ولا يجوز وصفه بذلك عند طلب التحقيق ولا تسمية ما لم يكن محصلًا عليه أعماله وأحواله، وكذلك المنتظر والحارس، وغير ذلك من الوجوه؛ فالعبد يترقب رحمة ربه ﷻ، والتوقف والانتظار لها، ومع ذلك فإنه لا يوصف بأنه على رقيب، وقد قال في ذلك بعض القائلين، ففصل معنى المشاهدة

من معنى المراقبة:

مثالُك في عَيني وذِكرك في فمِـي ... ومثواكَ في قلبِي فـأينَ تَغيبُ
عليكَ رقيبٌ مِن جفونِي كَما غَدا ... لكَ اليومَ مِن قلبِي عَليَّ رقيبُ

والله ﷻ هو الرقيب الحق، والحراسة المحيطة عما لا يريد كونه، وما لا يرضي فعله، ذو الأنظار والمطاولة، والاصطبار والبقاء الدائم والشهود الأعلى والتحصيل المحيط، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٤].

اعتبار

قد مضى الكلام فيما تقدم من الاعتبار، ومعنى ما تلوناه من القرآن جميع الخليقة قائمون على الخشوع لله ﷻ، والخضوع والخنوع والعبادة التي هي الفطرة، وقد قال ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥٢]، فكل شيء إذا مراقب إما كونًا، وإما شرعًا وكونًا، كما قال ﷻ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم:٢٦].

وما كان من الموجودات في حال سجود لبارئه، وتسبيح له وتحميد وصلاة وقنوت؛ فالمراقبة ظاهرة الحصول بين هذه الأحوال المخلوقة، إذا مراقب كونًا لا محالة بصيغة الفطرة وإسلام الجبلة، حقيقة منتظر متى ينزل عليه الأمر من رقيبه، فيمتثله شرعًا، والأمر عنه نازل وعنه صاعد أبدًا، إذ الرقيب الحق مشاهد لذرات العالم كلها محافظ على جميع أجزائها على التفصيل الأعلى، والتحصيل الإلهي حارس لها، منتظر بها على سنن، سنته فيها إتمام أمر لتعويض أمر، يضع أمرًا ويرفع أمرًا، يعد قسطًا يخلف قسطًا؛ لإنفاذ ما سبق في العلم المحيط بالمشيئة العالية في ضم الأجزاء بعضها إلى بعض؛ لحكم التأليف وتجميع التجسيم، وتشكيل الأشكال وتخطيط الصور، وتقسيم الحصص من حسن وقبح، وعطاء ومنع، وتقديم وتأخير، وهداية وخذلان، إلى غير ذلك من الهبات والعطايا في الأخلاق، والأعمال في الظواهر والبواطن.

هو الرقيب الحق على ذلك كله بأحكام ملكوتية، نازلة إلى قوى ملكية عن أوامر جبروتية، صادرة عن الروح من أمر ربك؛ لتثبيت ما أراد تثبيته، ومحو ما شاء محوه، ألا نسمعه جل جلاله يقول ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] أي: بما فيهن وما بينهن، كذلك قال عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢] فاستوى في حقه ﷻ الجامد والمتحرك، كما استوى في حقه الحي والميت،

كما استوى في مشاهدته والظهور له المعدوم والموجود، ووهب من علم ذلك عباده الحظ الذي شاء أن يهبهم إياه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

لكن على تدريج الخلقة، فأجمد ذلك الجامد وأجمده في الهامد، وحركه في النابت، وأظهره في الحيوان، وأعلنه في الإنسان، فما من جامد ولا هامد ولا نابت ولا حيوان ولا إنسان إلا عليه رقيب، وإلا وهو مراقب لرقيبه الحق.

وقسم تبارك وتعالى رقباءه قسمين، وحزبهم حزبين: صالحًا أوجده عن نور صفاته وأسمائه، وصالحًا آثار كونه بإرادته وقدرته عن موضع إبانته، كون ما لا يرضاه سبحانه وبحمده، فكل يحرض ويحرض على ما جعل رقيبا عليه وحافظا له، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق، فتصعد هذه الحكمة بطريق النشوء في طبقات إلى موضع العقل وهو الإنسان، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠] أي: من العوالم التي دونه في المرتبة التي هي الجماد والنبات والحيوان البهيمي.

فلما أوجد عز جلاله العقل واجهه بالشرع، وعاجله بالتكليف والأمر والنهي، فأنزل عليه بالروح الأمر الشرعي، كما كان ينزل على ما دونه أمر الكون، وضاعف يومئذ الرقبة والرقباء، فعظمت الممتحنات وكثرت المعقبات، وأرسل إليه الرسل، وأنزل الكتب ورقب الرقباء من الملائكة الكرام الحفظة على الجميع صلوات الله وسلامه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥٢] أي: حارسًا له وحافظا عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر:٤١]، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]، وقال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم، وصاحب الصور قد التقم القرن وجثا على ركبته وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ**»[1]، وقال: «**ما من دابة إلا وهي مصيخة صبيحة كل جمعة فرقا من الساعة**»[2].

فهذه كلها وما نحا نحوها طرق يتفهم بها مراقبة جميع الخليقة للرقيب الحق ﷻ، كذلك كل شيء في حق الله جل وعز ظاهر مكشوف مشاهد ذلك منه، وعلى التدريج للمخلوق في منازلها طبقات الخلقة، ثم علم ذلك بعد على منازل الرائين لها من الأولياء والعلماء والشهداء، وإقرار العارفين بها، فافهم فهمنا الله وإياك عنه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الرقيب الحق هو الله ﷻ، والمراقب هو العبد، والمراقبة فعل المراقب يترقب متى يتوجه لله ﷻ إليه أمر، فيمتثله أو يعرض له منه نهي عن منهي فيجتنبه، ويقول القائل لمخاطبه: راقب الله يا هذا، أي: اعلم أن الله مطلع عليك رقيب، فراع حقه.

وحقيقة المراقبة: أن يكون الغالب على قلب العبد من ذكر الله أن الله مطلع عليه فيرجع إليه في كل حال، ويخاف سطوته وعقوباته في كل نَفَسٍ، ويهابه في كل وقت وعلى كل حال، ويستعين على ذلك بعلمه أن نظر الرقيب الحق ﷻ أسبق من نظره هو إلى المحظور.

ومن صح علمه أن الله رقيب عليه لم يفن في البطالات عمره، ولم يمحق في الغفلات أوقاته، بل يصل في طاعة ربه ليله بنهاره بكده في إحساسه واختلاف أنفاسه، وليكن مستحييا من اطلاعه عليه، محتشمًا من مشاهدته، وجلًا من عظيم رقبته إياه، ومن لزم هذا السبيل أوصله بإذن الله ﷻ إلى المراقبة في سبيل المعاملة، ومن المقامات إلى علم القلب باطلاع الرب.

فاعلم أنه من لم يحكم بينه وبين الله سبحانه التقوى في المراقبة، لم يصل إلى الكشف والمشاهدة، ومن عمي عليه أمره وضل عن مقامه؛ فليرجع إلى مقام المراقبة يكن من المهتدين، وعليك بالصدق في المواطن كلها تصح لك أعمال الرعاية، وصحح النية التي هي قوام عملك واجمع لذلك قلبك وذهنك، واصرف إلى ذلك عنايتك، واقصد معرفة قدرتك وغزر العلم به؛ لحاجتك إليه في هذه المواطن، وتعلم علم مكابدة عدوك، وتفطن لمكايده وشرك مصائده، فارغب إلى الله ﷻ في صلاح قلبك، واطلب الأدوية لذلك والشفاء.

واعلم يقينًا أن التيقظ للخيرات أصل كل دواء يداوى به القلوب، كما أن الغفلة أصل كل داء يصيبها؛ فإذا رأيت الهموم والأحزان فداوم الذكر والفكر لازمًا قلبك، ثم الحرص على الاستعداد لما اهتممت له، فتلك علامة التيقظ، وإذا رأيت الفرح والمرح والبطر واللعب واللهو والأشر والسهو، فتلك علامة الغفلة؛ إذ الفرح والمرح يسهيان ويلهيان وينسيان التيقظ، الذي هو الاستعداد للموت وما بعده، ولمراقبة الله ﷻ فيها، فإنه من رزق الدوام على التيقظ بالمراقبة نبع منه فنون الخير، كما يضمحل بها فنون الشر.

ومن أنجح الأدوية في زوال الغفلة، واجتلاب التيقظ: معرفة الله عز وجل جلاله، وابتغاؤها وتطلبها في مظانها وعلى شروطها، فمتى أردت ذلك ولا قوة إلا بالله العلي

العظيم فلا تجعل لك إليه وسيلة سواه، ارم بنفسك إليه واطرح الكف بين يديه، وارغب إليه وتخل عن نفسك إليه وعليك، وقل في دعائك: لا علم لي إلا ما علمتني ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]، ولازم وابحث وتعلم، واسأل التعليم يوصلك إن شاء الله تعالى إنه هو الرؤوف الرحيم.

وإياك أن تعتقد في معرفتك به مسافة تقطعها إليه، فليس بينه وبين العارفين مسافة، إنما المسافة القاطعة عن معرفته المبعدة عن حومته الجهل به فافهم، بل القصد وتحقيق الطلب هو الشأن كله.

وإذا تحققت معرفة الله في قلبك، انتزعت عنه الغفلة، ونالته بركة قرب الله ﷻ، فأضاء له القصد واستبان له الهدى، فحينئذ تحل بنادي المقربين، وتنزل منازل العارفين، ثم ما عملت من عمل، فاجعل سؤالك كله في ذلك أن يجعل ثوابك إصلاح عيوبك، وتوصيلك إلى معرفته، لا تبال ما فاتك دون ذلك من حظوظ الدنيا والآخرة، وأول ما تبدأ به أن تعمل في إخمال ذكرك واتضاع قدرك.

واعلم أن شرفك كله في إقامة ذكره، ونسيان ذكرك وعملك به خالصًا، ولتعلم يقينًا أن معرفته لا تثبت إلا في القلوب الطاهرة فعليك بغاية المناصحة في طلب المخالصة، وكلمة جامعة في الأدب.

انظر إلى كل شيء تحبه لنفسك فأحبه لغيرك، ولا تزال بك طوال المراقبة، حتى يجعل لك من نفسك عليك رقيبا منها وزاجرًا وواعظا ومخوفًا وناهيًا ومصبرًا عند البلوى ومرضيًا ومنبهًا وداعيًا إليه ومحببًا ومشوقًا، وهكذا في جميع الأخلاق، ومعاني الأسماء والصفات، فاصدق الرعاية في المعاملة،وحسن الاستجابة عندما يدعوك إليه ويحضك عليه، فعساه يحققك في ذلك، فإن صحة العلم مع طول المراقبة توصل إلى صحيح الأحوال، وحسن الرعاية يورث صدق الموافقة بزكي الأعمال، فمتى أوصلك من مقام المراقبة إلى حيث قال القائل:

عَلَيْكَ رَقِيْبٌ مِن جفُونِي كَما غَدَا ... لَكَ اليوْمَ مِن قَلْبِي عَلَيّ رَقِيْبُ

فاحمد الله تعالى واشكره كثيرًا، فقد بلغك ذروة السنام من المراقبة، وألحقك بأهل الإحسان من عباده؛ وهو معنى قول رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[1]، فهذه حال المشاهدة، ثم قال: «فإنك إن لم تكن تراه» أي: فإن لم تكن من أهل

(١)سبق تخريجه.

المشاهدة، ففي علمك بأنه يراك خير كثير وحظ من الإحسان جزيل، وربما رفعك إلى درجة المتعلمين، فيفتح لك بابا من الفطنة.

وعلامة ذلك أن يفيض من نفسك لنفسك عند تضايق مسالك الأفكار في طرقات غيابات الملكوت، وعند مظان اشتكال الأشكال، وتشابه الأشياء فرقان معرفة تفرق به بين المشتبهات، ونور علم تمشي به في تلك الظلمات، ويريك من خفي الصبغة من سرائر الخلقة، ومن ظاهر الصنعة إتقان الهيئة ومسالكها في طرقات الحكمة، ويعطيك من كل اسم حق مقتضاه، ومن كل صفة وصفا يرضاه، فاضرع إذ ذاك إليه في حسن العاقبة، واسأل بجد من قلبك، وصدق من عزمك طيب الخاتمة، واعمل واجتهد لأجل جلاله وكريم مجابه، فقد أظهر بك ما خبأه في عالمه، وجمع فيك ما فرقه في خليقته، قال الله ﷻ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

والحق الذي خبأه في عالمه هو صبغة الفطرة وإسلام الجبلة، وتبيين صراطه المستقيم، ومعاني حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلا ومطالع الأولى والأخرى.

وقد علمت بإيمانك عظمة ربك ﷻ فاعرف عند ذلك قدر نفسك، واخضع لمن رفع لك خسيستها وقوى ضعفها، وانظر أي عبد تكون له؛ فعليك يعود عاقبة ذلك من خير أو شر، وتذكر قول رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب على قلبه ذكري**»(١)، وهذا حكم المراقبة، ثم قال «**إلا كنت....**»،المعنى إلى آخره وهذا حكم المراقبة، ثم قال: «**إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»(٢) وقال: «**وإلا اتجرت له من وراء كل تاجر**»(٣) أي: يزيده من دوام المراقبة وملازمة التقوى، ويبالغ له في تضاعيف الأجر، ثم يرفعه فيظهر فيه معاني أسمائه وصفاته ﷻ؛ فيومئذ يسمع به ويبصر به ويبطش به، أي: بنوره وهدايته وعظمته وتوفيقه، ومعان كثيرة منسوبة إليه نسبة ما، وقد عبر عن هذا بعضهم في كلمة له، فقال:

ظَهرتَ لِمَنْ أَبْقَيْتَ بَعْدَ فَنَائِهِ ... فَكَانَ بَالكَوْنِ لأَنَّكَ كُنْتَه

(١)سبق تخريجه.
(٢)سبق تخريجه.
(٣)رواه العقيلي في الضعفاء (١/ ١٤٣) والبيهقي في الشعب (١٩٨٩) من حديث بريدة رضي الله عنه وسنده ضعيف جدا.

وعلى هذه الحقيقة يتخرج قول الله عز وجل وتعالى علاؤه وشأنه: «عبدي، مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، وكنت عريانًا لم تكسني، وظمئت فلم تسقني» إلى قوله: «أما إنك لو فعلت هذا بعبدي فعلته بي» (١).

واعلم وفقك الله أنه لا يدوم لك العز إلا بالوجه الذي نلته قبل، ولا تصطحب عنده الجاه إلا بالمعنى الذي وصلت به إليه، فمتى فارقت ما كنت عليه من العبودية، ولزوم لذاذة الخضوع، واستشعار معاني الخشوع ظاهرًا أو باطنًا، أزال عنك حلته التي حلاك بها، وسلبك نعمته التي وهبكها، وسد دونك منبعث النور الذي أنار به ما حولك، ثم استدرجك بمعارف لا تغني عنك من الله شيئًا، ليست من العلم المبلغ ولا من قبيل النور المبين، فتحسب أنك يومئذ على شيء من الأخسرين أعمالًا تعمل في غير معتمل.

ومن الخوف على هذا العبد أن ينظر إلى ما فتح الله عليه في باطنه من نتائج الفهم وأبواب الفطن، وإلى ما أراه من الآيات ومعاني الأسماء والصفات، التي للحق المبثوث في العالم، ورأى أكثر ذلك مجمعة فيه ظاهرة له، ورأى أسباب الفتوح مساعدة له، خيل له اللعين بمكائده، واشتغاله بشهي مصائده، فحبب إليه نفسه وعظم عنده ما لديه، وأعلى عنده قدر نفسه وحجب عنه منبعث النور المبين إليه؛ فلم ير غير نفسه الخسيسة، فاقتصر عليها وحجب عن حقيقة مقصده بها، وظن أنه الحق، فورثه ذلك أن استغنى بعلم الباطن عن علم الظاهر، وبعلم المعرفة عن علم الأحكام، ورأى أن المعرفة تخالف العلم، أو العلم يبطل في المعرفة أو المعرفة تسقط فيه الأحكام، فتأول جميع ما جاء في العلم، ورده إلى رائيه، واعتقد أنه من مبلغ منزلته في العلم استغنى عن العمل، وصار حرا وسقطت عنه العبودية، لأنه زعم أنه الحق.

وربما قال من عرف الله: أبيح له كل ما حظر عليه، وصار حرًّا وخرج عن رق العبودية، فهذا زنديق، وربما قال: الله، وأسقط العلم وأسقط الواسطة، أي: الله دون كتاب ولا رسول، وذلك لرفعة قدر نفسه عنده، فيقول: استغنيت بالله عن الكتاب والرسول، وهو مثل من يقول: استغنيت بالله عن الله، فالله ﷻ غني عنه وعن العالمين، وهو عدو لله ﷻ، وكذلك من ادعى علم المعرفة، واستقل علم النبوة، واستعظم علم الأسرار، فقد أعظم الفرية على الله ﷻ وتأول العلم فرده إلى مفعوله، فاحذر هؤلاء أشد الحذر، وكن في لقاء من صحب منهم أحدًا على وجل.

---

(١) الحديث رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد ذكر عن بعض أتباع الفلاسفة، وهم الذين استقلوا النبوة وعظموا عقولهم القاصرة، فقدموا المعقول على علم النبوة أنه قال: أفضل الأعمال التشبه بأخلاق الله حسب طاقة الإنسان، وهذا ـ وفقك الله ـ خطأ في العبارة والمذهب معًا.

أما خطؤه في العبارة فإن شيئا لا يشبه الله ﷻ بوجه، ولا على حال في اسم ولا صفة ولا يجوز في التحقيق أن يعبر عن صفات الله بأخلاق، لأن حقيقة الأخلاق مأخوذة عن الخلق، وصفات الله جل جلاله وأسماؤه لا يعبر عنها بما هذا سبيله، إنما الأخلاق موجودة بالمخلوق، وهي ما يكون عن الأمر العلي بالكلم التام من الأمر الحق المتوجه إلى المخلوق المكون بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، يومئذ عن ظواهر أصول ما خلق منه باطنه نفسه وروحه وعقله، وهي أنواره من جهة الخلقة، وتكون عن صفات الأمر وأسمائه صفات المخلوق وأسماؤه وهي أخلاقه، وإنما تنفعل معاني الأخلاق، وهي المنسوبة إلى المخلوق المضافة إليه تعبدًا لله ﷻ وتقربا إليه، لا تشبهًا به جل وعز عن ذلك وتعالى علوا كبيرًا.

وأما خطؤهم في المذهب فإنهم يقولون ما علمه العالم كان شبهًا به، ولأجل فساد اعتقادهم في المذهب هذا، دخل عليهم القول بالحرية، وإسقاط العلم الذي هو الكتاب والسنة، ولم يروا أنفسهم بزعمهم أهلًا أن يقدموا بين أيديهم رسولًا ولا كتابًا ولا سنة، غير الذي زعموا أنهم تشبهوا به، ولذلك قال قائلهم:

فَأَشْهَدُ أَنَا بَالإِلهي وَحده ... تخلصُ مِن مَوضُوعنا وَتَسْلَمُ
لأَنا عَقلنَا منْهُ أُنسًا بِالإِلهي وَحْده ... الْهَيولِي بَسِيْط الذّاتِ لا يَتَجسّمُ
وَمَا عَقلتْهُ النّفْسُ كَانَتْ شَبيهة ... بِمَا عَقلتْ منْهُ وَمَا هَي تَعْلَمُ

وبأول سماع هذا يعلم من له أدنى حظ من نهية ركاكة هذا المعتقد ونقص منتحليه، كيف يشبه العالم معلومه؛ وإنما حد المتشبهين ما سد أحدهما مسد صاحبه وناب منابه، وقام مقامه في زمان أو مكان أو وجود أو عدم، فكيف يشبه العبد الرب، أو المخلوق الخالق، أو المصنوع الصانع.

ولو أشبهه منا العالم به لأشبهه هو جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه الجاهل منا، لأنه بعلمه، ولأشبه أيضا غير الجاهل، لعموم علمه إياه وإحاطته به، وقد نزهه عن ذلك طهارة قدسه ونعوت جلاله.

والكلام في هذا اشتغال عما نحن بسبيله، وإنما ذكرنا هذه النبذة من مذاهبهم، تحذيرًا

لمن رغب في نصح نفسه من اتباعهم، وتذكيرًا بهم، لأن أحدهم ربما توغل في مذهبهم لميل النفوس إلى ذكر الحرية، وإلقاء ثقل أعباء العبودية، وإسقاط الوظائف اللازمة للعبد وهو لا يدري ما تؤول بهم الحالة إليه، فما هو إلا قليل تزفر بهم الدنيا زفرة فإذا هم في ساحل الآخرة، حيث لم يقدموا قدمًا ولا عملوا لربهم عملًا، ليسوا بعبيد عاملين فيؤجرون، ولا بأحرار كما ظنوا فيسلمون من هول ذلك المطلع، وهم مع هذا لا يرون البعث الآخر، لأن عقولهم لم تصل من الآخرة إلى منزلة الموت، ولذلك يكون كما قال: بسيط الذات لا يتجسم، ومن اعتقد البعث الآخر منهم ممن شمله اسم الإسلام ولزمه حكمه لا يرى فيه إعادة الأجسام، قالوا: إنما هي ذات بسيطة لا تتجسم، تلذ وتسر بقرب من تشبهت به على زعمهم الإباء ربما كذب الزعم، فهذه بلوى أصحاب رفعة الدرجات، لكن عصمة الله من وراء كل معصوم، فمن جاوز هذه الفتنة، واقتحم بحول الله هذه العقبة، ووقف عند حظه من التصاغر والخضوع، ولم تخلع عن عنقه ربقة العبودية؛ رفعه الله ﷻ إلى كل مرغوب، وأقامه مقام محبوبه، وآواه في ظله، وعطف عليه بحنانه، وأقامه في مقام حق، وأحله حال صدق، والله عليم بما يعملون، ورسله وحفظته لديهم يكتبون.

اسمه الحفيظ ﷻ

الحافظ اسمه، وهو الحفيظ مبالغة في استحقاق حقيقة الاسم، والحفظ هو فعل الحافظ والحفيظ، والحفظ بمعنى: الكلاءة والحراسة، والحفيظ الحق تبارك وتعالى بكلاء الموجود، يحرسه من أن يوجد في وجوده ما لا يريده و ما لا يرضاه، ومنه قوله عز من قائل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢] أي: ممنوع من الغلط والنسيان والتبديل والتغيير، ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:٢]، إلى قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطارق:٤]، ومنه قول بني يعقوب عليهم السلام: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف:٦٥] أي: نحرسه نكلؤه، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء:٤٢] فأجابهم أبوهم يعقوب ـ عليهم السلام: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ [يوسف:٦٤] أي: أكرم كلاءة وأمنع حراسة، ومنه الحفظة، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١] تمنعهم الحفظة وتكلؤهم مما لا يريد الحفيظ الحق كونه.

والحفظ أيضا بمعنى: الجمع، والوعي من ذلك قولهم: حفظت القرآن، أي: جمعته، إذا قرأته عن ظهر قلب، ومنه قولهم: حفظت المتاع إذا جمعته في الوعاء، ويجتمع هذا الوجه مع الأول في أن الجمع والوعي حراسة للقرآن والمتاع من النسيان والضياع، والحفظ يكون بمعنى: الرقبة والوكالة منه قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:٦]، وقوله ﷻ: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشورى:٤٨] المعنى: وما أرسلناك محصلا عليهم، ولا مانعا لهم بهداية من عندك ولا قدرة، إنما أنت نذير ومبلغ، كذلك قال شعيب عليه السلام عقيب ما أمر به قومه ونهاهم مبلغًا إليهم من ربه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:١٤] وقد يكون معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ لست لكم بكالئ من عذاب الله ولا حارس من عقابه، ويكون الحفظ بمعنى: الأمانة، منه قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] جموع لما يكون في الخزائن من مظان حقوقها، منوع لها من غير واجبها.

اعتباره

خاصة اسم الحفيظ من اسم الرقيب هي: إرادة الحفيظ الدفاع والمنع عن المحفوظ، ويختص اسم الرقيب منه بإرادة الانتظار بالمرقب عليه، والتربص لمعنى ما يريده بذلك الرقيب الحق، وهذا يكون في الرقيب حيث تكون رقبته في سبيل الشرع أو ما قاربه.

وطرق الاعتبار بهذا الاسم العالم كثيرة جدا وشواهده عدة ظاهرة، فحيثما وجد إمساك على حال من الأحوال أو وجه من الوجوه فهو عن آثار هذا الاسم الكريم، إذ الإمساك: حفظ يختلج ذلك في بداية العقول، فكيف مع التفكر واستعمال التدبر، لاسيما وقد ثبت بإعلام الشرع، وموجود العقل أن لله ﷻ حفظة يحفظون المخلوق مما لا يريد الحفيظ الحق كونه، وهو أمر من أمر الله فهو يحفظ المحفوظ بأمر من أمره، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [غافر:٧٨]، وذلك منتزع من موضع عدم الوجود، وهو شيء يجده العقل وهما، لكنه معدوم في الإيمان، مستحيل في الوجود أن يكون هذا المشار إليه مناقضًا لأمره عبر عن توهمه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ﴾ [فاطر:٤١]، من بعده والإيمان يشهد مع العقل إلا بعد الله ﷻ، عبر عن ذلك الإيمان بما في شهادة لا إله إلا الله من حرف النفي ومعناه، وعن ذلك آثار ﷻ في هذه الدار المقابلات للحقائق والمناقضات للوجود، فأثبت على ذلك الأحكام، وضرب لذلك الآجال، وقسم الأرزاق والأعمال، فعبر عن ذلك في كتابه بغير ما عبارة كقوله ﷻ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام:٢]، وقوله: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [فاطر:٢]، وأولى المواضع بذكرها هذا المعنى.

اسمه الباسط واسمه القابض

فهو الذي سطح الأرض بيده، وهو يحفظ الكل بحفظه أن يزول شيء منه عن مراده، ولا يؤوده حفظ ذلك وهو العلي العظيم، قال الله جل قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥].

وإنما ينزل أمره عنه إليها ثم يصعد منها إليه، كذلك تحفظ الموجودات كلها حال إيجادها على اختلاف وجودها، لا يوجد في وجودها ما لا يريده منها، ثم يحفظها حال وجودها وعلى كل حال، وإنما يختص الحفيظ من اسم الرقيب في الأوامر الشرعية، حيث يكون من الرقيب التربص والانتظار بالمرقب عليه أمرًا ما يريده به الرقيب الحق، وكذلك يحفظ الذكر من أن يزاد فيه أو ينقص منه والأعمال كلها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠-١١]، وهكذا بطول الاستقراء يبدو لك طرقاته وتستبين لك شواهده.

التعبد

قد علمت - رحمك الله - بما تقدم من الاعتبار أن لله ﷻ من فضل رحمته: ملائكة حفظة

تحفظ العبد من البلايا والآفات في كل أحواله، فأنت تتقلب في كريم كلاءته، ومنيع حفظه، وحراسته في دينك ونفسك وعقلك وروحك وجسمك وسمعك وبصرك وجميع حواسك الظاهرة، وحوائجك الباطنة، ومالك وولدك، ومن تحب أنت حفظه وتخاف عليه منه، ومع ذلك فلا تحسبن الحفظ كل الحفظ من بلايا الأمراض والأوصاب والبلايا النازلة بالمال والولد والغاشية، إنما الحفظ الأكبر حفظ القلب وحراسة الدين عن الكفر والنفاق وأنواع الفتن وفنون الأهواء والبدع وما شاكل هذا، كما قال القائل:

فِي كُل بَلْوى تُصِيْبُ العَبْدَ عَافيةٌ إِلّا البَلاء الذِي يُدنِي مِن النّارِ
ذَاكَ البَلاء الَذِي مَا فِيهِ عَـــافيةٌ مِن البَلاءِ وَلا سَتر مِن العَـارِ

من الذي ألهمك للإسلام، وحرس في قلبك الإيمان، وداوم بك على طاعته، وواظب بك في طلب مرضاته؟ بل من الذي تشفع فيك في الأزل، سماك باسم الإسلام في القدم، ثم حفظ عليك في المال، وكلأك من المكاره في انتقالك من حال إلى حال، حتى أنهاك إلى حالة الاستواء، وحباك بما منعه سواك من أهل الكفر والردة.

فذلك ـ وفقك الله ـ فاعبده واستقم كما أمرت، ولا تطغ واصطبر ودوام شكره، واعمل له طائعًا وحده فبذلك تستدر نعمه، وتستصحب حفظه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١]، وتحفظ من مواقعة مكارهه يحفظك من أن تقع بك مكارهك، وهو القائل جل قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠]، استودعه نفسك وأمانتك وخواتيم عملك وجميع ما حولك، فما استودع شيئًا قط إلا حفظه، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]، أعاننا وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما استودعنا من شرائعه.

اسمه المحصي جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

قيل: الإحصاء: الإحاطة بالعلم، فقوله: المحصي، أي: العالم بجميع المعلومات، وإن كان كما ذكره من أن الإحصاء بمعنى العلم، فإن خاصته من فنون العلم فيما سبيله العدد وتوابعه، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن:٢٨]، وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقال ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ [مريم:٩٣-٩٤]، وقال رسول الله ﷺ لأصحابه بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة: «أحصوا لي كم تلفظ بالإسلام» أي: كم يشهد

بشهادة الإسلام، قال: «فألفيناهم ما بين الستمائة إلى السبعمائة»[1].

وما ذكره ﷻ في سورة المزمل من قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، فذلك من أجل أن إحصاء أجزاء الليل مفتقرًا إلى حساب المنازل في مطالعها ومغاربها، ومعرفة البروج وحلول الشمس في أيها حلت منها ومعرفة الشمالية منها والجنوبية وتوسط ذلك، وهذا كله أو أكثره لا يبلغ إلى علمه إلا بواسطة العدد، فلذلك حسن ذكر الإحصاء فيه، وكذلك قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، لما كانت الأعمال تزم للجزاء، وظاهر لفظ الجزاء يدل على معناه، هذا يجزئ من هذا ولا يوصل إلى ذلك إلا بالعدد بما جعل الله في الجزاء من العدل ثم من الفضل، ألا ترى جعل الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعين إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك، وتكفر الحسنة عشر سيئات إلى ما شاء الله، فكان معنى اسم المحصي لذلك أولى، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، لما تقدم ذكره.

الاعتبار

الإحصاء في الوجود المحدث: ضرب من العلم يحيط بما تناوله من المعدودات وأسماء المعدودات لا بالعدد، أوجد الله ﷻ العدد وجودًا لا منتهى له ولا آخر، لأنه يخلف منه المثل المثل، وينشأ الإحصاء منه حتى يحيط بما قصد به عددًا، وهو في الدنيا آية على بقاء ما له أول ولا آخر له، وهي الدار الآخرة، وإنما يعلم العدد بأسمائه وأفعاله وإليهما ينسب لأنها لوجود عن اسمه الواحد، وأصله الأحد سمي بفعل وبني على اسم الفاعل؛ لأنه وحد الواحد فسرى إليه من عزة الوحدانية لا نهاية له ولا غاية يبلغ إليها، إنما يجمع بواحد إلى واحد من واحد من حيث ضم أحدهما إلى الآخر اثنتا فسميا معًا اثنين أي: صار كل واحد منهما يأتي اثنين، فإذا وجد منه عدد فرد أوتر جملته لحكم الوحدانية السارية فيه المصاحبة له، ولما ضم إلى الاثنين ثالث، سمي أيضا بفعله من حيث ثلث جملته وبني أيضا على اسم الفاعل وسميت جملته ثلاثة.

ولم يكن واحد من هذا العدد، وكل عدد يأتي من بعده بأن يكون واحدًا بأولى من صاحبه، ولا بأن يكون وترًا ولا فردًا من غيره، هذا عن إثارة الواحد الأحد الفرد الوتر الحق، وجود معيته في مفعولاته في العالم، وعدم تخليه عن شيء من خليقته، عبر عن ذلك

---

(١) رواه البخاري في الجهاد (٣٠٦٠) ومسلم في الإيمان (١٤٩) من حديث حذيفة ﷺ.

قوله الحق: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]، كذلك إذا أضيف إلى ما تقدم ذكره من العدد رابع سمي أيضا بفعله، واشتق لجملته اسم من فعله من حيث ربع جملته، وكذلك في الخامس والسادس إلى العاشر هو الذي عشر جملته.

وهو العاشر لعدده فسميت الجملة لذلك عشرة، وتمت عند العشرة أسماء العدد بالنسب والفعل، فليس لعدد بعدها اسم نسبة، بل أقيم عدد العشرة مقام الواحد الأول، يضاف إلى اسمه بواحد من واحد إلى واحد، كل ذلك مراعاة لاسم الأحدية ودلالة على عزة اسم التوحيد، وجريًا على سنن حكم الوحدانية، أقيمت العشرات بالنسب إلى جملتها، كأسماء الآحاد إلى جملتها أيضًا بواحد إلى واحد من واحد إلى تسعة وتسعين من جملة الآحاد المجتمعة في العدد.

وتمت أسماء العدد أيضا بتكرارها بالنسب إلى العشرات عند بلوغها تسعة وتسعين، وسميت عشرة العشرات باسم ليس من أسماء العدد ولا أفعاله، وإنما هو اسم الماء، ومعناه كسر بناؤه وأنث اسمه تشبيهًا بالماء ومعناه لجمع الماء ما اختزن فيه، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، كذلك جعلت المائة خزانة لما أبنت منه من الأعداد ما أمامها من ذلك وما وراءها كالواحد سواء.

ثم تألف من المئين، سميت نهاياته باسم التأليف يوحد وتجمع على النسب المتقدم ذكرها، فطر الله ﷻ الأمم على هذا الحساب، كما فطرته الخليقة على الإسلام، وإن اختلفت عباراتهم لاختلاف ألسنتهم،وهذا سوف ينشئ في الآخرة، كصغيرة من أسماء الحق وصفاته المبثوثة في العالم، فيكون حساب الآخرة أشرح وأفصح وأوضح وأجمع وصفًا وصفة، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١]، فاقض بذلك على حساب يوم الحساب وما بعده وما في حضرة ذي الجلال أكرم جدًّا وأكرم، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠].

إحصاؤه ـ جل وعز ـ واحد يجمع المعدودات من موجودات كانت أو معدومات جملة وتفصيلًا، كما يعلم المعلومات كلها بعلم واحد، ويشاؤها جميعا بمشيئة واحدة، ويقدر على جميع المقدورات بقدرة واحدة، عبر عن ذلك قوله الحق جل قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، مثال ذلك إيلاجه الليل في النهار، وإيلاجه النهار في الليل، فتنطوي في ذلك المقدورات والمرادات والمعلومات، كذلك أيضًا يحصيها

بإحصاء واحد ويعدها بعد واحد، ويحسبها بحساب واحد، وهو أسرع الحاسبين ذلك بأنه الواحد الحق المبين، وعلى قدر البطل في سواه تكون معاناته للأشياء فافهم.

ولذلك قالوا: قدرة الله سبحانه على الأشياء بلا علاج، وصنعه للأشياء بلا مزاج، وعلة كل صنع صنعه ولا علة لصنعه، وما تصور من الأوهام بخلافه، وأنبأنا رسول الله ﷺ: «إن لله ﷻ تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة»[1].

وقد ذكر أن إحصاءها هو العلم بها والذكر لها، فإن كان ذلك هو الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله: «من أحصاها دخل الجنة»، فذلك يحقق قول القائلين بأن التسعة والتسعين اسمًا المذكورة مخفية في أسماء الله ﷻ كليلة القدر وساعة الجمعة وساعة الليل المباركة، وسائر ذلك من الأسرار، فقوله: «من أحصاها» من علم عددها وأحصاها علمًا بها، ثم من الارتقاء في الدرجات الفضائل إحصاؤها تعبدًا بها وائتمامًا بما تقتضيه على سنن العبودية والتبرؤ من شاكلة الربوبية.

قد تقدم أن التسعة والتسعين آخر أسماء العدد بالنسب، وأن المائة نهاية لما تقدمها وأول لما تأخر بعدها، وأن ما بعدها تكرار للعدد لإحصاء المعدودات، وعلمنا ربنا عز ذكره تطلب الأسماء الحسنى في مظانها واستقراءها حيث وجودها، فأمرنا أولًا أن ندعوه بها، والدعاء قد يأتي بمعنى النداء والسؤال والطلب ونحو هذا، وقد يأتي بمعنى العبادة، فقال جل قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، فوجب علينا تعلم الأسماء الحسنى، لندعوه بها ونطيعه فيما أمرنا به، من ذلك ما علمنا بقوله الحق: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، فوجب بذلك على الهمم المترقية في درجات المعرفة تطلب أسمائه الحسنى، والبحث عنها فيما هذا سبيله، فاعترضتها دون ذلك خشيته، وقمعتها هيبته حياء منه وإجلالا له، أن تترقى حيث لم يرق بها، فناداها بكريم خطابه من عزيز كتابه بقوله الحق: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، فأصغت بأسماعها إلى جليل كلامه، فنبهها من غفلتها وعقلت عنه ما به خاطبها؛ إذ زادها بفضله تعريفًا، وأنهضها إليه بكرمه تشجيعًا لما سرد عليها من قرآنه الكريم، وتلا عليها من كتابه الحكيم قوله الحق: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ

---

(١) سبق تخريجه.

الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤]، ثم قال عز من قائل: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤] فأسلمت إذعانًا، وآمنت بحقيقة ما خاطبها إيقانًا، وعلمت بتعليم ربها جل ذكره إياها أن الخطاب الأول تطريق وتنبيه إلى تعليم أسماء الذات جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وأن الخطاب الثاني تطريق إلى استقراء أسماء الجلال، وما استحقه لنعوت التعالي والكبرياء.

وأن الخطاب الثالث توجيه إلى استقراء أسماء الأفعال، إذ تسمى - جل ذكره - بالخالق، لأنه خلق، وتسمى بالبارئ، لأنه برأ، وتسمى بالمصور، لأنه صور، وزاد في التعليم بقوله الحق ﷻ: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨]، فعلى سنن تعليمه إذا فكذلك تسمى بالذارئ، لأنه ذرأ، وتسمى بالرازق، لأنه رزق، وتسمى بالراتق، لأنه رتق، وتسمى بالفاتق، لأنه فتق، هكذا تستقرئ جميع أفعاله، وتسميه منها بأسمائه، وما كان فيها - أعني المخلوقات - ذوات أسماء ليست بالحسنة، فليست له رضًا ولا حبًا ولا ودًا، وإن كان المتصف بها ﷻ خلقًا وإيجادًا فتفطن لهذا الشأن، فإن إهماله من الإلحاد في الأسماء، وحقيقة الإلحاد أن يمال بالأسماء الحسنى عنه إلى سواه دونه، أو يقصر في وصفها له، أو وصفه بها من مقتضاها، أو يمال بالأسماء بما ليست منها بالحسنى إليه، فتسميه بها تعالى عن ذلك، وعز جلاله وعلا شأنه.

وكذلك ما جاء في الأفعال التي تكون منه على سبيل المجازاة والعقوبة لمن ظهرت منه، كالاستهزاء، والخداع، والمكر، ونحو ذلك، فهو سبحانه لم يتسم باسم من ذلك إذ لم يكن بدؤه منه، وإنما عاقب على فعله مرتكبه؛ لأنه خالف نهيه عنه، ومن حكمته ﷻ أن جعل الجزاء مقابلًا لما جاز عليه مماثلًا له، قال الله ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠]، ثم جعل يسرد أسباب هلاكهم، وأنها في مقابلة دونهم، وقال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠]، وقال جل قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٣٩]، وقال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن شرب سمًا فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا فيها أبدًا»[1].

وهكذا جميع العقوبات مقابلة لما كانت عقوبته من أجله، فتفهم حكمته ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ

(١) رواه البخاري في الطب (٥٧٧٨) ومسلم في الإيمان (١٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عَلِيمٌ﴾ [الحجر:٢٥].

فلشبه العقوبة بالذنب المعاقب من أجله، سماه باسم سببه وهو ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤]، وخير المستهترين، وخير المخادعين، وخير الفاعلين، وهذا النوع من الإحصاء موجود عن اسمه القدوس والسبوح، فافهم.

ولما وجدنا من أسمائه الحسنى ما هو أكثر من تسعة وتسعين، علمنا أن الأسماء المعنية بذكره، هي أمهات الأسماء، وأن الاسم المعني بقوله: «مائة إلا واحدًا»، هو الاسم المحجوب رفعه عن مضمار تسابق المتسابقين في معرفة أسمائه، وربما وصل إلى معرفته بطول المراقبة، ودوام الموافقة مع العلم العلي، والهداية والتوفيق، فنسأل الله الذي لا إله إلا هو السداد إلى حقيقة معرفته، والعمل بمحابه، وتسديد السهم الصائب بمنه ورحمته.

واعلم أن فروع أسماء الله تعالى لا يتم لها عدد ولا يحيط بها إحصاء ولا حصر، ولا ينتهي منها إلى أمد، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

التعبد به

إحصاء آلاء الله عسير، لكن لا بد للعبد أن يستعرض نعم ربه ﷻ بالعدد، وإن كان لا يحصيها؛ ليستقيم شكره للمنعم عليه، كي يستوجب المزيد منها، ويعدد ذنوبه لتتحقق توبته إلى ربه سبحانه وبحمده منها، والنزوع إليه عنها، وكذلك ينبغي له أن يعدد أيامه وسنينه، ويتحقق ما فسح له في العمر، ليصح له توبيخ نفسه على طول تثبيطه وإبطائه عن الأوبة إلى ربه عز ذكره وقد قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:١٥]، فحد الأربعين للتوبة الثانية التي هي الزهد في الدنيا وأهلها، والإقبال على الله ﷻ بالكلية، وقال رسول الله ﷺ: «**أعذر الله إلى عبد بلغ الستين**»[1] ذكر عن مالك - رحمة الله عليه - أنه قال، وذكر عن السلف رضي الله عن جميعهم قال: كان أحدهم يخالط الناس في تجارة وطلب العلم وغير ذلك، فإذا بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وتخلى لشأنه وعبادة ربه.

أي أخي إن كنت تعلم أنه ﷻ يحفظ عليك كلامك وفعالك وجميع أنفاسك، يحصي ذلك كله عليك ويزمه زمًا، ويراقبك محافظًا على ذلك، لا يدع شاذة منك ولا فاذة صغيرة كانت أو كبيرة إلا أحصاها، حتى أنه ليس ينظر إلى أحد سواك فلم إذًا لا تجل نظره إليك، وتهاب رقبته وتتحفظ من عظيم حفظه وخفي إحصائه، وتستحي من كريم

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٧٥) والحاكم (٢/ ٤٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الشيخ شاكر على المسند.

مشاهدته وحضوره، حصل يا أخي على نفسك أنفاسها وراع لها حواسها، وقم عليها بسوط الخشية، وإياك والغفلة، وقد قالوا: أنفاس العباد معدودة، فكل نفس يخرج من غير ذكر الله فهو ميت، ومن كان هكذا فلا ينبغي له أن ينظر إلى شيء، ولا أن يكلم أحدًا، ولا يتقلب في حال إلا وقلبه مع الله ﷻ، ليجد في جميع أحواله، ويصدق ربه في سكونه وانتقاله، ويجانب الهزل والمزاح في كل شأنه.

لِلجِدِ ما خُلِقَ الإِنْسانُ، فالْتَمِسن بِالجِد حَظَّكَ لا باللَّهْوِ واللّعِبِ

اسمه تعالى المحيط جل جلاله وتعالى علاؤه وشانه

يقال: حاط بالشيء وأحاط به إحاطة وحيطة

اعتباره

أكثر مجيء معنى اسم المحيط في معرض الوعيد، وحقيقة الإحاطة العموم، واستئصال المحاط به إن كان في الظاهر، فعموم الجهات الست، تقول: أحاط القوم بزيد، كما تقول: احتوش القوم زيدًا، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام:٦٥]، فهذه عموم الجهات كلها، وقال أيضًا فيما حكاه لنا عن إبليس لعنه الله: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧]، وكذلك في الباطن قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾[النساء:١٢٦]، وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «رب اجعل لي من أمامي نورًا، ومن ورائي نورًا، وفي صدري نورًا، وفي قلبي نورًا، وفي شعري نورًا، وفي بشري نورًا، اللهم أعظم لى نورًا وأعطني نورًا»(١).

يشير بهذه الأوصاف كلها إلى الإحاطة، ولعله إنما امتنع من ذكر الإحاطة لعلمه بأنها إنما يأتي ذكرها في سبيل الوعيد.

فالإحاطة إذًا وصف لصفة عم وصفها جميع الصفات التي هي لله ﷻ، لوجود التمام والكمال الأعلى في صفات ربنا ﷻ، وعدم القصور والتناهي فيما هنالك، فالله ﷻ قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بكل شيء قدرة، وبكل شيء مشيئة، وبالموجودات كلها إيجادًا وتدبيرًا عينًا ومعنى، حتى لم يبق من نفس الموجود لنفسه شيئًا يتفرد به دونه، بل هو المنفرد به حقيقة.

وعموم هذه الصفة للصفات والموصوفات، وانبساط معنى هذا الاسم الكريم على

---

(١) الحديث رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٦) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

جميع مسميات العالم، أوجب أن نختصر الاستكثار من تفصيل الجمل، وتطريق الطرق إلى مجاريها في سبيل الموجودات، فانظر إلى كل إحاطة في العالم موجودة أو متوهمة، ظاهرًا كان ذلك أو باطنًا؛ فعن مقتضى هذا الاسم الكريم وجودها، يسمى ذلك الوجود فيما سبيله الوعيد إحاطة، ويسمى في معرض الثواب وطرق الوعد حياطة وشمولًا وعمومًا وحفوفًا؛ هذا على الأكثر والأغلب، تقول من ذلك: تحوطت الرجل إذا تعاهدت أمره حياطة: وهي الحوطة والحيطة.

وقالت ابنة حاتم الطائي لرسول الله ﷺ: يا رسول الله مات الحائط، وغاب الفاقد، تريد: مات أبوها حاتم، وغاب أخوها عدي بن حاتم رحمه الله، ومن ذلك حائط الدار، وهو يحيط بها ويحوط أهلها، ويقولون: حوطت الحائط إذا جعل عليه ما يحوط به.

فعليك -رحمك الله- بمواظبة التفكر وترداد التدبر، والاستظهار بكثرة الاعتبار، واقصد في ذلك قصد تطلبه في طرقات مظانه، تجده قد تخلل العالم كله جملة وتفصيلًا، ظاهرًا أو باطنًا، وها هو قد أحاط به حولًا وقوة وعلمًا ومشيئة من وراء ذلك كله، حيث لا حيث ولا خلاء ولا ملاء، حيطة أصارها لوحًا لكل إحاطة ظاهرة أو باطنة.

التعبد به

ولما كان مقتضى هذا الاسم الكريم محيطًا بالموجودات، عامًا لجميع الأسماء كلها، موجودًا في جميع طرقات مجاري التدبير في كل العالمين، كان التعبد أيضًا بمقتضاه على حسب ذلك في جميع الأحوال، فإن كانت حال العبد فيما طريقه العلم أو الحفظ أو المراقبة أو القدرة أو القيومية أو الكفاية أو المحبة، أو غير ذلك من الأحوال، فتعبده بمقتضى كل اسم على نحو ما تقدم فيما مضى وفيما يستقبل النظر فيه، والعبارة عنه إن شاء الله ﷻ؛ وأخص أبوابه وأولاها به أبدًا في معرض الوعيد الاستسلام والتبرؤ من الحول والقوة، ثم الخروج إلى الله تعالى من معاني نفسه عند النعمة والذكر والكفاية والوقاية والهبة والكرامة أن ينسب شيئًا من ذلك إلى نفسه، أو عمله، أو إلى صفة من صفاته، وعند المحنة كذلك مع ما تختص به طريق المحنة من الصبر والرضا ونحو ذلك، بل يجعل نفسه بين يدي ربه كالميت بين يدي غاسله، متوكلًا عليه في جميع أموره، ومسلمًا إليه في شؤونه كلها، علمًا منه بأنه قد أحيط به من جميع جهاته وصفاته.

اسمه القادر والقدير والمقتدر جل جلاله وتعالت أسماؤه وصفاته

القدير اسمه، والقدرة صفته، والاقتدار فعله ووصف له، فهو المقتدر يظهر بقدرته على المقدورات، ويعلو عليها فيغلبها، قادر مشتق من صفة القدرة، يقال من ذلك: قدر

بقدر فهو قادر، ويبالغ فيه بقدير، واسم القدرة يرجع معنا، من حيث العبارة: أنه إعلام بصفة من شأن المتصف بها، على حقيقتها إخراج المكونات من العدم إلى الوجود، وهو في الخلق والأمر، والقدرة ما يتقدر بها المراد على نحو المقصود بقدرة محدثة، أو على حقيقته بالقدرة القديمة، فهي يتقدر بها الخلق والإيجاد، والقدرة المحدثة يتقدر بها المقدور المحدث على النحو والمقاربة أو الوفق والمطابقة لمراد الفاعل بها، ويسمى ذلك كسبًا وحقيقته خلق للقادر الأعلى وإيجاد.

اعتباره

اختلف الناس في القادر الحق على ما هو قادر، واختلافهم هذا من حيث الهداية والضلالة نعوذ بالله من الضلالة بعد أن اجتمعت الخليقة قاطبة، من حيث الفطرة أن قدرته مطلقة لا تقييد فيها ألبتة ولا على وجه من الوجوه كلها، وتبعها على ذلك الفضل الصائب والإيمان الجزم بأنه القادر على كل شيء مقدور عليه موجود أو معدوم، مقول أو متوهم، ظاهر أو باطن،معنى أو غير معنى، صفة كان أو موصوفًا، حاملًا أو محمولًا، خيرًا كان أو شرًا، حسنًا أو قبيحًا، لم يشركه في خلق ذلك شريك، ولم يستظهر عليه بظهير، وما كان ﷻ ليتخذ المضلين عضدًا وهو الغني الحميد.

كذلك خلق القادرين سواه المتصفين بالقدرة وخلق قدرهم، فهو الموصوف ﷻ بالقدرة على الإبداع كله، والإيجاد كله، والخلق كله، والقادرون سواه غير موصوفين بالقدرة على شيء من ذلك كله، والأعلى مقدور يسمى الكسب، وحقيقته تغيير ما في صور الموجودات بتصريف بعض الأعراض، فيكون عن ذلك إيجاد ما، وتغيير صور مقدورات ما على ضروب ما، وكل ذلك مقدور للقادر الحق ﷻ خلقهم وخلق قدرهم وعلمهم وما يعملون، وعلى هذا انعقد إجماع المهتدين، وأطبق أصفاق العالمين من جماد ونبات وأرض وسماء وما بين ذلك من جميع الموجودات ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

ثم خرق الإجماع عقل قاصر، وهوى متبع، وإعجاب مهلك، فتناتجت لهم بذلك طرق الضلالات، وتفرقت بهم سبل الجهالات ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[يونس:٩٣].

ثم اعلم - وفقك الله - أن هذه الصفات التي هي صفات الذات جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك، لم تسم بما سميت به من الأسماء من قولنا: قدرة وعلم وإرادة من حيث هي، إنما سميت بذلك تحديدًا وتوقيفًا بالكتاب والرسول ﷺ وعلى ما جاءت به لغة العرب، وشواهد ذلك مشهورة غير خفية.

وسميت أيضًا بما سميت به للتفرقة بين مقتضياتها، وليعرف كل موجود بمقتضاه من الصفات فيضاف إليها، والفاعل المريد العالم واحد أحد، وصفاته كلها واحدة لا اختلاف فيها، ولا تغاير بوجه من الوجوه، وإنما اختلفت وتغايرت المقدورات والمعلومات والمرادات في أنفسها، وهكذا جميع المقتضيات، فافهم.

وكذلك فلتعتقد في الأسماء، وقد تقدم في ذلك ما يغني اللبيب عن الإسهاب والتطويل، وكذلك فلتعلم أن القادر الحق ﷻ يقدر على المقدورات كلها بقدرة واحدة، ويريد المرادات بإرادة واحدة، ليس في صفاته قصور، ولا في أسمائه نقص ألبتة تعالى، عن ذلك، هو الواحد الأحد الكامل العلي النزيه من كل وجه وبكل معنى.

وأما قدرة القادرين سواه فهي ناقصة، يشغل قدرة أحدهم مقدور واحد، وكذلك يشغل علمه معلوم واحد، وإرادته مراد واحد، وهي مع ذلك طارئة على محلها، يوجدها القادر الحق القادر بها الذي هو محلها، ألا رأيت ما يفعل بها لا قبل ذلك ولا بعده، فهي عرض من الأعراض لا تبقى، يخلفها عدم الاستطاعة، قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، فوصفهم بعدم الاستطاعة على سماع الهدى وإبصاره لما لم يفعلوه ولم يوجد منهم، وقال أيضا عز من قائل فيما حكاه لنا من قصة الخضر مع موسى عليهما السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٦٧]، وهذه منزلة وسطى بين وصف القادر بالقدرة، ووصف العاجز بالعجز عن الفعل لا يصح تكليفه إياه، ويصح تكليف الموصوف بالقدرة، بما جعل الله فيه من القوة على ما سيأتي ذلك في بابه إن شاء الله تعالى.

التعبد به

فعليك - وفقك الله - بعد طلب العلم بأنه ﷻ قادر على كل شيء، وأنه لا يعجزه مقدور، ولا يجوز أن يخرج مقدور عن قدرته يتحقق ذلك، وطلب اليقين به أن تخافه وتخاف عذابه، فإنه قدير على أنواع العذاب والعقوبات بكل وجه وعلى كل حال، وألا تأمنه ولا في مأمنك، فليس يحجب عنه حاجب ولا يقي عنه واق، وكذلك فلا تيأس من رحمته ولا في مظان مخاوفك، وارجه رجاء من يعلم أنه قادر على توصيل كل مرجو، وإنالة كل محبوب على أحسن المآخذ وألطف المسالك، واسأله أن يملأ قلبك رجاء له ومخافة منه.

وكذلك فاذكر نعمته عليك في جميع جوارحك وحواسك من السمع والبصر والكلام وتلفيق البيان، وجميع تصرفاته في كل أحوالك، وصرف ذلك كله منك فيما

يرضيه عنك.

اسمه القوي تبارك وتعالى

يقال: قوي يقوى قوة، والجميع قوى، وهو قوي ومقو، إذا كان ذا قوة من قوم أقوياء، ويقال للواحد من الحبال التي تفتل ليعمل منها حبل واحد: قوة، وللجميع منها: قوي، وحروف هذا بأطباعها تدل على معنى الاستعلاء والقهر والغلبة والظهور، كالمعهود من معنى القوة، فالقاف حرف مستعل، وفيه شدة ولقلقة، وذلك تدل على الظهور والغلبة كالمعهود، والواو والياء دانيان باطنان لوجود هذه الصفة باطنة، ألا ترى إلى قولهم في المقارب والمشابه: قو لأرض بعينها جدبة خاوية، ثم جرى الاتساع في مجراه كعادتهم في غيرها من الألفاظ، فسموا بذلك كل أرض قفر، قال الله ﷻ: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٧٣]، ولذلك قالوا: أرض قواء، وقي، يريدون خالية من الأنيس، وأقوت الدار إذا خلت من أهلها، وأقوى زيد وتره يقويه، إذا جعل له قوا فلم يجده قواه، ومنه الإقواء في الشعر لخلو ذلك البيت من قافيته، وفاعل ذلك مقوي، وقالوا أيضا: اقتويت الرجل: إذا استخلصته لنفسي من بينهم.

الاعتبار

القدرة والقوة صفتان للموصوف بهما، والقوي والقادر اسمان للمسمى بهما، قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥]، كما قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧] فهما اسمان مميز كل واحد منهما من صاحبه، معرب عنهما، ووجودهما مبين عنهما في الوجود، سبيلاهما في العالم، وإنما قصر بالأكثرين عند طلب الحقائق في الاعتقاد عدم التمييز بينهما ووصف المعرفة بمقتضى كل اسم منهما، فوصفوا القدرة بوصف القوة، وحملوا القدرة أفاعيل القوة، وما فرق الله ﷻ بينهما في الذكر، إلا وقد علم ﷻ أن بينهما فرقانًا بينًا في العلم، وسبيلين معربين عن حقيقتهما في الوجود، فسقط كل من رام تحقيقًا لما ذهب إليه في يد خصمه، من أجل إسقاط التمييز بينهما، وهم لا يشعرون ينتقصون، فأسعدهم بالحق من هدي إلى صراط الحق باعتقاد جزم، وإن كان قد قصر به الإغفال عن حقيقة الكمال.

وقد تقدم في باب اسم القدرة أن القدرة هي ما يتقدر به المراد من جهة الإيجاد والقوة، إذا هو ما يجد به القادر نفسه مستعصيًا على تقدير المراد، وإن كان لم يفعله بعدول انتهض إليه، وقد تصح العبارة عن ذلك من حيث الوصف أنه عدم العجز، وأن ضد القدرة عدم الاستطاعة، فمتى فعل فعله كان قادرًا عليه فاعلًا له، ومتى لم يفعل المراد وكان مما

يوصف بفعله ويصح تكليفه إياه، كان قويًا، ولم يكن عاجزًا.

فإذا شغل القدرة المحدثة مقدور ما كان غير مستطيع على غير ذلك المقدور، كذلك قال الخضر لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٦٧] أي: لأجل شغلك بعلمك الذي علمك الله عن علمي الذي علمني، وقد يعبر بعدم الاستطاعة عن الإباء والإعراض فعل المقدور، فيكون تركًا له، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، وقال: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨]، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

هذا كله يكون عبارة عن الإباء والترك للشروع والحركة والتفعل للمقدور، لما عدم منهم الشروع في القول ووصفهم بعدم الاستطاعة، المعبر بها عن وجود القدرة منهم على الفعل، ولما كانوا ممن يصح وصفهم بالقوة على الشروع في الفعل المأمور به أو الترك له والإباء عنه؛ صح تكليفهم، كما لو عجزوا عن ذلك لم يصح تكليفهم قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] و﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق:٧] وفيما حكاه الله تعالى لنا عن موسى عليه السلام وقومه غنية، وأبين بيان إذ قال لهم موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٢١] إلى قوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة:٢٢] إلى قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة:٢٣] أي: بالعلم والحكمة ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، فأحالهم بالشروع في الفعل على ثواب الأعمال من الله تعالى للعاملين بطاعته، كما قال رسول الله ﷺ في ضد ذلك في مثله المضروب، قال: «**وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو، يقول: لا ترفع الستر، إنك إن ترفعه تلجه**»[(١)].

فكما أن للشروع في الطاعات ثوابًا؛ هو استصحاب تسخير القدرة له إلى تمامه، كذلك للشروع في المعاصي عقاب؛ هو استصحاب تسخير القدرة إلى تمامه، يسمى ذلك: الخذلان، وهو عبارة عن ترك الله العبد من التوفيق، ولذلك قال المنعم عليه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٨٢، ١٨٣) ومحمد بن نصر المروزي في السنة (١٧، ١٨) من حديث النواس ابن سمعان رضي الله عنه وسنده صحيح.

وكل عبد ميسر للفعل هدى كان أو ضلالة بالقوة التي جعل الله ﷻ فيه ممزوجة بذاته في سنخ فطرته، وأصل جبلته، والهدى اختيار أمر الله، والضلال نقيضه، فمتى اختار أحدهما أعطي من العون بقدر ما أوغل في تفعله، وتلك هي القدرة التي يتقدر بها المراد حتى إذا فرغ منه، وتقدر المراد بالموجود رفعت القدرة، إذ لا مقدور وأبقيت القوة بإبقاء على سنة الإمساك، يعدم مثلًا ويوجد مثلًا.

وأما القدرة فما يوجدها إلا حال إيقاع فعل المقدور للفعل لا قبله ولا بعده، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥].

فهو يمسك السماوات والأرض، ويمسك الأجسام بما هي أجسام، ويمسك الأعراض بما هي أعراض، بتجديد إبقاء بعد إبقاء، يعدم شيئًا وتخلف مثله إلى ما شاء من أمد بتجديد متعاقب، وأمر نازل عليه متناوب، ولا يحصره عدد ولا يحصل، إلا للتحصيل الإلهي ذلك إذا شاء تغييرًا أخلف الشيء خلافه، وإذا شاء الإعدام أخلف الشيء ضده، فافهم.

والقدرة شأنها قبض بسط يبسطها القادر الحق ﷻ لتقدر المراد حال الفعل، لا قبله ولا بعده، على سنن ما تقدم ذكره من تعاقب التجديد في حال البسط، وكالإمساك سواء، ويقبضها حال انقضاء الفعل، واجتمعا جميعا ـ أعني: القدرة والقوة المحدثين ـ في أنهما ليستا نفستين لحاملهما، غير أن القوة أمس بالذات وأقرب إليها، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢].

فبالقوة الأولى، قالوا: بلى، وبها تعرفوا وشهدوا، وبها شاؤوا قولهم ذلك، ثم غرر تلك القوى في تلك الذوات وغمسها في الجملة، حتى أخرجها عن الترتيب المقدر، وهذه الآن شهادتها وكلامها ومعرفتها وميزها، كل ذلك غيب من غيب، فهي لازمة لحاملها لزوم إيثاق، وقائمة به قيام إمساك، كإيثاقه ﷻ أجزاء الأجسام بالتجمع وإمساكه إياها عن التفريق، وإلى هاتين العقيدتين الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٢٨]، فهذا موضع القدرة، ولا قوة إلا بالله هذا موضع القوة.

كذلك قول القائل: لا حول ولا قوة إلا بالله، الحول موضع الحركة، وهي المقدرة بالقدرة، والقوة أبدًا مقرونة بذكر اسم الله لقربها منه، وبذلك على أن القوة ليست بصفة نفسية المحدث وجود بالعاجز، ونفسه باقية لم يعد يعدم القوة وكذلك القدرة، وهي أبعد

من القوة، ويدلك أيضًا أنها ممزوجة بالذات في أصل جبلتها وجودنا سقوط القوة بالأسر منذرًا بموت عاجل، وعدم الاستطاعة ليس بمنذر بموت في جري العوائد، إذ عدم الاستطاعة يكون من سكون، وأما السكون المطلق فلا يحتاج محله إلى قدرة عليه، إذ ليس بمقدور له، أعني: القادر المحدث، وأما التسكين فيحتاج أن يوجده ربه قدرة عليه، كالحركة سواء كان التسكين لحركة ظاهرة أو باطنة، ومن قولهم: تسكين المتحرك أعسر من تحريك الساكن، لذلك كانت أعمال الطاعات يتعلمها البر والفاجر، والانتهاء عن المناهي على حقيقتها لا يقدر عليها إلا الصديقون، وبواسطة القوة تنبعث القدرة إلى محلها بإذن ربها، حين إيجادها الفعل، وكذلك غيرها من الصفات، فافهم.

وذوات المحدثين تحتويها أربع صفات: صفة القدرة، وصفة العلم، وصفة الفعل، وصفة المشيئة، كلهن عبيد لله جل ذكره أرقاء وحاملهن هو الحي وهو العبد، وبه رباط هذه الصفات وفيه وجودهن، وهو الجامع لهن، الموثق أو المطلق فيه جميعهن.

ثم لكل صفة منهن قصوى، وهي الأعراق في عالم الملكوت، ودنيا، وهي الأعراق في عالم الشهادة، فصفة العقل أقصاها اللب، ودنياها الحس، وصفة العلم أقصاها المعرفة، ودنياها المشاهدة، وصفة القدرة أقصاها القوة، ودنياها الحركة، وصفة المشيئة أقصاها الإرادة ودنياها التدبير.

فعن كل صفة قصوى تنبعث بإذن الله ﷻ باعثها سبحانه كل صفة وسط، فتحقق الصفات مصافهن، وبإمضاء ما له انبعثن تتحقق الأعمال والكسب، هذه أوصاف الذوات المحدثة، وأما ذات القديم جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه فذلكم الأحد الذات، الواحد الأسماء والصفات، إلا وجد الحق كما قال جل من قائل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] تخبر عن اتحاد أسمائه وصفاته بأحدية ذاته هو ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:٢]، يخبر عن أحديته في أزلية قدمه، وديمومة بقائه في أبد أبده لا أول ولا آخر ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]، يفصح عن عظمة جده وحقيقة غناه في الأول والآخر، ويبين نعوت صمدانيته في الظاهر والباطن، لم يكن له مثل يماثله، ولا قرين يقارنه أو يشابهه، فلم ﴿يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، لا نظير له، ولا وزير ولا مجانس ولا معادل، فوجود الوالد والولد فيها هنالك مستحيل، كما وجود الصاحبة له مستبعد، ومعدوم أن يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وأن تكون له صاحبة ولا كقولك: وهو خالق كل شيء سبحانه وله الحمد، استحق على صفاته لنفسه في أزل

أزله، استحقاقًا نفسيًا، واستوجبت أسماؤه الحسنى في قدمه لصفاته العليا؛ استيجابًا ذاتيًا، تعالت صفاته، وتقدست أسماؤه، وعزب عن الوهم وتعالى عن الكيف، حقيقة الإيمان به إثبات ذات غير مشبهة بالذوات، ولا معطلة من الصفات، ليس كفعله فعل ولا كصفته صفة.

وصفة الصفات تعبير، ودعاؤنا إياه بالأسماء تفيهم، لا تعتوره السمات ولا تختلف عليه الصفات، ولا يستعصي عليه كون كائن، ولا يعجزه ما شاءه إنما التغاير في المسميات والاختلاف في المفهوم عن الصفات، دلت أفعاله على أسمائه وأنبأت أسماؤه عن الصفات، أعلن بحقيقة التغاير واختلاف المفهوم في المكون والمفعول، كما أنه ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا، وأخرج دنيء الأسماء والصفات الخبائث في الخبيثات من الموجودات والخبائث، سبحانه العلي الطاهر الطيب القدوس: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، فألقن ـ رحمك الله ـ فقد سلك بك الطريق البيان إلى حقيقة الإيمان، وجمع لك في أطراف الكلام ما به يعتصم الفطن الفهم من مضلات مجادلات خواص الفتن.

التعبد

إن كنت تنظر بعين البصيرة أن ربك ﷻ قد أعطاك قوة في باطنك، وكذلك غيرها من الصفات الباطنة والجوانح، وأعطاك اليدين والرجلين والسمع والبصر، وجميع الجوارح الظاهرة كلهن قوى، لما جعلن له يسرن لإتمامه وإنفاذ مقدوراته، وكما أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، وعافاك من كثير مما ابتلى به كثيرًا من عباده، فداوم أنت شكره والمواظبة على طاعته، ولا تصرف ما أنعم به عليك، إلا فيما يرضيه، وإنما هو أن تحرص على ما ينفعك ويقربك منه وتصحح النية فيه، وتتوجه إليه بالعزم عليه، فإذا بك غالب وبما قصدت إليه بإذن ربك ظافر، وبقدر ما تبذله من الجهد وصدق العزم والتفعل، ينزل عليك من حسن المعونة ويهبك من الاقتدار عليه، كما أنك كلما آثرت التثبط والتعاجز؛ حرمت البغية وعوقبت بالحرمان، قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك ولا تعجز فإن غلبك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، وإياك واللو، فإن اللو تفتح عمل الشيطان»**[1].

وعمل الشيطان التثبيط عن الخير والإباء، وقد قال الله ﷻ في قوم وهبهم القوة، فلم يستعملوها فحرمهم لذلك نفعها: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ؓ.

﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦]، فالله الله المبادرة، فإنه وإن كانت القدرة على الفعل مختزنة في خزائن الغيب لوقت الفعل؛ فإن القوة ميسرة، وإياك أن تقول: لا حتى ينزل العون، وأنا لا أشاء ذلك إلا إذا شاء الله، دون أن يكون منك في ذلك تفعل، وتعمل للمراد المقصود، فإن الله ﷻ وإن كان قد أوثق بقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]، فقد أطلق بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل:١٩]، وما هو إلا أن تريد العمل وتصح فيه النية، فإن كان الله ﷻ قد شاءه، جعل لك المشيئة فيه، وإلا كنت مأجورًا على إرادتك، مثابًا على نيتك، فالإرادة مطلقة في الأغلب، والمشيئة موثقة، كما تقدم في القوة والقدرة فتيسير وتسخير، فما كان الله ﷻ ليكلف عبده فعل ما أوثقه عنه ثم يعاقبه على تركه، وإن كان ذلك بحكم الملك، فقد يسر له تقدير المراد الذي كلفه، بحكم الرحمة والتفضل على شرط التعمل وبذل الجهد، وعلى حكم التكليف بحق الملك وبذل القدرة على الفعل مبذول للبر والفاجر مع التعمل والعزم والشروع إلى المقدور، لكن اختيار الطاعة وإن كان في ذلك الكره هو عوض الثواب بالمعونة على ذلك العمل بحكم الجزاء، وفقنا الله وإياك لما يرضيه ويسرنا لمحابه، والعمل بطاعته، فلا حول ولا قوة إلا به، ولا مشيئة إلا مشيئته.

اسمه المتين ﷻ

معنى المتين يؤول إلى معنى اسم القوي، غير أن اسم المتانة ظاهر القوة، والمتانة في المحدثين تظاهر القوى وتظافر الأبعاض، حتى إذا حصل عن ذلك تلذذ الأعضاء، وحسن البنية والصلابة، كانت المتانة وبالجملة فالمتانة في الأجسام غالبًا، والقوة في الصفات، يقال من ذلك: متن الرجل، وغيره متانة: فهو متين والمتن في الإنسان وغيره القوى، ومنه سمي: المتن الذي هو الظهر، لأنه موضع القوة، وعنه تتفرع أنواع القوة التي هي القوى ومتن كل شيء ظهره.

واعتباره

تطلب حقيقة معنى هذا الاسم الكريم للمسمى به ﷻ، ولا تستقيم معرفته على هذه الجهة ولا على سبيل هذه المعاني، إذ لا يصح في وصفه المتن، ولا الصلابة ولا اجتماع أبعاض ولا ما ينحو نحو هذا، لكنه قد جاء هذا الاسم في الأسماء الحسنى، وورد به القرآن الكريم، وانعقد عليه الإجماع وحديث رسول الله ﷺ، وكما لا يسمى ﷻ بما لم يأذن به، لأن ذلك من الإلحاد في أسمائه، فلذلك لا يترك اسم له تسمى به في كتابه؛ لأن

ذلك تفريط من العبد في حق ربه عز جلاله قبله وتقصير في إيمانه، وهو ﷻ لا يسمى إلا بما هو صفة له، ولا يتصف إلا بما هو الحق، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[الأنفال:٦٠]، فقد سمى ﷻ أبعاض القوة، وقد تقدم أن اجتماع أبعاض الظاهرة من القوة؛ هي المتانة، وقال لوط عليه السلام يخاطب قومه ليلة زاودوه عن ضيفه لما ضاق بهم ذرعًا: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: كنت أنتصر منكم، أو آوي إلى ركن شديد فينصرني ويمنعني، تكلم عليه السلام على مجرى العادة، ولذلك قال النبي ﷺ: «يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[(1)] أي: من قرب نظر الله ﷻ له وحسن تداركه إياه، يكشف ما نزل به.

والعادة جارية أن اشتداد الركن فيما هذا سبيله بكثرة الأنصار، وشكة السلاح، وكثرة الجنود، والعدد وكمال العدة، وهي معنى قوله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠]، واحمل ذلك في قوله، جل قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[التوبة:١٢٣]، وما من شيء خلقه الله ﷻ، إلا وهي قوى أو أبعاض قوى، فمجمل ومفصل، إلى أن يأتي الوهم بالاستقراء على جملة المخلوقات، فله الأمداد السماوية والأرضية من الملائكة عليهم السلام والرياح والسحاب، والجن والإنس وغير ذلك، وقوى أولئك كلهم وصفاتهم، وقوته أقوى وصفاته أمتن، ألا تراه أنه بصفاتهم يهلكهم وينجيهم، وبإرادتهم يسوقهم إلى مراده وإرادته من حتفهم أو صلاحهم، وهو ﷻ إذا أراد إهلاك من أراد إهلاكه؛ ربما أهلكه بيده وسعيه، وربما أخرجه على نفسه فأهلك نفسه، مختارًا لذلك متعاطيًا له، وبأي وجه أراد أهلكه به من الوجوه إلى هذا، وما هو أكبر من هذا الإشارة بقوله الحق: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وبقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]، لما ذكر اسم الرزاق؛ أصحبه القوة وأضافها إلى نفسه جل جلاله، ثم قرن بذلك اسم المتين لما قد جرى به العادة، أنه متى شاء إظهار فعل اسمه الرزاق، يسر لذلك من جنوده، وسخر له من قوى خليقته ما شاء إلى إنفاذ ذلك.

ويدل على صحة ما ذكرناه؛ أنه قرن اسمه القوي باسم العزة، حيث جاء في القرآن كقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

---

(1) رواه أحمد (٢/ ٣٥٠) والترمذي في التفسير (٣١١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الشيخ شاكر على المسند.

[الحديد] و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج]، في الموضعين من كتابه والعزيز المنيع، فقرن باسم القوة اسم العزة عند النصرة والانتصار، وهذا كان مطلوب لوط عليه السلام، ولما ذكر صفة النبوة؛ أتبع ذلك اسم المتين، فلا أحد أقوى جنودًا، ولا أكثر أنصارًا، ولا أكمل أسبابًا تكون عنها المتانة من الله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه، وهذا موضع الوقف في هذا الاعتبار، ليس ينبغي لعبد من عباد الله أن يتعرض من التعرف إلى أكثر من ذلك، فذلك سبيل سد وعمل في غير معتمل، والله لا يحب المتكلفين.

التعبد

قد تبين لك ـ وفقك الله وعلمك من علمه ـ أن ربك جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه هو ذو الجنود، وأن كل شيء فهو في قبضته، ومأسور في ذلة مملكته؛ مصرف في طاعة تسخيره ما شاء من ذلك كان وما لم يشأ، فالجنة وما دونها وجهنم وما فوقها، وجميع ما عمه اسم الإيجاد وشمله حكم الكون جمل وأبعاض جمل، وقوى وأبعاض قوى للجملة التي ملأت مكان الكون واتهمت الكون، واتهمت المقدار الذي خطه القلم، واحتوى ذكره اللوح المحفوظ، وكل ذلك منقسم إلى سبيل الترغيب والترهيب من جهة ما، فلذلك؛ فالزم التوحيد المفرد، رجرده في قلبك كل التجرد ولا تخافن شيئًا إلا الله، ولا ترجون شيئًا سواه، فإنه وإن كان قد خوف من النار ورجّى الجنة، وحذر من الفتن ورغب في الخير، وإنما كل ذلك من الله وبإذنه وبمشيئته ولذلك قال على حكم البسط ومقتضى خطاب التوسعة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمرن:١٣١].

وارج اليوم الآخر وما أشبه هذا، ثم يمحو ذلك بحكم القبض ومقتضى خطاب الحصر، فيقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، ويقول: ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، ويقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الطلاق:١٠]، وعلى الحقيقة فلا تخافن المتانة وخف المتين، ولا ترجون القوى وارج القوي، والمتين من أسماء الذات جل جلاله وجاء اعتباره في أحكام أسماء الأفعال؛ لأمر إلى ذلك دعي من قصور علومنا وضيق صدورنا، تبارك وتعالى تعاليه وكبرياء عظمته وجده، فاعلم ذلك، فهذا السبيل فاتبع، وإياك إياك أن تبتدع.

اسمه القاهر والقهار جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: قهر يقهر قهرًا: فهو قاهر على بناء اسم الفاعل، ويبالغ فيه بقهار، وقد قهر يقهر قهرًا إذا غلب، والقاف والراء والهاء بأطباعهن يعطين الغلبة والاضطرار، ويدللن على ذلك من حمل المقهور على المشقة والصعوبة، وإخراجه عن مراده إلى مراد الظاهر له

من ذلك القهر، وقد تقدم معناه وما دلت عليه حروفه بتركيبها، ومقلوبه: رهقت الرجل أرهقته، أو الشيء رهقًا؛ إذا غشيته، وكذلك قولهم: أرهقت فلانًا أمرًا صعبًا حملته عليه، وقولهم: أرهقناهم الخيل من ذلك، وأرهقنا الليل: دنا منا، كل ذلك حكم الغلبة ظاهر عليه، ومنه تسميتهم الجهل والعبث والظلم رهقًا، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦]، ومنه قول موسى للخضر عليه السلام: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف:٧٣] أي: عنتًا ومشقة، وقيل للرجل الذي كثيرًا ما يتهم بالسوء: مرهق من ذلك أيضًا، وكذلك الرجل الذي ينزل به الضيفان كثيرًا: مرهق، وأرهقنا الصلاة: أخرناها إلى آخر وقتها، والرهق: العظمة أيضًا.

الاعتبار

القهر فعل للقوة، والله أعلم، ولذلك كان الاسم مترددًا بين أسماء الذات وأسماء الأفعال، وكما الفعل عن القدرة، فكذلك القدرة عن القوة وبولغ فيه بقهار كفاعل فعال، ولما كان من صفات الجبروت والعلو والكبرياء والعظمة، كان اسمًا ذاتيًا، وهو موجود في بعض معاني اسم الجبار جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه يحصل مراده من عباده وبمشيئتهم وغير مشيئتهم وكرههم ورضاهم، وهذه خاصة اسم القهار، والقهر غلبة الذوات وصرف صفاتها إلى حكم القاهر ومشيئته فيها ومنها، كما خاصة اسم القادر تقدير المقدورات وإخراجها من القوة إلى الفعل، فاعلم ذلك.

فمتى واقع الحكم من القاهر صفتي العلم والعقل من المقهور كان السهو أو الذهول أو النسيان، وعلى أي وصف كانت مواقعة القهر من المقهور حال وقوعه صفتي العلم والعقل يكون ميل القهر إلى الصفة المصابة بذلك القهر، فإن واقع ذلك القهر المقهور صفة القدرة كان العجز ولم تكن قوة ولا فعل يظهرها، وكذلك إن واقع القهر من المقهور صفة القدرة لم تكن استطاعة ولم يكن أيضًا فعل ولا تقدر مراد وإن كانت القوة في حكم الإطلاق لأن يكون أمر يتم في صفة القوة باطنًا.

وكذلك إن واقع صفة الإرادة والمشيئة كان الكره والاضطرار والبغض، فربما فعل هذا المقهور الفعل مكرها مضطرا إلى فعله مبغضا كالماشي برجليه إلى موضع مقتله فيفعل السعي في قطع تلك المسافة مقهور الإرادة، مطلق القدرة القوة على ذلك من فعله، وكذلك إن واقع القهر من القاهر صفات المقهور، كل ما كان الجبر والجبل والفطر والعجز كله، وما نحا نحو هذا، وعلى نحوها ما يقدم عليه فهو القاهر من مشيئة القاهر في صفات المقهور يكون الإيثاق وصفاته؛ كالجبر والاضطرار والجبل والفطر والعجز

والجهل، وما يتبعه من السهو والذهول والنسيان وشبه ذلك، والإطلاق وصفاته كالتيسير والتسخير والمطاوعة والموافقة وشبه ذلك، والقهر في الأجل ظاهر جلًا في تقدير المقادير إخراج المقدورات على سواء سبيل مراده منها، مع ما يصحب من خاصة خواص أسماء سواه في تقسيم الحظوظ من الدنيا والآخرة، وإعطاء الحصص، وتنزيل المنازل وترتيب المراتب، ثم ظهر جدا في سبيل سنته، والمفهوم من قوله ﷻ: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٣] أي: قدر فهدى لما قدر كان في ذلك من سوق الذوات بصفاتها، طائعة بإرادتها أو مكرهة الإرادات إلى إتمام مراده فيها ومنها، وتكميل ذلك الذي ظاهره قول رسول الله ﷺ: «عجبت لقوم يساقون إلى الجنة في السلاسل»[1]، وقول القائل: ستساق إلى ما أنت لاق، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الأنعام:١٨]، هذا إخبار منه عن سريان قهره في الظواهر بخبير، وهذا إخبار منه أيضًا عن سريان قهره في البواطن.

التعبد

أي أخي، عليك بالعزم على العمل بطاعة ربك وابتغاء محابه وطلب مرضاته، وأحذرك التسويف؛ فإنه بطأ بالمسارعين وخلف المتثبطين، احرص على ما ينفعك، وإياك واللو فإنها تفتح عمل الشيطان.

واعلم أنه لا يصح اعتلال الجبرية مع صحة القول بوجود القوة، ووصف المكلف من أجل ذلك بالطاقة على فعل المأمور به، كما لا تصح دعوى القدرية مع القول بعدم القدرة في غير وقت الفعل، ووجودها حال الفعل ولا قبله ولا بعده، بل من كان موصوفًا بأنه مقهور مسوق بصفاته إلى مراد القاهر له منه وفيه، أنه يصح له دعوى في نفسه وفعله، كما أنه من كان موصوفًا، فإنه ذو إرادة ومشيئة، وعلم وعقل، وقوة قائمة ممسكة بإمساك من الممسك بجملته، وأنه مع ذلك ذو زعامة ودعوى ورعونة موجودة به، يعلم ذلك من نفسه، كيف يصح له اعتلال بأنه مجبور على فعله، وهو يشهد نفسه بخلاف ما يذكره، وكلا الفريقين ينقض على القائلين بالاستطاعة، النافين للقول بالجبر، والمتبرئين من القول بالقدر، وعدل القول في ذلك - والله أعلم - وجوب ائتمار المكلف في امتثال الأمر المتوجه إليه من قبل بارئه ﷻ؛ لأجل موجود إرادته واختياره وقوته، وكونه غير عاجز عنه؛ بل هو متصف بأنه مطيق.

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٠) وأبو داود في الجهاد (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد تقرر في صحيح التمييز أن الله ﷻ ما كلف عباده، إلا دون ما هو موجود في قوتهم، وإلا ما هو دون طاقتهم، وكذلك أيضًا تجب عليه المسارعة إلى التبرؤ من الحول والقوة إلى مالكها، وطلب المعونة والهداية منه ﷻ، القاهر لذوات العباد دونهما لاكتناف حكمي الضرورة والجبر، طرفي فعل المستطيع أوله وآخره، إذ أوائل الأفعال كلها منبعثة عن غيابات الملكوت، منقدحة عن خفايا خزائن الغيب، وآخره تصوير تمام المراد، والتصوير لا محالة موجود عن اسم الفردانية، هو الله الذي لا إله إلا هو، المفرد كل ذي صورة وشكل بصورته وشكله، لولا لطيفة الإفراد لكل مقصود بها أفرد به؛ لما امتاز شيء من شيء، وكذلك ليس من اكتساب المكتسب بسبيل، وإنما حظ المكتسب من الفعل من هذين الطريقتين محاولته ومزاولته على سبيل سنة الله ﷻ التي سنها لمحاولة ذلك المقصود، بشرط تجديد الله القدرة له حال الفعل، لا قبله ولا بعده تجديدًا بعد تجديد، بتدقيق اتصال دون انفصال متوهم إلى تمام الفعل، فقد كادت الجبرية أن تعذر لولا وجود القوة والاختيار، اللذين كان من أجلهما البلوى والاختيار.

كما أنه قد كاد أن تتوهم الصحة في دعوى القدرية لولا عدم القدرة في حين الفعل، وخروج طرفيه عن حد الاختيار والكسب، والصحة والوجود، لم يمكن جحد الضرورة، ولما وجد الفعل ولم يكن بد من إضافته إلى فاعل فعله، كانت إضافته إلى محله الموجود عنه أولى مع وجود شروطه هو حياة المحل وقوته، واختياره وعزمه عليه وتحركه نحوه، وبوجود القدرة التي كان بها الفعل المتحرك إليه كانت الحركة ظاهرًا أو باطنًا.

وبهذه الصفات استاق القاهر الحق المقهور عن إرادة نفسه إلى إرادته هو منه، واستاق أيضًا إرادته بأن لم يجعل له مشيئة في إرادته، ولا إرادة في مشيئة بل غيبه عن معنى نفسه وأشهده معنى ما أراد منه، ثم جعل إرادته ومشيئته في ذلك إلى ما أراده: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

ثم كانت تسمية ذلك الفعل اكتسابًا أولى؛ لأنه موجود بواسطة قدرة محدثة تفوقه، بينه وبين ما يوجد عن القدرة القديمة، إذ ذلك هو الخلق والاختراع والابتداع والإبداع ونحو هذا.

فكن - وفقك الله - في كل فعل من أفعالك لربك، وعمل من أعمالك، على ثلاثة عقود، أما أول توجه الأمر فالعزم الجزم على تنفيذ المأمور به، واستشعار التبرك بأسماء ربك ﷻ، وتحقيق العقد على معنى قولك: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وأما في حال انتهاضك إليه، ومعالجتك إياه، فطلب المعونة والتوفيق من مالكها، وتحقيق عقد القلب على معنى قوله:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وأما في آخره فالتبرؤ من الحول والقوة، وترك الدعوى بأجمعها، ثم تحقيق العلم على معنى قولك: الحمد لله رب العالمين وبالجملة، فلتكن في تعداد النعم كلها جبريًا، وفي تعداد الذنوب كلها قدريًا، وفي محاولة الطاعات كلها والأعمال أجمعها، متطوعًا لربك، مؤتمرًا مستطيعًا، ولا تذهبن أسماء ربك عنك صفحًا، واعبده بكل معنى من معانيها، وحصل ما خوطبت به، والقن عن ربك، وأجمل كل معنى من معانيها على أخص مواضعها التي فيها جعلها، وفي مراتبها التي عليها رتبها، فذلك سنن الهدى والصراط المستقيم، فهمنا الله وإياك عنه، وعلمنا من علمه واستعملنا بما علمناه لوجهه الكريم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨].

اسمه البديع المبدع

يقال من ذلك: بدع يبدع، فهو مبدع وبديع مبالغ من بادع من بدع يبدع، فهو بادع، مثل ضرب يضرب فهو ضارب، وقدر يقدر فهو قادر، والبدع: إحداث الشيء، والبدع أيضًا: الأول من كل شيء، وقد جمعهما قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩] أي: ما كنت أولا من الرسل، وما كان هذا الذي جئت به شيئًا، ابتدعته أو أحدثته، بل قد أتت الرسل من قبل من كان قبلكم بمثل ما أتيتكم به قول، ولذلك قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف:٩].

وقد يكون معنى الإبداع: القطع، ومنه قيل: للحدث في السنة، والدين بدعة؛ لأنه قطع بالدين والسنة، أو بما يقابله منها، ومن ذلك قولهم: أبدع بالبعير من داء يصيبه، وأبدع بالرجل حسر عليه ظهره، ويقال: أبدع فيه أيضًا، كل ذلك معنى القطع فيه ظاهر، ومنه قول الله ﷻ جوابًا لافترائهم، حيث ادعوا في إبداع الله ﷻ البناء والأرض، وما بين ذلك اللعب واللهو بإنكارهم البعث، وتقويض السماء، وتبديل الأرض والسماء واليوم الآخر وما فيه، لو كان ما ذكروه عدمت الجملة في المصنع، كما قال جل قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، إلى آخر المعنى، فقال جل قوله رادًا على سوء معتقدهم، وقوله الحق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٦، ١٧]، فلو اتخذه من لدنه ﷻ لم يكن لهوًا ولا لعبًا، بل كان يكون الحق؛ لأنه هو الحق المبين، وما كان عن الحق فهو الحق، ثم قال جل قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء:١٨] الذي هو الأمر والقول منه على

الباطل، أي: على بطل العدم، فإذا العدم زاهق بما خلفه من وجود الإبداع، وقد يكون معناه: بل نقذف بالحق الذي هو من لدنًا، ونحن له أهل على الباطل الذي زعمتم، فإذا هو زاهق بالحق الموجود خالقًا له ردا على من يقول: إن الفاعل الأول ينبغي أن يكون غير حكيم، قالوا: وإنه لابد من فعل عبثي، وهذا قول المخمسة تعالى الله عن قبيح افترائهم علوًا كبيرًا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، لو اتخذ جل وتعالى لهوًا من لدنه لم يكن إلا الحق، ولم يكن إلا ما يلهي عن سواه، فكان يكون الوجود ذكرًا له وعبادة، وخوفًا وحياء دائمًا أبدًا، لا يتعاقبه نسيان ولا غفلة، وكما أن اللهو المذموم؛ هو ما يلهي عن ذكر الله وشكره وحسن عباداته، واللهو المحمود إذا هو ما أنهى عن سواه وذكر به، كعلمه هو بنفسه جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه، وقد جعل للملائكة عليهم السلام من ذلك الحظ الجزيل، ثم لأنبيائه وأوليائه هم درجات عند الله عليهم السلام أجمعين.

الاعتبار

قد تقرر أن البديع هو المبدع الشيء الفاعل له أولًا الذي لم يسبقه فاعل إلى فعل مثله، وقد يقال للشيء المحدث إذا كان حسنًا جدًّا: عجيبًا معجبًا بديع، وعلى كلا الوجهين يتخرج قوله ﷻ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١١٧] فيكون معناه موجد السماوات والأرض وفاعلهن وخالقهن لا على مثال سبق، ولا من شيء خلق، كون من ذلك ما كون كما يقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [السجدة: ٤] فأظهرهن، ونحو هذا، فهذا وجه.

وقد يكون معنى بديع السماوات والأرض بمعنى أنه زين السماوات والأرض كما قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٣٥] أي: أضاء به السماوات والأرض، وبه قامت وبأمره أمسكت، وبه حسن كل شيء منهن، وشأنه هو العجب المعجب فيهن، وقد يؤول ذلك على معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٢] فذلك الحق هو بديع السماوات والأرض، أي: زين السماوات والأرض على ما تقدم من التأويل، فآثاره ﷻ في الخليقة، ومعاني أسمائه وصفاته في العلم، هو زين السماوات والأرض، فهو إذا بديع السماوات والأرض بمعنى أنه موجدها ومخترعها لا على مثال سبق، وبمعنى أنه زينهن ونورهن، وبه حسنهن وقوام أمرهن كله، وبكل وجه من الوجوه الإبداع ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١١٧] لا إله إلا هو ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

والإبداع من المبدع عنه يكون العجب من الناظر أو العالم به في الشيء والمبدع، تقول العرب: يا فلان، ألا أعجبك بمعنى، ألا أسمعك ما لم تسمعه، وأريك ما لم تره، ولذلك قال عز قوله في معنى التعجيب بما أبدعه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]، إلى قوله جل قوله: ﴿حَسِيرٌ﴾ [الملك:٤].

فعجب عز جلاله من حسن إتقان مبدعاته، وعجيب ما أوجده من كريم مصنوعاته، ومن نظر بعيني قلبه إلى عجيب إبداعه ﷻ السماوات والأرض، وما بين ذلك، وما فوقه من العرش العظيم والكرسي الكريم، وما بين ذلك من طرائق الأفلاك ومجاري الكواكب وتسخيرها بأمره، في مطالعها ومغاربها، وخنوسها وكنوسها، واستقامتها في مجاريها، ومقابلة بعضها بعضا، وافتراقها واجتماعها، وقرب بعضها من بعض وبعدها، وثبوت الثابتات بما جعل فيها، وما جعل في ذلك كله من الحكم والأمر، وإلى جميع رؤوس العالم من الملائكة، وما له أوجدها، والجن والإنس، وما حوى ذلك كله، وأنواع النبات بما جعل فيها إلى غير ذلك، كيف لا يكثر عجبه ويعظم بربه فرحه الذي اقتدر على ابتداع هذا الصنع البديع المعجب، صوّر فأحسن، وخلق فأتقن، وقدر فهدى، وأحسن الإحسان كله، ووالى وأحكم في لطفه، ولطف في حكمته، فأعجب بما أبدع، ثم أسمع وأبصر بما صنع، إنما يعجب بظاهر الدنيا من لا يرى نزهة الملكوت، وأعجب من نزهة الملكوت رؤية مبدعها في إبداعه، ومشاهدة صانعها في مصنوعاته، عن أي علم تقدر هذا العجيب المعجب، وعن أي قدرة أظهر، وأي قوة بها قهر ما قهر حتى قارب ما بين المتباعدات، وباعد ما بين المتقاربات، وزم أوابد المتنافرات، وألف بين المتضادات، ومزج بين المتباغضات فمشج الأمشاج بحكمته، وآثار الكون من العدم بقدرته حتى أبدل العقول حكمته ظللًا قائمًا، وشخصًا مائلًا يتصاغر لكبريائه، ويتضاءل لعظمته، ويقنت لعزته، فأنت وجل الفؤاد لربك، وتسبح بحمده حنيفًا مسلمًا:

وَكَــأَنَّ جُمْلَتَهَا مُصَـلٍّ قَانِتٌ   وَجِـلَ الفُؤَادِ لِـرَبِهِ يَتَعَبَّدُ
مسْتَقبل العَرْش الكَرِيم بِوجْهِهِ   وَالمَوضِع الكُلِي مِنْهُ المَسْجِـدُ

التعبد

التعبد بمقتضى اسمه البديع ﷻ النظر في مبدعاته، ومداومة التفكر في مصنوعاته مع استفراغ الجهد في ذلك، والتجرد له بالكلية، باستقراء ذلك في مظانه ومجاري طرقانه، ثم تتفعل بجهدك، ما أوجد عليه بدائعه، من طول القنوت، ولزوم طاعته:

يَا أَيها الرجل المَخْلُوق مِن عَجَلِ   لَا تبق وَيْحَك بطالًا بِلا شُغْلِ

إِنّ الكَواكِبَ وَالأَفْلاكَ فِي قربٍ   مَعَ العَوالم لَا تَبْقَى بِلا عَمَلِ

ولا تبتدع في عملك فتكون قاطعًا لما له أوجدك من العمل بشرعته، وإليه أهلك من الاستنان بسنته، فارتبط وفقك الله لذلك ورابط واصطبر على عبادته وصابر، فعن قريب يرجعك إليه فيجزيك بأحسن ما عملت، ويقدمك على أكرم ما قدمت، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

اسمه الخالق والخلاق جل جلاله وتعالت أسماؤه وصفاته

الخالق الصانع، والخلاق مبالغة من خالق الخلق فعله، والخليقة جماعة المخلوقات، وقد يعبر عن المخلوقات بالخلق تجاوزًا وتساهلًا.

اعتباره

معنى الخلق وإن تفرق إلى وجوه الجمع مع الصنع للصنع؛ لذلك قيل لأخلاط من الطيب منها الزعفران الخلوق، وقد تخلقت بالخلوق إذا تضمخت به، والفعل التخليق، والأخلاق ما طبع الإنسان أو غيره عليه، أو يطبع به، وقيل للمرأة المعتدلة الجسم والخلق: خليقة، لاجتماع ذلك فيها خلقًا وخلقًا، وقد تخلقت هي خلاقة، وكذلك المختلق من كل شيء المعتدل، قيل لذلك: لاجتماع صفة الاعتدال فيه، وقيل للسحاب إذا تجمع واستوى: اخلولق السحاب، ومنه قيل لجماعة المخلوقات: خليقة، والخالق الجامع المواد للصنع ذلك يدل على نفس الجمع، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان:٢]، وقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج:٥]، إلى آخر الآية، تخبر بذلك كله عن معنى الجمع، وقال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه نطفة أربعين يومًا، ثم علقة مثل ذلك....»[1]، وقال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

فهذا الفعل قد يعبر عنه بالجمع تارة، وبالخلق أخرى.

وقد جاء الخلق بمعنى القطع والخرق، قال الله ﷻ فيما حكاه لنا عن قوم كذبوا رسل ربهم إليهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٣٧] يريدون بذلك؛ هذا كلام قطع على مقدار حديث الأولين، ومنه قول القائل:

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨) وفي أحاديث الأنبياء (٣٣٣٢) وفي القدر (٦٥٩٤) وفي التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وَلا يَئِطُّ بأَيدي الخالِقِينَ وَلا أَيدي الخَوالِقِ إِلّا جَيِدُ الأَدَمِ

ومن قولهم: خلقت هذا على هذا، أي قطعته على مقداره، وقيل للحظ: خلاق، أي: هو ما اقتطع له من نصيب، وخلق الشيء خلوقة، فهو خلق وأخلق، إذا بلي وثوب خلق وإخلاق، وثياب خلقان وأخلقني ثوبه خلقًا، كل معناه القطع والخرق، وقد تناول هذا الفصل من معنى اسم المقدر على ما سيأتي في بابه إن شاء الله، وإنما هو الأمر من عند الخلاق العليم ﷻ ينزل خاصًّا أو عامًّا، إلى حيث سبق التقدير بالمشيئة العالية، والعلم السابق لما تضمنه التقدير الأول من كون، وكل شيء لذلك الأمر مطيع، وله سامع خاضع، فيجتمع إليه بإذن الله تبارك وتعالى ما جاوزه مما نأى عنه، ما قصر بالأمر بذلك مما تضمنته المشيئة العالية، والقدر السابق؛ فيتحقق المراد، فافهم.

فإن كانت نطفة سبق الأمر، أي: النطفتين شاء الله، وأيهما سبق، كان له الكون وإليه المجتمع في الخلق من تذكير أو تأنيث أو شبه، وربما لم يسبق أحدهما فلم يكن المكون إلا إياهما معًا، أو إلى حيث كان الشف منهما، والبذر والغراس في أرحام الأرض كالنطف في مستقرها، وربما لم يكن بذر، فيكون من الأمر ما يقوم مقام البذر، وبتسبيق المشيئة العالية لأي نوع كان المقصود المخلوق، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر:٥] والحق من أمره، والله غالب على أمره، هذا في الرؤوس المخترعات والمبتدعات، وفي الأنواع المتناسلات؛ إنما هو الأمر جملة وتفصيلًا، مجرد أو بواسطة بذر، وهذه جملة تغنيك، مع تفهمها والتفكر في مقتضاها، والتبصر في معاني ما يؤول إليه عن الإكثار والتطويل، إذ هو باب؛ هو البحر، ما لا يدرك غوره؛ بل البحر عن بعض أجزائه، وربما يتيسر الإفهام مع تقليل الكلام، فتتبع ذلك وفقك الله في طرقات مجاري الأمر من طبقات العالم، بإيمان جزم وطمأنينة نفس تكن إن شاء الله من الموقنين.

وعلمك أن الله ﷻ هو خالق الأعيان والآثار والجواهر والأعراض، والخير والشر والأوصاف والصفات، وأنه لا يخرج عن صنعه وخلقه كائن، ولا حادث يقتضي أن العباد كلهم تساووا في خلوهم من الحول والقوة، ورجوعهم إليه بصدق الافتقار كونًا، فمن وصل ذلك منهم بعقله وعمله شرعًا فقد وصل ما أمر الله به أن يوصل، ووجب على ﷻ معونته بإيجابه إياه على نفسه.

التعبد

اعلم أن من آداب من عرف أنه الخالق جل وعلا أن ينعم بنعم النظر في إتقان خلقه؛ ليلوح له دلائل حكمته في صنعه، فيعلم أنه خلقه من تراب، ثم من نطفة، وركب

أعضاءه، ورتب أجزاءه، فقسم تلك الفطرة، فجعل بعضها مخا، وبعضها عظمًا، وبعضها عروقًا، وبعضها أنيابًا، وبعضها شحمًا، وبعضها لحمًا، وبعضها جلدًا، وبعضها شعرًا، ثم رتب كل عضو على ترتيب يخالف صاحبه، وخص كل جزء بترتيب يخالف مجاوره، ثم مد من باطن تلك الفطرة معاني صفات المخلوق، وأسمائه وأخلاقه؛ من علم وقدرة وإرادة، وعقل وحلم وكرم، ونحو هذا، وأضداد هذا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم إنه ليقسم الطعام والشراب على هذه الأجزاء، ويوصله إلى هذه الأعضاء، فيجعل لكل عضو ما يلائمه، وعلى النحو الذي تقدم ذكره من التنويع، فسبحان الذي يعلم هذا الذي يخلقه، كيف يخلقه، وكما أنزل أمره، فاجتمعت إليه مواد المصنوع بإذنه، فقلب أعيان المجاورات والمباعدات إلى سنن الكون في الكون حال المكون، فاقض وفقك الله قطعًا بأنه أيضا ينزل أمره بعدما فرق ما جمعه، وأحال ما كونه، وأعدم ما أوجده، وغير ما هيأه؛ فيجمع ما فرق، ويقرب ما بعد، ويرد من كل ما أخذ، ثم يكون ما أفسد، ويهيئ ما غير ويوجد ما أعدم ويحيي ما أمات، وذلك هو البعث والنشور والمعاد، وما هذا سبيله.

ذكر أن سنيا ناظر قدريًا في مسألة عن القدر، فقطف المعتزلي تفاحة من شجرة ثم قال: ألست أنا الذي فعلت هذا؟ فأجابه السني بأن قال له: فإن كنت فعلته أنت فرده أنت على ما كان عليه، فانقطع لذلك.

ولتعلم أنه من سعة قدرته، وعظيم اقتداره، وسع مجاري قدرته ونوع أفاعيلها، فخلق كسب المكتسبين، واستطاعة المستطيعين، منفردًا بذلك مقتدرًا عليه، فلا تدعي القدرة على أعمالك، ولا تجحد لذلك ما صنعه بك، ولا ما أسداه إليك وأنعم به عليك، ولا تجعلن ما خلقه فيك مما تحبه أو يزيدك به حجة لك، فيما يطالبك به من مراعاة حقوقه، فيكون خصمًا خذلًا مبدلًا نعمة الله كفرًا، فإنه مجرد الخلق من الحق تبارك وتعالى، لا يكون عذرًا للعبد في سقوط اللوم.

اسمه المقدر واسمه القاضي جل جلاله

القضاء بمعنى التمام، قال الله تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الإسراء:٤] أي: حتمنا وكتبنا، والقدر هو التقدم بالعلم في الأمور، وهو القدر مخفف، وقد يكون القدر اسمًا لما تقدم فيه بالعلم، وهو: المقدار فعل ومفعال، كربع ومرباع، وقدر وفعل من القدر، والتقدير تفعيل منه، ولما خلق الله جل جلاله القلم واللوح، قال للقلم: اكتب، قال: يارب، وما أكتب؟ قال: اكتب المقدار، وفي أخرى، قال: اكتب علمي في خلقي إلى يوم القيامة، وفي أخرى: اكتب ما هو

كائن إلى يوم القيامة، فمعنى قوله: المقدار والله أعلم أنه مقدار لإخراج الأكوان، قال الله جل قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] أي: قدره على المقدار الأول تقديرًا لا زيادة فيه ولا نقصان منه، ولو كان قد خلق الخلق لا على مقدار تقدم بالعلم فيه؛ لكان قد خلق ما لم يعلم، وقد تعالى عن ذلك سبحانه، ولو كان قد تقدم بالمقدار والتقدير ولم يخلق عليه؛ لكان قد أراد شيئًا، ولم يكن ما أراده جل عن قدره، وكتب المقدار في اللوح المحفوظ لهم لا له، قال الله ﷻ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ [طه:٥٢]، ثم قال: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[طه:٥٢] أي: لم يثبت علم القرون الأولى، وعلى ما كان ليذكر بذلك أو ليهتدي به،وإنما ذلك لما كان في علمه أنه يوجدهم بصفاتهم وأسمائهم من عقولهم واختياراتهم، وزعاماتهم ومعانيهم كلها، فعمل كل باختياره وإرادته وكرهه، أراد جل وعز أن يريهم أن جميع أعمالهم على اختلاف طرقها، وتباين الأغراض إليها مثبت ذلك كله قبل وجودهم وكونهم، قال الله جل قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ:٣] فأجابهم ﷻ بقوله: يا محمد ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ [سبأ:٣]، والشهادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ:٣]، ثم قال ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[سبأ:٤]، إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [الحج: ٥١]، إلى قوله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، فهذه الجملة تنبئ عما ذكرناه.

الاعتبار

الأصل المفهوم من القدر، القدر العدل في الأمور كلها، والكائنات أجمعها، وأنه وإن كان مترددًا بين صفتي العلم والقدرة، وعلى حكم المشيئة يكون القضاء والحتم والتمام؛ ما كان من القدر بمعنى التقدم في الأمور التي عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقها بخمسين ألف سنة**»[1]، فهي بمعنى العلم، وما كان منه يصحب الفعل حال تكوين المكونات، وخلق الخليقة من تقدير الأمور، وتقسيط القسط، وتقسيم الحظوظ المقدرة في الأزل، فذلك بمعنى الفعل؛ لتبيين لتنفيذ ما سبق به العلم، وعن اسم المقدر ومعنى التقدير يكون حدود مقادير الأشياء، وما عليه تكون الأكوان من ترتيب المراتب، وإعطاء الحصص، وإنزال النزل، فيقدر ذلك كله على سبيل

(١)سبق تخريجه.

سنة العدل، وحكم الفضل، فلو أرسل ﷻ رسولًا مثلًا إلى الفخذ من الإنسان القدر، الذي يرسله إلى الإصبع منه، وإلى الإصبع المقدر الذي يرسله إلى العجز، وكذلك الأنف، وحاسة السمع والبصر والأذنان كذلك، والحدقتان مع سائر الأعضاء لكان الفساد كله، وما استقام شيء من المكون بل ما أقام شيء إلا يحسن تقديره مع حكمة تدبيره، وقد قال الله جل قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات:٢٠-٢٢]، فقدرنا بالتثقيل، أي: قدرنا القول الكون على المقدار الأول، قدرنا على ذلك، فنعم القادرون، ولذلك قال عز من قائل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٢٤].

التعبد

سبيل التعبد بهذا الاسم الكريم الإيمان بما سبق به التقدير في الأزل والطمأنينة للمستصحب معًا، منه حال الحدث والكون، وإياك والتعقب، وأن تقول: لو كان كذا، فإنما يستصحب ذلك أهل النفاق، قال أنس رضي الله عنه: صحبت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي في شيء فعلته: لم فعلت هذا هكذا؟ ولا في شيء لم أفعله، لم لم تفعل هذا هكذا؟ قال: عاتبني رجل بحضرته في شيء فعلته، فقال رسول الله ﷺ: «لو قدر هذا لكان»(١) وقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران:١٥٦]، وكثير مثل هذا في القرآن، فلا نكثر باستجلاب الشواهد عليه، فنسأل البر الرحيم الذي لا إله إلا هو أن يجعل رضانا تابعًا لحكمه، فهو أحكم الحاكمين.

اسمه البارئ جل وعز

ذكر الشارحون للأسماء أن قولهم: برأ معناه خلق، قالوا: برأ الله الخلق يبرؤهم براء أو بروءًا، أي: خلقهم، والبرية الخلق بالهمزة وغير الهمزة، والبرية من البراء وهو التراب، وحكوا ذلك عن العرب حكاية، قالوا: العرب تقول: بفيه البراء، تعني التراب.

اعتباره

جاء هذا الاسم الكريم الذي هو البارئ جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه بين اسمي فعل في قوله جل قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤]، وجاء مفعوله أيضًا

---

(١) الحديث رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٨) وفي الديات (٦٩١١) ومسلم في الفضائل (٢٣٠٩) وأبو داود في الأدب (٤٧٧٤) وأحمد (٣/ ٢٣١) وابن أبي عاصم في السنة (٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧]، و ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وجاء فعله أيضًا في قوله ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢].

فلو كان معنى قوله هنا من قبل أن نبرأها لا يفهم منه إلا ما يفهم من قوله: من قبل أن يخلقها، لما نسق ﷻ اسمه البارئ بعد ذكره اسمه الخالق، وقيل: ذكره المصور، وليس ذلك المعهود من براعة الكتاب المبين، ولا المعلوم من حسن إفصاح القرآن الحكيم.

وقد جاءت الروايات بتعديد الأسماء، وذكر الاسمين معًا في العدد، فلو كان مفهومهما واحدًا، لاستغنى بذكر أحدهما عن ذكر الآخر، ولم يكن رسول الله ﷺ يقول: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا»[1].

ثم يأتي بأسماء عدة، مفهومة بعضها من بعض دون زيادة فائدة، بل الحق في قول من قال: إن خلق الله صورة من الصور أحدهما تنوب مناب الأخرى، أو تقوم مقامها من كل وجه وعلى كل حال تكون هذه، بل لا بد من فرقان يفرق بينهما وإن تقاربت الأشياء جدًا، غير أنه قد يعبر بأحد المثلين عن الآخر، ويجتزئ بذكر أحد المشبهين عن شبهه، فنقول والله الموفق للصواب: إن الإيجاد والإبداع اسم عام لما تناوله عن معنى الإيجاد ومعنى إخراج ذات المكون من العدم إلى الوجود، وهذا حد عام في الإبداع.

واسم الخلق تناول جميع المواد الظاهرة للمصنوع الظاهر، وهذا حد خاص في الخلق، وتناول أيضًا معنى الحذو والقطع والخلق، على المقدار المقدر المتقدم فيه بالعلم والمشيئة في البدء، واسم التقدير، تناول تحديد مقادير الأشياء في الأزل، والتقدم فيها في الآخر، الحذو بالموجودات حذو المقدار، وردها عن سبيل السرف والتطفيف إلى حكم العدل المقدر عليه المثال السابق به العلم، واسم المصور تناول اسم التصوير، واسم البارئ تناول إيجاد البواطن من باطن ما خلق منه ذوات المقادير وهي الأجسام، وجعل الذوات ذواتًا في الكون محمولة في الأجسام محجوبة في الهياكل، وفي البدء إيجاد باطنًا وتقديرًا مرصدًا، لكنها مسواة بالحكمة، مقولة بالإقرار عند أخذ المواثيق في الأزل، مبرأة من العناد في العهد الأول؛ قانتة لبارئها مسلمة له، إلا ما كان منها في علم بارئها أنها به عاملة بعد فطرها وإطلاعها في هياكلها، وحجابه إياها عن حقيقة ما له أوجدها، وهو أعلم للجمع في قبضتيه الكريمتين ﷻ، ألا ترى أنه بعد تلبسها بما به تلبست وموافقتها إياه من

---

(١) سبق تخريجه.

معانيها وشهواتها وقعت كيف جعل لها الصور أصارها إليه، أبدلها بذلك من كريم يمينه سبحانه وبحمده.

وكان ﷻ يوم برأها على الإسلام له، والعمل بطاعته، ثم أظهر منها بالتقدير لها على ذلك، والإقرار له به والإذعان فكان الإقرار شهادة منها له وعليها، وكان قبل الإكبار له، والتوحيد والتسبيح له، عما هي عليه من النقص والافتقار والحدوث، وما تبع ذلك، والحمد له بما يستوجبه من المحامد على ما هو عليه من نعوت الجلال، وصفات الحمد والمجد؛ فكانت الجملة أصلًا لها أوليتها، وكونها قاصدة له، صامدة نحوه، ناظرة إليه، متوجهة حج منها إليه وله، وكونها ممسكة عن أجسامها التي سبق علم بارئها أنه يوجدها لها، وكانت مبعدة عنها بحكم العدم على تلك الأجسام عن التلبس بكثيف هياكلها، ونيلها منها معانيها، والمكتوب لها من شهواتها، والمقدر لها وعليها من أعمالها وأفعالها فيها صام في أوليته، وزكاؤها في الأول زكاتها، وهي طهارتها من التلبيس شيء مما لها سواء طاعة ربها والإقرار بالربوبية لها منه.

ويقال: برأ الله الخلق برأ وبرءًا، ففرقوا بين البرء والخلق قولًا، وإن كان الأكثر منهم تدأغلقه عقدًا وعلمًا، ولو كان على ظاهر ما قالوه من قولهم: برأ الله الخلق، أي: خلقهم، لكان معناه: خلق الله الخلق، ولم يكن الغرض المقصود منهم الإخبار عن خلق الله ذلك عقد، قد ثبت بغير هذا بل غرض القائل: برأ الله الخلق تفسير اسم البارئ ﷻ، وتعرف معناه وتبيين معنى البرء، فخلا الكلام من الفائدة، وجاء اسم ذكر الله ﷻ بما ذكروه على سبيل الإرداف والتكرار لغير فائدة، تعالت أسماء الله عن ذلك ﷻ.

ومما تبين أن البرء سبيله الغيب والإبطان قولهم: برأ السقيم يبرأ ويبرئ وبرئ أيضًا، وبرأ وبراء، أي: خرج من سقمه وتباعد عنه، والسقم باطن، والخروج عنه فعل باطن وإن ظهرت على ظاهر الجسم علاماته ودلائله، وكذلك قولهم: برئت من الغيب براء، أي: تباعدت منه، ورجل بريء، ورجال براء أيضًا للواحد والاثنين والجميع، وبارأت المرأة: صالحتها على المفارقة، وإنما كانت المواثقة بينهما عهودًا وأمانات، دلت عليها صدقه وأمارات، فسميت المفارقة على ذلك: مباراة، وقالوا: أبرأت الرجل من الأمر بمعنى: البراءة والإبراء حكم باطن، وكذلك قولهم: استبرأت الجارية، والاستبراء هنا من وجهين صحيحين: أحدهما: انتظار براءتها عن عقائب ماء فاسد وصحيح ولاد، والوجه الآخر: انتظار براءتها من دمها وتمامه، كما تقول: استبرأت البول، تريد انتظرت استيفاء الذكر منه.

كل هذا استبراء من باطن لا يظهر، وذلك لما كانت حقيقة الاستبراء انتظار البراءة من شيء مظنون غائب، وبراء الله ﷻ الأنفس في الآخرة من البراء، وخلق أجسامها الحاملة لها من التراب؛ لأن البراء هو باطن التراب، وإنما البراء البواطن من باطن ما خلق منه الظواهر، قال الله عز قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢]، والضمير راجع على الأنفس، وبرأ من البراء وهو الأول للتراب الذي ركبت عنه جملة الأرض، وهو بمنزلة الدخان للسماء، قال الله ﷻ لهم: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١]، فسبق الجواب منها الكون ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، كذلك قال الله ﷻ للذوات في أوليتها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ولله ﷻ سر في طرقات حكمته المبثوثة في خليقته، عبر عنها برموز الوحي ليس كغيره من الكلام، قال الله جل قوله: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:٤٥].

مما يزيد المتأمل الناظر في هذا الباب بيانًا أن المراد من مقلوب برأ هو باطن المخبر عنه، كقولهم: الأرب والمأربة الحاجة، والإرب والإربة مصدر الأريب، وهو العاقل، وقد أرب الرجل: عقل، والمأرب: المراءاة والمخادعة، والتأريب: التحريش بين القوم وتأرب علينا: تحرش، كل هذا إخبار عن باطن المخبر عنه، وإنما سمي الإرب عضوًا والآراب أعضاء من حيث هي جوارح الإرادات، فسمي ما ظهر بما يسمى به ما بطن حسب عادتهم في تسميتهم الشيء بما يقاربه أو كان منه بسبب، وقول عائشة ﵂: «وأيكم يملك إربه، كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه»[1].

لم يكن الغرض الإخبار عن العضو، بل عن النفس والإرادة، وإنه كان ﷺ يملك من نفسه وإربه ما لا يملكون، وقد جاءت الرواية عنها: وأيكم يملك إربه؟ تريد حاجته.

ومن ذلك أيضًا بأرت الشيء وابتأرته: خبأته، وتسمى الذخيرة: البئيرة على وزن فعيلة، والبئر معروفة والجمع: آبار وبئر، والبؤرة على وزن فعلة: الحفيرة تحفر للنار، وابتأرتها: احتفرتها، وبرئت لفلان إذا عرضت له، هذا كله إخبار عن بواطن ما يخبر عنه، وقولهم: بريت القلم أبريه بريًا، يدل على أن المبرئ كماله: تركيبه في حامله وإطلاعه من ظاهره، وقد تناول ذلك اسم الفاطر ﷻ يومئذ أوحى إلى الخليقة أمرها بما إليه أهلها وله أوجدها، امتد بنا طلق الكلام حرصًا على إفادة البيان، والله جل ذكره نسأله إصابة

(١) رواه البخاري في الحيض (٣٠٢) ومسلم في الحيض (٢٩٣) من حديث عائشة ﵂.

الصواب إلى سواء الحكمة، وفصل الخطاب.

التعبد

اعلم أن التعبد بمقتضى هذا الاسم الكريم: التوبة من كل منهي عنه، وإرجاع النفس إلى بارئها بكل مأمور به ومحبوب عنده، واستشعار الإيثار لمراده جل وعلا مرادها، وتذكير النفس بأخذه الميثاق عليها في أوليتها، وما أعطته من العهود في بدء أمرها وبنعماء بارئها عليها، كيف سواها في أحسن تقويم، وأقامها على الدين القويم، دين الإسلام صراطًا مستقيمًا، صراط الله الذي ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤]، فلما فعلوا ذلك بأنفسهم أنبأهم عن نفسه ﷻ بالتوبة عليهم، فقال: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وسبيل قتل النفس - وفقك الله - ترك هواها، والأخذ بها في خلاف مرادها، إذا كان في ذلك مراد بارئها، وجعل سبل البر وأفعال الخير لها هجيرًا ومنهجًا تروضها في ذلك وتسوقها إليه طوعًا وكرهًا، حتى يعود لها عادة وديدنًا، فحينئذ يموت مرادها ويستقيم لك هواها في مراد بارئها، ويسلس لك إلى طاعة ربها قيادها، نسأل الله البر الرحيم بكريم رحمته وجميل تحننه وعطفه أن يطهرنا من جميع الأدناس، فينقلنا من دناءة الأخلاق إلى ما يحب ويرضى إنه على كل شيء قدير.

اسمه الفاطر تبارك وتعالى

فطر الله الخلق يفطرهم فهو فاطر، والفطر الشق بوجه، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال جل قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]، ويقال للذي يحرث الأرض: فاطر؛ لأنه يشقها بالحراثة، وفي الحديث: «قام رسول الله ﷺ يصلي حتى تفطرت قدماه»[١].

والفطر أيضًا بوجه الظهور والطلوع، من ذلك قولهم: فطر ناب البعير إذا طلع، والتفاطير: أول نبات الوسمي، قيل له ذلك والله أعلم، لأنه أول نبات طلع على الأرض

---

(١) رواه البخاري في التهجد (١١٣٠) وفي التفسير (٤٨٣٦) وفي الرقاق (٦٤٧١) ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ورواه مسلم (٢٨٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

منها وظهر، والتفاطير أيضًا: بثور تبدو في وجه الغلام أول اقتباله، والفطر: ضرب من الكمأة؛ سميت بذلك لطلوعها عن الأرض بعد انشقاقها عنها، والفطر: أكل الصائم، يقال من ذلك: فطرت الرجل وأفطرته فأفطر، وتأول رسول الله ﷺ اللبن الحليب بأنه الفطرة، لأنه أول ما يتغذى به المولود ويفطر عليه عند خروجه إلى الدنيا، وسمي دين الإسلام فطرة، لأنه أول شيء لقيت الذوات يوم برئها والأجسام يوم جمع خلقها والخليقة كلها كذلك، قال الله جل قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم:٤٣]، وقال إبراهيم ﷺ: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء:٥٦]، ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام:٧٩] أي: فطرهن على الدين القيم دين الإسلام، وقال الله جل قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] فكل ما قام بأمره ﷻ من السماوات والأرض، وما فيهن وما بينهن، وما فوق ذلك وما تحت، وما بابه الكون له مستسلم وقانت مفطور على الإسلام.

الاعتبار

فطر الله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه الذوات بعد برئه إياها بأن جمعها بأجسامها الحاملة لها الظاهر فيها أعمالها وما له أوجدها، فأفطرت لذلك، وكذلك فطر الأجسام بذواتها العامرة لها التي بها حياتها وحركاتها وسكونها أعمالها وصفاتها، وما له أوجدها، وقد كان كل زوج منها زوجته حتى فطرهما بإطلاع البواطن من الظواهر، وتفطر الظواهر التي هي الأجسام عن صفات ذواتها التي هي بواطنها، فشق بذلك ستر العدم عن وجودها، ثم شق الأبصار والأسماع والمشام، وفطر عن جميع الحواس فجاج الأبدان ومجاري الأنفاس، فهيأ بذلك طرقات الروح بما فطر من مسام الأجسام، حتى فطرت الألباب كثيف ظاهرها، وتطلعت من منافس هياكلها عند ظهورها في الوجود، وقبل إقامتها بشاهد العقل، وقد كانت قبل في الأول بدت، وعلى المعرفة والإسلام أفطرت، وبمعنى القيومية وجدت، ثم بوصف الجامع لها في حكم الفطر الآن جمعت، فظهرت بذلك تقدير العزيز العليم.

قال الله عز قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨]، هذا خطاب تام وأمر قيم، ثم قال وقوله الحق: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: بمقتضى أسمائه وأوصاف صفاته على حكم العبودية، والقيام منها له بالدين، انقسم دين الحنيفية وبعد هذا قال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠] فهذا ذكر جامع لجملة الخلق، ثم قال ﷻ مخاطبًا الألباب: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١]، كما قال عز من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

ينبه ﷻ على الاعتبار واستعمال الأفكار بخلقه أزواجنا من أنفسنا، كما جاء أن حواء خلقت من ضلع آدم عليهما السلام على المعهود من سنته في خلق الأجسام، من ظاهر ما برأمنه الذوات، لتسكن إلى أجسامها الحاملة إليها، وذكر الألباب بما جعل بينها وبين أجسامها من القرابة القريبة بينهما، وجعل الصدقة بينهما ما أخذ عليها عن العهد والميثاق يوم فطرها أن تسلك بها سبيل نجاتها، وأن تصرفها عن مظان هلكتها إلى إقامة سبيل فطرتها، وألا تفارق ما عليه برأها، وجعل ذلك أمانة منه ائتمنها عليها؛ إذ الأجسام هي مراكب الألباب ولباسها، وكان ذلك أصلًا زائدًا على دعائم الإسلام الخمسة، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦] إلى آخر الآية، ثم قال وقوله الحق: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧].

فهذا عهد الفطرة متوجهة على الجملة، والذي تقدم ذكره في باب اسم البارئ، عهد البرء مخاطبًا به الذوات معهودًا إليها لا يكون منها خلاف ما به أقرت يوم الفطر ولا بعد إقامتها، يشاهد العقل حين الأمر والنهي المتوجه إليها على لسان النبوة.

وبين ذلك قوله ﷻ: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣]، وهذا غيب في غيب ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٣] ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٦٠].

وعلى نحو ما تقدم ذكره من الفطر فطر السماوات والأرض وجميع الخليقة ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١١-١٢] ومن الأرض مثلهن، وأوحى في كل سماء أمرها ويسره أو سخره لما له أوجده، قال الله جل قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] وسوى الخليقة

بالفطر، وجميع البواطن بظواهرها.

التعبد

أتدري - رحمك الله - ما جملة المطلوب منك في أداء الأمانة التي ائتمنت عليها؟ أن تسلك بنفسك في شرعتها سبيل جبلتها، وتقومها بعون الله تعالى على قويم الدين من فطرتها، منيبًا إليه، قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقد أقررت وعاهدت وأشهدت على نفسك فإياك والخيانة واحذر قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧] إلى آخر المعنى، وقوله: ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فصدق بالفعل ما أقررت به من قول وأعطيته من عهد وميثاق.

ألا تسمع إلى إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٣]، فاحرص أن تتعلم العلم الذي ذكره والصراط السوي الذي وصفه، وحافظ عليه ورابط واصطبر على ذلك وصابر، والله المستعان ولا قوة إلا بالله، وربما تحصل الإفهام بتيسر الكلام، والله نسأله إصابة الصواب في القول والعمل، وأن يستعملنا بما يقربنا منه، ويستوجب به عنده الزلفى وحسن المآب.

اسمه الذارئ جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا، فهو ذارئ، والذرء من الكلام: طرف منه، والذرء: عدد الذرية، يقال: أنمى الله ذرأك وذروك، أي: ذريتك، وأصل الذرو والذرء: التفريق عن جمع؛ لذلك قيل: ذرأنا الأرض نذرؤها، أي: بذرناها، ويقال في معنى منه: العين تذري الدمع، أي: تصبه، والسيف يذري ضربته، أي: يرمي بها، واسم ما يرمي به الذرى، وذريت الطعام أذريته وذروته ذروًا أيضًا، والريح تذر، والتراب والذرى اسم لما تذرؤه، والمذروان فرعا الأليتين، سميتا بذلك؛ لانفضاضهما عند المشي، شبه بذلك قيل أذرأته بالشيء: أولعته به، وقيل: إنه بمعنى الذرء، قال رسول الله ﷺ: **«إن الله مسح ظهر آدم بيمينه واستخرج منه ذرية أمثال الذر»**[1].

والذر مصدر، ذروت الشيء أذرؤه ذروءًا، والذرية فعلية من ذرهم الله في الأرض؛

---

(١) رواه مالك في الموطأ في القدر (٢) وأبو داود في السنة (٤٧٠٣) والترمذي في التفسير (٣٠٧٥) وأحمد (١/ ٤٤، ٤٥) وابن أبي عاصم في السنة (١٩٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصححه الشيخ شاكر على المسند.

أي: نشرهم، وذرت الشمس تذري ذروًا: طلعت، ومما يقاربه: الذرور اسم ما ذروت، والذريرة: فتات قصب من قصب الطيب يجاء به من الهند، وكذلك الرذاذ، يقال من ذلك: يوم مرذ، وأرذت السماء، كل ذلك مفهومه التفريق.

اعتباره

لما برأ الله ﷻ الذوات قدرها على ما هو موجدها يوم إيجادها، وعلى التدريج من بدئها إلى غاية انتهائها، فكان عن آثاره: اسم الخلق في نفس مقتضى البرء والفطر، كما أنه إذ خلقها ركب الذوات في الخلقة بحكم الفطرة، ثم أنشأها خلقًا آخر بحكم البرء لست أعني ذلك حكم النشء الظاهر، وكان ذلك عن إثارة البرء في نفس الخلق.

وقيل: كانت البرايا مجردة مفردة، قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء**»[(١)].

فأخبر نصا صريحًا بفعل اسم الخالق يوم البرء، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله مسح ظهر آدم بيمينه فاستخرج ذرية...**»[(٢)]، فكان هذا من رسول الله ﷺ إخبارًا عن استخراجه من ظهر آدم خاصة، وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وكان هذا من الله ﷻ إخبارًا عن أخذه الذرية من ظهور بني آدم، فحين أخذ الذرية من ظهر آدم عليه السلام جمع ذلك يومئذ جملة وتفصيلًا في الإخراج، والتقدير من ظهر الآباء، ثم الأبناء، ثم كذلك من بعد ذلك، أبدًا على التدريج في أخذه المواثيق من كل ذرية في طلب ذي ذرية في الاستخراج، والتقدير: إلى يوم القيامة، وذلك على الله يسير.

وذكر عن بعض العارفين أنه قال: إن الله ﷻ بث خلقه في الهواء صورًا كالهباء فأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم في غيبه إلى ما سبق في علمه، استودع البر بأكلها مكنون غيبه، وأقرها في غيابات السماوات والأرض، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:٩٨]، وقيل: هذا مستودع ومستقر أيضًا، وهو ما تقدم ذكره، وجعل أبواب تلك الخزائن إرساله الرياح اللواقح، وإثارة السحاب وجعلها ركامًا، ثم إذنه في نزول المطر فيحيي به الأرض بعد موتها، فتهتز لذلك اخضرارًا وتربو، وقد أنبتت من كل زوج كريم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

فهو أبدى جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه يذرأ براياه من مستودع علمه وغيبه إلى مستقرها في الهواء، ثم إلى الرياح إلى الماء إلى الأرض إلى النبات كله إلى الحيوان إلى الأرحام إلى الأرض إلى حيث كتب رزقه وعمله وموته من نواحي الأرض كل أول مستودع، وما يلي به مستقر بالإضافة إلى ما دونه، هذه مستودعات الخزائن من موجودات طبقات العالم، ومنذ أوجد الأصلاب والأرحام لم يزل ينقلها، أعني: البرايا في مستودعات خزائن السماوات والأرض إلى الأصلاب والأرحام في طبقات القرون الخالية والأجيال الماضية، يقلبها في قبضة قدرته تقليبًا على حكم مشيئته تنقيلًا، ثم يطلع ما برأ أو يفطر ما خلق بها برأ، أو يخرج ما قدر على سواء ما قدره، ويذرأ ما برأ وما فطر وما قدر على سنته، لا تجد لسنة الله تبديلًا ولا تحويلًا.

قال الله ﷻ يخبر عن مستغلق ما تقدم ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩٩]، فهذا طعام عموم الحيوان، ثم قال جل قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام:٩٩] هذا طعام بني آدم حيوان الأرض ونباتها تنشأ عن ذلك أجسامهم وصفاتهم، فتكون عنها نطفهم، ولذلك قال جل قوله: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩].

وقال أيضًا: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس:١٧-١٩] إلى قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[عبس:٢٤-٣٢]، وذكر الأنعام في أصناف الأغذية فقال ﷻ: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[يس:٧٢]، وقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾[النحل:٦٦]، وهذا كله من أغذية بني آدم، والأكثرون من الحيوان يذرؤهم فيه، فمنه مستقر ومستودع كما قال عز قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الزمر:٦] يذرأ كل جنس في بطون أمهاته ومستودعهم في خزائنه منها، ثم رفع هذا البيان بالنص إلى أرفع البيان، فقال عز من قائل: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:١١] فأرجع الضمير على الأزواج والأنعام والسماوات والأرض، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس كفعله فعل، ولا كصنعه صفة بكل وجه وبكل معنى.

وقال أيضًا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ [المؤمنون:٧٨] فهذا تناوله اسم المنشئ ﷻ من بعد الفطر، ثم قال جل قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٩] نبه على الاعتبار بما تقدم ذكره على عظم اقتداره على إحيائهم بعد موتهم، وجلبهم إلى يوم الحشر موضع المحشر يوم النشور، كما قال جل قوله: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:١٤٨].

التعبد

قد علمت - وفقك الله - بنور الإيمان وبما تقدم لك في سبيل الاعتبار من البيان أنه جل وتعالى برأك فيمن برأ، ثم غيبك في علمه، وخزنك في خزائنه، وقلبك في غيابات ملكه وملكوته بلطيف تقليبه، ثم أخرجك بقدرته، وأسلكك في الإنشاء سبل حكمته على سنته، وحكم شرعته التي شرعها لخليقته، حتى بلغك حد التكليف، وسن لك على لسان رسول الله ﷺ بأمر الشرع مقتضى أمر الكون؛ ليختبرك فيرى كذبك من صدقك، ليجزيك إذا صرت إليه فردًا كأوليتك جزاء الصادقين أو الكاذبين؛ فلذلك فاعقل لما أنت عليه تقدم، تعلم اليوم علمًا تكن به غدًا عالمًا، اكتسب اليوم عقلًا تجزى به غدًا، فإن أحدًا لا يجزى إلا بقدر عقله وإن كثر عمله، تزود هنا ما تجده غدًا هناك وخير الزاد التقوى، اكتسب اليوم بصرًا وسمعًا تكن غدًا هناك بصيرًا سميعًا حيًا شهيدًا مرزوقًا، انظر إلى جوارحك وجميع أعضاء جسمك كيف نشأت بقدرته، وكيف جمع أجزاء ذلك بلطفه حتى تناهى شأنك كله، ثم ناظر بصفاتك من علمك وعملك وعقلك ومعرفتك، وحسن إرادتك وصحيح نيتك في توجيه أعمالك وأقوالك وعلومك وشؤونك كلها، ونصيحتك له ولكتابه ورسوله والمؤمنين، وإن كنت قد نشأت كما نشأت جوارحك واجتمع لذلك جسمك؛ فاحمد الله ﷻ فأنت على سبيل خير وطريق نجاة إن شاء الله تعالى.

وإن كانت صحبته الحسنى منك لم تنشأ، ومحامدك بعد لم تجتمع، كما يرضى ربك جل ذكره، وأنت إنما تستصحب لشهوات نفسك، وتقطع عمرك في قضاء أوطارك، وتزكيها وقتًا إلى وقت ويومًا إلى يوم، وتتخذها مواعيد لآمالك وخسيس أمانيك من دنياك وخسيس أمانيك، وأخسس بها من حال وأقلل به من منال.

أما علمت - وفقك الله - أن عليك في يوم وليلة صحيفتين مثبتتين؟ فانظر ما تملي فيهما على كاتبيك، إنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كما لا يستوي المحسنون والمسيئون، ألم تسمع إلى مخاطبة الأكياس من أهل العلم والإيمان لما يعجزه الظالمو

أنفسهم، وقد قالوا لهم: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣] ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[الحديد:١٤].

فانتبه أيها الغافل الساهي والمغرور المتباهي من وسن غفلتك، فهذه والله صفتي وصفتك، هل هو إلا طلب التسلي والفرج، وعمل فشل وزاد طفيف ذو عوج، لقد دل الطبيب المعافي على الدواء الشافي لما عاتب عباده فاستبطأ منهم الإجابة بقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]، سبحانه وله الحمد ما أعلمه بأصول الأدواء، وأكرم دلالته على منافع الدواء حيث قال ﷻ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[الحديد:١٧]، ثم أعقب ذلك بخطاب ينبه به العقول على عظيم قدر ذلك الدواء المذكور بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧].

ألا إن حياة الأرض بالماء، وإن حياة القلوب بالعلم النافع، ونفع العلم هو بطاعة الله ولزوم موجوده في السر والعلانية، قال الله جل قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦] ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، نسأل الله الحي القيوم الدائم الذي لا إله إلا هو أن يحيينا بحياة من عنده، وأن يؤيدنا بروح القدس منه، وأن يدخلنا في رحمته، حتى نعقل عنه فإنا لا نعقل عنه إلا به.

اسمه المبدئ واسمه المعيد
جلت قدرته وتعالت مشيئته

يقال منه: بدأ يبدأ بدءًا قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم:٢٧]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وأبدأ لغة في بدأ قال الله جل قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس:٤]، وابتدأ يبتدئ ابتداءً فهو مبتدئ، والبدء الشيء المخلوق ويكون الشيء العجيب، ويقال للسيد الذي يبدأ به في المشورة وغيرها البدء، وقالوا فيما يقاربه: بدا يبدو، بمعنى: ظهر يظهر، وأبدى يبدي: أظهر يظهر، والعود تثنية الأمر عودًا بعد بدء، والمعاد: ما عدت إليه، يقال: أعدت الأمر أعيده فهو معاد وأنا معيد، والمعاود: المآتم، قيل لها ذلك من أجل مؤالفة النفوس لها، فتعتادها لأجل ذلك، والعادة مأخوذة من العود بعد العود حتى يكون دربة، واستعدت الشيء تعودته من

العادة، وتجمع العادة على عاد، والعود: الجمل المسن، والجمع: العودة وعيدة، وعود البعير إذا أسن قيل له ذلك؛ لأنه عاد إلى نقص القوة كما كان قبل كماله، لذلك قيل للشيء القديم: عادي، وللطريق القديم: عود، والعائدة: المعروفة، والعيد: مجمع كل أمة، كل ذلك مفهومه العود بعد البدء منه.

الاعتبار

لما كان البدء والعود كل واحد فيهما طرفا لصاحبه كالأول والآخر والظاهر والباطن، أشبه المضافات التي يدل كل مضاف على ما هو مضاف إليه بالمعنى كالفاعل والفعل والمفعول والضارب والضرب والمضروب، فلم يسعنا لذلك أن نرسم أحد الاسمين دون صاحبه، ولا أن نفرد الكلام في أحدهما دون الآخر؛ لتداخل دلالتهما، ولما يرجى في جمعهما من الاختصار وقلة الإكثار، والله ولي التوفيق وهو حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال رسول الله ﷺ وقد سأله عمران بن حصين رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، جئت أسألك عن بدء هذا الأمر، فأنشأ ﷺ يخبره، فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله» وفي أخرى: «معه وكتب في الذكر كل شيء»[(١)] وانطلقت ناقة عمران فخرج في طلبها وانقطع الحديث.

فالمكان وصفه جل جلاله والكون فعله والمكون مفعوله، إذ لا أول لكانه ولا قبل، هو قبل القبل، وأول كل ذي أول، ثم كتب في الذكر كل شيء، فقال: فأول ما خلق من شيء فالقلم ثم اللوح، فقال للقلم: اكتب فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكان ذلك، ثم برأ البرايا، وقدر المقادير، وأخذ المواثيق، وفطر المفطورات بعد إيجاد العرش والكرسي، وعرشه يومئذ على الماء، ثم أقام السماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن، ثم أنشأ ما فطر على سواء ما قدر فيهن القادر هو جل جلاله، هذا لأن اسمه البادئ والمبدئ سبحانه.

ولما كان من أسمائه جل وعلا المعيد أعاد البرايا بعد هذا الإيجاد إلى مكون علمه وغيابات خزائنه، كما كانت قبل في أول الأمر وبدئه، غير أنها قد كملت بها أجسامها، وقد كانت في البدء الأول صورًا كالهباء ولأنه الجبار الكبير المتعال ذو العظمة، والبقاء الدائم، والوجود المتوالي، الذي اختص بها دون من سواه، ولم ينبغ لمكون أن يتصف بها حكم على كل نفس بالموت، وعلى كل مصنوع بالخراب، وعلى كل موجود بالفناء، وعلى كل توال بالانقراض، وأخبر بذلك في قوله الحق: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

(١) سبق تخريجه.

تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨]، فبذلك تلحق البرايا بمنازلها من الملكوت، ويلحق مواد الأجسام المجموعة بحكم الخلقة بمعادنها، ويختزنها في خزائنها، فإذا تمت كلمته، وتحقق اسمه في إعادة العدم، فيومئذ تحقق اسمه أيضًا في إعادة الإيجاد على الإيجاد عودًا بعد بدء، فيأمر كل شيء أخذ من شيء شيئًا ما أن يرده إلى حيث أخذه، فيرجع كل ذاهب على طريقه الذي ذهب عنه، كالإيجاد الأول سواء، لكن الإيجاد الآخر أيسر في مفهوم العقول من الإيجاد الأول، وكل شيء على الله يسير وهين؛ إذ الإيجاد الأول سنة خارجة على طريق مهلها وترتيب مراتبها، عبر عن ذلك قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ [الأنعام:٧٣]، والإيجاد الأخير كلمة، عبر عن ذلك قوله: ﴿كُن﴾ [الأنعام:٧٣].

ثم يقوض البناء، ويخرب ما كان أبقي من المصانع؛ تتميمًا لكلمته في إلحاق الأعدام بالأعدام.

واعلم يقينا أن البدء وإن كان الأول فليس هو المراد من الأمر، لكن هو المراد لغيره، إنما المراد لنفسه هو العود وما فيه، وإنما البدء بما فيه طريق إليه، وقنطرة يعبر عليها نحوه، والعود هو الباقي بإبقاء المعيد الحق، والبدء هو الموصوف بالفناء، وإلى العود هو المصير والمنتهى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

وللبقاء خلقنا، لكن ذا الكبرياء والعظمة والجبروت جل وتعالى حكم علينا بالموت والفناء فرقًا بين صفة المالك والمملوك والرب والمربوب، ولإتمام حكمته وإكمال كلمته في رجوع أواخر الحكمة على أوائلها، وانعطاف عودها على بدئها لما كان ﷻ الحي الدائم الباقي، وصفاته باقية ببقائه، لم تزل بأسمائه وصفاته ولا يزال، وكانت الخليقة فعلًا له، موجودًا عن أسمائه وصفاته الصادرة عن قدرته، وعلمه المرتب على حكم مشيئته وحياته الدائمة، أوجب ذلك اتصاف مفعوله بالبقاء، لاتصاله بما هو باق، ورجوعه إلى من لم يزل ولا يزال، ولكنه عبد مذلل وموجود عن أول كل كائن بعد أن لم يكن؛ فأوجب إعدامه بهذين الحكمتين، ولما كان موجودًا عن أسمائه وصفاته أوجب بقاءه، لاتصاله بما هو باق، فأوجب إعادته ليبقيه بإبقاء من عنده، فلا يفنى بعدها أبدًا، والله خير الحاكمين.

والمبدئ يفهم منه على الأغلب التكثير لأنه من أبدأ، أي: أنه أدخل المفعول في البدء والبداية، وليس كذلك قولهم: بدأ يبدأ ذلك إخبار عن البداية فقط، وزاد عليه بقاء أفعل بالإعلام، بأنه أدخل المبدأ في البدء كأنجد وأتهم، أو أعطاه ذلك كأنبل وألبن، وكما استحق المفعول بوصف البداية أن يكون ذا بداية، حتى لا يخرج عن وصفها الأبد إلى

القدم، كذلك استحق المبدئ بوصف الإبداء تجديد الإبداء أبدًا ما أبقاه، حتى لا يخرج عن وصف الإبداء إلى وصف الاستغناء، بل حكم البدء جار عليه أبدًا ما أبقاه أبدًا الحكم الإبقاء إلى ما يشاء إبقاءه، فاعلم ذلك.

ولا يكون تجديد الإبداء عليه، إلا بتحقيق تجديد الإعدام عليه أو حكمه، كالإبقاء سواء مثلًا أقول: الغذاء يتغذى به متغذيه؛ فيستمريه، فيخلق الله عنه أجزاء في جملة المتغذي بذلك الغذاء، فلو كان كلما تغذى وخلق الله عن ذلك الغذاء أجزاء أبدًا لاجتمع في الجملة ما لا تحتمله، بل سلط على خارج الجسم الهواء، ينشف ما شاء الله إعدامه من تلك الأجزاء، فهذا أبدًا يعدم ويبدئ يعقب هذا هذا: وهذا هذا.

فإن قلت: ما حكم تلك الأجزاء المعدومة في طول عمر بقاء هذا المبدأ المعاد؟ قلنا: قد جاء الخبر الصادق أن الولي في الجنة يجعل على خلق آدم عليه السلام ستون ذراعًا في السماء [1]، ولا يكون ذلك إلا بما يناسبه عرضًا، كما جاء: «إن الشقي في النار» أجارنا الله منها برحمته بعظم خلقه حتى يكون فخذه كالزوراء، وضرسه كجبل أحد، ومسيرة ما بين منكبيه كذا وكذا، وما كان الله ليعذب أجزاء لم تقترف السوء، ولا عملت بمعصيته، فافهم.

التعبد

جماع التعبد بمقتضى هذين الاسمين الكريمين تحقق حقيقتهما، وطلب مجاري أفعالهما في طرقات حكمته من العالم، وتحصيل الإيمان واليقين بذلك حتى تشاهد الحكمة راجعة أواخرها على أوائلها، كذلك استصحاب الصفات العلا، وتصادق الأسماء الحسنى، وبذلك تشرف إن شاء الله على مطالع الدنيا والآخرة، ثم أخذ الزاد والاستعداد لذلك المعاد وخير الزاد التقوى، ولا يستقيم لك ذلك حتى تزهد في الدنيا، فتخرب في قلبك، وترغب في الآخرة وتعمر فيه، وهذا الإحصاء لهذين الاسمين الكريمين على التمام، وفقنا الله وإياك لما يرضيه. ويقرب منه إنه ولي ذلك، لا شريك له.

اسمه المصور عز وجل

صورة الشيء هو موجوده المميز له عن سواه، قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:١١]، فالخلق كما تقدم جمع مواد المخلوق ومتخلقه، رحمًا كان أو غيره، والتصوير جعل إياه على وجود يتميز به من غيره، من تقدير وتخطيط واختصاص

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٧) ومسلم في الجنة (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بشكل ونحو هذا.

والتصوير قد يكون بمعنى التقدير بوجه وهو التعديل في التصوير، وإذا كان بمعنى الإمالة كان بمعنى: عدل يعدل، ولذلك قرئ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فعدّلك ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) [الانفطار:٦-٨]، أي: عدل صورتك خلقها على أحسن التصوير، ومن قرأ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بتخفيف الدال، أراد ما لصورتك، وعدل فيها بها عما دونها من الصور إلى أحسن التصوير، وهذا يكون بمعنى الإمالة والإحالة له إلى ما أريد منه، ولذلك قالوا: عصفور صوار، إذا أجاب لإمالته صورته بالمحاكاة إلى الأصوات سواء، يقال من التصوير الذي بمعنى التقدير: صار الرجل إذا صور، وصار أيضًا بمعنى: حال وذهب نحوه، وأصار: أحال ووجه، ويقال: صور الأمر، أي: قدره، وصاره يصوره، إذا أماله والنعت منه: أصور إذا كان مائل العنق، وقد صور صورًا إذا أمال، والمصور من التصوير، وهو تصيير الشيء على صورة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف:١١]، وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر:٦٤] أي: قدرها فأحسن تقديرها، والصوار: قطيع من البقر، والجمع أصورة وصيران كجبار وكبار، وصيران كغلام وغلمان، وقراد وقردان، سميت بذلك لميل بعضها إلى بعض واجتماعها، والصوار أيضًا: قطعة من المسك، سمي بذلك للمعلوم من المسك أن يميل النفوس بطيب أريجه إليه، ويقال: رجل صير شير إذا كان ذا صورة حسنة وشارة ظاهرة، وتجمع صورة على صور، وقد يتأول عليه قوله جل وعلا: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [النمل:٨٧] أي في الصور.

قالوا: والصور القرن الذي ينفخ فيه، قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وجثا على ركبتيه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر، فينفخ**»[(١)].

وقد قيل: إن القرن الذي هو الصور من القرن قرن الأمة، فيمكن أن ذلك القرن سمي قرنًا على العموم،أي: قرن بني آدم أجمعهم، والنفخ فيه هو النفخ في الصور أو في جميع الصور.

اعتباره

ومن الصور ظواهر ومنها بواطن،وهذا على القول بالعموم لها، إذ صورة الشيء وجوده المميزة له من سواه، فالظواهر هي: الأشكال والتخطيط وما تقدم ذكره،

---

(١) سبق تخريجه.

والبواطن هي: كيفية تناسق الصفات وكمالها ونقصها وقوتها وضعفها، والعبارة عنها بالقول هو الوصف لها، وقد تقدم القول إيماء إلى انبساط الوجود، وأن آياته ما تنطبع منه في المرائي والأجسام الصقيلة، وأن ما بطن مرتبط بهذه الظواهر واسطة بين عالمي الملك والملكوت فجمع ذلك كله الصور.

وخلق الله ﷻ جميع الخليقة وأصارها إليه بالحق، الذي أودعها إياه بين الإيجاد والفطرة بعد إصارته إياها إليه، قبل في يوم البدء وقبل القبل في يوم أزل الأزل، فلذلك صمدت وتوجهت نحوه، وبذلك كان التوق منها إليه والإقبال، وجماع التوجه والمعرفة والقنوت له، والإجابة يوم يدعوها فتستجيب له بحمده، وإلى هذه اللطيفة الإشارة لها بقوله ﷻ: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] يريد ـ والله أعلم. توهم ذلك بإبراهيم؛ بأن تجعل كل طائر من الطوائر الأربعة على معدنه، مرجوعًا إلى ضمن خزائنه من سماء أو أرض، كفى عن الأصول بالجبال، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فلما توهم ذلك إبراهيم وقع له اليقين بما أخبره الله، وقال جل من قائل: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وإنما هي ثلاثة أمثال ضربها جل ذكره الأول منها: في إبقاء الحي على حياته، والثاني: في إثبات الرجعة يوم ينفخ في الصور، والثالث: في إثبات إحياء الموتى في حال موتهم، وهو أعسر مفعولات العقل؛ إذ هو جمع بين الضدين إلا على من أحياه الله بروح الإيمان؛ ولذلك قال عز من قائل: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة: ٢٦٠]، بل هي حياة باطنة تخلف حياة ظاهرة، كالليل يسلخ منه النهار، والنهار يغشاه الليل وهما حكمان لله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقد خاطبنا ﷻ اختبارًا منه لنا عن الحق الذي أودعه السماوات والأرض وجميع الخليقة وجوب الإجابة وسرعة كونها عن ذلك، فقال جل قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

ثم جعل يحرص على لزوم الحق المستودع في الخليقة المعرب في أولي الألباب بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]، و﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] المعنى إلى آخره فاحرص أن تكون من العالمين.

واعلم يقينًا أن صورة آدم عليه السلام وذريته هي التي نشأت إليها معاني التصوير ظاهرًا وباطنًا، وظهر فيها الكمال لاجتماع معنى التقدير فيها وهو العام، ومعنى الإمالة والتوجيه وهو الخاص، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [العنكبوت: ٤٤]، ثم قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، يؤيد صورة الفطرة في كمال حسن الجبلة وقوام الإسلام في كرم الصيغة وبخاصة، فإنما أعرب حسن التصوير وظهر الكمال أوضح بيانه، وتصوير المؤمن لاجتماع القوام فيه ظاهرًا وباطنًا، فمتى لم يكن الإيمان والصورة الباطنة أقبح الصور وأمقتها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] أي: في حال كفرهم واختيار سوء منزلته ثم استثنى من أولئك المؤمنين الذين آمنوا بعقولهم واختيارهم، فاستقام قوام فطرتهم عقدًا وعملًا، قال رسول الله ﷺ: «**تدخل الجنة أول زمرة من أمتي وجوههم كالقمر ليلة البدر إضاءة، ثم الذين يلونهم كأضوأ كوكب دري في السماء**»(١)، صورت وجوههم على منازلهم في إيمانهم وأعمالهم، ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ: «**إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه**»(٢).

وحرم الله على النار أن تأكل دارات وجوه الموحدين، وجعل رسول الله ﷺ كفارة من لطم وجه عبده أو أمته عتقهما، تطلعًا وشوقًا إلى قوله الصادق: «**خلق الله آدم على صورته**»(٣).

ثم اعلم - وفقك الله - أن التصوير لا غاية له ولا علم منتهى؛ لعدم الغاية والمنتهى في علم المصور وقدرته ومشيئته، من حيث انفصلت الصور، لأنها من صفات الجلال ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فلم يفن لذلك التصوير، وأمر بإكرام وجه المؤمن إفاضة من إكرامه ونزاهة سبحات وجهه الكريم.

وفي الكتاب يذكر أنه التوراة أن الله لما خلق السماوات والأرض في الستة أيام قال: اخلق بنا إنسانًا على شبهنا ومثالنا؛ ليتشرف على حيتان البحر وطيور الهواء ودواب جميع

(١) هو الحديث قبل السابق.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦١٢) وعبد الرزاق في المصنف (١٨٢٧٣) وأحمد (٢/ ٢٤٤، ٢٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

الأرض وخشاشها، فخلق الله إنسانًا صورته، ومثاله حمأ الطين وأنفس في وجهه نفس الحياة فصار إنسانا بنفس حية ذكر وأنثى وبارك عليهما، وجاء: أن موسى عليه السلام لما ضرب الحجر لبني إسرائيل، فتفجر منه اثنتا عشرة عينًا قال لهم: اشربوا يا حمير، فأوحى الله إليه: يا موسى، عمدت إلى خلق من خلقي خلقتهم على صورتي فشبهتهم بالحمير، وهذا كله إنما حقيقته للمؤمن.

وقال بعض العارفين رحمه الله: ثبتوا الرؤية حتى تخالج قلوبكم التشبيه، فإذا خالج قلوبكم التشبيه فانفوا التشبيه واثبتوا على الرؤية، ونزهوه عن الأشباه والأشباح في الذات والفعل، حتى كأنه يخالج قلوبكم التلاشي، فإذا خالج قلوبكم التلاشي، فانفوا عنه التلاشي، فإنه قائم تام عالم حكيم.

وحديث يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يقولن أحدكم لأحد: قبح الله وجهه، ووجه من أشبه وجهه، فإن الله خلق آدم على صورته**»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقبحوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن**»[2].

وعن أبي موسى قال: كنا مع رسول الله ﷺ غزاة فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال: قد لامنا رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا؛ إنما تدعون سميعًا بصيرًا**»[3]، وفي أخرى: «**سميعًا قريبًا إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[4].

خطب رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «سميع»، وأشار إلى سمعه، و«بصير» وأشار إلى بصره، وقال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فتقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو**

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٧٣) وأحمد (٢/ ٤٣٤) واللالكائي في أصول الاعتقاد (٧١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الشيخ شاكر على المسند.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٣٥٨٠) وابن أبي عاصم في السنة (٥١٧، ٥١٨) واللالكائي في أصول الاعتقاد(٧١٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٠٦): رجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسماعيل الطالقاني وهو ثقة وفيه ضعف قلت: هو حديث صحيح.

(٣) رواه البخاري في الجهاد (٢٩٩٢) وفي المغازي (٤٢٠٥) وفي الدعوات (٦٣٨٤) وفي القدر(٦٦١٠) وفي التوحيد (٧٣٨٦) ومسلم في الذكر (٢٧٠٤/ ٤٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٢٧٠٤/ ٤٦)

فصيله، حتى تكون مثل جبل أحد»[(١)].

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها في جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم: الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب»[(٢)].

وعن جابر بن عبد الله قال: جاء رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، بلغك أن الله يحمل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقوله[(٣)]، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، وقال جل قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» وكان يقول: «إنه ليس من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه»[(٤)].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تزال النار يجعل فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الرحمن فيها قدمه، فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض تقول: قط..قط»[(٥)] أي: حسبي.. حسبي.

سئل بعض العلماء بالله ﷻ عن اختلاف العلماء في الذات، فقال: على قدر مقاماتهم تكلموا فيه، ومثلهم في ذلك مثل واحد عرف النطفة ولم يعرف العلقة، وآخر عرف النطفة والعلقة ولم يعرف المضغة، وآخر عرف الثلاثة ولم يعرف العظام ولا اللحم، وآخر عرف هذا كله ولم يعرف حتى بلغ الروح والنفس، فهؤلاء تكلموا على قدر ما اختصوا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه في باب اسمه تعالى الشهيد سبحانه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) الحديث رواه النسائي في الكبرى في النعوت (٧٦٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها وروى الشطر الأول أحمد (٦/ ٣١٥) والترمذي في الدعوات (٣٥٢٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها وروى الشطر الثاني ابن أبي عاصم في السنة (٢١٩) من حديث النواس بن سمعان و(٢٢٠) من حديث سبرة بن الفاكه و(٢٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنهم جميعا والحديث سنده صحيح.

(٥) سبق تخريجه.

به من معرفة الذات، وقال المشركون لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وإياك - وفقك الله - أن يصدك عن الصعود في درجات المعرفة نزغة شيطان، أو قول تائه في الهذيان يظن أن العلم انتهى حيث انتهى هو منه، يقول: هذا تحديد، وتشبيه نزغة من ضاق عليه السبيل، وكذب القرآن، وعارض الكتاب والسنة، وما أجمع عليه أكابر علماء الأمة هو ﷻ وصف نفسه بكلامه وأوضحه رسوله بتبيانه، كيف يحد من وسع كرسيه السماوات والأرض؟ وكيف يشبه من نوره ما لو كشف لأحرقت سبحات وجهه، وما انتهي به بصره من خلقه؟ أم كيف يوصف بالأقطار من قبضته السماوات والأرض؟ هيهات ضلت فيها هنالك مكائد الشيطان، وبطلت في حقه زخارف المبطلين.

فإن كنت - وفقك الله - ممن عوده الله جل ذكره الهداية في مفاوز هذه المعارف، وأيده من علمه، وأيده بجناحين يطير بهما على حد هذا الصراط المستقيم فدونك، فهو والله الحق وعين الحق وعين اليقين، وبه جاءت الكتب كلها والكتاب المهيمن النور المبين، وهو مراد الرسول ﷺ، وإلا فاعلم يقينًا واعتقد: أن الله ربك وحده لا شريك له ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] خلقك وصورك وعدلك ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، وأنه الواحد الأحد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة الحق العليا، ثم اسأل الله ﷻ الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، فهو أقرب للسلامة وأدنى من ألا ترتاب، ثم اعمل صالحًا، فذلك سبيل مبلغ إن شاء الله.

وإن من الإلحاد في الأسماء الزيادة على ما أذن فيه، أو النقصان عما أمر به، فالأول تشبيه، والثاني تعطيل، فإن المشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه، والمعطلة جحدوا ما اتصف به، إنما ديننا في معرفتنا ربنا عز جلاله طريق من طريقين، لا تشبيه ولا تعطيل، إثبات ذات غير مشبهة بالذوات ولا معطلة بالصفات هنا رق الصراط ودق حتى صار أرق من الشعرة، وأحد من الموسى، وتفاوت الناس في المرور عليه، فمن مسرع كطرفة العين وخطف البرق، ومن بين زاحف عليه مضطرب ومحتضن للصراط، جعلنا الله وإياك من السابقين في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه لا شريك له.

ثم يرجع الكلام بنا إلى نسقه في أن التصوير لا غاية له، والمعلوم المستقر في العقول أن

الأصل من المصورين نفس واحدة، خلق الله منها زوجها، ثم بث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، لم يشرك قط في صورة واحدة شخصين، ولا تعجزه صور يخترعها ولا أشكال يبدعها من المخلوقات كلها، من ذوات الأشكال والصور بذاتها منه وتمامها تشكيلًا وتصويرًا عليه، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦]، وقال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لسوقًا، ليس فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء، من أحب صورة دخل فيها»(١)، فكان هو تلك الصورة، وهو من الحق الذي ينشأ بنشء العالم، وكل ذلك على أن الله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه لا يبدو في الجنة لأوليائه بمراء واحد مرتين إلا ما شاء الله من ذلك، قال الله ﷻ: ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾[النحل:٣١].

التعبد

قال الله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٨]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٢]، ولهذا نظائر في الكتاب العزيز، فهو جل ذكره المنفرد بالتصوير والتقدير، لا كسب لتكليف في حالة شيء من ذلك، خلا ما كلف العبد من استصلاح معاني صفات نفسه وإحالتها إلى المرضى، وهي الصورة الباطنة في يدي أمره، المشار إليه بقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:٤].

فعليك ـ وفقك الله ـ بالضراعة إلى المصور في التأييد على ذلك والتوفيق إلى ما يحبه ويرضاه منه، وإدامة الشكر لمن صور فأحسن وخلق فأتقن، ولمن شاء لكان غير ما به أنعم، لكنه السابق بالإحسان إلى عباده قبل استحقاقهم، والقائم لهم بذلك من ورائهم، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

اسمه الرزاق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

الرزاق مبالغ من رازق، تقول من ذلك: رزق الله العباد يرزقهم رزقًا فهو رازق ورزاق، وارتزقت الله ﷻ: ابتغيت عنده الرزق، ولذلك قالوا: ارتزق الجند إذا أخذوا أعطياتهم، والرزقة: المرة الواحدة من العطاء.

ومعهود الرزق أنه من الجنة ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢]، يقول وهو أعلم: نحن نفتحه عليكم من الجنة وتنسبونه إلى النجوم والأنوار، ومعنى إضافة الرزق إلينا والله أعلم عن قوله المتقدم لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة:٣٥].

---

(١) الحديث رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥٥٠) وأحمد (١/ ١٥٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وضعفه الشيخ شاكر على المسند.

وكنا نحن في جملتيهما فذكرنا بذلك، كما ذكرنا بحمله إيانا في سفينة نوح عليه السلام حيث قال جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ [الحاقة:١١-١٢]، ثم قال وقوله الحق: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢]، فمعنى الآية والله أعلم تجعلون رزقكم الذي خرجتم عنه وكنتم منه لترجعون إليه، وإن آمنتم وصدقتم تكذبون به، فتحرمون من أجل تكذيبكم الرجوع إليه، فيكون بدلًا من ذلك البعد عنه وسوء المصير، صدق الله وهو أصدق القائلين.

اعتباره

اعتبار اسمه الرازق والرزاق سبيله سبيل اعتبار اسم الخالق والخلاق في فعله في الذرء، فالمخلوقات مختزنة في الأرزاق، والأرزاق مختزنة في خزائن السماوات والأرض، ومقاليد السماوات والأرض بيد الخالق الرازق جل جلاله، قال الله عز وجل: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، وكما أخرج جل جلاله وتعالى البرايا من مستقرها إلى مستودعها، ثم إلى مستقرها، ثم إلى دار الدنيا على ولاء ذلك، كذلك أخرج الأرزاق والأعمال وجميع ما قدره على ما رتبه في التقدير في الوقت الذي وقته في التأجيل، وكما خبأ البرايا في الأرزاق، كذلك قد يستخزن الأرزاق في أيدي البرايا وقدرها وإراداتها وصفاتها؛ لأنه المالك الحق يملك السمع والأبصار والأفئدة، ويقلب القلوب ويقبض في ذلك كله ويبسط، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣]، فما من معطي ولا مانع إلا بإذن من المعطي المانع الحق جل جلاله وقد قرن الله تبارك وتعالى الرزق والخلق، كما قرن الإحياء والإماتة معًا وتوحد في فعله إيجادًا وتدبيرًا، ولم يجعل لنفسه في ذلك شريكًا ولا ظهيرًا، قال الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الروم: ٤٠]، وقال جل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٣].

فالرازق قائم بالملك والتدبير البسط والتقدير، كما هو المحيي والمميت قائم بالإحياء والإماتة، عنده خزائن كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار، ولا ينزله إلا بقدر معلوم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ﴾ [الأعراف:١٩٤]، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت:١٧]، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له.

ثم اعلم أن الرزق هو الحلال لا غير، والحرام والمحظور كله اسمه المتاع، قال الله عز وجل حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

ٱلْأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة:١٢٦]، وكذلك يأتي ذكره في القرآن العزيز من تتبعه وقف عليه، ولولا مخافة الإطالة لأوسعنا فيه المقالة، لكن سيذكر أولو الألباب، والله ﷻ كلامًا سبق عنده لوقوع الأحكام من ثواب وعقاب، ينزل كلًّا حيث أنزل نفسه من ابتغاء حلال أو حرام، ويتسع الخطاب فيما هذا سبيله، أعني: الطرقات مجاري الأرزاق في سبل سلوك الخليقة من خزائن الخالق، ثم في تقلبها الكسب بين حلال وحرام، وإنما غرضنا التنبيه على الأغراض والإشارة إليها بالاعتبار، والله يهدي ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧].

التعبد

إن من أوجب على من عرف توحيده ﷻ أنه يقسم الأرزاق، وأن السماوات والأرض وما بينهن وما فيهن ذلك عباد له مسخرون وخزائن مضنون، وأن كلَّ مقدر مقضي وكل مقضي منفذ إلى أجله لا محالة، وموضعه ولا يعدوه ولا يخطئه كما لا تخطئه منيته وأجله الذي أوجده فيه، ولا يتقدم شيء من ذلك ساعة ولا يتأخر، وإنما الأسباب من التكسب والأيدي، وجميع الخليقة وصفاتها ظروفًا أودعها الله العطايا والأرزاق.

والله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه هو الأول في التصريف والآخر في التقليب وينبغي المتصرف في طلب الرزق أن تكون عين قلبه ناظرة إلى القسام لا إلى القسم ليرضى بالقسم ويقنع بالمقسوم مع تحرك جسمه في التقليب المعلوم الذي وجه فيه، وليحذر أن يخرج في ذلك إلى نية التكاثر وسبيل التفاخر، أو يدخله الحرص إلى طلب ما ذمه العلم وقبحه الشرع، أو يتسخط الأقدار إذا لم تواته على ما يريده، ولتكن قلة الشيء عنده آثر من كثرته، فإنما له من ماله ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فمستودع عنده، وملكه خزانة لمختزنه حتى يأخذه منه عند حلول أجل ذلك.

واعلم أن الله خص الأغنياء بوجود الأرزاق وخص الفقراء بوجود الرزاق:

لَو أَنَّ كلَّ العَالَمين مُعَانِدِي ... مَا ضَرَّنِي إِنْ كُنْتَ أَنْتَ مُسَاعِدِي

قال الله ﷻ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت:١٧]، فمن طلبه عند سواه حرمه، وإنما يصل من ذلك إلى ما يبذل له عوضًا من رزقه بمتاع الدنيا، سريع ذهابه وشيك زواله، باق تبعته وحسابه، فاسأل ربك وفقك الله دقيق أمورك وجليلها، وأنزل به فاقتك، واشك إليه بثك فهو أعلم بك وأولى وأرحم، ألا ترى إلى موسى عليه السلام سأل الله ربه الرؤية وهي أجل مسؤول وأكرم منال، وسأله أكلة حين احتاج إليها، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

وذكر عن بعض العلماء، وكان ممن سمت به همته أنه قال: إنما يطلب الحقير من الحقير،

ولا أطلب من مولاي غير مولاي، وهذا لمن تناهى زهده فهان عليه ما سوى الله جل ذكره فهو لا يطلبه منه مقامه هذا، ولا يطلبه من ربه غيره اعتزازًا بربه، وإلا فهو يملك الخزائن كلها من صغير الأمور وكبيرها، وقد فتح الله ﷻ باب السؤال ووعد الإجابة، وأيضا فطلب الحوائج من غيره ذل، وهو أحق من تذلل إليه، ومن عرف الله فهو أولى من تعرف به، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

ثم اعلم أنه ليس الرزق هو الطعام والشراب فقط ذلك طعام الأجسام، وهو يرزق القلوب والنفوس أرزاقها من المعرفة والعلوم وصفات الإيمان واليقين، ويقبض في ذلك ويبسط، وللذوات طعام وشراب كالأجسام، قال إبراهيم ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨، ٧٩]، وقال رسول الله ﷺ وقد نهى أصحابه عن الوصال، فقالوا: إنك تواصل يا رسول الله، قال: «إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»، وفي أخرى: «أبيت أطعم وأسقى»، وفي أخرى: «إني أظل يطعمني ويسقيني»[1]، وعلى قرب الذوات من ربها وارتياحها بالإيمان والمعرفة، والعمل بطاعته يكون غناءها عن الطعام والشراب، وهذا أمر حق ينشأ لدن قوله ﷺ: «الكافر يأكل في سبعة معاء، والمؤمن يأكل في معاء واحد»[2]، ثم يصعد ذلك إلى الموقن إلى الصديق إلى النبي ﷺ: إلى الملك، بلغ الله بنا وبك إلى أرفع الدرجات إنه ولي ذلك، لا شريك له.

اسمه الفاتق واسمه الراتق سبحانه وله الحمد

يقال من ذلك: رتقت الشيء أرتقه رتقًا فهو مرتوق، ورتقت الفتق ألحمته ولأمته فارتتق، وجارية رتقاء إذا لم يكن لها خرق في المبال، والفتق الفتح الذي هو ضد السر، يقال من ذلك فتقت الشيء فانفتق، وفتقت العجين جعلت له فتاقًا وهي الخميرة، والفتاق أخلاط تفتق بدهن، أي: تخلط به، ونصل فتيق الشفرتين إذا كانت له شعبتان، فكان إحداهما فتقت من الأخرى، والفتيق: الصبح نفسه.

(١) الحديث رواه البخاري في الصوم (١٩٢٢، ١٩٦٢) ومسلم في الصيام (١١٠٢) من حديث ابن عمر ﭫ ورواه البخاري في المحاربين (٦٨٥١) وفي الاعتصام (٧٢٩٩) ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة ﭬ ورواه البخاري (١٩٦١) ومسلم (١١٠٤) من حديث أنس ﭬ ورواه البخاري (١٩٦٤) ومسلم (١١٠٥) من حديث عائشة ﭫ.

(٢) الحديث رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٣- ٥٣٩٥) ومسلم في الأشربة (٢٠٦٠، ٢٠٦١) من حديث ابن عمر ﭫ ورواه البخاري (٥٣٩٦، ٥٣٩٧) ومسلم (٢٠٦٣) من حديث أبي هريرة ﭬ ورواه مسلم (٢٠٦٢) من حديث أبي موسى ﭬ.

اعتباره

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] إلى آخر المعنى، فذكر السماوات هنا بلفظ الجمع تذكيرًا لأهل الإيمان، وذكر الأرض بالإفراد تقديرًا تقريعا للمكذبين على تركهم النظر والاعتبار، ووصفهم رب العالمين بفعل العبث واللعب واللهو إخبارهم عنه بما ليس به رجوعًا منه بالخطاب إلى ما كان عنه جوابًا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٦-١٧] أي: لو كنا فاعلين من لدنا لم يكن إلا الحق هو الحق، وقوله الحق، وفعله الحق، وللحق فعل ما فعل وأوجد ما أوجد.

وذكر السماء والأرض هنا بلفظ الإفراد توجيهًا بذكر السماء إلى العلو وبذكر الأرض إلى السفل، فسرد ما سرد من قول حق وحجج بالغة وبراهين نيرة ونور مبين، ثم صرف وجه الخطاب إلى ذلك المعنى، وجمع ذكر السماوات وأفرد ذكر الأرض، وثنى الضمير في قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ إعلامًا بأنه أراد الجنسين، وأنه أراد بخطاب هذا المؤمنين وأهل العلم، يذكرهم بالرتق الأول وفتقه على ما سوف يأتي إن شاء الله.

وذكر إفراد الكفار مع إفراد ذكر الأرض، توجيهًا بالخطاب إلى تقريعهم، إذ الكفار لا يرون إلا رؤية الأبصار، يذكرهم بالرتق والفتق الآخرين المعتادين، قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧] فكان ما دون العرش الكريم رتقًا بالماء إلى أن أمر ﷻ المياه لتحول بعضها من بعض فكان ذلك، وأخلف الماء هواء فكان ذلك من فعله فتقًا لذلك الرتق، ثم خلق السماوات والأرضين في ذلك الفتق على بحورهن، وملأ ما بين ذلك هواء، فهي الآن على ما أوجدهن عليه من فتق بعد ذلك الرتق، وهذا الرتق والفتق مرئي ببصر البصيرة لأهل العلم والإيمان، ثم لا يزال ﷻ يفتق السماء بالماء بعد رتقها بالإمساك عن المطر، ويفتق الأرض بالنبات بعد رتقها بالجدب والهمود، وهذا تراه أبصار الرؤى، وهي رؤية قليلة الغناء، ما لم تكن مدركة بالبصائر متصلة بالعبرة من شاهد إلى غائب، ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] إن هذا هو الحق ليس بالباطل ولا اللعب، وأن العود سيكر على هذا البدء لتجزى كل نفس بما كسبت.

والمعلوم من بداهة العقول أن الحكيم لا يفعل إلا بحكمة ولحكمة، ولو أن حكيمًا

فعل فعلًا لا منفعة له ولا لمفعوله؛ لم يكن حكيمًا في فعله ذلك، وخلق الله سبحانه وله الحمد جميع الخليقة؛ ليجود عليهم بأفضاله، ويعود عليهم بأنعامه أولًا، ثم ليعرفهم بنفسه وبأسمائه وصفاته، ثم ليأمرهم بحق الربوبية والعبودية وينهاهم، ولو انقطع الأمر مهنا ووقف الفعل على هذا لما تم المقصود، وما تحققت الحكمة من الحكيم في فعله ذلك تعالى الله عما يظن به الجاهلون، بل كان يكون فعله باطلًا بحتًا وعبثًا ولعبًا، إنما تمت الحكمة في الإعادة، وبها صحت في البداية،وبها اتصل الآخر بالأول، والأول بالآخر، فانقسم المآل بالأمر إلى خزائن ثواب وعقاب، هنالك أظهر من وجوده وأفضاله وإنعامه وإحسانه ما لا تدركه العقول ولا تتصوره الأوهام، للمنصفين له العالمين به العاملين له بطاعته، فوصل لهم جوده بجوده وحنانه بحنانه، وبالضد لمن جهله وجهل عليه، ووصفه بما لا يليق وسماه بغير أسمائه، وجحده وكذب آياته وما جاء من عنده.

قال الله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥]، فوصف فعله بالعبث لو لم يرجعهم إليه، ثم تعالى عن وصفهم وتنزه عن قبيح افترائهم بقوله الحق: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وكذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨، ٣٩]، ثم وصل بذلك قوله الحق: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان:٤٠]، فذكر الرجعة إليه، وكذلك قوله:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾، ثم قال عز من قائل:﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧] سبحانه وله الحمد بعد أن أوجدهم في وجوده أخرجهم من وجوده إلى منعه وسخطه، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه.

اسمه الفالق عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

الفلق الشيء المعجب لذلك قيل للفجر: فلق، والله ﷻ فالقه: أبداه من فلق الليل وفلقه، تقول العرب: سمعته من فلق فيك، وضربته فلق مفرقة، والفلق: الكسر واحدها فلقة، وقالوا: شاعر مفلق، أي: معجب، وقد يتركب من حروفه ما هو المعجب الشديد المهيب؛ لذلك قالوا: الفلق والفيلق: الداهية، والفيلق: الكتيبة الشديدة، ومفلاق: الرذل الدنيء، وقيل: الفلق طبق جهنم، أعاذنا الله منها برحمته.

الاعتبار

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١، ٢]، فإن كان المعنى

فلق الصبح: أعوذ بفالق الإصباح من شر ما يجيء به الليل والنهار، وإن كان المعنى الفلق الذي هو غطاء جهنم، وكل شر باطن أو ظاهر موجودًا كان أو متوهمًا، فهو أصله وعنه بدؤه وإليه يعود.

وقد أرانا الله ﷻ في هذه الدار من النار الحاضرة آية على النار الغائبة، وذلك أن هذه النار مخبأة في خزائنها باطنة غير ظاهرة الذات، يخلقها الله ﷻ عند اصطكاك الأجرام الصلبة، أو عن شدة ضغط بأجرام معلومة خاصة بذلك مع نداب حك، فتظهر في ظاهر ما تأكله من الأجسام التي هي وقود لها، ثم على قدر تمكنها من الحطب يكون سعيرها ولهبها، حتى يعظم شأنها فلا يدرك لها مدى ولا يدانيها مطاول، وقد كانت قبل غيبًا قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠].

فالشجر الأخضر المذكور قد لم يكن، فلما كان لم تكن النار حتى ظهر بالقدح من زنادها وبأن تورى بوقودها، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام:٩٥]، وكذلك أرانا أيضًا في هذه الدار آية على الجنة دار الحيوان بفلقه الحب والنوى، فيجيء ذلك بعد موته يجعل الميت حيًا، ثم يجعل الحي من ذلك ميتًا، يكون هذا عن هذا وهذا عن هذا، يبطن هذا حين يظهر هذا، ويظهر هذا حين يبطن ثم يحيى هذا وهذا وهي الحياة الآخرة في دار الحيوان، وقد جعل ﷻ جنات ما ههنا آية على جنات ما هنالك، فيفلق الحب والنوى بعد يبسهما وهمودهما، فيسعى روح النبات في فلقتي الحبة والنوى، فتعود الفلقتان خضراوين وربما كونهما ورقتين، ثم يطلع عن ذلك نبات الشجرة بقدرته، فلا يزال بها حتى تكون شجرة عظيمة تأوي إليها طيور السماء، ويستظل بظلها حيوان الأرض، ويستكنون في رحب مساحة دوحتها.

وكذلك خلقه الحيوان في الأرحام وغيرها على سبيل هذا التكوين، من كونه مختزنًا في غيبه، ومكنونًا في سنته، ألا ترى أن الحياة غيب في الماء، والماء غيب في خزائن والخزائن غيب في علم الله.

كذلك الآخرة غيب في الدنيا كالماء اختزنه، والنطفة ما يكون عنها، وكما تكون الجنات عن الماء ينزله الله من السماء، كذلك لم يكن إلا عن الجنات الماء، كالنطفة كانت عن إنسان، ثم تكون عن النطفة إنسان.

كذلك إذا كان يوم القيامة، وكان حين إتمام كلمته في قوله: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠-٩١] ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [التكوير: ١٢، ١٣].

أمر جل وتعالى برفع الفلق العلوي عن أعلى جهنم أعاذنا الله برحمته منها، وأوجد الفلق يومئذ كما يوجد فلق الصبح حين وجوده، وكما يوجد ضرمة النار عند معالجة الزناد، وكما يوجد الحياة عند وصول رطوبة الماء إلى يبس الحبة والنوى في مستور غيبها من الأرض، وكما يوجد الحياة في ذلك من الكائنات حين حلولها فيما أذن فيه بالحياة، فتسعى نار جهنم نعوذ بالله العظيم منها في الأرضين السبع والبحار السبع سعيًا، تصير كل شيء أتت عليه نارًا بإذن ربها، فمياه البحور الحميم والأرضون الإدراك، وموجود جهنم الآن هي حقيقتها وموضع مزيدها، ذكر رسول الله ﷺ النار فأشاح بوجهه، ثم قال: «تصدقوا؛ فإن أحدكم يقف بين يدي ربه، فينظر أمامه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر أيمن منه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر أشأم منه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر من ورائه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[(١)]، وقال ﷺ: «فيطأ أحدكم الجمرة فيقول: حس، فيقول ربك: وإنه»[(٢)].

كذلك يأذن الله ﷻ للجنة، فتسعى من موضع حقيقتها من تحت العرش فيما يليها، فتكون السماوات كلهن جنانًا وبحارًا وأنهارًا، وموجودها الآن هي حقيقتها، وموضع مزيدها إلى ما يجعل الله ﷻ في هذه وهذه من المزيد.

التعبد

التعبد بمقتضى هذا الاسم الإيمان به، الجد والاجتهاد فيما ينجي من النار ويورث الجنة، والله ولي النعمة وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اسمه الباسط واسمه القابض ﷻ

تقول في القبض: قبضت أقبض قبضًا وأنا قابض، والتقبض: التشنج، والبسط بمعنى: الشرح، بمعنى ما انفتح بوجد ضد وهو القبض، وهما من المضافات، لا يفهم القبض إلا عن بسط، كما لا يفهم البسط إلا عن قبض، يقال منه: بسطت أبسط فأنا باسط.

الاعتبار

قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد:٢٦]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ

(١) الحديث رواه البخاري في الزكاة (١٤١٣) وفي المناقب (٣٥٩٥) وفي الرقاق (٦٥٣٩) وفي التوحيد (٧٥١٢) ومسلم في الزكاة (١٠١٦) من حديث عدى بن حاتم ﵁.

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤) من حديث أبي رزين العقيلي ﵁ وسنده صحيح.

عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان:٤٥،٤٦]، قد يعبر بالمد عن البسط، غير أن المد المعهود فيما لا عرض له كالخط والسبب والمد وشبه هذا، والبسط معهود فيما له طول وعرض، لذلك سمى الله ﷻ الأرض بساطًا وفراشًا ومهادًا، وقال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَهَا ﴾ [ق:٧] عبر عن ذلك عن البعد ما بين طرفيها وعظيم اقتداره، والقبض موجود عن اسم الحكمة، كما البسط موجود عن اسم الجود، والقبض أبدًا إليه راجع والبسط عنه صادر.

ويدخل القبض والبسط في جميع التدبير، فالمنع كله قبض، والعطاء كله بسط إلا ما استثنى حكم الدنيا والآخرة، فإنه قد يقبض عن عبده محبوباته يبسط له في الآخرة، وقد بسط له ليقبض عنه في تلك، لكن ليس البسط على الحقيقة إلا ما اتصل بوجود الدار الآخرة، وكذلك القبض، فاعلمه.

ويمحو الله ما يشاء ويثبت؛ ليتم الكتاب الذي كتبه عنده بالسنة التي سنها بمشيئته، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد:٣٩]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٦٢] ولا تحويلًا، فالبؤس قبض والنعيم بسط، كذلك الفقر مع الغنى، والموت مع الحياة، والخوف مع الرخاء، والحزن مع السرور، والغضب مع الرضا، والوحشة مع الأنس، والفيض مع القبض، وزيادة الليل مع نقصان النهار وزيادة النهار، والظل مع الشمس، والجدب مع الخصب، والمحاق كله مع الزيادة كلها، وكذلك الكفر مع الإيمان، والنفاق مع الإخلاص، والشرك مع التوحيد، والمعصية مع الطاعة، والسقم مع الصحة، وأنواع الشر كلها قبض وغلق، وأنواع الخير كلها بسط وفتح، إلا ما شاء الله تعالى من ذلك؛ فليس الفتح والبسط المذكور في قول الله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤] ولا المذكور في قوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف:٣٣] إلى آخر المعنى، يفتح عليهم ولا بسط لهم ذلك عن جوده ﷻ أظهر لهم عاجلًا بمشيئته ما حقيقته مكر بهم، واستدراج لهم لحرمان شاءه لهم في الأجل، ليس المذكور الذي في قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٢]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [ص:٣٤]، وما ذكره عن خطيئة آدم وداود عليهما السلام وبلاء أيوب شبه ذلك بقبض في الحقيقة لكن ظاهر ذلك حكمة عاجلة موصلة إلى جوده المتصل لهم في الآجل ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ

إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران:١٧٨] وما كان سببًا لمنال شيء فأحرى به وأولى أن يسمى بمستقبله لا بماضيه، وبما يدوم له لا بما يذهب عنه وينقضي.

إنما البسط على الحقيقة هو المذكور في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وهذا المذكور في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

واعلم أن القبض حق الله منك والبسط حظك منه، ولا تكون بحظك منه بأولى منه بحقه منك، والله ﷻ إذا قبض قبض حتى لا طاقة، وإذا بسط بسط حتى لا فاقة، أعني: أن العبد يتحمل بربه كل شديدة، ويذل له صعب وهو نفسه لا يعلم ولا يقدر ولا يشاء.

وفي الخطاب أيضًا قبض وبسط فهو جل وعلا إذا تكلم تبارك وتعالى من معنى القبض وحد نفسه، ولم يدع لسواه دعوى في معنى ولا في وجه، وإذا تكلم عن معنى البسط ذكر الأواسط والأسباب، وعبر بنون الملك والربوبية، كقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٣٧]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩]، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٥-٣١]، المعنى ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٩]، ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]، هذا وشبهه في خطاب البسط اتكالًا على ما في عقود القلوب من علم ومعرفة.

وأما خطاب القبض فمثل قوله تعالى جده: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل:٦٥]، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٩]، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]، لا قوة إلا بالله هذا وشبهه في القرآن كثير من الخطابين قبض وبسط.

التعبد

جملة التعبد بمقتضى هذين الاسمين الكريمين بعد تعلم علمهما، وطلب اليقين بمعرفتيهما الرضا بالقضاء، واجتناب الضجر في حال القبض، والتحرز من مفارقة

الأدب في حال البسط وهو الإدلال، فالله غني عنك وعما يكون منك من عمل، وهذا هو الذي خشيه الأكابر وأهل القرب من البساط والإنس، والجناية في حال البسط، والشكاية في حال القبض، وكثيرًا ما ذم هذا الخلق القرآن، فاحذره جهدك، والله ولي التوفيق وهو حسبنا الله ونعم الوكيل.

اسمه الرافع واسمه الخافض جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال من ذلك: رفع يرفع فهو رافع وخفض يخفض فهو خافض، والمفعول منهما مرفوع أو مخفوض، وهما من المضاف، لا يفهم الرفع إلا من الخفض، ولا الخفض إلا من الرفع، ومقتضى هذين الاسمين الكريمين خاص من مقتضى اسمي الباسط القابض، إذ خاصة الرفع في المنازل والمراتب، قال الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢]، ففي القسمة كان القبض والبسط، ثم قال جل قوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢].

فهذه المراتب والمنازل، ويعم الرفع والخفض الدنيا والآخرة، كما تقدم في القبض والبسط، قال الله جل قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١].

ومقتضى الرفع والبسط ليمينه المباركة، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه**»[(١)]، وفي أخرى: «**يرفع القسط بيمينه وفي يده الأخرى الخفض**»[(٢)] والرفع الحق هو رفع الحق، قال الله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وقال يخاطب رسوله ﷺ والمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩] والله معكم، أي: لا تحزنوا لما أصابكم من قضاء ظاهره خفض وقبض، فإن باطنه علو وبسطة ورفعة، وحسبكم أن الله معكم هو المؤمن وأنتم المؤمنون، يرفع من يشاء بجوده وبفضله ويخفض من يشاء بحكمته وعدله، رفع الحق وحزبه وخفض الباطل وصحبه، ثم لا يصح التحقق في هذا المقام إلا مع استشعار وقوع

---

(١) الحديث رواه البخاري في الإيمان (١٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) الحديث رواه البخاري في التوحيد (٧٤١٩) ومسلم في الزكاة (٣٧/٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه بلفظ «... فإنه لم ينقص ما في يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض....».

البلوى، وأن يرى نفسه مستوجبًا لوقوع امتحان المولى، يدور ذلك من حكمه على تدوار دوائر من حكمته، فمنهن صغار قريبات المنتهى، ومنهن كبار بعيدات المدى، والله يحكم لا معقب لحكمه، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فمن خرج من النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وإنما المشرف المكرم والمعلى المرفع من رفعه الله بتوفيقه وأيده بتصديقه، وهداه إلى سواء طريقه، كمن هو: «أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»(١).

وإنما المخفوض حقا والمرزأ حتمًا من انقطع من ربه، وأخرجه عن دار الدنيا أجله، وورد على الآخرة، وقد خانه أمله وانقطعت عنه حياته، ذلك الذي تنكبه التوفيق، وأدركه الخذلان وأسرته نفسه، وصار من حزب الشيطان، إن كان مع نفسه لم يجد خيرًا من قلبه، وإن رجع إلى قلبه لم يجد خيرًا عند ربه، وإن رجع إلى ربه ألفاه قد أقصاه يبعده وسد دونه سبل قصده، فهو بالهجران موسوم، وبين العذاب والأشغال مقسوم، يبيت في قبره ويصبح على حسرة.

اسمه المعز واسمه المذل عز جلاله

يقال من ذلك: أعز يعز إعزازًا فهو معز، وأذل يذل إذلالًا فهو مذل، ولا يفهم الإعزاز إلا من إذلال، كما لا يفهم الإذلال إلا من إعزاز.

وخاصتهما من اسمي الخفض والرفع أن الإعزاز والإذلال في النفوس والأحوال، والخفض والرفع في المراتب والمحال، والعز والذل موجودان في وجد المعزوز أو المذلول، والإعزاز والإذلال يكونان في الدنيا والآخرة، وكما تقدم: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، بل عز الدنيا وذلها معرضان إلى التحول في الآخرة إلى ضدهما، كرفعهما وخفضهما وقبضهما وبسطهما، وأعز العز وأعرفه في الحقيقة ما وجده وأوجده باسم تبارك وتعالى، وبالإيمان واليقين والتقى والزهد وسلامة النفس والبراءة من اتباع الهوى، والانقطاع إلى ذي العزة والكبرياء، والغناء به من كل غير وسوى.

اسمه المعطي والمانع تبارك وتعالى

يقال منه: أعطى يعطي إعطاء وهو العطاء والمفعول معطى، ومنع يمنع منعا، فهو مانع وهو المنع والمفعول ممنوع.

وخاصتهما من اسمي القبض والبسط أن العطاء خاص بوصف المعطي، فكأن الله ﷻ

---

(١) الحديث رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٢) وفي الجنة (٢٨٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

بسط ثم أعطى، أي: جعل المعطي يتناول ذلك العطاء، يقال من ذلك: عطوت الشيء أعطوه إذا تناولته، فوصف نفسه ﷻ مع قدرته على البسط والقبض بالقدرة على أن يخلق للمعطي قدرة على تناول ذلك العطاء، ويوجد له في باطنه قبولا منه، وذلك خاص للمعطي الحق دون غيره من المتصفين بمجاز صفة الإعطاء، وهذا موجود في صفة القهر واسم القاهر جل جلاله، وذلك كله إثبات لصفة الوحدانية، وأنه لا يفعل فعل الله غير الله، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

اسمه الضار واسمه النافع عز جلاله وتعالت أسماؤه وصفاته

الضر والنفع معروفان ضدان مضافان لا يفهم أحدهما إلا من قرينة، وإثبات الألف واللام اللذين للتعريف في كل اسم من هذه الأسماء المقترنة إشارة إلى التوحيد بكلتي الجنتين وإثبات التفرد بكلا الفعلين، والقدرة على خلقه الزوجين، وأن كل شيء في قبضته ومنفذ بحكم تدبيره عن قضائه ومشيئته، كمن جعل له من عباده جزاء ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:١٥] ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦]، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩]، واحدًا فخلق كل شيء فكذلك هو الواحد الحق، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، هو الذي استودع العقاقير منافع الأدوية ومضارها، واستودع الأمانة في الموت، واستودع الألم في الضرب وجميع المؤلمات، واستودع الشبع والري في ذوات المطعومات والمشروبات، واستودع التنفيذ كله في التدبير، وافتتح مغاليق جميع ذلك ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣]، فلا يصدر صادر من ذلك كله إلا عن إذنه وحكمه، وعونه على ذلك وخلقه له واختراعه إياه، وكما خلق العالم على ما هو عليه نضده على هذا التنضيد، الذي لا مزيد في العقول عليه.

كذلك لو شاء جل جلاله وتعالت قدرته ومشيئته أن يسلك المضار والمنافع غير ذلك من التدبير غير مسالكها، ويجريها على غير مجاريها، وينضدها على غير هذا التنضيد، ثم ينفذها بالتدبير على ذلك فعل فكان لحرق بمائه الآن يبرد ويبرد بمائه، الآن يميت ويميت بمائه الآن يحيي ويجوع بمائه، الآن يشبع ويشبع بمائه، الآن يجوع ويروي بمائه، الآن يعطش ويعطش بمائه، يروي ويسلك الأمور كلها بالتدبير غير هذه المسالك في كل وجه وكل حال؛ لأنه ﷻ الجاعل ذلك كله على ما هو عليه قبل باختياره، فلو شاء أن يفعل ضد ما فعل ويحكم بخلاف ما به حكم كان ذلك له، وكان يكون الحق كما لو اتخذ لهوًا لاتخذ من

لدنه هو، ولو كان من لدنه لم يكن لهوًا كان هو الحق.

وكذلك لو أراد أن يتخذ ولدًا، لاصطفى مما يخلق ما يشاء، وليس كان يكون ولدًا، ولكان عبدًا فكل ما فعل فالحق فعله وما حكم بالحق حكمه به تعرف المعارف لا بما يعرف، فلا تجعلوا له من عباده جزاءً ولا تنزلوا تدبيره طبعًا، هو على ما يشاء قادر ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤].

اسمه المقدم واسمه المؤخر ﷻ

قيل: هو المقدم من شاء إلى الدرجات العالية، والمؤخر إلى ضد ذلك، ولا يفهم التقديم إلا من تأخير، ولا التأخير إلا من تقديم؛ ولذلك كان ذلك من أدل شيء على إثبات إرادته ووجود مشيئته تقديم بعض الأفعال على بعض، وتأخير بعضها عن بعض، مع جواز تقديم المؤخر منها وتأخير المقدم منها، فما خص المقدم منها بالتقديم والمؤخر بالتأخير إلا إرادة مريد ومشيئة فاعل، قدم ما شاء من ذلك وأخر ما شاء في الزمان والمكان والرتبة والقرب والبعد.

اسمه المحيي واسمه المميت سبحانه وله الحمد

هو من أحيا يحيي إحياء فهو محيي، وأمات يميت إماتة فهو مميت، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾[ق:٤٣]، أخبر ﷻ أنه يحيي كل ميت، ويميت كل حي ليس يميت الميت قاتله، ولا يحيي الحي تاركه، وهو خالق الحياة لكل ذي حياة وخالق الموت لكل ذي موت، كان ذلك جسمانيًا أو دنياويًا، هو واجد ذلك كله، واهبه ومانعه، وحده لا شريك له، وما عدا هذا فقد تقدم ذكره في رسم اسمي المبدئ والمعيد، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤].

اسمه الهادي والمضل عز جلاله

هذه الأسماء كلها قرائن أعني: الهادي المضل، المبدئ المعيد، القابض الباسط، الراتق الفاتق، الرافع الخافض، المقدم المؤخر، المعز والمذل، المعطي المانع، الضار النافع، المحيي المميت جاء بها الخبر وانعقد عليها الإجماع، ودلت عليها الدلالات من الوجود، وقامت بحججها البراهين والشواهد في طبقات العالمين، وهي أسماؤه في سبل تدبيره وقيامه بالقسط في بريته، كل قرينين ميزان عدل، وكل معنى اسم كفة لقرينه.

والعدل هو حكمه بحكمته، وهناك يعرف العدل لا يزال ﷻ منذ خلق السماوات والأرض وما بين ذلك، واستوى على العرش يدبر الأمر ويرفع القسط ويخفضه، ويرفع قسطًا ويخفض قسطًا، يوجد عدلًا يزيل عدلًا ويخلف عدلًا، وكل ينوب مناب قرينه

ويسد مسده في قيام الجملة على وفق مشيئته، وظهور العالم في أحسن معاريضه.

والقسط اسم لما تعطيه هذه الموازين، قال الله جل قوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٩]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد:٢٥]، وما جاءت به الرسل صورة القسط الباطنة، والميزان صورة القسط الظاهرة، وربما أتى الكلام في القسط مفردًا في بابه إن شاء الله تعالى.

واعلم أن الله ﷻ خاطب عباده في أفعاله وخلقته بلسان البسط، ولذلك وسط الوسائط وسبب الأسباب، وجعل للأواسط أواسط وللأسباب أسبابًا، فاشتبهت الأشباه واشتكلت إلا على من سبقت له من ربه الحسنى، وبذلك ضل الضالون وجهل الجاهلون، ثم خاطبهم في كتابه بلساني القبض والبسط، فإذا خاطبهم على لسان القبض أفرد نفسه بالفعل كله والأمر والتدبير أجمع، وإذا خاطبهم على لسان البسط ذكر الأسباب والأواسط، فذلك لإظهار توحيده، وهذا الإعلان بحكمته، ولذلك كان الكتاب هدى وشفاء للمؤمنين، وغما وفتنة للكافرين، وضلالة للمكذبين، ذلك لأن قلوبهم أشحنت فتنة وضلالة بما ألفوه في الخليقة من مباشرة الأسباب والأواسط، فأنسوا إليها وعدلوا بها عن سبل القصد، وجاروا عن سواء السبيل، فلما قرئ عليهم الكتاب العزيز سبق إليهم ما عهدوه من الأنس بالأسباب واعتقاد الأواسط، فكفروا وكذبوا وتأولوا فأخطؤوا.

وأما خطابه لهم في أسمائه جلت أسماؤه وتعالت صفاته بخطاب القبض حسب، ليوحد نفسه ويقيم قسطه، أفرد نفسه بالأمر كله والتدبير ولم يكن لحكم البسط إليها مسلك ولا سبيل، قال الله ﷻ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨] أي: قائمًا بالقسط في شهادته لنفسه بما هو له أهل، فقال ﷻ ينسق أسماءه الحسنى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾[الحشر:٢٣] ﴿ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر:٢٤].

وكل اسم بلغه إلينا رسول الله ﷺ، فعلى هذه السبيل من التعريف وحكم الحصر المقصود بها كقوله: الحكيم الهادي المضل المبدئ المعيد القابض الباسط، هكذا يحصر الحقيقة كلها إليه، ويبين فيها اعتماد كل شيء عليه، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المائدة:٤٨].

والهدى نقيض الضلالة، ويكون بمعنى التقدم بوجه وكل ما تقدم من شيء فهو هاد،

لذلك قيل لأول رعيل من الخيل تطلع في مقدمها: هواد، والهادي: العنق والرأس، وقد يكون الهدى بمعنى الإمالة، وبذلك سميت الهدية، لأنها من ملك إلى ملك، وكذلك الهدي، وهداء المرأة إلى زوجها قد يكون من ذلك بوجه ما، سمي المتمايل في مشيته متهاديًا لذلك.

وقد يكون التبيين بوجه، يقال من ذلك: هديت لك بمعنى بينت لك، قال عز من قائل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]: أي: بينا لهم سبيل الهدى، وكذلك قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] بمعنى أريناه وبينا له سبيلي الضلالة والهدى، كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣] هذا أول الهداية، وأما منتهاها فهو الحمد إلى المقصود والتبليغ، وهو المطلوب من الله ﷻ لعباده في قوله جل قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] والمعنى بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٥]، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]، وبقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس:٩] ونحو هذا كثير.

ويقال: هديتك الصراط بمعنى: بلغت بك وأتممت عليك، وقد يعبر بهذا عن هذا وبهذا عن هذا، وقد جمعهما الله في آية واحدة، فقال: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ هذا بمعنى التعليم والتبيين، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦] أي: يبلغهم بحسن الاقتداء، ولما كان المكلف موصوفًا بالعقل والدعوى موسومًا بالزعامة، قيل: هداك الله الخير، وهداك إلى الخير على ما تقدم من المعنيين، فإذا كان المهدي غير عاقل عار من الزعامة عدا الفعل، فقيل: أهديته ذلك من الهداية والهدى، والهدي ما أهدي إلى مكة من النعم وغيرها، يقال من ذلك: أهديت إلى مكة هديًا، والجمع: الهدي، وأهديت إلى فلان هدية، والجمع: الهدايا، والهدي لغة فيه، وإنما قيل: أهدينا العروس إلى زوجها هداء وهي الهدي؛ لأن الظاهر من العروس إظهار الكراهة للحياء الغالب عليها والرضا بذلك باطن، فكان إدخالها في جملة ما لا زعامة له ولا دعوى أولى، لذلك جعل إذنها صماتها.

الاعتبار

الهدي الذي بمعنى التبيين والتبليغ إلى المقصود لها هو هداية إلى شيئين يجمعهما مقصود واحد وهو الله ﷻ، أوصل مطلوب وأكرم مقصود إليه، ثم سبيله الذي به يهتدي إليه ويسلك في المقصود نحوه عليه، وكل تبيين أو تبليغ إلى مقصود ما فهو هدى

له أو إليه، ولكن ما ذكرناه هو المقصود الحق والمطلوب الأعلى، فأما الله لا إله إلا هو فلا خفاء به، وأما سبيله الذي يسلك عليه نحوه ويتقرب به إليه فهو سبيل الإسلام، وقد أفرغه في قالب العالم وصوره في صورة الخليقة، وفطر عليه كل شيء سفل وعلا، ثم كتابه العزيز أظهر فيه ما أبطن في الخليقة، وأبدى في مسطوره ما خبأه في العالم، ونص فيه على ما أجمله في الموجودات، وجمع فيه ما فرقه فيها، وأشار بجملته إلى ما حواه اللوح المحفوظ، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦].

فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل، ويهديهم إليه ويهديهم صراطًا مستقيمًا، وإنما نور الهداية إذا دخل في القلب انشرح له الصدر، وانشراح الصدر اتساع الصفات المحمودة من العبد وانبساطها على أضدادها المذمومة، وكمال معالي الأخلاق، فإذا أراد الله ﷻ أن يبلغ لعبده أنزل السكينة في قلبه، فسكنت لذلك دنيات طباعه، وأذعنت سفال أخلاقه، فانقادت عند ذلك لأئمتها، وكانت في عونها على ما يرضي بارئها، قال الله جل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، ثم يمدح ﷻ بأنه يستعمل أعداءه في طاعته بقوله الحق: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وقال جل وعلا: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، وقال جل وعلا في ضد ذلك: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، يقول: يطفئ نوره فيضيق متسع أخلاقه ويسفل بمعاليها، فمتى أراد هذا العبد استعمال الهداية، ورام العمل بالطاعة حرج لذلك صدره، وضاق متسعه، وأظلم باطنه، وعسر عليه مراده، فكأنما يروم الصعود إلى السماء، نعوذ بالله من درك الشقاء ومن سوء ما سبقت به المقادير.

فمن أحب القصد إلى مقصوده والهداية في طريقه، فعليه بتعرف ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] دين الله، أي: الذي فطر السماوات والأرض وما بينهن عليه، وهو الإسلام والدين القيم والصراط السوي ودين الحنيفية والطريق المستقيم، ثم يعرض ما تبين له من ذلك على كتاب ربه وسنة نبيه، فهو الذي عناه إبراهيم عليه السلام لأبيه في نصيحته إياه، وتبليغه إليه ما أمره به في قوله: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٢، ٤٣]، قال الله

ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام:٧٥]، تبلغه هذه المنزلة وأحله هذه المرتبة، مع ما زاده من مزيد علم النبوة وعلم الخلة وجب عليه من النصيحة والإعلام، فإنه قد أوتي من العلم ما يخرجه به عن ضلالته إن اتبعه، ويهديه إلى الصراط السوي المرتضى، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

فإن أردت - وفقك الله - نهاية القصد والإبلاغ في اختصار العناء، فعليك بالتفكر في نفسك والنظر في خلقتك، ثم باعد صفاتك عن صفاته وأفرده بما أفرد به من عباده، ولا تجعل نفسك ولا شيئًا سواك ندا له في وجه من الوجوه، قد يرحل المرء لمطلوبه، والسبب المطلوب في الداخل، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم ﴾ [الروم:٨]، وقال عز قوله: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٠، ٢١]، قد شرحنا شرحًا شافيًا، وأوضحنا بحمد الله إيضاحًا كافيًا، فانتبه أيها الطالب لما ذكرناه، وبادر ثم بادره إلى حقيقة ما بيناه وما يتذكر إلا من ينيب ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤]، الحمد لله رب العالمين.

التعبد

أي أخي، الجد الجد والتفرغ للجد في نيل الدرجات العلا، والحلول في الحياة العظمى فمتى سمت بك هداك الله إلى ذلك همة، وتوجهت منك نحوه إرادة وصحيح نية، فمن التحقق في ذلك ألا تقعد إلا مفكرًا، ولا تنظر إلا معتبرًا، وعود عينيك السهر ففي الظلم الداجية توجد الأنوار الغائبة، وأشهد قلبك الأسحار بخالص التفكير وصحيح الاعتبار، وتعود ذلك فللعادة سلطان، والله لا يمل حتى يمل العبد، وتطهر لذلك والزم وواظب وتبأس وتمسكن وسل وتضرع، وتجرد من كل دعوى في علم كنت تعلمه إلا ما يفتحه عليك من علم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

تتبع آثاره في مخلوقاته، واستشهد شواهده في مصنوعاته، وتعلم أسماءه الحسنى فهي مفاتيح تلك المغاليق وبها يبدو لك الخباء في خليقته، ويظهر لك ما أبطنه عن غيرك من لطيف تدبيره ومكنون صنعه، فما خلق جميع ما تشاهده وما لا تشاهده إلا لمعرفته، فلا تكن من الغافلين، ثم عليك بالعمل بطاعته، واتباع مرضاته، ومجانبة مساخطه والتعرض لنفحاته.

اسمه المقسط ﷻ

يقال من ذلك قسط يقسط قسوطًا إذا جار، وهو من العدول عن الشيء المقصود فمن

عدل عن العدل في الحكم فقد قسط فهو قاسط، قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، ويقال في الصفة العليا: أقسط يقسط فهو مقسط، وهو العدل في الحكم، فمن عدل في حكمه أو وزنه أو فعله وقوله وأمره كله، فقد أقسط وهو مقسط، أي: أعطى القسط كما يقال: أنبل إذا أعطى النبل، وألبن إذا أعطى اللبن، قال الله ﷻ: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

الاعتبار

قد تقدم في رسم اسم الشهيد، ومعنى الشهادة بأن الميزان حق ولكل حادثة ميزان، قال الله ﷻ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩]، وقال ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١]، والقسط هو ما يعطيه الميزان، فلكل مقدار قدر، ولكل ميزان وزن قسط، ومعطي القسط والحق والعدل هو المقسط، وسبيل اعتبار القسط ومسلك وجوده في مسلك وجود الوزن، فما من شيء كان أو هو كائن إلا وهو موزون بميزان ظاهره أو باطنه، وما من وزن إلا له قسط قدر تعالى الله ﷻ عن الإهمال والمجازفة، وتنزه عن الحيف والجور، فاطلب تصب إن شاء الله.

التعبد

اعلم وفقك الله أن الذي يثقل في الميزان هو الحق، والذي يخف فيه هو الباطل، وأما قسطك من الموزونين ما ثقل به ميزانك أو خف، وهو إلى الأغلب على عملك اليوم، فالآن الآن وفقك الله أقم اليوم ميزانك، وأعط القسط من نفسك لربك، ووفه قسطه حسب طاقتك، واستغفره لما عجزت عنه، واعتذر له من ضعفك عن القيام بحقه، ثم أعط القسط من نفسك لنفسك ثم للناس، وأعط كل ذي حق حقه، ولتكن قائمًا بالقسط في حملك وشهادتك وحركاتك كلها وأعمالك أجمع، واستفرغ أوقاتك كلها في ذلك واملأها شغلًا به، ولا تستبق من نفسك باقية، فقد علمت أن ليس لك هناك إلا ما قدمته ههنا، وبميزانك اليوم يوزن لك غدًا، واعقل من أنت ولمن أنت ولمن خلقت، والله عنده حسن الثواب وكريم المآب.

اسمه الحكم سبحانه وله الحمد

الحكم مأخوذ من المنع، كل شيء منعته فقد حكمته، ويقال: احتكمت في مال فلان إذا جاز حكمك فيه، والاسم الأحكومة والحكومة، والتحكيم التفعيل منه: حكمت تحكيمًا.

الاعتبار

خاصة الحكم القضاء والفصل بين المتحاكمين والحكم موجود عن اسم الملك، فحيث ما كان الملك كان هناك الحكم، قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح:١٤]، فأخبرك نصا صريحًا أن المالك يفعل في ملكه ما يشاء، وقال ﷻ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١]، فحكم الأوصياء في أموال اليتامى لحق الملك، وعلى قدر السعي والتصرف، والله المالك لكل شيء والحاكم في كل شيء، والحكم بين كل متحاكم في الدنيا والآخرة إن الله حكم بينهم ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية:١٧]، ومن سواه من الحكام، فحكمهم مجاز مأخوذ من حقيقة اسمه، وهو الحكم في حكم كل حاكم والمتعقب، ولا معقب لحكمه.

اسمه العدل

سبحانه هو العدل، وهو العادل على بناء اسم الفاعل، يقال من ذلك: رجل عدل بين العدل والعدولة، والعدل يقع للواحد والاثنين والجميع والذكر والأنثى، والعدل موضع الوسط بين الطريقين حيث يقوم وزنهما، وكل من الطريقين عدل بالكسر كل طرف لقرينه عدل، من ذلك قيل: عدلت فلانًا بفلان، والعادل بالله المشرك ومنه العدل بفتح العين، بمعنى: الفداء، قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:٤٨]، وعدل الشيء بالفتح: مثل له وليس بنظيره من أجل ذلك سمي الفداء: عدلًا؛ لأنه مثل للشيء.

وأما النظير فهو العدل بالكسر، من ذلك قيل لأحد الحملين على الدابة: عدل، ومنه عدلت الجمل، أي: جعلت كل عدل مقاومًا لقرينه، وعدلت الرمح وعدلت الرجل: قومته، عدلت عن كذا، أي: عرجت عنه، والطريق يعدل إلى كذا، أي: يصرف إليه، والانعدال: الرجوع عن العدل إلى الاعوجاج الانفعال من ذلك.

الاعتبار

طريق اعتبار عدله ﷻ هو في جميع أفعاله كلها وأحكامه بأجمعها، هو الحق وفعله الحق وقوله الحق، وقضاؤه الفصل وحكمه العدل، وهو يقبض ويبسط، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويحيي ويميت، ويقدم ويؤخر، ويضر وينفع، ويعصم ويفتن، ويغني ويفقر، ويصح ويسقم، ويعافي ويبتلي، ويفعل ما يريد بحق الملك وحق الوحدانية، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، لو عذب جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه أهل سماواته وأرضيه كان ذلك له بحكم العدل، ولو نعم أهل سماواته وأرضه كان ذلك

بحكم الفضل، ولو قصد كل من عصاه بالتنعيم والتقريب، وكل من أطاعه وآمن به بالتعذيب والإبعاد، كان ذلك من حكمه عدلًا حقا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [يونس:٤٤]، به تعرف المعارف؛ لأنها تعرف وهو الحق المبين، فحيث ما كان فهو الحق، وكيف ما كان فعله فهو الحكمة، وكيف ما صرف حكمه فهو العدل، فافهم.

التعبد

جملة التعبد بمقتضى اسمي: العدل والحكم، نعلم العلم بهما والرضا بحكم الحكم العدل كيف تصرف وحقيقة الاستسلام لمواقع قضاياه، والإيمان الجزم في جميع ذلك بأنه الحق، فجميع صفات الحق إنما تعرف به، ولتلزم قلبك أن من حكمه الحق في عباده أن يخص منهم من شاء، فسراء وضراء، وشدة ورخاء، وتقريبًا وتبعيدًا، وقد تقدم من تنويع ذلك ما يكون تطريقًا للأفهام إن شاء الله، كل ذلك من غير استحقاق سبب، ولا جهد صلب، ولا زيادة أدب، ولا إسراف في نصب؛ بل بما سبق من كلمته في الأزل ووجب بحكم مشيئته في القدم، كل شيء أوجده فلوجوده أوجده، والتعريف بأسمائه وصفاته خلقه الأحكام لا تناله وحقوق المخلوقين لا يلحقه، هو محقق حقوقهم ومحكم أحكامهم، فكيف يعدو عليه خلقه أو يساويه عبده؟ ألا لا عبرة بالخلقة، ولا اعتماد على الحال والصورة، وإنما الاعتماد كله على الحكم منه والمشيئة، فافهم.

اسمه الحكيم عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال من ذلك: أحكمت الشيء أحكمه إحكامًا فهو محكم وفاعل ذلك هو الحكيم،وفرس محكومة، بمعنى: ريضة، والريض ممنوع عن الخروج عن مراد راكبه إلى مراده، وكل شيء منعته فقد حكمته وأحكمته، ففاعل العالم ﷻ منعه عن الخروج عن حكم العدل وهو حد مراده منه ومراده به، وقد يكون الحكم والحكمة الإتقان بوجه، من ذلك قولهم: بناء محكم وأمر محكم، أي: مشدود متقن، جمع ذلك قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:٥٨] بمعنى: محفوظ من التبديل والتغيير ممنوع من الخلاف، مبرم السرد متقن التأليف والنظم.

الاعتبار

الحكمة صفة من صفات الذات، يظهرها الفعل ويعبر عنها المحكمات وتشهد لها العقول بما شاهدته في الموجودات كغيرها من صفات الحق، فوجودها في طرق العلم والكلام والإرادة والمشيئة فتطلب ذلك ـ وفقك الله ـ في مسالك أفعاله ومجاري تدبيره

وترتيب ملكه وملكوته وقيام الأمر كله به، فليعدل الآن عن تطلب آثارها في خلقه ﷻ في السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن من الأفلاك والنجوم والشمس والقمر، وترتيب ذلك وتقديره بأمر محكم، وأحكام وزم مع دؤوب اختلاف الليل والنهار وتقليبهما وإيلاج كل واحد منهما في قرينه وتكويرهما بعضهم على بعض، وما يحدث من ذلك من العجائب المبدعات والآيات والبينات بإحكام متناسق وحكم مستمرة الوجود وعن خالق العالم كله على طبقاته والوجود كله من الخير والشر على درجاته ودركاته من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان بحكمة ناشئة، وحق صاعد إلى كماله وانتهائه إلى علوانه إلى غير ذلك من سائر أفعاله المتقنة وبدائعه المحكمة بوصل موصول بالخلقة، موصل بالشرعة، ويجتزئ في ذلك بما سطره المعتبرون وألهمه المتفكرون على أنه الخطب الجليل يكل دونه النظر وينحسر دونه البصر، ويزيد على القول ويربي على الوصف لا تدرك كنهه العقول، ولا يحيط به سوى اللوح المحفوظ، ولنطلبها في سبيل مقتضاها تقدم لنا من شرح أسماء أفعاله وما لم يأت منها بعد، ثم لتكن العبارة عن ذلك على سبيل الإجمال، فإن في ذلك غنى فيما يسند إليه وكفاية لذي اللب فيما ينبذ منه إليه، تسليمًا في ذلك لأمر الله ورضا بقضائه، واحتسابًا لما غلب عليه، وتعرضًا لثوابه، واستنجازًا لوعده، وأخذًا بأدبه كالبرء والفطر، وتركيب الأجسام وزمها بالذوات واطلاعها عنها، واختزان البرايا في الأرزاق، والأرزاق في الأسباب، والأسباب في الإرادات وسائر الصفات، وإقرار الصفات والذوات في الأجسام لها، وكيف انبعاثها من خزائن السماوات والأرض، وانبعاث الكل من غيابات علم علام الغيوب، وكيف خلق العالم كله بالحق وللحق، وكيف أقر العاو في السفل واستودع السفل في العلو، فإذا ادعى كل مقصود من ذلك من قرينه أجابه إليه، وكيف صور على غير مثال فأحسن التصوير؟ وقدر فأحسن التقدير.

ثم كيف أخرج ما قدر على سواء ما قدر؟ وكيف اخترع المخترعات؟ فتبارك الله ما أعجب ما اخترع وأحسن ما خلق وصنع بل كيف استأثر بالبقاء لربوبيته، وانفرد بالوحدانية في كمال صفاته، وأفنى الكل بقدرته، لأنه الباقي الدائم.

ثم كيف جمعهم بحكمته وأحياهم بالبقاء بإبقاء، لأنه الباقي ببقاء هو صفته فلبقائه أفناهم ولبقائه أبقاهم، ولحياته أماتهم ولحياته أحياهم فلا يموتون ويعلمه علمهم، ولعلمه رماهم بجهلهم، ثم لعلمه يعلمهم فلا يجهلون ما علموه، ولعزه أذلهم، ثم لعزه يعزهم فلا يذلون وهكذا في المعلوم من أسمائه ذلك، لأنه أوجدهم بالحق وللحق فكانوا

حقا في علم غيبه وباطلًا عن وجودهم، ثم لوجوده أوجدهم، وبالحق الذي هو بدأ وجودهم يحققهم في الوجود، بل كيف خلق الخليقة كلها بالحق؟ وللحق الذي هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة:٣٦]، وكيف مزج ذلك الحق في أمشاج عالمه، وأفرغه في قالب الموجودات بحكمته وأنشأه منشأها وهداه لما له كونها، ثم أرسل على ذلك رسله وأنزل به كتبه وشرع بشرعة الخليقة شرائعه، واستعمل أولياءه بما فيها قدره؟ وكيف رتق ثم فتق، ثم خلق خلقه فيما فتق ورتق؟ ثم كيف في حال الفتق رتق؟ كما في حال الرتق فتق، وكيف بسط وقبض؟ ثم كيف في البسط قبض كما في حال القبض بسط؟ وكيف مد الأرض عن الحال خلقه تكويرها؟ ثم كيف كور في حال البسط والمد كما في حال التكوير بسط ومد؟ وكيف خفض ورفع؟ ثم كيف في حال الخفض رفع؟ كذلك في الإعزاز والإذلال، كذلك في النفع والضر، كذلك في التقديم والتأخير، والإحياء والإماتة والهداية والإضلال، كذلك في جميع التقدير والتدبير والتفصيل وجميع أفعاله وقضاياه، فتطلب ذلك في لطائف أسرار الخليقة واقتداره على تحقيق الجلي والخفي عن عالمه، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، والاسم للظاهر منهما والحكم الغالب بل كيف ذلل المتعاصيات وزم المتنافرات وقارب المتباعدات، فكل يعمل على شاكلته، ويظهر فيه حكمته بخاصته في حال اشتراكه وموضع انفراده وحال وحدته في موضع اشتراكه ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:٨٣]، وصف تحار فيه الأوهام، وتضل فيه الأفكار، فالمطنب فيه مقصر، والمطول فيه موجز، لفوته نهاية النعت، وإربائه على غاية الوصف، وكيف جازى المطيعين على تفاوت أنواع طاعاتهم بما يقابل ذلك من ثواب عنده، وجازى العاصين على كثرة اختلاف معاصيهم بما يقابل ذلك من عقاب عنده ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧]،﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ومن حكمته ما أظهر في أهل الحكمة من خليقته، وما استودع جميع الموجودات من المضار والمنافع وسائر الخلقة وخواص الجبلة، ولطيف معاني الصبغة من هدايته إياها لما قدره لها واستعماله إياها لما فطره عليه كالملائكة عليهم السلام﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ① وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ② وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ③ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ④ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[النازعات:١-٥]، ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[المرسلات:١-٦]، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ① فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ② فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ③

ﵟفَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًاﵞ [الذاريات: ١-٤] ﵟوَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًاﵞ [الصافات: ١-٣]، هذا وما نحا نحو هذا مما يستخرج ﷻ من الملائكة عليهم السلام من حكمته في خفايا تدبيره وظواهر تفصيله، ثم الأنبياء عليهم السلام بما جعل فيهم من القول بالحق والصبر عليه، والعمل به والعبارة عنه، والنشر له والمجاهدة عليه في أتباعهم من الأولياء والصديقين والموقنين والشهداء والصالحين، ثم كذلك استخرج حكمته في الصنع وإتقانه في الخلق على أيدي الصناع من عباده، وأهل البراعة في الأعمال والإتقان في المصانع وغرائب الصناعات كلها ﵟوَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَﵞ [الصافات: ٩٧].

ثم ما كان من السفه في وجود الخليقة من الفعال البذل والكلام الفشل والزور والبهتان والكذب والتكذيب لله ﷻ وبرسله وكتبه وما جاء من عنده، والكفران والاستهزاء والسخرية ورد الحق والاستحقاق به ومن أجله، والقبح كله، وكل ما خالف الحكمة من جميع وجوهه أو بعضها فهو الحكيم بذلك كله عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، من حيث يقدمه فيه علمًا وتقديرًا، ثم أظهره في التفصيل على سواء ما تقدم منه وسبق من تقديره من فاعلين له أراد وقوعه منهم، وأن يكون ذلك وصفًا لهم وهم الموصوفون به بإيثارهم إياه ومحبتهم له، وأن يكونوا هم المجزيين عليه جزاء مثله، والفعل منوطًا بفاعله والعمل حقيقة مضاف إلى عامله لا إلى العالم به والقادر عليه مع كونه غير واقع منه، ولا مؤثر له مختار هذا ما لا خفاء به ولا ريب فيه، وأيضًا فإنه مما تقدم ذكره أن الله ﷻ كيف توجه وجوده والعبارة عنه والبيان عن معنى من معانيه فهو الحق ومن وجوده الحق الحكمة، وهو جل جلاله وتقدست أسماؤه قد تسمى واتصف بالغضب كما اتصف بالرضا واتصف بالرحمة والمغفرة والعفو والحلم والأناة، وكذلك اتصف بأنه شديد العقاب سريع الحساب شديد الأخذ والبطش، ونحو هذا، فأوجد عالمه على مقتضى ذلك، ذلك بأنه يلحق غضبه من شاء، ويحل رضاه على من شاء، ويدخل في رحمته من شاء كما يدخل في مقتضى سخطه من شاء، نعوذ بالله من غضبه وسخطه، ومما يوجب ذلك بمنه وفضله فهو الحكيم بذلك وفعله ذلك حكمة صواب حسن ﵟوَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥﵞ [هود: ١٢٣]، فافهم.

لذلك خلق الله إبليس - لعنه الله - وابتلى الملك الأعلى بالسجود لآدم عليه السلام فسجد الملائكة فنجوا، وأبى إبليس فهلك، وسأل ربه النظرة فأقطعه وذريته عمالة ما ليس بالصلاح وما هو بخلاف الحكمة في حقهم، وما ظهوره سفه في حق من أضيف إليه،

ووجد عنه لعلة اقتحام المناهي الواقع منهم؛ لإتمام كلمته فيهم وإقامة عدله عليهم فنهى عنه وأوعد عليه، وكان أصلا للابتلاء والمحنة فالمستعان الله وحده لا شريك له جمع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، المعنى كذلك خلق النار لها خدمة وسدنة اقتطع لهم منها عمالات استعملهم فيها من تنكيل ساكنيها وتعذيب داخليها تلك الأعمال بأعيانها هناك أصل لأعمال هؤلاء في الدنيا، وأعمال هؤلاء وصف لعمالات أولئك ثم استاقهم جل وعلا بصفاتهم وذواتهم في حال التفصيل إلى ما قدره قبل، كما قال عز من قائل: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»، كذلك خلق الجنة وسكانها وخدمتها وولدانها وحورها وقهارمها ونعيمها وملكها، وجعل أعمال العاملين لها في الدنيا وصفًا لعمالات أولئك وإقطاعاتهم، فيجزي كل عامل هنا غدًا من الجزاء هناك وفق عمله المتقدم، كما كان عمله وفقًا لتقديره المتقدم، ليحق كلمته الحق: «**هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون**»، وكذلك خلق الجنة والنار على معاني أسمائه وصفاته.

وقد تقدم الكلام على معنى قوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٢]، فاعبر وفقك الله بإيمانك من الدنيا إلى الآخرة، ووف كل ذي حق حقه فما الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا، فإذا كان خلقه الجنة والنار وما فيهما وما أعدهما له من معاني أسمائه وصفاته، وكل بني آدم مقسومون إلى قبضتيه الكريمتين، فلا بد إذا من طريقين إذا لم يكن بد من طريقين فلابد إذا من أمر بأحدهما ونهي عن الآخر،وإذا كان ذلك كذلك فلابد إذا من طاعة وعصيان، والطاعة حكمة ظاهرها وباطنها، والمعصية ظاهرها سفه الحكمة فيها باطنة، فكل ما في العالم إذا فلا بد من وجوده ولا غنى عنه إلا بمحو منه أو تبديل ما شاء بما شاء ومحو ما شاء وإثبات ما شاء، فلو نقص سفه السفهاء من العالم لم يكن تام الحكمة ولأمكن أن تغلب على الظن أن فاعله كأحد المطبوعات كالنار لا توجد إلا محرقة والثلج لا يوجد إلا مبردًا، وكالثقيل يسفل ويهوي، وكالخفيف يصعد، ولكماله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه وسع كل شيء قدرة وعلمًا ورحمة وحلمًا وحكمة وحكمًا، أوجد الشيء وضده، وخلق الزوج وزوجه، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، ثم قدم وأخر، وأعز وأذل، ورفع ووضع، وساء وسر، ونفع وضر إلى ما يعلمه العليم الحكيم، ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

شبهة

وربما اعترضك في هذا المقام عارض شبهة، فقال: هذا قولك في أعمال زمت فوصلت

إلى الجنة أو إلى النار، واتصلت على ذكرته بمعانيها، واتصفت بأوصافها من المجازاة هناك، فما قولك في أعمال الذين قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار...**»(١).

فهذه أعمال لم تصل هناك ولم يكن لها أصل انبعثت عنه في الجنة ولا في النار، فمن الجواب إن الله ﷻ أسماء هي: الغفار والتواب والغفور ونحو هذه من الأسماء، وكذلك من أسمائه المضل والفاتن، والمؤخر والقابض، وشديد العقاب وسريع الحساب، والمبتلي والمنتقم، والوارث ونحو هذا، ولكل مقتضى اسم مقدرة في القدم، فهو قد قدر لمقتضيات هذه الأسماء عمالات وخلق لها عاملين، وجعل تلك الأعمال عمالات لهم استعملهم فيها، ثم يسبق كتابه بما سبق في تقديره وزمه، ويلحق العاملين بخواتم أعمالهم ولو لم يخلق لهذه الأسماء وعمالاتها عاملين لاستأنف الآن الخلق، والأمر بغير علم تقدم منه تعالى الله عن ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**لو لم تذنبوا، لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»(٢).

وأما أعمال العاملين فمثبتة في المآلين، منزلة في كلا المنزلتين، وفيها تقع الموازنة، والله أعلم التي عبر عنها قوله ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠]، وتتسع الوراثة حتى ما من أحد إلا وله منزلة في الجنة ومنزلة في النار، فمن آمن وأسلم وأحسن في إسلامه قدم من ذلك في منزلته على ما قدم، وأورث منزلته في النار من لم يؤمن بالله ولا أسلم له، ويجتمع إلى هذا عمله السيئ أو الحسن في المنزلتين، قال الله ﷻ في أهل النار: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [هود:٢٠]، وقال: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٨]، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة أُتي كل مؤمن منكم برجل يهودي أو نصراني، فيقال له: يا مسلم أو يا مؤمن هذا فكاكك من النار**»(٣)، فهذه حكمة بالغة وحق موصل وأمر

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨) وفي أحاديث الأنبياء (٣٣٣٢) وفي القدر (٦٥٩٤) وفي التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بدون لفظ «فيما يبدو للناس» ولفظ «فيما يبدو للناس» رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩٨) وفي المغازي (٤٢٠٢، ٤٢٠٧) وفي القدر (٦٦٠٧) ومسلم في الإيمان (١١٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم في التوبة (٢٧٦٧) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

حتم، قال الله جل من قائل: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٩]، فتسمى الحكيم لجزائهم بوصفهم، أي: لجنس أقوالهم وأعمالهم.

وقد تقدم في ذلك من الكلام ما يغني عن كثرة التبيين فيه، والغرض المقصود الاختصار، وبالجملة فإن الله ﷻ أوجد الخير كله بنفسه لنفسه فأحبه لذلك ورضيه وقربه ووعد عليه، وأوجد الشر كله بقدرته لا لنفسه، بل بحكمته ومشيئته وكماله. فاتصف تبارك وتعالى بما أوجده بنفسه لنفسه وتنزه عما لم يخلقه لنفسه، فأوعد العاملين به فمن وفقه لما تسمى به واتصف سماه ﷻ به ووصفه، أي: سماه بأسماء طيبة من أسمائه، ومدحه وأوصله إليه وأكرمه، ومن أتبع نفسه وعمله ما تنزه عنه سبحانه فرضيه وصفًا لنفسه، انقطع وصله وضل عن ربه وحاد عن سبيله وخالف حكمته فلم يصل إليه، فكان في بعيد البعد عنه وأهون الهون حكمة بالغة ووصل موصل.

وفصل الخطاب فيما نحن بسبيل تبيانه أنه إذا كان لفظ الحكمة معبرًا عن علم العالم أفضل المعلومات بأفضل علم، وتقديره المقدورات بأحسن تقدير، وإخراجه المقدورات المكونات على أتقن إخراج وأفضل صنع، فهو إذا الحكيم الحق، لأنه علم المعلومات كلها سواء غيبًا وشهادة، وعلم نفسه الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]، بعلم ليس كمثله علم، وهو العليم الدائم المحيط، الذي لا يزال لما هو دائم لا يزول، فهو الحكيم لا بحكمة استفادها بصفة خارجة عن ذاته، وكذلك علمه وقدرته وجميع صفاته ومعاني أسمائه بجميع مقتضياتها عاجلًا وآجلًا، فافهم.

التعبد

قال الله ﷻ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، ثم رفع قدرها وأنه لا ينبغي دركها وما يذكر إلا أولو الألباب، والحكمة إصابة الصواب وموافقة الحق والعدل في القول والعمل، والحكمة هي معرفة الله ﷻ من حيث العلم، والحكمة أيضًا من حيث الفعل: جمع الأضداد، ومقارنة المتعاصيات، ومزاوجة المتنافرات، والحكيم أيضًا: من أخرج معاني الشمال على مخارج معاني اليمين، وقوم نفسه وتزكى فسلك باليسرى منه مسلك اليمنى، قال الله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:١٢]، ثم أعلم ما هي الحكمة مجمل، فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وجماع الحكمة فيما سبيله تكليف، والوجه في تسمية شكر الشاكر نعمة أن الشاكر لله

ﷺ والعابد له قائم له على ذلك في سرائه وضرائه، عارف بربه فيما يسبحه عنه ويعمد عليه لعلمه بما يجوز عليه وما يستحيل له، فيرجع معنى ذلك وحقيقته إلى معرفة الله ﷻ هي الحكمة، وإن أصابه صواب ذلك بالعمل هو تمام الحكمة من حيث العبد، وجماع الحكمة فيما سبيله التكليف، والمحنة داخل في ضمن هذا الخطاب وهو عنوان دين القيمة، ثم ذكر وصيته لابنه وجميعها يعبر عن قول الحق والعمل به.

فعليك - وفقك الله - بالجد وإعطاء الجهد في طلب هذه القيمة العظمى والهبة السنية العليا، فهي والله عذبة المذاق وشهية التلاق، والحكمة - أيدك الله بمعونته - تمت إليك برحم ماسة، ونسب دان، وقرابة قريبة، لمعرفة مغروزة في أمشاجك وميثاق به عليك في أوليتك، من أجل ذلك كانت فضيلتها متأكدة وأخوتها واشجة تعرفها حق واجب على أولي الألباب، وفرض لازب على من رغب في الزلفى وحسن المآب، تذهب الشك وتجلي الريب، بها يعرف الحق من الباطل والحجة من الشبهة والمتآلف من المتشتت، لها قوة لا ترام ويد لا تغلب، ورفعة لا تطاول وعزة لا تناصب، وجلالة لا تسامى ودرجة لا توازى، تبوئك كنفها وتفيئك ظلها، فهي: راحة العقل ومفيض الفكر، ومرتع النفس وموضع الأنس، وينبوع السرور ومنبسط اللذة، ومحل الحياة من النفس والنور من العين.

والحكمة الحق هي معرفة الله ﷻ، فلا أحكم منه تعالى فاطلب - رحمك الله - بجد صاعد، وأدرك بجهد جاهد، واعْلُ بشرف الهمة ما دمت والمحل أمم والشمل ملتئم، عساك تصادف نهزة وتوافق فرصة فتتحف بتحفة وتقتنص طريدة، فكم سمعنا بسابق لا يلحق، وكم قد رأينا من مطلوب عزيز قد يدرك، والحكمة صاحبها أبدًا يجري متماهلًا ويأتي على ذلك سابقًا، وهو كما قال الحادي:

من أين لي مثلك يا مذلل يمشي رويدًا ويجيء في الأول

فهو يتعب المحررين ويسبق السابقين، إذ بها الإيمان وثبات اليقين وكمال العلم، فاستوفر منها حظك، واستجزل من أقسامها قسمك، وإياك والتواني في الأمر، والتقصير في النظر، والتفريط في العمل، والكسل عن النهوض، والترخص في الإبلاغ من التطهر والتأخر عن التقدم قدمًا إلى رب العالمين، أسأل الله الذي لا يخيب آمله، ولا يحرم سائله، ولا يكدي راجيه ولا يخفق طالبه أن يعصمنا وإياك من المطل والتسويف والتلذذ والتطويل، ولا يجعلنا ممن استذله الطمع، واستهواه الجبن، واستغواه الشيطان، وأرداه الهوى، وحيره العمى بمنه وجميل صنعه لا إله إلا هو.

اسمه اللطيف تبارك وتعالى جده

يقال من ذلك: لطف فلان في الأمر يلطف لطفًا فهو لطيف وهو اللطف، واللطف قد يكون اللطف البر بوجه من ذلك، قيل: ألطفته، بمعنى: أتحفته، وقد يكون بمعنى: الرفق بوجه قولهم: لاطفت العليل ألاطفه ملاطفة، وكذلك الغضبان ويكون الخبر والعلم بخفايا جوانح العالمين ودقائق أسرارهم، فيوصل إليهم إحسانه وألطافه من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون، وعنه العبارة في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾[الطلاق:٢، ٣]، وقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح:٦]، منه أيضًا وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]، وقال الشاعر:

ألا ربما ضاقَ الفضاءُ بأهلِهِ   وأمكنَ من بين الأسنةِ مخرجُ

ومعنى قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فأخبر عليه السلام أنه ﷻ بخفي لطفه وخفي حكمته في سعة علمه وعلي مشيئته أوصله إلى ما لم يكن يأمله من عزيز النصر وكريم الظفر، وكذلك قوله جل قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾[الشورى:١٩] أي: يرزق من يشاء مما لم يكدح فيه ولا أمّله، كما قال رسول الله ﷺ: «**أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يعلم**»[1] لطيف بهم، خفي ببرهم، قدير على توصيل ذلك إليهم من حيث يعلمون، ومن حيث لا يعلمون، وقد يكون اللطف في إتقان الصنعة وتركيب دقائق الخلقة وما دون ذلك من الخفايا ومن سرائر الجملة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٣].

وقد أدرك بعضهم بهذه الأقسام قسمًا آخر زعموا أنه من اللطف وليس به، قالوا: اللطيف قد يكون الضئيل الجسم، والرقيق الخلق، والضعيف والدنيء وما ذلك كما ظنوه ولا الحق بالذي زعموه، وإنما هي كلمة مولدة عن رأي محدث لم يصح به مذهب ولا نقل اللغة، بل لحقائق المعارف توابع أشباه ونزول تتولد عن اتساع العوام، لبعد العهد بالأصول وإنما قال الشاعر:

بمهذب رَخص كَأَنَّ بَنانَهُ   عَنَمٌ يَكادُ مِنَ اللَطافةِ يُعقَد

---

(١)رواه البيهقي في الشعب (١١٩٧) من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه وسنده ضعيف.

لوصف البيان باللطافة، ونوع منه بحسن الخلقة وإبداع الصنعة وخفي سريان النعمة بل دون نداوة تلك البشرة ولم يذهب إلى تنقص من وصفه، فيعني الإخراج والدقة نكيف ولم يبق شعره على هجو هؤلاء التعييب لخلقها.

الاعتبار

مسالك اللطف على وجوهه موجودة في آثار سريان الحكمة وخفايا مجاري الأسباب كلها، إلى تتميم كلماته في سنته من الإتيان بالأرزاق وتقسيمها، والفرج والنصر والغياث والكفايات كلها، وقيام موازينه ﷻ في القبض والبسط، والنفع والضر، والتقديم والتأخير، والإعزاز والإذلال، والفتح والإمساك، والهداية والإضلال، والإحياء والإماتة، وعلى القول بالإجمال فهي مقتضى قهره، وكيف استاق الذوات بمشيئتها عن إرادتها إلى مشيئته من حيث لا يحتسبون، حتى وافق بين التقدير والمقدار، وبين التكوين والأكوان، وحتى قابل بنسخة ما يكون ما قد كان، وطابق ذلك بين الأولية والمآل في العقود، والأقوال والأفعال على اختلاف ذلك في الدواعي والأغراض، وتقليب الأحكام بهم في البدء والعود، والوجود والعدم، وتغاير الأمكنة وتباعد الأزمان، كيف استخرج ذلك كله من غيابات خزائنه؟ ثم كيف صير ذلك كله لطفًا يلطف به خاصة لعباده المؤمنين، وبالضد في أبعاض ذلك لأعدائه الكافرين، وكيف أقرها واستودعها الخزائن؟ وكيف لطف في إرساله الرياح اللواقح، ثم لطف في إلحاقها السحاب في صفاء الجووحر وهجه؟ وكيف لطف في إيجاد الماء في السحاب، وتكوينه من لا موجود أو عن موجود ليس به إحالة إليه وإصارة إلى حقيقته؟ وكيف لطف في تقويم الرياح إلى مهابها، وأوجد لها قوة تستاق بها السحاب إلى بلده الميت؟ ثم كيف لطف في ترتيب إنزاله الماء إلى الأرض؟ وتقطيعه رذاذًا ورشًا، ورطوبة وبرودة ليلًا، يهلك ما كان ينزله عليه لو أنزله جملًا، وفصله قطعًا وكسفًا، أو يهلك ما كان أصلحه غياثًا بهجمات الأضداد، لولا تدريج التدبير ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

ثم كيف لطف الأرحام في الأرض حتى تفتحت لقبول الماء والنبات، وجميع الناشئات حتى اتسعت في أقطار الهواء وذهبت في الثرى، وكيف زواج بين ذلك؟ وكيف لطف في فلق النوى والحب وبرز ما ليس له أصل ولا بزر؟ وكيف أجرى الحياة في أفلاق الحبوب والنوى حتى كونها ورقًا؟ ثم كيف لطف لها في استخراج عروق منها في أسفلها إلى الأرض؟ وكيف لطف لها في أن تمص الغذاء منها؟

ثم كيف لطف في تدريج النشء بلطف خفي لا يبين إلا بعد تجميل جمله لخفايا سريان

سر الخلقة فيه، حتى طلعها شجرًا؟ ثم كيف لطف لها في استخراج ثمرها عنها، ولم تكن الثمرة كامنة كمون وجود، بل في علم غيبه وخزائن قدرته، فأخرجها بقدرته وخفي لطفه على مسالك شرائعه في سنته لتتميم كلمته؟ بل كيف لطف بالعباد في تقسيم أرزاقهم، وترتيب معاشهم؟ فربما كان هذا الغذاء من الحب والثمر والأنعام متفرقًا في أقطار من الأرض نائية، وأماكن من بلاد متباعدة، فوفر دواعي بعض عباده لامتيار الطعام وجلب ما في الأبعاد من الفوائد والأنعام، حتى يجمعه في بلد وتقسمه على من هنالك، فربما قسم لعبد من عباده حبة من بلد وأخرى من بلد، وربما طحن ذلك الحب فقسمه على الهباء والأجزاء التي تتجزأ إلى أقل منها، وكذلك في تجزئة لحوم الأنعام وألبانها، وتقسيم الثمرات كلها وفوائدها، فيلطف بهذه الألطاف في جميعهم، فأرزاقهم من أقطار السماوات والأرض على تنائي ذلك واختلاف الأملاك وتفريق الأبعاض، فينشئهم بذلك نشأ في أجسامهم وحواسهم واختلافهم، فتكون عن ذلك أعمالهم وأخلاقهم وصفاتهم ومذاهبهم وجميع جملهم، قد أحصى ذلك كله وقدره على تبعيضه، وجمعه على تفريقه وكأن به سيفرقه، ثم يلطف له في استياقه على سواء طريقه الذي ذهب عليه، فسبحانه وله الحمد ما أقدره في لطفه، وما أعجب ما يأتي به من لطفه على ما شاء من تدبيره.

كذلك الاعتبار في النطفة، وقد جمعت مما جمع منه الغذاء، كيف لطف في تحصيلها من جملة الغذاء إلى حقيقتها؟ ثم لطف في أن أقرها قرارها المكين في استنزال النطفة من بين صلب الذكر وترائب الأنثى، فأنزلها بلطفه على وفق منها بروح الخلقة التي استودعها فيها على سنته على اشتراك في ذلك بينهما، بينهما الاستخراج الشبه إلى مخلوقه عنهما، فسبحانه كيف لطف في ذلك؟ ثم كيف لما قبله تولاه بلطفه، فجعله بلطفه وبخفي تدبيره وعظيم اقتداره نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا يقره إلى أجله وينشئه خلقًا آخر بل كيف لطف في إتمام تدقيق صورته في آخر كونه نطفة وفي أوائل عقده من الماء المهين؟ وكيف فصل مفاصل أصابع يده ورجليه، وجعل ما بين تلك المفاصل براجم حتى أكمل الأصابع وصور الأظفار على دقة ما هنالك من خلقه، ثم فصل الأصابع من الكفين وربط الأشاجع والجملة برباطتها، وزمها بعصبها وعضلها، ثم غشاها بجلدتها، ثم فصل اليدين من الذراعين والذراعين من المرفقين والمرفقين من العضدين والعضدين من المنكبين؟ كذلك في الرجلين إلى الوركين، ثم كذلك في الظهر إلى العنق والمنكبين، ثم في الرأس.

وكيف لطف في إحكام وتهيئة الشؤون، وتركيب الدماغ والنخاع والمخ وجميع الجوارح الظاهرة والجوانح الباطنة، بما له أوجد ذلك كله؟

وكيف لطف في إحكام خرق المعاء وتفصيله وتوصيله، وإحكام تقسيمه وتسهيل سبلها ونصب المعدة والكلى بما له أوجدهما؟

وكيف لطف في زم السبيلين واستخراج الثقيلين؛ بأن ربطهما برباطاتهما ودفع المفتاح إلى إرادة حاملها بإذنه يوجد ذلك كله إيجادًا وينشئه إنشاءً بلطفه، وعظيم اقتداره الدقيق عنده والجليل سواء ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [يونس:٦١].

بل كيف لطف البسط في حال القبض والقبض في حال البسط؟ حتى أنه جل وتعالى قد يقبض بالبسط ويبسط بالقبض وقد يبسط بهما، وكذلك في التقديم والتأخير، والنفع والضر، والإعطاء والمنع، والإحياء والإماتة، وجميع موازين التدبير، وجرد ذلك في الوجود كطلوع الليل والنهار واختلافهما على ذلك وتقليبهما بالإيلاج والتكوير، وكطلوع الشمس والقمر والنجوم وجميع الأفلاك، وحركات ذلك كله في تداويره وتقديره القمر في منازله، والشمس في مطالعها ومغاربها، وكالمد والجزر والغيض والفيض، وفي الإحياء والإماتة يحيى في حال الإماتة ويميت في حال الإحياء: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى:١٥].

هذا في الوجود، وأما في خواص النفع والضر، والهداية والإضلال، وتقسيم أقسام العباد على ذلك، فقول الله ﷻ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف:٣٣]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وكقولهم: منع الله ﷻ ألا تجد نحو هذا من جهل العبد تدبير ربه إياه وإنه لا يدري في أي قضائه الخيرة له، غير أن المؤمن لا يقضي الله ﷻ له بشيء من حيث هو مؤمن إلا كان خيرًا له؛ والكافر لا يقضي الله ﷻ له بشيء من حيث هو كافر إلا كان شرًا له، إن بسط له كان فتنة وإطغاء، وإن منعه وقبضه عنه أسخطه وعاداه، سبحانه وله الحمد كثيرًا كيف لطف بعباده المؤمنين حتى عبروا بحار ما هنالك، ونجاهم من تلك المهالك.

التعبد

أول ما يجب عليك من التعبد باسمه اللطيف جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه طلب علمه، فذلك مفتاح التعبد له به وبغيره من الأسماء تقديم العلم يطلبه في مظانه وسبيل مسالكه من العالم، ثم انظر كما يجب أن يلطف لك فيما يكون لك برًّا فالطف أنت بذلك حسب طاقتك بإخوانك المؤمنين، وأوصل إلى من أمكنك من برك وخيرك ومن لطفك ما أمكنك، ولتشغل نفسك بالشكر لمن لطفه بك خفي، وبره إليك واصل في سرائك وضرائك، وتلطف في إيصال برك إلى من أوصلته بألطف المآخذ وأحسن المذاهب فذلك البر في البر، وتذكر إيصال رسول الله بره إلى جابر بن عبد الله ـ رحمة الله عليه ـ وكان عريسًا ولم يعلم رسول الله ﷺ بذلك، فلما سأله: «**هل تزوجت يا جابر؟**» قال: نعم، قال: «**بكرًا أم ثيبًا**» قال: بل ثيبًا، قال: «**فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك**»[(١)] فاشترى منه جمله وأفقره ظهره إلى المدينة، فلما دخل المدينة دفع إليه الجمل والثمن، فكذلك فلتكن أنت في إيصال برك إلى من لاطفته على قدر الإمكان والمكان، وكل امرئ حسيب نفسه.

اسمه الحليم عز جلاله وتقدست أسماؤه

جاء هذا الاسم الكريم في القرآن وحديث رسول الله ﷺ على مثال فعيل، ولم يأت على بناء فاعل ألبتة إلا وصفًا لغير هذا المعنى.

يقال من ذلك: حلم يحلم حلمًا إذا صار حليمًا، وأحلمت المرأة: إذا ولدت الحلماء، ويقال فيما يكون على بناء فاعل: حلم يحلم حلمًا في منامه فهو حالم، وتحلم: تكلف ذلك وتقول على حلمه ما لم يره.

وقد جاء حليمًا بمعنى عليم قال الله ﷻ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٨]، كما قال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١١] ويعضد هذا الوجه قولهم: حلم يحلم حلمًا، فهو حالم إذا رأى في منامه، والرؤية والرؤيا من قبيل العلم، فوصفوا بهذه الرؤية الحلم، غير أنهم فرقوا بينهما تفرقة عرفان، وقد جاء بمعنى العقل أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور:٣٢]، ولمقاربة ما بين العلم والفعل في الباطن عسر التحقق بمعلم مقتضى صفة الحلم وبما هو الحلم.

وقد تقدم ذلك في اسم العليم، وأنه لا تتخلص العبارة عن أحدهما دون الآخر إلا بمشاركة بينهما، وهذا ـ والله أعلم ـ يدل على أن الحلم من الأسماء الخاصة بالباطن، وقال

---

(١) الحديث رواه البخاري في النكاح (٥٠٧٩، ٥٠٨٠) ومسلم في الرضاع (١٤٦٦/ ٥٤- ٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ﴾[النور:٥٩]، فجعل الحلم أمارة دالة وعلامة موجب وجود التكليف، لحصول العقل والتميز عند تلك النهاية مع استصحاب تلك الصفة في حاملها، والأقرب إلى معرفة حقيقته ـ والله أعلم ـ أن يكون جامعًا لمعاني الصفات، فمرة يعبر عنه باسم العلم، ومرة بالعقل الموجود عنه، وهو التثبت والأناة، والعقل الخارج من الإرادة والعلم والقدرة وعلى ما ينبغي، فالحلم نفس التثبت والأناة والإمهال وترك العجلة، وما يتبع هذا فعل الحلم هذا وصفه من جهة فعله.

وأما وصفه من قبل ذاته فعسير من حيث إن الباطن إنما يعرف بأفعاله وأسمائه من حيث دلالتها عليه، وإلا فالحلم زين الباطن، وقد وجدنا العبارة عن الجملة أو أكثرها به، ولذلك قيل لطرف ثدي المرأة: حلمة، لخروج المعاني والأخلاق والصفات عنها في اللبن يمص الوليد إياه، واللبن: الفطرة التي ينشئ الله تعالى بها المولود خلقًا وأمرًا، وهو نشوء الصفات، وهو جامع المعاني والصفات، الفحل والأم، أعني: الوالد والوالدة؛ ولذلك قدم الله تعالى فعلها، أعني: صفة الحلم بين يدي تدبيره يوم استوائه على العرش، نكتب على نفسه الرحمة، وأن رحمته سبقت عذابه وغضبه، وقال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة»[1].

ولم يأت الله ﷻ اسم بالفعل ولا صفة من شاء من عباده بالعقل، وسمى به وعظم قدر العقل جدًّا وأكثر عنائه، وقال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليأتي بصيام وصلاة وصدقة واجتهاد**»، أو كما قال رسول الله ﷺ: «**وما يجازى إلا بقدر عقله**»[2]، وقال: «**إن الرجل ليصلي الصلاة وما له منها إلا بقدر ما عقل منها**»[3].

ذلك ـ والله أعلم ـ لأن العقل فعله مأخوذ من اسمه، أي: يعقل ما وعاه بالعلم والذكر عن التلفت، والتميز له من الاشتباه، وهو يعقل حامله عن دنيات الأمور وسفساف الأخلاق، سيجلب ذلك بالفكر، ويحضره بالذكر ويحضره بثقافه، ويحتويه بإحاطته، ويأسره برباطه ويعقله بعقاله، وهو أيضا يعقل غيره من الصفات ألا يشذ منهن صفة عن

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٧/ ٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما و (١٨/ ٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه البيهقى في الشعب (٤٦٣٦، ٤٦٣٧) والطحاوي في مشكل الآثار (١٤٧٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) الحديث رواه أحمد (٤/ ٣١٩) وأبو داود في الصلاة (٧٩٦) والنسائي في الكبرى في السهو (٦١٤، ٦١٥) وابن حبان (١٨٨٥ - إحسان) ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١٥٢-١٥٦) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه بنحوه وحسنه الألباني في سنن أبي داود.

طريق العدل، فإذا عقل الصفات غيره لزمت بذلك طريق العدل، وصارت بما عقلته من معاني العلم على سواء سبيل الشرع، وهذا بالهداية من الله ﷻ والتوفيق إلى سواء الطريق.

ووصف الحلم: فعل الشيء على ما ينبغي من جميع الوجوه في الحال والوقت والهيئة، فقد جمع وصف الحلم أوصاف العقل كلها، وأما الله جل جلاله وتقدست أسماؤه فليس في صفاته تخالف هو المقدس عن الافتقار إلى ما يصلحه العقل، وإنما العقل قالوا: نور الله في عبده، وقالوا: العقل وكيل الله ﷻ على عبده لأشياء به يعرفها، والله هو الغني الحميد وعباده الفقراء.

إنما العقل في موضع الفاقة والفقر، والحلم في العبد في أعلى العقل إذا تمت في العبد أفعال العقل بمجاورة ما كان عاقلًا، وإذا تمت فيه بتتميم من الله ﷻ وتأييد منه، وكانت له سجية وعادة كان حليمًا فأواها، والله أعلم بالعلم والحكم إن هذا المعنى هو خاصة تسميته بالحلم دون العقل لهذا وما هو أكبر من هذا وأعلى، فإن هذا اسم لم يخرج من أفعاله إلا ما هو رحمة وشفاء، وباب إلى رحمته الواسعة والذي لم يخرج بعد من أفعاله أكثر جدًّا، وإن كانت الأسماء كلها كذلك، أعني: أنه أبقى منها ما يعجب به عباده، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، دون نهاية متوهمة ولا غاية في ذلك مدركة، فهذا الاسم فيه من خاصة هذا المعنى أكثر الكثير وأجزل الجزيل، والله أعلم بأسمائه، غير أن العقل المخلوق خاص والحليم الخالق ﷻ، إذ ليس في معلوماته تفلت من علمه المحيط، ولا في صفاته تخالف فيعقلها بالعقل، تعالت عن ذلك عظمته وصفاته وجلت أسماؤه.

وقد وصف الله ﷻ بالحلم من شاء من عباده وهو الخاصة من الخصوص، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٧٥]، و﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]، و﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات:١١]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، يريد الحلم والله أعلم والطهارة والطيب والكرم والوفاء إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلقه ﷺ، قالت: «**كان خلقه القرآن**»[1]، والله أعلم.

والمخلوق كثير ما سماه ربه عز جلاله بأسماء عديدة من أسمائه، لكن على المعلوم من نقص البشرية والمعهود من فقر الخليقة، ولم يتسم الخالق ﷻ ولا اتصف باسم من أسماء عباده، ذلك لأن الأسماء والصفات نزلت من عنده، ولم تصعد أسماؤنا نحن إليه لنزاهته

---

(١) الحديث رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦) وأبو داود في الصلاة (١٣٤٢).

وعلائه من كل وجه وبكل معنى، فهذا وجه يشرف بك على علم الحقيقة من تسميته لنا بالحلم، وامتناعه هو ﷻ من التسمي بالعقل والحلم، نور الباطن في العبد وهو زين الظاهر به سكون الصفات وتصادقها، وبه تكون الأفعال على ما ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي، وتوجيهها لمن ينبغي، وإذا بلغت الأفعال أن تكون هكذا سميت حكمة، لتمام صفاتها وتمام الفعل الصادر عنها وإتقانه، وذلك لا يكون إلا بتوفر الحلم ولا يتصور ذلك على التمام كله إلا الحليم الحق ﷻ.

الاعتبار

اطلب - وفقك الله - الاعتبار بهذا الاسم الكريم في سبل عفوه ومغفرته والإمهال، وترك المعاجلة بالعقوبات وطرق الرحمة بأجمعها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، فأخبر ﷻ أن زوال السماوات والأرض قد يكون لعظيم الافتراء من العباد، وعتوهم على ربهم وجحدهم الحق وعنادهم له، وأنه هو الذي يمسكهما عن ذلك، لحلمه وسعة مغفرته.

وقد أخبر عن هذه الصفة ﷻ وتمدح جدًّا لمقتضاها، فقال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١]، ونظيرها في سورة فاطر، وكلما تابعت النظر وبالغت في الاعتبار رأيت أن عيش جميع الخلائق في عفوه وعظيم حلمه وسعة رحمته، إذ حقيقة الحلم الذي هو الأناة، وترك العجلة بالأخذ هي الإرادة منه: تأخير العقوبة عن المستحقين، ألا تراه كتب على نفسه الرحمة، وأنه يحلم حتى يظن المغتر أنه ليس يعلم، ويمهل حتى يتوهم الجاهل أنه يهمل، ويستر حتى كأنه ليس يبصر، وينعم على العاصين حتى كأنهم بالعصيان يرضونه، وبقول الزور والبهتان يسرونه، وهو الواسع الكريم وسع كل شيء حلمًا وجودًا ورحمة وعلمًا.

التعبد

أي أخي أحذرك ونفسي الغرة بحلمه والتمادي في عصيانه والاتكال على عفوه، مع الإصرار على خلافه، فإنه وإن كان الحليم الكريم فإن أخذه أليم وبطشه شديد، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، وأحق من أستحيي من مواجهته بما يكره الحليم، وأحق من بودر إلى طاعته العفو الغفور، وإن من الواجب على من عرف أن ربه حليم على من عصاه أن يحلم هو على من خالف أمره، فذاك به أولى، وكما تحب أن يحلم عنك مالكك،

فاحلم أنت على من تملك، ومتى هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان رشدًا فأمضه، وإن كان غير ذلك فتعوذ بالله من شره.

اسمه الرشيد ﷻ

يقال من ذلك: رشد يرشد رشدًا أو رشادًا، ورشد رشدًا فهو راشد، ورشد: أصاب وجه الطريق وحقيقة الأمر، والرشدة نقيض الغية، ورشدين هو الراشد، فرشيد: مبالغ من رشد يرشد رشدًا ورشادًا، وربما كان مبالغًا من راشد، كرحيم من راحم، وسميع من سامع، ويكون أيضًا مبالغًا من مرشد، يقال من ذلك: أرشد يرشد إرشادًا فهو مرشد ورشيد، كقولهم: أكرم يكرم إكرامًا فهو كريم ومكرم، وكذلك مبصر وبصير.

الاعتبار

هو الرشيد الحق ﷻ في إقامة القسط لنفسه، وهو ما انفرد به من الوحدانية ونعوت التعالي والجلال والفردانية والصمدانية والألوهية، أقام بذلك القسط لنفسه جل وعلا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل ولا كفؤ يكافئه ولا ند يشابهه، وكذلك ما اختص به من العظمة والكبرياء والملك والقدرة والسناء، والمشيئة النافذة والقدرة القاهرة، والحجة البالغة والحياة الدائمة والقيومية القائمة، والعلاء والجبروت والعزة والرهبوت، والعلم المحيط والحفظ القائم والشهود، والكمال الأتم، والجمال العلي النزيه عما لا يجوز أن يوصف به أو يضاف إليه، سبحانه عن ذلك وتعالى، لعظيم شأنه وعزيز سلطانه، هذا هو العدل المفطور عليه الخلق، المعبر عنه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢]، وهي العلامة التي بينه وبين عباده ليوم القيامة أنه لا مثل له يرشدهم يومئذ إليه كما أرشدهم في الدار الدنيا به إليه ﷻ، وهو العدل الذي اختص به لا ينبغي لغيره، ولا يتصف به على الكمال كله والتمام الأرفع سواه، وعليه دلت جميع الدلائل الألباب، وله شهدت عند العقول فهي الأواهة في خليقته، وهي أنواره المنيرة للبصائر في عوالمه، قد استودع ﷻ الذوات ذلك، وجعل لها بالإيمان إليه به سبيلًا سابلًا وهديًا قاصدًا، ومن هذا العدل يقول جل من قائل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، و﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧]، «هؤلاء للجنة ولا أبالي»[١]، وما كان من خطاب القبض كله، وقد تقدم من ذلك في رسمه من ذكر القبض

---

(١) الحديث رواه أحمد (٤/ ١٧٦، ١٧٧) و (٥/ ٦٨) من حديث أبي نضرة ﷺ ورواه ابن أبي عاصم في السنة (٢٤٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ وصححه الألباني في ظلال الجنة.

والبسط ما فيه غنية.

وهو الرشيد أيضًا والمرشد الراشد إلى دينه ودين ملائكته ورسله وما حوته كتبه وجميع خليقته، دين الإسلام الدين القيم، وقد تقدم أيضا من هذا على التكرار ما يغني الآن عن الإكثار، غير أنه المرشد للألباب إلى معرفة هذه الخاصة في الخليقة، لما فيها من مقتضى اسمه السلام ﷻ، فهو المبصر عباده إياها عن إسلامها له وقنوتها وعبادتها على تفصيل ذلك، وهو المسمع أولياءه معاني تسبيحها وتهليلها وتكبيرها على اختلاف أذكارها وعلوم صلواتها، كما قد أسمع ذلك وأبصر عيانًا أنبياءه ورسله، وعلى التدريج في الصديقين والأولياء والعارفين والعلماء والشهداء والصالحين من عباده، كل يسقيه بكأسه ويقيمه عند حظه وقسمه المقسوم له، وهؤلاء ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]، من عباد الله، إذا هم بلغوا هذه المنزلة كانوا لذلك راشدين فيتولاهم حينئذ وإنه عز جلاله لا يتولى من عباده إلا من رشد، بقوله عز جلاله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ [البقرة:١٨٦] أي: الإيمان: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، ثم لكل من آمن بالله وكتبه ورسله الرشاد حظه على قدر إيمانه فحسن استجابته.

كذلك له من الولاية بقدر ذلك، والله أعلم وأحكم، ثم كذلك أيضًا هو الراشد المرشد، وهو الرشيد الحق فيما شرعه كما شرعه طريق عدل وصراط مستقيم، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧].

وهذا هو العدل الثاني، وهو ما شرعه من شرعته لخليقته تعمل به تسليمًا لأمره وإسلامًا له، فمن وقف عليه بإيمانه في الموجودات فقد هدى إلى الصراط المستقيم، ورآه عيانًا وشاهد الأكوان عاملة به، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣] إلى قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥]، وبه امتحن الله خلقه، وأمر ونهى ووعد وأوعد، ومن هنا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤]، و﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ﴿وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر:٦٩]، فلا يأخذهم إلا بالكتاب المنتسخ من أعمالهم وبالشهداء والبينات.

وهو أيضًا الراشد المرشد، والرشيد الحق إلى العدل الثالث الذي وضعه ﷻ لعباده

بعضهم من بعض في الأحكام المفصول بها بينهم في العدل، كالقصاص والحدود والديات والأحكام والفصل في المظالم والمطالب كلها، أنزل له كتبه وبعث به رسله الحق من ربك، وهو أيضا الراشد المرشد والرشيد الحق في جميع ما ذرأ وبرأ إلى ما قدره في الأول، عبر عن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى:٣].

التعبد

هو في سبل الاعتبار بمعناه والفهم له، ثم العمل بما أرشدك إليه الرشيد وترك الخلاف للمرشد، والله المستعان ولا قوة إلا به.

اسمه الرب تبارك وتعالى

الربوبية للملك بوجه من ذلك، قيل: رب الدار ورب المال، وقد يعبر بلفظة الربوبية عن معنى السيادة وذلك راجع إلى الملك، قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾[يوسف:٢٣] يريد سيده الذي اشتراه، وقال عليه السلام لأحد الفتيين: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[يوسف:٤٢] أي: عند سيدك المالك، ورب الشيء: هو مالكه، وقد يأتي بناؤها لمعنى الإصلاح منه، قيل: ربيت الزق بالرب، والرب السلاف الخاثر من كل الثمار، ويقال من ذلك: ربيت الحب بالقير: أصلحته، وقيل للشيء تربيه يعمل بعمل: مربى.

وقد تكون بمعنى الموالاة، وترداد العاهد في النعمة، خاصة الكثرة من ذلك، قيل: أرض مرب إذا كانت لا تزال بها مكر، وهو راجع إلى معنى قولهم: ربيت النعمة عند فلان إذا زدت فيها وواليتها، ويكون بمعنى التربية والتغذية والكفالة والقيام على المكفول المغذى بما يكون صلاحًا له، يقال من ذلك: ربيت الصبي أيضًا، ومن ذلك قيل خاصته: الربيبة للرجل ولولد بعل المرأة: ربيب، والراب: زوج المرأة رابه، وقيل للشاة الحديثة العهد بالولادة: ربي لتغذيتها ولدها، والجمع: رباب، وربابها: ما بين ولادتها إلى عشرين يومًا.

وقد يأتي بمعنى القرب واللزوم، من ذلك أرب يرب بالمكان إذا أقام به ولزمه، ومنه قيل للمكان الذي يحله الناس: المرب، والإرباب: الدنو، وقيل للسحاب: رباب لدنوها وقربها دون السماء.

وقد يأتي بمعنى الكثرة من ذلك، قيل: أرض مرب إذا كانت ينزل بها المطر، وهو راجع إلى معنى قولهم: ربيت النعمة، أربها أو رب كلمة يراد بها التكثير، من ذلك قولهم: رب رجل لقيت، قال الله ﷻ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾[الحجر:٢] أي: ذلك كثير وجوده في الدار الآخرة، واسمه الرب تعالى علاؤه وشأنه جامع لهذه

الوجوه كلها، وقد يعبر بها أيضًا عن معنى التكثير عند ما يظن به التقليل، من ذلك قول رسول الله ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»(١)، وقوله أيضًا: «رب أشعث أغبر يطيل السفر وملبسه حرام، ومركبه حرام، ومطعمه حرام، وقد غذي بالحرام يرفع يديه إلى السماء، فيقول: يا رب، يا رب، فأنى يستجاب لذلك»(٢).

الاعتبار

الله -جل ذكره- هو الرب الحق ذو الربوبية الكاملة على جميع وجوهها، فهو الله لا إله إلا هو رب كل شيء ومليكه وكافله ومغذيه ومصلحه وملطفه بقوله، العواد عليه بنعمه، الراب له بالقيام عليه، القريب من كل شيء بما يكون وجودًا له، الملازم له بذلك، المصلح له المكثر عليه بترادف أنعمه، ثم خص أولياءه بإتمام نعمته وإكمال آلائه وإحسانه وحقائق رحمته، ينشئ الإيمان والمعرفة في قلوبهم، ويغذيهم بتذكاره إياهم، ويصلح ما فسد بركوب المناهي منهم؛ بتخويفهم من عذابه وعوده التوبة النصوح عليهم، فهو القريب منهم بالمعاهدة، الملازم لهم بالمقاربة، القائم عليهم بحراسة ذلك فيهم، المقيم لهم بإقالة العثرات واغتفار الزلات، المكثر لما يكون من قليل طاعاتهم المقلل لكثرة زلاتهم، فهو الرب الحق لا إله إلا هو، لا يعزب شيء عن علمه ولا يخرج عن تقديره، ولا يفلت عن ملكه ﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ [يونس:٦١] مالك الملوك والملك والملكوت، قيوم الدنيا والآخرة كل شيء خلقه وكل شيء مذكور سواه عبده وهو ربه، لا يصلح إلا بتدبيره ولا يقوم إلا بأمره ولا يربه سواه.

واسم الرب جل ذكره فاعلم عام في صفة الرحمة، لذلك -وهو أعلم- جاور بينهما في أم الكتاب، فقال جل قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة ٢-٤] غير أن إكمال النعمة منه بمقتضى أسمائه، إنما هو لأوليائه، وأما أعداؤه فهم في أوابلها بمقتضى الخلقة وأوائل النشأة: فافهم.

التعبد

أول التعبد به طلب علمه، وتعرف مسالك وجود مقتضياته في العالم، واستعلام سبل مجاريه في الوجود، فاستقر ذلك علمك الله من علمه وميز طرق هذه الفصول التي

---

(١) سبق تخريجه في باب اسمه الرافع واسمه الخافض جل جلاله.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تقدمت ذكرها في الاعتبار باللغة بعضها من بعض، وتعبد له التعبد كله، ومدرك في تعبدك تفريق صفاته من صفاتك وإفراده منها بما هو له أهل، ثم لزومك أنت قدرك، وتركك التعدي لطورك، فهو الرب ﷻ وأنت العبد، وهو المنعم وأنت المنعم عليه، وهو المنان بموالاة نعمه وترادف إحسانه، وأنت الممتن عليه الفقير لما يكون منه إليك، وهو المالك وأنت المملوك، أفرده بما انفرد به من الكمال ونعوت التعالي والكبرياء والجلال، وألزم نفسك شاكلة العبودية، فذلك شرفك وسبيل كمالك ونعمتك في الدنيا والآخرة.

اسمه البر جل جلاله وتعالى شأنه

البر: الوسع والخير، والبار هو الواسع به ولذلك قيل لما هو الخلاف للبحر: بر، وقيل للصحراء: برية، وقالوا: أخرجت برًا حكاية عنهم، أي: خارجًا من البيوت لمعهود السعة في ذلك.

وقد يعبر بلفظ البر عن معنى الصدق وهما متلازمان في اسم البر، من ذلك قالوا: برت يمينه، بمعنى: صدقت، وأبرها: أمضاها صدقًا، وبر الله حجه وعمله، أي: صدقه، وقد يكون قولهم: بر الله حجه وعمله، أي: حصنه بالبر وجانبه الإثم وباعده عنه، وقالوا: قوم بررة وأبرار، أي: ذوو سعة بالخير وصدق فيه.

وقد يعبر بالبر عن معنى الإحسان، من ذلك قولهم: بررت الضيف، بمعنى: أحسنت إليه وأكرمته، وبر الوالدين من ذلك، وهذا من معنى الوسع، يقال: أوسعت أضيافي برًا والوالدين كذلك، وقد يزاد في معنى بر الوالدين الشكر فيكون البر عبارة عنه، قال الله جل قوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان:١٤]، وقيل لرسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال فيما أجاب به: «بر الوالدين»[١] فبرهما وشكرهما لما تقدم منهما من إحسان، والإحسان إليهما وإعطاؤهما حقهما وإزاحة العقوق عنهما.

وقد يكون البر بمعنى: التصاغر والتضافر بوجه وبه تمامه، ألا تراه ﷻ كيف اشترط ذلك في بر الوالدين من الشكر والإحسان وخفض الجناح من الرحمة، والدعاء لهما والطاعة لأمرهما ما لم يخالف ذلك منهما ما أمر الله به، والمباعدة لما يكرهانه أو تقارب أذيتهما قولًا وفعلًا وعقدًا.

الاعتبار

فالله عز جلاله البر بعباده، يوسعهم خيرًا وكرمًا وفضلًا وشكرًا وإجابة، والعبد بر

(١) رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٤٧) وفي الجهاد (٢٧٨٢) ومسلم في الإيمان (٨٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

بربه بشكره ويسارع في مرضاته، ويجانب ما يكرهه، ويتضاءل لعظمته، ويتصاغر لكبريائه ويؤدي إليه حقه، ويقف نفسه عند حظها، ويراقب متى يتوجه منه إليه أمر يقوم به ويعمل عليه؛ فاسم الرب عام والاسم البر من حيث إن البر خاص الرحمة والربوبية عامة فيها.

والبر أخص معاني الولاية، قال الله تعالى: ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٦٤]، مؤمن ذلك كله وكافره، كما هو خالقهم ورازقهم، وبره خاص بأوليائه المؤمنين، ولذلك يقول أهل الجنة في دار قرارهم وحال حبرتهم وسرورهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[الطور:٢٨]، والأبرار من العباد هم الصادقون في القول والعمل.

التعبد

جملة التعبد هو الاسم الكريم تجري الصدق في الأحوال كلها ظاهرها وباطنها، مع العلم بما يكون من ذلك برًا، والتمييز له مما لا يكون برًا، وضد البر: الإثم، قال رسول الله ﷺ: «البر ما اطمأنت له النفس، والإثم ما حاك في الصدر»[(١)] وأوائل البر: أداء الفرائض واجتناب المحارم، وبالتوسع في أعمال البر علمًا وعملًا تصعد الأبرار إلى درجة المقربين منَّ الله بها علينا وعليك بمنه ورحمته إنه هو البر الرحيم، لا إله إلا هو لا شريك له.

اسمه الجواد ﷻ

يقال من ذلك: جاد يجود جودة فهو جيد، وأجاد وجوّد، كل هذا إذا أتى ما هو جيد، وجاد يجود جودًا فهو جواد، ويقال من هذا: قوم جود وأجواد، ومنه قيل: جاد فلان بنفسه، أي: ساق بها، وجاد المطر جودة إذا أكثر، ويقال فيما يقاربه جدًّا: فلان على فلان يجدو أعطاه، والعطية: الجدوى والجدي، والمجتهد في الطلب يجدو، فمعطي الجدوى وفاعل الجدوى قد جاد وأجاد، أي: أعطى الجداء، وأتى بذلك ما هو جيد، والجدى أيضًا الغنى، يقال منه: ما يجدي عليك هذا بمعنى ما يغني عنك.

الاعتبار

الله ﷻ هو الجواد الحق، ابتدأ الخلق بجوده فجاد بفضله عليهم، وأجاد في فعله وتقديره وتدبيره وتفصيله وتوصيله، فمن أحب أن يقف على معرفة بعض معاني جودة فعله باعتباره وصحة من عقله على آثاره في خليقته، وعجائب إبداعه في بريته، وإتقانه في حكمته وإحسانه في صنعه وبدائع اختراعه، فإنه يشرف من ذلك على ما حار فيه الوهم،

(١) رواه أحمد (٤/٢٢٨) من حديث وابصة بن معبد رضي الله عنه ورواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٣) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه بلفظ «البر حسن الخلق....» الحديث.

ويضل عن أدنى حقيقته الفكر وتنقطع دونه المعرفة، فواصفه أبدًا موصوف بالعجز عن بلوغ الكنه، والمطنب فيه مقصر عن بلوغ أيسر الحقيقة.

وأما جوده بفضله، فقد كان له ﷻ أن يخلق خلقه على أقبح الصور وأخس الهيئات وأذل الأحوال، ثم يصيرهم بعد ذلك إلى أيأس المصير، بل جاد عليهم ﷻ وأجاد فأجدى الجدوى وأعطى الغناء، ثم أغنى ومنح الثراء، وسوغ النعماء، وأجزل المواهب والحباء، وخول وأولى وفصل وأسرى، واختار واختص، وأنجح الطلبات فبلغت به آمادها القصوى، ألا ترى أنه أوصل إلى بلوغ المفترض، ثم سهل السبيل، وبين الحق الذي يستحق به المزيد؟ فسبحانه وله الحمد من كريم جواد فياض بالخير، سمح غني يعطي ويثري، هو ملاذ المستجير، ومعتصم الشريد،إليه المرجع والمفزع، أدنى معرفة يتجاوز المجهود في أداء الشكر، وأقل صنائعه يعظم عما يبلغه الوسع، لا يخيب راجيه ولا يكدى آمله، أوضح براهين الهدى وأبان آثار اليقين وأعلن شواهد التوحيد، هو العالم بمضمرات القلوب والحاوي محجوبات الغيوب، المتطلع على خفيات الأضمار، الموفي على هواجس الأوهام، فكم هناك من خواطر لم يبعثه بقوى ولا نهاه حجى، ومن حديث هوى لم يردعه نهي، ومن تحرك إلى خلاف لم يكفه تحرج ولا رده شاهد من إيمان شاهد ذلك كله.

وعلمه جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه فجاد بجوده، فأذهب الشك الريب، وسكن المضطرب حتى أذهب عنه الخلاج وقوم منه الاعوجاج، ثم بوأه كنفه وآواه إلى ظله، وتدارك له أمره وتلافاه برحمته فأقامه وأصلحه، ثم نشر عنه ثوب الثناء عنه حميد الذكر، وأشاع له حسن الأحدوثة، ثم أقامه على شواهد الإيمان بصحة اليقين ورفيع العلم، فشكر له بحسن عونه النعمة وقام يعرض الشكر، ونهض بتأييده بعبء الاصطناع، فسبحانه وله الحمد، الأفكار في جوده حائرة والأبصار عنه حاسرة، والآمال إليه ناظرة، وهو بالكرم معروف وبالجود موصوف، الإسهاب فيه تقصير والمقصر فيه معذور.

التعبد

بهذا الاسم الكريم يدور على حسن الثناء وتطلب مواقع النعماء وتذكر الآلاء وتعرف مسالك جوده، ثم أخلص له العهد، وأصف له الود وأكثر له من الحمد، ثم استعمل نفسك بإتيان الجيد قولًا وفعلًا وجدًا بما حويته، وأنفق مما خولته واصفح عن زلات الإخوان، وجاوز الإساءة منهم بالإحسان، أقل عثراتهم وأسدل الستر على ما كان منهم، واعتمدهم من صفة الجود بما اعتمدك به ربهم إيثارًا لأمر الله ﷻ وأخذًا بإذنه، فذلك

نكسير لقوة عدوك، وأقل لحده وأسرع في حل عقده، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] المعنى إلى آخره أغض منهم على القذى، واكظم الغيظ واسأل من الله الضراعة، وتوجه الطلبات أن تسلّ سخيمة قلبك، ولا تبق غلا ولا غشًا ولا ختلًا ولا حسدًا ولا مكرًا ولا إحنة لمؤمن ولا مؤمنة في باطنك وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى، وأن يحلنا جميعًا من معاني الأخلاق في الدرجات العلا بمنه ورحمته، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

اسمه القريب جل وعز

يقال من ذلك: قرب قربًا فهو قريب، والقريب يكون للرجل والأنثى والواحد والجمع، والقربان ما تقرب به إلى الله ﷻ، ويقال: أتيته قراب العشي، وإناء قربان إذا قرب من الامتلاء، ويقال لوزير الملك: قربان ويجمع على قرابين، ويقال: ما قربت الأمر قربانًا ولا قربًا.

الاعتبار

القرب نقيض البعد، والله ﷻ قريب من جميع خليقته بمعاني الخلقة والتدبير، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فالله ﷻ أقرب إلى المخلوق من نفسه ومن حياته، ومن مجرى الروح فيه، وأقرب من القرب، لأنه فاعل ذلك كله، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١] له الصفات العلا وللمخلوق مجازها.

وأما قربه من عباده المؤمنين فعلى قدر تحققهم في صفات الإيمان والإسلام ومعاني التطيب والطهارة والتزلف لديه بطاعته، ومعنى قربه جل وعز منهم سرعة إجابته لدعائهم، وسماعه لنجواهم، وعلمه بخفايا ضمائرهم وشهوده لأحوالهم كلها، وحضوره معهم، وأنه ليس بالغائب عنهم، ولا بالعازب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، ليس في معرفة قربه مسافة ولا في العلم أمم ولا ناحية.

وقد يكون القرب نقيض الفظاظة والغلظة، بمعنى أنه ودود لأوليائه، مودود في القلوب محبب إليها، ويشير إلى هذا المعنى من القرب قول صالح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

اسمه المجيب جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: أجاب يجيب إجابة وجابة فهو مجيب، وأجاب ـ والله أعلم ـ من الجوب والجيب وهو القطع لذلك، قيل: جبت الفلاة أجوبها جوبًا، واجتبتها قطعتها وبذلك

سمي جيب الثوب، قال الله ﷻ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩] أي: اقتادوا الأودية، وقطعوا لها صخور الجبال فأجروها فيها.

الاعتبار

مسالك هذا الاسم الكريم في سبل الجود كثيرة جدًا، فتطلبها في طريق الشفاعة، وقد تقدم ذكرها في رسمها في رسم اسم الشهيد ﷻ، وأنه ليس في العالم على سبيل اعتبارها إلا شفاعة أو شافع أو مشفوع فيه، والشفيع الحق ﷻ المشفع فوق كل شيء، يريد إيجاده أو أمر سبق علمه بقضائه، أو موجود شاء إمساكه قيض له شافعين من خلقه الملائكة ومن شاء من عباده، هذا فيما كان من خلق وتنفيذ وتدبير، وجعل لإبليس ـ لعنه الله ـ وذريته الوساطة، والتسبب في سفه الخليقة بالإرادة منهم لذلك والتحريض والمعنى ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقسم الإنس على ذلك من هداية وضلالة، فشياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، وملائكة الهداية عليهم السلام يلقون إلى أوليائهم من الإنس أمرًا بالخير وحضًا عليه ونهيًا عن الفحشاء ونصيحة، وجعل من الملائكة من يستغفرون لمن في الأرض على العموم ويشفع لهم، ومنهم من يستغفر للمؤمنين ويشفع لهم، فعمت الخليقة كلها الشفاعة والإجابة.

هذا للقرب العام الذي هو قرب الخلقة والتدبير، وأما قرب الولاية والرضا والمحبة فذلك لأهل الإيمان والعمل بالطاعة خاصة، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وقال جل قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١]، وقال جل قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، و ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، ومثله كثير.

ثم التقوى والعلم بالله ﷻ والعمل بطاعته واجتناب مناهيه بهداية فوق هدايتهم إلى الإيمان، الذي به فارقوا من لم يؤمن بالله ورسوله أمر خاص، وقبول عليٌّ ليس لأهل الدرجة الأولى فافهم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فكما هو يتقبل أعمالهم ويثبته في القبول الأعلى، كذلك يتقبل دعاءهم ويستحفي مسائلهم، وإليهم توجه وجه الخطاب، حيث يقول جل قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، ثم قال جل قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فدلهم بصريح النص

وكمال النصيحة على عزيمة الاستجابة بأن يستجيبوا له ثانية بعد دخولهم في عباده، فافهم.

غير أنه ﷻ يجعل حوائجهم في سبل قضائه، ويقيض أدعيتهم في مجاري مشيئته، حتى إن أحدهم إذا عَنَّ له دعاء نظر إلى قلبه، فإن وجد العلامة التي جعل بينهم وبينه، وهي عزمة منه لهم يوحيها إلى قلوبهم، يعطيهم بذلك من عنده ما يشاؤون كما شاء لهم أن يشاؤوا والله واسع كريم، وقد قال عز من قائل، بعدما ذم السحر ونهى عنه وأوعد عليه وذم المتعلمين له العاملين به: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٣] أي: لو أنهم آمنوا بالله إيمان أوليائه واتقوه حق تقاته، لأكرمهم بإجابته ولأثابهم بصدقهم صدق المثوبة، إذ السحر حقيقته تخييل وصرف للأبصار والقلوب بتجانف عن تحقق حقيقة المرئي الواقع في النفس إلى حسبان وتخييل، ليس على ما هو المرئي عليه في حقيقته وصدق المثوبة، كصدق المثاب عليه وصدق المثيب المطلوب عنده ذلك، والسحر باطل محض وكذب بحت، فكانت المثوبة عليه من جنسه حسبان وتخييل.

وطاعة الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه والإيمان به والرغبة إليه والسؤال له حق، فكانت المثوبة على ذلك سبيل ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق وحنظلة رضي الله عنهما لما ابتأسا لنقصهما، وفرق قلوبهما بعد القيام عن مجلس رسول الله ﷺ فتلاوما لذلك واستقصاء منزلتيهما وعدا ذلك نفاقًا، فشكيا ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقالا: يا رسول الله، إنا نكون معك، فتحدثنا عن ربنا وتخبرنا عن الجنة والنار فتوجل قلوبنا لذلك، حتى كأنا رأي عين، فإذا قمنا من عندك عافسنا النساء والضيعات وشممنا الأولاد، فنسينا أكثر ذلك، فقال رسول الله ﷺ: **«ساعة وساعة، لو كما تكونون عندي تكونون بعدي لصافحتكم الملائكة في فرشكم، ولسلمت عليكم في الطرق، ولكن ساعة وساعة»**[1].

فمن وفقه الله ﷻ إلى مواظبة ذكره، والتلذذ بمناجاته والأنس به، والإيثار له ولتلاوة كتابه وتدبره والنظر في مصنوعاته والاعتبار بشواهده، وآتاه رحمة من عنده فعصمه من مكارهه دام في قرب ربه، واستوجب حسن الصحبة منه له ومؤانسته ودوام مجالسته، كما قال جل قوله: **«أنا جليس من ذكرني»**[2] وقال عز جلاله: **«إني لأطلع على قلب عبدي**

---

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠) من حديث حنظلة الأسيدي رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن شاهين في الذكر كما في كنز العمال (١/ ١٨٦٥) من حديث جابر رضي الله عنه وسنده ضعيف

فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها، ولسانه الذي ينطق به، وإن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته»[١]، وحق لمن كان الله جل وعلا جليسه ومؤانسه أن يكون كذلك.

وأما كثرة الملائكة على جميعهم السلام فإن لكل عمل حفظة من الكرام الكاتبين، فإذا أكثر تنوعه في طاعات ربه جل ذكره كثرت صحابته من الملائكة، وإذا لم يكتبوا له إلا خيرًا ولم يثبتوا له إلا رفعة في الدرجات والأعمال الصالحات، أحبوه لذلك فاستغفروا له وشفعوا، وأثنوا عليه عند ربهم ﷻ، وربما كلموه وحادثوه، كما قال رسول الله ﷺ: «إن منكم محدثين، وإن منكم مكلمين، وإن عمر لمنهم»[٢]، وقد جاء أن عمران بن حصين رضي الله عنه كان يسلم عليه قبل أن يكتوي، فلما اكتوى قطع عنه ذلك ثم عاود ترك الكي وعزم على التوبة منه، فعاودوه بالتسليم عليه.

فهذه أسباب ترفع صاحبها إلى استحقاق الإجابة لا بد ولا محالة، كالزهد في حلال الدنيا والاقتصار منها على الكفاية، واختصار ما لا يعني، والاقتصار مما يغني على سد الحاجة، واختصار الفضول من الكلام والنظر وإشغال الفراغ بما يرضي الله ﷻ، فمتى غلب عن ذلك في حين من أحيانه نزل من طلب الغنيمة إلى مظان السلامة، ثم يسأل الله ﷻ أن يستعمله ولا يجعله من الغافلين، فأما ترك الحرام واجتناب الفواحش والآثام، فذلك قد تضمنه الإسلام وبدء الدخول في الإيمان، وأما الإسلام الثاني والدخول في التوبة العليا فهي هذه، وهي المطلوبة منا ولو بعد بلوغ الأشد وعند الأربعين، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد:٢١].

وإنما أشبعنا الكلام في هذا الفصل، ليستبين للداعي أنه متى لم يبلغ هذه التوبة، فإن إجابة دعائه في حقه ليس بوعد على الله ﷻ بل فضل منه، وأما أولئك فهم الذين توجه إليهم الوعد والبشارة والإجابة، وهي من البشرى لهم في الحياة الدنيا، ﴿ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الرعد:٣١]، ولما قربوا منه كما تقدم كان هو أسرع مثوبة وأكرم قبولًا وأقرب قربًا، كما قال عز من قائل: «إذا تقرب إلى عبدي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليّ

= ورواه ابن أبي عاصم في الزهد (١١١) موقوفا على كعب الأحبار رضي الله عنه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني مشيًا أتيته الهرولة»[(١)].

فقرب إليهم ﷻ أقرب القرب حتى صار أقرب إليهم بالإجابة لدعائهم وبتوفيقه إياهم في إرادتهم ما يريده لهم من أنفسهم، فاستجابوا له من أنفسهم واستجاب لهم دعاءهم إياه من قربه منهم، إذ دعاؤهم إياه من كثب ومن قرب وأمم، وقد كان لهم من حيث هم له، كما قال: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به.....»[(٢)]، وكما قال بعضهم:

وَمِنْكَ بَدَا حُب بِعِزٍ تَمَازَجَا ... بِنَا وَوِصَالٌ كُنْتَ أَنْتَ وَصَلْتَهُ
ظَهَرتَ لِمَنْ أَبْقَيْتَ بَعْدَ فَنَائِهِ ... فَكَانَ بِلَا كَوْنٍ لأَنَّـــكَ كُنْتَهُ

وأما الكافرون فما دعاؤهم إلا في ضلال، ومن حيث ضلالهم عن هدايتهم طمعهم في الإجابة طمع الباسط كفيه إلى الماء ليبلغ الماء إلى فيه من كفيه دون أن يصله بوصول منه إلى فيه، كيف وطريق ما بين الماء إلى الفم مقطوع ما لم يوصل، وربما أجاب دعاءهم في حال الظلم إذ ذلك من سبيل الخلقة وتنفيذ الأمر.

وقد تقدم ذكر هذا القرب، ولنزاهته سبحانه عن الظلم والتعدي، والمعلوم من انتقامه لغيره أكثر من انتقامه لنفسه، وربما أجابهم وهو الأكثر لحال الاضطرار للمعهود من المضطر أنه يتجرد في حال اضطراره من الأغيار، فيبقى عند ذلك موجودًا قد رجع إلى ما جبل عليه وفطر في بدء تركيبه من التوحيد، قال الله ﷻ: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧].

فإذا بلغ الاضطرار من المضطر إلى إزالة الأغيار أجيب إن شاء الله ﷻ، فموضع لفظ الإجابة في حق هؤلاء مأخوذ من القطع، كأن مجيب الدعوة قطع ما بينه وبين الداعي بالإجابة منه لهم، فاستاق الغياث إليه على ذلك البعد، كما قال: ﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر:٩]، فقطعوا الصخر واستاقوا الوادي فيه، وهذا يدل على فضيلة الدعاء، وأن لفظة الإجابة وضعت للبعداء العصاة، وإنما يتصور البعد في حق هؤلاء، وهو ظاهر قول رسول الله ﷺ: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥، ٧٥٣٧) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الحديث رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦) وفي المظالم (٢٤٤٨) ومسلم في الإيمان (١٩) من

وطرف هذا الاعتبار وإعلامه هو عند أهل الجنة إنما يقضي لهم هنا ما يشاؤون لأنه قد جعل ما يشاؤونه هو ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ [النحل:٣١]، ونحوه كثير على التدريج بين هذين للأولياء في الدنيا، وربما آتاهم ما لم يسألوه إذا علم منهم أنهم يريدون ذلك، ليس إلا أنهم أرادوه وأحبوه، وربما قيضهم للسؤال والدعاء تعبدًا منه لهم، فسألوه ائتمارًا لأمره وإظهارًا لفقرهم إليه، فيؤتيهم مسؤولهم إلا أنهم لا يسألونه دنيا ولو سألوه ما أعطاهم ذلك، كما قال ﷻ: «**إني لأحمي عبدي المؤمن من الدنيا، كما يحمي الراعي الشفيق إبله عن مواقع الهلكة**»[(١)].

وأما الأنبياء عليهم السلام فلو سألوه الدنيا لأعطى لهم، ولكنه ربما حماهم عن سؤالهم إياها، قال رسول الله ﷺ وذكر ما أصابه من الجوع فقيل له: ألا تسأل الله فيطعمك؟ قال: «**لو شاء الله لأطعمني، ولكن رزق يوم بيوم**»[(٢)] وقال: «**إن الله خيرني أن يجعل لي جبال الأرض ذهبًا وفضة، فقلت: يا رب، بل أجوع يومًا وأشبع يومًا**»[(٣)] نحو هذا.

وقد سأل نبي الله سليمان عليه السلام الملك المعجز، فأعطاه إياه سبحانه وله الحمد، ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود:١٠٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وكثير ما يأتي وصف إجابته المؤمنين على بناء استفعل، كقوله ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الأنبياء:٧٦]، ثم قال جل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]، وقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء:٨٣- ٨٤]، ثم قال: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٤]، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء:٨٧]، إلى قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:٨٨]، إلى قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾، ﴿وَزَكَرِيَّآ

=

حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٠٤٥١) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٥١) عن عمر بمعناه.

(٣) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٧) وأحمد (٥/ ٢٥٤) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣٣) والبيهقي في الشعب (١٤٦٧، ١٠٤١٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وضعفه الألباني في سنن الترمذي.

إذ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، إلى قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٩٠] إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فذكر جل ذكره مسارعتهم إليه في الخيرات، وفي ضمن هذا أنه هو أسرع إليهم بسؤالهم منه إليه سؤالهم وأعمالهم.

ثم وصف قربهم منه وقربه منهم بقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢] أي: فاعبدون، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران: ١٩٠]، إلى قوله ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٦]، فالمؤمنون يستجيبون لله به من أنفسهم، والله جَلَّ جَلَالُهُ يستجيب لهم من قربه منهم وقربهم منه، هم وصلوا ما أمر الله به أن يوصل فاتصلوا.

وقل ما يأتي في أخباره عن إجابته الأباعد والأقاصي أهل الكفر والمعاصي إلا بغير هذا البناء، كقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[يونس: ١٢]، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤]، هكذا فافهم وألقن، علمنا الله وإياك من علمه إنه عليم حكيم.

التعبد

اعلم أن قرب الله جَلَّ جَلَالُهُ وبعده ليس بتوهم مسافة يقطعها من أراد التقرب إليه، سواء الجهل به والخلاف له حسب، فاعرفه - وفقك الله - من حيث تعرف إليك يوم خلقك وأخذ ميثاقك وعهودك، فمن ثم فاطلبه ومن هناك تجده، واستدل عليه بدلائله، واسترشد في سبل طلبك إياه شواهده، فإذا تحققت معرفة الله في قلبك ذهب البعد كله في حقك، فإنما تجد البعد كله في حقك أنت، فتقرب منه بالتطيب والتطهر والعمل بما يرضيه، فحينئذ يظهر لك القرب في القرب فتطلبه به، ويقصده منه إليه لا بقطع بعد ولا تجشم مسافة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]، وقال: «أنا جليس من ذكرني، وحيثما طلبني عبدي وجدني»(1).

(١) سبق تخريجه.

وإذا دعوته فادعه بحالة الاضطرار ورؤية الافتقار، ثم لا تحدثك نفسك في سؤالك إياه بعمل حسن عملته، أو ذنوب منك تخاف أن يحرمك من أجلها، بل بحالة الاضطرار والفقر، فذلك أكمل لتوحيدك وأولى بمقامك ذاك، وأقرب إلى الثقة منك به والاستقامة إليه والركون، واعزم في المسألة فإنه لا مكره له، ولست بحال تخاف أن تلحفه فهو الذي لا يلحفه إلحاح السائلين، وتزين له بالخصال النبيلة والأفعال الرضية والأدوات المحمودة، والنصيحة له ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم.

واعلم أنه على الاعتبار بالعدل الأول لم يختص أحدًا بقرب منه بعمل عمله، ولا لقدم قدمه، بل لمشيئته في ذلك، وكذلك لم يختص أحدًا ببعد منه لذنوب اقترفها ولا لكفر سبق منه قبل وجوده، بل لمشيئته فقط، فلذلك ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣]، ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [الشورى:١٥]، ولا تطغ، وفقنا الله وإياك لما يرضيه، وجعلنا من الذين سبقت لهم منا الحسنى، إنه على ذلك قدير وهو عليه يسير.

اسمه الولي والمولى
تبارك اسمه وتعالى علاؤه وجده

يقال من الولي: ولي يلي ولاية إذا قرب وهو الوالي بناء اسم الفاعل، والولي على وزن فعيل مبالغة في الوصف وأصله القرب، قال رسول الله ﷺ: «**ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(١)].

ومن ذلك قيل للمطر الذي يكون بعد الوسمي: ولي، سمي أول مطر بالوسمي لأنه يسم الأرض بالنبات، وسمي الذي بعده بالولي لاتصاله به، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورى:٢٨]، ثم قال: ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، فوصفه نفسه ﷻ بآية يلي المطر بنشور رحمته، إما بما يكون عن المطر من خصب وخير وإما بصحو وتفريج، وهو الحميد في ولايته، وقيل للمجلس: ولية وتجمع على ولايا قال الشاعر:

كَالبَلَايَا رُؤوسُها فِي الوَلَايا مَانِحاتِ السَمومِ حَرَّ الخُدُودِ

ويقال: المتولي فلان على البلد أو الشيء إذا صار في ملكه وتدبيره، فإذا استولى فقد ولي يلي ولاية.

وأما مولى

فهو من أولى، أي: أولاهم بالولاء، قال الله ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٢) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

[الأحزاب:٦]، وقال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم»(١)، وقال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي، فلأولى رجل ذكر»(٢).

وقد يكون المولى مصدر الولاء، قال رسول الله ﷺ: «إنما الولاء لمن أعتق»(٣)، وقال الله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] وقال ﷺ لأسامة بن زيد رحمة الله عليه: «أنت أخونا ومولانا»(٤)، وقد قالوا: إن الولاية مصدر المولى والمولى الولي، ومصدره الولاء.

الاعتبار

فصل الخطاب في معناهما - والله أعلم - إن الولي هو القريب على ما تقدم ذكره، وأن المولى مفعل القرب، أي: موضعه ومستقره، وما هو أولى، لذلك قيل لمولى النعمة لأنه موضع الولاء، قال الله ﷻ يخاطب الكفار: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحديد:١٥] أي: موضع مصيركم ومستقر قراركم، وقد يكون القرب الذي هو بمعنى الولاء والولاية، وقد يكون بمعنى النسب كما قال الشاعر:

مَهلًا بَني عَمِنا مَهلا مَوالِينا لا تَنْبشُوا بَينَنا مَا كَانَ مَدْفُونَا

ومنه قول زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ [مريم:٥] يعني: القرابة ومن يلي ولايته، يقول: أن يضلوا من بعدي ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى﴾ [مريم:٥-٦] في نبوتي وما علمتنيه من الحكمة ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦] هدايتهم ونبوتهم.

وقد تكون الولاية بمعنى الصحبة، من ذلك قول الملائكة عليهم السلام للمؤمنين عند الموت، قال الله ﷻ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١] أي: نحن الذين صحبناكم في الحياة الدنيا بالهداية والنصيحة والإرشاد ونحن نصحبكم

---

(١) رواه البخاري في الكفالة (٢٢٩٨) وفي الفرائض (٦٧٤٥) ومسلم في الفرائض (١٦١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الفرائض (٦٧٣٢، ٦٧٣٥، ٦٧٣٧، ٦٧٤٦) ومسلم في الفرائض (١٦١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري في البيوع (٢١٥٦، ٢١٦٩) وفي المكاتب (٢٥٦١، ٢٥٦٢) ومسلم في العتق (١٥٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) الحديث رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ورواه أحمد (٩٨/١، ٩٩) من حديث علي رضي الله عنه كلاهما أنه ﷺ قال هذا لزيد بن حارثة أبي أسامة.

في الآخرة بالبشارة والتأمين والشفاعة لكم.

وقد تكون بمعنى النصرة والهداية، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، وقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال:٤٠]، فالوالي والولي: القريب، والمولى مفعل في موضع للقريب على وجوهه ومستقر له، وإنما هو القرب والولاية بوجهها، وتعداد أنواع أحوالها يعسر.

ثم اعلم أن الفرق بين القرب والولاية: أن الولاية خاصة للمؤمنين والأولياء، والقرب قد يكون بوجه عام كقربه من جميع الخليقة، من حيث الإيجاد والتدبير واستخراج ما له أوجدهم من أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم، ليبوئهم منازلهم في الدارين، وأما الولاية فقد تبرأ الله جل جلاله من ولاية الكفار، وأمرنا بالتبرؤ منها لهم في مواضع كثيرة من كتابه، وبخاصة هو ولي عباده الصالحين بمعاني الخلقة والإيجاد، ثم بالنصر والهداية والإرشاد، قال الله تعالى وقد ذكر الكفار وما اتخذوه من دونه أولياء: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، هذا إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، ولما ارتجز أبو سفيان يوم أحد بقوله: إن لنا العزى ولا عزى لكم، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قولوا له: الله مولانا ولا مولى لكم**»(١).

وقال يوسف عليه السلام يخاطب ربه جل جلاله فاطر السماوات والأرض: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يوسف:١١] بمعنى: أنت هديتني إلى الإسلام، وحرست في قلبي الإيمان حال الغربة بين طوائف الكفرة واستنقذتني من عبودية المخلوقين، وعصمتني من الفتن، وأخرجتني من الجب ونجيتني من وثاق السجن، وآتيتني من الملك، وألفت بيني وبين إخوتي، وجمعت علي شملي، ولطفت لي بذلك في سبل حكمتك على سنن سنتك، فتم علي نعمتك وتوفني مسلمًا وألحقني بالصالحين.

وبعد، فإن الولاية تنشأ في طبقات المصطفين إلى أن تبلغ إلى النبوة والرسالة والخلة العليا والمحبة القصوى، ثم إلى الوسيلة العالية والدرجة الرفيعة، وأهل العلية من

(١) الحديث رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩) وفي المغازي (٤٠٤٣) من حديث البراء رضي الله عنه.

الأولياء هم الوصل بين الأنبياء، والمؤمنين، وجملة أمرهم أن إيمانهم إيمان بعد إيمان، وإسلام بعد إسلام، وهداية بعد هداية، وإحسان بعد إحسان، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢]، وقال ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فهذا مقام الإسلام بصحبة الإيمان ثم قال: ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴾، فهذا مقام التقوى بالإيمان بعد الإسلام، ثم قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ﴾ فهذا مقام الإحسان بالتقوى في الإيمان بعد الإسلام ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:٩٣]، وقال عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٧]، وقال: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣].

وهكذا كل وصف يوصفون به أو صفة يتصفون بها، هم في أرفع درجات المؤمنين، قال الله ﷻ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١]، حيوا ببركة قرب القريب المجيب منهم، آمنوا بالغيب فأداهم الإيمان إلى مشاهدة الغيوب التي غابت من غيرهم، وورثوا لذلك درج المقربين فصاروا أعلامًا للهدى، يستضاء بنورهم ويسترشد بهدايتهم، وصلوا بمعنى اليقين إلى محل الأمين، فانكشف لهم الحجاب وباشروا الحق قابلين مقبولين، قلوبهم من الولي الحق مملوءة، به يقولون، وبه يأخذون ويعطون، وفي جزيل عطائه يتقلبون، لا يشغلهم عنه شاغل، ولا يحول بينهم وبينه حائل، صغر الخلق في أعينهم، فكل شيء دونه صغير، إن نطقوا نطقوا خائفين، وإن سكتوا سكتوا وجلين، لا يحضرون المواطن ولا يعرفون بالأماكن، قد ملكوا بالمحبة فما ظنكم بقلوب فيها المحبة قد حلت، فلا طرف ينظر ولا يخطر، دعتهم دواعي الرغبة وأنهضتهم الحكمة، فهم المصيبون في الدنيا المقربون في الآخرة تتضاعف على الأيام منازلهم وتتكامل على الدوام فضائلهم، عدو أحدهم منه بعيد وأمره شديد، قد يئس منه الشيطان فصار منه بمعزل، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٥] علمهم غريب وهم أغرب من علمهم، كأن الناس قد حيل بينهم وبين علمهم الذي به وصلوا، خلوا بجهلهم فكيف الطمع في العمل بأعمالهم إذا لم تعرف علومهم، رضوا بالدنيا فمنعوا من الآخرة وأحبوا العماية فرفضوا الهداية واتخذوا العلماء أعداء، وكيف لا يكون كذلك، وقد تمسكوا بحبل الله ﷻ ودعوا إلى الله من حاد عن الحق وذاد، فما ظنك بمن الأكثرون أعداؤه والأقلون أصفياؤه، إن استغاث لم يغث، وإن

أمر لم يسمع وسخر من فعله، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠، ١١١].

كذلك يقولون لربهم ﷻ في عرصة المحشر: ربنا فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه، فازوا ونالوا والله، فيا ليت شعري أين الفرقة العادلة ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾[المؤمنون:٦٦-٦٧] ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران: ١٣٧] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠]، اللهم إنا بك وإليك وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

وإن من قواعد إيمانهم الإيمان بالمقدور الحاضر والغائب والمقدور الحاضر هو ما أجرى الله به العوائد، ومضت عليهم سنة الله في حكمته الحاضرة، والغائب هو الإيمان بوجود ما يكرم الله به ﷻ أولياءه مما يخرق لهم به العوائد مثوبة لهم على صالح أعمالهم، وبرهانًا على تكليم يكلمون به، وعلم يعلمونه، وفتوحات يفتح لهم بها هدايات، وأعلام ترفع لهم، يجدون ذلك عن أنوار بواطنهم، وكما أن المكذب بمعجزات الرسل لا يدخل في حد الإيمان ولا يقتطع له حظ من دين الإسلام، ولا ﴿لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٢]، فكذلك المكذب فيما يفتح على الأولياء وما يخرق لهم من العوائد، لا يدخل في حد الولاية الكبرى، ولا يقتطع له منها حظ على حظ عوام المؤمنين على قدر جده فيهم وكده فافهم.

التعبد

أي أخي، تعلم قدر ما تطلب وما فيه ترغب تحقق علمه، عساك تبذل من جهدك واجتهادك ما يكافئ بعض ذلك، أتدري ما الولاية؟ هي انتساب إليه بأسماء حسنة من أسمائه الحسنى، واتصاف بصفات كريمة من صفاته العلا، مع إقرار منك برق العبودية وتوجيه العمل إليه بخالص الوحدانية، ومحبة منه وتقريب وانقطاع إليه بالكلية، أتدري ما الذي يحبوك إن أنت انقطعت إليه؟ يحبوك، والله الشرف الأعلى، يختصك الاختصاص الأكبر، ويجعلك في الدنيا من الأحياء المحفوظين وفي الآخرة من الآمنين الفائزين الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فمن علامات ذلك أن يصونك ويكفيك ويؤمنك من سواه، حتى لا تخاف غيره ولا ترجو إلا إياه، وأن يعينك على نفسك ويحيي لك قلبك فتتحقق لك آمالك وتنقضي لك بإذنه مآربك.

وإن من أوليائه لمن يديم توفيقهم حتى لو أرادوا سوءًا أو قصدوا محظورًا عصمهم وكفاهم إنه تبارك وتعالى يأبى لهم في حال جنوحهم وإيابهم إلا التوفيق لهم والتأييد، ويجعل لهم المودة في قلوب العباد، ثم يجعلهم بركة في أرضه وأمنة لعباده، ولا تكثر في تقريظهم، فأحوالهم أكثر من أن تذكر وأشرف من أن توصف، والله ﷻ ولي النعمة وعليه التوكل في الأمر كله.

أف للغفلة التي أورثت القسوة حتى أماتت القلوب بعد حياتها، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]، هذا والله داؤنا قد أصابنا ما أصاب من كان قبلنا، «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتموه**»[(١)]، إنا لله وإنا إليه راجعون.

اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، قد أدبرت الدنيا فكيف يكون أهلها مقلين؟ وإن قومًا رأوا المقابر والبلى، وشاهدوا مصارع من قد مضى ثم لهوا عنها لقوم غافلون، كأني بالفرح المسرور المغتبط بشبابه الناظر في عطفيه، المتعجب بما له وحوله وشأنه المغتر بأسبابه، قد أكب عليه الأجل عند تقصيره وتطاوله في أمله، فنزل بساحته وأناخ بفنائه، فيا لها من عثرة لا ترتجى لها إقالة ولا تنفع معها عبرة.

وقد أعذر إلينا وأمرنا ونهى، فهلا قلوب تعقل بها، أو آذان تسمع بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فويل للظالمين من يوم القيامة، والخزي للكافرين من الحسرة والندامة، وأف للمفرطين يوم لا كرة تنال ولا رجعة لإصلاح حال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٥،٦].

قد جعل الله ﷻ القرآن بين أظهرنا لو اتعظنا، والموت المشهود بيننا في كل وقت وفي كل ساعة لو اعتبرنا، واعظان ناصحان لا يفردان أحدًا بالنصيحة، وعندهما تبدو من الفاسقين والمفرطين الفضيحة، فكم ممن بدت مساوئه عندهما فخسر نفسه، وكم ممن فاز

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) وفي الاعتصام (٧٣٢٠) ومسلم في العلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

بهما فوزًا عظيمًا، اللهم إنا نسألك حياة تحيي بها قلوبنا، ورحمة تصلح بها جميع أمورنا حتى تلحقنا بأوليائك وتجعلنا في أصفيائك، ولا تجعل اللهم حظنا من صفاتهم وصفهم، ولا من حسن الاقتداء بهم ذكرهم، نعوذ بك من ذلك يا خير معاذ.

اسمه الرحمن جل جلاله وتقدست أسماؤه

الرحم والرحمة والمرحمة سواء في المعنى، إلا ما فرق بينها بفرقة البناء، والرحم: القرابة، والرحم: وعاء الولد في البطن، من ذلك قيل: ناقة رحوم إذا كان بها داء في رحمها فلا تحمل وقد رحمت، وقد جاء بناء هذا الاسم الكريم على وزن فعلان، فقالوا من أجل ذلك: هو كعطشان من عطش، وسكران من سكر، وغضبان من غضب، قالوا: فكأنه ملآن رحمة، واستدلوا على ذلك بأن هذه الأوصاف تملأ الموصوف بها، وقال آخرون: إن هذا اسم لا اشتقاق له ألبتة، وإنما ذلك لأنه اسم لم تكن العرب تعلمه، ولذلك لما قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان:٦٠] فكان ذلك زائدًا في نفارهم وإبائهم.

وكلهم اتفقوا على أنه اسم خاص لا يجوز لأحد سواه جل وعز التسمي به، وإن كان واجبًا التحلي بحليته والاتصاف بوصفه من حيث الصلة والرحمة، غير أن من الرحمة من معانيه معجزة لا يجوز لأحد دعواه على ما سيأتي في خلال الكلام عليه إن شاء الله ﷻ، وهو ولي التوفيق.

الاعتبار

اعلم - وفقنا الله وإياك لما يرضيه - أن للأسماء مقامات ودرجات من حيث العلم والمعرفة، وهي على ذلك ظاهرة وباطنة بالإضافة إلى طالبي العلم بها، وأعلاها درجة أدلها على الذات جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه، والباطنة منها أعلى مقاماتها: الاسم المحجوب، والظاهرة منها أعلى مقاماتها: ثلاثة أسماء ذكرها الله ﷻ في أم الكتاب، وهي: الله، الرحمن، الرب، جعلها ﷻ في ظهورها مقامًا للذات جل ذكره يخبر بها عنه، وحجابًا بينه وبين خلقه يوصل بها الخطاب منه إليهم، فاسم الله جل ذكره باطن لاسم الرحمن، وهو يشير أن جميع البواطن من الأسماء.

واسمه الرحمن باطن لاسمه الرب، وهو مفيض على جميع الظواهر، ثم بعده اسم الرب تباركت أسماؤه وتعالى شأنه، ثم أسماؤه الظاهرة مبينة لهذه الأسماء الثلاثة، كذلك قال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه:١٤] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر:٢٢] إلى آخر الأسماء كلها يخبر بها عنه، وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]، وقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩] ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ [الرعد:٣٠].

هذه الأسماء الثلاثة يخبر عنها به ولم يخبر بها عن غيره، يقيمها بذلك مقام الذات جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، حجب بها خلقه عنه، كذلك بطن بذاته وظهر بصفاته، واستعلن بأسمائه وتجلى في أفعاله سبحانه وله الحمد، وكانت أسماؤه كلها باطنة عن خلقه لمكان عدمهم، ولما أوجد خلقه أظهر منها ما أظهره لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، يوم علمه الأسماء كلها، أي: الذي شاء أن يظهر منها مقدار وسع الخليقة، وهو أبدًا يظهر منها ما لم يكن أظهر إلى ما شاء من ذلك، فإذا كان اليوم الآخر أظهر زائدًا على ما كان أظهره على مقدار عظم ذلك اليوم بالإضافة إلى يوم الدنيا، ثم في دار القرار يظهر من ذلك، ما لم يكن أظهره قبل زائدًا على ما تقدم على مقدار زيادة تلك الدار على ما قبلها، وكذلك يظهر لعباده وأوليائه هناك من أسمائه المحجوبة والمكنونة، وما أبطن من أسمائه هذه المظهرة في الدنيا ما لا عين رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وتتسع العبرة جدًّا على هذه السبل، ويكثر الوصف، وتكل الألسن، ويبهر العقول، وينقطع بها العلوم دون ذلك.

وكان إظهار هذا الاسم الكريم للخليقة يوم استوائه على العرش، لما أوجد عن ذكره العرش على الماء أظهر من أسمائه هذا الاسم الكريم، اشتقه من صفته الذاتية، وكتب بمقتضاه على نفسه يومئذ كتابًا هو عنده على العرش: «إن رحمتي سبقت غضبي»(١).

فكان هذا الكتاب المبارك عقدًا لجميع العالم علوه وسفله، وإمساكًا له وجاء للإمهال والانتظار، والعفو والمغفرة والصفح والتجاوز والتوبة والحلم والأناة وحسن المعاملة كلها، وجميع ما كان وصفًا للحلم وفعلًا له، ومن ذلك أن أوجد عن هذه الصفة العالية نورًا، ثم خلق من ذلك النور حجابًا حجب به خلقه منه، كما كان من ضدها بهذا الاسم الكريم حجابًا وحجب به خلقه عنه، لو كشف تلك الحجب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، فكان والله أعلم يهلك كبرياؤه كل كبر وعزته كل عزة، وعظمته كل عظمة، وكرمه كل كرم، وأخذه كل أخذ وقدرته كل قدرة، وبطشه كل بطش، هكذا كانت تهلك كل صفة ما قبلها من الصفات، فكان لا يقوم له شيء لولا

(١) سبق تخريجه.

رحمته السابقة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٤] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ [طه:١٢٩] أي: لكان الأخذ والعذاب لزامًا.

ومن رحمته بمقتضى هذا الاسم الكريم أن أوجد جملة العالم كله متواشج الأرحام، متقارب الأصول من حيث هو، فجعل الأعلى يعطف على الأسفل، والأسفل يتعلق بالأعلى، وأفقر الخلائق كلها بعضها إلى بعض الأعلى إلى الأسفل، ليؤدي إليه ما له عنده والأسفل إلى الأعلى ليقبل منه ما به وجوده، ثم أفقر الكل إليه جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه وهو الغني الحميد، ولما خلق الأرض من ممزوج الماء، وقد تقدم في الذكر في رسم ذي المعارج ما يغني من تكراره تباعدت الأصول إذ قرب التقاطع، وضعف التواشج لاختلاف الأمشاج، أظهر الرحمن ﷻ بهذا الاسم الكريم عن الصفة العالية صفة الرحمن التي وسعت كل شيء شجنة اشتق لها من اسمه، وفعلًا من صفته، وأمرها بالنزول إلى الأرض، ليقرب ذلك التباعد، ويصل بها ما هنالك من قاطع، فتعلقت بالعرش الكريم الذي هو أصل لها في الموجودات كأنها حجنة مغزل، وقالت: يارب، هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟ فقال لها: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك**» قالت: بلى يا رب، فقال لها: «**فذاك لك**»[(١)].

وكان تعلقها بالعرش الكريم رحمة منه بها وبما خلقت له؛ ليتم منها ما لم يتم قبل ذلك؛ لأنه أظهرها باسم الرحمن، فكانت تنقصها الوصلة فتممها لها بتعلقها بالعرش ولاتصالها به، وبقوله لها: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك**»[(٢)].

فكذلك من وصل رحمه لقربه من الخلقة، وحرمة الرحم عمر بذلك دنياه، واتسعت معيشته، واعتز لذلك، ومن أضاف إلى تلك الوصلة معنى اسم الرحمن تم له أمر دنياه وآخرته، أعني: المعنى الآجل منه الذي عبر عنه، وله يوم يجمع الله الأشهاد في اليوم المشهود: «**إني جعلت لكم نسبًا ورحمًا فأبيتم إلا أنسابكم، فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون**»[(٣)] قال الله ﷻ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

---

(١) الحديث رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٠ - ٤٨٣٢) ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هو الحديث السابق.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٤٥١١) وفي الصغير (١/ ٢٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٨٤): فيه طلحة بن عمرو وهو متروك.

ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]، وقال رسول الله ﷺ: «ما من طاعة الله من شيء أعجل ثوابًا من صلة الرحم، وما من معصية الله شيء أعجل عقوبة من قطيعة الرحم»[(١)].

إن القوم ليتواصلون وهم فجرة فتكثر أموالهم ويكثر عددهم، وإن القوم ليتقاطعون فتقل أموالهم وتقل عددهم، ومن هذا قال ﷺ: «صلة الرحم تزيد في العمر»[(٢)].

ولما أنزل الله تبارك وتعالى هذه الرحمة إلى الأرض جعلها سبيلًا للتعاطف كله في الأرض والرأفة والحنان، والسكن والتربية والنسل، إلى غير ذلك من هذا الشأن، فعاش في ذلك أهل الأرض إنسها وجنها وحيوانها وهوامها، وتناسلوا وتعاطفوا وتم عليهم أمرهم، ورفع أهل الإيمان درجة في ذلك، فتعاطفوا وتحابوا لجلال الرحمن ﷻ، فتم لهم أمرهم أوله وآخره عاجله وآجله.

فإذا أراد الله عز جلاله أن يقيم القيامة وأذن بخراب هذه الدار وتقويض بنائها قبض عنهم أولًا معنى اسم الرحمن حتى لا يبقى في الأرض مسلم، فمقتهم في ذلك وأذن بإقامة القيامة، وقبض الرحمة التي أنزلها إلى الأرض وهي الرحم، فتضع لذلك الحوامل ما حملن، وتذهل المراضع عما أرضعن، ويفر المرء من أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه، ويضيفها إلى ما أمسك منها عنده، فيرحم بها عباده المؤمنين.

فالرحم مشتقة من اسم الرحمة، والرحمة صفة الرحمن عز جلاله، امتلأ العالم من هذه الرحمة كما امتلأ البحر بمائه والجو بهوائه، إلا ما تخلله من معنى قوله: «سبقت غضبي»[(٣)]، فالسبوق لا بد لاحق وإن بطئ به وله حكمه ولو بآخرة، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلًا في رحمة الله ﷻ عباده «بامرأة لها ولد حلت به في فيء من الأرض وظلمة من الليل، أرادت أن تضجعه فأهوت بيدها إلى مضجعه تضرب بيدها فيه؛ إن كان بها حية أو عقرب أصابها ذلك دونه».

فالله أرحم بعباده من هذه بولدها، وبامرأة أصيبت في السبي فكانت كلما مرت بطفل أرضعته طمعًا أن ترضع ولدها فيمن ترضعه، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار» قالوا: يا رسول الله، لا وهي تقدر على ألا تطرحه فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[(٤)].

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (١٩٨٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وسنده ضعيف.
(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨٠١٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١١٥): إسناده حسن.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه البخاري في الأدب (٥٩٩٩) ومسلم في التوبة (٢٧٥٤) من حديث عمر رضي الله عنه.

وضرب لرحمته مثلًا آخر بفرح الله بتوبة عبده: «الله أفرح بتوبة عبده من رجل ضلت ناقته بأرض قفر عليها زاده ومزاده...»(١).

ومن العبرة بهذا الاسم الكريم أن الله ﷻ فرض على عباده أولي الأرحام كونًا وشرعًا تربية أبناءهم وصغارهم والرفق بهم حتى يبلغوا ويعلم من منهم المؤمن والطائع فيوالي، ومن منهم الكافر والعاصي فيتبرأ منه، كذلك الرحمن عز جلاله يربي عباده طرًا وجميع مخلوقاته بمقتضى اسم الربوبية، ويوصل بذلك إلى جميعهم من إحسانه ولطيف تربيته بما سبق لهم عنده، وتتحقق الحجة له عليهم، ثم ينقطع ذلك عنهم بموتهم واحدًا واحدًا، حتى إذا كان يوم القيامة خص برحمته أهل طاعته وصرفها عن أعدائه.

ومعنى آخر من الاعتبار أنه حرم النكاح، الذي هو سبب الإيجاد على طريق التناسل في ذوي الأرحام القريبة، وأباح لنا ذلك في ذوي الأرحام البعيدة لعدم السكن إلى غير الجنس، وإنما يسكن كل جنس إلى جنسه لحكمة بالغة أيضًا تناولها مقتضى غير هذا الاسم، وكذلك حرم علينا النكاح في موضع الرضاع، وإن وضع الله نسله في ذلك الموضع لعلة، سبق الخلقة بالشبه عن تلك المرضعة بالتغذي من لبنها، وهذا لينبه على أمر عظيم قدره جليل خطره فتفهم ـ وفقك الله ـ حكمته وتفطن بمجاريها في سبل قضاياه، وقد تقدم من ذكر هذا في كتاب «الإرشاد إلى سبل الرشاد» ما يغني هنا عن الترداد.

اعتبار آخر:

حرم علينا أن نتخذ ذوي الأرحام القريبة، كالأب والأم ما علا، والابن وابن الابن ما سفل، والأخ والأخت والعم والخال والعمة والخالة عبيدًا، ثم نبه على موضع الحكمة في ذلك بقوله الحق: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ [مريم:٩٢-٩٣]، وبقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٌ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]، وبين كيف خلق عيسى ابن مريم عليه السلام ووصف مولده ومولد أمه، وكيف كان بدء شأنه في ذلك إلى استوائه، ثم صدع بقوله الحق: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ [مريم: ٣٤-٣٥]، فجعل من أنواع البراءة من البنوة لزوم وصف العبودية.

ونبه أيضًا بذلك على أن من خلق الرحم أولى أن يتخذ فيهم ولا منهم ولدًا من ذوي

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨) ومسلم في التوبة (٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ورواه مسلم (٢٧٤٥) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

الرحم منكم، ووصفه أعرق وصفاته أعلى وأفخم، وبحسب ذلك يكون الحلم مما تتم به العبرة للمعتبرين، وتقوم به الحجة للرحمن جل ذكره على الكاذبين، إن الذين وصفوه بالولد سبحانه وتعالى لا يتناكحون إلا في أبعد الأباعد، ويجتنبون القرابات وإن بعدت، وهذا من عظيم قهره وجليل قدرته على إلزام الحجج لمن شاء أخذه بها تقدست أسماؤه وتعالى جده.

قد مضى فيما تقدم أن الرحمة التي نزلت إلى الأرض هي الرحم وما كان بسببها وجاء ثابتًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة واحدة، فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير وبعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها عنده**»، وفي أخرى: «**أنزل منها واحدة إلى الأرض وأمسك عنده تسعة وتسعين، فإذا كان يوم القيامة قبض هذه إلى تلك، ورحم بها عباده المؤمنين**»[1] أما قوله: كل رحمة منها طباق السماء والأرض، فسبيل البحث عن معناه والله أعلم سبيل البحث عن مسالك البرايا والأرزاق في غيابات خزائن السماوات والأرض، ومصداقه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون:٧] ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر:٢١]، وأنه لما برأ البرايا وقدر المقدورات من أرزاق وآجال وأعمال استودع ذلك خزائن السماوات والأرض، فما زال يصيرها من مستودع في مستقر حتى أبرزها من مستودع الأصلاب إلى مستقر الأرحام كما تقدم ذكره في أبوابه فأصار كل شيء من سماء وهواء وجو وأفلاك ونجوم ورياح ومياه، ونبات وحيوان، وغير ذلك من كل مذكور في السماء والأرض مستودعًا لما برأه، ومستقرًا لما خلقه خلقًا وأمرًا، ورزقًا وأجلًا وعملًا، فهذه رحم ماسة وقرابة واشجة فكذلك إذا فاقض في سبيل معرفتك على باقي عدد الرحمة المذكورات التسعة والتسعين إذ هي مسطورة في اللوح المحفوظ منطوية موجوداتها في مقتضى الأسماء.

وأما تخصيصه في الذكر بإنزال الرحمة الواحدة إلى الأرض، وذكر إمساكه التسعة والتسعين فمعنى ذلك أن رحمة الرحم خلقة واجبة وفطرة لنا لازمة، يدلك على لزومها وحقق وصفنا بها اشتراك الإنس والجن، والبهائم والهوام، وجميع الخليقة الأرضية فيها،

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٠) وفي الرقاق (٦٤٦٩) ومسلم (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم (٢٧٥٣) من حديث سلمان رضي الله عنه.

وأنها رحمة يغلب الراحم منا لزومها ويقهرها وجودها، حتى أنها لتفرط في وجودها فتخرج إلى العصبية المنهي عنها المهكلة والعشق المتلف، وغير هذا من أنواع اللزوم، ليس كذلك فيما عادل إلى أنواع الرحمة سواها، فإنها وإن كانت وصفًا لنا، وصفات موجودة بنا ليست في اللزوم كالخلقة والإيجاد، إنما أوصافنا وصفاتنا بيده ومن عنده، ييسرها لمن يشاء ويوفق إليها من يشاء، ويعطيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء، وقد شاء إعطاء الخلقة، ولولا ظهور الخلقة لم يكن الإيجاد.

وما تقدم ذكره من الصفات ليست كذلك، بل هي من قبيل الأعطيات والهبات، فأصناف الرحمة المذكورات - والله أعلم - هي الإيمان عن اسمه المؤمن، والإسلام عن اسمه السلام، والتطهر عن اسمه الطاهر، والتقدس عن اسمه القدوس، والبركة عن اسمه المبارك، والملك عن اسمه الملك هو: ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٤٧]، والملك هو في الآخرة مما يرحم به عباده المؤمنين، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان:٢٠].

ثم كذلك فاعمل في هذه الأسماء التي نهينا عن التحلي بها، وأمرنا بالاقتصار دونها، والعزة عن اسمه العزيز، قال الله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، ولم يتصف بأنه رب لصفاته تعالى عن تلك، وإنما هو رب لصفات أوجدها، يكون عنها صفاتنا في الدنيا والآخرة فافهم.

وكذلك الصورة عن اسمه المصور، قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لسوقًا، ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور، من أراد صورة دخل فيها، فكان هو تلك الصورة**»[1]، فذلك مما يرحم الله به عباده المؤمنين، المغفرة عن اسمه الغفار، الهبة عن اسمه الوهاب، الرزق عن اسمه الرزاق، الفتح عن اسمه الفتاح، العلم عن اسمه العليم، السمع عن اسمه السميع، البصر عن اسمه البصير، والحكمة عن اسمه الحكيم، الحكم عن اسمه الحكم، الشهادة عن اسمه الشهيد، العدالة عن اسمه العدل، اللطف عن اسمه اللطيف، الغياث عن اسمه المغيث، الحلم عن اسمه الحليم، الشكر عن اسمه الشكور، والعلا عن اسمه العلي ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥]، وإن ﴿ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨] المعنى الكبر عن اسمه الكبير، الحفظ عن اسمه الحفيظ، الجلالة عن اسمه الجليل، الكرم عن اسمه الكريم، الإجابة عن اسمه المجيب، الوسع عن اسمه الواسع، الطول عن اسمه

---

(١) سبق تخريجه في باب اسمه المصور عز وجل.

ذي الطول، الود عن اسمه الودود، المجد عن اسمه المجيد، الحق عن اسمه الحق الوكالة عن اسمه الوكيل، الكفالة عن اسمه الكفيل، الوقاية عن اسمه الواقي، المنع عن اسمه المانع، الدفع عن اسمه الدافع، والمدافع لمنعهم من النار، كما منعهم في الدنيا من الشيطان أن يكون له عليهم من سلطان ويدفع عنهم هناك كما دافع عنهم هنا.

الولاية عن اسمه الوالي والولي، الحمد عن اسمه الحميد، الإحياء عن اسمه المحيي، في الدنيا إحياء جسماني وإحياء ديني، وفي الآخرة هي دار الحيوان، يأكلون من حيوان الجنة ما هم آكلوه، ثم يقولون له: أحيا بإذن الله فيحيا، ليس إحياء من إماتة، إذ ليس في الجنة موت، إنما هو كقطف ثمرة عود على بدء، ورجوع إلى أول.

البر عن اسمه البر، التوبة عن اسمه التواب، العفو عن اسمه العفو، الرأفة عن اسمه الرؤوف، الجمع عن اسمه الجامع، الغنى عن اسمه الغني، النفع عن اسمه النافع، الخبر عن اسمه الخبير، النور عن اسمه النور، الرشد عن اسمه الرشيد، القرب عن اسمه القريب، الإفضال والفضل عن اسمه ذي الفضل، البيان عن اسمه المبين، الإحسان عن اسمه المحسن، الإجمال عن اسمه الجميل، الإنعام عن اسمه المنعم، المن عن اسمه المنان، البسط عن اسمه الباسط، الإعطاء عن اسمه المعطي.

وكذلك القبض عن اسمه القابض، يرحمهم به قبض من أعدائه أرزاقهم من الجنة ومنازلهم، قال الله عز جلاله: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]، ويورثها عباده المؤمنين، وبإذلاله أعداءه يعز أولياءه، وبعقابه وعذابه، وسريع حسابه وابتلائه وانتقامه يرحم عباده المؤمنين ينزل أولئك دار شقائهم وموضع بوارهم، ويورث هؤلاء منازلهم، وما كان يؤول إليه ما هم لو آمنوا وأصلحوا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[الطور:١٧، ١٨].

فعدد في رحمته أن وقاهم عذاب الجحيم، كما عدد منها أن أدخلهم جنات النعيم، هكذا جميع أسمائه التي مقتضاها الغضب والسخط، والعقاب والعذاب نعوذ بالله من ذلك كله يرحم بها عباده يوم القيامة، كيف لا وقد أوجد برحمته لهم من ينوب عنهم في تلك الدار ويسكنهم إياها بدلًا منهم، وأما قوله: ﷺ «مائة رحمة»[1]، وهي أسماؤه أنها تسعة وتسعون، فإن تمام المائة من الأسماء هو اسم المزيد، وهو الاسم المحجوب المكنون وتمام المائة الرحمة هي الوسيلة ـ والله أعلم ـ وهي أعلى درجة في الجنة وأرفعها، لا تنبغي

(١) سبق تخريجه.

إلا لعبد من عباد الله يعطيها الله رسوله محمدًا ﷺ إن شاء الله إن الله لا يخلف الميعاد وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق مائة درجة في الجنة، أعدها للمجاهدين في سبيله**»[(١)] والوسيلة ثوب في درجات الجنة سوى درجتها المخصوصة بها، يقول الله عز وجل: «**شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين**»[(٢)].

ومن آثارها في الدنيا ما جعل للمؤمنين من التبليغ عن الله ورسوله، بعضهم من بعض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوسل والتشفع، وما شاكل ذلك فلكون هذه الأنواع من الرحمة، من قبيل الهدايات والعطايا ومفارقتها لزوم الخلقة، عبر عنها أنها عنده، وأنه أمسكها عند نفسه فيعطيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء، وعبر عن تلك بأنها لازمة للوجود ومنزلة إلى الأرض، لانتقالها من المستقرات إلى المستودعات فينزلها في الماء إلى الأرض، وهي كذلك حقيقة حق وموجود شهادة ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

وأوجه من هذا ـ والله أعلم ـ أن يكون قوله: «**إن الله خلق مائة رحمة**»، والرحمة صفة ذاته، والصفة لها في كل أسمائه قسطها وإن تغايرت المقتضيات من الأسماء.

وقد اشتركت مقتضيات الرحمة التي تقدم ذكرها في النزول إلى الأرض، لأنها نازلة لا محالة في الماء، وإن كانت رحمة الرحم أكثر اختصاصًا بالنزول للزومها موضع الخلقة ولقوله في الحديث: «**فبها تعطف البهائم على أولادها وبها يكون النسل**»، وما عداها اختصها معنى القسم والهبة والعطية، لكنها اشتركت في النزول، فيمكن أن يتوجه معنى قوله: «**خلق مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض**»[(٣)] يريد جملة الرحمة التي اقتضتها الأسماء المنزلة مقتضياتها، فتكون جملتها رحمة واحدة من مائة رحمة أمسكها عنده ما عدا هذه التي نشاهدها باختلاف أنواعها، فكأنه قال: أنزل منها جزءًا من مائة، أمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وإن سميت بالعدد فهي مائة من هذه أنزل منها هذه، وهي واحدة من جهة التجزئة؛ ومائة من جهة العدد باختلاف الأنواع، وأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وتسعة آلاف وتسعة وتسعين من جهة جملة عدد الرحمة المنزلة، فإذا

---

(١) رواه النسائي في الجهاد (٣١٣٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ وحسنه الألباني في سنن النسائي ورواه مسلم في الإمارة (١٨٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بلفظ مختلف عن لفظ المصنف.

(٢) سبق تخريجه.

(٣)هو حديث سلمان الفارسي السابق عند مسلم (٢٧٥٣).

كان يوم القيامة جمع هذه بجملتها إلى التسعة والتسعين التي أمسك عنده، ورحم بها عباده المؤمنين، وتكون الممسكة مما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولا خطر على قلب بشر، نعيبها من حيث أنَّا ما علمناه بعلومنا ورأيناه وسمعنا به وتحدثت به قلوبنا، بعض ما اقتضته هذه الأسماء المنزل مقتضاها، وفيها يكون التسابق ودرجات العلوم.

ومن رحمته أيضًا، ما أنبأ به ﷺ: «**أن لله ثلاثمائة وأربع عشرة شريعة، لا يوافي الله ﷻ أحد عمل بواحدة منها إلا أدخله الجنة**»(١)، وربما قال: «**على ما كان من عمل**» إذ الشك في هذه الزيادة، وهذا كله والله أعلم فيما جاء به رسول الله ﷺ من كتاب وسنة، وأنها في حدود الإسلام ومعرفة تفصيل شعبه، فرضها ونفلها، وأوائلها وأواسطها وأواخرها، نتطلب ذلك - وفقك الله - في مظانه فإن تقدمه إن شاء الله ﷻ في معاني أسماء الله ﷻ، ثم في أثناء أوامره ونواهيه ووصاياه المعهود بها إلى عباده، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى قوله جل قوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، فهي في هذه الجملة بالعموم مع ما نص منها على بعضها، وكقوله في وصيته في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] وكقوله في سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠] وكقوله في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وكقوله في سورة التوبة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وكقوله في سورة المعارج: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٣] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، وكقوله في وصية لقمان عليه السلام من لدن قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، إلى قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

فاستقر ذلك كله، وأحسن الاستقراء في إسقاط التكرار من العدد، وتثبت قبل تركه، فربما كرره لزيادة شريعة، فإن لم يكن ذلك كذلك فابن على عددك، ثم استقر جميع ما نهى

(١) رواه عبد بن حميد (٩٦٨).

عنه من محرمات البيوع والتجارات كلها، والصرف والمناكح، والأشربة والأطعمة، والعتق والديات والتفليس، والفرائض والمساقاة والمعاملات كلها، وما أمره من موجبات ذلك كله، وكنهيه عن كل خلق مذموم كالعداوة والبغضاء، والحسد والكبر، والغل والغش، والنميمة والغيبة والاحتقار والازدراء، والهمز واللمز، والفخر والمخيلة، والطعن والنياحة، والتنابز بالألقاب والظن السوء، وسائر الأخلاق المنهي عنها، مع ما نهى عنه من الفرقة والخروج على الجماعة وعنها، وما جرى إلى ذلك وما نحا نحوه مع الأمر الوارد عنه ﷺ بالأخلاق الحسنى التي هي أضداد ما تقدم ذكره، كالمحبة والود والرضا، والصبر على طاعة الله، والصبر عما نهى الله عنه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والزهد والشكر، وقول الحق والحكم به، وسلامة القلب وحسن الظن، ونزاهة النفس والسخاء، وطلب معالي الأخلاق كلها، واجتناب أضدادها السوء كلها، هذا إلى ما يجده التالي لكتاب ربه ﷻ، وقد قال عز من قائل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقد قسم بعض العلماء التوبة على عشرة مقامات، ثم قسم كل مقام من العشرة على عشرة مقامات، فانتهت إلى مائة فصل، وذكر ابن المجير في كتابه الموسوم كتاب «خصال العقل وآفات الهوى»، فانتهت به إلى نحو المائة.

وقال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**» وفي أخرى: «**بضع وستون، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»(١) وخرج مسلم بن الحجاج رحمه الله في كتاب الإيمان من كتابه في صحيح الحديث زائدًا على البضع والسبعين، وقال رسول الله ﷺ: «**أربعون خصلة من خصال الخير، أعلاهن منحة العنز، لا يعمل أحد بواحدة منهن، يبتغي بذلك وجه الله إلا أدخله الله الجنة**»(٢)، وما أخبر به ﷺ: «**أربعون خصلة من الخصال**»، إنما هو فيما قدر منحة العنز فدون ذلك قال الراوي: فجهدنا في تحصيل عدتها من تشميت العاطس، ورد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز ونحو هذا، فلم نقدر على أزيد من خمس عشرة خصلة.

فانظر – وفقك الله – إلى تدقيق إحصاء النبوة لخصال الشرع، فإياك أن تحقر في إحصائك لها ولا في العمل بها صغيرة، وإن دقت فإنها توزن فيما هنالك بمثاقيل الذر

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري في الهبة (٢٦٣١) وأبو داود في الزكاة (١٦٨٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

والخردل، وأدنى من ذلك وأدنى أدنى أدنى من ذلك، فمن تقلد الإسلام بعهوده، وقرأ القرآن وعمل به، واجتنب المناهي، وأدى شكر ما به من أنعم عليه دخل في ضمن عمله وعقله الثلاث ما به شريعة، والأربع عشرة شريعة، ولا يبعدن هذا عليك، فإنه أمر الله ﷻ ودينه القيم ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٨].

واعلم أن الموجودات من غير المكلفين إسلامها في درجتها، كإسلام المكلفين في تعداد شعبه، كالسجود والقنوت والتسبيح والذكر والصلاة، أما دعائم إسلامها فخمسة، وأما مواطن خلقتها فسبعة ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١]، في إسلامهم الكوني والشرعي، قال الله جل قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣]، فكل مسلم فإسلامه يدعمه خمس دعائم، تكتنف تلك الخمس بضع وستون شعبة، وباعتبار غيره بضع وسبعون، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥]، هذه خمس دعائم ومثلها قوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥]، وقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١-٤]، فالحاملات وقرًا قسمان: الحاملات: السحاب، والوقر: الماء.

وقال في سبيل الخلقة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ثم قال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون:١٧]، إلى قوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [المؤمنون: ١٩]، مستمرًا على ذكرك أسابع في ذكر الخلق، فاتصال السبعة إلى ثمانية وعشرين، ثم إلى ثلاثمائة وستين، كذلك إلى عشرة آلاف وثمانين وستمائة، سبع خلق الإنسان عنها وهي ما عبر عنه قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]، والمكررة في الثلاثة مواضع المتلوة، وسبع خلق منها وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢] المعنى، وسبع نشأ عنها، وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، المعنى إلى آخره، وسبع خلق فيه وهي الأيام السبعة: أيام الجمعة فيهن سبع وسبع وسبع في سبع، المعبر عنهن بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ

طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون:١٧]، وسبع خلق فيها، تتصل هذه السبعة بثمانية وعشرين، ثم تصعد إلى ثلاثمائة وستين، ثم إلى تفصيل يكثر تعداده ويعسر تحصيله، ثم إلى ما شاء ربك ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، ولكل واحدة من هذه المعدودات في سبل الخلقة أول وآخر ووسط، ولكل جزء من هذه الأجزاء أجزاء، هكذا إلى ما لا يحصيه إلا الله ﷻ، ثم الشرعة تصحب الخلقة والصبغة موضع الفطرة، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال رسول الله ﷺ: «**خلق الله ابن آدم على ثلاثمائة وستين مفصلًا، فمن ذكر الله أو صنع من المعروف كل يوم بعدد ذلك يمسي وقد زحزح نفسه يومئذ من النار**»[(١)]، وقال ﷺ مشيرًا إلى عموم الشرعة بالخلقة: «**كم نعمة لله في عرق ساكن**»[(٢)] وكان يقول في ركوعه: «**خشع لك سمعي وبصري ولساني، ولحمي وعظامي ومخي**»[(٣)]، وكان يزيد في سجوده: «**وسجد لك سوادي، وآمن بك فؤادي**»[(٤)] وكان يقول: «**سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره بأحسن صوره**»، ثم يعم فيقول: «**تبارك الله أحسن الخالقين**»[(٥)].

يريد الجملة فإنه من التكليف فوق ما في الطاقة اتباع الشرعة مسالك الخلقة على التقصي، لولا عفو الله ورحمته، من وراء ذلك، قال الله ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ثم قال جل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١٨]، للتقصير عن بلوغ الغاية، رحيم بعباده بمعذرته إياهم، لضعفهم عن ذلك.

التعبد باسم الرحمن

أي أخي: إنه لا يرشدك أحد إلى أفضل مرشد، وأقرب مقصد مما أرشدك إليه الرشيد الحق ﷻ، حيث يقول جل قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨-٥٩]، ثم قال ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٠) موقوفا على أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) رواه الطبراني في الدعاء (٦٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها وفي سنده سليمان بن أبي كريمة ضعيف كما في الميزان.

(٥) هو حديث مسلم السابق.

بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦١،٦٢]، فهو ذا ﷻ وهو الخبير الحق بذلك على خبير به، تسأل عنه وتسترشده إلى العلم به، فيخبرك إن أحسنت السؤال والاستماع، ثم ذلك على عباد الرحمن من هم وكيف سبيلهم؟ ووصف لك أعمالهم، لتقتفي آثارهم وتسلك مسالكهم، فإنه وصفهم بأوصاف جميلة وحلاهم بحلي نبيلة، وأنهم أئمة للمتقين، ذلك بأنهم أخذوا علمهم عن الخبير به، الذي نصبه للإخبار عنه والدلالة عليه، وعن كلامه الذي أنزله إمامًا مرشدًا ومبينًا ناصحًا، فهم الأئمة لصحة سندهم وقرب مأخذهم، فما كان من ذكر الاستواء، والتقدم في التدبير، وتداور الدوائر بالأمر إلى معاني الخلقة، والبرء والفطر، وتجميع المواد والأبعاض، وتفريقها ثم تأليفها، أعني: مواد المخلوقات وإنزال الأرزاق والأعمال، وتأجيل الآجال والمعاني السماوية والأرضية، واسأله عن اسم الرحمن يرشدك إن شاء الله فهو الخبير به، شهد له بذلك أكبر الشاهدين.

ثم ما كان من غير هذا من التعبد به فقد منَّ في الاعتبار المذكور به، غير أنه من الواجب أن تقصد قصد التعبد بالذكر على المعهود من سبيلنا في اختصار، قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ [طه: ٤-٦]، وقال ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان:٥٩]، وقال منكرًا على قوم كذبوا رسله وكتبه وقالوا: ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ [يس: ١٥]، قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ [يونس:٣]، هذا فعله المتصل بالأمر منه تدبيرًا له من لدن أعلى العرش إلى منتهى وصل بذلك قوله الحق: ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ [يونس: ٥]، هذا فعله في تنزيله كتابه معبرًا عن مراده بقوله: ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]، فتدبيره، فعله، وتفصيله الآيات في هذا الخطاب قوله العلي، فكان من تدبيره الأمر، ثم من تفصيله له لحكمته أن تقدم بالعلم والتقرير، وكتب بالقلم في اللوح المحفوظ كل شيء، ثم أخرج بالتفصيل إلى لوح الوجود، ثم أنزل بذلك كتابه والكتاب المنزل مضمنًا في الإمام المبين، قال الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤]، فالعلماء بالله ﷻ يأخذون هدايتهم من كتاب ربهم المنزل عليهم، وعن اللوح المحفوظ بواسطة الوجود والكتاب المنزل، ألا تسمع إلى قوله ﷻ بعد طلب العبد الهداية منه والمعونة بقوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، فأجاب جَلَّلاَلهُ عبده بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة ١،٢]، أي: الهدى المطلوب في ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ إلى اللوح المحفوظ ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة:٢،٣]، ثم قال بعد قليل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ القرآن والكتب المنزلة قبله، ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، ثم جمعهم في الهداية بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:٥]، كما قال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، فأخبر أنها أحكمت آياته في أم الكتاب، ثم فصلت بعده في الكتاب المنزل، كما قال: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، ثم قال ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، ثم جعل جَلَّلاَلهُ ينسق آيات الكتاب المبين يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: ٢]، كما قال: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [الشورى:١-٣]، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى:٧]، هكذا يسرد آيات الكتاب المبين ويعبر عنه الوحي، قال الله تَعَالَى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف:٣]، فكل ما في كتاب الله جَلَّلاَلهُ وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين فهو تعبد للرحمن تَعَالَى عباده؛ لأن ذلك من رحمته التي أنزلها إلى الأرض.

كما أن جميع مصنوعاته مفصلة من الكتاب المبين وهي من الرحمة الرحمانية؛ ليرحم بها عباده المؤمنين بالكتابين، قال الله تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت]، المعنى إلى آخره، وقال: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾[طه] إلى قوله: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه]، وما خلق الله تَعَالَى من شيء فإنما خلقه لعباده، وما تعبدهم به من شيء إلا رحمة منه لهم، ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [الجاثية].

من ذلك دعائم الإسلام الخمسة وتوابعها، وعهود الإسلام السبعة عشر وما حوتها، ومن آكد ذلك وأوضحه بيانا النصيحة لله ولرسوله والمؤمنين، وأجزل النصيحة وآكدها وأفضلها ما كان منها في سبيل الدين، فليس بعد أمهات الفرائض أعلى فضلا، ولا أجزل أجرا، ولا أقرب من الله تَعَالَى رحما من النصيحة في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شعبها، ثم الألفة التي هي الولاية، وهي التواصل والبر ومجانبة العقوق والتبرؤ من معاني الفرقة، وذلك هو الجامع لما تشعب من شعب الشرائع،

كالموالاة في الدين الواجبة لجميع المسلمين، الواجبة لبعضهم على بعض، ومنها: حق الإمام، وحق العالم، وحق الأبوين وذي القربى، ثم سائر الأصناف التي فصلها الله ﷻ في كتابه، فكل صنف حق واجب وفرض لازم؛ لأنه حق، وحق الذي يطالبه به من بخسه منه شيئا، وهو من الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض، ومن ذلك النهي الواقع في الأبدان بأنواع الأذية كلها، أكثر ذلك: القتل، وجميع الأذى محرم في الحيوان كله، بني آدم وغيرهم لا يبيحه إلا ثلاثة معان: دفع مضرة، أو جر منفعة، أو قصاص شيء بشيء، فأباح الرحمن ﷻ الصيد وبهيمة الأنعام لنيل المنفعة، كما أباح لنا قتل كل ذي أذى لدفع المضرة، وحظر ما وراء ذلك، فإباحة قتل المشركين من قبيل استدفاع الضرر والفساد في الأرض، وكذلك القتل بالقصاص وإقامة الحدود في الأبدان، وتأديب الأولاد والمكلفين كلهم منه، ولم يجعل الله ﷻ لبشر أن يقتل نفسا أو يؤذيها بعوضة فما فوقها لعبث ولا شهوة إلا بحق؛ لنفع يجتلب أو ضرر يستدفع؛ لأنه كله خلقه وله من رحمته وعدله قسطه وحظه، هكذا حرم الله ﷻ الأذية كلها: القتل فما دونه، والنظرة والإشارة باليد وغيره، والظن السوء، وما هو أقل من ذلك وأكثر.

وأما النهي الواقع في الأموال المحظورة بالأملاك، فهو على أربعة أضرب: الغصب والسرقة والخيانة والربا، فالغصب والسرقة والخيانة معروف بجميع ذلك كله، كل ما أخذته اليد دون رضا من مالكه سرا أو جهرا، ثم الرجس الذي ليس محظورا بالملك من هذا كالميتة والدم ولحم الخنزير وما شاكله، والخمر وسائر الرجس، والذي يأكل الخنزير كل ذي ناب من السباع؛ ولأنها في الأغلب إنما تغتذي بالميتة، ثم خبائث الهوام كلها وجل الهوام يدل عليها نفار النفوس عنها وتقذرها لها، وما لم تجر العادة من المسلمين على أكلها؛ ولأنها رجس من الشيطان ومن عمله، وغذاؤها في الأكثر منه، فما ذكرناه من أنواع المحرمات ليس للمسلم أن يبسط إليه يدا، ولا أن يتخذه قوتا، ولا أن يدخر ملكا ولا يعتاض به نفعا سوى ما أباح الله للمضطر منه.

ومن النهي الواقع في الأموال المحظورة، لا تدخل ملكك مالا من يد من تعلم أنه ملكه بغير حق بتصيير بيع، ولا قرض، ولا وديعة، ولا وراثة، ولا هبة، فتكون شريكه في الحرام؛ لعلمك أنه حرام، والنهي متوجه عليك أن تنكره عليه، فكيف أن تشركه فيه وتحل محله فيه؟ وكذلك النهي عن كل وجه يؤدي إلى الخيانة، أو خديعة، أو وجه من هذه الوجوه كلها، وقد تقدمت إشارة إلى أصول هذه المعاني والوجوه التي نهى عنها في الحكمة، ولا يخفى ذلك على من تحمل إصر الشرع وفهم عنه.

اسمه الرحيم عز وجل وتعالى علاؤه وشأنه

قد تقدم أن الرحم والرحمة والمرحمة بمعنى سواء، يقال من ذلك: رحم يرحم رحمة فهو راحم، ورحيم مبالغة كقدير من قادر، وعليم من عالم ونحوه.

الاعتبار

قد تقدم الكلام في معنى قول رسول الله ﷺ: «إن الله خلق مائة رحمة...»[1]، ومصداق ذلك قول الله ﷻ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه]، فكل ما أحاط به الكون من العرش فما دونه، فاسم الرحمانية تشمله.

وقد تقدم أيضا أن المنزل منها الأرض هو مقتضى معنى الخلقة الذي صير طباق السماء والأرض لها مستقرا ومستودعا، وذلك معنى اسم الرحمن ومقتضاه، وكما أنزل هذه إلى الأرض وأمسك عنده التسعة والتسعين، كذلك أمسك من مقتضى هذه الصفة التي أنزل من مقتضاها، وأنزل مما أمسك، وكل يعمل بمقتضاه من موضع خصوصه وعمومه، كذلك سنته ﷻ في حكمته أن يمسك مما أرسل ويرسل مما أمسك، ويقبض مما يبسط ويبسط مما يقبض، ذلك بأن كلماته لا نفاد لها، وخزائنه لا مباد لها لما اختزنه فيها، يمينه سحاء لا يغيض في يده عطاء الليل والنهار، وقد تقدمت إلى ذلك إشارة تغني عن الترداد والعرض والتطريق والإشارة إلى المقصد ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران:١٣].

وخاصة اسم الرحيم من اسمه الرحمن عز جلاله: أن اسمه الرحيم بمعنى الولاية، حيث يحل مقتضاه الأعلى أولياءه، ورحمة الرحمانية عامة شواهد الرحمتين في القرآن كثيرة خصوصا وعموما، فكل رحمة تكون في السماء من إنعام عام وإحسان وإكرام وغياث ودفاع وإدرار أرزاق، وما هذا سبيله ما كان من ذلك من توجه إلى معاني الخليقة، فذلك عن رحمة الرحمانية، وما كان منها من توجه إلى معاني الديانة ومعاني العناية من أجلها، فذلك من رحمة الولاية، ولأنها نازلة من العرش العلي إلى الأرض تناولها مقتضى الرحمانية، فكانت واصلة إلينا بتوسطها، وهاتان واصلتان إلينا بتوسط الرحمة العليا هما رحمتان من المائة رحمة المخلوقة، أمسك منها مما أرسل وأرسل مما أمسك، قال الله ﷻ: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:٢]، وتمام الخطاب أن يقدر ههنا: إلا هو مما مسك، فلا مرسل له من بعده سواه، وما قام مقام هذا سبحانه

---

(١) سبق تخريجه.

وله الحمد حكم كل شيء إمساكا وإرسالا.

وعلى وصفه وما تكون وجودا له، فما كان من خطاب يتضمن رحمة دنياوية فهي عن صفة الرحمانية بواسطة رحمة الولاية، وما كان من خطاب يتضمن رحمة دينية بمعنى الهداية والإكرام والإحسان، فذلك بخاصة رحمة الولاية بواسطة الرحمة الرحمانية، كقوله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وكقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] المعنى إلى آخره، ومتى عريت رحمة الرحمانية من رحمة الولاية غلب على ذلك معنى الاستدراج المكرر نحوه بمن أتيح ذلك له، نعوذ بالله من عقوباته، ومتى عريت رحمة الولاية من معنى رحمة الرحمانية غلب على ذلك اسم الابتلاء والاختبار منه لمن أراد به ذلك، ولذلك ما قرن ﷻ بينهما في أم الكتاب، وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة]، ليجمع لعباده المؤمنين خير الدنيا والآخرة.

وكان رسول الله ﷺ يقول في بعض دعائه: «**اللهم كاشف الكرب فارج الغم، مجيب دعوات المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمني فارحمني رحمة من عندك تغنيني بها عن رحمة من سواك**»[١]، وذكر أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يعلمه أصحابه، ويقول: لو كان على أحدكم جبل ذهب دينا قضاه الله عنه[٢].

التعبد

التعبد باسم الرحيم ﷻ سبيله سبيل التعبد باسم الرحمن، وهنا من الزيادة طلب تمام النعمة بولايته ﷻ، وهي الدرجة العليا والكفاية القصوى، قال الله ﷻ: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ⑦٥﴾ [الأنبياء]، وأدخلناه في رحمتنا ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ④٩﴾ [القلم]، فاسأله - وفقك الله - تمام النعمة بها؛ فإنه لا يتعاظمه مسؤول وإن جل، قال رسول الله ﷺ: «**إذا سأل الله أحدكم فليجزل الرغبة وليعزم في المسألة، فإنه لا مكره له**»[٣]، منحنا الله وإياكم ولايته، وجعلنا من

(١) رواه البزار كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها وقال الهيثمي: فيه الحكم ابن عبد الله الأيلي وهو متروك.

(٢) رواه البزار كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها وقال الهيثمي: فيه الحكم ابن عبد الله الأيلي، وهو متروك.

(٣) الحديث رواه البخاري في الدعوات (٦٣٣٨)، وفي التوحيد (٧٤٦٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٨) من حديث أنس رضي الله عنه، ورواه البخاري (٦٣٣٩، ٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩)

عباده المتقين إنه ولي ذلك لا شريك له.

اسمه الرؤوف عز وجل وتعالى علاؤه وشأنه

يقال من ذلك: رأف رأفة على مثال فعل فعلة، ورأف يرأف على وزن فعل يفعل، رأفة على وزن فعلة، ورأفة على وزن فعلة، وهو الرؤوف على وزن فعول، ورءوف على وزن فُعُل، والرأفة حقيقة الرحمة وصريح العطف، والله ﷻ رؤوف بعباده بمعنى رحيم بهم عطوف عليهم، قالوا: ورحمة الله بعباده ورأفته بهم وعطفه عليهم إرادته ذلك بهم، وكذلك الحنان والإحنان قالوا: وكذلك الغضب والرضا والسخط، وما جرى مجرى هذه الصفات التي معهودها التغيير للموصوف بها معنى جميعها من الله إرادته بها، فمتى أراد بعبد رحمة أنعم عليه بها، ومتى أراد بعبد سوءا ألحقه به، ويعبر عن ذلك بالغضب والرضا والحنان والرحمة والسخط كل على مقتضاه.

هذا عقد سلفنا ـ رحمة الله عليهم ـ ومذهبهم فيما هذا سبيله، وإنما سلكوا بها هذه السبيل لما في ذلك من إيهام التغيير والحيلولة والميل، وما لا ينبغي وصفه به سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، وكذلك فرحه بتوبة التائب، الذي عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «الله أفرح بتوبة أحدكم...»[(١)].

وصفات الله ـ تبارك وتعالى ـ جلت عن التغاير، وتعالت عن التغير والتغالب، وتقدست عن التخالف هو السلام المؤمن، بل فصل الخطاب ـ إن شاء الله تعالى ـ فيما هذا سبيله إنه الرؤوف الرحيم الحنان، له سخط ورضا وفرح وعجب وعطف كل على مقتضاه، والمفهوم منه على مثل المعهود من التغير هو المقدس عن مشابهة البشر، المنزه عن نقائص الحدث، أسماؤه هي الحسنى وصفاته هي العلا، له تحقيق الحق منها ولسواه بعض مجازها ملازم لها الضعف، فلذلك تتغالب وتتعين؛ إذ موجودها النقص، وجلت أسماء الله ﷻ عن القول بالمجاز والاستعارة فيها، وتعالت عن التغاير والتخالف من حيث هو، بل هو الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات صمد سلام، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، نزيه عليٌّ من كل وجه وبكل معنى، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس].

فتثبت ـ وفقك الله ـ فإنه من وصفه بما يوصف به المخلوق فقد شبهه، ومن لم يصفه =

---

(١) سبق تخريجه.

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بما وصف به نفسه فقد جهله، ومن أراد أو قصر عن الحق فقد ألحد في أسمائه، وما قدره حق قدره، ولكنه ﷻ ربما نزل بوصف من أوصاف أفعاله أو صفاته إلى الاتصاف بصفات ما أوجده من أنواع رحمته، فيعبر عنه ذلك بإمضاء مشيئته عند مواقع نعمه أو نعيمه تقريبا للأفهام، كقوله جل قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام:١٢٥]، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [يونس:٦٧]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ [الروم:٤٦] هكذا، فأما سبيل الفهم عنه ومعرفة أسمائه وصفاته فليس إلا ما تقدم ذكره.

ومعهود وجود الرأفة عن الحامل لها الموجودة بالمرؤوف به: أن يكون المرؤوف به من الضعف عما حمل، بحيث ترق الرحمة منه له فتعود إشفاقا فيريد تخليصه مما هو فيه، فتلك هي الرأفة وليست من الله ﷻ بضعف ولا رأفة، لكن المرؤوف به إذا تخلصت هذه الأحوال له من الضعف عن حمل عبء ما حمله، أو كان محبوبا فوقع في أمر استوجب به ما استوجبه البعداء والبغضاء، كقوله ﷿: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[النور:١٩]، إلى قوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾ [النور]، حذف من الكلام ذكر التوحيد الذي استوجبوه بإرادتهم إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، تقديره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الحجرات:١٤]، لكان كذا وكذا، فخزله من الخطاب توقيرا لعباده لموضع إيمانهم ومكان سابقتهم، وجعل المانع من وقوع وعيده بهم فضله عليهم ورحمته بهم، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[التوبة:١١٧].

وقال جل قوله يصف نبيه محمدا ﷺ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ فهذا خطاب منه لأهل الإعراض، ثم قال جل قوله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾[التوبة]، فاستاقت اسم الرأفة: الرحمة بالمؤمنين بعد سياقه معنى الإشفاق على الكفار، والتحزن عليهم من أجل تأخرهم وإعراضهم والحرص عليهم بالهدى، كذلك قوله جل قوله عن الأنعام: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: ٥-٧] ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾، فساق اسمي الرأفة

والرحمة إثر ذكره هذه المنة اللطيفة والبر الخفي، الذي عبر عنه باستنقاذه إياهم من شق الأنفس، وكيف تحبب إليهم ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ فاستاقت معاني الرأفة والرحمة والتحبب والإنعام، وكما أنعم على عباده المؤمنين بها من حمل أعبائهم عليها، وركوبهم إياها في بعد أسفارهم عليها، وكونها لهم جمالا لهم يتجملون بها ويتزينون بملكهم لها.

كذلك في الآخرة يحملهم على ما يخلقه لهم من موجود طاعاتهم، وعملهم بمرضاته، وتخلصهم من مكروهات ما هناك من بعد مسافة الحشر، وينجيهم بها من لهب جهنم على الصراط تطير بهم في الهواء، ولعظيم أهوال ما هنالك، وكريم منال ما بها بقوله جل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾[النحل]، كذلك قوله جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، ثم أعقب ذلك بقوله جل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج].

فانظر - هداك الله - إلى ذكر الرأفة والرحمة بعد ذكره جمل إنعامه وأنواع رحمته وبره بالجميع وعذره إياهم، وأنه لو أطبق السماء على الأرض من كان ينصرهم منه؟ وإلى أين يكون فرارهم؟ فحلم عنهم لضعفهم، واتصف بالرأفة والرحمة وبأنه ربهم.

والمعهود في خطابه الكريم: أن السماء لا تستأذن أن تقع على الأرض، والأرض أن تنخسف بهم إلا عند عصيان العباد، كقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[النحل] إلى قوله جل قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، قالوا: على تنقص العدة للقائه، ثم عقب ذلك كله بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل]؛ لأجل استنقاذه إياهم ومعافاته لهم من عظيم ما استحقوه من ذلك، وكل لك جميع ما يأتي منه في الكتاب والوجود معذرة؛ لضعفهم عما استوجبوه من عقاب، أو عما لا يستطيعون تجشمه فيعفو أو يحسن؛ فيسمى ذلك الفعل من الفاعل رأفة، فإن كان الفاعل بشريا، فإنه تجد رقة على المرؤوف عليه وشفقة، وإن كان الفاعل الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه سمي ذلك الفعل: رأفة؛ لوجود ما تقدم ذكره من الشواهد في المرؤوف به، ولا يعلم ما الله إلا الله، غير أنا نعلم ما علمنا أن ذلك عن حب ما، وأن ذلك كمال كالمعهود من نعوت تعاليه ليس بتغير ولا حيلولة، كالمعهود من نعوت المخلوقين، وكل وصف يوجب لنا كمالا ما فهو الكمال التام له، وكل وصف يوجب لنا تغيرا ويوجد فيها من أجله حيلولة فهو يوجب له كمالا وجلالا، وتعالى علم

ذلك من علمه وجهله من جهله، عبرت عن ذلك آيته وأعربت به بيناته، غير أن ذلك منها يرمون بإشارات خفية، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، كيف لا وهو خالقهم؟ مما قد علمه وقد قدر عليهم ما هم به عاملون، وما هم إليه صائرون، وأنه لابد لهم أن يصيبهم من الكتاب؛ فلذلك ما عذرهم.

وفي بعض الأخبار: ما من عامل عمل بمعصية الله إلا استأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه، وموضعه من الأرض أن يخسف به، ومصداق هذا من الكتاب العزيز قوله جل قوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾ [النحل:٤٥] إلى آخر المعنى، قال: فيقول الله جل وعز: «مهلا عبداي فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتماه لرحمتماه»، ومصداق هذا من الكتاب قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾[النجم:٣٢]، وقال رسول الله ﷺ: «أذنب عبد ذنبا فرفع طرفه إلى السماء، فقال: يا رب، أذنبت ذنب كذا فاغفره لي، فقال الله ﷻ لملائكته: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني غفرت له» ثم عاد فقال: «رب أذنبت ذنبا فاغفره لي، فقال الله لملائكته: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت له» ثم عاد فقال: رب أذنبت ذنبا فاغفره لي، فقال الله لملائكته علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت له»، في الثالثة أو الرابعة يقول الله ﷻ: «علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، عبدي اعمل ما شئت قد غفرت لك»[1].

وقد جاء في بعض الروايات من الزيادة على هذا، قال فيقول الله ﷻ: «يا ويحه يا ويحه، لا هو يترك الذنب ولا هو يتركني من الاستعتاب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»[2]، فبرأفته ورحمته جعله أوابا إليه متوجعا من ذنوبه، وبرأفته ورحمته أوجع قلبه بها، وأحزن نفسه على إتيانها، مع علمه بها قد كتب في اللوح المحفوظ، عليه أن يأتيه ولا بد له منه ولا محيد، مع علمه بضعفه، ومم خلقه، وما يقاسي فيه، وينازعه عن طاعة ربه، ويخالف به إلى ما يكرهه في معاملته، فاكتفى ﷻ بعلم عبده أنه رب واحد، لا يخاف معه غيره، ولا يرجو سواه.

فالعبد بين هذه النوازع موضع للرقة، وأن يشفق لحالته ويرحم من أجلها يفهم أولي

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٥٠٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لم أقف على هذا اللفظ.

الألباب وما اتصف به، وتسمى من ليس كمثله شيء، ولا كصفته صفة ولا كفعله فعل، عند هذه الكائنات ما هو أحق حقيقة وأكرم وجودا من مفهوم الرقة والإشفاق والتوجع، وميل الطباع من المخلوقين أولى النقص والضعف عند امتثالها، التي تنوبهم بعضهم من بعض، وأنه المنزه عن مشاكلة البشر؛ ولذلك شهد ﷻ لنفسه وشهد له كل شيء حقيقة، وعما يدرك المحدثين عندها، سبح نفسه وسبحه كل شيء عن معاني الخليقة، وأنه وإن كانت حقيقة الرحمة والرأفة فينا رقة وإشفاقا وتعطفا، من أجل ضعف المرؤوف به عن تحمل عبء، ما حمله مع حب وود موجود في نفس الراحم له.

فافهم - وفقك الله - ذلك كله، واعتقد الرحمة والرأفة، واقطع يقينا أنه الحق وله حقائق الوجود الأعلى، وأن له من صفات الرأفة صفات يقابل الرأفة والإشفاق والميل والتعطف علوا، هي أحق في حقيقة الرأفة وأعلى وجودا في الرحمة، وأكرم له تسمى لنا، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾[البقرة:٢٥٥].

التعبد

أي أخي: اعلم يقينا أنه لا يوجب لك رأفته ورحمته على الكمال إلا بالعلم به والتطهر له والتطيب والعمل بمحابه، وعلى قدر ارتقائك في التعبد بمقتضى أسمائه على سبيل سنة رسوله ﷺ يكون قربك منه، وعلى قدر قربك منه تكون عنايته بك وعطفه وإلطافه ورحمته، ولرأفته ورحمته لا يعذب إلا من أبى عليه وشرد، ومن رحمته ورأفته بعباده أن يذودهم عن مراتع الهلكات، ويمنعهم موارد الشهوات؛ فمتى أصابهم نصيبهم من كتاب سبق أقال عثراتهم ونبههم من سنة غمزاتهم، وربما رأف بعباده ورحمهم بما يكون في الظاهر بلاء وشدة، وهو في الحقيقة رأفة بهم ورحمة لهم، ذلك مما تقدم ذكره أنه يقبض من حيث يبسط ويبسط من حيث يقبض، فكم من عبد ترحمه الخلق مما به من الفاقة والشدائد والضراء بغاية الرحمة، تغبطه الملائكة في حالته تلك، وأبناء جنسه عن ذلك في غفلة، وفقنا الله وإياك لما يرضيه بمنه ورحمته.

اسمه المغيث جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: أغاث إغاثة وغياثا وغوثا فهو مغيث، والمفعول: مغاث، وغوث الرجل إذا صاح: واغوثاه، وإغاثة الله: فرج عنه، قد تقدم الكلام على معناه في رسم اسم المجيب ﷻ بما يغني عن التطويل، والفرق بين المستغيث والداعي أن المستغيث ينادي الغوث، والداعي ينادي بالمدعو أو بالمغيث.

اسمه الكافي تبارك وتعالى

يقال منه: كفى يكفي كفاية وكفاه فهو كاف، والكفاية هي القيام بالأمر كله، منه

قولهم: هذا رجل كافيك من رجل، أي: كفاك به رجلا، قال الله ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾[النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء]، وهو إلى سبيل الدفاع أقرب، قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[الزمر:٣٦]، وقيل لكفة الميزان: كفة؛ لأنها كفت ما جعل في الكفة الأخرى، ويقال فيما يقاربه: كففت الرجل عن الأمر دفعته، وكففت يدي عن الشيء قبضتها عنه، هذا كله من الكفاية، وقيل للذاهب البصر: مكفوف لذلك بمعنى ممنوع البصر.

الاعتبار

ما كان في هذا من قبيل الدفع والمنع، فقد تقدم الكلام في ذلك في رسم اسم الحفيظ، وما كان منه من قبيل القيام بالأمر فسيأتي في رسم اسم الوكيل إن شاء الله وهو المستعان، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اسمه الواقي تبارك اسمه وتعالى جده

يقال منه: وقى يقي وقاية فهو واق، والوقاية والوقاء: هو كل ما منع من شيء وصانه من مكروه، من ذلك قالوا لسرج الدابة إذا لم يكن معقرا: واق، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١﴾[غافر] أي: مانع، قالوا: ومن ذلك التقوى هي من وقيت فأبدلت الواو تاء، وكذلك التقاة والتقية والتقى جمع تقاة، قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[1] أي: امتنعوا منها، واجعلوا بينكم وبين ما يحجبكم منها ويصونكم عنها.

وقال عون بن عبد الله رحمه الله لأصحابه لما ظهرت الفتنة: اتقوها - أي: امتنعوا من محذورها - بطاعة الله، وقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[آل عمران:١٢] أي: اتقوا غضبه وسخطه وعقابه بالإيمان به، والعمل بطاعة الله، واتباع مرضاته؛ فذلك أحصن الجنن وأمنع الوقايات، وقال الله ﷻ: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر]، أي: كفاهم، وقد يكون هنا بمعنى وقى، أي: وقاهم بجنات النعيم عذاب الجحيم، وللتقوى وجهان: وجه شكر ووجه صبر، فوقاهم في الدنيا بأعمالهم الصالحة الأعمال السيئة، ووقاهم في الآخرة النار بالجنة، كما وقاهم في بدء الأمر بكونهم في قبضته اليمين أن يكونوا في القبضة الأخرى، وكلتا يدي الرحمن يمين مباركة، سبحانه وله الحمد، إن

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤١٣، ١٤١٧)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه وقد سبق.

هي إلا رحمته يصيب بها من يشاء، ويعدل بها عمن يشاء.

والتقوى عمل بطاعة الله على نور من الله يرجو به عامله ثواب الله، والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله خوف عقابه.

اسمه النصير ﷻ

يقال منه: نصر ينصر نصرا فهو ناصر ونصير مبالغة، والنصر فعل المغيث بالمستغيث والمجيب بطالب الإجابة، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ...﴾ [الأنفال:٩]، وقال الشاعر:

وأغث ما قام بي رمق يا غياث المستغيث به

والنصر فعل الكافي في كفايته، والنصر من فعل الولي بوليه، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[الشورى:٤٦]، ومثله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال]، غير أن النصر خاصته في الأغلب على الأكفاء أو ما يكون فوق الأكفاء، وفيما يحتاج فيه إلى الاستعداد والمناجزة والمحاربة بالمجاهدة والمرابطة والمصابرة.

وأما الغيث والغوث فعند الشدائد والكفاية عند المحاذير والمكروهات، والوقاية من ذلك والتيسير مع التعسير والنجاة عند الهلكات، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «اعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن اليسر مع العسر»(١)، قال الله جل قوله: ﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[الأنفال] أي: معهم بالنصر، والنصر هو نصر الحق على الباطل، وقد يسمى بذلك نصر الوجود على العدم مجازا واتساعا، قال ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: الذي هو كلمه ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾، الذي هو العدم قبل الكون ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾[الأنبياء:١٨]، فإذا هو زاهق بالوجود، وعبر عن ذلك أيضا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس]، وإن كان للباطل دول على الحق، وللعدم على الوجود؛ لحكمة له في ذلك أوجدها عن أسماء له غير هذه، والنصر هو المراد وإليه تصير العاقبة، أعني: إلى دوام الحق وبقاء الوجود؛ ولذلك كانت العاقبة للتقوى والمتقين.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠٧)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الشيخ شاكر على المسند.

اسمه الحسيب جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

قد يكون الحسيب الشريف، وقوم حسباء، أي: أشراف، وأصل هذا البناء موجود عن الحساب، أي: أن الشريف يحسب لنفسه في الشرف إباء عدة، وليس من هذه الجهة يعرف اسمه الحسيب الحق جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه، والحسب أيضا: مقدار الشيء، فالحسيب إذا على هذا العالم بمقادير الأشياء كلها القادر على إيجادها، ويقال: حسبت الشيء أحسبه وأحسبه ظننته، وهذا في صفات الله جل جلاله علم وفي صفاتنا ظن، ويكون الحسيب بمعنىٰ الكافي فيكون مقتضاه الكفاية يقال من ذلك، أحسبني الشيءكفاني، وحسبك ذلك أي: هو كافيك، فالله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه ذو الكفاية الكافية.

وقد يكون بمعنى الحساب بوجه، يقال من ذلك: الحسبان بمعنى احتساب الأجر، قال الله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾[النساء]، فمعنى كفاية لم أحتسب عليه عمله حسيبا لعلمه بمقادير الحسنات والسيئات ومواقع الأعمال وأعدادها، قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾ [الأنبياء]، ويقال منه: حسبت الشيء على وزن فعلت، حسابا وحسابة، حسبة، وحسبانا واحتسبته أيضا بمعنى: حسبته، ومنه قول الله ﷻ يخاطب الأوصياء في أيتامهم: ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾[النساء] أي: محاسبا، فإذا كان بمعنى الكافي فهو فعيل بمعنى مفعل، كأليم بمعنى مؤلم، ونصير بمعنى منصر، وكريم بمعنى مكرم؛ وإذا كان بمعنى المحاسب فهو فعيل بمعنى مفاعل، كنديم ومنادم، وشريب ومشارب، ووكيل ومواكل.

اسمه المقيت سبحانه وله الحمد

يقال من ذلك: أقاته وقاته، أيضا يقوته قوتا فهو مقيت إذا أعطاه قوته، قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»، ويروى: «من يقيت»[1].

والقوت: المسكة من الرزق، وقد قات الشيء قوتا، والمقيت أيضا الحافظ، وقيل: إنه بمعنى المقتدر.

الاعتبار

إذا كان بمعنى القوت الذي هو قوام العيش ومسكة الجسد، فقد تقدم اسمه في

---

(1) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٩٢)، وأحمد (٢/ ١٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وصححه الشيخ شاكر على المسند، ورواه مسلم في الزكاة (٩٩٦) بنحوه.

رسم اسم الرزاق، غير أن خاصة هذا في إعطاء القوام من القوت.

وخاصة الرزق في إعطاء الرزق قليلا كان أو كثيرا، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو ﷻ يقوت الأجسام بالطعام والشراب، ويقوت الأرواح بالعقول، ويقوت النفوس بحسن الوفاق في العادات، ويقوت القلوب بتحقيق المعرفة وفتوحات العلوم، قال الله جل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وقد يقوت الأرواح بإدامة المشاهدة ولذيذ المؤانسة، قال الله عز قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس:٩]، وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ بقوله: «**إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[(١)]، وقد قيل في مثل هذا:

فقوت الروح أرواح المعاني ... وليس بأن طعمت وأن شربتا

وإذا كان بمعنى الحافظ، فقد تقدم ذكره في بابه بما يكون طريقا للمتأمل إن شاء الله تعالى، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اسمه الكفيل تبارك وتعالى

يقال منه: كفل يكفل كفالة وهو الكافل، والكفيل مبالغة، الكفالة تكون بوجه الضمان، وفي الحديث: «**إن رجلا من بني إسرائيل استلف من رجل ألف دينار إلى أجل معلوم، فقال له المسلف: ائتني بشهيد، فقال المستلف: كفى بالله شهيدا**»[(٢)].

والكفيل أيضا الذي يعول: قال الله ﷻ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[آل عمران:٣٧]، والعائل قد يكون الفقير، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾[النساء]، وقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[التوبة:٢٨]، ومنه قولهم: إنه لذو عيلة، أي: ذو فقر، وقال الشاعر:

ما احتيال الفتى إذا لم تدله ... دولة الدهر بل عليه تدول

كلما رام نهضة أقعدتـــــه ... عائلات من الزمان تعـول

وقيل من ذلك: علت العيال أعولهم إذا سددت مفاقرهم، وعالجت أمرهم وعلت عيلتهم، والكفل: الضعف، والكفل: النصيب والحظ، وإذا اشتد الكفيل على نفسه بالضمان فهو زعيم، فالله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه يعول جميع الخليقة ويكفلها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الحديث رواه البخاري في الكفالة (٢٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بكل وجه، ومعنى، يرزقهم ويحفظهم وتقويته لهم، ووقايته وغياثه وتكفله وتعليمهم وهدايتهم وغير ذلك من ألطافه وحفايته، تكفل ﷻ لهم بذلك كله وضمنه لهم، وهو الصادق في قيله الوفي بعهده، الأمين في ضمانه، القوي في أمانته، الحفيظ في كفالته، فتطلب ذلك في أبوابه، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾[هود:١٢٣].

اسمه الوكيل عز جلاله

يقال منه: وكلت بالله، وتوكلت على الله، ووكلت الأمر إلى الله، ويقال: رجل وكلة وكل مواكلٍ يتكل على أصحابه، والوكال في الدابة: أن تحب التأخر خلف الدواب، فالوكيل إذا الذي وكل إليه الأمور كلها، وهو فعيل بمعنى مفعول، مثل قتيل ومقتول.

الاعتبار

معاني اسم الوكالة كلها كالكفالة والوقاية والغياث والنصرة والرزق والإقاتة والحفظ، ومعاني التدبير التي يقتضيها اسم الوكيل موجودة في العالم، مبثوثة في معاني الخليقة، كغيرها من صفات الحق التي أوجد الله ﷻ عليها العالم، قال الله ﷻ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[الزمر:٣٦]، وقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾[الزمر:٣٧]، وإنما يكون التقرير على معلوم معهود؛ لقول القائل: ألم أعطك؟ ألم أهبك؟ ألم أنصرك؟

والمتوكل لثبات يقينه وصحة توحيده لا يخاف إلا الله ﷻ ولا يرجو سواه، قال الله ﷻ: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر].

فوصفهم - جل وعز - بعدم الفقه لما خافوا من سوى الله، والمؤمنون كلهم قد أخذوا من التوكل بقدر ما حصل لهم من حقيقة الشهادة، غير أن الشهادة التي هي شهادة اللسان قد تكون مع الغفلة؛ فاللسان يشهد والقلب غير مكذب لكنه غير مشاهد ولا خاطر، والشهادة الحق هي المصاحبة للعلم والمشاهدة، مع سر يعتمد الله به قلب هذا العبد، به يتم مراد الله منه لا غير ذلك، مرة يعبر عنه بأنه روح، قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ فأخبر أنه أثبت الإيمان في بواطنهم، ثم قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة:٢٢]، ومرة يعبر عنه بأنه البصير، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾[الأنبياء:٥١]، وعلم رسول الله ﷺ رجلا دعاه، فقال: «قل رب أرني رشدي، وقني شر نفسي»، وفي أخرى: «رب اهدني لأرشد أمري وقني نفسي»[1].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٤٤)، والحاكم (١/ ٥١٠)، وابن حبان (٢٤٣١ - موارد) من حديث عمران ابن حصين رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨٨): رجاله رجال الصحيح.

وبالجملة فإنما العلم والمشاهدة واليقين صفات العبد، وصفاته لن تغني عنه شيئا من الله، وإنما ينفع بالصفات بارئ الصفات، لكنا نتكلم فيه من حيث إنه موجود، سبله معلومة لمن نظر إليها مسالكه، قد تثبت بحمد الله حصول العقد بأن جميع الخليقة في قبضة الخالق الحق ﷻ، جارية على حكم تسخيره مصروفة في تدبيره على سنن قبضه وبسطه، إن شاء أخلق ما شاء من ذلك وإن شاء أوثقه ومنعه، لا ريب في ذلك هذا أصل العقد، ثم تقع الغفلة المتقدمة الذكر وبحديث النسيان إن شاء الله لحقيقة هذا العقد بمباشرة الأسباب القريبة من الرجاء والخوف، والواردة عن الأواسط والأغيار فيهن ذلك العقد، ويضعف جدا ما لم يكن له من الله حارسا حتى أنه - أعني الضعف - اتصل فصار حالا للأكثرين إلا من عصمه الله وأيده بروح منه فحقق الله ﷻ ذلك العقد في كتابه وزمه وحدد العهدية، وأكده بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦]، ويقول وقد ذكر نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين بالملائكة عليهم السلام: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾[آل عمران] و﴿بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[آل عمران:١٢٤]، فكان ذلك النصر الموجود يومئذ ثم قال جل قوله:﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران:١٢٥]، أي: ليس من غير ملك ولا بكثرة ولا بقلة، ولا بنفس سبب من الأسباب قريب ولا بعيد سوى الله العزيز الحكيم، قال: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾[الزمر:٣٨].

فلما تبين من ذلك للعقول بالتنزيل المبين، قال لنبيه عليه السلام وهو أمر متوجه على من سواه من المؤمنين: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾[الزمر:٣٨]، عليه يتوكل المؤمنون، فآية حراسته المتوكل عليه، ومفوض الأمر كله إليه زائدا على حراسته وكفالته، على العموم للذين هما لأجل الخلقة والتدبير، قال الله ﷻ: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الأحزاب] المعنى، وقال: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[الحشر:١٣]، وقال: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾[المنافقون:٤].

أرأيت لو أنهم أسلموا وآمنوا بالله ورسوله، وأخلصوا دينهم لله أليس كانوا يكونون مع المؤمنين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، فكانت تزول عنهم تلك الرهبة والخوف،

والذين جعل الله ﷻ في صدورهم للمؤمنين، وظاهر ذلك أن يحرم على المؤمنين الخوف؛ إذ أتيهم دقيق ذلك وجليله إلا بحق الإيمان، فإذا الإيمان، فإذا انتهوا أيضا عن المناهي، وصعدوا في الإسلام والإيمان وتحققوا بحقائقها، لم يكن لحكام المسلمين ولا لجماعة المؤمنين عليهم سبيل، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[التوبة:٩١]، ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الشورى:٤٢].

ثم إلى هذا تبقى عليهم أذية أعدائهم من شياطين الإنس والجن والبهائم، والظالمين الذين لم يتحقق التزامهم لشروط الشرع، فمن المعهود في سبيل النشء أنه من تحقق في الورع والانقطاع إلى الله ﷻ بالعبودية المحضة بالتفويض إليه والتوكل عليه، مع التزام آداب الإسلام الأعلى، والإيمان المصون الأرفع: أن يحرم على كلابه وجنوده وبهائمه وجميع المؤذيات من خلقه أذيته تحريما بأمر كون، كما حرم على المؤمنين قبل أذية المسلم المبتدئ بأمر الشرع، فإن أمر الشرع عن أمر الكون انفصاله وبه في الحقيقة اتصاله، كيف لا وقد حكم على من لم يؤمن بهذا بالضلال، وبالهداية على من كانت هذه منزلة إيمانه بقوله عقيب ذلك: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾[الرعد]، أي: عن عقده الأول أنه لا نافع ولا ضار سوى الله، ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾[الزمر:٣٧]، أي: إلى عقده اللازم له بأصل الفطرة، والمتلقي بأول حقوق التوحيد ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾[الزمر]، فانتقامه الأكبر ممن ضل عن شهادة التوحيد، ثم كذب بها وشرد عن الله جل ذكره.

وكفايته العليا ونصره الأتم لأهل التحقيق في التوحيد، والتوكل وما بين ذلك؛ فهم درجات عند الله ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾[آل عمران] بما يعملون.

وللتوكل خمسة شروط باجتماعها يحصل التوكل، في أي الطبقات كان هذا المتوكل غنيا أو فقيرا كان متسببا أو منقبضا عن الأسباب خارجا عنها، وهي: الزهد، والتوحيد، والتسليم لله ﷻ، وطاعة الله في السر والعلانية، والرضا عنه.

والعلم الذي يشهد للمتوكل على الله ﷻ كتمان الحاجة، وإظهار الغنى للناس عن الفقر، والمسكنة وإن مسه الضر في نفسه، ويذكر الله في كل جميل ويشكره ويثني عليه، ومن توكل على الله كفاه ووقاه، وكان له ما يصلحه من حيث لا يحتسب، والتوكل درجات تنحصر إلى درجتين: توكل المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وتوكل الصحابة رضي الله عنهم، وهو التوكل بجريان الأسباب، والأسباب سنة الله في خليقته،

والوجه الآخر: التوكل بقطع الأسباب؛ هو التوكل بتحقيق الكلمة، وهذا في الممكن أن يوصل الله إليه بعض المتوكلين، والوجود يعطي هذا، ومسالك الحق في العالم تحققه، فإنه يقال: إن أحدهم يتبوأ في الدنيا فيما هذا سبيله أول درجة في الجنة، والداخل في الأسباب بالسنة الخارج عنها بالنية أفضل، دل على هذا اتفاقهم على أن العالم الزاهد الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم.

وهذه مقامات المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - والأخرى من مقامات النبيين غير المرسلين، وإن كانت تكشف لأولئك أمور غائبة، ويطلعون على ما خفي عن الناس، ولكن هؤلاء في مقامهم أفضل لجمعهم سبيل السنة إلى الكلمة، وهو أيضا - أعني: سبيل التوكل - مع الدخول في الأسباب، كالأولياء مع الملائكة عليهم السلام.

ومن التوكل فرض لازم ومنه فضل قائم، والمفروض منه هو الدرجة الأولى، وهي: معرفتك أن فعل الله لا يفعله غير الله، وأن كل شيء بيده وفي تدبيره، توحد بذلك لم يشرك في حكمه أحدا هذا في العقد، وأما في الفعل فتحقيق ما عقد عليه قلبه يفعله.

وأما فضائله والارتقاء في تحقيق درجاته، كترك الأماني وحديث النفس بشيء لم يكن: لِمَ لَمْ يكن، ولا في شيء كان: لم كان، ومفارقة معاني لولا وهلا، قال الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[النساء:٦٥]، يعني: الإيمان الأعلى، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

واعلم أن التوكل من أعمال الإسلام، دل على ذلك ما تلوناه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، وقوله حاكيا عن رسوله موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[يونس]، والرضا من أعمال الإيمان؛ ولذلك قالوا: لا يصعد إلى الله ﷻ أفضل من الرضا، وأهل الرضا هم حزب الله، قال الله ﷻ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾[المجادلة:٢٢]، وإنما يخففوا في غلبة هذه الدرجة للسر الذي اعتمدهم به، وهو روحه الذي أيدهم به وبالرضا يوجد المذاق، قال رسول الله ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا»**(١).

كما بالتوكل تكون الكفاية وتوابعها، كما بالتذكر الموجود مع التقوى يكون الصبر

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[الأعراف:٢٨]، كما بالإيمان تكون الهداية، وهو باب إلى كل خير بعده ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾[يونس:٩]، ونحوه كثير، كما بالحياة يكون السمع، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:٥٢]، لتنذر من كان حيا، والحياة أصل لكل صفة موجودة، والحياة لا تكون إلا بالروح، فإذا أيدت الحياة الروح رضي بالله ورضي الله عنه، ووجد طعم الإيمان ومذاقه بالمناجاة والأنس والروح وطيب عرف القرب.

وقد يلحق أهل الحق بالتوكل وجها ليس به هو منهي عنه حرام امتثاله أن يترك العمل للآخرة، ويتكل على ما سبق به التقدير وجف به القلم وفرغ منه.

واعتقاد التوكل على ذلك ورومه بهذا الوجه جهل بما قد سبق وجف به القلم؛ لأنه ما جفت الأقلام وما اختتم به الكتاب إلا بالأعمال، كما اختتم بالحظوظ والمنازل، ولو أن امرأ ترك العمل للدنيا، ثم لم يعمل للآخرة اتكالا على ما سبق له فيهما؛ لاستحق اسم العجز لتركه التسبب لدنياه، وكان خاسرا مع الخاسرين؛ لتركه العمل لآخرته، ولو أنه ترك العمل لدنياه وتفرغ لأخراه لاستحق اسم الكيس؛ إذ الذي يناله من دنياه، مع ترك العمل لها يقوته ويكفيه، والذي يناله في الآخرة معترك العمل لما يريده، وهذا مما انختم به الكتاب وجفت به الأقلام.

ولما كان التوكل مركبا من خمسة معان كان التفويض في جنبة الرضا، فقيل للمفوض: متوكلا لتفويضه، وهو أرفع التوكل وأتمه، وكان التصديق للتوحيد، فقيل للمصدق بوعد الله الواثق بضمانه: متوكلا لتوحيده، قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود:١٢٣]، فلما أثبت الوحدانية أمره أن يعبده على ذلك، ويتوكل عليه بصدق الوعد والثقة بالضمان ثواب إخلاص العبادة له.

وكانت الكفاية للتسليم، فمن سلم أمره كله إلى الله ﷻ كفاه الله، ولما في التسليم مقارنة التفويض أن التفويض يكون عن حقيقة الرضا مترددة من الدنيا والآخرة، وأنه إن لم تكن الكفاية موفرة له في الدنيا، فإنها له خالصة في الآخرة - إن شاء الله ﷻ - وعن هذه الدرجة رأيت الإقدام ممن قل تحصيله، من حيث ظنوا أن ضمان الكفاية معجل له في الدنيا؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي: كافيه، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[الطلاق:٣].

فأعلمك أنه لابد أن ينال المتوكل وغير المتوكل ما سبق له في التقدير، لكنه ربما -

وهو الأغلب جعل المتوكل مقارنا للعاقبة، فكانت لأجل ذلك الكفاية ظاهرة بادية أو بعضها، وكانت الرغبة في الآخرة عن الزهد في الدنيا من حيث إن الدنيا والآخرة شيء واحد له طرفان، وقد أمر بالعمل بطاعة الله ﷻ، وثبت عنده أنه لم يخلق عبثا، واستعمل من أجل ذلك نفسه فيما يبقى له، وزهد فيما يغني عنه ويفارقه.

فالتوكل أصله التوحيد والتصديق بضمان الله ﷻ الموعود، وضمان الله وعده لم يأت إلا للعاملين بطاعته، فإذا الأعمال اليوم في الدنيا كمثال منازل الآخرة وثوابها، كالتقدير الأول للجملة يوم قدر الكائنات والمجازاة عليها، فمن لم يعمل اليوم لم يكن له هناك حظ ينتظره، وكل امرئ ميسر لما خلق له، ومن قولهم: ستساق إلى ما أنت لاق، فالجبن والإقدام والكيس والعز والربح والخسران مقدر مسوق إليه من قدر له وعليه، والتوكل اليوم فيما سبيله العمل للآخرة على ما قد سبق جهل بما قد سبق.

التعبد

ومن عرف الله ﷻ وكل إليه أموره وفوض إليه جميع شأنه، بل إنما توكل العباد على ربهم على قدر معرفتهم به، وتيسيرهم للتوكل عليه على قدر طاعتهم له، على قدر معرفتهم تكون ثقتهم بضمانه ورضاهم بكفالته، ثم بقدر ذلك تكون تهمتهم لأنفسهم وتركهم للتدبير، وعلى قدر ذلك يجدون روح الكفاية، وتسريح أنفسهم من أذى النصب وأبدانهم من كلال التعب؛ فيتفرغون عند ذلك لخدمة معبودهم المتجلي لهم في أنوار المعرفة، ويسارعون في شكر من رضي لهم بالتوكل منزلة، وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «**من أحب الدنيا التاط منها بثلاث: شغل لا ينفك، وأمل لا يدرك، وحرص لا ينال**»[1].

وأنه من ذهب إلى أن يتخذ وكيلا ينوب عنه في أشغاله، ويقوم مقامه في حرفته وماله يسأله الأجرة عن أعماله، ويطلبه بالمكافأة على إقباله في ذلك وإدباره، وربما تجوز هذا الوكيل في اقتضاء مآربه، ولم يقم في ذلك ببعض واجبه ولم، وربما لم يهتد كما ينبغي لمراداته وقضاء أوطاره.

والوكيل الحق ﷻ يعطي الجزيل للمتوكل عليه، ويثني الجميل على المفوض إليه، ويسأل على ما يتولى من أموره عوضا، ولا يطلب منه على ما يعطيه أو يكفيه من رعايته أو نوائبه قرضا، بل يضاعفه له أضعافا كثيرة مما يكل دونه النظر، وينحسر دونه البصر، ويلطف له في دقائق مآربه بما لا ترتقي إليه آماله ولا تتضمنه إرادته، فركن المتوكل عليه

(١) لم أجده.

عزيز ومعقله حريز، وعدته كافية وجنته وافية هو الكفيل الأمين والوكيل القوي القدير، الصادق المقال، الوثيق الضامن، يلم الشعث، ويسد الثلم، ويجبر الكسر، ويصلح الفاسد، ويكشف الغم، ويفرج الكرب، ويجلي العماء، ويقبل المديد، ويلاقي الفريط، ويجمع المنتشر، ويقيم الأود، ويسد الخلل، ويعدل الميل، ويداوي السقم، ويسد الفاقة؛ فاستسلم ـ وفقك الله ـ لأمره، وارض بقضائه وفوض أمرك إليه، وسارع في طاعته، واحتسب عنده وما غلبت عليه، وتعرض لثوابه وقف عند حده، واستنجز وعده وخذ بأدبه:

بادر إلى التوبة الخلصاء مجتهدا ... والموت ويحك لم يمدد إليك يدا

واستنجز الله وعدا ليس يخلفه ... لابد لله من إنجاز ما وعـــدا

وقد تكلم الناس في التوكل وحده وعلومه وأحواله، وما يخرج المتوكل عنه وما يدخله فيه، فلنقتصر عن ذكر ما صنعوه؛ إذ ذلك مأخوذ في مصنفاتهم مبين في تآليفهم، ولنقتصر من ذلك على يسير ما سطرناه، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب].

اسمه الوهاب جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: وهب يهب وهبا وهبة فهو واهب، ووهاب تكثيرا أو مبالغة، ويقال: اتهب فلان، إذا قبل الهبة.

اعتباره

خاصة الهبة من العطية أن العطية صفة في المعطي من حيث إنه يعطو العطية أي: يتناولها، كما قال الشاعر:

وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبي أو مساويك إسحل

وقال الآخر:

وسرب صوار ليس تعطو نعاجه ... بريدا ولا تقذو جاذره خمطا

وكأنه إنما سمي المعطي بجعله المعطي متناولا لها للعطية، ثم عن وصف الهبة أعطى المعطي العطية للمعطي، وربما كان الأغلب في العطية أن توجد فيما يتناوله اليد، أو يتحصله في الملك، وليس من شرط الهبة أن تكون لموهوب ملكا، بل هي صفة في الواهب تكون عنها الهبة والإعطاء، قال الله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ﴾[ص:٣٠]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾[مريم:٥٣]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾[الأنبياء:٩٠]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾[العنكبوت:٢٧]، هذه سبيل الهبة وخاصتها وتلك خاصة الإعطاء،

وربما قاربوا فاستعملوا هذه مكان هذه، فمتى استعملوا الهبة مكان العطية وجب أن يكون من نعتها الملك، فلم تجز على ذلك إلا بالاختيار فكان التناول.

اسمه الودود سبحانه وله الحمد

يقال منه: ود يود ودا ووداده، فهو ودود على وزن فعول مبالغة من الفاعل، كما بالغوا بقتول من قاتل، ويجوز أيضا أن يكون فعول بمعنى مفعول، أي: مودود، كما يقال: ناقة حلوب بمعنى محلوبة، والود والوداء والمودة سواء، وددت الشيء وداده، وأنا ودك ووديدك مثل: حبك وحبيبك.

الاعتبار

الود والحب قربت قربتهما غير أن الحب هو خاص الود، فالمؤمن يود المؤمنين والمسلمين وهو يحب أخاه في الله، ويحب الله ومحبوبه، ومنه قول رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائره بالحمى والسهر»**[(١)]، فهذا عام فيما هو سبيله، وقال: **«والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**[(٢)]، وفي أخرى: **«حتى أكون أحب إليه من أهله وولده ووالده والناس أجمعين»**[(٣)]. وفي أخرى: **«من نفسه»**[(٤)].

والله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه ودود للمؤمنين ودود لأوليائه، والود منه ظاهر وباطن، وأما الحب فهو باطن فقط، والود مسكنه الفؤاد، والحب مسكنه القلب؛ فإذا لزم الود حبة القلب كان حبا، والفؤاد مقدم القلب وما استدق منه، والقلب أصله وما اتسع منه، وقالوا: في القلب تجويفان، والتجويف الظاهر: هو الفؤاد وهو مكان العقل وموضع الإسلام منه، والتجويف الباطن منه: هو القلب وفيه البصيرة والسمع، وعنه يكون الفهم والمشاهدة؛ لأنه محل الإيمان، فإذا دخل الود داخل القلب كان حبا بالغا وكان الإيثار كله؛ لأنه إذ ذاك في سويداء القلب، وما لم تحلل هناك فإنما هو الود.

وإيثار المحب المحبوب على قدر الود والمحبة، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[مريم]، أي: يوجد في

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الإيمان (١٦، ٢١)، ومسلم في الإيمان (٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان (٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٦٤١٦)، والبيهقي في الشعب (١٥٠٥) من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٨) فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيئ الحفظ.

قلوبهم ودا فيودونه لذلك، ويوجد لهم أيضا ودا في قلوب الخليقة، وربما رفعه إلى الحب، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله عبدا قال لجبريل: يا جبريل، إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل عليه السلام ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء....»، ثم يجعل له القبول في الأرض، وفي أخرى: «المقة تنزل من السماء»[(1)]، ونزولها من السماء هو نزولها في الماء، فلا يشرب أحد من الماء، ولا يأكل مما تنبته الأرض إلا أحبه فلذلك قوله: ثم يجعل له القبول في الأرض.

وقد أتى من ذكر الحب في القرآن والحديث أكثر مما أتى من ذكر الود، لكنه لم يأت من الحب اسم ظاهر كما جاء من الود، والحب والود والرضا خاص من الله ﷻ يختص به من يشاء من عباده، وهو كثيرا ما يعبر عنه بالفضل، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد]، وإنه ليبلغ الحب والود بحامليه أن المحبوب ربما فعل القبيح، فيحسن عند المحب ذلك ويجمل، وفي ذلك قول قائلهم:

ويقبح من سواك الفعل عندي ... فتفعله فيحسن منك ذاك

فإذا بلغ العبد أن يود الودود الحق عز جلاله هذا الود وده هو ﷻ، وجعل في قلبه ودا يوده به، وألقى في قلوب الناس له ودا، وإذا أحبه حتى يحسن عنده كان ابتلاؤه، فيحمده على الضر أو يرى منعه عطاء، ويعتقد العافية منه في بلاء يصيبه، جازاه الودود الحق بأسرع من ذلك: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾[فاطر]، فهو يعذره في زلله، ويبدل سيئاته حسنات، بكرمه ويحسن منه ما قبح، ويتداركه في مواقع هلكاته، كما ذاك بالضد للمبغض الممقوت والمتجني والمتسخط، فإن كان منه حسن أتاح له ما يفسده به من رياء أو عجب أو آفة تبطله أو تحبطه وإن أنعم عليه استدرجه، وإن ابتلاه عاقبه وإن هم بخير قيض له ما يصرفه عنه.

فصل

فمن لم يعرفه ﷻ فليتعرف إليه، وليطلب سبل معرفته؛ فمعرفته تقرب من محبته ومن وجد حبه، فليحبه الحب كله فعلى قدر ذلك منه لا يستفتح له موجودا، ولا يستقل منه حكما، بل يستقبل أحكامه كلها بالرضا والشكر على جميع صنعه لحبه الصادق، وعلمه الرفيع بعبودية الخالق، ثم يجانب الغفلة عنه جهده بمداومة التيقظ

---

(1) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩)، وفي الأدب (٦٠٤٠)، وفي التوحيد (٧٤٨٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وليس فيه لفظ «المقة».
قلت: قال ابن الأثير في غريب الحديث (٤/ ٣٤٨): المقة: المحبة.

واستصحاب التعمل؛ فإنه من شأن المحب أن يكون قائما عند باب محبوبه وبظاهره وباطنه، فإن لم يمكنه فبقلبه وروحه، ومن هذا قول قائلهم:

أطوف ببابكم في كل حين ... كأن ببابكم جعل الطواف

واعلم أن كل حب موجود في العالم فهو آية لصفته ﷻ التي هي الحب، وحجة منه على المحبين لغيره، لم أحبوا ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾[الفرقان:٥٥]، لم أحبوا ما ليس بكامل في صفاته وأعلى في أسمائه؟ لم لم يحبوا ذا الأسماء الحسنى والصفات الكريمة العلا؟ لِمَ لم يحبوا من بيده جلب كل خير إليهم، وإليه دفاع كل محذور وشر عنهم؟ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[المائدة:٥٤].

واعلم أن الحب من الودود الحق جل ذكره قد يكون تارة بالإكرام والإنعام، كقضاء الحاجات، وإجابة الدعوات، والحباء بالكرامات، وخفي الكفايات هكذا على الأغلب، ثم قد يكون بأنواع الابتلاء في الظاهر، ينادي فلا يكاد يجاب، ويسأل ويستغيث فبعد لأي ما يغاث، ليس من هوانه على محبوبه، لكنه سبق له ذلك في أزله أنه ينال ذلك بهذا السبيل، حتى أن أبناء جنسه ليرحمونه بما به من الضر، والملائكة -عليهم السلام- تغبطه بما له عند ربه من جزيل الذكر وكريم المآب، ذلك بأن الحب فيه شقاوة ونعيم وقرب وتبعيد، وقد قالوا: جور الحب أعلى من عدله، ومنعه أشهى من بذله، ورده ألذ من قبوله، ومن ذلك قول القائل:

ألذ من مدرك التمني ... ونيل الملك بلا تعني

قول المحب المستهام ... يهيم فيه تنح عـــني

ولذلك ما حسن صفة المحبين من أهل التهيام بالمخلوقين بالإعراض، والتجني والصدود والنحل والتبعيد، وقالوا: الحب هو ما لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء، وهذا مثال قول القائل:

وإني وإن صدت لمثن وصادق ... عليها بما كانت إلينا أزلت

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلّـت

وربما بلغ من شدة الحب أن يقنع من محبوبه بما يشبه له بأنه إشارة إلى وصل أو تطوق إلى ذكر، كقول أبي بن كعب رضي الله عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن»، فقال: يا رسول الله، وسماني الله لك؟! قال: «سماك لي» فبكى، وفي أخرى: «وذكرت فوق العرش» فبكى[1]، وقد يرق هذا فيركن إلى التمني ويفرح بما يتصور له

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٩)، وفي التفسير (٤٩٥٩ – ٤٩٦١)، ومسلم في صلاة

ني»، كقول القائل:

وأفرح من ليلى بما لا أناله   إلا كل ما قوت به العين صالح

وقال آخر:

أهتز عند تمني وصلها طربا   ورب أمنية أحلى من الظفر

وقد يرق هذا فيبلغ إلى قول القائل:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة   لقد سرني أني خطرت ببالك

وأولو العزم في محبة الله ﷻ أغرق حبا وأبلغ وصفا، قال الله ﷻ العليم بهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، إنه ليبلغ ذلك منهم أن يكون استلذاذهم بمنعه وابتلائه كاستلذاذهم بإعفائه وإكرامه، ألا تسمع إلى قول عمر رضي الله عنه: لو كان الشكر والصبر بعيرين ما باليت أيهما ركبت، وقد قالوا: إذا رأيتك تحبه وهو يبتليك، فاعلم أنه يريد أن يصافيك.

وقد عبر القرآن العزيز، وحديث رسول الله ﷺ عن حب الله ﷻ في غير ما موضع وبغير ما عبارة، كقول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:]، وقول صالح عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[البقرة]، وقال جل قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة]، وقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[آل عمران]، وحيثما ذكر الرحمة والغياث والعفو والمغفرة والإحسان والإفضال والهداية والإجابة وأنواع الكفاية الدينية، فذاك عبارة عن وده ﷻ، وقال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة أحدكم»، وفي أخرى: «بتوبة عبده من رجل ضلت ناقته بأرض قفر عليها زاده ومزاده، فطلبها فلم يجدها، فلما يئس منها مال إلى ظل شجرة، فقال: أنام هنا حتى أموت، فلما استيقظ إذا ناقته قائمة عند رأسه، فقال: أي رب، أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[1].

وهذا أبلغ عبارة عبر عنها في وجوه لكنها من جهد المقل؛ إذ صفات الله وشأنه أكبر

المسافرين (٧٩٩/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٧٩٩/ ١٢١، ١٢٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(١) الحديث رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

وأكرم وأعظم من أن تعبر عنها العبارات، وصفات العباد لصغرها وضيقها إن لم تفرطه أفرطت وأخرجت إلى الذهول والجنون وغير هذا من الآفات، قال ﷻ: «يا بن آدم، مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، وعطشت فلم تسقني...»[1]. وقد تقدم ذكره فيما مضى، فهذا وما نحا نحوه يوقف على الإيمان بوده وحبه، سبحانه وله الحمد كثيرا كما هو أهله.

وأما معرفة حبه ووده، وأنه لموجود في الجماد والأحجار، ثم في النبات، ثم في الحيوان، ثم في الإنسان، ثم تحقق وجوده في المؤمن، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، ثم في الولي، ثم في النبي، هكذا يتزايدون في الوداد والحب لله ﷻ عن تزايدهم في المعرفة والمشاهدة، ثم إلى الله تصير الأمور.

التعبد

اعلم أن المحبة من العبد لله ﷻ تستبين بحسن الموافقة منه ولزوم الطريقة المثلى، والمسارعة إلى ما يحبه ويرضاه، **ومن دلائل ذلك**: الإيثار ومحبة تلاوة كتاب ربه، ورغبته في تفهمه وتكراره على سمعه وتلذذه بالمداومة على ذلك.

ومن دلائل حب الله: حب القرآن وحب أهل القرآن، وحب رسول الله ﷺ، وحب سنته، وحسن الاقتداء به.

ومن علامات حب الله ﷻ: التبرم بالدنيا والبغض لها، وتقديم أمور الآخرة وكل ما يقرب منه على أمور الدنيا.

ومن علامات حبه: الجهاد في سبيل الله، وإنفاق المال والنفس سخاء؛ للتقرب منه والبلوغ إلى مرضاته، والمسابقة إليه بصالح الأعمال، كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾[طه].

ومن علامات حبه: ترك الشكوى إلى غيره، وكتمان ما حكم به من التضييق والشدائد؛ إذ قد صار من أهله وأوليائه، بل وجوب الفرح بالبلوى، والاستراحة إلى علمه به وحده.

ومن علامات خالص حبه: صدق الانقطاع إلى الحبيب بكل وجه وعلى كل حال، وسبق نظر القلب إليه عند كل حادثة، وإخلاص المعاملة، وحسن الأدب، بل وجود النعيم في مجالسته والأنس بمؤانسته، ثم الطمأنينة إليه، وعكوف الهم عليه، وإظهار ما

(١) سبق تخريجه.

به من النعم، وكثرة التفكر في عجيب صنعه، وتدبر كتابه ومعاني حديث رسول الله ﷺ، وحسن الثناء عليه، وطول السهر بالقيام له، وقد كان رسول الله ﷺ ينام ويقوم ويصوم ويفطر، وهو سيد المحبوبين والمحبين من ولد آدم عليه السلام.

واعلم أن منال محبة الله تبارك وتعالى بترك المناهي أكثر من منالها بسواها من أعمال الصالحات، والأعمال الصالحة قد يعملها البر والفاجر، والانتهاء عن المعاصي لا يكون بالكمال إلا من صدق، وبالجملة فإنه من كان اليوم مشغولا بنفسه كان غدا مشغولا بنفسه، ومن كان اليوم مشغولا بربه كان غدا مشغولا بربه، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل].

اسمه الحنان جلت أسماؤه وتعالت صفاته

يقال منه: حن يحن حنانا وحنينا، وهو الحنان مبالغة وتكثيرا، وقد قالوا: الحنان الهيبة، فإن كان ذلك كذلك فإنما هو من أجل أن الهيبة قد تكون من إفراط الحياء وشدة التعظيم، فهي إذا رقة في سبيلها، وإنما الحنان رقة الرحمة، وقد تكون رقة الود والمحبة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾[مريم:١٣].

وقد يكون رقة الشوق وهو راجع إلى ما تقدم من الود، ومن ذلك قيل: امرأة حنانة، وناقة حنانة، وعود حنان يحن إلى وطنه، والقريب كذلك يحن إلى أرضه حنينا، قال الشاعر:

إذا حان من شمس النهار غروب ... تذكر مشتاق وحن غريب

وقال آخر:

أحن للبرق من تلقاء أرضهم ... ولي فؤاد إلى الآلاف حنـــان

محله النفس فيهم أينما قطـنوا ... ومنزل الروح فيهم أينما كانوا

وقال آخر:

إني لأبغض أوطاني وقد ظعنوا عنها ... ألا إنما الأحباب أوطان

والنيب يحن إلى معاطنها

وقيل لامرأة الرجل: حنته؛ لأنه يحن إليها، ومنه قيل: عود حنان لتحريكه ما في النفس، فتشتاق إلى ما تحركت إليه وتشوق إلى ما ذكرته، وقالوا فيما قارب هذا البناء لقبيل من الجن: حن وكلب حني للبهيم منها وكلاب حنية.

الاعتبار

حقيقة الحنان في المخلوق رأفة في النفس، وميل مفرط في الجبلة والطبع لشوق

مزعج وصوت مفرط، تضعف القوة عن حمله، ويهز الصبر عند موافقته، فتنزعج النفس بما فيها، وربما خف معها الجسم، وربما عبرت النفس عما بها من ذلك بصوت رقيق ضعيف عبارة عن ضعف، فأصدر عنه من القوى الباطنة، وقد يزيد في ذلك فيما سبيله الرحمة أن يكون المحبوب ضعيفا عن حمل ما تحمل مما يحذره عليه، أو يظنه به للشوق الراحم الشائق إليه، فتضاف صفة الخوف عليه إلى صفة الحب له وحنان إليه، فيحدث الإشفاق وهو رقة الخوف ورقة الشوق والشفيق بسوء ظن مولع، ويبدو ذلك ظاهرا في حنين العود إلى مطافيلها، وجميع الواضعات لأحمالهن على الأغلب، فهناك تتبين صفة الحنان في المخلوق، ومنه قول القائل:

أحمِّله ثقل التراب وإنني لأخشى ... عليه الثقل من موطء الذر

وقال غيره في مجاز الحنان والحب:

قـــف فانظـــرن بالله كيف ... هم ولا تخبرهم ذنبي هناك فيدنف

أنا ويك أجمل السقام من التي ... هي ويك عن حمل الغلالة تضعف

وكل ما ذكرناه عن ضعف فهو وصف للعبد وموجود به، والله ﷻ وتقدست أسماؤه أتم حنانا وأكرم صفاتٍ وأنزه وصفا، وقد جاء في الحديث أن الله ـ جل ذكره ـ يقول لعبده الذي تغلبه نفسه بالمعاودة إلى الذنب المرة بعد المرة، وهو يندم على ما كان منه فيستغفره، ثم تغلبه نفسه فيعود، قال: «**فيقول له في الثالثة أو الرابعة: يا ويحه يا ويحه، لا هو تارك الذنب ولا هو بأولى من الاستعتاب، عبدي اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[1]، فعذره ﷻ لضعفه عن مقاومة ما يجاهده من عدوه، وعجزه عن الإتيان بما يخالف ما قد سطر له في أم الكتاب، فهو بين هذا وهذا قد ضاقت حيله إلا من استغفاره ربه.

وقد تقدم فيما مضى أن الحنان والرحمة والرضا والغضب، وما كان من هذه الصفات التي توهم ميلا أو غلبة أو وجها من هذه الوجوه التي في وجود المحدثين، فالله ـ جل ذكره ـ نزيه عنها بريء منها، سبحانه وله الحمد، له الكمال الأقصى والتمام الأرفع والتحقق الأعلى، والسبحات المنزهة لنعوت جلاله.

والحنان وغيره من هذه الصفات تنشأ ـ كما تقدم ـ منشأ الوداد والمحبة والرحمة وغير ذلك؛ لأنها مما ينزل من صفات الحق إلى الأرض في الماء، وكلما كان وجوده كذلك

(١) سبق التعليق عليه.

فشأنه النشوء من لدن عالم الجماد إلى عالم الملائكة - عليهم السلام - وفي حنين الجذع إلى رسول الله ﷺ آية، وعون على تعرف ذلك؛ إذ نشوؤه بالسنة وخرق العوائد فيه بالكلمة، وإنما تخرق العوائد لمعجزة أو كرامة، وكل ذلك على الله يسير، والله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه أعلى وأسنى، وصفاته أكرم وأفخم وأتم، وجميع القرآن يخبر عن منزلته ﷻ في خطابه المؤمنين في مواضع وعظه ووصاياه، ومواطن توصيتهم بالرأفة والحنان والرحمة لمن بحث عن ذلك.

فصل

والعرب تسمي كلب البهيم: جنيا حنيًا ينسبونه بذلك إلى الجن، تقول من ذلك: هذا كلب جني وكلاب جنية، وقال رسول الله ﷺ: **«الكلب البهيم الأسود شيطان»**[1]، وكل ما حنّ إلى ابن آدم من هذه المؤذيات وجاوره وقصده بذلك فهو من ذلك؛ لأنه حنّ إليه، أي: سكن إليه وتاق نحوه، كالقطاط والكلاب، وكل ما اتخذه ابن آدم وأشلاه فانشلى، وأمره فائتمر، وكذلك الفأر والوزغ والبراغيث، وغير ذلك من سوس الموجودات، وتفنها من هذه الأصناف التي تعيش في تبعية ابن آدم، وهي تؤذيه بجبلتها أذية لا تبلغ الإهلاك والاستئصال، سماها رسول الله ﷺ: فواسق، ومنها ما قد أسلم كبعض الحيات من عوامر البيوت ونحوها؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل ما لم يسلم منها في الحل والحرم وفي الصلاة.

كما أنها كلما تأتي ابن آدم ولم تنحاش عنه فهو من قبيل الجن، ويقال له: البن، مثل الحيات المؤذية والسباع المهلكة والأشياء المؤذية من حيوان ونبات، بذلك عمر الله - جل وعز - أرضه مع صنف الرحمة والإسلام من لدن يوم الخميس، الذي بث الله - جل ذكره - فيه الدواب إلى عشية الجمعة ليلة السبت، فلما أهبط الله آدم عليه السلام إلى الأرض أظهر ﷻ هذه الأصناف الثلاثة هذين الوصفين: الحنان والمباينة، فحن إليه وإلى ذريته منها حن، وتأتيهم منها ما تأبن، ولما أظهر إبليس - لعنه الله - فسقه كانت مباينته لهم في الديانة والأخلاق، فهذا كله وما شاكله بين لك مسالك الحنان في أصناف الخليقة، وانبثاثه في العالم، ونشوئها كغيرها في الصفات التي هي عن الحق المخلوق به السماوات والأرض.

وله حنان أول أوله عن الصفة العالية ظهر بصفة اللطف، الذي لطف به لجميع الخليقة أول بدايتها، وكذلك ظهر بصفة الامتنان وبالجملة وبالرحمة، فكل ما كان فعلا

(١) الحديث رواه مسلم في المساقاة (١٥٧٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

عن صفة الرحمة فأثر الحنان ظاهر فيه، مثال ذلك: الجنين في بطن أمه وحاله وتقلبه في الخلق بعد خروجه، وكيف أخرجه، ثم كيف حنن عليه قلوب الأبوين والكافلين، وكيف سلط الشفقة عليهم، وكيف لطف في تغذيته باللبن إذا لم يستطع المضغ وضعف عن تناول الغذاء؛ ولأن خاصة اللبن وفطرته أوفق له وأرفق به، وكذلك في جميع المنشآت، فإن كان قد سبق له في مقدم التقدير والقضاء أن يكون من أهل الصفاء، وفق له الإيمان والعمل بطاعته؛ فيتصل له الحنان أوله بآخره، والانقطاع عنه بالعداوة التي جناها على نفسه مشاقته الله ورسوله؛ ولذلك قالوا: حنانيك ربنا، أي: صل لنا حنانك الأول بحنانك لنا في الأخرى، كذلك قولهم: لبيك وسعديك؛ لما وفقهم في الإجابة الأولى في الدهر الماضي، يوم استخرجهم في قبضتيه الكريمتين ﷻ إلى قوله: لبيك ربنا وسعديك، كان ذلك من قولهم وإجابتهم له كالتقدير منه لهم، فلما ذرأهم في الأرض أنجزوا ما عوهدوا عليه يومئذ من التلبية؛ لقولهم: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إن الحمد والنعمة لك والملك، وكان رسول الله ﷺ يقولها ما بين الإقامة والتكبير في حال التوجه إلى الصلاة: «**لبيك وسعديك والخير كله في يديك أنا بك وإليك**»[(١)]، أي: لك التلبية أولا وآخرا، فاحرسها علينا بحسن الإجابة لك، وكذلك سعديك السعادة الأولى التي فطر الخليقة كلها على الإسلام، ثم السعادة الأخرى بالتثبيت على الإسلام، فهذه شروح لمعاني التثنية في هذه الكلمات، وإنما هو التطريق والإرشاد، والله الموفق للسداد.

اسمه المنان ﷻ

يقال من ذلك: منَّ الله علينا بمن، فهو المنان والاسم المنة، وقالوا: المن الإحسان، وهو من الإحسان ما كان أولا أو ما كان منه من غير طلب مثوبة، وبذلك سمى الله ﷻ ما كان ينزله على بني إسرائيل منا؛ إذ كان ينزل عليهم من غير حراثة ولا تجارة ولا سعي إليه ولا كدح فيه، ويقال له: كان شيئًا يشبه العسل، ويقال له: الترنجبين، فالله أعلم.

وكل ما نيل بغير سعي ولا تعب فهو من، وقد يسمى ما قطع منا، قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فسمي بفعله في المن - والله أعلم - والممنون المقطوع، فكأن المان بما اصطنعه قاطع أجره وثوابه؛ لذلك سماه ﷻ إبطالا، ومن ذلك تسميتهم المنون الذي هو الموت؛ لأنه يمن كل شيء، أي:

(١) الحديث رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه.

بقطعه، وأما قول الرسل - عليهم السلام - لقومهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١١]، فهو من الإحسان الأول لغير مثوبة، ومنه قولهم: من على أسيرك وامنن عليه، قال الله ﷻ: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[محمد:٤]، فالمن هذا قد يكون من الإحسان؛ لأنه أطلق له دون طلب فداء ولا نوال، وقد يكون من القطع أيضا؛ لأنه نطع عنه بإطلاقه لك ربقة الرق، وربقة الأسر.

الاعتبار

قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[طه]، أي: خلق كل شيء، ثم هداه لما خلقه له، وكذلك أعطاه الإحسان في خلقته تلك، قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة:٧]، وإذا حققت النظر فكل عطايا ونعمة من عنده ﷻ أو من غيره فمن منه على عباده، فقواهم وعلومهم وذواتهم وجميع صفاتهم من منه على عباده، من حيث هم لا يشعرون في شيء، ولا يكدحون في أمر إلا بنعمته عليهم، فإذا كل عطية منه لهم من منه عليهم، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل:٥٣]، وقال الله ﷻ: ﴿ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ﴾[طه:٥٠]، فهذه نعمته عليهم في الخلق بتوابعها، وهي أول النعم ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ هذه نعمة الفطرة منتظمة بنعمة الدينية، وهي خاصة وهي مَنٌّ مِن الله على من خصه بها وهي أفضل النعم، سبحانه وله الحمد فهو إذا المان بكل شيء.

التعبد

سبيل التعبد به: الشكر على آلائه ونعمه والحرص على ذلك، والاعتذار إليه من التقصير عن بلوغ ما يستوجبه، والدعاء والتضرع إليه في حسن العون، وأن يتحمل عنك ما عجز عنه شكرك، وأن يصفح عن تقصيرك في أداء واجبه، نسأل الله البر الرحيم سبيلا قاصدا إليه وزادا مبلغا إلى ولايته والتقرب منه، فهو ولي ذلك لا شريك له.

اسمه التواب سبحانه وله الحمد

يقال منه: تاب يتوب توبة ومتابا، والله التواب تكثيرا أو مبالغة.

الاعتبار

التوب: الرجوع من العبد إلى ربه بطاعته، فهو عود من الله بالرحمة على عبده؛ إذ خلقه على فطرة الإسلام، فأضل العبد، وجهل فعاد عليه ربه برحمته، وأرجع عليه الإسلام الذي ضل عنه، فكان بذلك القبول على عبده تائبا، أي: راجعا، فرجع العبد

إليه تائبا مما جناه فقبله ربه، فكان الله ﷻ بذلك القبول من عبده تائبا، وكلما وقع في معصية فقد فارق فطرة الإسلام بقدر وقوعه، وبعده عن أصله بمقدار كبر ذنبه وصغره، وعمده فيه أو خطئه وإصراره عليه، واستعجال مراجعته؛ فيعود عليه ربه ﷻ بالتوبة فيتسمى بذلك تائبا، ولكثرة الذنوب ومراجعته على عباده إياه وعوده عليهم تسمى بالتواب ﷻ، وبالحقيقة فليس بأنه تاب على عباده يسمى بالتواب؛ إنما تاب لأنه لم يزل توابا، يقول: بل قوله: إني أنا الله لا إله إلا أنا ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾[البقرة].

وفي بعض الأخبار: إن إبراهيم عليه السلام أتاه سبعون حكيما يسألونه عن الجود ما هو؟ فقال عليه السلام: «**إني لا أعلم إلا ما علمني ربي، فإذا أتاني جبريل عليه السلام سألته**» قال: فنزل عليه جبريل عليه السلام فسأله: «**ما هو الجود؟**» فقال له: لا علم لي إلا ما علمني ربي، حتى أسأل ربي، فلما صعد سأل ربه - جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه - وذكر القصة، فقال له ربه ﷻ: «**الجود أن يذنب العبد ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب يقول الله جل وعز: حكمي في هذا العبد أن أغفر له ذنوبه، وأبدله مكان كل ذنب عمله حسنة**».

فإن الكريم إذا عفا عن عبده أعطاه شيئا آخر زائدًا من عنده، ومصداقه من الكتاب العزيز قوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾[الأعراف]، مع قوله جل قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[الفرقان:٧٠]، وهذا يعضده حديث رسول الله ﷺ في العبد الذي تغلبه نفسه إلى المعاودة إلى الذنب المرة بعد المرة في كلها يستغفره، فيشهد ملائكته جل جلاله وتعالىٰ شأنه: أنه قد غفر له الثالثة أو الرابعة، يقول: «**اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»(١).

هو التواب الحكيم أوجد التوبة على مسالك حكمته وطرقات سنته، وذلك في إرجاعه أواخر الحكمة على أوائلها، كما تقدم في اعتبار الشهادات في اسم الشهيد ﷻ، كالحياة بعد الموت، ثم الموت بعد الحياة، ثم الحياة بعد الموت، وكالاعتبار بالليل والنهار واستمرار القمر بعد كماله وكماله بعد استمراره، وكالاعتبار بالسنة وفصولها، وقد تقدم في ذلك كله ما فيه تطريق للمبتدئ وتذكير للمنتهي.

فإذا لابد للعباد من الذنوب، ولا غنى لهم عن توبة الله عليهم، كما لا غنى لليل عن النهار وللموت عن الحياة، ولابد في مشيئته أن يتوب على من شاء منهم، ثم لابد لهم

---

(١) سبق تخريجه في باب اسمه الرؤوف ﷻ.

من مراجعة الذنوب، ثم لابد في جوده وكريم سنته أن يراجعهم بالتوبة، كما فعل في سنته بالدوائر المحكمة المذكورة؛ إذ العود والبدء سنته في تدبيره، وأنه ظاهر في الحكمة؛ إذ لو كان من عباده من لا يذنب ليتوب عليه، لذهب بمن لا يذنب وجاء بمذنبين ليتوب عليهم، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب]، هذا على سبيل الاعتبار سنته، وأما على الاعتبار بأسمائه فلأنه التواب أوجد المذنبين، فتاب عليهم ليتوبوا، ثم يتوب عليهم فيقبلهم، ولأجل ذلك سن سنة دوائر تدور أواخرها على أوائلها، ثم أوائلها على أواخرها، إن ربك لرؤوف رحيم.

التعبد

عليك يا أخي بالتوبة النصوح من الذنوب كلها، أما ما تعلمه مفصلة، فاقصد كل ذنب بتوبة وما جهلته فأجمله، فإذا أحكمت التوبة قابلت كل ذنوبك بما يطابقه من العمل المصلح له؛ فتب إليه من توبتك بتوبة تحدثها، ثم اخرج من توبتك التي خرجت بها من توبتك إليه، حتى تكون في وجهتك هذه جبريا محضا، قد اعتقدت ما له عليك من النعمة في ذلك كله، فهو الذي أخمك التوبة وندمك على ذنبك، وأحزنك من أجله واستعملك بالتوبة والعمل بها، ثم هو الذي أعلمك أن ذلك ليس من حولك ولا قوتك؛ فتب له من توبتك، فكلما حدثتك نفسك أنك عملت أو كسبت، فاقمعها بما عرفك الله من عجزك وشر نفسك، وأنه لو وكلك إليها لم يكن منها إلا العجز والخطأ والإثم، وبهذا تتم توبتك إن شاء الله تعالى.

وقد تكلم الناس في الذنوب وكبائرها وصغائرها، ولم كبر منها ما كبر؟ وَلِم صغر منها ما صغر؟ وتكلموا أيضا في التوبة وأركانها الأربعة، فاطلب علم ذلك في مظانه واعمل عليه، والله الموفق وهو المستعان، وقد مضى من ذلك في «كتاب الإرشاد إلى سبل الرشاد» ما فيه تطريق وإعلام، والله الموفق الهاد.

اسمه العفو عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: عفا يعفو عفوا فهو عفو، ومعنى العفو: الترك بوجه، قال رسول الله ﷺ: «عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق»[1]، أي: تركت ذلك لكم؛ لأنه وجب بعموم ظاهر قوله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة:١٠٣]، ثم أعلمنا بتخفيف الله ﷻ علينا، وكذلك قوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (٩٤٦٤) من حديث ابن عباس ﷺ، ورواه البيهقي في الكبرى (٧٤٠٦، ٧٤٠٧، ٧٥٢٠) من حديث علي ﷺ، وسنده ضعيف.

عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة]، أي: تركها توسعة على عباده.

وقد يكون العفو بمعنى: الستر والتغطية، ومنه قيل: غطيت الدار عفاء درست وعفا الأثر يعفو، أو الريح تعفو الدار والأثر، والعفاء الرؤوس، ومنه قيل: العفاء التراب، والعفو: ولد الحمار، ويقال: هو الأنثى من الحمر؛ سمي بذلك لكثرة وبره، فهو يعفو صورته، أي: يسترها؛ ولذلك قالوا لكثرة الوبر والريش للعفاء الواحدة من ذلك: عفاءة، ومنه العافية، وهي: طلاب الرزق من كل الحيوان، وإنما قيل للكثير عفاء؛ لأنه يغطي ويستر، فمعنى قول القائل: رب اعف عني، أي: اترك مؤاخذتي على جرمي، واستر علي ذنبي، وأذهب عني عذابك، واصرف عني عقابك، هذا ونحوه.

والاستعفاء: طلب العفو، ويكون العفو الطيب من كل وجه، منه قول الله جل ذكره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾[البقرة:٢١٩]، وقالوا: العفو أحل المال وأطيبه.

الاعتبار

إن أول ما أظهره الله ﷻ من موجودات معاني هذا الاسم الكريم ما قدمه أمام تدبيره: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[(١)]، ثم خلق عن موجود الصفة، ومعنى هذا الاسم الكريم رحمة أمسكها عند نفسه، مع ما أمسك من أنواعها، يخص بها من يشاء من عباده، وما جعلها في شيء إلا أحبه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ وقد سألته أم سلمة ﵂ فقالت: يا رسول الله، إن أنا وافقت ليلة القدر، فما تأمرني أن أقول؟ قال لها: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني**»[(٢)].

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**سلوا الله العفو والعافية، فإنه لم يؤت أحد بعد يقين أفضل من العافية**»[(٣)].

اسمه الغفور تبارك اسمه وتعالى علاؤه وجده

هذا اسم قريب القرابة من اسمه العفو، يقال منه: غفر يغفر غفرانا ومغفرة فهو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥١٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٠)، وأحمد (٦/ ١٧١، ٢٠٨) من حديث عائشة ﵂، وعند الترمذي «عفو كريم» وصححه الألباني في سنن الترمذي وابن ماجه.

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٥٨)، وأحمد (١/ ٣، ٥) من حديث أبي بكر ﵁، وصححه الشيخ شاكر على المسند.

غافر، وغفار تكثيرا للفعل ومبالغة في الصفة، والغفر الستر، ومن ذلك سمي ما يجعل من الدرع على الرأس: غفارة، وقيل للثوب يثور زئيره: غفر الثوب.

وقد يكون معنى الغفر: الإصلاح؛ لذلك قالوا: غفرت الثوب أغفره أصلحه بما ينبغي له، فمعنى قول القائل: اللهم اغفر لي: اللهم أصلحني، وإن قال: اغفر لي ذنبي، أي: أصلح ذنبي ويسرني لعمل تكفر به عني، فيكون ذلك إصلاحا له، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾[البقرة:١٦٠]، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾ [الأعراف].

وعلى معنى الستر: اللهم استر علي ذنبي في الدنيا وفي حال الحساب، ولا تؤاخذني به، كقوله ﷻ: «أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[(١)]، إصلاحها في قوله ﷻ: «ولك مكان كل سيئة عملتها حسنة»[(٢)].

فهذا الستر والإصلاح للذنوب، فمعنى قول القائل: اللهم اغفر عني؛ الستر والتغطية على ذنوب والإصلاح لحاله ومكان ذنوبه، وربما كان المعنى في طلب العفو: الصفح عنه، ورده إلى حيث كان منه قبل الذنب؛ نزاعا بالنية في الرغبة إليه ﷻ إلى قوله: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[(٣)]، والصفح: الإعراض عن الذنب، فلا يذكره المذنب كرما، فكيف يؤاخذه والصفح مأخوذ فيما هنا من صفحة العنق، وهو إذا رأى المتكرم الصفوح ما يكرهه أعرض عنه ولوى عنقه، فأبدى بذلك صفحته، وأسماء الله أحسن حسنا وصفاته أعلى وأسنى، وإنما لله ﷻ من أسماء حقائقها والمعنى بها، ثم للحروف مجاريها، وقال الشاعر في الصدود عن الوصال:

صفوح فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت

فوصفها بأنها معرضة، وعبر عن ذلك بذكر صفحة عنقها، ولما علمه رسول الله ﷺ من كريم عفو ربه وسعة مغفرته، قال: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرونه فيغفر لهم»[(٤)]، وقد جاء في بعض الروايات بإسقاط قوله: «فيستغفرونه».

نعم هو يغفر لهم لمن يستغفر وعد حق، وقد يغفر لمن يستغفره؛ إما لأنه عالم بأنه قد

---

(١) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤١)، وفي التفسير (٤٦٨٥)، في الأدب (٦٠٧٠)، وفي التوحيد (٧٥١٤)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٥٧)، والترمذي في صفة النار (٢٥٩٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقد سبق.

سبق له في أم الكتاب ما هو عامله، فهذا من أهل العلم والإيمان، فقد جاء أن هذا يغفر له قبل أن يستغفر - والله أعلم - وإما أنه قد أصر على ذنوبه وكان في مشيئته أن يغفر له، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، ذلك بأنه المنان المتطول ذو الطول والإكرام.

ومن الغفران ما هو عام لجميع العباد مؤمنهم وكافرهم، ذلك في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، ثم قال جل قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فاطر]، وفي قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾[الشورى]، وهذه مغفرة نظرة وإمهال؛ لينال كل نصيبه من الكتاب ويستوفي ما خلق له، ثم تأخذهم على أوفر ما جنوه، وقد تقدم من ذكر الرحمة العامة فيما مضى فيما يلحق هذه بتلك.

ومن الغفران ما هو خاص للأولياء والمؤمنين، وهو نائل نفعه لهم في دنياهم وأخراهم، قال الله ﷻ في المغفرة الأولى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾[الكهف]، وقال في الخاصة من المؤمنين العامة في الدنيا والآخرة: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[طه]، فجاء به على التكثير كلما أذنبوا غفر، سبحانه وله الحمد كثيرا كما هو أهله.

اسمه الشكور جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

معهود الشكر: كثرة المكافأة وجزيل المثوبة على يسير الحظ، من ذلك قيل للحلوبة يغزر لبنها على قلة المرعى: شكرة، وقد شكرت شكرا ومنه الحديث، وذكر عليه السلام موت يأجوج ومأجوج، فقال ﷺ: «**إن طيور السماء ودواب الأرض لتشكر من لحومهم شكرا**»[(١)]، والشكير: الزرع، وأشكر القوم: إذا أصاب نعمهم شيئا من بقل قدرت عليه، والتشكير الزرع ما نبت بين الضفائر من الشعر، والشكير: ما نبت في أصول الشجر الكبار، والشكير: الزرع ينبت في الأرض الكريمة في أصول الزرع من غير بذر.

الاعتبار

متى أردت أن تتعرف صفة الشكر، فاستقر كريم معاملته عبارة؛ فإنك تجده جل

(١) رواه أحمد (٢/ ٥١٠، ٥١١)، والترمذي في التفسير (٣١٥٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الشيخ شاكر على المسند.

وعز قد أعطاهم الكل، فما بهم من نعمة ولا خلق إلا منه، ثم استقرضهم القليل مما أعطاهم، ثم ضاعفهم لهم أضعافا كثيرة، ليخبأهم لهم إلى يوم فقرهم.

التعبد

هو المداومة على الدؤوب في الشكر له على نعمه التي ابتدأها والنعم التي يجددها، والعمل بما يرضيه والمحافظة على الانتهاء عن جميع مناهيه؛ فبذلك تتحقق صفة شكر العبد ربه، وقد جعل ﷻ الشكر منهم سببا لنعم وإرادة من عنده سوى التي ابتدأ بها جزاء لشكرهم، فاجعل أنت شكره إماما تتبعا وذريعة لازمة لمداومة شكرك أنت لتصل بذلك ما أمر الله به أن يوصل.

اسمه الصبور جل جلاله وتقدست أسماؤه

يقال منه: صبر يصبر وهو صابر وصبور، وأصل الصبر: الحبس، يقال: قتل فلان صبرا وصبرته أنا للقتل، أي: حبسته لذلك، ومنه الحديث: «نهى رسول الله ﷺ أن تصبر البهائم»[(١)]، معناه أن تحبس فتتخذ غرضا حتى تموت، ويمين الصبر أن يحبس السلطان الرجل على اليمين حتى يحلف، ويقال: صبرت يمينه، أي: حلفته بالله.

الاعتبار

الصبر فيه هو فعل العقل، والأناة فعل الحلم وترك العجلة منها، وقد تقدم في بابه أن الله - جل وعز - لم يتسم بالعقل بل بالحلم، وجاء هذا الاسم صبور ثبتت به الرواية في جملة الأسماء وموجوداتها آثاره في طرق الاعتبار، من ذلك ما عبر عنه قول رسول الله ﷺ: **«لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ: إنهم يكفرون به، ويجعلون له صاحبة وولدًا، وهو يعافيهم ويرزقهم»**[(٢)].

والصبر موجود على وجهين: أحدهما: تكلف الصبر واحتمال المشقة فيه، ومن هذا جاء التكليف بالأمر بملازمته والنهي عن مفارقته، وهو بمعنى الحبس، وقد تقدم الكلام في اعتباره باللغة؛ ولذلك سمي شهر الصيام: شهر الصبر، والصبر على وجهين: صبر على شيء، وصبر عن شيء، والوجه الآخر من وجوه الصبر أن يكون خلقا وسجية، فهذا الوجه من الصبر حقيقة عن صفة الحلم وهو فعله، وقد يكون هذا أيضا عن صحة العقل، مع تمكن صفة الحلم بأن يتعلم ويتأدب عليه، حتى يكون

---

(١) رواه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥١٣)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، وفي التوحيد (٧٣٧٨)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الصبر إلفا وصاحبا، فلا تجد له مشقة بل روحا وراحة، ومن ذلك قول بعضهم:

وعودت نفسي الصبر حتى ألفته وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر

وإذا لزمت المحنة ألفت، فأما الصبر الذي حبس النفس واحتمال المشقة، فليس ذلك من صفته ﷻ، ولا يسمى به إلا من حيث حبس عقوباته عن مستحقيها، وأمسك عذابه عن مستأهليه، فذلك إذا يكون حلما، قال الله جل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]، فجاء باسم الحلم والمغفرة والسماوات والأرض لا تستأذن أن تزولا إلا لعظائم ما يأتي به العباد فيمسكهما بحلمه عنهم، وذلك هو حبس عقوباته وهو صبره جل ذكره، الذي لأجله يكون الإمساك هو صفة الحلم، فيكون على هذا من أسماء الأفعال؛ ولذلك كتب على نفسه الرحمة، والسماوات تكاد أن تتفطر والأرض تكاد أن تتشقق، والجبال أن تخر وتنهار، وأن تزول إعظاما لما يأتي به عباده، مقابلة للعظمة والجلال، فالملائكة ـ عليهم السلام ـ يسبحون بحمد ربهم، ويؤمنون به ويستغفرون لمن في الأرض، وهو الغفور الرحيم، سبحانه وله الحمد سبقت رحمته غضبه ورضاه سخطه.

وقد جعل جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه في مقابلة ما يكرهه ما يحبه ويرضاه، حكمة فصلها من نعوت جلاله، وأوجدها عن نور سبحاته عز وجهه.

وقد جاء في بعض الآثار: أنه ﷻ إذا سمع صوت ناقوس غضب، وإذا نظر إلى صبيان المكتب رضي، وهاتان الصفتان على ما جاء وصفهما، هذا الأثر صفات الحق المبثوث في العالم؛ إذ هو ﷻ لا تتقلب به الأحوال فهذا مكروه، قد جل ذكره بمرضي، كما قابل زوال السماوات والأرض لو لم يمسكها بإمساكه إياها، وقابل بتغيير السماوات والأرض ومن فيهن بقيامه على ذلك بخاصة الوحدانية ونعوت الجلال والتعالي، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١]، وقال جل قوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[المؤمنون:٧١]، وقال جل قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]، ثم أظهر ذلك في مقابلته بتسبيح الملائكة ـ عليهم السلام ـ والمؤمنين وغيرهم من التابعين، وجميع الخليقة التي قامت له بالدين القيم.

ألا تسمع إليه جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه كيف قص علينا قصص الكفار، وعتوهم على الله ﷻ ورسله، وتكذيبهم وكفرهم بما يجب الإيمان به والعمل عليه،

وعلى إثر ذلك ذكر خليله إبراهيم، وأنه أراه ملكوت السماوات والأرض، وأطلعه في ذلك على دين القيمة، ثم جعل ينسق أنبياءه - عليهم السلام - بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأنعام:٨٤] إلى قوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾[الأنعام]، ثم أكمل ذكر جميع الأنبياء والأولياء - عليهم السلام - بقوله الحق جل قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام]، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، ثم قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام].

فأعلمك نصا صريحا بما تقدم ذكره أنه كما جعل في الأرض من يكفر به ويكذب رسله، كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر أولئك، ويصدق بما كذبوه، ويحفظ من حرماته ما ضيعوا هكذا أجاد تماسك العالم علوه وسفله، خلقا وشرعا وأمرا، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾[الزخرف]، هذه المقابلات من الرضا لكذا، والغضب من أجل كذا، والصبر على كذا، ومعاجلة من أجل كذا؛ إنما هو في صفات من خلقه في العالم من صفات الحق، وبثه فيه منها، فربما نزل ﷻ بالاتصاف بأوصافها والتسمي بأسماء معانيها، عندما يريد تقريبا وتبيينا لعباده؛ إذ ذلك فعله، وفعله منفصل من صفاته موجود عن معاني أسمائه؛ ولأن هذه الصفات التي هي من الحق المجعولة المبثوثة في العالم هي أقرب إلى صفات المخاطبين، كما ينزل الإنسان حينئذ مخاطبته إلى ما سخر له من البهائم بمعهوداته من صفير، ونعيق، ولقلقة وحروف تشبه حروفها، كذلك الله سبحانه وتعالى في تنزيله في خطاب الحرمة والتخويف، فأما صفات العلا فهي السلام، وهو المؤمن الحكيم، لا ينازع ولا يخالف، فلا يتعاقب عليه الأضداد سبحانه، وله الحمد تعالى على ذلك علوا كبيرا.

التعبد

بهذا الاسم الكريم في سبيل الشكر والصبر والحلم، وتعداد نعمه وتذكر آلائه، والدؤوب على ما يرضيه.

واعلم بأن الصبر بتذكر البلاء نطقا ولفظا من شأن أولي العزم، ومن فضائل شروط الصبر ألا يتنفس إلا في الإذن تحت جريان الحكم، والصبر الذي يجب على المكلف هو: الصبر على ما أمره الله، والصبر عما نهاه الله عنه، وأفضل الصبر ما بلغ درجة الرضا،

وذكر الله ﷻ الصبر في القرآن في خمسة وسبعين موضعا فلابد من الصبر عاجلا أو آجلا، فمن لم يصبر كما أمره الله ﷻ في الدنيا حيث ينفعه صبر لا محالة في الآخرة حيث لا يجري تنبيه الصبر شيئا، حيث يقال له: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦]، ويقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم:٢١]، فلابد من الصبر إما طوعا وإما كرها، وليس بنافع إلا مع الإذن وفي طاعة الله ﷻ.

وإن قوما صبروا في الدنيا فلم ينفعهم بل ضرهم، قال الكافرون: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[الفرقان:٤٢]، وقالوا: ﴿ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦]، فلما أوقعوا الصبر في غير إبانه ذهب صبرهم ضياعا، واليهود والنصارى صبروا على أداء الجزية وليس منها نافعهم، إنما الصبر الحق فيما خالف الهوى ووافق طاعة الله، ومن تمسك بهواه وأقام على ما يشتهي فلم يصبر على شيء، فمن فاته اليوم الصبر لم تكن له عاقبة إلا الشر كله، أف لغفلتنا وسوء نظرنا لأنفسنا، أليس قد أنعم أنه ﷻ علي وعليك نعما جمة، وجب علينا أن نزيد من أجل ذلك في شكرنا بقدرها فتعال فلنعقد على أنفسنا مواعيد نسأل الله إنجازها والوفاء بها، لولا التهيب له جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه من مخافة ادعاء حول أو قوة؛ شهدته على عزمي بذلك، لكن الإقرار يعجزني والخضوع له في جميع أمري أجلب لمعونته، وأرشد إلى منال طاعته، اللهم إنا نسألك أن تلطف بنا بتيسير كل عسير بمنك ورحمتك.

اسمه المحسن ﷻ

ويقال: أحسن فهو محسن، ويقال منه: حسن الشيء حسنا وامرأة حسنة، ويقال: رجل حسن، ولا يقال: رجل أحسن، ويقال: امرأة حسانة، وامرؤ حسان، أي: حسن جدا.

اعتباره

الله - جل ذكره وتعالى علاؤه وشأنه - أحسن شيء حكما وأحسنه تدبيرا أو خلقا أو أمرا، هو الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه، وقدر كل شيء فأحسن تقديره، ثم أوجد ما قدره فأحسن الإيجاد على وفاق ما سبق في التقدير، يقول الله ﷻ من قائل ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[المرسلات]، ليس من نعمة إلا منه ولا خير إلا من لدنه، كذلك ما للمؤمن التقي خير إلا في لقائه، ومن كان فعله الحكمة، وقوله الحق، وكلامه الصدق، وتدبيره

العدل، وجزاؤه القسط، وعطاؤه الفضل، وفضله لا تبلغ الأوهام تصوره، ولا تطمع العقول في تحصيله كيف لا يكون محسنا.

واعلم يقينا - وفقنا الله وإياك لما يرضيه - أن الله جل ذكره لو صور العالم كله علوه وسفله على أحسن صورة رجل واحد، ثم جمع له كل عقل حواه من عقول العالمين الكروبيين والمقربين وحملة العرش، والروح والملائكة، والإنس والجن أجمعين، وكل ذي نفس فيما أحاط به الكون، ثم ضاعف ذلك في العقل والتمييز أضعاف ما حواه من أعداد الخلائق أجمعين، ثم يضاعف ذلك أضعافا مضاعفة، ثم كشف له عن حقائق الأمور، وأظهر له خفي المستور، وأعلمه عواقب المآل، وأطلعه على حكمته في توسط الأواسط، وخفي بره في مسالك تدبيره؛ لما وجد نقصا ولا خللا وما ازداد إلا إيمانا وعلما، كيف لا وقد خلقه بالحق الذي يأوله إلى أن يبينه الحق المبين لهذا الحق أوجده وعن هذا الحق فضله، هذا هو الحق اليقين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾[البقرة].

فهذه - وفقك الله - جملة في محكم إحسان الله ﷻ في آيات العالم عليها، فاعلم وإياها فالزم، وما عليك من نقصك عن هذا المعتقد، فارجع إلى ربك فهو من المشتبه المحذور، التشابه المطلوب في تلاوة العقول اللوح المحفوظ، بقول الله جل قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:١٠]، ويقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[النساء]، أولئك يتلونه حق تلاوته، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾[هود]، هذه أمهات الكتاب المبين؛ فقف على حقيقتها وإلا زلت عن العصمة قدمك، وزاغ عن سنن الهداية قلبك، ثم لم تكن من الموقنين.

التعبد

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[البقرة].

يا أخي، إن كنت ترغب في حب الله تعالى إياك فأحسن في عملك كله، وأحسن في علمك ونظرك وتفكرك وفي صلاتك التي صليت، وفي صيامك إذا صمت، وفي شهادتك إذا شهدتها، وفي عملك كله، وفي قيامك وقعودك ونومك ويقظتك وحركتك وسكونك، وفي شأنك كله؛ فإنه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه يحب الإحسان

والمحسنين، وقد علمك رسول الله ﷺ ما الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)]، فاعمل على ذلك في ائتمارك وانتهائك، وفي حال تناولك ما أبيح لك تكن من المحسنين.

اسمه المفضل وذو الفضل

يقال منه: أفضل يفضل فهو مفضل، والمفضل هو ذو الفضل، أما المفضل فمن أسماء الأفعال، وأما ذو الفضل فربما أشكل التحقق فيه عند التعرف له؛ هل هو من أسماء الأفعال، أو من أسماء الذات، أو هو عبارة عنها جل جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه، أو هو عبارة عنهما، وأن يكون من أسماء الأفعال في وجوهه كلها أولى والله أعلم بالصواب؛ وإنما قلنا هذا من حيث إنه لا يداني في صفة ولا يضاهي فيفاضل بينه وبين سواه، فيكون له فضل على من سواه من هذه الجهة على غيره، فإن كان المعتقد فيه أنه ذو الفضل كله، وهو الفاضل على معنى حصر الفضل كله له لا لسواه إلا ما أعطى منه ما شاء لمن شاء، فهو من أسماء الذات وإلا فهو لأسماء الأفعال أقرب، يقال: مفضل، أي: كثير الفضل والخير، وإنه قد تجاوز وجوه الخير كله الواجب والمعهود إلى نوافله؛ لذلك ما يأتي قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[المائدة:٥٤] إلا مجاورا لذكره ما أعطاه أهل العلية في الدرجات، ومنه قول ابن رواحة رحمه الله في رسول الله ﷺ:

إني توسمت فيك الخير نافلة   الله يعلم أني كامل البصر

فعبر بقوله: نافلة عن المعنى المخصوص به رسول الله ﷺ؛ لمكان النبوة والرسالة، وعن ذلك عبر عبد الله بن سلام رضي الله عنه وذكر أول لقائه رسول الله ﷺ، قال: فما هو إلا أن رأيته فعرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.

ويقال: أفضلت من الطعام وغيره فضلة: إذا تركت منه بعضه بعد قضاء الوطر، وقد فضل الشيء يفضل، والفضلة: البقية.

الاعتبار

عطاؤه جل جلاله وتعالى شأنه إما أن يكون عدلا، وإما أن يكون فضلا؛ والعدل: هو ما له أن يفعله بحكم الملك والجبروت والربوبية، والفضل: ما هو فاعله بحكم الإحسان والرحمة والامتنان، ومن أسمائه المبتلي والممتحن ﷻ معنى الابتلاء الاختبار، فاختبر الله ﷻ عباده بأن أمرهم ونهاهم وكلفهم في أثناء ذلك ضرائب، قابل بذلك من عباده صفة لهم جعلها فيهم هي الاختبار والدعوة؛ ليكون منهم في تلك ما قد سبق

---

(١) سبق تخريجه.

إظهاره منهم من عمل الاستيجاب، ما سبق لهم عنده من جزاء على ذلك من شقاء أو سعادة؛ ليقع العلم به شهودا بحكم الابتلاء أنه قد كان مع وجود المكلفين، كما وقع العلم العلي منه بهم قبل في التقدير بحكم الأحدية والفردانية أنه سيكون، وهذا كله راجع إلى التقريب بنفسه والإعلام بأسمائه الحسنى وصفاته العلا.

وأما الامتحان فإنه قد يكون بوجه التطهير، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[الحجرات:٣]، أي: طهرها وخلصها، لكنه وإن كان من ذلك أنه تطهير بحكم الابتلاء، يقال من ذلك: امتحنت الفضة والتبر، أي: خلصتهما بالنار، فالبلوى قائمة في تطهير القلوب من شوائب النفوس مقام الامتحان بالنار لجواهر الأرض.

وهو المنتقم جل ذكره وتعالى علاؤه وشأنه،الانتقام فعل منه بالعبد المبتلى، يكون ذلك الفعل جزاء لنكوص العبد عن طاعة الله ربه، والتخلف عن الاستجابة لله والرسول، وهو أيضا العقاب والانتقام من الله جل وعز بالمبتلى، يقابل من هذا العبد صفة يقال لها: الدعوى، فيمتحنه بالتكليف ليقف العبد على صدقه أو كذبه، وهو حكم يقابل من العبد وصفا معناه أنه لا يلوم إلا نفسه، ولا يحمد، ولا يشكر إلا ربه بحكمة العلم.

وهو بالجملة تتعرف به العباد عظم قدر صفات الله جل وعز علمه، وصدق كلماته، ومضاء مشيئته، وعظيم اقتداره على سوق ذواتهم بإرادتهم إلى ما أراده منهم، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، وهو الشديد العقاب جل وتعالى ذلك ظاهر معلوم، وهو السريع الحساب سبحانه وله الحمد يتخرج على وجهين:

أحدهما: بمعنى أنه سريع الحساب يحاسب الكل كما يحاسب الواحد وهو الواسع لذلك كله، كما قال جل قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[لقمان:٢٨]، كذلك المحاسبة، كذلك علمه بهم، وقدرته عليهم، وإرادته فيهم ولهم وبهم، وكما يعلم نفسه جل جلاله وتعالىٰ شأنه دون معاناة ولا مهلكة، كذلك أمره كله.

والمعنى الآخر: أنه يعاجل بعقوبته من شاء عقوبته على ما شاء من ذنوبه، وهو الشديد البطش ﷻ ذلك معلوم بظاهره، وهو الأليم الأخذ تبارك وتعالى، أليم بمعنى: أن أخذه مؤلم وعقابه موجع.

اسمه المرسل تباركت أسماؤه وتعالت صفاته

يقال منه: أرسل يرسل فهو مرسل، فهو الرسول للواحد والاثنين والجميع،

والمرسل أيضا والرسيل.

الاعتبار

هو الله الذي لا إله إلا هو مرسل الرسل وباعثهم إلى عباده برسالاته، ومنبئ الأنبياء بوحيه، ومنزل الملائكة ـ عليهم السلام ـ عليهم بالروح من أمره، ذي المعارج، مرتب المراتب، ومقسم الحظوظ، ومهيئ النزول، ومدبر الرسل، وشارع الشرائع، ومنحل النحل، ومنهج السبل، عزز الدين القيم في جبلة القيمة، ومشج الأمشاج بمعاني الإسلام في وجود الخليقة، ثم قال للسماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[فصلت]، ففطرهن ﷻ، أي: أظهرهن عن وجود علمه العلي إلى أن أظهر الوجود كله بعضه لبعض، خلا ما كان عليه عنده؛ أعني: الوجود من علم به ومعرفة له في حيث لم يكونوا لأنفسهم موجودين على وجوده إياهم في علمه العلي، وقدرته المحيطة، ومشيئته الماضية، مع ما أودع ذواتها من مخافته وإعظامها إياه وقنوتها له؛ ولذلك عرفته عرفانا لا تنكره بعده أبدا؛ ولذلك عنت لعزته، وقنتت له، وسبحته، وحمدته، ورهبت من خشيته، واستجابت لدعوته: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾[الرعد].

وأنه لما فصل الحق المبثوث في عالمه والموجود في خليقته، فسجنه في الأخلاط وأسكنه بين الأضداد، ورمى الروح بالنفس، والعقل بالهوى، والعلم بالجهل، والذكر بالنسيان، واليقظة بالغفلة، والإيمان بالكفر، والصدق بالكذب، والإجابة بالإباية، والخضوع بالكبرياء، والصبر بالجزع، والحلم بالسفه، والهداية بالضلالة، وقابل كل صفة محمودة بضدها مذمومة، ضل من أجل ذلك، ذلك هذا الحق المبثوث في بعض مواطنه عن أوليته، وأخطاء مقصده، وجهل عبادة ربه فأعرض عن ذكره؛ إذ كان من قضائه الحق أن ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء:٨٤]، واضحا بذلك طلب رشده في حقه مراما معتضا، وابتغاء معجزا والتماسا منيعا، فعطف عليه الرؤوف الرحيم البر الوصول ﷻ بعظيم فضله وعذره بكريم آفته، فأرسل الرسل إليه وأنزل الكتب بالحق من عنده عليه، وبصره آثاره في مصانعه، وبين له آياته في خليقته، وأسمعه شواهده في بريته.

وكذلك سن له السنن، ونهج له المناهج، وبين الحق من الباطل والشبهة من الحقيقة؛ فأصبح المؤمن وقد وجد مرتقى سهلا فارتقى، ومسلكا نهجا فسعى، ومرعى عذبا فاستمرى؛ فتاب إلى ربه وأناب، وارعوى لوعيده وانزجر، فأفصح بالحكمة بعد

إعجام، ألا وربما عثر الجواد ونبا الصارم وذل اللبيب، فبعد بقدر ذلك ونأى حتى لا يلوي على رشد، ولا يعرج على حال، ولا يربع لمقال، ثم الله ﷻ العواد بالخيرات المرجو للصالحات، يقيل العثرة بالتوبة، ويقبل المعذرة، ويعفو عن الجريرة فيصلح المفسد، ويقيم العوج، و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[الروم:٤].

ولما شاءه ﷻ من اقتران شهادة التوحيد شهادة الرسالة من عنده إلى عباده أوجد العالم على معنييهما، ولقنه مقتضى شهادتيهما وأقامه قائما على حقيقتهما، وجاءت الأسماء والصفات لله سواهما، ومعاني الشرع في أثنائهما كل على مسافة وموضع مقامه، قال الله جل قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، هذا المعبر عن الأسماء والصفات: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الجاثية:٢٢]، هذا المعبر عن معاني الشرع في صفات الحق الموجود في فطرة العالم والحق ينتظم الكل، وقد تقدم الكلام في دلائل النبوة وسلوكها في العالم في اسم الشهيد ﷻ، والكلام هنا في الرسالة، وتعرف طرفها في الوجود، فمن آيات ذلك إرسال الرياح اللواقح مبشرات أو منذرات، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾[الروم:٤٦]، و﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، بالياء خاص الدلالة، وبالنون لدلالة الوحدانية والبعث والنشور، وكما الرياح مبشرات فكذلك هن منذرات كريح عاد وغيرها.

ثم آيات إنزاله العلم واليقين إنزاله الماء من السماء إلى الأرض، وتصريفه إياه إلى ما صرفه إليه، كذلك ينزل العلم والكتاب والوحي من السماء إلى أهل الأرض بواسطة الملائكة على رسله يصرفه في أهل الأرض إيمانا وطاعة وابتغاء، رضوانا أو كفرانا، عصيانا وتكذيبا، وإخلاصا ورياء إلى غير ذلك، وأما نزول أمره العلي من فوق العرش العظيم فهو باطن الطريق وهو جامع لهذا كله، فمثل الماء بواسطة الرياح والسحاب تسوقها الملائكة، مثل الرسول ﷺ يأتي بالرسالة من أمر الله ﷻ بواسطة الملائكة عليهم السلام والرياح في مقام الأمر، قال رسول الله ﷺ: «**الريح من روح الله**»[1]، وفي أخرى: «الرحمن»[2]، وقال الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء:٨٥]، والرسول الذي يحمل العلم بما فيه بمنزلة السحاب تحمل الماء، وقد تكون الرياح مبشرات بالماء

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٠)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٧)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٦٩٩، ١٠٧٠١، ١٠٧٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه النسائي في الكبرى (١٠٧٠٥، ١٠٧٠٦) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

والغيث، ومنذرات بالصواعق والعذاب نعوذ بالله من عذابه لمجيئها بأمر الله، ولما تمر به في سبل الأجواء من معنى الفيحين اللذين من جهنم.

والماء ينزل من السماء بواسطة الملائكة، كذلك الوحي ينزل من السماء بواسطة الملائكة، والماء غسول ومطهر، كالعلم الذي ينزل من السماء، ومثل ما يأتي به العلم عن الله جل ذكره مثل غسول للذنوب مطهر مكفر للسيئات، ومثل بقاع الأرض مثل المكلفين، ومثل أوديتها مثل القلوب تحمل على قدرها، وتسيل بما فيها على قدر سعتها وبعد مبعثها، ويحمل الغثاء والزبد كما تحمل القلوب الباطل والشبهات والوساوس والخطأ، ومثل نبات البقاع عن الماء مثل أعمال القلوب عن العلم الوارد عليها: الطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين.

ومن آيات الرسل - عليهم السلام - والرسالة الريح تجري الفلك في البحر، فمثل البحر مثل الدنيا، ومثل الجانب المعبور إليه مثل الآخرة، ومثل الفلك مثل الرسول بوجه، ومثل الرسالة بوجه، ومثل متبع الرسول الحامل لما جاء به الرسول من عند ربه بوجه، ومثل الريح مثل الأمر النازل على الرسول من وجه، ومثل الوعيد السابق لمتبع الرسول بوجه، وكالملائكة للرسول والرسالة، يقول الله جل قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾[الشورى:٣٣].

ومسلك السفينة مثل الرسول في أمته بوجه، ومثل العقل في المكلف الذي هو خليفة الله في ابن آدم بوجه، وهو العبد المسوي في إعلاء به حييت جملة الحامل، مثل صاحب هدايته مثل العلم والرسول، ولذلك قال عز من قائل بعد ذكره الفلك وجريها في البحر: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[الجاثية]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى].

ومثل الفلك أيضا مثل جملة المخلوقات، ومثل الريح مثل الروح الجائل في الجملة بوجه، ومثل النفس الكبرى التي شملت الجملة من وجه، ومثل الماء الحامل للسفينة مثل الأمر والقدرة التي تعتمد الجملة، ومثل الهواء المحيط بها مثل الحول المحيط بالجملة، ومثل ملاحيها وخدميها مثل الملائكة الذين يملكون الملكوت ويجيدون تماسكه بإذن ربهم ﷻ، ثم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل:٦٠]، في السماوات والأرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[فاطر:٤١].

الشواهد من القرآن العزيز على ما تقدم ذكره، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ

فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[الأعراف]، وكما يخرج به موتى الأجسام، كذلك يخرج بأمره الباطن المماثل لهذا الظاهر أموات الدين؛ لذلك قال وقوله الحق: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨]، فكان وجه أول الخطاب الدلالة على إحياء موتى الأبدان، وباطنه دلالة على إحياء موتى الأديان؛ لذلك قال جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾[الأعراف]، والشكر إنما يكون مع حياة الدين، وقال جل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[النحل]، أي: العود بعد البدء، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾[الأعراف:٥٨]، أي: يجعلها آية على الوحدانية بوجه ما، وبوجه ما دلالة على عظيم القدرة على إثبات مضاء المشيئة والعلم والصفات إحياء الموتى، وبوجه على معرفة وجود رسالة.

وقال عز من قائل وقد سأل الكفار آية على إثبات رسالة رسول الله ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء]، ثم قال جل قوله وعلاؤه وشأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾[الشعراء]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾[الحجر] أي: على صحيح وجود الرسالة، أو لم يروا إلى كل شيء أنبتناه كيف يسلك السنن مسلكه، لا يتعداه في لونه ومطعمه ورائحته ومنافعه ومضاره وشكله، وسائر حكمته التي ضمنها لا يتعداها ولا يتخلف عنها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على وجود الرسول والرسالة وسنن المرسلين، وإنه كما أن الأكوان كلها سنت لها سنن تستن بها في طرق تكوينها، كذلك المكلفون من العباد لابد لهم في سبيل وصولهم إلى ربهم من لزوم سنة تستن لهم، وتحد حدودها بهم، يسيرون عليها لا يتعدونها.

ثم جعل - وله الحمد - ينسق آيات الرسالة وقصص المرسلين إليهم أمة أمة، ونبيا نبيا إلى أمة محمد - صلوات الله وسلامه على جميعهم - بقوله الحق: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ إلى آخر السورة [الشعراء]، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[النحل:١]، إلى قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل:٢]، ثم أنشأ جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه ينسق آياته على ذلك، وجعل مع ذلك توجيه الخطاب إلى

تعداد نعمته على عباده بقوله الحق: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ ﴾ [النحل:٤].

فأبطن علامة الرسالة لما ذكرها في أول الخطاب، وما أبطنه هو إجراؤه إياه على سنن الخليقة في سنة التقليب على سواء التدبير، فكان في ذلك إعلام بالرسالة بباطن الخطاب في قوله: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ ﴾ [النحل:٥] إلى قوله: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ [النحل]، فظاهر ما تلوناه من هذه السورة: تعداد النعم، وباطنه: آيات الرسالة وإعلامها؛ ولذلك أظهر ما أبطنه بقوله الحق: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ ﴾ [النحل]، وكذلك قوله عز من قائل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[النحل:١٠، ١١].

يعرض بباطن الخطاب في ذكر إنزال الماء، وإنباته النبات عنه على أنواعه كل على سنته بإنزاله وحيه القرآن والحكمة، وباختلاف النبات على أنواعه باختلاف أعمال المكلفين؛ ليفاضل البقاع التي أصابها الماء تعريضا بالقلوب التي وعت الوحي، فاختلفت في فهومها واعتقادها، وانبعاث أعمال جوارحها عنها، وبأنه كما يكون عن كل نبات زريعة يكون عنها مثال ذلك النبات.

وكذلك من انتسال الأنعام والبهائم والحيوان كله بعضه من بعض، فلا يكون عن الخيل إلا الخيل، وعن الحمير إلا الحمير، وعن الإنسان إلا الإنسان، كذلك لما كان عن هذا الماء المنزل من السماء: ﴿ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ ﴾[النحل:١١]، ومن كل الثمرات من ﴿ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ ﴾[الأنعام:١٤١]، كذلك كان الماء الذي كان عنه هذا كله من جنات نزل عنها، كذلك قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾[النحل:١٢]، توجيه الخطاب إلى تعداد النعم، لكنه تعريض بباطنه إلى ذكر بديع التدبير، وحسن التقدير وعظيم القدرة على سنن واحدة وشرعة سواء، وهو أيضا إعلام منه بما هو الحق المبين في الدار الآخرة على سعة تلك الدار، وانفتاح الوجود الكريم فيما هنالك لذلك، وهو أعلم ذكر الآيات هنا بالجمع فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ ﴾[النحل]، أي: يعقلون ما غاب بما حضر، وقد أظهر فيما بعده ما أبطنه هنا في قوله: ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ

يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ [النحل]، وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان]، أظهر في ذكره لمن هن آيات له ما أبطنه في صدر الكلام.

ألا تسمع إلى قوله - جل من قائل - بعد ذكر الرسالة ورد المرسل إليهم، وذكره عنادهم، يخاطب رسوله ﷺ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام:٣٥] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦] إلى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام]، ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

فأعلم بذلك ﷻ أنه جعل العوالم أمما كنحن، كل أمة تؤم نوعها وتتبع شرعة إمامها آية على رسالة رسله؛ كذلك يمتدح ﷻ بقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، يقول: ما تركنا فيما أوجدناه، وفيما كتبناه في اللوح المحفوظ وجودا إلا دالا على ما أردنا إثباته من ذلك، من العلم بالله وكتبه ورسله، وما أخبر عنه من غيوبه عم بذلك الوجود؛ ليبين لأولي الألباب ما زمه الكتاب، ثم ذكر الكل بحكم الحشر إليه.

وفي هذا من الفقه أن الله - جل ذكره - يعيد كل شيء كما بدأه، حتى أنه لا يدع نباتا ولا حيوانا إنسا وجنا إلا هو يعيده، وبالجملة فالدنيا كلها يعيدها كما بدأها ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]، ثم هو عز جلاله يميز الخبيث من الطيب؛ فيجعل الخبيث في جهنم والطيب في الجنة هذا هو الحق، ولا تحقيق لقول من قال: إنما يعيد المكلفين فقط بقية بقيت عليهم من تيه التائهين وباطل المبطلين.

ألا تسمعه يقول جل من قائل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] إلى قوله جل قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام]، ولهذا نظائر في القرآن العزيز، ولظهور هذا التبيان أعقب ذلك بقوله الحق جل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام:٣٩] أي: عن سبيل

المرسلين ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام:٣٩] كما قال جل قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣]، وكذلك قوله جل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[الروم:٤٧]، ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الروم].

هذا الخطاب كله وجهه إلى وصف إرسال الرياح، وإنشاء السحاب وإيجاده الماء فيها وإنزاله إلى أهل الأرض، واستبشار من أصيب بذلك الماء وحزنهم قبل إنزاله، وباطنه آية على ما بدأ به المعنى من إثبات الرسالة، وما يجيء به من العلم والحكمة وأحوال من آمن بما جاء به المرسلون، واستبشارهم وإبلاس الجاهلين الغافلين عنه قبل الإيمان بما أتوا به والتصديق لهم.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾[الروم:٥٠]، أي: في الأرض وفي القلوب: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[الروم:٥٠]، أي: يوم البعث ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾[الروم٥٠]، موتى الأبدان وموتى الأديان، هذا بباطن الآية للإعلام بشرعة الرسالة، ونزول الوحي من عند الله ينبئهم على علاماتها ويريهم آياته بما عهدوه وما عاينوه، كذلك جميع خطاب القرآن إن أظهر ذكر الرسالة أبطن ذكر علاماتها، وإن أظهر ذكر آياتها الظاهرة من الوجود أبطن ذكر علامات الرسالة، لكنه أبدا ينبه بسنته التي لا تبديل لها على سنة المرسلين، وإنه كما أن للوجود سنة يستن عليها إلى كماله كذلك طريق الرسالة، فيثني ذكر علامات التوحيد على ذكر علامات الرسالة، وكذلك هذه على هذه.

الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني، وكذلك قوله الحق بعد قول المرسل إليهم: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس]، فقال جل قوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾[يس:٣٠، ٣١] إلى قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ [يس:٣٣] أي: على ما تقدم ذكره: ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾[يس:٣٣] إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس]، فأظهر بذلك الشكر ما أبطنه في ذكر إحياء الأرض إلى قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ

﴿الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يس]، كل على سنة يسلكها، وجهة من الحكمة لا يتعداها قد عرف بها، وقد تقدم ذلك، إلى قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾[يس]، كل على سنن سن له، وأمر من الكون ضمنه وقد تقدم، إلى قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[يس].

وقد تقدم من الكلام إشارة إلى معنى حمله العباد في الفلك، وأما حملهم على المركوب في البر، فقد قال عز من قائل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ...﴾[النحل:٨]، فهو الذي يحمل المؤمنين من معونته على أبدالهم في طريق الرسالة، وسنن الشريعة بإزاحته عنهم أعباء التكليف، ووضعه الآصار، وتخفيفه أثقال العبادات بوجود النشاط، ورفع الكلال والتعب والخير الموجود عن المحبة والرضا والسخاء والتوفيق، والأخلاق المحمودة على مثال الخيل والبغال.

ومنهم: من يحمله على مثال الحمير، ومنهم من يحمله على مثال البراق، فذاك الذي أتعب المجرين وسبق السابقين خوفا ونشاطا وطيا للمراحل وقطعا للمقامات والمنازل، قد أحرز الميدان وحوى قصب الرهان يفتح المقفل، ويوضح المشكل يدرك النجوى بالفحوى ويعلم المستتر بالإيماء يوقن بالظن ويعاين بالحدس.

ومنهم: من يمشيه على رجليه وإن كان سويا على الصراط.

ومنهم: من يمشي مكبا على وجهه، وكيف ما كان محمله في الدنيا باطنا يكون محمله ظاهرا في المحشر سواء محياهم ومماتهم.

ووجه آخر من الاعتبار، وهو أن الله ﷻ رتب إرساله الرسل في أيام الدهر على وفق أوقات الصلوات في أيام الزمان؛ إذ أوقات الصلوات في أيام الزمان موافقة لما هي لها أصول ترجع إليها في الدهر، قال رسول الله ﷺ: «**إنما مثلكم فيمن كان قبلكم من الأمم، كمثل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من أول النهار إلى غروب الشمس على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى صلاة الظهر، ثم قالوا: لا حاجة لنا في أجرك ولا عملك، ثم قال: من يعمل لي من صلاة الظهر إلى الليل على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى إلى صلاة العصر، ثم قالوا: لا حاجة لنا في أجرك ولا عملك، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى الليل على قيراطين قيراطين، فجاء الله بنا، فنحن والحمد لله أكثر أجرا وأقل عملا ونحن الآخرون السابقون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا،**

وأوتيناه من بعدهم»[(١)].

فأنبأ ﷺ أن الإجارة انعقدت في أول النهار والليل، قد تقدم مضيه بدليل أن أول المستأجرين هم اليهود.

وتمام الاعتبار أن يجمع إلى هذا الحديث حديثه ﷺ الذي ذكر فيه أن الله خلق التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الثرى يوم الاثنين، وفي أخرى الشجر والنبات، وخلق الظلمة يوم الثلاثاء وفي أخرى المكروه، مكان الظلمة، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر، وفي أخرى ساعة من النهار ما بين العصر إلى الليل، ويتصل بهذا قول الله جل من قائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان:٥٩]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ...﴾[سبأ:٢]، المعنى إلى آخره، وبعد أن خلق الله جل ذكره آدم عليه السلام وزوجه في الجنة، قال: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[الأعراف:١٩]، فمكث فيها بقية النهار وواقع الخطيئة وقت غروب الشمس من يوم الزمان، فأهبط إلى الأرض، وتاب الله عليه مقدار وقت صلاة المغرب، فكانت مدته عليه السلام ومدة الأمة من بعده من يوم من الدهر مقدار ما بين صلاتي العشاءين، ولهذه المدة الإشارة بقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[البقرة:٢١٣]، وموضع المحذوف ذكر ضلالهم، كأنه حذف من الكلام: وضلوا وتفرقوا واختلفوا، أو ما كان معنى هذا الكلام وكان ذلك فيهم مقدار فحمة العشاء في اليوم الزماني، حيث تنتشر الشياطين؛ فإن الله جل ذكره قد جعل كل حادثة في الزمان عن أصل ترجع إليه في الدهر حكما ومعنىً، فافهم.

ثم إنه جل ذكره قال جل قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣]، من مبعث نوح عليه السلام إلى ما وراء ذلك، وأول ذلك مقدار صلاة العشاء الآخرة.

ثم بعث الله خليله عليه السلام على مقدار نصف الليل الساعة المباركة الموجودة في الليل الزماني.

ثم بعث رسوله موسى عليه السلام على مقدار صلاة الفجر، واعترى بني إسرائيل الخلاف الحادث في نبوتهم على يدي السامري على مقدار طلوع الشمس.

---

(١) رواه البخاري في الإجارة (٢٢٦٨، ٢٢٦٩)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٥٩)، وفي فضائل القرآن (٥٠٢١)، وفي التوحيد (٧٤٦٧، ٧٥٣٣)، والترمذي في الأمثال (٢٨٧١)، وأحمد (٦/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم بعث الله جل وتعالى عبده و رسوله وابن أمته عيسى - صلوات الله وسلامه عليه - لمقدار الظهر.

ثم كان مبعث محمد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - لمقدار صلاة العصر، ولجواز الصلاة في كل وقت من الليل والنهار، خلا الساعتين المنهي عن إيقاع الصلاة، كان بعث الرسل والأنبياء في كل زمان إلا ما شاء الله من ذلك، كما كان الضلال منهم، والإيقاع بهم على سبيل المجازاة لهم على ذلك فيما كانوا يوافقون، من أمثال ساعات النهي المقدم ذكره في أزمان الكواكب حال طلوعها وغروبها وتوسطها، على نحو ما تقدم ذكره في زمان طلوع الشمس وغروبها وتوسطها، إذ العلة الموجودة في طلوع الشمس وغروبها وتوسطها، التي عبر عنها ﷺ بأنها تطلع وتغرب، وتستوي على قرن الشيطان موجودة في طلوع غيرها من الكواكب وغروبهن وتوسطهن، التي ألحق بها القائلون بالتنجيم والتربيع المقابلة والتسديس ونحو هذا.

وإنما جعل الله - جل ذكره - ما جعله من اقتران الشيطان بها، كما ذكره رسول الله ﷺ لحكمته جل ذكره في ذلك بالغة؛ ولذلك ما امتزج في هذه الدار الخير بالشر، والضر بالنفع، والسقم بالصحة، والضلال بالهداية، والجهل بالعلم ونحو هذا، وقد كان قبل مواقعة الخطيئة من آدم عليه السلام في مقدار غروبها يومئذ، وتحوله من الجنة إلى سجن الدنيا دار الشقاء والنصب لأجل ذلك، ويكون الخلاف الأكبر على يدي الأعور الكذاب الدجال، لعنه الله وخفف على المسلمين وطأته، وقصر مدته في المقدار الذي هو غروبها من يومنا هذا.

ومن تحقق النظر في مطالع الكواكب وغروبها وتوسطها على هذه السبيل؛ أعني: سبيل النبوة، استقام له تأويل إبراهيم عليه السلام لما نظر في النجوم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات]، فهذا سبيل النبوة ومن أصعد به في علياتها، وتحقق حقيقة السير في قويم منهاجها أدرك من علمها ما هو واضح أثرا، وأصدق خبرا، وأقرب نفعا في الدين والدنيا من تخبط المنجمين، وتخليط من زاغ بالرأي عن سواء سنن الأنبياء والمرسلين من قولهم بالقرابات، والنظر منهن من تربيع وتسديس ومقابلة إلى غير ذلك من تهاترهم وتخبطهم، وربما كان منهم وقع الصدق في الفرط: إما باتفاق لأمر الله جل ذكره، وأما الموافقة منهم الساعات المذكورة وبإنباء النبوءة، فيظن بهم الصدق في جل شأنهم.

ونرجع بالكلام إلى غرضنا، ومن معنى ما تقدم ذكره في حديث رسول الله ﷺ من

ذكر الإجارة والعبرة بمقتضاه ما وافق ذلك في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل؛ فإنه قال فيه: كثير سيتقدم الآخرون الأولين ويكون الأولون ساقة، قال: ولذلك تشبه ملك السماوات برجل ملي خرج في استئجار الأعوان في أول النهار لحفر كرمه، وعامل كل واحد منهم في نهاره على درهم، ثم أدخلهم كرمه، فلما كان في الساعة الثالثة بصر لغيرهم في الرحاب ولا شغل لهم، فقال: اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم وسآمر لكم بحقوقكم، فذهبوا وفعل مثل ذلك في الساعة السادسة والتاسعة، فلما كان في الساعة الإحدى عشرة ووجد غيرهم وقوفا، فقال لهم: وقفتم ههنا طول نهاركم دون عمل؟ فقالوا له: لأنا لم يستأجرنا أحد، قال: اذهبوا أنتم وسآمر لكم بحقوقكم، فلما انقضى النهار وقال لوكيله: ادع الأعوان وأعظم أجرتهم، وابدأ بالآخرين حتى تنتهي إلى الأولين، فبدأ بالذين دخلوا في الساعة الإحدى عشرة، وأعطى كل واحد منهم درهما؛ فأقبل الأولون وهم يرجون الزيادة، فأعطى كل واحد منهم درهما فاستنكروا ذلك على صاحب الكرم، وقالوا: سويتنا بالذين لم يعملوا إلا ساعة من النهار في شخوصنا طول نهارنا وعذابنا بحره، فأجاب أحدهم، وقال: لست أظلمك يا صديق أما عاملتني على درهم؟ فخذ حقك وانطلق؛ فإنه يوافقني أن أعطي الآخر مثل ما أعطيتك فلا يحل لي ذلك، وإن كنت أنت حسودًا فإني أنا رحيم.

ومن أجل ذلك يتقدم الآخرون الأولين، ويكون الأولون ساقة، فالمدعوون كثير والمتخيرون قليل، فالمستأجرون في الساعة التاسعة هم أصحاب محمد ﷺ والمستأجرون في الساعة الحادية عشرة هم أصحاب عيسى ﷺ ومن تبعه من أمة محمد - عليهما السلام - في آخر الزمان؛ ولذلك يسوي بينهم يومئذ في العطاء بدرهم درهم على طول عمل الأولين، وقصر مدة عمل الآخرين، وقوله عليه السلام: «**ويكون الأولون ساقة**» يعني الأولين من اليهود والنصارى، وعلى هذا يتفق الحديثان، والله أعلم.

واعلم أن صفة الرسالة كغيرها من صفات الحق المفطور عليها العالم تنشأ بنشء العالم نبوة، فأولها - أعني آدم عليه السلام - في الاعتبار كمبدأ الإنسان يبتدئ بالكفالة أول أمره على حكم التدريج، وسنن السنة حتى يحوج إلى نفسه، كذلك فعل جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه معه عليه السلام في أوليته أدخله الجنة، وكفله فيها، وكفاه السعي على نفسه، ورزقه من غير حساب، قال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه]، وكلفه علم الأسماء منزلة الطفل المكفول، الذي أول ما ينبغي أن يعلم تسمية الله تعالى في بدايات أموره وشؤونه وحمده في نهاياتها، ثم يدرج في الشهادة،

ثم إلى المعرفة، كذلك أخرج آدم عليه السلام من الجنة على المقدار الذي يخرج الولد عن كفالة أبيه، توكل إلى سعيه وكدحه وكفله يومئذ من الأعمال سهل، ومن العلوم ما هو طريقه المعرفة، سهل له ذلك بالتعليم والإنباء والهمة على ذلك مسالك المعيشة، تناولها السعي إليها، ولطف له كما يلطف بالمكفول.

ثم بعد لم يزل التكليف يشتد على سنن التدريج على أمة بعد أمة حتى انتهت النبوة إلى بني إسرائيل، ووافق ذلك تكهل الزمان وتحنكه، فاشتد عليهم التكليف لاستواء الزمان بهم مرة ولخلافهم وعتوهم على أنبيائهم أخرى، ثم جاء الله بمحمد ﷺ فصرفه من تلك الشدة التي أوجبتها حال الكهولة إلى الحنيفية السمحة، التي سمح بها لحال النبوة في زمان إبراهيم عليه السلام فكان ذلك بمنزلة المكلف حال الشيخ رقة عنه بعد الشدة لضعفه، وخفف عنه بعد التثقيل، وقد قال رسول الله ﷺ في ذكره عيسى عليه السلام: «إنه يزيد في الحلال» ومصداقه من قول الله سبحانه قوله لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]، وبحسب ذلك يكون التخفيف إن شاء الله ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[المائدة].

اسمه الدهر جل ذكره وتعالى علاؤه وجده

قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله**»[(١)].

وروى صلوات الله وسلامه عليه عن ربه ﷻ: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره**»[(٢)].

فيلزم على هذا تعرف معناه وتطلب سبل اعتباره حسب الاستطاعة والوسع، وجاءت الرواية عن رسول الله ﷺ بالنصب والرفع معا في قول الله جل ذكره: «**وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره**»[(٣)]، فمن الممكن أن يكون نصبه على القطع، كقوله جل من قائل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾[الأنعام:١٥٣]، وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[النمل:٥٢]، ويمكن أن يكون نصبه على معنى فقدان الخافضة، وإن بعد، وأمكن منهما أن يكون نصبه على الاختصاص، كقول جبريل صلوات الله

---

(١) رواه مسلم في الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦/ ٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٨٢٦)، وفي التوحيد (٧٤٩١)، ومسلم في الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦/ ١، ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في التفسير (٤٨٢٦)، وفي التوحيد (٧٤٩١)، ومسلم في الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦/ ١، ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وسلامه عليه: «إنا معشر الملائكة لا ندخل بيتا فيه صورة ولا كلب»[(١)]، وقول رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة»[(٢)]، ويمكن أن يكون نصبه على التمدح والافتخار كقول الشاعر:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل

وقول بعض العرب: إنا نحن بني فلان نفعل ما نشاء.

وكقول الشاعر:

فهو فـــداء أمير المـؤمنين إذا	أبدى النواجذ يوم باسل ذكر
الخائض الغمر والميمون طائره	خليفة الله يستسقى به المطـــر

فنصب قوله: الخائض الغمر والميمون وخليفة الله على المدح.

الاعتبار

المفهوم من إطلاق اسم الدهر هو ما لا أول له ولا آخر من الأبد، وحقيقته واقعة على أبد الأزل، الذي هو دوام بقاء البارئ جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه، فعلى هذا هو اسم الله حق لله جل ذكره، ثم قد يقع على ما لا آخر له وإن كان مستفتح الوجود، وهو دوام العالم الكلي، وكذلك آباد الآخرة في الدارين؛ فإن العالم بكليته، والجنة والنار، والعرش والكرسي، وما لم يأذن الله ﷻ بإعدامه بعد إيجاده وإياه هو باق، غير معدوم الجملة بإبقاء من الله ﷻ له ينشئه ويعليه، فيبدل من بعضه الدنيا من الآخرة، والأرض منه السماوات بما ليس بذلك.

وجملة هذا المشار إليه هو العبد الكلي، القانت للرب، المتعبد لخالقه وجاعله بجميع ما حواه من تفصيل وتوصيل، وخلق أمر إيجاد وإعدام بجميع ذراته وأجزاء أجزائه، وإن كانت الأزمان تتخلله والحوادث تتعاوره، وتداور الدوائر على الدوام تتناوبه، والنقص والزيادة تختلفان عليه، فإن ذلك في التمثيل كالأعراض المتعاورة للشخص الجزئي حال إبقائه، ثم قد يوقع اسم الدهر على ما يظن به أنه غير منقطع أو ما يرجى

---

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٠٥)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٧٦، ٤٢٨٣)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٥١) من حديث ميمونة زوج النبي ﷺ، ورواه مسلم (٢١٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤٠٣٣)، ومسلم في الجهاد (١٧٥٧/ ٤٩) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ورواه البخاري في الفرائض (٦٧٣٠)، ومسلم (١٧٥٨، ١٧٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
ورواه مسلم (١٧٦١)، وأحمد (٢/ ٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيه أو عنده، ذلك كجزاء من أحسن الطاعة لله - جل ذكره - وأخلص في توجيه النية إليه، كما قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**ألم أخبر أنك تصوم الدهر؟**»[1]، وفي أخرى: «**تصوم لا تفطر وتقوم لا تنام**»[2]، وكان يقول: «**لا صام من صام الدهر**»[3]، وفي أخرى: «**من صام الدهر لا صام ولا أفطر**»[4]، وفي أخرى مكان الدهر: «**الأبد**»[5] في هذا النحو قول الشاعر:

سبيل الهوى وعر — ووعر الهوى بحر
ويوم الهوى شهر — وشهر الهوى دهر

ثم منهم من عبر باسم الدهر عن الزمان؛ إذ هو منفصل عنه وموجود عنه، وهو مفهوم قوله جل وعز: «**أقلب ليله ونهاره**»[6]، فأضاف الليل والنهار إلى الدهر، والأبد هو مرور الأزمان وتعاقب الجديدين، والأمد يقطع الأبد حاشى الدهر ليس له مسمى يقطعه سوى ما هو الأمد فيقطعه للأبد، ظن الأكثرون مع استعمال المقارنة والتجوز في العبارة على حال استصحاب الغفلة أنه إنما قطع الدهر وكلا، بل هو المحيط بالأبد والأمد وتعاقب الأزمان إلى مداها، ثم يرجع آخرًا إلى ما لا أول ولا آخر، وإنما سب الدهر من سبه؛ لتساهلهم في العبارات عن الزمان وجعلهم أحدهما مكان الآخر، وذلك توكيد في اللغة لاختلال الاعتقاد من أجل نقص العلم، ولسنا نحكي قول هؤلاء لجهلهم بالتحقيق وعدولهم بإغفالهم عن سواء الطريق، وفي هؤلاء يقول إنه - جل من قائل - منبها من سنة هذه الغفلة: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره**»[7].

ولم يكن لأذى عباده أن يصل إليه ولا أن يضره بشيء، لكن هذا يزول منه مع تعالي جلاله وعظمة كبريائه إلى مخاطبة العباد على قدر أفهامهم؛ لتتمكن الموعظة من قلوبهم، ولأجل عدولهم بهذا الاسم الكريم عن حقيقته القصوى، واستعارتهم إياه في نحو ما

---

(١) رواه مسلم في الصيام (١١٥٩/ ١٨٢).
(٢) رواه البخاري في الصوم (١٩٧٧).
(٣) رواه البخاري (١٩٧٩).
(٤) رواه مسلم في الصيام (١١٦٢/ ١٩٧)، والنسائي في الصيام (٢٢٨٣) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.
(٥) رواه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩/ ١٨٦، ١٨٧).
(٦) سبق تخريجه.
(٧) سبق تخريجه.

ذكرنا، جمعوه فقالوا في قولهم: دهر ودهور، كما فعلوا في اسم الأبد والأمد والزمان، فقالوا: أبد وآباد، وأمد وآماد، وزمان وأزمان، وليس الدهر كذلك، على سبيل الاستعارة ليس في الحضرة الإلهية ليل ونهار جاء ذلك عن رسول الله ﷺ، إنما ذلك دون السماء الدنيا فيما دون ذلك القمر، وما فوق ذلك تداور دوائر بالأمر، لكنه وإن لم يكونا فيما هنالك عينا فهما فيه حكما.

قال الله عز من قائل: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور]، أي: يعبرون عما شاهدوه مما لقنوه من الحكم إلى ما غاب عنهم، فيثبتون هنالك الأحكام وإن فقدت الأعيان، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ [الإسراء:١٢]، وأنه إنما ميز بينهما ليفصل أحدهما عن الآخر؛ ليبتغي عباده من فضله، وليعلموا بذلك السنين والحساب بمطالع الشمس والقمر ومغاربهما، كما يتعرفون في الجنة الغدو والعشي بتناوب ظهور نور الحق المبين وضيائه - عز جلاله - الله الحق المبين، كذلك يعلمون الحساب والسنين والشهور وإلى ما هو العلم والمعرفة أعلى من هذا وأسنى؛ لذلك قال: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾﴾[يونس]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ....﴾ إلى آخر الآية [يونس:٧]، ثم قال: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء] أي: أن كل شيء كان جملة في سابق التقدير والكتب الأولى، ثم فصله بعد إلى ما فصله إليه، كذلك قال: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[الأنعام].

فصل

قد تقدم أن الزمان كله بتداويره ستة أيام، فصلها جاعلها ومقدرها من يوم هو أول لها، ثم أنهاها بالتقدير إلى يوم هو آخر لها، إلى أن يحقق ذلك بالإظهار والإيجاد، مثال ذلك الستة الأيام التي هي السبت ثم الأحد إلى يوم الخميس، فصل الأول من يوم الجمعة، وأنهى آخرها إلى يوم الجمعة؛ لذلك سميت جمعة لاجتماع الأيام فيه، ولموجودات أخرى يوجدها جاعله فيه فهو جامعها؛ أعني: الأيام والمحيط بها، ومنه انفصالها وإليه عودها فيه يقلبها، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾[الأعراف:٥٤]، فهذه الستة المذكورة ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[الأعراف:٥٤].

كذلك خلق الخليقة في الستة أيام، ثم خلق آدم عليه السلام وسواه يوم الجمعة، فاليوم السابع هو يومئذ الاستواء، جمع سائر الأيام إحاطة بها وتقليبا لها وتدبيرا لما خلق لهن وفيهن، والخليقة كلها من سماوات وأرضين وما بين ذلك، وما علا وما سفل مسوى

وغير مسوى؛ ولذلك ما هي الخليقة كلها متساوية وغير متساوية، وما يقال فيه: إنه غير مستو فهو أيضا مستو على النحو الذي أريد به.

والمستوي لمن ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾[النمل]، استوى على العرش الرحمن جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه، ولذلك تماشج علوه وسفله العبد الكلي رحما وعطفا، ولأن المستوي على العرش هو الحي؛ حيي به العالم كله علوه وسفله، فهو ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾[سبأ:٣] فيه ولا أصغر ولا أكبر إلا هو يعلمه ويشاهده، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ﴾[الحديد:٤] ومع كل موجود بما هو لا إله إلا هو، كذلك لما سوى آدم عليه السلام حي فلم يعزب عنه علم شعر في جملته، ولا بشر إلا أحسه وعلم ما يعزوه ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الذاريات]، السبت لليهود والأحد للنصارى، وهدانا الله لهذا اليوم الذي اختلفوا فيه: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة]، فالحمد لله رب العالمين.

ثم يصعد النظر بعد إلى الأيام التي تقدم ذكرها في اسم الشهيد، وهو اليوم الأول المفصول من يوم الأزل الأول والآخر، واليوم الثاني: هو يوم المتوسط بين يوم المفصول وبين اليوم الذي أظهر فيه، ما كتبه وقدره في اليوم الثاني وهو الثالث: وهو يومنا هذا الثالث، واليوم الرابع: هو اليوم الذي ما بين الدنيا والآخرة المسمى: البرزخ، والخامس: يوم القيامة، والسادس: يوم الخلود في داري القرار، ثم لا آخر له لاتصاله بيوم المزيد، وهو اسم يوم الجمعة فيما هنالك.

فصل

ثم اعلم أنه وإن كانت السبعة الأيام هي عن قطع القمر ربع الفلك، وإن الشهر هو عن قطع القمر البروج كلها، وإن ظاهر الليل وظاهر النهار عن طلوع الشمس وغروبها، كما أن السنة هي عن قطع الشمس جميع بروج الفلك، وإن سنة الله ـ جل ذكره ـ أجراها بأنه حدث لطلوعها وغروبها، وانتهائها وتوسطها حوادث في الأرض، أجرى على ذلك كثيرا عن حكمته، ويلزم عباده عند ذلك عبادات جعل تلك المواسم مواقيت لذلك، ومواسم أذن لهم في ابتغاء فضله في ذلك، فكذلك سائر دوائر الأفلاك قد جعل ﷻ لكل خاص منها خاصة من الأمر والحكم ييسره له وسخره فيه وعاما منه أيضا يعمهم به، وجمع ذلك كله في الفلك الأعظم المحيط بما تحته من الأفلاك جملة،

عمه بها سوى ما خصه بها من الأمر الذي جعله له، ثم فصله فيما دونه من الدوائر تفصيلا بعد تفصيل، ذلك تقدير من عزيز عليم.

هنا فيما دون السماء الدنيا من الدوائر المحيطة بالأرض، ثم دوائر تحيط بالسماء الدنيا وبالأرض على الضعف من ذلك سعة وعددا وأمرا، ثم دوائر تحيط بالسماء الثانية والدنيا والأرض الأولى والثانية على التضعيف المذكور، ثم دوائر تحيط بالثالثة من سماء وأرض كما تقدم، هكذا إلى دوائر تحيط بالسماء السابعة والأرض السابعة على ما تقدم من التضعيف، ليس فيما علا من ذلك كله ليل ولا نهار عينا وحكما معا، قال الله ﷻ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الأنبياء]، وقال ﷻ في أهل الجنة: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾﴾[مريم]، وكما فيما هنالك البكور والعشايا والليل حكما، فحوادث الأمر بذلك والحكم على التضعيف ساعدا موجودا، فافهم علمنا الله وإياك من علمه.

هذا فيما دون الكرسي الكريم، وما في السماوات والأرض وما بين ذلك في الكرسي إلا كحلقة في فلاة، يقول الله جل من قائل: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فاقض بعقلك وتبصر بنور إيمانك مقدار الحلقة في فلاة من الأرض، ثم احكم بالتضعيف على مقدار ذلك وإن لم يبلغ كنهه عقلك إلا بإشارة من إيمانك، فكيف ترى سعة دوائر ما هنالك وتضاعيف الأمر، ثم ارم بوهمك إلى ما فوق الكرسي، فما الكرسي وما دونه في العرش إلا كحلقة في فلاة، وإن دوائر ما دون العرش قد أحطن بالكرسي وبالدوائر المحيطة به وبالسماوات والأرضين إلى ما تحت الثرى وإلى المنتهى.

وعلى ذلك فإنه جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه يرفع إليه من أهل الأرض عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل.

فصل

ثم اعلم - وفقنا الله وإياك وعلمنا من علمه - أن كل ما تقدم ذكره من دوائر؛ فإن لكل واحد منها يومه وساعته، ودقائقه وشعائره، وأيامه وجمعه، وشهوره وأعوامه، وأسابيعه وفصوله، بحوادث يحدثها فيها بمطالعها ومغاربها، وتوسطها وانتهائها، أبين مما شاهدناه وأكرم وجودا وأفخم أمرا وأعلى قدرا.

ولما كان ما هنالك من دوائر ليست كطلوع الشمس والقمر، وغروبها لموانع تمنع أبصارنا من مشاهدتهما قبل أن تطلع علينا، كذلك في توسطها وانتهائها، بل ما هنالك

مكشوف واضح بين؛ لذلك كانت وظائف عبادات من عند ربنا ـ عز جلاله وتعالى شأنه ـ سرمدية أبدا، دائمة أبدا ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء]، وطوقوا ذلك صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وعلى نحو ذلك كان فرض الصلوات أولا: خمسين صلاة وهن بوضوئهن، والأهبة لهن، ومن علت منا همته دام دوام الخدمة بتكثير النوافل بتوفيق من الله ـ جل ذكره ـ إلى ما هو إثارة لما علا فيما سفل، ومن استعمل الرفق بنفسه في مرام ذلك فليتنوع في الخدمة صلاة وذكرا، وقراءة ونظرا، وفكرة وطلب علم ولقاء إخوان في الله ـ جل ذكره ـ ثم ما لا بد له من حاجة البدن والمداومة على ذلك تدخل الجنة بغير حساب، وعلى قدر تخلل البطالة تكون التبعات إلا بحكم العفو، فافهم.

فصل

إن كان يسمى باسم الدهر ما عدا ما لا أول له ولا آخر، الذي هو دوام بقاء الله الدائم الوجود، لا إلى أول ولا إلى آخر، فكما يسمى أحدنا بعلي وعزيز وكريم وحليم ورحيم ونحو ذلك مما أباح من أسمائه التسمي، وأوجب به التحلي أو ندب إليه من ذلك، وقد قال بعض المتقدمين: الزمان مدة دوران الفلك، والدهر هو مدة فعل الله ـ جل ذكره ـ وفعل الله دون زمان ولا انتظار فيه لمرتقبه ولا تطويل في مدة، قال الله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾[الحج]، وقال: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾[المعارج]، أي: مما نعده نحن أنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا، وقد أعطى عباده في الجنة من هذا ما شاءه وهو تنعيم لهم، إنما الانتظار موجود في فعل من شمله حكم الزمان، فإن الانتظار والتمني دون معالجة المنى عذاب، ولا يكون ذلك لأهل السماوات ولا لأهل الجنة إلا أن يكونوا، إنما يشغلون عن ذلك بما يسلبهم عنه، فلا يجدون فقد ذلك؛ لأن ذلك من الحكم يجري عليهم بأزمته، أو ما يعبر عنه فيما هذا هنالك من عبارات قد أظلتها بركة الدهر، كيف لا وإنما هم ميسرون إلا أن يريدوا ما ليس بكائن، فقطعهم الآباد لذلك بغير سآمة.

فصل

اختلف سلفنا ـ رضي الله عنا وعنهم ـ في بقاء الباقي على ثلاثة أقوال، فبعضهم قال: إن الباقي باق بنفسه، وقال آخرون: هو باق ببقاء، وقال آخرون: البقاء شرط وليس من قبيل العلل، ومعنى قولهم هذا: هو كما قلنا في الحياة إنما شرط في كون العالم عالما، والقادر قادرا، وهذا وجه يضعف؛ إذ يلزم منه أن يكون البقاء موجودا وإن لم يكن

الباقي باقيا، كما يصح وجود الحياة بالحي وإن لم يكن عالما ولا قادرا؛ ولكن أرادوا بقولهم: البقاء شرط في كون الباقي باقيا، إن دوام وجود الباقي يتضمن وجود البقاء، وما تضمن حصوله شيء لا يصح حصوله مع عدم ما تضمنه، كالعلم لما كان يتضمن وجود الحياة لم يصح وجوده مع عدمها، ويصح مع هذا إبقاء الأعراض ببقاء لا يوجد بها، وإنما يوجد بمحلها ببقاء يجدد لها خارجا عنها، غير موجود بها ولا محمول فيها أو بها.

وأما قول من قال: إنه باق لنفسه؛ فمعناه: إخبار عن دوام وجوده فقط، أي: هو موجود لم يزل ولا يزال ولا يلزم عليه اعتراض من اعترض فقال: لو كان ما قلته صحيحا لكانت ذاته بقاء؛ لأن معنى قوله: إنه باق لنفسه، أي: لم يوجد به معنى سواه يكون به باقيا، وأما معنى قول من قال: إنه باق ببقاء كقول السلف: إنه عالم بعلم، وقادر بقدرة، ومريد بإرادة، أي: أنه وصفاته باق ببقاء موجود به كالعلم والإرادة والقدرة، ثم يرجع القول إلى أنه يستحق هذه الصفات لنفسه، وكل صفة نفسية لا يوجد إثباتها إثبات تكثير في ذات الموصوف، فأما القول فيه: بأنه عالم قادر حي مريد لا يرجع إلى غير الذات، والمفهوم في تغاير الصفات إثبات حقائقها فحسب، فالمحصول من الأقوال الثلاثة أنه دائم البقاء متوالي الوجود آزلًا وأبدًا، لا عن أول ولا إلى نهاية.

والمفهوم عن دوام البقاء وتوالي الوجود هو الدهر، وقد جاء أن رسول الله ﷺ كان من قوله: «سبحان الدهر الداهر»[(١)].

فالدهر: هو المعهود من توالي وجوده هو الدهر وديمومة بقائه، والداهر: عبارة عن إحداثه الدهر على أحد الوجوه التي تقدم ذكرها، وقد يكون معنى قوله: الدهر الداهر كما يقال: الأحد الواحد، وهو الدهر وهو الداهر، ثم يصلح الاعتقاد في قوله: الداهر أنه بمعنى: دهر الداهر، كما يقال في اسمه الواحد: إنه وحد الواحد، وأوحد الواحد.

فصل

قد تقدم القول في تداور الدوائر طبقا فوق طبق، وأن الأعلى ينتظم الأسفل، كلها ترجع إلى ما هو أعلى عن سماء، وهو الدائر المحيط الذي هو دون العرش العظيم وهو منزل الأمر فيه، يسبح كل ما دونه من دائر، وبقي الكلام على تداور الحساب المشاهد في تداور الشمس والقمر من المغرب إلى المشرق بالتقدير ونزول المنازل، قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهو الحق تداورهما

(١) رواه أبو عبيد في فضائله (٣٤٦).

بالأمر الذي سخرهما به، وهو ما سيبينه الحق المبين في الدار الآخرة ﷻ، ثم قال جل قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس] أي: أن الشمس والقمر تفصيل بعض من جملة.

وقد يتوجه إليه قوله سبحانه وله الحمد: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج]؛ إذ يوم تداور المياه هو أربعة عشر يوما، ويوم تداور القمر في ثمانية وعشرين يوما، ويوم عطارد ثلاثة أشهر وستة أيام، ويوم الزهرة ثمانية أشهر وستة أيام، ثم الشمس ويومها سنة، ثم يوم المريخ خمسة وعشرون شهرا، ثم يوم المشترى اثنتا عشرة سنة، ثم يوم المقابل؛ وهو زحل ثلاثون سنة على سبيل التقريب في ذلك كله، ثم ربما صعد النظر في ذلك إلى يوم مقداره خمسون ألف سنة، والله أعلم أي دائرة هي؟! فإن ما ههنا آية على ما هنالك.

التعبد

لا يخلو اسم الدهر أن يكون عبارة عن توالي وجود الملك الحق تبارك اسمه وتعالى جده، فقد تسمى بما هو بقاء له وبقاؤه صفة من صفاته، وإلى هذا ـ والله أعلم ـ يتوجه قول رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله**»[1]، أو يكون اسم الدهر عبارة عن مدة فعله ـ جل ثناؤه ـ كما اسم الزمان عبارة عن مدة دوران الفلك، فالفعل من صفاتها أيضا، أو يكون عبارة عن مفعوله الموصوف بالبقاء وإن كان مستفتح الوجود، أو كان مما يظن به ذلك لتأخر فنائه وتراخي عدمه، فهو أيضا مفعول له ومن سب مفعولا ما لفاعل حكيم لأمر كرهه منه، فإنما سب الفاعل؛ إذ هو القاصد لما وجد منه، ولما في ذلك من المكروه قال الله جل قوله: «**يسبني ابن آدم ولم يكن له ذلك**»[2]، وفي أخرى: «**يسب ابن آدم الدهر، وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره**»[3].

فلذلك ـ وفقك الله ـ فجانب الاعتراض عن القدر جملة، ولا تتبرم لمكروه أتى به، ولا تقولن لشيء قد كان: لم كان هكذا؟ ولا لشيء لم يكن: هلا كان هكذا؟ وقل: لم يقدر وهكذا قدر، وكذلك كان رسول الله ﷺ يفعل.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الحديث رواه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٣)، وفي التفسير (٤٩٧٤، ٤٩٧٥)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٢٧٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٩٨، ٦٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «شتمني» بدلا من «يسبني».

(٣) سبق تخريجه.

وفي الأدب أن الجاهل يذم غيره ويمدح نفسه، والأديب يذم نفسه ويمدح غيره، والعارف لا يذم أحدًا ولا يمدحه، إنما هو القدر لا غير، يقول: قدر الله وما شاء فعل، وعليك بملازمة السنة ومصاحبة الأيام والشهور والسنين بالموادعة وابتغاء مرضاة ربك، وإياك وما أحدثته عبدة الشمس والقمر، والكواكب من الأعياد من نيروز ومهرجان وغير ذلك، فإن الله ﷻ قد أبدل المسلمين من ذلك كله بعيدين: عيد الأضحى وعيد الفطر، ويوم عاشوراء قد يلحق بهما في الصوم، والتوسعة على النفس والعيال والفقراء، ولا تعظم أياما لم يأذن الله بتعظيمها، وكذلك ما أحدثه بعض الأعاجم في شهورهم، عليك بالحنيفية السمحة دين إبراهيم: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[آل عمران].

واعلم أن الله ـ جل ذكره ـ إنما يكون للعبد في حياته وبعد موته، كما كان العبد لربه بعد بعثه من نومه إلا ما استثنى من ذلك حكم الجود والفضل، فانظر إلى أي حال تنبعث إليها بعد نومك؛ فإن الله تبارك وتعالى ينزلك بعد موتك وبعد بعثك حسب ما أنزلته من قلبك في الدنيا، فإن كنت له مكرما ولحرماته معظما، وإلى محبته وطلب مرضاته مسارعا؛ كان الله لك في الآخرة لوجهك مكرما ولشأنك معظما، وإلى مسرتك من النعيم المقيم مسارعا وبالضد، وشواهد هذا في الكتاب العزيز كثيرة من أنه لا يجعل المفسدين كالمصلحين، وأن جزاء الإحسان الإحسان ونحو هذا، بل قد نص على أن حالهم في العاجلة سواء محياهم ومماتهم، وعبر عن هذا بغير ما عبارة وإنما يتذكر أولو الألباب، فاحرص على أن تكون منهم؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله من قلبه**»[1]، ذلك بأن الله ينزل عبده عنده بحيث أنزله العبد من نفسه، ومتى كان العبد على ما ذكرناه فنام على طهارة وذكر وتحقيق مشاهدة كان مضجعه مسجدا، أو يكتب مصليا حتى يستيقظ، وهو الذي يدخل في شعاره ملك كلما تحرك في نومه أو انتبه، فذكر الله دعا له الملك واستغفر له وإن دام على النوم حتى يصبح حسب ليله قائما وكان نومه عليه صدقة، ومن كان هذا وصفه في منامه سبق العباد في قيامهم عن غفلة وسهو، فقد جاء: إن نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح، وذكر أن بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أوحى الله إليه: كيف تؤدي شكر نعمتي ولي عليك في كل شعرة نعمتان، وإن لينت أصلها وأن طمنت رأسها.

(١) رواه الحاكم (١/ ٤٩٤، ٤٩٥) من حديث جابر رضي الله عنه وتعقبه الذهبي بقوله: عمر بن عبد الله مولى غفرة ضعيف.

وذكر عن بعض العارفين أنه قال: أحصيت من نعم الله ﷻ علي في يوم واحد أربعة وعشرين ألف نعمة، قيل له: كيف؟ قال: حسبت أنفاسي في اليوم والليلة فوجدتها أربعة وعشرين ألف نفس، وصدق رحمة الله علينا وعليه.

وما ذكره بعض العلماء أكثر من هذا، قال: إن في اليوم والليلة أربعا وعشرين ساعة، في كل ساعة اثنتا عشرة دقيقة، وفي كل دقيقة اثنتا عشرة شعيرة، وفي كل شعيرة اثنا عشرة نفسا، المحصل من ذلك في الساعة الزمانية ألف نفس وستمائة وثمانية وسبعون نفسا، هذا أو ما تحققه الحساب على مقاربة هذا.

وذكر أن الطرفة نصف النفس، إذ النفس يتحصل إلى قبض ودفع، فعدد الطرفات على ضعفي الأنفاس، وقال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أكثر من ذلك ولا أقل**»[1]، فعداد النعم على العبد في هذا النوع الواحد على ضعفي ما تقدم من العدد على تعداد الأنفاس، ثم تتضاعف النعم في الطرفات من جهة تعم النفع والدفع، وهي النعم الظاهرة والباطنة، وهذا تضعيف زائد على ما تقدم، ثم أبعاض الطرفات، فهو معنى قول رسول الله ﷺ: «**طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر**»[2]، وهو قول الله جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، في كل نوع وعلى كل حال.

فيا سبحان الله ما أعظم الخطر وأجل الوزر، والله إنا لنخاف من إهمالنا أنفسنا وعظيم غفلتنا عما حاق بنا من تقصيرنا عن أداء الواجب علينا، أن نكون ممن ﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾[إبراهيم]، لولا الرجاء في سعة رحمة الله وكريم عفوه؛ لكان القنوط لا غيره، والله المستعان على رعاية أوامره وأداء واجبه.

فصل في التعبد

اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن أفضل ما يستعين به المريد على استصحاب التذكار ومدافعة الغفلة؛ مراعاة الأوقات قبل فوتها، وذلك ليس بتمني مكان غير المكان الذي هو فيه، ولا بانتظار وقت غير الوقت الذي يحويه، ولا يتوقع حال غير الحال الذي يليه،

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٢)، وأبو داود في الأدب (٥٠٩٠) من حديث أبي بكرة ﷺ، ورواه النسائي في الكبرى (١٠٣٣٠)، والبيهقي في الشعب (٧٦٠، ٧٦١)، والحاكم (١/ ٥٤٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ بدون لفظ: «ولا أكثر من ذلك ولا أقل»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع وسنن أبي داود.

(٢) هو الحديث السابق.

إنما هو صوم يومك، أو قيام ليلتك، أو ذكر ساعتك، أو جمع أشتات قلبك، أو قطع لأثرك عند تبرمك؛ ويكون ذلك غض طرف، وصون سمع، وكف يد، وحبس قدم، وصمتا عن كلمة دنية، ونية ذميمة، وعقد نية محمودة، وتجديد توبة وإعمال قلب في تحقيق فكرة، وإخراج سوء ظن، ودفع خاطر خبيث، واعتقاد حسن ظن، ونية استقامة، وصحة عزم في قصد، وتسبب إلى ما يقوي العزم، وهذا كله يكون في الوقت وتحدثه في الحال، ولا يسوف فيه ولا ينتظر به، ولا يتوقعه في وقت ثان ولا تؤخره إلى زمان دون وقته، ولا يتربص به مكانا دون مكانه، هذا هو التدارك لأوقات خشية الفوت، وما سوى هذا فهو نفس التسويف والتمني، والانتظار والتراخي، وهي جنود إبليس لعنه الله.

وكما يقلب الله الليل والنهار كذلك يقلب الأنفاس في قصر مددها بخواطر القلوب؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «**لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر**»[(١)]، وليعلم المريد أن عمره كله يوم، وأن يومه كله ساعة، وأن ساعته ووقته آنه وآنه ذلك حاله، وحاله قلبه، فيأخذ من حاله لقلبه ما يقربه إلى مقلبه بنهاية علمه، وليعمل أفضل من ذلك أدله عليه علمه مما يحب أن يفاجئه الموت عليه، فيكون ذلك خاتمة عمله الذي يلقى ربه عليه؛ فعلى هذا يكون مراعيا لوقته محافظا على حاله، قائما على قلبه جامعا له محصيا لأنفاسه، مراقبا لرقيبه محاسبا لحسيبه، لا يخرج نفسا في أدنى وقت إلا في ذكر مذكور، أو شكر منعم، أو صبر في محنة عتيدة، أو رضا عند مشقة شديدة؛ ويكون في ذلك كله ناظرا إلى الرقيب مصغيا إلى القريب، لا ينظر إلا إليه ولا يعكف إلا عليه، فهذا هو الذي أعطى من طيب الحياة بغير حساب، وكشف له عن قلبه الحجاب، فكانت المعرفة مقامه وقصرت عليه شهوره وأيامه، فكان قلبه واحدا لواحد، ومن عمل هذا كان من صديقي الأبدال، ومن علم هذا علم يقين كان من الصالحين، ومن آمن به ولم يشك فيه لأنه إيمان تصديق فهو من الموقنين، ومن شهد منه حال شهادة فكان له منه مطالعات وعادات فهو من الذاكرين، وجميع هذا الجمعة مقامان، من أقيم في أحدهما أجمع له ذلك استقامة في توبة وعمل يعمل، فمن كان مقامه التوبة وحاله الاستقامة رفع وجمع له ما ذكرناه من المراقبة والمشاهدة فهذا يكون عبد الله المخلص في صحبته أيامه ودهره ولياليه، لا جعل الله حظنا من صفاتهم وصفهم،

(١) هو الحديث السابق.

ولا من اللحاق بهم معرفتهم، وجعلنا منهم وفيهم ومعهم، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشورى].

اسمه ذو الطول ﷻ

الطول: الوسع، وهو مأخوذ من الطول، وعلى التحقيق والطول مأخوذ منه، يقال من ذلك: طالني الشيء يطولني، أي: عزني وامتنع مني، وهو بمعنى الإدراك والوجد، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾[النساء:٢٥]، يقول وهو أعلم بما ينزل: فمن لم يكن له وجد وغنى يلحق به مهور المحصنات الحرائر والقيام بهن، فلينكح الإماء المؤمنات، وكل ما يوصف بالطول فهو مدرك له، والصفات لا توصف بالطول ولا بضده، والطول إذا في الصفات، والطول في ذوات المقادير والمساحات، وقد يكون الطول معناه الإحسان والتكرم والاقتدار ورفعة القدر، من ذلك قولهم: فلان له طول عميم، وفلان متطول، أي: متكرم متفضل ذو وسع، بذلك جمع هذا كله قوله جل قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[غافر:٣].

اسمه الواسع، واسمه الجامع جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

الوسع: الإحاطة، ومنه أخذ السعة، وقد تقدم نظير هذا، فالوسع في الصفات والسعة في الممسوحات والمجسمات، وهو الذي وسع كل شيء رحمة وجودا، ووسعت أسماؤه كل شيء، وصفاته كل وصف، وكلماته كل كائن، وكل سعة وإن عظمت فلها نهاية، ووسعه جل وتعالى لا نهاية له، وكلماته وصفاته لا أمد لها ولا آخر؛ لأن كل سعة لا تنتهي إلى أخرى الزيادة عليها متصورة.

جمع إلى المثل الأعلى جميع الأسماء الحسنى والصفات الكاملة، الحق العلي هو الجامع علمه وقدرته ومشيئته كل كائن في الأولى والأخرى إلى ما لا نهاية له ولا مدى، وكل ما لا يكون أبد الآبدين، ثم جمع ذلك كتابا في اللوح المحفوظ، ثم جمع الخليقة كلها في واحد جامع جعله عبدا له، متذللا لعزته، قانتا له، خاشعا لعظمته متصاغرا لكبريائه، جمع كل مذكور كائن فيه، وكل معلوم موجود، وكل ذرة من أبعاضه على ذكره وتسبيحه وتحميده، جمع منه ما كان وما يكون في سابق علمه، ثم في تقديره، ثم جمع ذلك كله مظهرا كلا على توبته وأوليته من الدهر من حال، ومتى؟ وكيف؟ وأين؟ ولم لا يكون؟ ولم يكون؟ بتوابع ذلك كله وأحواله، ثم جمعه في التقليب والتدبير من إعدام وإيجاد وبداية وإعادة، هو جامع الناس ليوم لا ريب فيه، ثم هو ذا جامعهم في دار

القرار، جامع الخير كله بحذافيره لأوليائه في الجنة، وجامع الشر كله لأعدائه في النار، هو الجامع الحق جل جلاله وتعالىٰ علاؤه وشأنه بين المتباينات المؤلف بين المتضادات، وتلك آيته على أنه القادر على الجمع بين الضدين، إذا شاء وسع كل شيء رحمة وقدرة وعلما ومشيئة، هو الواسع العليم الجامع للخير كله، لا إله إلا هو رب كل شيء ومليكه، خالق كل شيء ومبدعه، الحي القيوم، القائم على كل شيء المحيط به من ورائه، محيي الموتى ومميت الأحياء، بيده خزائن كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود:١٢٣].

التعبد

قد ظهر لك إن كنت فهمت جمعه ـ جل ذكره ـ الأسماء الحسنى والصفات العليا والمحامد كلها، والثناء الحسن أجمعه له الكلمات التامات والسبحات الرفيعات، فأجهد نفسك على حسن الائتمام به؛ فإنه أقرب الأعمال وأقصر السبل، قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[البقرة:٢٨]، أي: ادخلوا في السلم لله ﷻ جميع صفاتكم ومعانيكم وأهوائكم، فالسلم والسلام جمع، وخطوات الشيطان وجميع المعاصي تفرقة وتشتت، فاجمع له بين ظاهرك وباطنك في طلب رضاه، وبين قولك وفعلك، وبين علمك وعملك، وبين عبادتك ونيتك في وجهتك إليه، ومن معرفته وحسن السيرة فيما بينك وبينه.

واجهد أن تجمع بين البصر والبصيرة، فذلك متعذر على الأكثرين جدا، وهو من الكمال، والكمال قليل وجوده لاسيما في العبادة، وكذلك الجامع من جمع الله ﷻ له بين الحفظ والفهم، وبين الفهم والفطنة، وبين الفطنة والشعر، وبين الشعر والإلهام، فارغب إليه في جميع ذلك: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[آل عمران:١٣]، وتفرغ وتعرض لنفحات ربك جل ذكره وهداياه، وارغب إليه بفراغ من قلبك، وجد من عزمك، واتل كتاب ربك حرفا حرفا، وأحضر ذلك قلبك، واجمع منتشر باطنك، وأكثر من التذكر وواظب التفكر، وتمم بالعبرة إلى المطلوب، واجمع بينهما؛ فالتفكر والتذكر دون عبرة إلى المطلوب كالدعاء دون سؤال، وكالتطهير دون عمل.

وعلى القول بالإجمال كن لربك بك كلك يكن لك بكل كله، فمطلوبك هو العلي الكبير الأعلى وسع كل شيء رحمة وعلما وقدرة ومشيئة، منه ابتداء كل شيء وإليه عوده، جمع الخلائق كلهم في قبضته، وأخبر بجميع ما أوجدهم له من عمل ورزق

وأجل وشقاوة وسعادة بكلمته، وسطر جميع الكائنات في كتابه، وكل ذلك عليه يسير، وهو على كل شيء قدير، أظهر الكائنات بعد إبطانه إياها بقدرته، وقسم لكل حظه، وقسمه في المقدور المسطور من وجود، جعل ما أظهر دلائل على ما غيبه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، ولا كوجوده وجود.

ألا إنــــا كلنــــا بائـــد	وأي بنـــي آدم خالـــد
وبـدؤهم كـان مـن ربهـم	وكـل إلى ربـه عائـد
فيـا عجبـا كيـف يعـصى الإلـه	أم كيـف يجحـده الجاحـد
وفي كـل شيء آيـة	تـدل عـلى أنـه واحـد
ولله في كـل تحريكـة	وتـسكينة في الـورى شـاهد

قال الله جل من قائل: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۝٨﴾[طه].

وقال جل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[المجادلة:٧].

وقال جل وعز: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾[يونس]، فكما أن العدد لا يحصره مع حاصريه، كذلك المكان والزمان لا يحويانه مع مجالسته، وكما أن شكل المجالس والمحاضر ليس بنعت له، كذلك الحكام لحدوث لا يبلغ إليه حكمه يقول الله جل قوله: «أنا جليس من ذكرني، وحيثما طلبني عبدي وجدني له»(١).

من ذلك كله حقيقة الحق والأحوال بما هي لا تحول به عليه، وكما يتنزل ﷻ في المخاطبة إلى الأفهام، كذلك يتنزل بالحق يوم الوعيد إلى الرؤية للأنام، بل وجوده عز جلاله في حيث شاء حقيقته، وكأنه حيث يشاء مشيئته وعلوه علاؤه، وزمانه استمرار دوامه وتوالي قدم بقائه، دون بداية ولا نهاية، ولا رجوع آخر على أول أزلا وأبدا لا إلى

---

(١) سبق تخريجه.

غاية بقائه صفته ودوام بقائه توالي دوامه، وصفة علمه صفة له غير مفارق له وعلمه أيضا مشهوده وهي مصنوعاته، وجميع ما كونه وقدره شهد ذلك كله شهودا كاملا لا مثوبة فيه، خلا أنها لم تكن مظهرة لأنفسها بادي بعضها لبعض، شهدها حال عدمها لأنفسها، وخصها بأكمل الحضور وأكمل المشاهدة قبل إيجاده إياها، بل غيبا حيث لا سواه موجود، سطع نور وجوده العلي فاتصل لا إلى نهاية، ثم أوجد حيث شاء من ذلك العرش والثرى وما بين ذلك، وهو العبد الكلي وجميعه في القدر كحبة خردلة إلى جميع ما أوجد كهيئة في قبضته، وهو العلي العظيم الجامع وذو الطول الواسع، لا بعد في دنوه، ولا حسن في وجوده، ولا إدراك لحضوره، ولا حيطة كحيطته.

الأشياء مبعدة بأوصافها، والبعد والقرب حكم مشيئته، والحجب والأستار متصلة بالمخلوقين، ليس كوجوده وجود ولا كوصفه وصف، ولا مثله شيء فيعرف بالتمثيل، ولا جنس له فيقاس على التجنيس، منفرد بنفسه متحد بوصفه، أحد الذات واحد الأسماء والصفات، لا تسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلا في أنور صفته، ولا يوجد إلا برحمته لقربه، ولا يعرف إلا بمشيئته لشهوده، ولا يرى إلا بنوره في هذه بالغيب وفي الآخرة بالمشاهدة، به تعرف المعارف لا بها يعرف، وبه تتحقق الأشياء لا بها يتحقق.

قد جمعنا لك أطراف الكلام حرصا على البيان، فاسمع لما خاطبناك به بسمع سامع، وافهم بقلب شاهد واسع نحوه بعزم وافر، وإياك والحيرة والإلحاد والنكوص عن التقدم إلى الفوز العظيم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[يوسف:٢١].

وقد أتينا بحمد الله فيما ذكرناه من الأسماء بما فيه تطريق إلى التعرف مما تركنا.

ولم يكن الغرض من ذلك التقصي؛ فالقدرة عن ذلك تعجز، والعلوم وإن اتسعت تضيق.

وعلى ذلك فإنا اقتصرنا الذكر على بعض المشهور من الأسماء، وهي المعلومة منها المحفوظة، وأسماء الله جل ذكره يعزب حصرها ويطول متابعة ذلك كتاب يزمها، فيبعد مع ذلك مطلبه ويعسر دركه، فمن تناهت به همته وصلحت لذلك نيته، وجد بما قدمناه لمطلبه مأخذا سهلا وسبيلا لما يبتغيه مسلوكا.

وليعلم قارئ كتابنا هذا أنه إن كان غرضه قراءة حروفه واستيفاء مسطوره؛ جريا إلى بلوغ أقصاه وتطلعا إلى مقدار علم واضعه ومنتهاه؛ فإن تلك سبيل قليلة الجدوى نزرة العناء؛ إذ لا يصح له من ذلك معلوم على الكشف، ولا يستثار تلك النية يقين من موصوف ولا وصف، لا حتى يستعمل فكره ويشحذ ذهنه، وأشغل بذلك عما عداه قلبه فيوالي بذلك بين الأفكار والإدراك، وليستصحب النظر والاعتبار آناء الليل والنهار، ثم الدعاء إلى منور القلوب بالنور في العصمة من الزيغ والميل والتسديد من المرضي من القول والعمل، وليجرد ذلك في مواقيت الصلوات وسدف الأسحار، عساه يلهمه الحق المبتغى، ويسلكه السبيل المرتضي؛ وليتفرغ لشأنه حتى يرى بقلبه ما يقرأ بلسانه، ويشاهد بعقله ما يرويه جنانه، وبعد هذا فتح الله مبين، وفضله جل ذكره لمن شاء له ذلك عظيم، فما أيسر العطف عليه والفتح، وليس ما ذكر في هذا الكتاب إلا تنشيطا للكسلان وتنبيها للوسنان، وإن كان والحمد لله إعلاما للشادين شافيا وخطابا للأياقظ كافيا.

والجد، الجد - رحمك الله جل ذكره - أجد إليك منك إليه، ومتى صدقته صدقك، ومحال في معهود كرمه وجميل وعده أن تريده ولا يريدك، وأن تطلبه بجد من عزمك وخالص من نيتك على سنن قويم، فلا تجده بثواب ذلك مليا وفيا، علمنا الله وإياك من علمه، وأجزل حظنا وحظك من معرفته، وأحسن عوننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده، وعلى جميع النبيين والمرسلين، وعلى الملائكة أجمعين وسلم أفضل صلاة وتسليم، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين

وآله الطيبين وصحابته الأكرمين

وسلم تسليما دائما إلى يوم الدين

عاقه لنفسه ولمن شاء الله من بعده الفقير الحقير، المعترف بالذنب والتقصير، الراجي عفو ربه القدير: حمزة بن صالح بن عمر الخزرجي نسبا، المصري بلدا، الشافعي مذهبا، غفران الله له ولوالديه ولمن قرأ فيه ودعا له ولوالديه بالرحمة آمين يا رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان الفراغ من تعليقه في ليلة حتى نورت الشمس

فهرس موضوعات الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

